مكتبة الدراسات الأدبية

١٤

الدكتور عيسى الناعوري

أدب المهجر



دار المعارف

أدب المهجرُ

مكتبة الدراسات الأدبيّة

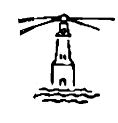
١٤

أدب المهجر

تأليف

الدكتور عيسى الناعورى

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

تحية

تحية عَطِرة . . . ولكنّني لا أستعير شذاها من عَرْف الورد والرّيحان فى حالية الرُّبى ؛ فحواسى الخمائل إلى ذبول ، وعطرُها إلى اضمحلال ، وإن كانت المادة لا تفنى فى هذه الحياة .

تحيَّة طيّبة . . . أستمدّها إذنْ من روضٍ خالدٍ لا يفنى زهره ، ولا يتلاشى أريجه ، هو روض الشّعور المترقرق الفوّاح فى آثار أدباء المهجر وشعـرائه ، وأبثّها عن لغة الضّاد كوكبة من أبناء الضّاد رفعوا لواءها عاليـاً مرفرفاً فى ديـار الغربة وراء البحار .

تحيَّة أجتزئ بها عن المقدّمة التى سألنيها أخى الناعورى ، ناسج بردة هذا السِّفْر النَّفيس الضّخْم ، فقد ألمَّ فى كتابه هذا بشوارد الموضوع وأوابده حتى لم يترك زيادةً لمستزيد ، فجاء مؤلَّفه مرجعاً ثميناً لادب أولئك الشّعراء والنَّاثرين ، وإن كنت لا أبرّئ المؤلِّف أحياناً قليلة من عين الرضى ونظرات الودّ والمحبَّة .

وكيف لا نحيّي أجمل تحيَّة إخواناً لنا طرحتهم قسوة الأقدار فى مطارح النوى ، فما شغلهم الكفاح فى سبيل الرّزق ، ولا ألهتهم أكاليل الفوز والنَّصر عن أن تظلّ قلوبهم مشدودة النّياط إلى الوطن الأول وأهله ولغته ، وأن يكونوا البلابل المغرّدة فوق أشجار عربيَّة فى مغارس أجنبيَّة ؛ فلو أنّ أقلامهم لم تَجْرِ إلا فى الحنين والذّوْد عن الوطن والزّهو بالقوميَّة العربيَّة والدّفاع عنها وهم فى تلك المضارب النائية لكفاحهم ذلك فخراً فى يوم الفخار ، على حين أنَّهم لم يستجيبوا فيه إلاّ لعاطفتهم الوطنيَّة الصّافية الخالصة .

وهم إلى هذا أصحاب رسالة جديدة فى الأدب ، بمعناه الإنسانىّ الواسع الشامل ، لم يحملوها معهم من بلادهم ليبثّوها فى غير بلادهم ، ولا كانت تلك الرسالة محدودة المعالم معيَّنة المذاهب معروفة الفلسفة ، فإنما حملوا معهم موهبتهم وعاطفتهم فعزفوا هناك على أوتارهما أرقّ الأصوات وأشجاها . وربَّما تأثَّر بعضهم

البيئة الجديدة ، وحلت فى سمعه أنغام مزاهرها فحاكاها بعض المحاكاة ، حتى استقامت لهم من ذلك كله رسالة عُرفوا بهـا واشتهر أمرها فتطلّع إليهـا شباب المشرق معجبين ، وطاب لفريق منهم أن يديروا خواطرهم فى فلكها الملألئ الوضّاح .

ولا جدال فى أنّ اللفظ والأسلوب هما من العناصر التى تتمّ بها صورة الأدب الجميل ، فلئن بدا لونهما خفىَّ الضّوء والظّلال فى أدب بعض أولئك النازحين إننا لنجدهما فى أدب بعضهم الآخر على ديباجة بحتريَّة متينة السَّبك مشرقة الفرند تمتّ إلى العربيَّة بنسبٍ كريم أصيل .

فمهما اختلفت الأحكام فى قيمة أدب المهجر ، ومهما تضاربت الأقوال فى مهابط وحيه ومحاسن آثاره ، فإنها لا بدّ مجتمعةٌ على ما يتجلّى فى ذلك الأدب من وثبات الفكر وسبحات الخيال وائتلاق العاطفة ورقة الشعور وحلو النَّغم ، وإنها لا بدّ معترفة أيضاً لذلك الأدب بتوفّره على استجلاء أغوار النَّفس البشريَّة حين تشقى وتسعد ، وحين تغنِّى وتصلّى ، وحين تتأمَّل آيات الطبيعة فتوحى إليها بكلّ جميلٍ فتَّان ، وتشعرها إذا ران عليها الشَّكّ بما وراء تلك الآيات من عظمة الخالق وجلال قدرته .

إن أدب المهجر أدب الحياة ، ولسوف يخلد على الزمان إلى جوار آدابنا القديمة والحديثة ، ويكون أدب كلّ عصر وأدب كلّ جيل من النَّاس ما دام فى جوانح الإنسان روحٌ حىّ وقلبٌ خفَّاق . . .

فسلام الله يا شعراء المهجر وأدباءه

سلام الله لا أرضى سـلامى فكلّ تحيَّـة دونَ المقـام

عادل الغضبان

مقدمة المؤلف

هذا الكتاب كان معداً للطبع منذ عام ١٩٥٢ ، بعد أن نُشرت جميع فصوله فى الصحف الأدبية ، وأذيع القسم الأكبر منها من محطات الإذاعة المختلفة . وإلى ذلك العام لم يكن قد صدر أى كتاب فى دراسة الأدب المهجرى دراسة عامة ، وإن كانت قد نشرت فى بعض الصحف مقالات قليلة متفرقة ، تدور حول عدد معين من الكتب المهجرية – ولا سيما مؤلفات جبران ، ونعيمه ، والريحانى ، وإيليا أبى ماضى ، وفوزى المعلوف ، والقروى – أو تبحث فى بعض القصائد المهجرية الجميلة ، كما فعل الدكتور محمد مندور فى كتابه « الميزان الجديد » ؛ وكان هناك عـــدد قليل من الكتب عن بعض هؤلاء الأدباء الكبار .

لقد كانت عدّة الدارسين إلى ذلك الحين محدودة جداً ، لأنه لم يكن يقع بين أيدى أدباء العرب فى الشرق من مؤلفات المهجـريين سوى ما طبع منها فى الشرق – كمؤلفات جبران ونعيمه والريحانى ، بشكل خاص – وكان الاعتماد فى معرفة الشعر المهجرى على المختارات الشعرية القليلة التى كان يحويها كتاب « بلاغة العرب فى القرن العشرين » لمحيي الدين رضا . وهذا الكتاب كان كل عدة الدكتور محمد مندور فى ما كتبه حول « الشعر المهموس » .

على ان من الإنصاف أن أستثنى ههنا الأستاذ وديع ديب ، فقد كان على صلة اوسع من سواه بأدب المهجر وأصحابه ، مما يسّر له ان يقدّم اطروحته الجامعية لدرجة الماجستير حول « الشعر العربى فى المهجر الأمريكى » . ولكن هذه الرسالة ظلّت مطوية بين أوراقه ، ولم يتح للقراء الاطلاع عليهـــا حتى عام ١٩٥٥ .

أما صلتى بأدباء المهجر فقد بدأت منذ عام ١٩٤٦ ، وكانت بينى وبين القسم الأكبر منهم مراسلات متصلة ، سواء فى المهجر الشمالى أم فى المهجر الجنوبى . وكانت تصل إلىّ باستمرار صحف مهجرية متعددة ، ولاسيما (السائح – والسمير –

ثم البيان بعد ذلك فى عهد صاحبها الأستاذ راجى الظاهر) فى الشمال ، و (العصبة ، والشرق ، ثم المواهب ، والعلم العربى ، والمراحل بعد ذلك) فى الجنوب . وكنت أنشر بعض مقالاتى وقصائدى فى تلك الصحف المهجرية .

أما الكتب المهجرية ودواوين الشعر المهجرى فقد أخذت تتوارد علىّ منذ بدء اتصالى بالمهجريين فى عام ١٩٤٦ ، حتى تجمّع لدىّ منها عدد ضخم ، لا أظن ان فى اى مكتبة فى العالم العربى عدداً يضاهيه من أدب المهجر . وكنت شديد الضن بهذه الهدايا النفيسة، وكثير الحفاظ عليها ، حتى إننى فى إبّان الثورة الفلسطينية (١٩٤٧ - ١٩٤٨) والمأساة الفلسطينية التى تلتها ، كنت أحمل جميع هذه الكتب معى من مكان إلى مكان ، ثم حملتها معى من القدس إلى عمان حينما وقعت المأساة ، على الرغم من أننى تركت فى منزلى فى القدس الجديدة كل شيء آخر مما أملكه من متاع الدنيا[١] .

ولم يحل التشرد دون استمرارى فى العكوف على تلك الكتب الثمينة أدرسها بعناية ، وأواصل نشر المقالات والأحاديث الإذاعية عنها ، حتى اجتمع لدىّ منها عدد ضخم ، جعلته ثلاثة أقسام ، الأول للدراسات التى تبحث فى الأدب المهجرى عامة ، من حيث نشأته وخصائصه ومميزاته ، وما إلى ذلك ؛ والثانى للدراسات الخاصة بأدباء المهجر الشمالى ومؤلفاتهم ؛ والثالث للدراسات الخاصة بأدباء المهجر الجنوبى ومؤلفاتهم .

وكنت منصرفاً إلى هذه الدراسات بحماسة شديدة ، وبشكل واسع ، حتى لقد عُرفت بهذا اللون من الدراسات الأدبية فى كل مكان ، عن طريق الإذاعات والصحف . وحتى رأيت الاهتمام بالأدب المهجرى ودراسته يتسع نطاقه ، ويجد صداه فى أوساط الأدب المختلفة فى الأقطار العربية . وكثيراً ما تلقيت رسائل كثيرة من القراء ، وأخرى من بعض طلبة الجامعات ، يسألوننى فى أمور متعددة تتعلق بأدب المهجر ، وعناوين أصحابه ، وبعضهم طلبوا الاطلاع على دراساتى

---

(١) أصبحت الآن هذه المكتبة المهجرية برمتها ، وكذلك مراسلاتى مع أدباء المهجر ، ملكاً لمكتبة الجامعة الأردنية منذ عام ١٩٦٤ .

هذه مجموعة ليستفيدوا منها في رسائل جامعية . ولم أبخل على احد منهم بالجواب الذى يرضيه ويسهل عمله .

وفى عام ١٩٥٠ وضعت كتاباً مدرسياً للأدب العربى الحديث – أعيد طبعه مرتين فى عام واحد ومراراً متعددة بعد ذلك – وجعلت فيه للأدب المهجرى فصلا خاصاً – ولم تكن الكتب المدرسية حينذاك تعنى به – . ومنذ ذلك الحين أصبح الأدب المهجرى يدرّس فى الأردن ، لا فى كتابى وحده ، بل فى مقررات للصفوف الإعدادية والثانوية الرسمية ، مهما كان الكتاب المخصص بها ، ويطالَب به الطلاب فى امتحان شهادة الدراسة الثانوية الأردنية ، وإن يكن العدد الذى يدرس من هؤلاء الأدباء لم يتجاوز ثلاثة من الناثرين ، هم (جبران ، والريحانى ونعيمه) وثلاثة من الشعراء هم (أبو ماضى ، والشاعر القروى ، وفوزى المعلوف) . وهكذا كنت أول من أدخل الأدب المهجرى فى كتب الدراسة فى مدارس الأردن ، وقد أقرت ذلك رسمياً وزارة المعارف الأردنية (وزارة التربية والتعليم بعدئذ) منذ عام ١٩٥١ .

أما صلاتى بأدباء المهجر فقد ظلت تزداد تمكناً حتى أصبح لدى مئات من رسائلهم ، كنت لا أزال أحتفظ بها معتزاً ، وأحافظ عليها محافظة شديدة حتى انتقلت إلى مكتبة الجامعة الأردنية عام ١٩٦٤ . وعن طريق هذه الرسائل عرفت الشيء الكثير عن أدباء المهجر وأدبهم ، كما استخلصت من كتبهم ودواوينهم عادة دراساتى الواسعة الشاملة ، فلم أرجع إلى أية مصادر سوى هذه الكتب والرسائل .

وفى عام ١٩٥٠ أصدرت كتاباً عن إيليا أبى ماضى ، اقتصرت فيه على دراسة شعره وحده . ثم أعيد طبع هذا الكتاب بعد وفاة الشاعر عام ١٩٥٧ ، بعد أن أضفت إليه فصولاً جديدة ، درست فيها حياته وآراء النقاد فيه ، وما إلى ذلك ، وقد نشر الكتاب فى طبعته الثانية فى (منشورات عويدات) ببيروت ، وهو الكتاب السادس من سلسلة المنشورات هذه .

وفى عام ١٩٥٥ أصدرت فى عمان كتاباً آخر عن الشاعر إلياس فرحات ، ظلّ الكتاب الوحيد الذى صدر عنه إلى أن أصدر الصديق سمير قطامى رسالته

للدكتوراه عنه وجعل عنوانها : « إلياس فرحات شاعر العرب فى المهجر »[١].

وقد درست فيه حياته وشعره ووطنيته بأوسع مدى استطعت أن أتوصل إليه . واعتمدت فى وضعه على دواوين الشاعر المطبوعة ، ومذكراته المخطوطة التى كنت أحتفظ بها ، وعلى رسائله إلىّ ، وهى تزيد على مائة رسالة ، منذ عام ١٩٤٧ إلى عام ١٩٦٤ . وكنت أعتزم المضى فى إعداد سلسلة بعنوان « أعلام الأدب المهجرى » ، واتفقت مع دار للنشر فى عمان على نشر السلسلة كلها ، غير أن الدار لم تلبث أن توقفت عن النشر بعد صدور كتابى عن فرحات ، فلم يقدّر للسلسلة أن تمضى فى طريقها المرسومة .

وحينما كنت أصدر مجلة « القلم الجديد » – وقد عاشت عاماً واحداً فقط ، وصدر منها اثنا عشر عدداً – كان آخر عدد أصدرته منها عدداً ممتازاً خاصاً بالأدب المهجرى ، واشترك فى تحريره عدد غير قليل من الشعراء والكتاب المهجريين . وفى ذلك العدد سجلت أكبر عدد ممكن من عناوين الأدباء المهجريين والصحف المهجرية ، لفائدة المهتمين بهذا الأدب وأصحابه . وكان هذا العدد – وقد صدر فى مطلع شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٥٣ – بعيد الأثر فى الأوساط الأدبية فى العالم العربى . وقد جعلته فى ٧٢ صفحة ، وزينته بصور لأدباء المهجر ، ولا سيما الذين أسهموا فى تحريره . وكان من أهمّ مواضيعه دراسة مطولة للأديب المهجرى نظير زيتون بعنوان « الأدب العربى فى البرازيل » ، كما كان فيه مقال عن « الأدب العربى فى إفريقيا السوداء » للأديب فهد إبراهيم .

هكذا كان اهتمامى منصرفاً ، على الأكثر ، إلى هذه الناحية – شبه المجهولة حينذاك – من الأدب العربى الحديث ، وليس لى من مرجع سوى مؤلفات الأدباء المهجريين ودواوينهم الشعرية ، وسوى رسائلهم الشخصية المتعددة ، والصحف التى أتلقاها باستمرار من ديار هجرتهم ، لأنه لم يكن قد سبقنى بعد أى أديب آخر إلى دراسة أدبهم دراسة شاملة واسعة . ولم أكن قد اطّلعت بعد – إلى عام

---

(١) صدر الكتاب عن دار المعارف بمصر فى سلسلة « مكتبة الدراسات الأدبية » عام ١٩٧١ فى ٣٤٨ صفحة .

١٩٤٦ - إلا على عدد ضئيل جداً من الكتب التى تبحث فى أدب بعضهم ، وأهم تلك الكتب - ولعله لم يكن هناك غيرها إلى ذلك العام - هى :

١ - جبران حيًّا وميتاً - لحبيب مسعود .

٢ - حياة جبران - لميخائيل نعيمه .

٣ - محاولات فى درس جبران - لأمين خالد .

٤ - جبران خليل جبران - للأب إلياس زغبى .

٥ - ذكرى فوزى المعلوف - لمجلة الضاد الحلبية .

٦ - فوزى المعلوف - للأب جبرائيل أبى سعدى .

٧ - إيليا أبو ماضى - لنجدة فتحى صفوة .

٨ - الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى - لأنيس الخورى المقدسى .

٩ - رسالة المنبر - لفليكس فارس (الدراسة المطولة عن جبران ونعيمه) .

أما الكتب التى تعنى بدراسة الأدب المهجرى بشىء من التفصيل والشمول فلم يظهر منها شىء قبل عام ١٩٥٥ ، فمن ذلك العام إلى عام ١٩٥٧ صدر أغلب الكتب والدراسات الشاملة فى هذا الموضوع ، عدا كتاب « ذكرى الهجرة » لتوفيق ضعون ، الذى صدر عام ١٩٤٧ ؛ وأصحابها هم :

١ - وديع ديب - الشعر العربى فى المهجر الأمريكى - ١٩٥٥ .

٢ - محمد عبد الغنى حسن - الشعر العربى فى المهجر - ١٩٥٥ .

٣ - نادرة السراج - شعراء الرابطة القلمية - ١٩٥٥ .

٤ - جورج صيدح - أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية - ١٩٥٦ .

٥ - البدوى الملثم - الناطقون بالضاد فى أمريكا الجنوبية - ١٩٥٦ .

٦ - محمد مصطفى هدارة - التجديد فى شعر المهجر - ١٩٥٧ .

٧ - إحسان عباس ومحمد نجم - الشعر العربى فى المهجر - ١٩٥٧ .

كما صدرت كذلك خلال هذه المدة كتب أخرى تبحث فى الأدب العربى الحديث ، وتتناول فى ما تتناوله نماذج وصوراً من شعر المهجر ؛ وصدرت كتب أخرى اقتصرت كل منها على دراسة أديب أو شاعر واحد من المهجريين .

ولقد اطلعت على تلك المؤلفات كلها بعد صدورها ، وعلى كل ما استطعت

أن أصل إليه من أبحاث ومقالات فى مختلف صحف الأدب فى الشرق العربى والمهجر ، وكنت أقارن بينها وبين دراساتى التى كانت جاهزة منذ عام ١٩٥٢ ؛ ولكننى لم أحاول أن أبدّل شيئاً مما كتبته انسياقاً وراء أحد أو تأثراً برأى أحد ، وكل ما غيرته فى هذه الدراسات حينما جلست أعيد النظر فيهـا للمرة الأخيرة ، بعد ان تلقيت عرض دار المعارف الزاهرة لنشرها ، هو أننى أشرت إلى من انتقل إلى رحمة الله من أدباء المهجر منذ عام ١٩٥٢ حتى نشر الكتاب ، وأضفت - حيث يجب ذلك - أسماء بعض المؤلفات التى صدرت لأدباء المهجر خلال هذه المدة . كما أننى أعدت ترتيب الفصول ، فقدمت فيها وأخرت ، وزدت واختصرت ، وأضفت بعض الفصول الجديدة التى كنت قد كتبتها بعد عام ١٩٥٢ ، وهى قليلة .

هذه هى قصة هذه الدراسات منذ بدايتها . ولقد كان يؤلمنى كثيراً ان أرى الكتب فى الأدب المهجرى تؤلف وتنشر حتى عام ١٩٥٧ ، ودراساتى المخطوطة يتراكم عليها الغبار فى خزائن كتبى ، فلا تجد طريقها إلى المطبعة . ولكننى - وأنا اعدّ نفسى رائداً فى هذا الموضوع - كنت أشعر أيضاً بكثير من السعادة إذ أرى ازدياد العناية بأدب المهجر ، وإقبال القرّاء عليه وكثرة الرسائل الجامعية التى كتبت فيه ونال عليها أصحابها درجات جامعية عالية ، لأننى كنت - وأنا أرى كل ذلك - أشعر بأن الطريق الذى اسهمت بجهد وافر فى تمهيده ، قد كثرت عليه الأقدام السائرة بثقة واطمئنان ، وبأن جزءًا غير قليل من جهادى الأدبى قد أثمر وافلح ، وان الفئة المهجرية المجاهدة فى حقول الأدب العربى الحديث ، والخدمة القومية والإنسانية ، وفى خدمة لغة الضاد العزيزة ، قد لقيت من التقدير والإعجاب والاهتمام الحظ الذى كنت أريده لها .

وكان من حرص دار المعارف وحرصى على أن يظلّ الكتاب أحدث مرجع واوفاه فى كل طبعاته ، أن أعدت النظر فى الكتاب عند إعداده للطبعة الثانية ؛ فأضفت إليه ما جدّ بين الطبعتين من وفاة بعض الأدباء المهجريين ، أو عودة بعضهم إلى الوطن ، أو صدور بعض المؤلفات المهجرية الجديدة .

وكذلك فعلتُ فى إعداد الكتاب لهذه الطبعة الثالثة ، فقد حذفت منه كلّ

ما وجدت فيه تكراراً ، أو تعبيراً إنشائيًّا فقط ، وحرصت على إضافة كلّ ما جدّ في الأدب المهجرى منذ صدور الطبعة الثانية عام ١٩٦٧ حتى شهر نيسـان عام ١٩٧٥ ؛ وقد جدّ الشيء الكثير الذى يجدر بالقـارئ معرفته . وبهذا يظلّ كتابى هذا محتفظاً بجدّته وشموله وحداثة معلوماته فى كل طبعة من طبعاته .

وجدير بالذكر أن الأدب المهجرى قد أصبح الآن جزءًا من التاريخ ، على الرغم من وجود عدد من أهم بناته على قيد الحياة إلى اليوم ، ولكنه فقد زهوته وجدّته ومجده ، وأخذ ينطفئ شيئاً فشيئاً ، ويوشك أن ينطفئ نهائيًّا ، ومن يفيد أى جهد فى إطالة عمره .

ولعله ما كان يقدّر لهذه الدراسات أن تعرف طريقها إلى المطبعة لولا فضل دار المعارف الزاهرة فى مصر ، وفضل الأخ الوفى المرحوم الأستاذ عادل الغضبان ، الذى ما كاد يطّلع عليها فى منزلى فى عمان عام ١٩٥٨ حتى راح يبذل المسعى الكريم ليخرجها إلى النور . وقد أسدى إلىّ بذلك ، هو ودار المعارف ، وأسديا إلى لغة الضاد وأدبها الحديث ، فضلا كبيراً ، لا يسعنى معه إلا أن أسجّل لهما فى ختام هذه المقدمة أعمق الشكر عليه .

الدكتور عيسى الناعورى

عمان فى ١ / ٤ / ١٩٦٦ .

القسم الأول

الدراسات العامة

الفصل الأول

١ – نشأة الأدب المهجرى واتجاهاته

منذ أواخر القرن التاسع عشر ، شرعت تنزح إلى بلاد كولمبوس جماعات من أبناء البلاد العربية ، ولا سيما من لبنان وسوريا . بعضها هرباً من جور الأتراك وبعضها انتجاعاً للرزق ، والبعض الثالث للسببين معاً . وبين تلك الجماعات المهاجرة كانت طائفة من الشبان الذين كانت تتوقد بين جوانحهم قلوب متوثبة للحرية ، وفى رؤوسهم آفاق رحاب من الفكر النيّر والخيال الخصيب . أولئك كانوا من الرعيل المثقف الواعى ، الذى عزّ عليه أن يعيش أسيراً للظلم والعوز ، فانطلق يبحث عن الحرية والاكتفاء .

ينقسم هؤلاء الأدباء المهجريون إلى فئتين : فئة المهجر الشمالى ، أى الولايات المتحدة الأمريكية ، وفئة المهجر الجنوبى ، وعلى الأخص البرازيل . ولكل منهما خصائص ومميزات – منها الأصيل ومنها المكتسب – قد تتفق أحياناً مع خصائص الأخرى ومميزاتها ، وقد تختلف احياناً اخرى . وقد ظهرت الفئتان فى وقت واحد ، أو فى فترة متقاربة جدًّا ، تبدأ منذ أوائل هذا القرن العشرين ، وتظهر بوضوح منذ الحرب الكونيّة الأولى على الأخص ، وأسهمت كل منهما فى تكوين المدرسة المهجرية الأدبية ، وتركت كل منهما أثرها فيها .

غير أنه لا بدّ لنا من القول إن فئة المهجر الشمالى – على قلة عددها – كانت أبعد أثراً من فئة الجنوب . وعلى الرغم من أن الذين ظهروا فى الميدان الأدبى بقوة من مهاجرى الجنوب ، وذاعت آدابهم فى العالم العربى ، كانوا فئة قليلة ، فإن مهاجرى الشمال – والذين تفوّقوا منهم أيضاً كانوا فئة قليلة كذلك – كانوا أبرز أثراً ، وأوسع آفاقاً ، وأعمق إحساساً بإنسانية الأدب والشعر ، وصلتهما بالحياة الإنسانية ، وبالإنسان ، لقد كانوا فى أدبهم متحررين من كل تأثير قديم فى الفهم وفى الإنتاج ، فظهر أثر هذا التحرر فى أدبهم ، مما طبعه بطابع متميّز فى حريته وسعته .

ويؤكد هذه الحرية ميخائيل نعيمه فى محاضرة له باللغة الإنكليزية ، نشرت مترجمة إلى العربية فى مجلة (المراحل) فى البرازيل ، فى العدد (١٥٩) السنة (١٥) تشرين الأول ١٩٦٩ ، فيقول :

« لا بد فى النهاية من التنويه بعامل كبير من العوامل التى ساعدت على نشر رسالة الرابطة ؛ ذلك العامل هو مناخ الحرية الذى هيأته لنا أمريكا : فى ذلك المناخ كان فى مستطاعنا أن نفكرّ وأن نتنفس بحرية ، وأن نعبر عن ذواتنا من دون أن يخالجنا أى خوف من محاسبة لاهوتىّ متزمت ، أو فكر جافّ كلّ بضاعته الأدبية قواعد الصرف والنحو لا غير.

أما الجنوبيون فقد ظلّ أغلبهم يجرى على سنن المحافظين فى الشرق ، ويرى رأيهم فى وجوب المحافظة على الديباجة العربية البليغة ، وعلى الجزالة اللفظية ، وقواعد اللغة والعروض والبلاغة . ولكن بينهم من تحرروا من ذلك فتميز إنتاجهم بالجمال والقوة ، لأنهم انطلقوا فيه على سجاياهم إلى حدّ بعيد ، وأغلب إنتاج هؤلاء شعرىّ . وأما النثر فى ما اشتهر من أدب الجنوب فى أقطار الشرق العربى فحظه ضئيل جداً بالنسبة إلى الشعر ، اللهم إلا فى صحف الأدب ؛ وهى كثيرة .

لقد لمعت فى المهجر الشمالى أسماء جبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وعبد المسيح حداد ، وندرة حداد ، ووليم كاتسفليس ، والريحانى ، وأمين مشرق ، ومسعود سماحة ، ونعمة الحاج . والثمانية الأولون هم من أعضاء « الرابطة القلمية » التى أنشئت فى نيويورك عام ١٩٢٠ ، برئاسة جبران وسكرتيرية نعيمه . فهؤلاء سرعان ما انتشر إنتاجهم الأدبى فى الشعر والنثر على السواء ، فى المهاجر وفى الوطن ، وأقبل الناس فى العالَمين : القديم والجديد ، على الارتشاف من مناهله الثرّة ، وعلى تقليده لما رأوا فيه من حيوية دافقة مدهشة . وسرعان ما انتشرت عدوى تقليد الأدب المهجرى فى الشرق وبذلك كان له أعظم الأثر فى صرف الأقلام عن وجهتها الأولى فى اتّباع الأساليب القديمة ، إلى الاهتمام بخلق الشخصية المتميزة فى كل إنتاج أدبى قوى .

ولقد ضرب أدباء المهجر الشمالى فى أكثر الفنون الأدبية ، وجاءوا فيها بأفانين عجاب ، وشقّوا فيها طرقاً وفنوناً جديدة ، حتى لتعدّ مؤلفات بعضهم أحداثاً لها

قيمتها الكبرى فى حياة النهضة الأدبية الحاضرة فى الشرق العربى . لقد نظموا الشعر فتفوقوا فيه ، وأبدعوا فى نظمه وانتقاء مواضيعه وقوالبه ، وكتبوا نثراً عاطفياً وتصويرياً واجتماعياً ، فكان نثرهم شعراً رائعاً ساحراً ؛ وكتبوا فى القصة فكانت أقاصيصهم ورواياتهم من أجود ما عرفه الأدب العربى فى فن القصة حتى عهد كتابتها . وقد نهج أغلبهم فى آدابهم النهج الفلسفى ، فكان أدب جبران وأبى ماضى والريحانى ونعيمه ونسيب عريضة – هؤلاء خاصة – يتميز بنزعته الفلسفية ، الروحية أو الاجتماعية ، أو كلتيهما معاً ؛ وإنتاجهم الأدبى بمناحيه المختلفة قد ترك أثره البعيد فى حياة الأدب العربى الحديث ، ويكفيه فضلا أنه فتح الطريق أمام الأقلام الشرقية لتنتج إنتاجاً متحرّراً خصباً ، لا يستعبده التقليد ، ولا يستهويه إلا التطلع إلى الأمام ، حيث الآفاق الرحاب تسطع على هاماتها أشعة الفجر الجديد .

اما المهجر الجنوبى فقد اقتصر أشهر ما ذاع منه على الشعر . وتختلف مواضيع هذا الشعر : ففيه القومى والوجدانى ، والأسطورى والاجتماعى ؛ وفيه فلتات من الشعر الروحى يظهر فى بعضها أثر جبران ونعيمه . ومن أشهر ما عرف من الشعر القومى قصائد الشاعر القروى وإلياس طعمه (أبى الفضل الوليد) : وفرحات ، وعقل الجرّ ، وجورج صيدح ، وجورج الكعدى ، ونصر سمعان ؛ ومن الشعر الوجدانى قصائد لفوزى المعلوف ، وشفيق المعلوف ، والقروى ، ورياض المعلوف ، وإلياس فرحات ، ونصر سمعان ، وصيدح ، وشكر الله الجرّ ، وغيرهم ؛ ومن الشعر التصويرى قصائد لأغلب هؤلاء الشعراء المذكورين وغيرهم ؛ ومن الأسطورى « عبقرى » لشفيق المعلوف ؛ ومن الخيالى والتأملى « على بساط الريح » لفوزى المعلوف ؛ ومن الروحى قسم من « معلّقة الأرز» و « المحراث » لقازان ، وقصائد أخرى عديدة له ولبعض زملائه الآخرين .

وهكذا فقد عالج شعراء المهجر الجنوبى كل المناحى الشعرية تقريباً ، فأجادوا وتفوقوا ، وتركوا لشعرهم دوياً فى دنيا الضاد . أما النثر فنذكر منه « ثورة قازان » لمحمود شريف ؛ و « نبىّ أورفليس » و « المنقار الأحمر » و « الشبح الأبيض » ؛

و « جزر الخطيئة » ، لشكر الله الجر ؛ و « من اللحد إلى المهد » لأنطون شكور ؛ و « ذكرى الهجرة » لتوفيق ضعون ؛ « وأدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » . لجورج صيدح (وقد صدر هذا الكتاب بعد عودة الأديب الكبير إلى الوطن وأعيد طبعه ثلاث مرات) . وهناك عدد من مؤلفات إلياس قنصل ، وأبى الفضل الوليد ، وجبران مسوّح [١] .

والواقع أن كثيراً من أبناء المهجريين قد انصرفوا منذ حين عن الكتابة بالعربية إلى التأليف بالإسبانية أو بالبرتغالية ، ومنهم من نال بين الأجانب مكانة عالية مرموقة فى هاتين اللغتين ، كما نال جبران – خاصة – والريحانى مكانة عالية بين الغربيين بكتاباتهما الإنجليزية . ومن هؤلاء الدكتور منصور الحداد ، الذى « نال جائزة فى الشعر البرتغالى ، ويعدّ من شعراء البرازيل الممتازين » كما ذكرت مجلة « الأديب » مرة ، ومنهم أيضاً سركيس غنام ، وهو معروف باسم « سيسيلوكارتيرو » .

أما إنتاج المهجر الشمالى الذى ضرب فى كل مناحى الأدب ، النثرية والشعرية ، فقد استهدف فى هذه المناحى الأدبية مختلف نواحى الحياة والطبيعة ، ومشاكل النفس الإنسانية ؛ وقد ترك أصحابه فى كل ذلك آثار رائعة . فنى الشعر لدينا « المواكب » لجبران ، وقصائده الفلسفية والوجدانية الأخرى التى نشر أغلبها فى كتابه « البدائع والطرائف » وفى « مجموعة الرابطة القلمية » ؛ ولدينا « الجداول » و « الخمائل » لإيليا أبى ماضى ، مع عدد من قصائد الجزء الثانى من ديوانه ؛ و « الأرواح الحائرة » لنسيب عريضة ؛ و « همس الجفون » لميخائيل نعيمه ؛ ودواوين رشيد أيوب الثلاثة وهى : « الأيوبيات » و « أغانى الدرويش » و « هى الدنيا » ؛ ثم « أوراق الخريف » لندرة حداد ؛ وديوان مسعود سماحة – فى جزأين – و « ديوان نعمة الحاج » (وقد نشر نعمة الحاج ديواناً آخر فى لبنان) . ولا شك فى أن أغلب شعر هؤلاء النوابغ المجلّين ذخائر نفيسة ، وكنوز أدبية باهرة .

وفى النثر الوجدانى والخيالى لدينا عدد من مؤلفات جبران ، والريحانى ، ونعيمه . وهذا النوع من النثر أشبه بالشعر لجماله وموسيقاه وانسجامه .

---

(١) ظهر الكتابان الأخيران بدعوة الشاعر الجرّ إلى الوطن للإقامة النهائية فيه .

وكذلك فى النثر الفلسفى والاجتماعى ترك لنا هؤلاء عدداً من المؤلفات الثمينة النفيسة ، منها : (النبى ، والسابق ، والمجنون ، ويسوع ابن الإنسان ، وآلهة الأرض) وغيرها لجبران ؛ و (الريحانيات ، والنكبات ، وأنتم الشعراء) وكثير غيرها للريحانى ؛ و (المراحل ، وزاد المعاد ، والنور والديجور ، والبيادر ، وصوت العالم) وغيرها لنعيمه .

وفى الرواية والقصة ترك لنا جبران (الأجنحة المتكسرة ، وعرائس المروج ، والأرواح المتمردة ، والعواصف) . وأنتج لنا نعيمه (الآباء والبنون ، وكان ما كان ، وحياة جبران ، ومذكرات الأرقش ، ولقاء) وقصصاً أخرى متفرقة . وخلّف الريحانى (المحالفة الثلاثية فى المملكة الحيوانية ، وخارج الحريم ، والمكارى والكاهن ، وزنبقة الغور ، ووفاء الزمان) . ووضع عبد المسيح حداد « حكايات المهجر » . ورأينا فى مجموعة الرابطة القلمية قصتين رائعتين لنسيب عريضة هما « ديك الجن الحمصى » و « قصة الصمصامة » ؛ وقد يكون له غيرهما .

وإذا كنا نلمس شيئاً من ضعف الحبكة القصصية أو الفن القصصى فى « عرائس المروج » و « الأرواح المتمردة » وبعض القصص الأخرى لجبران ، وفى « المكارى والكاهن » « للريحانى » مثلا ، ففى القصص الباقية غير قليل من مزايا القصة الناجحة ، وعلى الأخص فى أعمال نعيمه القصصية .

وأما المذهب الأدبى الذى يشترك فيه الأدب المهجرى إجمالا ، فهو أولا المذهب الرومنتى الذى تأثر به المهجريون كثيراً فى أفكارهم وأساليبهم ، ثم المذهب الواقعى والقومى ، وقد كانت أساليبهم البيانية غاية فى الجمال والبساطة ، لأنها لم تتقيد بقيود الألفاظ والزركشة اللفظية ، بل أرسلت إرسالا لتعبر بصدق وبساطة وحيوية عن الفكرة أو العاطفة التى تمليها .

أما الهدف الذى عمل له الجميع باستمرار ونشاط ، فهو خلق أدب حر ، قوى ، يعنى بالمعانى والافكار الكبيرة ، ولا يتقيد بالسفاسف التى تكبل أجنحته دون التحليق والسموّ . ومن هنا كان سر ذيوعه وتأثيره فى النفوس وفى الأقلام .

ويقول ميخائيل نعيمه فى محاضرته حول أدب المهجر الشمالى التى ألقاها بالإنكليزية فى مركز كنيدى الأميركى فى بيروت ، ونشرت مترجمة إلى العربية

فى مجلة (المراحل) البرازيلية ، فى العدد ١٥٩ السنة ١٥ – تشرين الأول ١٩٦٩ .

« إن مواهب أفراد تلك الجماعة ومؤهلاتهم لم تكن فى مستوى واحد ، فكان بينهم العبقرى ، مثلما كان بينهم صاحب الموهبة الضحلة . . . وكان من الطبيعى ان تكون القيادة فى أيدى الذين مواهبهم أكثر غزارة ، ومؤهلاتهم الثقافية أكثر عمقاً واتساعاً . وهنا يجدر بى أن أشهد بفضل الريحانى وجبران بنوع خاص ؛ فهما لم يحصلا على قسط من الدراسة ذى بال ، ولكنهما ، بجهادهما الخاص ومواهبهما المتفوقة ، تمكنا من اللغة الإنكليزية ، وغاصا على كنوزها ، فوسّعا فى آفاقهما الثقافية إلى حدّ بعيد ، وذلك إلى احتكاكهما بالمجتمعات الأدبية والفنية فى أمريكا ، فكان أن أبصر كلّ منهما طريقه باكراً ، واستطاع أن يخلق أدباً يختلف كلّ الاختلاف عن الأدب المعروف فى ذلك الزمان . ولئن كانت أعمالهما الأدبية الأولى دون المستوى الرفيع ، فكان يكفيها أنها وضعت الأسس للنهضة الحديثة ، وكانت بمثابة المشاعل تنير الطريق للأجيال الطالعة » .

٢ – مع الرابطة القلمية فى المهجر الشمالى

فى ليلة العشرين من نيسان ، عام ١٩٢٠ ، ولدت فكرة « الرابطة » فى مجلس ضم باقة طيبة من الشبان اللبنانيين والسوريين ، كانت الغيرة على الأدب العربى تتلهب فى نفوسهم ، والأسف على حالته المؤلمة يلعج فى قلوبهم ، وكل منهم يتلمس أجدى السبل لإقالته من عثرته الطويلة وجموده الثقيل . وسرعان ما التأمت الآراء على استحسان الفكرة ، وعلى مباشرة العمل لأجل تحقيقها . ولم يمض أكثر من أسبوع حتى خرجت الرابطة من حيّز التفكير إلى حقيقة الوجود ، يرئسها جبران « عميداً» ، ويعاونه فى إدارتها ، ميخائيل نعيمه « مستشاراً » ، ووليم كاتسفليس « خازناً » ؛ ويعمل تحت لوائها سبعة آخرون ، يحملون اسم « العمّال » هم : إيليا أبو ماضى ، نسيب عريضة ، وعبد المسيح حداد ، ورشيد أيوب ، وندره حداد .ووديع باحوط ، وإلياس عطا الله .

لم يكن هؤلاء كل أدباء العرب فى نيويورك ، ولا كان كلهم أقدر الأدباء المهاجرين إليها ، فقد كان هناك مسعود سماحة ، وأمين مشرق ، ونعمة الحاج مثلا ، وكان هناك أمين الريحانى الذى كان لقلمه رنين ودوىّ فى الشرق والغرب ، وكان من أكثر الشبان العرب المهاجرين توثباً ، ونشاطاً ، وغيرة على الأدب ، وحرصاً على تطعيمه بلقاح نقى جديد من التفكير المشرق البعيد ، والأسلوب البيانى السهل الجميل . ولكن الريحانى لم يكن على وفاق مع جبران ؛ ثم لقد كان غائباً عن نيويورك حين تأسيس الرابطة . وهكذا لم ينضم إلى هذه « الرابطة القلمية » التى قدّر لها – على قصر عمرها ، وقلة عدد القائمين بها – أن تلعب دوراً بعيد الأثر فى حياة الأدب العربى الحديث .

كان أعضاء الرابطة العشرة « عصبة صغيرة – ، كما يقول نعيمه – تفاوتت قواها ، ولكن توحدت نزعاتها ومراميها » ، « ولم يكونوا متكافئين فى المواهب والإنتاج ، ولكنهم كانوا متقاربين فى الميول الأدبية ، والذوق الفنى » .

كان لا بدّ لهذه الجماعة الصغيرة الخالقة من حديقة ينثرون على ثراها بذورهم ويغرسون فى أديمها أغراسهم . فكانت جريدة « السائح » التى يملكها أحدهم – عبد المسيح حداد – تلك التربة الخصبة ، التى حملت للعالم العربى ثمار قرائحهم اليانعة . فأدهشته بذلك المحصول الطيب . وقبلها كانت مجلة « الفنون » التى يملكها نسيب عريضة ، هى مسرح أقلامهم ، وميدان قرائحهم الفنية . ولكنها احتجبت قبل نشوء الرابطة .

ومنذ أن ظهرت الرابطة القلمية للوجود ، تكاتفت جهود القائمين بها على « صيانة حرمتها ، ورفعها عن التحذلق والابتذال » . وشرعت « السائح » تنقل إلى العالم نتاج أقلامهم . « وفى صدر كل عام – كما يذكر نعيمه – كانت تصدر عدداً ممتازاً كان يطلع على الأدب العربى كحدث خطير ، فتكتب الصحف فيه فصولا ، وتنقل عنه الشيء الكثير . وهكذا انتشر اسم الرابطة فى العالم العربى وكل مهاجره » .

وفى عام ١٩٢١ ، ظهرت « مجموعة الرابطة القلمية » تحمل عدداً وافراً من . المقالات والقصائد ، بأقلام أعضاء الرابطة ، ما عدا إلياس عطا الله ؛ فهو من

بينهم الوحيد الذى لم يجر قلمه بمقال طيلة مدة عضويته للرابطة . وكانت تلك المجموعة هى الوحيدة التى أصدرتها الرابطة ، ثم لم تتمكن من إصدار غيرها ، لأن المال لم يكن موفوراً فى خزانتها ، فيساعدها على الاستمرار فى هذه الخطة الكثيرة النفع والخير .

كان لجبران فى تلك المجموعة سبعة عشر موضوعاً ، من النثر والشعر ، ولنعيمه ثمانية موضوعات ، ولرشيد أيوب ثمانى قصائد ، ولندرة حداد أربع قصائد ، ولعبد المسيح قصتان قصيرتان ، ولوليم كاتسفليس ثلاث مقالات نثرية ، ولوديع باحوط مقال واحد بعنوان « البرغشة » ، ولأبى ماضى خمس قصائد ، ولنسيب عريضه سبعة موضوعات : أقصوصتان وخمس قصائد .

ولقد ظلت الرابطة القلمية حيّة بأعضائها العشرة نحو إحدى عشرة سنة — من سنة ١٩٢٠ إلى سنة ١٩٣١ — ثم تبعثرت حباتها ، حين راح مقص الموت يقلّم اغصان تلك الدوحة الفارعة ، وهى أغنى وأسخى ما تكون بالثمار الطيبات ، مبتدئاً بعميدها جبران خليل جبران ، ثم تلاه برشيد أيوب ، وإلياس عطا الله ، ونسيب عريضة ، ثم ندرة حداد ، فوليم كاتسفليس ، فوديع باحوط ، فإيليا أبى ماضى ، ثم توفى عبد المسيح حداد فى نيويورك عام ١٩٦٣ . وكان قد باع فى اواخر عام ١٩٥٧ حقوق جريدته « السائح » — حديقة الرابطة القلمية المعطاء — إلى راجى الظاهر ، صاحب جريدة « البيان » ، فاندمجت الجريدتان فى واحدة هى (البيان) ومضى عبد المسيح يعمل فيها حتى وفاته .

اما ميخائيل نعيمه فقد عاد بعد وفاة جبران ، إلى قريته اللبنانية « بسكنتا » ، حيث يعيش إلى الآن .

اما أكثر عمّال الرابطة نشاطاً فى الإنتاج الأدبى ، وغزارة فى المادة ، وأبعدهم أثراً فى حياتها ، وفى الأدب المهجرى ، فكانوا خمسة بنوع خاص ، وهم :

جبران ، ونعيمه ، وأبو ماضى ، ويليهم نسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، فهؤلاء كان يتميز إنتاجهم بالخلق والإبداع ، من جهة ، وبروعة التجديد من جهة أخرى . وسرعان ما انتشر أدبهم فى الدنيا العربية كلها ، لما يحمله من بذور الحياة الجديدة .

ولا بد لنا الآن من ذكر المؤلفات التى صدرت – حتى يومنا هذا – لعمّال الرابطة القلمية ، لكى تكون دراستنا هذه شاملة وافية قدر الإمكان .

أما جبران فقد كانت كتاباته قبل إنشاء الرابطة بالعربية . فصدر له فيها (الموسيقى ، عرائس المروج ، الأرواح المتمردة ، الأجنحة المتكسرة ، دمعة وابتسامة ، المواكب) وعدد كبير من المقالات والروايات مما كان يكتبه للسائح وغـيرها .

وأما بعد إنشاء الرابطة فلم يصدر له بالعربية سوى « العواصف » الذى طبعته « دار الهلال » بمصر ، و « البدائع والطرائف » الذى نشره يوسف توما البستانى بمصر أيضاً . وأغلب ما فى هذا الكتاب مأخوذ من « العواصف » ، فلم يكن فى الأصل كتاباً مستقلاً من وضع جبران . وبقية مؤلفاته كان يضعها باللغة الإنكليزية ، غير أن الأرشمندريت أنطونيوس بشير – المطران بشير فيما بعد ، وقد توفى عام ١٩٦٦ – كان يعنى بترجمتها إلى العربية بلغة مشرقة تشبه كثيراً لغة جبران ؛ وقد عرض بعضها على جبران نفسه قبل طبعها . وتلك الكتب المترجمة ، التى دخل أغلبها فى حساب الأدب العالمى ، هى (المجنون ، السابق ، النبى ، رمل وزبد ، يسوع ابن الإنسان ، آلهة الأرض) . وهناك كتابان آخران هما : (التائه[١] . وحديقة النبى) ، وقد طبعا بالإنكليزية – وهى لغتهما الأصلية – بعد وفاة جبران .

أما ميخائيل نعيمه فقد ظهر له حتى اليوم : (الآباء والبنون – مسرحية كتب بعض حوارها بلهجة لبنان الدارجة – الغربال ، المراحل ، كان ما كان ، زاد المعاد ، جبران خليل جبران ، البيادر ، لقاء ، الأوثان ، كرم على درب ، همس الجفون ، صوت العالم ، مرداد – بالإنكليزية والعربية – مذكرات الأرقش ، النور والديجور ، دروب ، فى مهب الريح ، سبعون – ثلاثة أجزاء – وعدد آخر من الكتب) . وهذه المؤلفات كلها لم يصدر منها عن المهجر سوى الكتابين

---

(١) علمت أن كتاب « التائه » قد ترجم إلى العربية ، كما علمت أن الأديب الدكتور ثروت عكاشة قد ترجم كتاب « النبى » ترجمة جديدة ، وكتاب « حديقة النبى » وكلا الكتابين مصدّر بمقدمة تحليلية ، وقد ظهرا بنصيهما الإنجليزى والعربى مزينين بالرسوم وبلوحات بريشة جبران نفسه وذلك فى منشورات « دار المعارف بمصر » (ع . ن) .

الأولين ، ولو أن أحدهما – وهو الغربال – قد طبع فى مصر ، وأما الباقى فقد صدر بعد عودة نعيمه إلى لبنان ، وبعضها صدر فى السنوات الأخيرة .

وأبو ماضى صدرت له فى حياته أربعة دواوين شعرية : الأول – وهو « تذكار الماضى » – طبع سنة ١٩١١ فى مصر ، وأما الجزء الثانى من « ديوان أبى ماضى » وكذلك « الجداول » و « الخمائل » فقد صدرت فى نيويورك . وبعد وفاته صدر له فى بيروت ديوان « تبر وتراب » . أما النثر فلم يبرز فيه أبو ماضى كما برز فى الشعر ، على الرغم من أنه استثمر يحرر جريدته « السمير » نحو ثمانية وعشرين عاماً .

ولنسيب عريضة ديوان شعرى صدر بعد وفاته بأيام قلائل بعنوان « الأرواح الحائرة » ، ورواية مترجمة عنوانها « أسرار البلاط الروسى » . ولم يجمع شيء من تأليفه النثرى عدا ذلك فى كتب مستقلة ، فيما نعلم ، على كثرة ما له من الإنتاج النثرى الجيد ، ولا سيما فى القصة ، كما رأينا فى قصة « ديك الجن الحمصى » وقصة « الصمصامة » فى مجموعة الرابطة القلمية .

ولرشيد أيوب ثلاثة دواوين شعرية ، هى (الأيوبيات ، أغانى الدرويش ، هى الدنيا) .

وعبد المسيح حداد له كتاب قصصى بعنوان « حكايات المهجر » ، عدا مقالاته التى كان يوالى نشرها فى جريدته « السائح » ، ثم فى أعداد جريدة « البيان » . ونشر له فى سوريا كتاب آخر بعنوان (انطباعات مغترب) . وندرة حداد له ديوان شعرى بعنوان « أوراق الخريف » . وأما وليم كاتسفليس فلم يجمع شيئاً من خطبه ومقالاته التى اشتهر بها ، غير أن له كتاباً بالإنكليزية عنوانه « حضارة العرب » – كما ورد فى كتاب « الناطقون بالضاد فى أميركا » لصديقنا « البدوى الملثم » .

وأما وديع باحوط فلا نعرف له أكثر من مقال « البرغشة » المنشور فى مجموعة الرابطة القلمية . وأما إلياس عطا الله فلم ينتج شيئاً منذ تأسيس الرابطة ، ولم أقرأ له قط سوى مقال قصير بعنوان « الله » كان قد نشره عام ١٩٠٨ فى أحد أعداد « مجلة سركيس » التى كانت تصدر فى القاهرة

(هذه إلمامة عابرة عن الرابطة القلمية ، لا يسعنى إلا أن أختمها بشكر الأستاذ نعيمه ، فقد استفدت فيها كثيراً من كتابه عن جبران ، ومن رسائله الخاصة إلىّ ، وقد جلا فيها لى نقاطاً هامة عن حياة الرابطة ورجالها . ولولا فضله هذا لكان من العسير الوقوف على نشأة الرابطة ، وأعمالها ، وأسماء كل اعضائها) .

٣ – مع العصبة الأندلسية فى المهجر الجنوبى

بين الذين نزحوا عن شاطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقى إلى ضفاف الأمازون فى البرازيل ، فئة من ذوى المواهب الأدبية ، راحوا يستقطرون مواهبهم ونشاط أقلامهم فى جهاد الحياة ، وصراع العيش . وقد عانوا كثيراً فى جهادهم العنيف ، لأن شق القلم هو أضعف مصادر الرزق ، فى الغالب ، وأشقها . وقد كان الأدب فى أول أمره عندهم يعتمد على إنشاء الصحف ، مهما يكن نوعها ، ومحاولة كسب عطف الجماهير للارتزاق عن طريقها . وظل الأدب كذلك ، فى الأغلب ، فترة طويلة تمتد من أواخر القرن التاسع عشر – بداية عهد الهجرة – حتى الربع الثانى من هذا القرن العشرين ، حين قيّض له بعض ذوى الشعور النبيل ، والغيرة على كرامة الأدب ، فحاولوا أن يسموا به من حضيض الابتذال فى ميدان الصحافة المرتزقة ، إلى حيث يصبح شيئاً ذا قيمة فى توجيه الحياة ، وأثر فى تهذيب الذوق الفنى ، وإرهاف الحس الأدبى ، والشعور الاجتماعى .

وطبعاً لم يكن مقدراً لمثل هذه الغيرة المخلصة أن تنجح لو لم يدعمها البذل السخىّ والرعاية الكريمة . والمال والإخلاص متى اجتمعا صنعا المعجزات ؛ وقد اجتمع كلاهما للشاعر ميشال المعلوف ، شقيق الشاعر قيصر المعلوف ، وخال الشعراء الإخوة الثلاثة فوزى وشفيق ورياض المعلوف ؛ فاستطاع أن يخدم الأدب العربى فى المهجر الجنوبى خدمة جليلة .

لقد كان ميشال أديباً صادق الموهبة الأدبية ، وقد نظر حوله فرأى الأدب بين إخوانه المهاجرين وسيلة للتجارة الوضيعة فى الغالب ، أو للمهاترة والمشاحنة ؛

وكان على بسطة فى المال ، ورحابة فى النفس ؛ فتألم لما رآه من حال الأدب ، وقرر مع بعض الرفاق أن يعملوا عملا حاسماً فى توجيهه والسمو به . وسرعان ما تم له ما أراد ، إذ التفّت حوله نخبة من خيرة الأدباء المهاجرين ، يؤمنون بفكرته ، ويصبون إلى التعاون فى رابطة واحدة تقوم لهم مقام « الرابطة القلمية » فى أميركا الشمالية لجبران وإخوانه . وكان صاحب الفكرة فى الأصل هو الشاعر شكر الله الجرّ ، صاحب مجلة « الأندلس الجديدة » فى ريودى جانيرو . وقد خف بنفسه إلى سان باولو لتحقيقها ، فوجد لدى ميشال معلوف الاستعداد الكلى للتنفيذ .

فكرة نبيلة ولا ريب . وكل فكرة خيّرة لا بد من أن تجد لها صدى فى النفوس . ولذلك سرعان ما بدأ ميشال وشكر الله وزملاؤهما العمل بإنشاء رابطة لهم ، أطلقوا عليها اسم « العصبة الأندلسية » . وأرادوا أن ينشروا رسالتها ويذيعوا أدبها ، فأنشأوا لها مجلة دعوها « العصبة » ، كما كان للرابطة القلمية مجلة تؤدى رسالتها الأدبية الكبرى .

ولدت « العصبة الأندلسية » فى مطلع كانون الثانى سنة ١٩٣٢[١] . وكانت تتألف حين تأسيسها من : ميشال معلوف ، (أول رئيس لها) ، داود شكور (نائب رئيس) ، نظير زيتون ، (أمين السر) ، يوسف البعينى ، (أمين الصندوق) ، حبيب مسعود[٢] ، (خطيب) . والأعضاء : نصر سمعان ، حسنى غراب ، يوسف غانم ، حبيب مسعود ، إسكندر كرباج ، انطون سليم سعد ، شكر الله الجر .

ومنذ أن تأسست العصبة اخذ ميشال معلوف يرعاها بعنايته وبذله المتواصل ؛ فاتخذ لها مقرًّا فى عمارة فخمة ، يتألف من غرفتين وقاعة واسعة ، جهّزت جميعها بأفخر الأثاث . وقد ظلّ ميشال ينفق عليها من ماله حتى عام ١٩٣٨ ، حين عاد إلى لبنان ، كأنما ليتزوّد من رؤية بلاده قبل رحلته الطويلة إلى الأبدية ؛ فقد انتقل إلى رحمة الله إبان الحرب العالمية الثانية فى مسقط رأسه زحلة .

---

(١) و (٢) شكر الله الجرّ : « حقائق عن العصبة الأندلسية » ؛ مجلة الضاد . حلب . العدد المزدوج (٩ و ١٠) تشرين الثانى وكانون الأول ١٩٦٩ .

ولكن العصبة لم تقتصر على الأعضاء السابقين ، فما كاد يظهر فضلها ، ويذيع اسمها بعد إنشائها بفترة قصيرة ، ولا سيما بعد إنشاء مجلتها المشهورة المعروفة باسمها ، حتى تسارع كبار الأدباء المهاجرين ، فانضمّ إليها منهم نخبة من أقدر الأدباء والشعراء ، هم : شفيق المعلوف ، والشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، وأخوه قيصر سليم الخورى المعروف باسم الشاعر المدنى ، وتوفيق قربان ، ونعمة قازان ، وإلياس فرحات ، وعقل الجر ، ونجيب يعقوب ، وجورج أنطون كفورى ، وانيس الراسى ، وجورج الخورى كرم ، وجبران سعادة ؛ ثم تبعهم توفيق ضعون عام ١٩٣٤ ؛ وكذلك تبعهم بعد سنوات رياض المعلوف ، وجورج ليان ، وسلمى صائغ ، وفؤاد نمر . وهكذا أصبحت « العصبة الأندلسية » رابطة عظيمة الأهمية لأدباء العرب المهاجرين ، وأصبحت دارها ندوة لهم ، ومجلتها مسرحاً لخواطرهم وخلجات قلوبهم ، وملتقى لأفكارهم . وتبلور بواسطتها الأدب العربى فى البرازيل ، وأصبح مدوّى الصوت ، بعيـــد الشهرة ، بارز الأثر فى تاريخ الأدب العربى الحديث .

أما مجلة (العصبة) فقد تسلم رئاسة تحريرها منذ إنشائها الأديب حبيب مسعود ، لما كان يعرفه الجميع من أهليته وكفايته ؛ فقد تمرّس من قبل بالصحافة وبصناعة القلم ، وكان من فرسانهما المجلّين . وظل يعمل بنشاط وغيرة حتى كان عام ١٩٤١ حين أصدر رئيس جمهورية البرازيل أمراً يحظر فيه إصدار أى صحيفة أو منشور أو كتاب فى غير لغة البلاد الرسمية . فتوقفت العصبة كما توقف غيرها من الصحف العربية عن الصدور . ولكنها لما عادت من جديد فى عام ١٩٤٧ بهمة شفيق المعلوف وبذله السخى ، عاد حبيب مسعود إلى رئاسة تحريرها حتى عادت إلى التوقف نهائيًّا عام ١٩٥٤ ثم انصرف الأستاذ مسعود بعد ذلك إلى رئاسة تحرير مجلة « المـــراحل » التى تصدرها السيدة مريانا دعبول فاخورى فى البرازيل ؛ ولم يطل فيها مقامه ، ثم هجرها للعمل فى التجارة ، حتى عاد إلى لبنان أخيراً .

أما رئاسة العصبة فقد تسلمها ، بعد رئيسها الأول ، الشاعر القروى ، ومن بعده تسلمها شفيق المعلوف ، وهو آخر رئيس لها ؛ وكان يبذل فى سبيلها وفى سبيل

مجلتها – حتى توقفها عن الصدور – من ماله ونشاطه .

فقدت العصبة بتوالى الأيام عدداً من أعضائها ، فبعضهم ارتحلوا عنها إلى الأبدية ، وهم : ميشال المعلوف – مؤسسها – ، جورج الخورى كرم ، جورج أنطون الكفورى ، عقل الجر ، أنيس الراسى ، أنطون سليم سعد ، يوسف البعينى ، إسكندر كرباج ، حسنى غراب ، سلمى صائغ ، جورج حسون معلوف ، جورج قدوم . وبعضهم انفضّوا من حولها لأسباب خاصة ، ومنهم نعمة قازان ، وإلياس فرحات[١] . وتوفيق قربان ؛ وبعضهم عاد إلى الشرق ، ومنهم : رياض المعلوف ، ونظير زيتون ، وجورج ليان ، ورشيد سليم خورى ، وشكر الله الجرّ . وقد انتقل نظير زيتون وشكر الله الجرّ إلى رحمة الله.

أما أشهر المؤلفات التى صدرت لأعضاء العصبة فهى : « عبقر » ملحمة شعرية لشفيق المعلوف ، و « نداء المجاذيف » ، و « لكل زهرة عبير » و « عيناك مهرجان » و « سنابل راعوث » له أيضاً ؛ و « ديوان القروى » للشاعر القروى ، وقد جمع فيه دواوينه السابقة كلها ، وهى (الرشيديات ، القرويات ، الأعاصير ، اللاميات الثلاث) ؛ و « ديوان فرحات » فى ٣ أجزاء ، و (رباعيات فرحات ، وأحلام الراعى) لإلياس فرحات ؛ و « معلّقة الأرز » و « المحراث » لنعمة قازان ؛ و (خيالات ، وزورق الغياب) لرياض المعلوف ؛ و (جبران حيًّا وميتًّا ، وما أجملك يا لبنان) لحبيب مسعود ؛ و (ذكرى الهجرة ، وسيرة حياتى) لتوفيق ضعون ؛ و « روسية فى موكب التاريخ » لنظير زيتون ، و « صور وذكريات » لسلمى صائغ ؛ و « أقاصيص » لجورج حسون معلوف ؛ و (الروافد ، وزنابق الفجر ، وأغانى الليل ، وقرطاجة ، ولابيس الكورنثيّة – شعراً – ونبىّ أورفليس ، والمنقار الأحمر ، والوشاح الأبيض ، وجزر الخطيئة ، – نثراً –) لشكر الله الجر و (ديوان عقل الجر) ، وقد أصدره أخوه شكر الله عام ١٩٦٤ فى بيروت ؛ و (ديوان نصر سمعان) لنصر سمعان ، وقد صدر بعد وفاته . وهناك عدد آخر

---

(١) يقول فرحات فى كلمة له فى مجلة (الضاد) الحلبية (العدد المزدوج ١١ و ١٢ – تشرين الثانى وكانون الأول ١٩٦٨) إن « كل ما عملته العصبة أنها جمعت من الأدباء خليطاً متنافراً ، ووقفت حائلاً دون نشر الشعر العربى الحماسى ، ودون الروح العربية المتوثبة » ؛ وهذه تهمة ظالمة دون ريب (الناعورى).

من المؤلفات لهؤلاء وسواهم .

وأما الباقون من أعضاء العصبة ، الشعراء منهم والناثرون ، فلهم قصائد كثيرة وفصول متعددة منتشرة فى الصحف . وأغلبها لم يجمع فى كتب مستقلة .

وثمة بادرة جديرة بالملاحظة ، وهى أن عدداً غير قليل من هؤلاء الادباء والشعراء كان حظّهم من التحصيل العلمى المدرسى ضئيلاً جداً ، ولكن مواهبهم الطبيعية كانت كبيرة ، مما ساعد على ظهورهم وذيوع صيتهم . فإلياس فرحات مثلا – وهو من أكبر شعراء المهجر الجنوبى – غادر المدرسة وهو فى سن العاشرة فقط ، وقد بدأ حياته الادبية بنظم الازجال العاميّة ، ولكنه ثابر على المطالعة حتى صقل لغته وأصبح شاعراً من الطراز الأول . وكذلك قُلْ فى زميله الشاعر نصر سمعان . وفى آخرين غيرهما .

٤ – أدباء آخرون فى المهجر

عرف المهجر . عدا أعضاء « الرابطة القلمية » فى الشمال ، و « العصبة الأندلسية » فى الجنوب ، عدداً آخر من الادباء والشعراء ، بينهم غير قليل من أصحاب الشهرة العريضة فى الأدب المهجرى ، إذ أنهم أسهموا فيه إسهاماً ذا أثر بعيد ، وكانت لهم مؤلفات ودواوين شعرية .

فهناك فى الشمال أمين الريحانى ، ونعمة الحاج ، ومسعود سماحة ، واسعد رستم ؛ وقد تكلمنا عنهم وعن أدبهم فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

وهناك الدكتور فيليب حتى ، المؤرخ والأديب العربى الشهير ، الذى خدم العرب وتاريخهم خدمات عظيمة ، بمحاضرته الكثيرة ، وبمؤلفاته ، وعلى الأخصّ بكتابه النفيس « تاريخ العرب » الذى صحّح للغربيين ما رسخ فى أذهانهم طويلا من سوء فهم للعرب وتاريخهم الطويل ؛ وقد وضعه بالإنجليزية – مطولا ، ومختصراً – ثم ترجم إلى العربية . وقد كان الدكتور حتى رئيس الدائرة الشرقية فى جامعة برنستون مدة طويلة ، كان فيها دائماً مفخرة من مفاخر الأمة العربية .

واشتهر فى الشمال كذلك الشاعر أمين مشرق ، وهو شاعر رقيق العبارة ، جميل الخيال وله قصائد غنائية ، ومقالات نثرية كثيرة فى صحف المهجر . ومن قصائده الجميلة قصيدة بعنوان « القيثارة » ، وقصائد عدة فى الحنين إلى الوطن ، وقصيدة قالها فى المجاعة التى أصابت لبنان إبّان الحرب العالمية الأولى ، ومن الأبيات الرائعة فيها قوله :

خُلِقَ الرَّدَى للضَّعْفِ ، لا تُجْدِى الضَّعيفَ تَضَرُّعاتُ
من ليسَ يحميه الحُسامُ فليس تحميهِ الصَّلاةُ

وقد توفى أمين بعد أن صدمته سيارة فى مدينة نيويورك ، فماتت معه تلك الشاعرية الجميلة ، التى كانت تجود بأطيب الشعر وأرقّه .

وكان هناك أيضاً حبيب إبراهيم كاتبه ، وهو من قرية يبرود فى سوريا ، وكان من الأدباء البارزين فى النثر . وقد أراد قبل وفاته العكوف على وضع كتاب فى الأدب المهجرى بالاشتراك مع عبد المسيح حداد ، تنشر فصوله أولا فأولا فى جريدة « السائح » . ولكن المنية عاجلته قبل أن ينشر الفصل الأول من ذلك الكتاب ، وكان قد نشر عدداً من المؤلفات الأدبية باللغة الإنجليزية .

وحينما عكف نسيب عريضة على جمع ديوانه « الأرواح الحائرة » وطبعه ، كان حبيب كاتبه هو الذى وضع مقدّمته .

وعرف المهجر الشمالى كذلك أُدباء وشعراء آخرين ، نذكر من بينهم الشاعر قيصر وحيد[١] . وهو معلم قديم ، تتلمذ عليه الشاعر القروى رشيد سليم خورى فى طفولته فى لبنان . وكان ينشر الكثير من شعره فى صحف المهجر ، ولا سيما فى جريدة « السائح » ، بعد أن اختفى طويلا من الميدان الأدبى ، ثم عاد إليه عام ١٩٥٣ بعد زيارة تلميذه الشاعر القروى للولايات المتحدة .

ومنهم كذلك الدكتور سليمان داود ، وهو شاعر وطنىّ معروف ، محتدم الغيرة على قضايا وطنه العربىّ ، وله فى الوطنية شعر غير قليل ، وإن يكن قليل النشر فى الصحف وكان منهم أيضاً جليل عساف ، وهو قليل الإنتاج لانصرافه إلى أعماله التجارية .

---

(١) توفى بعد أن تجاوز الثمانين ، فى صيف عام ١٩٥٨ .

ولعل من الإنصاف أن أشير كذلك إلى بعض أصحاب الصحف المهجرية هناك ، ممن كان لأقلامهم فضل كبير فى خدمة اللغة العربية وآدابها ، والحفاظ على لغة الضاد عالية اللواء فى تلك الديار النائية . ومن هؤلاء نذكر نعوم مكرزل مؤسس جريدة « الهدى » ، وسلّوم مكرزل ، ونجيب دياب صاحب « مرآة الغرب » ، وراجى الظاهر صاحب جريدة « البيان » . وهناك صحفيون وكتّاب آخرون أسهموا فى هذا الميدان الجليل إلى جانب صاحبى « السمير » و « السائح » اللذين كانا من أعضاء « الرابطة القلمية » .

أما المهجر الجنوبى فنجد فى رأس قائمة الشعراء فيه شاعراً شاباًّ التوى عوده أينع ما يكون الشباب وأنضره ، هو فوزى المعلوف ، وقد توفى قبل أن تعرف « العصبة الأندلسية » سبيلها إلى الوجود . ونجد فيه كذلك إلياس طعمة الذى بدل اسمه فصار يدعى « أبا الفضل الوليد » ، ومحمود شريف ، وموسى كريم ، ومريانا دعبول فاخورى ، وجورج صيدح ، والشقيقين زكى قنصل وإلياس قنصل ، ويوسف صارمى ، وعبد اللطيف الخشن ، وفيليب لطف الله ، ونزيه سلامه ، وجورج كعدى . وقد تحدثنا على هؤلاء جميعاً وعلى أدبهم فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

وكان هناك كذلك الشاعر قيصر المعلوف ، الذى أنشأ فى مطلع هذا القرن ندوة أدبية دعاها « رواق المعرّى » . وكان رفاقه فى تلك الندوة[1] جورج عساف ، نعوم لبكى ، خليل كسيب ، يوسف ناصيف ضاهر ، فارس نجم ، أنيس يواكيم الراسى ، وديع فرح ، أسعد بشارة ، إسطفان غلبونى ، وسواهم . وقد ترجم قيصر رباعيات الخيام شعراً ؛ وله أكثر من ديوان مطبوع .

وكان من الأدباء المعروفين فى البرازيل أيضاً أنطون أنيس شكّور ، من حمص ؛ وقد هاجر أولا إلى الأرجنتين ، ثم إلى ريودى جانيرو فى البرازيل ، وهناك أنشأ جريدة ودعاها « المماس » ، ولكنه خسر فيها النقود القليلة التى كانت لديه . فعمل ملتزماً لمقصف النادى السورى اللبنانى ، فكان يقدم الطعام والشراب

---

(١) مجلة العصبة – العدد المزدوج (٧ و ٨) السنة ١٣ – تشرين الثانى (نوفمبر) وكانون الأول (ديسمبر) ١٩٥٣ .

لرواد النادى ، إلى ان اكتشفه الشاعر نعمة قازان ، فوجد لديه موهبة ادبية جميلة ، فمد له يد العون ، وطبع له روايته « من اللحد إلى المهد »[١] . وقد توفى انطون شكّور فى البرازيل .

ومثلما كان لنعمة قازان فضل إبراز موهبة انطون شكور كذلك كان له فضل على أديب آخر هو محمود شريف – الذى اشرنا إليه – وهو الاديب المهجرى الوحيد من أبناء مصر[٢] . فيما نعرف – وكان من تقدير محمود شريف لفضل نعمة قازان ان وضع قلمه فى خدمته ؛ فألف كتاباً ضخماً حلل فيه قصيدة قازان المطولة « معلقة الأرز » ، ودعاه « ثورة قازان فى معلّقة الأرز » ودافع فيه عن قازان بكل قوة ؛ وهاجم عدداً من الأدباء الآخرين . ولم يكتف بذلك الكتاب ، بل نشر مقالات اخرى متعددة فى صحف المهجر يمجّد فيها نعمة قازان ويرفعه إلى قمة الشاعرية والعظمة . ولكننا لا ندرى ما الداعى إلى كل ذلك ولم تكن فى الميدان معركة إلا من جانب واحد ! . .

وعرفت البرازيل كذلك أديبين زاولا مهنة القلم مدة طويلة ، ولكن لم يكن لهما اى اثر فى التجديد الادبى ، وهما : خليل سعادة ، صاحب معجم سعادة ، وهو من طراز الكتّاب القدماء الذين تهمّهم اللغة قبل المعانى ؛ ورشيد عطية الذى توفى بعد عمر طويل قضاه فى خدمة الصحافة ، وصناعة القلم فى المهجر .

والذى يعرف صحف الادب الكبرى فى البرازيل – مثل : العصبة ، والشرق ، والمراحل – يجد فى أعدادها أسماء كثيرة اخرى وافرة الإنتاج . ومن أبرز هذه الأسماء : فارس دبغى ، وموسى الحداد ، وسامى عازر ، وناصر شاتيلا ، وسعيد اليازجى ، ووهيب عودة ، ويوسف فاخورى ، واسد موسى ، وتوفيق بربر ، وغيرهم . والأول من هؤلاء اديب غزير الإنتاج فى الصحف ، وقد هاجر من بلدته « حاصبيا » إلى البرازيل عام ١٩٠٩ ، وعمل فى حقل الصحافة طويلا . وأما الباقون فإنهم

---

(١) سيجد القارئ بحثاً خاصًا عن هذه الرواية فى فصل لاحق .

(٢) الدكتور أحمد زكى أبو شادى لا نعده أديباً مهجرياً ، لأنه حين هاجر عام ١٩٤٦ كان فى قمة نضوجه الفكرى ، فلم تؤثر الهجرة فى تفكيره ، ولم يظهر لها أى أثر فى أدبه وشعره . ولم تكن السنوات القليلة التى قضاها فى هجرته – وهى ثمانى سنوات فقط إذ توفى عام ١٩٥٤ – كافية للتأثير فى أدبه (ع . ن .).

يكتبون الشعر والنثر معاً ، ولأكثرهم فى الشعر قصائد جميلة ، ولكننا لا نعرف لهم شيئاً من الآثار المطبوعة فى كتب .

وكان هناك الطبيب الشاعر جورج صوايا ، الذى كان يمارس الطب والشعر معاً وكذلك الأديب جورج عساف ، الذى هاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٠٣ ، وعمل فى الصحافة العربية ، وكان يرأس تحرير جريدة « السلام » فى بوينس أيرس . وهو كاتب وشاعر .

وبعد فليس هؤلاء كل أدباء المهجرين الشمالى والجنوبى من غير أعضاء « الرابطة القلمية » و « العصبة الأندلسية » ، ولكننا آثرنا الاكتفاء بأبرز الأدباء والشعراء ؛ ولمن يشاء المزيد أن يعود إلى صحف الأدب المختلفة هناك ، ليرى فيها المزيد من الأقلام التى لا تفتأ تكتب شعراً ونثراً .

٥ – العنصر النسائى وإسهامه فى الأدب المهجرى

لا بد لنا ونحن ندرس الأدب المهجرى من جميع أطرافه – دراسة للتاريخ قبل أن تكون للنقد – من ذكر بعض النساء اللواتى أسهمن فيه ، وإن يكن إسهامهن محدود المدى . على أنه لا بد لنا كذلك من الاعتراف بأن أثر المرأة فى هذا الميدان لم يبلغ شأو أثر الرجل ، فلم تظهر فى المهجر كاتبة لها مثل أدب جبران ، أو نعيمه ، أو الريحانى ؛ ولا شاعرة مثل فوزى المعلوف ، أو القروى ، أو فرحات ، أو غيرهم من هذا الطراز الأدبى العالى ؛ ولم تكن المرأة عنصر تأثير فى أدب المهجر ، بل كانت عنصر تأثّر فحسب . ترسم فى حياتها الأدبية خطى الرجل . ولست أعرف فى أدبيات المهجر إلا الناثرات ، فلم أقع فيما قرأت لهن على شىء من الشعر ، أو على ما يستحق العناية منه .

ومن بين مهاجرى الشمال لا أعرف أية امرأة أسهمت بقلمها فى خدمة الضاد إسهاماً يستحق الذكر ، وأما اللواتى برزت أسماؤهن فى ميادين الصحافة والأدب فهن من المهجر الجنوبى ، وكلهن ممن أقمن فى البرازيل ، وشاركن الرجال هناك فى مهنة القلم .

من هؤلاء النسوة الأديبات أذكر بعض من نلن شهرة عن طريق الصحافة المهجرية ، كالسيدة سلمى صائغ ، مؤلفة كتاب « ذكريات وصور » ؛ وقد كانت عضواً فى العصبة الأندلسية ، ثم عادت إلى لبنان ، وهناك انتقلت إلى الرفيق الأعلى ؛ وكانت قد برزت مقدرتها الأدبية قبل هجرتها إلى البرازيل .
والسيدة مارى ينى عطا الله ؛ والسيدة مريانا دعبول فاخورى ، صاحبة مجلة « المراحل » التى تصدر فى سان باولو . والسيدة مريانا تكتب فى كل عدد من أعداد مجلتها – أو على الأقل فى القسم الأكبر من أعدادها – فتضع الافتتاحيات أحياناً ، أو تكتب فى النقد ، أو فى المواضيع الوطنية أو الاجتماعية ، وما إلى ذلك .

والسيدة أنجال عون شليطا ، الأديبة والفنانة معاً ؛ وكانت تنشر فى الصحف كثيراً ، – ولا سيما فى مجلة « المراحل » – وتسهم فى الخدمة الاجتماعية ، وقلمها يجول فى مختلف الشؤون الاجتماعية ، وفى النقد الأدبى أحياناً .

والسيدة سلوى سلامة أطلس ، صاحبة مجلة « الكرمة » التى عاشت أكثر من ربع قرن . وحينما أكملت المجلة ربع قرن من عمرها ، أقيم لتلك المناسبة حفل رائع تكريماً لصاحبتها ، وقدمت لها الجالية العربية بيتاً لائقاً قدّم لها مفتاحه الذهبى فى حفلة خاصة .

وكانت سلوى قد ولدت فى مدينة حمص ، فى سوريا ، ورعاها شقيقها جورج أطلس ، وأدخلها المدرسة فى زمن كانت المرأة فيه أسيرة البيت ، وسرعان ما برز نبوغها . وقد عملت معلّمة فى زحلة ، وفى حمص . وفى عام ١٩١٣ هاجرت إلى البرازيل مع زوجها جورج أطلس . واشتهرت بالخطابة والصحافة . وتوفيت فى البرازيل .

وقد تكون هناك نساء أخريات ، ولكننا لم نتمكن من الاطلاع على شىء من آثارهن القلمية .

ولعل خير تعريف بهؤلاء الأديبات هو أن نقدم نماذج من أدبهن ، تظهر لنا طرائق تفكيرهن ، وأساليبهن فى الكتابة ، وسهولة عبارتهن .

وفى ما يلى قطعة لسلمى صائغ بعنوان « النصف المنسى » ، تتحدث فيه على

المرأة وحقها فى الحرية .. وقد نشرت هذا المقال فى مجلة « العصبة » عام ١٩٤٩ فى ذكرى وفاة الزعيمة النسائية المصرية هدى شعراوى .

« ماتت هدى شعراوى ، ومات قبلها قاسم أمين ، ومات قبلها الإمام بطرس البستانى ؛ ماتوا جميعاً وأصواتهم تدوّى : يا قوم ! تعهّدوا الأساس ، تعهّدوا الأسرة ، تعهدوا المرأة لأنها نصف الأسرة ، ونصف الأمة ، ونصف الدولة .

« وستظلّون يا سادتى الرجال – أرباب الأمر فى لبنان وسوريا ومصر والعراق والحجاز واليمن – ستظلّون تبنون على الرمال ، حتى تعيدوا – كلّ فى وطنه – إلى نصف الأمة ونصف الدولة حقها الشرعى الصريح السليب ، الذى طالبت به هدى شعراوى ، وظلت تطالب حتى طارت روحها إلى خالقها .

« تقول إحدى النساء الظريفات : « ليس للرجل عيوب لا تحتمل . . . وكل ما يفعله من الأذى هو نتيجة النسيان » . . .

« ولكن من النسيان ما يضحك ، وآية ذلك انضمام لبنان ومعه الدول العربية إلى منظمة الأمم المتحدة ، وقبوله ميثاقها الكامل ، وفيه نصّ صريح على تقديس الحريات ، وأولها حرية الجنس – والجنس هنا يعنى الرجل والمرأة – . . . ولكن لبنان مع إخوانه ينسون هذا الميثاق ساعة يحظرون على المرأة التمتع بالحق الوطنى الكامل .

« ومن النسيان ما يُبكى حقًّا ، فعلى مقربة من مدينة اليونسكو – حيث أحرقوا البخور فى تمجيد لبنان وحضارته البعيدة – قامت بناية السجون ، حيث تربط الطبقات المنحطة من مجرمين ولصوص ونشالين . إن كل هذه الطبقات، ومن يماثلها من الذين يعيشون مؤقتاً خارج السجون ، تملك الحق الوطنى ، حق إدارة البيت اللبنانى ، وتقرير مصير اللبنانى . أما الطبيبات والمحاميات ، اما اللواتى صرفن الأعمار فى تهيئة هذه الجماهير المثقفة من فتيان وفتيات ، أما الراهبات الناذرات نفوسهن للخير ، والسيدات الحاملات عن أكتاف الخزينة اللبنانية كل مشاكل الإسعاف العام ، أما كل هذه المواكب من النساء النقيّات التقيّات فمحرومات من الحق الوطنى بفعل النسيان الأثيم ! . . . »

وهذا أيضاً نموذج من أدب السيدة مريانا دعبول فاخورى ، صاحبة مجلة « المراحل » ، من كلمة قالتها فى رثاء الشاعر حسنى غراب ، ونُشِرت فى مجلة « العصبة » أيضاً عام ١٩٥١ ، بعنوان « قبلة ودمعة » :

« قبلة ودمعة أيها الشاعر

قبلة من الارض التى احببتها ، وتغنيت بجمالها ، ونعمت بخيراتها طيلة خمسة عقود

ودمعة

دمعة يا حسنى

وأية هدية أثمن من دمعة فى كمّ زنبقة فى حقل ، وزهرة فى حديقة !

واية أنشودة هى الدمعة فى مقلة فتاة تذرفها على قبر أبيها !

وأية لؤلؤة هى الدمعة تجود بها عين فجعها الدهر برفيقها !

وأية جمرة هى الدمعة تحترق بها مقلة الشقيق !

وأية باقة من الزهر هى الدمعة يقدمها لك موكب الحياة ، ويزين بها قبرك أيها الصديق !

قد تذبل الزهور وتيبس الزنابق

أما شعرك فسيظل رطباً على زنود العذارى

قد تجف مياه العاصى وتقفر مروج الفيحاء

أما ربات السحر وإلهات الجمال فستقف حياتها تردد شعرك وتتغنى بجمال روحك ! »

* * *

وفيما يلى نموذج من أدب السيدة مارى ينى عطا الله ، من مقال لها فى مجلة « العصبة » عام ١٩٤٩ بعنوان : « أين هو القائد الإنسانى » .

« تصاب البلاد بوافدة من الأمراض السريعة الانتشار ، فنجابهها حالا بالتلقيح الإجبارى ضنًّا بأرواح العباد أن تضحى .

« ثم تمنى البلاد بوافدة من الطاعون الإنسانى ، كالسلب والنهب والتعدى والقتل ، فنرى تلك الأرواح التى حافظنا على كيانها أولا متروكة لأيدى القدر

تتنازعها كما تشاء ، كأن لا مصل يشفى ولا يد طبيب تداوى .

« وتنتشر على العالم قاطبة وافدة اجتماعية تحصد الأخضر واليابس ، وتدك معالم العمران ، وتنهار معها صروح المدنية ، فلا تتحرك يد طبيب اجتماعى واحد للقضاء على القوة المسببة ، وإراحة الإنسانية من شرورها .

« فهذه الأمراض وتلك ليست سوى نتيجة سوء التربية وفساد الأخلاق وتشويه برامج التعليم ، لأننا فى كل أعمالنا إنما نضع المراهم على الجراح ، ونخفف وطأة الأوجاع بالمخدرات دون أن نسعى إلى تجنب أسباب العلل ، واستئصال جراثيم الأمراض من أسسها ، بعد أن أصبحنا نحشو الأدمغة بالعلوم ، ونغض النظر عن الأخلاق التى فسدت وانحطت ، وأصبحت وحدها السبب الاهم فى هذه الكارثة الكبرى التى يواجهها العالم . . .

« لهذا أريد أن أنادى الأمهات – أمهات العالم بأسره ، كى يسعين فى مؤتمراتهن إلى إبادة كل برامج التربية والتعليم الحاضرة ، ويعمدن إلى سن برامج جديدة وقوانين نزيهة وشرائع قويمة ، تعلم أبناء الجيل الجديد كيف يتمردون على القوى الغاشمة ، وتولد فى نفوسهم كرهاً للحروب ومسببيها ، وتفهمهم قيمة وجودهم فى الحياة ، وانهم خلقوا لمكافحة الفناء قبل أوانه ، لا ليكونوا عرضة لرغائب قادة خلت نفوسهم من الشعور الإنسانى ، كهؤلاء الذين يحملون مقدرات العالم فى هذا الجيل الملىء بالشر والويلات .

« لقد ضجت الإنسانية من فظائع هؤلاء القادة الميكانيكيين الذين لا قلب لهم ولا ضمير ولا رادع . فأين نجد الرجل الإنسانى العالمى الذى يتولى قيادة العالم الجموح ، ويقف به عند محطة السلام ؛ فلا يقود الشبيبة الزاهرة النشيطة إلى الفناء بحركة من شفتيه الناريتين ، ويقضى على معالم العمران بذرّة من مخترعاته الجهنمية . . . »

* * *

واما الأديبة السيدة انجال عون شليطا فهذه قطعة من ادبها بعنوان « الانتحار بين الجنسين » نشرت فى مجلة « العصبة » عام ١٩٥٣ :

« إذا كان فى اعتداء الإنسان على أخيه الإنسان شىء من الجراة والشجاعة

فى اعتدائه على نفسه كل الجبانة والضعف .

« وإذا حاولنا أن نجرى إحصاء بين مرتكبي هذين النوعين من الجريمة نرى عدد الرجال يزيد على عدد النساء . . .

« المرأة تفشل كالرجل فى مساعيها ، ولكن أنانيتها تحملها على أن تتخذ إلى أهدافها طرقاً أخرى .

« والمرأة يتحطم ساعدها فى مضمار الجهاد ، ولكن عنفوانها يحول دون أن تسقط منتحرة بيدها . . .

« يقولون : إن الانتحار مظهر من مظاهر الشجاعة ، والشجاعة فى الرجل أوفر منها فى المرأة .

« وإن الانتحار هو من صفات الرجال العظام ، كالقواد الذين يخفقون فى المعارك ، والساسة والحكام الذين تخونهم أحزابهم ، والأغنياء الذين تذهب الأقدار بجاههم وثرائهم .

« ولكننا لو استنرنا بمصباح الحكمة ، ومشينا على هدى المنطق ، لما وجدنا الانتحار إلا مظهراً من مظاهر الضعف والجبانة ؛ لأن من ينتحر يقصد الهرب من حمل التبعات الخطيرة والمسئوليات الكبرى . . . »

* * *

وعلى ذكر السيدة أنجال عون شليطا أذكر أن الشاعر القروى رشيد سليم الخورى قد دعاها مرة إلى اجتماع فى منزله ، فعزفت على العود عزفاً ملأ القروى إعجاباً ببراعتها ، فقال فيها :

قُولى لنا يا ابنةَ الدَّامُور صادقــــةً ... من أىّ جوهـــر فنٍّ صاغَك اللهُ

سبحانَ من نظَمَ الدُّنيــــا ولحَّنَهـــا ... بيتًا من الشعر فى عينيك معنـــاهُ

بالرِّيشَتين حويت السِّحْر أجمعَـــهُ ... سحر البيـــان وسحر العزف زَكَّاهُ

لم يفتح العـــودُ فاهُ حين أنْشَدَنــا ... والكلُّ مُصْغٍ إليـــه فاتِحٌ فاهُ

وكل قلبٍ تمنَّى من صـــــبابتـه ... إليك لو كانَ صـــدر العــود مأواهُ

٦ – أبناء المهجريين واللغات الأجنبية

الأدب المهجرى الذى نكتب فيه هذه الفصول كلها هو أدب الرعيل الأول من بناة الأدب العربى على ضفاف الميسيسبى والأمازون ، أولئك الأبطال الذين شادوا للأدب العربى فى ديار الغربة ، وبين ضجيج الآلات وصخب المصانع وقرقعة الدواليب ، وبين العرق والدموع ، مملكة زاهية زاهرة ، قادت أدب الضاد فى سبل جديدة ، ونفخت فيه روح الحرية والجرأة والتجديد .

غير أن هذه الفئة العظيمة المجاهدة لن تستطيع أن تصمد للأيام أطول مما صمدت ؛ فالذين مضوا منها إلى العالم الآخر ، لم يحلّ محلّهم من يستطيعون أن يحتفظوا للأدب العربى فى ديار الغربة بزهوته ونضرته وقوته .

لقد انفرطت الرابطة القلمية فى أمريكا الشمالية بوفاة جبران ، ونسيب عريضة ، وإيليا أبى ماضى ، ورشيد أيوب ، وندرة حداد ، ووليم كاتسفليس ، ووديع باحوط ، وإلياس عطا الله ، وعبد المسيح حداد ؛ وضعف أدب المهجر الشمالى ، بل مات بوفاة أمين الريحانى ، وأمين مشرق ، وحبيب كاتبه ، ومسعود سماحة . وفى المهجر الجنوبى لم يقم من يملأ مكان فوزى المعلوف ، وحسنى غراب ، وميشال المعلوف ، وأبى الفضل الوليد ، ويوسف البعينى ، وعقل الجرّ ، وسلمى صائغ ، ورشيد عطية ، وإسكندر كرباج .

والذين عادوا إلى الوطن بعد أن ذاقوا مرارة الاغتراب طويلا ، من أمثال ميخائيل نعيمه ، ورياض معلوف ، ونظير زيتون ، والشاعر القروى ، وشكر الله الجرّ مد الله فى حياة الأحياء منهم ورحم الموتى – ظلت أماكنهم فى نيويورك ، وريودى جانيرو ، وسان باولو خالية ممن يستطيعون أن يجيئوا بمثل أدبهم الجميل .

ومعنى هذا أن الأدب المهجرى كان أدب فترة قصيرة فحسب من عمر تاريخ الأدب العربى ؛ ولكنها فترة من أغنى أدواره ، وأطيبها ثماراً وأرقاها فكراً ، وأنصعها أدباً .

أما أبناء المهجريين ممن ولدوا فى ديار الغربة ، فقد نشأ بينهم كثيرون من

حملة الأقلام ، ولكنّ بُعدهم عن الوطن العربى ، ووجودهم فى بيئات غريبة وبين أقوام غير عربية ، وعدم وجود معاهد عربية تلقنهم لغة الآباء والأجداد ، جعلتهم ينصرفون إلى الإنتاج الأدبى بلغات المواطن الغربية التى يعيشون فيها . ومن هؤلاء ظهرت طائفة من الأدباء نالت شهرة واسعة فى حقول الآداب الأجنبية ؛ فالذين نشأوا فى الولايات المتحدة يكتبون بالإنكليزية ، ويساهمون فى آدابها الجديدة ، والذين نشأوا فى دول أميركا اللاتينية يكتبون بالإسبانية والبورتغالية .

صحيح أن عدداً من كبار أدباء الرعيل الأول وضعوا الكثير من المؤلفات النفسية فى اللغات الأجنبية ، وعلى رأس هؤلاء – فى الشمال – جبران خليل جبران ، وأمين الريحانى ، وميخائيل نعيمه ، ووليم كاتسفليس ، وفيليب حتى ؛ ومن أدباء الجنوب ، جورج قدّوم ، ورياض معلوف ، وموسى كريّم ، وعدد آخر غيرهم ؛ غير أن هؤلاء جميعاً كانوا ممن يجيدون العربية ويكتبون بها أروع إنتاج أدبى ، إلى جانب إجادتهم للغات الأجنبية التى يشاركون فى آداب أهلها ؛ ولذلك أغنوا لغتهم بما كتبوه بها ، وما أضافوه إلى آدابها من الإنتاج الثمين .

أما أبناء المهاجرين اليوم فقد انغمسوا فى البيئات الأجنبية ولغاتها انغماساً تامًّا ، ولم يعد لديهم ما يربطهم باللغة العربية ؛ فاقتصر أدبهم على ما ينشئونه باللغات الأجنبية . وهم لذلك جديرون بأن نشير إلى أدبهم ، ولو إشارة قصيرة ، فى هذا الكتاب :

وإنه لمن المؤسف أن تكون لدينا مراجع كافية عن هذه الفئة الناهضة من أبناء المهجريين ، فلسنا نعرف أحداً منهم فى المهجر الشمالى . وأما المهجر الجنوبى فالمرجع الوحيد لدينا عنهم مقال للأديب يوسف البعينى نشره فى مجلة « العصبة » عام ١٩٤٩ بعنوان « مواليد اللبنانيين فى الأدب البرازيلى »[١] ، وقد وعد يوسف فى ذلك المقال بأن يعود إلى تكملة الموضوع فى أعداد لاحقة من العصبة ، ثم صدر منها عددان لم يكتب فيهما يوسف شيئاً فى ذلك الموضوع ، وأما العدد الثالث فقد حمل إلينا نعيه ، وبقى الموضوع يحتاج إلى من يوفيه حقه من الدرس ممن لهم اطلاع كاف عليه .

(١) مجلة العصبة ع ٧ السنة ٩ – كانون الثانى (يناير) سنة ١٩٤٩ .

ونحن لذلك مضطرون إلى أن نقتطف ههنا بعض ما جاء فى ذلك المقال الوحيد من تعريف بأدب تلك الفئة الناهضة من أبناء المهجريين .

يقول يوسف بعد أن يعرّف بما للأدب البرازيلى من شأن بين الآداب العالمية :

« أعود الآن إلى مواليد اللبنانيين ، متحدثاً عن المنزلة السامية التى يشغلونها اليوم فى الأدب البرازيلى ، على ما له من المقام الرفيع فى الآداب العالمية ، كما أظهرت فى مستهل هذه العجالة ، فأشير فى أول الأمر إلى الشاعر جميل المنصور حداد ، صاحب المؤلفات النفيسة فى دولة البيان ، وأحد أمراء الشعر فى أمريكا اللاتينية .

« ومن مؤلفاته « صلوات سوداء » ؛ وهو ديوان شعرى منحه المجمع العلمى البرازيلى جائزة الشعر ، لما يتموج فى صفحاته من بيان متين الدعائم ، وقوة غريبة على قرض الشعر . ومن إبداعه فى هذا الديوان الشعرى الرائع تصويره للروح البشرية فى حالات بؤسها وشقائها . ولذلك دعاه « صلوات سوداء » ، لما يبطنه من وحشة وكآبة وخيبة لعلّه ورثها عن أجداده اللبنانيين ، الذين قال الفيلسوف رينان إنهم احتكروا العاطفة دون باقى الشعوب ، فهى تفرح مع أزهار الربيع ، وتنتحب مع الجداول فى فصل الخريف الحزين . وهذا مثال من شعره :

« أقبلى ، أقبلى ، يعشوك الغرام ، فها قد دنا وقت القطاف ، وحان لشفتى أن تستشعرا طعم السعادة . إن الحب لسانحة ، وسانحة قصيرة جداً ، فهلمى نغيِّب فى كؤوسه أتراحنا ، وننس على فراشه الوثير الألم ، والعذاب ، والموت ! ! »

« ويشغل ذات المكانة التى شغلها جميل المنصور حداد شاعر وكاتب آخر يدعى سلمون جورج ، وهو عميد كتلة الأكثرية فى مجلس نواب سان باولو ، وصاحب عدة مؤلفات حازت رضى كبار النقاد وإعجابهم . ومن مؤلفاته الشعرية ديوان « عربيات » نحا فيه منحى كبار الشعراء المعاصرين ، ومما يمتاز به هذا الشاعر كونه خطيباً فصيح اللسان ، وناثراً بليغاً يحملك نثره المشرب بالعاطفة ، والمحلى بالشعور والإحساس ، على حب الحياة بما فيها من أشواك دامية . . . فأنت تحبه ناقماً ساخطاً ، وتحبه مداعباً مغازلا . وقد أصدر أخيراً كتاباً نثريًّا بعنوان « جمال الموت » ، فجاء رافلا فى غلائل بيانية كبيان فليكس فارس ، صاحب تلك الديباجة الساحرة التى لا يجهلها أحد من قراء الأدب العربى الحديث .

« وهناك الكاتب الروائى والنقاد الراسخ القدم فى دولة الأدب ، ماريو نعمة ، الذى تشوقك منه عاطفته المضطرمة ، المتخبطة فى ديجور موحش كئيب . ولكم قرأت لهذا الأديب العبقرى من فصول أدبية منداة بقطرات قلب الفنان المفتون بالجمال ، فكان يغشانى لدى قراءتها ما يشبه الضباب العابق بالعطور ، مطلاً منها على آفاق متموجة بألوان الفجر والمغيب . وعلى الرغم من أنه لم يمسح عن وجهه وجبينه أحلام الشباب ، فقد زف إلى المجتمع البرازيلى عدداً من المؤلفات ، أحلّها أعلام الأدب أجمل منزلة من التقدير ، لما يطفو عليها من أمواج عاطفية تشع بالإحساس والتصور والإلهام .

« وهناك كتّاب وشعراء أخص منهم بالذكر (إميل فرحات ، وداود نصر ، وإميل كارلوس ، وساسيل غنام ، وديفا جبور ، ومينرفا سعادة ، والشدياق) فهم أصحاب مؤلفات هامة ترجم بعضها إلى الفرنسية والإنكليزية والإسبانية ، إذ صوروا فيها حياة العمال وما يعانونه من شظف وتضور . ولعل أبعدهم مدًى وأرسخهم قدماً الروائى والنقاد المشهور نعيم أبو سمرة .

« عرفت هذا الأديب من أعوام ، فعرفت فيه كاتباً خصباً فياضاً تنساق له الصور والمعانى انسياق المياه فى منحدر الوادى . . . وقد طبعه الشرق ، عن طريق الوراثة ، بطابع يعرف به وحده اليوم .

« ويمثل فى رواياته وقصصه مذهب الاحتفاظ بالشباب الأزلى ، والتمتع بالحياة فى شتى ألوانها ومظاهرها . فهو من هذه الناحية يماثل عمر الخيام ، الشاعر الفارسى الذى دعا إلى تقديس الحياة والتقلب فى أحضانها .

« ومن مؤلفاته كتاب فى النقد تناول فيه أعلام الفكر الإنسانى ، مترسِّماً مذاهبهم وطرق تفكيرهم . وقد لقى هـذا الكتاب استحساناً شاملا من الأندية الفنية فى البلاد .

« وأخرجت له المطابع أخيراً رواية دلت على اقتداره فى العالم الروائى ، وسماها « رواية فى إستانبول » ، وهى من ابتكاره ، معتمداً بوضعها على خياله فحسب . .

« ويدهشك من هذا الروائى المطبوع ، عدا أسلوبه المعطر ولغته الشائقة ، مقدرته العجيبة على ابتكار قصصه ورواياته ؛ فإن أشخاصه لا تمت بصلة إلى

المحيط الذى يعيش فيه ، كما يفعل أعلام الرواية المعاصرون ، إذ يبنون الموضوع متأثرين بالبيئة والجو ، على ما يحوطهما من حوادث وعِبَر : ويشملهما من ظلمات وأشعة ، بل يخرج أشخاصه من صميم نفسه الغنية بالصور والألوان ، خالعاً عليها من ظلال الحياة وأنوارها غلائل شفافة . وهذه القدرة على خلق أشخاص تتذوق فى كل جارحة من جوارحها وفى كل حاسة من حواسها خلاوة الأمل ومرارة الألم ، لم تتفق إلا للقليلين من جبابرة الفن الروائى – ناهيك بخيال وثاب يحمل تحت أجنحته الذهبية إحساس الشاعر وعبقرية الحفار ، الذى يجبل من تذكاراته وأحلامه تماثيل للحياة .

« ولا أنسى فى هذا المجال أن أشير إلى زميلى فى العصبة الأندلسية الأديب اللغوى المدقق ، الـذى يجيد العربية ككبار أعلامها ، الأستاذ فؤاد نمر (ميكال نمر) واضع أوسع كتاب فى شوارد اللغة البرتغالية وصلتها باللغات الشرقية ، وعلى الأخص بالعربية . وقد وصف كبار اللغويين فى البلاد كتاب الأستاذ فؤاد نمر بأنه فتح مبين فى هذه الأبحاث المستعصية ، التى لا يستوعبها إلا أصحاب المواهب النيرة . ومما يمتاز به هذا العالم الخبير بأصول اللغات حبه للشرق ومعرفته لتاريخه وآدابه . وكتابه هذا حفز وزارة التعليم إلى إنشاء كرسى للعربية فى أهم جامعة فى البلاد .

« ويُعنى الأستاذ فؤاد نمر بوضع قاموس عربى جامع للأوضاع الحديثة . وعندى أن هذا العالم البصير سيوفق إلى خدمة اللغة وتسهيل صعوبات الأوضاع ، نظراً لتضلعه من عدة لغات تضلعاً وثيقاً ؛ فقد درس هذه اللغات درساً علميًّا صحيحاً على أكبر العلماء فى جامعة باريس ، وعلى مشاهير المستشرقين . إن جل الذين اشتغلوا بوضـــع القواميس العربية لم يأتونا إلا بما نحن فى غنى عنه . وعندى أن هذا النقص فى تأليف الموسوعات اللغوية عائد إلى عجز المؤلفين ، وقصر باعهم فى معرفة أصول اللغات واشتقاقاتها .

« وبعد – فهذه لمحة موجزة من بعض مواليد اللبنانيين فى البرازيل ممن اعتنقوا مذهب الأدب ، محلقين مع نسور الإلهام فى سمائه .

« وفى اعتقادى أنه لن يطول الزمن حتى تتفتق عبقريات هؤلاء الأدباء عن

بيان عالمى النزعة ، فيتحفوا الإنسانية بأدب جديد كانت شواطئ البحر المتوسط مهداً له فى الماضى البعيد . وإذا فات تلك الجماعات المتسكعة الغارقة فى رقادها الأبدى ، أن تنشد بعد الأجيال المتعاقبة أغانى الخلود ، فلن يفوت أبناءها ، وإن ارتدوا غير ثيابها ، أن ينشروا على الدنيا إنجيل الحق ، والأمل ، والمحبة » .

* * *

وبعد فليس لى فى هذا الفصل من فضل ، وإنما الفضل كله للأديب المهجرى النابغة يوسف البعينى ، الذى فقدته العصبة الأندلسية ، وفقده الأدب العربى وهو أغنى ما يكون بالعناقيد النواضج ، وأسخى ما يكون بالفكر النيّر والأدب الجميل ، رحمة الله عليه .

٧ – « جامعة القلم » فى البرازيل ، وغيرها

بعد أن توقفت « العصبة الأندلسية » ، وتفرّق شمل أدباء المهجر البرازيلى ، فعاد منهم القروى ، ونظير زيتون ، وشكر الله الجرّ ، إلى لبنان وسوريا عوداً نهائيـاً ، وانقطعت مجلة « العصبة » نهائيًّا عن الصدور ، بقيت مجلة « المراحل » التى تصدرها السيّدة مربانا دعبول فاخورى منبراً حيًّا لأقلام بقيّة أدباء المهجر ؛ فراحت تجمع شمل أقلامهم وتصل بينهم وبين المشرق العربى بما تنقله من مقالات وقصائد عن صحف المشرق ؛ فكانت « المراحل » عوضاً مرموقاً عن « العصبة » منذ عام ١٩٥٤ إلى اليوم .

ولقد احسّ من بقى من أدباء المهجر البرازيلى بحاجتهم الماسّة إلى الالتئام فى عصبة جديدة ؛ فنهضت السيدة مربانا دعبول تحقّق لهم هذه الرغبـة ، وجعلت من دارها ندوة لهم يجتمعون فيها ويتدارسون شئون العصبة الجديدة ، وجعلت من صفحات « المراحل » حقلا تجول فيه أقلامهم ما طاب لها التجوال الحرّ .

وفى عدد آذار ونيسان ١٩٦٥ وهو عدد مزدوج يحمل الرقمين ١٠٨

و ١٠٩ من السنة العاشرة من عمر المجلة – حملت الصفحات ١٤ – ١٦ من « المراحل » نبأ إنشاء الرابطة الجديدة باسم « جامعة القلم » . وفيما يلى ما نشرته المجلّة فى هذا الصدد بتوقيعى الأديبين يوسف الفاخورى ، وشاكر الدبس .

« فى اليوم الثانى من شهر تموز ١٩٦٤ اجتمعت شلّة من أدباء العربيّة فى حاضرة سان باولو . فى منزل صاحبة المراحل الأديبة السيدة مريانا فاخورى ، وأبدت تخوّفها على مصير اللغة العربية فى المهاجر ، فقررت الدفاع بكل ما لديها من الوسائل عن تراثنا الأدبى ، وذلك بتأليف مؤسسة أدبية باسم « جامعة القلم » من شأنها تعزيز الأدب العربى شعراً ونثراً ، ونشر اللغة العربية فى المهاجر ، والحفاظ على تراثهما ورفع مستواهما .

« وقد عهد الحاضرون إلينا نحن الموقعين اسمينا أدناه بوضع قانون يصحّ ان يكون دستوراً للجامعة .

« وبعد اجتماعات متعدّدة توصلنا إلى إعداد القانون الذى ننشره اليوم ليطلع عليه كل أديب وشاعر فى الوطن والمهاجر ، ويبدى آراءه وملحوظاته كى يصبح هذا القانون وافياً بالغرض . لذا نرجو من إخواننا الأدباء المناصرة والتوجيه المخلص ، وإرسال ملحوظاتهم على عنوان إدارة المراحل ؛ فما رسالتنا إلا رسالتهم ورسالة الأجيال الطالعة فى هذا المنقلب البعيد من الأرض » .

وصاحبا التوقيعين هما من أسرة مجلة المراحل ؛ وفى هذا دلالة على أن للمراحل وصاحبتها الفضل الكبير فى محاولة إعادة بناء الأدب العربى فى المهجر بعد أن كادت تتقوّض أركانه ودعائمه ، ويسير نحو نهايته المحتومة .

أمّا أهداف جامعة القلم كما وردت فى دستورها المنشور فى المجلة فهى :

١ – تعزيز الادب العربى ونشر اللغة العربية فى المهاجر .

٢ – توثيق روابط الأدب العربى بين المغتربين والمقيمين .

٣ – نشر الأدب العربى فى بلدان الاغتراب .

٤ – إنشاء ناد أدبى يطلق عليه اسم « نادى الأدباء » ينضوى تحت لوائه عشّاق الأدب من المغتربين ومتحدّريهم .

٥– إنشاء مكتبة تجمع أكبر عدد ممكن من الكتب العربية والأجنبية التى

تعنى بشئون الأدب العربى والأدب العالمى .

٦ – إنشاء مجلة أدبية ينشر فيها أعضاء «جامعة القلم» إنتاجهم الأدبى ، فتكون لسان حالهم .

٧ – إقامة حفلات أدبية وترجمة كتبٌ قيّمة .

ويشترط فى عضو جامعة القلم – مقيماً كان أم مراسلاً – أن يكون متمتعاً بحقوقه المدنية ، وأديباً منتجاً يعتبر إنتاجه ذا قيمة فى عالم الأدب . ولا يتم قبوله إلا بموافقة أكثرية الإدارة .

* * *

هذه هى الرابطة الجديدة التى أقامها أدباء المهجر الجنوبى فى البرازيل عام ١٩٦٤ والتى حملت «المراحل» لواء الدعوة إليها وإنشائها لكى تجعل للأدب المهجرى كياناً بارز الأثر ، بعد أن رأت دبيب الفناء يتسلل فى شرايينه .

وقد تكون هذه الجرعة الجديدة وسيلة أمينة لإعادة الحياة إلى «الجسم» الذى تسرّب إليه البلى ، ولكنها أيضاً قد لا تكون أكثر من حقنة آنيّة لإطالة الاحتضار قليلا . على أننا – برغم كل شيء – نرجو أن تساعد هذه المؤسسة الأدبية الجديدة على إنعاش الأدب المهجرى وإعادة شيء من شبابه إليه فلا تكون انتفاضة الموت ، أو ما يسميه العامة (حلاوة الروح) .

والذى يجعلنا نرجو أن ينتعش الأدب المهجرى بهذه المؤسسة الجديدة هو أنه لا يزال فى المهجر الجنوبى عدد من كبار الأدباء والشعراء الذين تحدّثنا عنهم فى هذا الكتاب ، من أمثال إلياس فرجات ، وشفيق معلوف ، ونعمه قازان ، وفارس الدبغى ، وقيصر سليم خورى ، وميشال المغربى ، وحبيب مسعود ، وزكى قنصل ، وإلياس قنصل ، وغيرهم ، كما أن هناك عدداً آخر كبيراً ممن لم نتحدث عنهم فى كتابنا هذا لقلّة ما توصلنا إليه من معلومات عنهم ؛ ووسيلتنا الوحيدة إلى معرفة أسمائهم وشيء من إنتاجهم هو مجلة «المراحل» . وجدير بنا أن نذكر ههنا بعض الأسماء البارزة التى نعتقد أن «جامعة القلم» قد تألفت من أصحابها . من هؤلاء نشير أولاً إلى السيدين يوسف الفاخورى وشاكر الدبس ، الموقعين على البيان ، كما نذكر فيليب لطف الله صاحب

ديوان « نسمات الجبل » وتوفيق بربر ، وجواد نادر ، وسليم نادر ، ومريانا فاخورى دعبول ، ونقولا المعلوف ، وداود جرجس الخورى ، وأسد موسى ، وجورج قيصر المعلوف ، وفارس بطرس وموسى الحداد ، وأمين الغريب ، وجوزيف الخورى ، ويوسف الشرتونى ، وباسل فرحات ، وسليمان نعيم الشرتونى ، وعبد اللطيف اليونس ، وأنجيل عون شليطا ، ونصرى حديقة ، وغيرهم .

إن البيان الآنف الذكر لم يورد أسماء أعضاء « جامعة القلم » ، ولا وجدنا لهم سجلا فى أعداد المراحل ، إلا أن عدد المراحل المزدوج رقم ١١٦ و ١١٧ من سنتها الحادية عشرة ، الصادر عن شهرى تشرين الثانى وكانون الأول ١٩٦٥ ، قد حمل إلينا أثراً طيّباً من آثار هذه الجامعة يدلّ على الحيوية والنشاط ، وعلى الرغبة الصادقة فى الإبقاء على الأدب العربى فى المهجر حيًّا نامياً . وهذا الأثر هو حفلة تأبينيّة كبرى أقامتها « جامعة القلم » فى سان باولو فى ٢ أيلول ١٩٦٥ لذكرى الأديب المهجرى الراحل جورج حسّون معلوف ؛ ويكاد العدد كله يكون عدداً خاصًّا بالحفلة ، فقد امتلأت صفحاته بكلمات الخطباء وقصائدهم وهم : « يوسف فاخورى ، شفيق المعلوف ، حبيب مسعود ، مريانا فاخورى ، توفيق بربر ، فيليب لطف الله ، شاكر الدبس ، شكيب تقى الدين ، سليمان نعيم الشرتونى ، داود جرجس الخورى ، إلياس فرحات ، نصر سمعان ، السيدة سلوى خورى محفوظ ، بالإضافة إلى الشاعر المهجرى الشمالى الدكتور سليمان داود ، والأديب السورى عبد اللطيف اليونس . وهذا فأل حسن يبشّر بالخير ، ويجعلنا نؤمّل أن تعيد جامعة القلم مجد « العصبة الأندلسيّة » إذا قدّر لها من يموّلها ويخلص لها فى العمل والقيادة .

وعند ما أوردت المجلة قصيدة الدكتور سليمان داود ذكرت إلى جانب اسمه أنه « عميد جامعة الأدب العربى فى أمريكا الشمالية » مما يدلّنا على أن البقية الباقية من أدباء المهجر الشمالى قد ألّفوا هم أيضاً رابطة لهم تدعى « جامعة الأدب العربى » . وقد عرفنا الآن « عميدها » ولكننا ما نزال نجهل بقية أعضائها ، وإن كان من المؤكد أن الشاعر المعروف نعمة الحاج واحد منهم . على أن هذه الرابطة الشمالية التى نجهل أسماء أعضائها وعددهم ، ونجهل كذلك تاريخ تأسيسها ونشاطاتها ،

الفكريّة ، لم يستطع صوتها ان يصل إلى الشرق العربى كما كان يصل صوت « الرابطة القلمية » من قبل . ولسنا ندرى إن كان لهذه « الجامعة » جريدة أو مجلة معينة تحمل إنتاج أعضائها .

فى عام ١٩٦٧ أوردت مجلة (المراحل) فى عددها المزدوج ١٣٦/١٣٥ الصادر فى آب / أيلول ١٩٦٧ ، نبأ عن اجتماع لجامعة القلم تخلى فيها رئيسها الأول داود جرجس الخورى عن الرئاسة ، وجرت انتخابات جديدة للهيئة الإدارية ، ففاز السادة :

فيليب لطف الله -- رئيساً

داود جرجس الخورى ، وفؤاد نمر – لنيابة الرئيس

نبيه سلامه ، ووفاء نصر – لأمانة السر

فيليب عطا الله ، وشكيب تقى الدين – لأمانة الصندوق

نصرى حديقه – للخطابة

مريانا دعبول ، ونقولا معلوف ، وسليمان الشرتونى – للشؤون الاجتماعية .

ومنذ ذلك الحين لم نعد نعرف شيئاً عن جامعة القلم ونشاطاتها الفكرية : ولا ندرى هل ما تزال حيـة أم جرى عليها ما جرى على غيرها من عوامل الانحلال ، ولا سيما بعد أن أصبح الأدب المهجرى تاريخاً أكثر منه حقيقة فاعلة منتجة .

* * *

ومن مقال للأديب السورى عبد اللطيف اليونس ، نزيـل البرازيـل ، منشور فى عدد كانون الثانى وشباط ١٩٦٥ من مجلة المراحل بعنوان « تحية الأدباء العرب فى الأرجنتين » ، نعرف أن فى الأرجنتين كذلك رابطة للأدباء العرب تدعى « ندوة الأدب العربى » . ولعل هذه « الندوة » قد خلفت « الرابطة الأدبية » التى كان قد أنشأها جورج صيدح فى الأرجنتين ، وكانت تضم فى عضويتها زكى قنصل ، وإلياس قنصل ، وعبد اللطيف الخشن ، ويوسف صارمى ، والمطران نيفين سابا ، وغيرهم . ولكننا لم نعد نعرف شيئاً عن هذه الرابطة الأرجنتينية .

إن هذه الجمعيّات الأدبيّة ، فى الشمال والجنوب من المهاجر الأمريكية ، لدليل على بقيّة من تمسّك الأدباء وحملة الأقلام هناك باللغة العربية ، وحرصهم

على أن تظل مملكة الأدب العربي حية في المهجر بعد أن كثر نعاتها والمترحّمون عليها : بل بعد أن نعت هي نفسها بضعفها وانحلالها .

ونحن نأمل أن ينجح هؤلاء الأدباء فيما يرمون إليه ، وأن يتمكنوا من إعادة الحياة إلى أدب المهجر ولو إلى حين . هذا مع علمنا اليقين أنه ليس ثمة من أمل في أن يعود إلى الأدب المهجري بعد اليوم عصره الذهبي أيام الرابطة القلميّة ، ثم أيام العصبة الأندلسية ؛ وذلك لاختلاف الظروف ، أولا ، ولتطوّر الزمن ثانياً ؛ فحين ظهرت الرابطة القلمية كان الأدب العربي في الشرق يعاني من التقليد والجمود وبطء التطوّر ما يجعله في حاجة إلى اندفاعة قوية تأتيه من الخارج ، فتقذف به إلى الأمام بسرعة وجرأة وقوّة . وقد جاءت هذه الاندفاعة على يد جبران والريحاني ونعيمه وأبي ماضي في الشمال . وكذلك على يد فوزي المعلوف ، وأبي الفضل الوليد ، والقروي ، وفرحات ، في الجنوب .

أما اليوم فقد اختلف الزمن كثيرًا ، واختلفت الظروف كل الاختلاف ؛ وليس في الإمكان أكثر من المحافظة على استمرار الكلمة العربية حية في المهجر بشكل ما ، أما التجديد والإبداع ففي الشرق العربي اليوم منهما وثبات قوية في كل يوم ، وانطلاقات إلى مسايرة ركب الآداب العالمية في كل باب من أبوابها . لقد انتهى عهد التقليد والجمود في المشرق العربي ، ولم يعد ثمة ما يشدّ الاديب فيه إلى الخلف ، بل لم يعد الأديب الشرقي اليوم يرضى بأن يشدّه شيء إلى الوراء ، أو يعوقه عن الانطلاق الجريء . وفي هذا المجال أصبحت إمكانات الحاضر ميسورة ومتوافرة في الشرق أكثر منها في المهاجر الأمريكية ، حيث اندمج أبناء المهاجرين في البيئات التي هم فيها ، وأصبحت مصلحتهم وظروفهم كلها تقضي بمزيد من الاندماج فيها في كل شأن من شئون الحياة . وتفوّق أبناء المهجريين اليوم في آداب البلاد التي يقيمون فيها أصبح أكثر احتمالاً منه في الادب العربي الحديث .

وبرغم هذا اليقين فإننا نبارك بكل قلوبنا كلّ حركة يقوم بها المهجريون للحفاظ على اللغة العربية والروح العربية في ديار الهجرة برغم كل المصاعب ، وبرغم كل المغريات التي تصرفهم عن ذلك . ومن واجبنا أن نقدّم لهم كل عون

ممكن ، لكى يظل الحرف العربى مقروءاً هناك ، والكلمة العربية ملفوظة ومسموعة ؛ فى هذا مجد للعرب والعربية ليس باليسير .

ونشير هنا إلى كلمة نشرها الأديب المهجرى إلياس قنصل فى مجلة (الضاد) الحلبية[١] بعنوان « الأدب العربى المغترب فى حالة احتضار » ، وقال فيها :

« لم نعد ننتظر من الأدب العربى فى الأرجنتين أن يتدفق بروائع تضاف إلى دفتر المجد الفكرى الذى كتب سطوره الأولى منذ ستين سنة تقريباً ، بل أمسى قصارى أملنا أن تنبثق من نفسه قوة تمد فى البقية الباقية من حياته التى تهوى يوماً فيوماً .

« وهذا الذى نقوله عن أدب الضاد فى هذا المغترب نعمّمه على سائر المهاجر الأمريكية ؛ بل نذهب إلى أبعد من ذلك ، فنشير إلى أن الأدب العربى فى هذه الجمهورية سيكون آخر علم ينطوى من أعلام هذه الدولة الفكرية الشامخة التى بناها حملة الأقلام الذين ركبوا البحر إلى العالم الجديد .

« وليس فى مكنتنا أن نحدّد اتجاهات الأدب الحالى ، أو أن نعيّن معالمه ، أو أن نثمّن قيمته ، شأنه شأن الثمالة فى كأس من شراب متعدد الأصناف ، متباين الألوان ؛ ليس فيه طعم مبين من نوع ، وإن كانت فيه أجزاء راسبة من كل نوع » .

ثم يهيب الكاتب بالحكومات العربية أن تفعل شيئاً لإنقاذ الحركة الأدبية فى المهاجر الأمريكية من الموت ، ولا سيما بنشر إنتاج الأدباء المهجريين الفكرى ، ودعوتهم إلى زيارة الوطن لتجديد نشاطهم الفكرى وعاطفتهم .

وقد غاب عن بال الكاتب أن كلّ حكومات الدنيا لا تستطيع أن تخلق أديباً واحداً ، أو أن تنفخ الحياة فيما زالت منه عناصر البقاء .

---

(١) الضاد – (ع ٣ – ٤) آذار ونيسان ١٩٦٩ .

الفصل الثانى

توافق الأفكار والتعابير فى أدب « الرابطيين »

ما ذكرت « الرابطة القلمية » مرة إلا ذكرت معها قفير النحل الذى يزخر بالحياة والبركة . وأعضاء الرابطة القلمية يشبهون النحل من نواحٍ كثيرة : ففيهم من النحل نشاطه ، وحلاوة إنتاجه .

وكما يحوم النحل فى الحقول الزواهى ، يمتص من أزاهيرها أعذب الرحيق يحوّله إلى شهد لذيذ ، كذلك كان الرابطيون يمتصون رحيق الحياة الكامنة فى نفوسهم ، وسلاف المعانى التى تقدمها الطبيعة ، ويوحى بها المجتمع الإنسانى ، فتحوله أقلامهم أدباً أطيب من الشهد ، وأكثر منه حلاوة .

وكما تحوم جماعة من النحل حول زهرة واحدة ، فتمتصّ كل منها شيئاً من رحيقها ، كذلك كثيراً ما حام أدباء الرابطة حول عدد من المعانى الواحدة ، فخرجوا منها بفكرة واحدة ، وروح واحدة ، وإن تنوّعت القوالب اللفظية فى التعبير . ومع ذلك لم يفقد أحـــد منهم شخصيته الأدبية ، ومميزاتها المتفرّدة .

وليس فى توافق أفكار الرابطيين شيء من الغرابة ، فقد كانوا فئة قليلة العدد من الشبان ذوى المواهب الأدبية المتفوقة ، والنزعات الفكرية الحرة ، والعقول النيّرة ، جمعت بينهم الغربة ، بعد أن كان يجمع بينهم الوطن العربى الواحد ، فى سوريا ولبنان ، وجمعت بينهم الغيرة على إنقاذ الأدب العربى من جموده وقيوده ، وألف بينهم الاستعداد الطبيعى ، والقدرة على العمل المنتج . وكان الجو حرًّا يسمح بالعمل ، والآفاق واسعة تسمح بالتنفس ملء الرئتين .

كل هذا جعل لهذه الجماعة الصغيرة شخصية أدبية واحدة ، قوية ، مبدعة . فبدأوا العمل برغبة وحماسة ، والتفوا حول جريدة واحدة — كانت أولا « الفنون » لنسيب عريضة ، حتى قضت ، فالتفوا حول « السائح » لعبد المسيح حداد — يحرّرونها ويولونها كل رعاية وعناية . وكانت دارها ندوتهم اليومية ، وملتقى أحاديثهم ،

ومجتمع افكارهم . ولذلك كان لا بد من ان تتوافق افكارهم ، وتتقارب تعابيرهم ، بعد أن توحدت مبادئهم ، وتآلفت ارواحهم ، وان يظهر هـذا كله فى إنتاجهم الأدبى الجميل .

ومن الحق أن نذكر ههنا انه قد كان لوجود جبران على راس هذه الجماعة – وقد كان هو أسبقهم إلى الظهور فى الميدان الأدبى ، بقلمه الجرىء ، ومبادئه الفكرية الحرة المخصبة – اثر بعيد جداً فى افكارهم وإنتاجهم الأدبى . والمبادئ الفكرية التى كان يعالجها بقلمه ، من مثل الأخوة الإنسانية الشاملة ، وعقيدة تناسخ الأرواح ، ووحدة الوجود ، تركت أثرها فى نفوس زملائه فترددت على أقلامهم بتعابير متنوعة ، وأساليب متفاوتة .

ولعل من الحق أن نذكر أيضاً أن أكثر من تأثر بهذه الروح الكبيرة ، وبمبادئ صاحبها وعقائده الفكرية ، واتخذ منها رسالة أدبية وروحية يبشر بها بعد صاحبها ، وينافح عنها بكل قوة وبراعة ، هو ميخائيل نعيمه : فوحدة الوجود ، والأخوة الإنسانية ، اللتان بشّر بهما جبران فى كثير من مؤلفاته ، هما عماد أدب نعيمه ومحور إنتاجه الادبى ؛ وعقيدة التناسخ التى رددها جبران فى كثير مما جرى به قلمه من الفصول ، منذ بدء ظهوره الادبى ، كانت محور قصة « لقاء » لنعيمه ، وعدد آخر من فصوله الباقية ؛ والافكار الفلسفية التى ردّدها جبران فى « رمل وزبد » و « النبى » خاصة ، نجد لها مثيلا فيمـا كتبه نعيمه . وكما وضع جبران كتابه « النبى » ليحمل خلاصة فلسفته وآرائه فى الحياة والوجود ، و « رمل وزبد » ليحمل الإشعاعات الخاطفة من تاملاته وخطرات روحه ، كذلك وضع نعيمه كتابه « مرداد » ليحمل خلاصة فلسفته وآرائه فى الحياة والوجود ، و « كرم على درب » ليحمل الإشعاعات الخاطفة من فكره .

أما الروح الإنسانية خاصة ، فهى عماد ادب الرابطيين ، إخوان جبران وزملائه ؛ وكذلك حب الطبيعة ، وعمق الإحساس بها ، وخلق الحياة فى كل ما فيها ، واتخاذ العبرة منها .

وكذلك يتفق الرابطيون فى فهم الادب ، وفى روح التجديد فى اللغة والمعانى ، ويتفقون ايضاً فى الإحساس والتفكير ، وفى التعبير عن إحساسهم وتفكيرهم ،

وفى الاعتقاد الراسخ بأن الفكر الخالق والخيال المبدع هما اللذان يحييان اللغة ، وليست القواميس وكتب اللغة . وسنتحدث على هذا فى فصل لاحق عقدناه على « رسالة الادب المهجرى إلى اللغة العربية » .

اما ما عدا ذلك ، فسنرى فيما يلى بعض الافكار والمعانى التى طرقها الرابطيون فى ادبهم الإنسانى الجميل . ولعل اول ما تجدر الإشارة إليه تلك النداءات الإنسانية التى تهزّ النفوس بحنان عذب ، وتحرك القلوب برقة ساحرة ، من مثل : « أخى ، صاحبى ، رفيقى ، وغيرها » ؛ هذه التعابير التى لم يعرفها الأدب العربى سابقاً بمثل هذه الروح النبيلة والمشاعر الرقيقة التى عرفها فى أدب المهجر .

وليست قصيدة « اخى » لميخائيل نعيمه بمجهولة ، وهى من اروع الشعر الإنسانى المؤثر . وكذلك قول أبى ماضى فى قصيدة « الفاتحة » :

يا رفيقى ! أنا لولا أنتَ ما وقّعتُ لحْنا

إلخ .

وفى « الطين » :

يا أخى لا تُشِح بوجهكَ عنّى ما أنا فحْمةٌ ، ولا أنتَ فَرْقَد

وقول نسيب عريضة :

يا ابْنَ ودّى ، يا صاحبى ، ياصديقى ليس حُبّى تطفلاً او ثقالَه
فأجبْنى بـ « يا اخى » ، يا صديقى وأعدْ ، إنّها ألذّ مقالَه

وقول ندرة حداد :

يا أخى السّاعى لنيل الـ ـمجْد خفّف عنك جمحكْ

وغير هذا كثير لا يمكن سرده فى مثل هذه الإلمامة ، وكله يدلّ على عاطفة إنسانية فسيحة ، ملؤها النبل ، والرقة والحنان ، وعلى قلوب إنسانية سُبكت فى الفردوس ، ثم أهبطت إلى الارض لتعلم الناس كيف يسمون بإنسانيتهم .

ومن التوافق اللطيف فى أدب الرابطيين نذكر قول جبران فى فصل له بعنوان « ايتها الأرض » :

« ما أكرمك أيتها الأرض ، وما أطول اناتك ! نحن نكلم صدرك بالسيوف والرماح ، وانت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم ؛ نحن نزرع راحاتك بالعظام

والجماجم وأنت تستنبتينها حوراً وصفصافاً ؛ نحن نستودعك الجيف ، وانت تملئين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد ؛ نحن نصبغ وجهك بالدم ، وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر »

وقد لخص نعيمه هذه المعانى بقوله فى « زاد المعاد » : « هى النكبة أن تسقينا الأرض من عصير قلبها الطاهر ، فنسقيها من دماء قلوبنا الممزّقة بشفار بغضائنا وأهوائنا » .

ويقول أبو ماضى فى قصيدته « الطين » ، واصفاً بساطة الطبيعة وعدم تملقها أو محاباتها :

إنَّ طيرَ الأراك ليس يُبالى ... أنتَ أصغيتَ أم أنا إنْ غَرَّدْ
والأزاهير ليس تسخرُ من فقـ ... ـرى ولا فيكَ للغِنَى تتورَّدْ

وفى قصيدته « كتابى » إذ يقول أيضاً :

وشاهدتُ كيفَ النهرُ يبذلُ ماءهُ ... فلا يبتغى شكراً ولا يدَّعى فضْلا
وكيف يزينُ الطلّ ورداً وعَوسَجاً ... وكيف يروّى العارضُ الوعرَ والسَّهْلا
ودينى الذى اختارَ الغديرُ لنفسهِ ... وياحسْنَ ما اختارَ الغديرُ وما أحلى !
تجىءُ إليه الطيرُ عطْشَى فترتوى ... وإن وردتْهُ الإبلُ لم يزجر الإبْلا
ويغتسلُ الذّئب الأثيم بمائِه ... فلا إثمُ ذا يُمحى ، ولا طهرُ ذا يبلى

وفى عدد آخر من قصائده الروائع ، مثل « المساء » و « الشاعر والسلطان الجائر » و « الطلاسم » وغيرها .

وإذ ننظر فى مؤلفات نعيمه نجد هذه المعانى نفسها منبثّة هناك ، كقوله فى « زاد المعاد » ، تحت عنوان « ستور الطبيعة » : « وجارى – صنّين – جار كريم حليم ؛ يجول فى جوّه النسر والخفّاش ، فيمدّ بساطه للاثنين على السواء . يتسلّقه الغنى فلا ينحنى أمامه قائلا : أهلا وسهلا ، والفقير ، فلا يعبس فى وجهه وينتهره : اغرب عنى ؛ وتشرب من ينابيعه العنزة الصحيحة والجرباء ، فلا يسقى الأولى ماء زلالا ، والثانية ماء عكراً » .

وهذه المعانى تذكّرنا « بمواكب » جبران التى أكثر فيها من الحديث على عدل الطبيعة ومساواتها . ومما قاله فى هذا المعنى :

ليس في الغابات حــــرٌّ   لا ولا العبـــــدُ الزّنيم
إنما الأمجـــــادُ سخفٌ   وفقـــاقيـــعُ تَعُـــوم
فإذا ما اللـــــوزُ ألقَى   زهـــره فـــوقَ الهشيم
لم يقُلْ : هـــذا حقيرٌ   وأنا المـــولى الكَريم

وكذلك يتوافق جبران وأبو ماضي في معان كثيرة ، نذكر منها قول جبران في « رمل وزبد » : « ما أنبل القلب الحزين ، الذى لا يمنعه حزنه من أن ينشد أغنية مع القلوب الفرحة » ، وقول أبي ماضي في المعنى نفسه :

قال : الليـــالى جرَّعَتْني علْقمـــاً   قلت : ابتسمْ ولئن جرعتَ العلْقَما
فلعلّ غـــيرَكَ إن رآكَ مـــرنِّماً   طرح الكــآبة جانباً وترنَّمـــا

ويتوافق أبو ماضي ونعيمه في معان أخرى ؛ فمثلا يقول أبو ماضي :

كم تشتكى وتقولُ إنَّك معـــدمُ   والأرض ملكك والسما والأنجمُ
ولك الحقول وزهرُها وأريجُها   ونسيمُهـــا والبلبـــلُ المترنِّمُ

فيقول نعيمه : « أوَلم تعطك الحياة السماء وكل ما فيها ، واليابسة وكل ما عليها ، والبحار وكل ما في أحشائها ؟ » .

ويقول أبو ماضي « في الأسطورة الأزلية » :

هم حدّدوا القبحَ فكان الجمالْ   وعرّفـــوا الخيرَ فكان الطّلاحْ
وليس من نقصٍ ولا من كمالْ   فالشّوكُ في التَّحقيق مثل الأقاحْ
وذرّة الرمـــل ككلّ الجبـــالْ   وكالذى عَـــزّ الذى هانا

فيقول نعيمه : « لا الجبل أثقل من ذرة الرمل ، ولا الثور أعظم من الضفدع ، ولا الثمرة أثمن من الحطبة ، ولا الزهرة أقدس أو أجمل من الشوكة » .

وكذلك يتوافق أبو ماضي وندرة حداد ؛ فيقول أبو ماضي في قصيدته « الفاتحة » :

يا رفيقى ! أنا لولا أنتَ ما وقّعتُ لَحْنـــا
كنتَ في سِرّى لمَّـــا كنتُ وحــــدى أتغنى
هذه أصداءُ روحى ، فلتكن روحُك أُذْنا
ربمـــا كنتُ غنيًّا ، غـــير أنى بكَ أغنى

يا رفيقي ! أنت إن راعيتَ فجرى صار أسْنى
وإذا طفتَ بكَرْمى ، زدته خصبًا وأمْنَا
قد سكبتُ الخمر كي تشربَ فاشرَبْ مطمئنا
كلما أفرغتُ كأسى ، زدتَ فى كأسىَ دنًّا

ويقول ندرة حداد فى قصيدته « سر معى » :

يا أخى السَّاعى لنيل المجدِ ، خفِّف عنك جَمْحَكْ
أنا راضٍ بالعصا يا أيّهـــا الحامـــل رمْحَكْ
وسأرضى خبْزَك الأسودَ فى الحبّ وملْحَـــكْ
وسأنسىَ جرحَ قلبى ، كلّما شاهدتُ جرْحَكْ
وأرى ليلك ليلى ، وأرى صبحىَ صبْحَكْ
وإذا أخطأتَ نحـــوى فأنا الطَّالبُ صفْحَكْ

إن هاتين القصيدتين تحومان حول معنى حنون واحد ، فيه أجمل وأنبل ما يمكن أن ينبض به قلب ، من معانى المحبة والأخوة والعواطف الإنسانية الصادقة المخلصة .

ويشترك ميخائيل نعيمه مع هذين الشاعرين ، إذ يقول فى فصل « إخوة غرباء » من كتابه « صوت العالم » : « أدركت يا أخى أننى ما خطوت خطوة فى حياتى إلا كانت يدك فى يدى ، وساعدك إلى ساعدى ، وكتفك إلى كتفى . . وأننى حييت لا بما فىّ وحدى من حياة ، بل بما فيك وفىّ من حياة . . . وها أنذا أستغفرك جميع ذنوبى إليك – وما أكثرها – فهلا غفرت ؟ » .

وقد حام نسيب عريضة فى عدد من قصائده حول هذه المعانى الحنونة التى طرقها زملاؤه . ونشير بنوع خاصّ إلى قصيدتيه « ادن منى » و « يا أخى » فى ديوانه « الأرواح الحائرة » .

ونحن حين نقرأ هذه الأقوال جميعها نتذكر جبران – عميد الرابطة – إذ يقول فى « دمعة وابتسامة » : « أنت أخى ، وكلانا ابن روح واحد قدوس كلّى ، وأنت رفيقى على طريق الحياة . . . أنت إنسان ، وقد أحببتك يا أخى . خذ منى ما شئت ، فلستَ بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرتُ به

لمطامعي ؛ فأنت خليق ببعضه ، إن كان يرضيك بعضه . أنت أخي ، وأنا أحبّك » .

ومن الأدلّة على توافق الرابطيين فى معان أخرى ، قول جبران ، تحت عنوان « وعظتنى نفسى » : « وعظتنى نفسي فعلمتنى ألا أقيس الزمن بقولى : « كان بالأمس ، وسيكون غداً » . . . أما الآن فقد عرفت أن فى الهنيهة الحاضرة كل الزمن ، بكل ما فى الزمن مما يرجى ويُنجَز » .

وأيضاً : « وعظتنى نفسى فعلّمتنى ألا أحدّ المكان بقولى : « هنا وهناك وهنالك » . . . أما الآن فقد علمت أن مكاناً أحلّ فيه هو كل مكان ، وأن فسحة أشغلها هى كل المسافات » .

ويقابل هذا قول نعيمه فى « زاد المعاد » : « والخيال الذى يطوى كل الزمان فى « الآن » ، ويحشر كل المكان فى « هنا » ، لا يبصر شيئاً من التفاوت » ، وأيضاً : « فكل الأغداء إنما هى هاجعة فى حضن هذا اليوم » . وقوله كذلك : « كيفما انقلبتم تناولتم من الحياة ما يستحيل عليكم فصله عن سواه وعنكم ، ووجدتم أنكم فى كل شيء ، وأن كل شيء فيكم ، وأنكم لا يحصركم مكان ، ولا يحدّكم زمان » .

وكذلك قد يتفق الرابطيّون حتى فى اللهجة الساخرة المتهكّمة ؛ فمثلا يقول أبو ماضى :

ألكَ الروضةُ الجميلةُ ، فيها الـ ... ـماءُ والطيرُ والأزاهـرُ والنَّدّ ؟
فالْجم المـاءَ فى الغـدير ومرْهُ ... لا يصفّق إلاّ وأنت بمشْهَـد
وازجر الرّيحَ أن تهـزّ وتلوى ... شجرَ الروض إنه يتأوّدْ ! . . .

ويقول نعيمه فى نفس المعنى : « . . . إذاً ضع البحر فى جيبك ، والشمس والقمر والنجوم فى بيتك ، واحبس الهواء فى خزانتك ، واحصل على صك بشذا الأزهار وأغاريد الأطيار . . . »

أمّا حبّ الطبيعة ، واندماج الرابطيين الشعورى فيها ، فلسنا فى حاجة إلى ضرب الأمثلة والشواهد عليه ، لأنه صفة عامة فيهم ؛ وفى الأمثلة القليلة التى أوردناها فى هذه العجالة ما يكفى للدلالة عليه . فالطبيعة عندهم هى رمز الجمال

والحرية والمحبة ، وهى الملهم الأكبر ، والمصـــدر الذى يقتبسون منه أمثلتهم وتوجيهاتهم .

وأما الحنين إلى الوطن ، هذه العاطفة الملتهبة التى اكتوى بنيرانها كل أديب مهجرى ، فإن من لغو القول الإتيان بشواهد على توافق أفكار الرابطيين – وغير الرابطيين أيضاً – وتعابيرهم فيها ؛ فهى عاطفة مشتركة بين الجميع ، وقد أبدع فيها أدباء المهجر عموماً ، بشكل لم يسبق أن عرفه تاريخ الأدب العربى من قبل . وأكثر من نظموا فى الحنين الحار ، بين الرابطيين هم : رشيد أيوب ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة ، وندرة حداد .

وبعد ، فهذا وشل من فيض مما يمكن الاستشهاد به فى هذا المجال . والدارس المستقصى لا بد له من أن يلاحظ هذا التوافق فى الفكر والتعبير لدى أدباء الرابطة القلمية ، لكثرته . ولذلك رأينا أن نخصص له هذا الفصل للدلالة عليه ، ولنذكر أن التوافق الذى رأيناه فى العبارات القصيرة المتفرقة يستتبع توافقاً فى الفصول الطوال التى كتبت فى معانيها ، والتى تناولها كل من الرابطيين بأسلوبه الخاص ، وخلع عليها من شخصيته المبدعة .

غير أننا لا نستطيع أن نحصى كل المعانى والأفكار والتعابير التى تناوبت على طرقها أقلام الرابطيين فى مثل هذه الإلمامة السريعة .

وملاحظة أخيرة لا بد منها وهى أن النقاد القدماء اعتادوا أن يدعوا مثل هذا التوافق الفكرى « توارد خواطر » ، ولكن توارد الخواطر هذا لا ينطبق على حالة الرابطيين ، لأن معناه أن يقع اثنان أو أكثر من الكتّاب أو الشعراء على معنى واحد عفواً ومن دون قصد ؛ أما الرابطيون فإن الذى بينهم هو وحدة فى العقائد والمبادئ الفكرية والأدبية والإنسانية ، وفهم مشترك فى الأدب واللغة ، وتآلف روحى على تأدية رسالة أدبية وإنسانية واحدة ، ولذلك فالذى بينهم هو « اشتراك مقصود » وليس مجرد « توارد خواطر » .

الفصل الثالث

الأسلوب الجبرانى

تردد هذا التعبير – الأسلوب الجبرانى ، أو الإنشاء الجبرانى – خلال النصف الأول من هذا القرن بكثرة ؛ وهو منسوب إلى جبران خليل جبران ، زعيم مدرسة التجديد فى الأدب المهجرى ، والمؤثر الأول فى اتجاهاته الفكرية الإنسانية والتأملية ، وفى استلهام الطبيعة ، والتحرر الفكرى والتعبيرى ، وفى الخيال المحلّق ، والرمزية الشفافة الحلوة . غير أن الذين أطلقوا هذه التسمية فى الشرق لم يكونوا يقصدون بها جبران وحده ، بل كانوا يشملون بها إخوان جبران فى المهجر أيضاً ، ، والمتأثرين بأدبه وأسلوبه البيانى من أبناء الشرق العربى .

والحقيقة هى أن أسلوب جبران التعبيرى ، بخيالاته الرقيقة الحلوة ، وعبارته البسيطة الغنية بالموسيقى ، قد أحدثت فى العالم العربى هزة تفتحت لها نفوس الأجيال الجديدة من حملة الأقلام ، وصدى تجاوبت معه قلوبهم وعواطفهم . وسرعان ما انتشر هذا الأسلوب الجبرانى فى الشرق العربى ، برغم الحملات التى قام بها المحافظون والحاقدون ليحدوا من انتشارها ، أو ليعوقوا من اندفاعها .

ولكن الأقلام الجديدة اندفعت فى تقليدها للغة جبران وأسلوبه الخيالى الموسيقى ، وأخذت تستعمل ألفاظه وتعابيره الجديدة ، واستعاراته وتشابيهه وكناياته التى لم يألفها العرب من قبل ، من مثل (الذات المجنحة – خمرة السنين – سكينة الليل – ثوب السكينة – حقل القلب – دموع الشفقة – مراشف الأرواح – تكلمت الطبيعة بألسنة السواقى ، وابتسمت بشفاه الأزهار – زلزال عنيف حبلت به الأرض فتمخضت متوجعة ولم تلد غير الخراب والشقاء – مرور أنامل النسيم على ثغر الوردة – تبدد الرياح بقايا الغيوم فوق خط الشفق – تضمحل الأيام الغابرة فى زوايا غرفتى اضمحلال أناشيد السواقى فى الأودية البعيدة الخالية – سرت على طريق الحياة مثل صبى ضائع بين الأحياء المهجورة – نفسى كالنواة المطروحة

على الصخرة ، لا الطير يلتقطها فيميتها ، ولا العناصر تشقها فتحييها — من الجنوب تجيئين حارة كالمحبة ، ومن الشمال تأتين باردة كالموت ، ومن المشرق لطيفة كملامس الأرواح ، ومن المغرب تتدفقين شديدة كالبغضاء — وادى ظل الحياة — نهر الدماء والدموع المتراكض كأحلام المجرمين) والكثير جداً سواها من تشبيه المحسوس باللامحسوس ، واستعارة المعنوى للمادى ، والتكنية باللامنظور عن المنظور — أو العكس .

إن الأمثلة القليلة جداً التى قدمناها من الألفاظ والتعابير الجبرانية لا تستطيع — وهى ألفاظ وتعابير مفككة منقولة دون روابط من موضوعات متفرقة لجبران — أن تعطى فكرة واضحة عن الأسلوب الجبرانى ؛ فالأسلوب ليس مجرد ألفاظ وتعابير ، ولكنه طريقة تفكير ، وطريقة تعبير معاً ؛ طريقة إحساس وتخيّل وتمثّل ؛ وهو وسيلة إظهار شخصية الأديب والشاعر والفنان مستقلة متميزة عما عداها .

ولذلك لا بد لنا من شرح هذا الأسلوب الجبرانى الجديد — الذى لم يعد اليوم جديداً ، لأنه أصبح أسلوب الأدب الإبداعى الحاضر .

لم يكن جبران يجرى على طريقة واحدة فى الكتابة . فهو حيناً يكتب خيالا عاطفيًّا مجرداً ، وحيناً أحاسيس واقعة عميقة ، وطوراً يخاطب الناس بالأمثال والرموز والحكم والمواعظ الروحية ، وطوراً بأسلوب التعنيف القاسى ، وتارة يكتب شعراً فلسفيًّا تأمليًّا ، وتارة نثراً شعريًّا موسيقيًّا . غير أن كل هذه الأساليب والطرق التعبيرية كانت تفيض من شخصية متميزة فى تفكيرها وخيالها وروحها وبيانها ، وتجرى بألفاظ شفافة عميقة التأثير ، سواء أكان ما يكتبه نثراً ، أم شعراً ، وسواء أكان أقصوصة ، أم مثلا ، أو حكمة . أو خيالا ، أو تأملات فى الحياة والطبيعة ، وفى الكون وما وراء الكون .

وفى ما يلى نماذج من هذا الأسلوب الجبرانى بأنواعه المختلفة ، تظهر فيها روح جبران المتميزة بطابعها الخاص ، وألفاظ جبران وتعابيره الجديدة الشفافة .

١ — من « الأجنحة المتكسرة » :

« للكآبة أيادٍ حريرية الملامس ، قوية الأعصاب ، تقبض على القلوب

وتؤلمها بالوحدة ؛ فالوحدة حليفة الكآبة ، كما أنها أليفة كل حركة روحية . ونفس الصبي المنتصبة أمام عوامل الوحدة وتأثيرات الكآبة ، شبيهة بالزنبقة البيضاء عند خروجها من الكمام ترتعش أمام النسيم ، وتفتح قلبها لأشعة الفجر ، وتضم أوراقها بمرور خيالات المساء . . .

« فى تلك السنة شاهدت ملائكة السماء تنظر إلىّ من وراء أجفان امرأة جميلة ، وفيها رأيت أبالسة الجحيم يضجون ويتراكضون فى صدر رجل مجرم . ومن لا يشاهد الملائكة والشياطين فى محاسن الحياة ومكروهاتها ، يظل قلبه بعيداً عن المعرفة ، ونفسه فارغة من العواطف » .

ومنه أيضاً : « إن السماء قد وضعت فى يدى كأساً مفعمة بالخل والعلقم ، وقد تجرعتها صرفاً ، ولم يبق فيها غير قطرات قليلة سوف أشربها متجلداً لأرى ما فى قاع الكأس من الأسرار والخفايا . أما تلك الحياة الجديدة العلوية المكتنفة بالمحبة والراحة والطمأنينة ، فأنا لا أستحقها ، ولا أقوى على احتمال أفراحها وملذاتها ، لأن الطائر المكسور الجناحين يدبّ متنقلا بين الصخور ، ولكنه لا يستطيع أن يسبح محلقاً فى الفضاء ؛ والعيون الرمداء تحدق بالأشياء الضئيلة ولكنها لا تقوى على النظر إلى الأنوار الساطعة . فلا تحدثنى عن السعادة لأن ذكرها يؤلمنى كالتعاسة ؛ لا تصوّر لى الهناء لأن ظله يخيفنى كالشقاء ، ولكن انظر إلى الأريك الشعلة المقدسة التى أوقدتها السماء بين رماد صدرى . . .

« إن المحبة المحدودة تطلب امتلاك القلوب ، أما المحبة المتناهية فلا تطلب غير ذاتها . . . »

ويلاحظ القارئ كم فى هذه الفقرات القليلة من التعابير الجديدة ، والاستعارات والتشابيه والكنايات التى لم يكن العرب يألفونها من قبل ، ولكنها اليوم أصبحت مألوفة جدًّا بعد أن أدخلها جبران فى الأدب العربى ، واستساغتها الأقلام الجديدة فاحتضنتها ومضت تكثر من التعبير بها وبأمثالها .

٢ — من كتاب « دمعة وابتسامة » :

« كنت بالأمس كلمة صامتة فى خاطر الليالى ، فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة وكلمة وتنهدة

وقبلة . تلك الدقيقة ، يا حبيبتى ، قد جمعت بين استعدادات نفسى الغابرة وأمانيها الآتية ، فكانت كالوردة البيضاء الخارجة من قلب الأرض المظلمة إلى نور النهار . تلك الدقيقة هى من كل حياتى بمنزلة ميلاد يسوع من كل الأجيال ، لأنها كانت مملوءة روحاً وطهراً ومحبة ؛ لأنها جعلت الظلمة فى أعماقى شعاعاً ، والكآبة مرحاً ، والشقاء سعادة . . . »

ومنه أيضاً يخاطب الريح : « تمّرين آناً مترنحة فرحة ، وآونة متأوهة نادبة ، فنسمعك ولا نشاهدك ، ونشعر بك ولا نراك ، فكأنك بحر من الحب يغمر أرواحنا ولا يغرقها ، ويتلاعب بأفئدتنا وهى ساكنة .

« تتصاعدين مع الروابى ، وتنخفضين مع الأودية ، وتنبسطين مع السهول والمروج . ففى تصاعدك عزم ، وفى انخفاضك رقة ، وفى انبساطك رشاقة ؛ فكأنك مليك رؤوف يتساهل مع الضعفاء الساقطين ويترافع مع الأقوياء المتشامخين .

« فى الخريف تنوحين فى الأودية فتبكى لنواحك الأشجار ، وفى الشتاء تثورين بشدة فتثور معك الطبيعة بأسرها ، وفى الربيع تعتلّين وتضعفين ، ولضعفك تستفيق الحقول ، وفى الصيف تتوارين وراء نقاب السكون ، فتخالك ميتاً قتلته سهام الشمس ثم كفنته بحرارتها .

« أنت تحملين من أزقة المدينة أنفاس العلل ، ومن الروابى أرواح الأزهار ؛ وهكذا تفعل النفوس الكبيرة التى تحتمل أوجاع الحياة بسكينة ، وبسكينة تلتقى بأفراحها .

« أنت تهمسين فى أذن الوردة أسراراً غريبة تفهم مفادها فتضطرب تارة ، وطوراً تبتسم ؛ وهكذا تفعل الآلهة بأرواح البشر .

« أنت تكتبين على وجه البحيرة أشعاراً ثم تمحينها ؛ وهكذا يفعل الشعراء المترددون . . . »

* * *

بهذه التعابير الجديدة ، وهذه الخيالات الرائعة ، وهذه الألفاظ الموسيقية ، يتميز أسلوب جبران الجديد ، الذى أصبح أسلوب العصر الحاضر : ففيه الموسيقى ،

وفيه الخيال الجميل ، وفيه الغنى بالمعانى الرقيقة الحلوة غير المألوفة ، وفيه جمال البساطة ورقتها .

* * *

٣- من كتاب « النبى » - وهو كتاب يعلم الحكمة ، ويعلم الحيـاة ، ويعلم الإنسانية :

« طالما سمعتكم تتخاطبون فيما بينكم عمّن يقترف إثماً كأنه ليس منكم ، بل غريب عنكم ودخيل فيما بينكم . ولكنى ، الحق أقول لكم ، كما أن القديس والبارّ لا يستطيعان أن يتساميا فوق الذات الرفيعة فى كل منكم ، هكذا الشرير ، والضعيف لا يستطيعان أن ينحدرا إلى أدنى من الذات الدنيئة فى كل واحد منكم . وكما أن ورقة الشجرة الصغيرة لا تستطيع أن تحوّل لونها من الخضرة إلى الصفرة إلا بإرادة الشجرة ومعرفتها الكامنة فى أعماقها ، هكذا لا يستطيع فاعل السوء بينكم أن يقترف إثماً بدون إرادتكم الخفية ، ومعرفتكم التى هى فى قلوبكم ؛ فإنكم تسيرون معاً فى موكب واحد إلى ذاتكم الإلهية . .

« كثيراً ما يذهب المجرم ضحية لمن وقع عليه جرمه ، كما يغلب أن يحمل المحكوم عليه الأثقال التى كان يجب أن يحملها الأبرياء وغير المحكومين . لذلك لا تستطيعون أن تضعوا حدًّا يفصل بين الأشرار والصالحين ، أو الأبرياء والمذنبين ، لأنهم يقفون معاً أمام وجه الشمس ؛ كما أن الخيط الأبيض والخيط الأسود ينسجان معاً فى نول واحد ، فإذا انقطع الخيط الأسود ينظر الحائك إلى النسيج بأسره ، ثم يرجع إلى نوله يفحصه وينظفه . . .

« لذلك ، إنْ رغب أحد منكم فى أن يضع الفأس على أصل الشجرة الشريرة باسم العدالة ، فلينظر أولا إلى أعماق جذورها ، وهو ولا شك واجد ان جذور الشجرة الشريرة وجذور الصالحة ، المثمرة وغير المثمرة ، كلها مشتبكة معاً فى قلب الأرض الصامت » .

* * *

هذه الرموز الجميلة البسيطة الواضحة ، وهذه الحكم الدالة على عمق النظرة وبعد مراميها ، كان لها أبعد الأثر فى نشر الأسلوب الجبرانى على الأقلام الجديدة ،

وإغناء الأدب العربى الحديث بالأفكار والمعانى الجديدة ، والنظرات الإنسانية الحكيمة فى شؤون الحياة .

ولقد تكلم جبران بالرموز كثيراً ، بل لعله أول من تكلم بها بين أدباء العرب فى العصر الحديث ، ومن عنده شقت طريقها إلى الأدب العربى ، وتأثر بها أدباء اليوم كل التأثر .

ولعل أول من تأثر بها كل التأثر زميل جبران ورفيقه ، ميخائيل نعيمه . وهذه المعانى عينها التى اقتطفتها من « النبى » تكررت مراراً كثيرة فى كتب نعيمه ، وبتعابير جد مشابهة لتعابير جبران .

غير أن رموز جبران كانت فى بعض الأحيان تبدو غامضة ، بحيث لا يتوصل القارئ بسهولة إلى إدراك معانيها . وأكثر ما جاء ذلك فى كتابه « آلهة الأرض » بشكل خاص ، فليس من السهل إدراك الأفكار والمعانى الكامنة وراء محاورة الآلهة الثلاثة .

وكما ابتدع جبران فى الأدب العربى الحديث أسلوب الرمز الشفاف ، ليعطى به الناس أسرار الحياة والوجود كما وعاها فى ضميره ، كذلك ابتدع – أو كان من أوائل من ابتدعوا – فى هذا الأدب العربى أسلوب النثر الشعرى ، ذى العبارة الموسيقية القصيرة ؛ وهو ما يدعونه بالشعر المنثور ، وقد أخذ هذه الطريقة عن الأدب الغربى ، أو عن والت ويتمان الأمريكى ، وسار عليها هو والريحانى فى زمن واحد ؛ أو لعلها من تأثير نيتشه الألمانى فى « هكذا تكلم زرادشت » .

من ذلك قوله فى « البدائع والطرائف » مناجياً الأرض :

« ما أكرمك أيتها الأرض وما أطول أناتك !

ما أشد حنانك على أبنائك المنصرفين عن حقيقتهم إلى أوهامهم

الضائعين بين ما بلغوا إليه وما قصروا عنه !

نحن نضجّ وأنت تضحكين

نحن نذهب وأنت تكفّرين

نحن نجدّف وأنت تباركين

نحن ننجّس وأنت تقدّسين

نحن نهجع ولا نحلم ، وأنت تحلمين فى سهرك السرمدى
نحن نكلّم صدرك بالسيوف والرماح وأنت تغمرين كلومنا بالزيت والبلسم
نحن نزرع راحاتك بالعظام والجماجم ، وأنت تستنبتينها حوراً وصفصافاً
نحن نستودعك الجيف ، وأنت تملئين بيادرنا بالأغمار ومعاصرنا بالعناقيد
نحن نصبغ وجهك بالدم ، وأنت تغسلين وجوهنا بالكوثر
نحن نتناول عناصرك لنصنع منها المدافع والقذائف ، وأنت تتناولين عناصرنا وتكوّنين منها الورود والزنابق .
ما أوسع صدرك أيتها الأرض ، وما أكثر انعطافك ! »

* * *

هذه نماذج من نثر جبران ، وهو الذى أطلِق عليه اسم « النثر الجبرانى » أو « الإنشاء الجبرانى » أو « الأسلوب الجبرانى » . وعلى الرغم من أن شعر جبران لا يختلف من حيث الروح والعبارة عن نثره ، فلا نعتقد أن أحداً كان يعنيه بهذه التسمية ، بل كانت التسمية مقتصرة على نثره وحده .

على أننا نقدّم فى ما يلى نموذجاً من شعر جبران أيضاً ، ليرى فيه القارئ أن شعره لا يختلف عن نثره فى أسلوب التعبير .

والنموذج من قصيدته « يا نفس » التى يقول فيها :

يا نفس لولا مَطْمعى بالخلْد ما كنتُ أعى
لحنًا تغنيه الدّهُور
بل كنتُ أنهى حاضرى قسْراً فيغدو ظاهرى
سرًّا تواريهِ القبُور
يا نفس لو لم أغتسِلْ بالدمع أو لم يكتحِلْ
جفنى بأشباح السقام
لعشتُ أعمى ، وعلى بصيرتى ظُفْرٌ فَلا
أرى سوى وجه الظلام
يا نفسِ إنْ قالَ الجهُول الروحُ كالجسم تزُول
وما يزولُ لا يعود

قـولى له إنّ الزهُـــــور تمضى ولـــكنّ البُـــذور
تبقى ، وذا كُنْهُ الخلود

من كل هذه النماذج المتقدمة يحاول الناقد العصرى أن يبحث عن سبب للحملات العنيفة التى أثيرت فى وجه الأدب المهجرى - والجبرانى منه بنوع خاص - والتهم الكثيرة التى كيلت للغته ولمعانيه ، ولبيانه العربى الجميل ، وعبثاً يبحث عن ذلك ، فليس فى هذا شىء مما يؤخذ على لغته ونصاعة بيانه . إنه لبيان مشرق ، وإنها للغة جميلة ، وكل ما فى الأمر أنها لغة جديدة فى مفهوم رجال العصور السابقة ، لأن معانيها أبكار ، واستعاراتها وتشابيهها وكناياتها لم تطرق من قبل ولم تألفها الأسماع . وغير المألوف شىء ، والفاسد والخاطئ شىء آخر .

الفصل الرابع

العناصر البارزة فى الأدب المهجرى

توطئة :

بين سائر الطفرات التى عرفها تاريخ الأدب العربى على طوله ، تمتاز الطفرة ، أو المدرسة المهجرية بوفرة ما فيها من العناصر الجديدة القوية ، فى القالب وفى الجوهر معاً ، مما يجعل سائر الطفرات السابقة تكاد تتضاءل أمامها . فقد استطاعت أن تقفز بالأدب العربى قفزة واسعة جدًّا ، أوصلت الكثير من إنتاجه –وعلى الأخص من إنتاج المهجريين أنفسهم – إلى مستوى أرقى الآداب العالمية الحية ؛ وكان الأدب العربى قبلهم ما يزال يزحف زحفاً سلحفائيًّا ، وهو ينوء بما يجرجره من ركام الألفاظ والأساليب القديمة البالية ، التى تكبله وتثقله فتعوق سيره وتكاد تشل حركته .

ولعل أبرز العناصر الحية التى تميزت بها مدرسة المهجر الأدبية تتلخص فى تسع مزايا كبرى : اثنتان منها فى القالب التعبيرى ، وهما : (١) التحرر التام من قيود القديم . (٢) الأسلوب الفنى والطابع الشخصى المتميز ؛ والسبع الباقية هى فى الموضوع ، أو جوهر العمل الأدبى ، وهى : (١) الحنين إلى الوطن . (٢) التأمل . (٣) النزعة الإنسانية . (٤) عمق الشعور بالطبيعة . (٥) براعة الوصف والتصوير . (٦) الغنائية الرقيقة فى الشعر . (٧) الحرية الدينية .

وقد تكون هناك ميزات أخر نستطيع أن نسجلها للأدب المهجرى ، غير أنها تأتى فى المنزلة الثانية بعد هذه الخصائص الكبرى الرئيسية . ولذلك سنجتزئ بما تقدم ، فهو حسبنا فى هذه الدراسة .

١ – التحرر من قيود القديم

كان الأدب العربى الحديث ، قبل أن يطلع علينا المهجريون بأدبهم القوى العميق المشرق ، يسير على أنماط من الأساليب القديمة التى يهمها اللفظ أكثر مما يهمها المعنى ، وتعنى بكثرة المحفوظ من الألفاظ والصيغ والتعابير القديمة . وكان الأدباء والكتاب يتبارون فى تقليد القدماء فى ما يطرقونه من المواضيع : شعراً ونثراً ، ويجرون على الأساليب عينها التى درج عليها أولئك القدماء ، والتى لا تلائم إلا عصورهم الماضية . فمن معارض للمقامات يحاول أن يتفوق عليها بما يحشو به مقاماته من خشن الألفاظ وغريبها ، ومعقد التعابير وقديمها ؛ ومن راغب فى أن يكون صاحب قاموس جديد ، أو شارحاً لقاموس قديم ، أو جامعاً لألفاظ مترادفة ؛ ومن واضع لأرجوزة فى قواعد اللغة ؛ ومن مقلد لشعر المتنبى ، أو أبى تمام ، أو ابن الرومى ، أو غيرهم من شعراء العرب الأقدمين ؛ وهكذا دواليك . أما الحيوية ، وأما المعانى والأفكار ، فأشياء تأتى على هامش الهامش ، وقلّ من يستطيع أن يفطن إلى أنها هى التى تؤلف الأدب ، وليس سواها . ولذلك ظل الأدب العربى فجًّا متأخراً ، لم يتميز كثيراً عن الأدب الذى أنتجته فترة الانحطاط فى تاريخ الأمة العربية ؛ فإن ارتقى عن ذلك كان تقليدا لأدب العصور السابقة ، ولا سيا العصر العباسى .

فلما ظهرت المدرسة المهجرية بخصائصها الجديدة وعناصرها الحية ، وثورتها الجريئة على كل قديم لا يصلح للحياة ولمسايرة العصر ، تطلعت إليها الأبصار دهشة ، فرأت فئة من ذوى الأقلام الفتية الخلاقة قد تحررت من عبودية التقليد ، ونفضت عنها مذلة الجمود على ما اصطلح عليه الأقدمون من أساليب وتعابير ، وحررت إنتاجها الأدبى من قيود الألفاظ ، وجعلته يسير فى موكب الحياة كما تسير الحياة نفسها : قويًّا ، جديداً دافقاً ، يستمد من الحياة ، ويتسع للتعبير عن الحياة بألفاظ الحياة نفسها : الحياة المتجددة المتطورة دائماً .

وبينما كان قصارى الكاتب العربى فى الشرق أن يبرع فى تقليد القدماء إلى

حد ينال معه إعجاب إخوانه المقلدين ، طامساً بذلك أسلوبه ، وشخصيته ، وأفكاره ، كان الأدب المهجرى ، وعلى الأخص أدب الرابطة القلمية التى كان أبرزَ أعضائها جبران ونعيمه وأبو ماضى ونسيب عريضة ، وكان كذلك أدب الريحانى ، يشق طريقه باندفاع وجرأة ، كما تشق أشعة الشمس طريقها إلى الكون من وراء الأفق البعيد العريض . وإذا به يسطع على العالم العربى كما يسطع نور الشمس زاهياً باهراً ، يحمل فى تضاعيفه وثناياه لقاحاً جديداً من الكنوز الفكرية الواسعة ، ومن العاطفة الإنسانية الرحيبة ، ومن الغذاء الروحى الدسم ، فى آنية يبهر بريقها العيون ، ويطرب رنينها الموسيقى العقول ، ويفتح فى حنايا القلوب تعطشاً إلى هذا الجديد البارع الجميل .

رأى الناس فى الشرق هذا كله ، فهالهم ما رأوا ، وأحدث بينهم رجة عنيفة ، فانقسموا فى تقديره إلى فريقين : فريق يؤيده متحمساً ، وفريق يناهضه متحمساً أيضاً . أما الذين أيدوا مدرسة المهجر متحمسين ، فلأنهم وجدوا فيها حيوية دافقة ، ومسايرة للحياة ، ولوناً جديداً من الأدب القوى القريب إلى النفوس على نحو لم يألفه الناس فى الشرق .

وأما الذين ناهضوها ، فلأنها جاءت تقلب إيمانهم القديم بأن يظل الأدب العربى مربوطاً « بأمراس كتان إلى صمّ جندل ! . . . » وبرهنت لهم على أنه . .

إذا قام شعــرٌ بألفاظــه تكونُ القواميسُ خيرَ الكتبْ

كما يقول نعمه قازان ؛ وعلى أن اللغة إن هى إلا وسيلة لنقل الأفكار والمعـانى ، وليست غاية فى ذاتها ، وأنها يجب أن تكون من المرونة بحيث يسهل إخضاعها للمعانى القوية الحية ، لا أن تخضع لها المعانى القوية الحية . وهذا مما لا يلائم عقلية أولئك الذين يرون أن دولاب الحياة قد وقف عند أَصحاب « القبور » القديمة التى ندعوها « معاجم » ، وكانت إلى ذلك الحين لا تزال تعيش عليها ، ولها ، جماعة ممن يعيشون فى الماضى وللماضى فقط .

غير أن صيحة أولئك المعاجميين ما لبثت أن ألجمتها الأيام أو كادت ، وسار الأدب المهجرى كالجدول الرقراق العذب ، يتدفق مجدداً فى حياة الأدب

العربى الحديث ، وتتبارى الأقلام فى الشرق فى تقليده ، مما أدّى إلى تقدم الأدب العربى إلى المدى الواسع الحاضر ، الذى ننظر إليه اليوم بالارتياح والرضى .

وهكذا مضى المهجريون فى أدبهم الجديد الجرىء ، متحررين من كل ما لا يصلح للحياة الجديدة ، ومطلقين أنفسهم وأقلامهم على سجيتها : فلا يستعبدها قديم ولا يستهويها جديد ، إلا ما يرضون به بمحض اختيارهم حين يشعرون بصلاحيته للحياة . وهذا التحرر فى حياة الأدب المهجرى جعل المهجريين – وقد انصرفوا عما وضعه الأقدمون من السنن الأدبية ، وما فرضوه من الأغراض الشعرية – يبدعون فى الخلق والتجديد والابتكار : خلق وتجديد وابتكار فى الشعر ، وخلق وتجديد وابتكار فى النثر ، من قصة ومقالة وكتاب ؛ ومن نقد ، ووصف ، وتحليل ، وتأليف ، وما إليها . وهكذا كانت مؤلفات جبران جديدة باهرة ، لم يعرف لها الشرق العربى مثلا فى ما سبق . وكان « غربال » نعيمه دستوراً أدبيًا جديداً لم يألفه الشرقيون . وكانت « جداول » أبى ماضى تحمل فى تضاعيفها ألحاناً ومعانى ترتفع بالأرواح بعذوبة ولطف لم يعهدها الشرقيون فى الشعر العربى . وبالإجمال كانت المدرسة المهجرية المتحررة جديدة لم يألفها الشرق العربى المحافظ . ولا غرابة فى ذلك ، فهى خلاصة العناصر القوية الحية فى روحانية الشرق ، مسكوبة فى أحدث قالب وأروعه من رومنتية الغرب العصرية الزاهية ؛ وقد وَفَّق المهجريون بينهما بطريقة فذّة ساحرة ، فكان منهما الأدب المهجرى الذى جدد حياة الأدب العربى الحديث ، وساعد أعظم مساعدة على تقــدمه ونضجه ، وترك فيه أعظم الآثار ، وأجلها خطراً .

٢ – الأسلوب الفنى والطابع الشخصى

من أبرز ما يتميز به كبار أدباء المهجر أن لكل منهم طابعاً خاصًا يمتاز بيسر وسهولة عن طوابع الآخرين ، وتظهر فيه شخصية صاحبه قوية بخصائصها ، على الرغم من وحدة المنبع ووحدة الغاية لدى الأكثرين .

فأغلب أدباء المهجر يغترفون من مناهل واحدة ، ويهدفون إلى غاية واحدة ، أو غايات متقاربة . فهم يغترفون من داخلهم أولا ، ويتأثرون بما يحيط بهم ثانياً ، يشعرون بالطبيعة شعوراً عميقاً ، ويحنّون إلى أوطانهم حنيناً جامحاً ، ويبحثون عن حقائق الحياة الكبرى بحثاً جاهداً ؛ يفرحون ويتألمون ، يشكّون ويهتدون ، يحبون ويبغضون ، يثورون ويسكنون . وبعبارة أخرى : يغترفون من معين الحياة الواسع مادة لأقلامهم . وأما هدفهم الذى يعملون له باستمرار وإخلاص ، فهو خلق أدب حرّ قوى يعنى بالمعانى والأفكار الكبيرة ، ولا يتقيد بالسفاسف والتفاهات التى تكبّل أجنحته القويّة دون التحليق والسمو ، وأذرعه دون أن تنفتح لاحتضان الحياة بأسرها .

ولكن بقدر اشتراك هؤلاء الأدباء جميعهم فى الاغتراف من تلك المناهل الواحدة ، والسعى إلى هذه الغاية الواحدة ، تختلف شخصياتهم الأدبية ، بحيث يظهر كل منهم مستقلا عن الآخرين . بطابعه الخاص فى التفكير أو فى التعبير ، أو فى كليهما معاً . وفى الواقع أن سمة التميز فى الشخصية المتفوقة إنما هى ميزة العظماء وحدهم فى كل ناحية .

وتميز الطابع الأدبى أو استقلاله قد انتقل بعد ذلك إلى الشرق ، فكثر بين كتابه الأدباء المتميزون بطوابعهم الخاصّة وشخصياتهم المستقلة . ففى مصر مثلا تجد طابعاً خاصًّا لكل من طه حسين ، والحكيم ، والعقاد ، والمازنى ، والزيات ، وأحمد أمين ، وزكى مبارك ، وسلامة موسى . وفى لبنان وسوريا تجد طابعاً خاصًّا لكل من إلياس أبى شبكة ، وسعيد عقل ، ونزار قبانى ، ومارون عبود ، وعمر أبى ريشة ، وكرم ملحم كرم ، وبشارة الخورى ، وغيرهم .

أما قبل أن يذيع الأدب المهجرى فى الشرق ، ويتأثر الأدباء بروحه الحرة ، فقد كنا نرى أكثر الأدباء يتنافسون فى الغالب فى تقليد الأساليب البيانية والبديعية العتيقة ، ليبنوا شخصياتهم الأدبية على شخصيات سابقة معروفة ، لأنها فى اعتقادهم قد أثبتت صلاحيتها منذ زمن بعيد ؛ فتأتى كتاباتهم على نمط واحد ، أو أنماط متقاربة مهما اختلفت أذواقهم ومشاربهم .

وقد تكون فى حاجة إلى بعض الشواهد على تميز الطوابع الأدبية لدى المهجريين ؛

فلذلك نرى أن نستشهد بعدد قليل من الشخصيات المهجرية البارزة ، لأن المجال لا يتسع للجميع . ونترك للقارئ أن يقابل بينها ، وأن يرجع إلى الآخرين ليستخلص بنفسه خصائصهم الأدبية الشخصية . وقبل ذلك لابد من أن نذكّر القارئ بأ نه قد لا يجد شيئاً جديداً فى الوقت الحاضر فى ما يعرض عليه ، لأنه اعتاد رؤية مثله فى ما يكتبه الكتاب اليوم ، ولكن عليه ألا ينسى أن الأساليب العربية الحديثة كلها إنما هى انبثاقات عن الأساليب المهجرية ، وربيبات لها ؛ فالمدرسة المهجرية هى التى شقّت لها السبيل إلى الحياة ، وإلا فما أدرانا ما كان يمكن أن يكون من أمر أساليبنا الكتابية لولا ذلك ؛ فالأساليب والطوابع المهجرية كانت جديدة ومتميزة فى حينها ، ثم انتشرت وكثر تلاميذها ومقلدوها فى الشرق ، وبعضها لا يزال حتى الآن على جدّته وتميزه .

ولنأخذ الآن جبران أولا ، فقد كان من أسبق المهجريين إلى الظهور ، وإلى التأثير فى الأدب العربى الحديث بأسلوبه الجديد فى التعبير . وقد بهر العالم العربى بخيالاته الجميلة واستعاراته الجديدة المدهشة ، وبيانه المترقرق بأبسط الألفاظ وأعذبها ، وأوقعها فى النفوس ، على الرغم مما ينطوى تحتها فى الغالب من روح ثائرة متمردة ، حتى لقد دعى أسلوب الإنشاء العصرى الخيالى العاطفى بالأسلوب الجبرانى ، كما قدّمنا .

ولابد من أن نذكر ههنا أن جبران كان أكثر المهجريين تنويعاً فى أساليبه الكتابية : فبينما هو فى « دمعة وابتسامة » و « الأجنحة المتكسرة » يخاطب الأرواح والقلوب بلغته الوجدانية الرقيقة المتسلسلة ، الغنية بالصور والألوان الشعرية الجميلة ، تجده فى « المجنون » و « السابق » مثلا حكيماً يخاطب العقول بالأمثال ؛ وفى « آلهة الأرض » يتحدث بالرموز ؛ وفى « المواكب » يتحدث بطريقة الحوار التمثيلى ؛ وفى « النبى » نجده معلماً ومرشدا ، يخاطب الناس بلغة فيها نصيب للضمير وللروح وللعقل ، وفيها أحياناً تعابير رمزية قد يلتبس معناها على الكثيرين ، ولكنها برغم رمزيتها تترك فى روح القارئ شعوراً قريراً بجمال أسلوبها وصورها ، وبحسن وقعها الشعرى .

والغريب فى هذا أن جبران كان فى هذه الأساليب المتنوعة هو جبران الفنان

الأصيل ، القويّ الشخصية فى فنه ، والمتميز فى طابعه الأدبى عن كل أديب آخر ؛ ذلك لأن روحه الثائرة المتمردة ، من جهة ، على كل التقاليد والشرائع الأرضية ، من دينية واجتماعية ، وكل القائمين على تنفيذها ؛ والرحيبة النبيلة ، من جهة أخرى ، بحيث ترتبط برباط المحبة الوثقى بالإنسانية كلها ، هى التى كانت تملى عليه وتوجّه قلمه مهما كان الأسلوب الذى يكتب به . ومن هنا ينتفى العجب من أن نعدّ جبران ذا طابع أدبى خاص ، مع تنوع أساليبه الكتابية ؛ فهذه الأساليب كلها هى أساليبه ، وهو الذى استحدثها فى الأدب العربى ، وجعل الرابط بينها جميعاً جمال الألفاظ ورشاقة التعبير ، وروعة الصور الخيالية الملونة ؛ وبكلمة أخرى الأسلوب الفنى الجميل . فجبران الذى يقول فى « الأجنحة المتكسرة » مثلا : « إن المرأة التى تمنحها الآلهة جمال النفس مشفوعا بجمال الجسد ، هى حقيقة ظاهرة نفهمها بالمحبة ، ونلمسها بالطهر ، وعندما نحاول وصفها بالكلام تختفى عن بصائرنا وراء ضباب الحيرة والالتباس » ، هو نفسه القائل فى « دمعة وابتسامة » : « كنت بالأمس كلمة صامتة فى خاطر الليالى فأصبحت أغنية مفرحة على ألسن الأيام . وقد تم هذا كله فى دقيقة واحدة مؤلفة من نظرة ، وكلمة ، وتنهدة ، وقبلة » ؛ والقائل فى « المواكب » :

لم أجدْ فى الغاب فرْقــاً بين نفس وجَسَـــدْ
فالهــوا مـــاءٌ تهادَى والنَّـدَى مــاءٌ رقَدْ
والشـــذا زهْـرٌ تمـادي والــثرى زهْـرٌ جَمَـدْ
وظـــلالُ الحَـور حَورٌ ظـــنّ ليـــلاً فرقَـدْ

وهو نفسه القائل فى « النبى » أيضا : « إن الريح لا تخاطب السنديانة الجبارة بلهجة أحلى من اللهجة التى تخاطب بها أحقر أعشاب الأرض . والعظيم العظيم إنما هو ذلك الذى يحوّل هزيم الريح إلى أنشودة جميلة تزيدها محبته حلاوة وعذوبة » .

فالروح واحدة ، والتعبير الفنى واحد ، ومنهما معاً يتألف الطابع الشخصى فى الأدب . وما دمنا فى حديث الأسلوب الفنى فنودّ أن نقرر ههنا أن المهجريين

قد خرجوا عن الطريقة القديمة فى الفهم الفنى التى تعتقد أن الفن كله هو فى الرجوع إلى قواعد البديع والبيان ، وما فيهما من جناس وطباق وتورية واستعارة وغيرها ؛ وبخروجهم أطلقوا لأخيلتهم العنان ، فحلّقت حيث شاء لها التحليق ، بينما ظلت قواعد البديع والبيان القديمة فى حضيض الجمود والتقليد .

ونقطة ثانية لابد من ذكرها ، وهى أن أكثر المهجريين المبدعين لم يكونوا يهتمون بأن يجعلوا فرقاً بين لغة الشعر ولغة النثر ، لأن لغتهم كانت دائماً موشاة بألطف التعابير والصور والخيالات التى يصبح معها النثر شعراً جميلا ذا رنين ساحر . ولذلك نرى مثلا لغة جبران ولغة ميخائيل نعيمه فى النثر هما عينهما فى الشعر أيضاً ؛ وهما فى الحالتين جميلتان فى تعابيرهما الفنية الشعرية . فالشعر والنثر عندهما هما حالتان من حالات الكتابة ، أوفنّان من فنون التعبير ، على أن تكون اللغة المستعملة دائماً لغة بسيطة جميلة ، تدل كل لفظة منها على معناها بقوّة ، وتترك فى نفس قارئها رنيناً عذباً . ومثل هذا الفهم نجده حينما نطالع شعر إيليا أبى ماضى ، ونسيب عريضة ، وإخوانهما من شعراء الرابطة القلمية مثلاً ، وشعر الكثيرين – ولكن ليس الجميع – من شعراء المهجر الجنوبى . خذ مثلا نعيمه ، فهل تجد فرقاً بين لغته إذ يقول فى شعره :

أخى ، إن ضجَّ بعدَ الحرب غربىٌّ بأعمالهْ

وقدّس ذكرَ من ماتوا ، وعظّمَ بطْشَ أبطالهْ

فلا تهزجْ لمن سادُوا ، ولا تشمتْ بمن دَانا

بل اركَعْ صامتاً مثلى ، بقلب خاشع دام

لنبكى حظَّ موتانا

ولغته إذ يقول فى نثره : « ها أنتم تنتقون من بينكم أفراداً ، فتخلعون على البعض جبة الفخامة ، وعلى الآخر العطوفة ، وعلى الثالث السعادة ، فكأن من بقى منكم ليسوا إلا خشارة الحياة . وهكذا تسكنون الذلّ فى قلوبكم ، وشفاهكم تطلب الرفعة ، وتبنون أعشاشاً للعبودية فى أرواحكم ، وألسنتكم تنادى باسم الحرية . أما كفى الإنسان مجداً أنه إنسان ؟ » .

إنها لغة واحدة فى كليهما ، أو أسلوب واحد بسيط ، ولكنه جميل فى بساطته جماله فى معانيه ، وفيه رقة وفن وشاعرية .

وأما نعيمه فى كل ما يكتبه فأسلوبه هو هو لا يتنوع ، ولغته البسيطة الجميلة الواضحة هى هى ، وروحه هى هى ، ونوع تفكيره العاطفى الخيالى هو هو . وبهذا كله يتميز طابع نعيمه الأدبى عن سواه .

ولست أرانى فى حاجة إلى أن أبين مزايا الطابع الشخصى للريحانى ، مثلاً أو لأبى ماضى ، أو لنسيب عريضة ، من أدباء المهجر الشمالى ، فهى فى رأينا أوضح من أن نحاول إيضاحها وتحديدها ؛ كما أن المجال أضيق من أن يسمح لنا بذلك . غير أنه لابد لنا من التعريج على المهجر الجنوبى ، لنذكر شاعرين منه امتازا بالشخصية القوية البارزة فى شعرهما ، وهما فوزى المعلوف ، والشاعر القروى . فوزى المعلوف يتميز شعره بنصاعة العبارة ، وجمال التشابيه والاستعارات ، ولطف الخيال ، كما يتميز فيه الشاعر بحسن اختياره للّفظة الدالة على معناها ، مع المحافظة على التعبير الشعرى التصويرى الخالص . ولعله فى هذا أول من استحدث الأسلوب الشعرى فى الشعر العربى المعاصر ، بعد أن استحدث جبران فى النثر مثله . وعنه نشأت – كما يخيل إلى – المدرسة الشعرية العربية الحديثة التى تعتمد على الجمال والموسيقى فى اللفظة والعبارة ، وعلى الغنى الدافق بالصور والألوان اللطاف .

خذ مثلا النشيد السادس من ملحمته « شعلة العذاب » ، فهو يدلك على نوع شعره ، وعلى التعبير الشعرى الفنى الذى نعنيه عنده :

أيها الوردُ ، والضُّحَى فضَّ كمَّكْ ... كَيف تبكى – بلا سَبَبْ ؟

لم تُثر بَعدُ شقوة العمــــر غمَّكْ ... فالتشكى – إذن – عَجَبْ

كيفَ تبكى والفجـرُ يفترُّ للأر ... ض فيمحو قطوبَها بافْترارهْ

ما عرفت الرّبيــعَ غضــاً جميــلاً ... للأمــانىّ بسمة فى اخضرارهْ

لا ولا الصيف ناسجاً فى محيّــا ... ك خيوطَ الحيــاة من أنْوارهْ

ما رأيت الخـــريفَ فى صدرك العا ... رى يــوشّى عقيــقه بنضارهْ

والشتـــاء الحـــزين يغسلُ ساقَيْـ ـك بدمع ينهلُّ فى أمطـارهْ
ما عرفت النسيمَ روحاً خفيفـــاً عطـــرُ أنفاسه دليلُ مـــزارهْ
تمتمـــاتُ الغـــرام تُسمع من فيـ ـه وهمْسُ السماء فى مزمـارهْ
دغـــدغ الروض عابثاً بنـــداهُ ساكباً روحَه عـــلى أزهاره
ما رأيت الفَـــراشَ يطـوى جناحَيْـ ـه ويهـــوى عليكَ بعد مطـــاره
يتملى من كأس كمّك نهْـــلاً ثمّ يلـــوى بنشوة من عقـــاره
قلبـــه ذائبٌ عـــلى شفتيـــه قُبَـلاً لم تـــزلْ توجّ بنـــاره

فنى هذا الغنى الكثير بالصور الشعرية ، وهذه العبارة الناصعة ، يتلخص طابع فوزى المعلوف الشعرى ، ويضاف إليها كآبة عميقة تسيطر على نفسه فيصطبغ بها شعره .

وأما الشاعر القروى فيمتاز بذوب الإحساس فى حنينه ، وبفورته العارمة الخطابية فى وطنيته . وأما التعبير الفنى عنده فى وطنياته فهو أحياناً دونه عند فوزى المعلوف وجبران ، مثلا ، إلا فى قصائده المتميزة ، مثل « الربيع الأخير » و « أقحوانة أبرنكا » وغيرهما ؛ لأن الشعر الوطنى الفائر يعتمد فى الغالب على الألفاظ الخطابية ، ذات اللهجة الحادة المثيرة . وهنا نجد طابع القروى الشخصى فى شعره . فعبارته الشعرية هى عاصفة مزمجرة ، لألفاظها وقع الهول ؛ لأنها تعبير عن ثورة عصوف . ومن ذلك قوله فى « عيد الفطر » :

صياماً إلى أن يفطـــر السيف بالدم وصمتاً إلى أن يصدح الحقّ يا فمى
أفطرٌ وأبناء الحـــمَى فى مجاعة وعيدٌ وأحـــرارُ البلاد بمـــأتم ؟
هَبُـونىَ عيـــداً يجعلُ العرْبَ أمة وسيروا بجثمانى عـــلى دين برهم
ســـلامٌ على كفر يوحد بيننـــا وأهـــلاً وسهلاً بعـــده بجهنم

وبعد فقد قلنا كثيراً عن الطابع الشخصى المستقل لدى المهجريين ، وذكرنا كثيراً شيوع الأسلوب الأدبى الفنى فى كتاباتهم . وقد كنا نود أن نقف طويلا عند هذا الأسلوب الفنى لنبين خصائصه عنـدهم ، ومدى ما فيه من قوة ، لولا أن الدكتور محمد مندور قد سبقنا إلى ذلك فى كتابه « الميزان الجديد » ؛ فقد حال هناك

عدداً من القصائد والقطع النثرية المهجرية فى فصول متتابعة تحت عنوان « الأدب المهموس » ، اهتم فيها كثيراً ببيان قوة الألفاظ فى الدلالة على معانيها ، وفى جمال مواقعها . لذلك نحيل القارئ إلى تلك الفصول ، ففيها ما يروى غليله ، منوهين بما كان للدكتور مندور – رحمه الله – من فضل فى خدمة الأدب الرفيع بتلك الفصول القيمة .

٣ – الحنين إلى الوطن

لعل الحنين إلى الوطن فى شعر العرب كله أبرز ما نجده بقوة وعنف ، وبرقة وعمق ، فى شعر المهجر الأميركى ، بشقّيه : الجنوبى والشمالى : الجنوبى حيث تنطلق أغاريد الشاعر القروى ، وترانيم فوزى المعلوف ، وإلياس فرحات ، وشفيق معلوف ، ونعمة قازان ، وجورج صيدح ؛ والشمالى حيث تتسعر أناشيد أبى ماضى ، ورشيد أيوب ، ونسيب عريضة : تلك الأناشيد والأغاريد والترانيم التى ينقرها الحنين الصادق اللاعج على أوتار جياشة بالشعور العميق المتفجر ، دفاقة بالعاطفة المضطرمة ، المجنحة بالإبداع والخلق والشاعرية المرهفة .

ولا عجب فى ذلك ، فالعربى اللبنانى والسورى الذى نزح عن دياره ، يحمل بين جنبيه طموحاً أعرض من الفضاء ، وآمالاً أطول من أشعة الشمس ، وخلّف وراءه دنيا تهدهدها السذاجة والقناعة والروحانية – وإن يكن إلى جانبها الذل والجهل والخنوع – اصطدم فى المهجر بالمادية الصارخة ، والحياة الآلية المزعجة التى لم يألفها فى الشرق ، ولا ألف ما هو قريب منها ، والتى أحسن ميخائيل نعيمه التعبير عنها بكلمة موجزة إذ قال : « كنت واحداً من الملايين التى كتب لها أن تفتش عن « إبرة » السعادة فى « جبال » القير والأسفلت والحجر والحديد المعروفة باسم نيويورك » ؛ فلم يلبث أن شعر بفراغ عظيم فى قلبه وفى حياته ، فجعل يتذكر قريته الهانئة الوادعة ، الغارقة فى أحلام اليقظة الحلوة ، تغازلها عيون « الشيخ » حرمون ، وتداعب شعورها أنامل آيار ، وتعانق

أرزها الخالد نفحات النسيم الرطاب . فجعل يحن متلهفاً إلى مرابع صباه ، ومغانى أنسه وهواه ، حيث الشمس المشرقة ، والحياة الهادئة البسيطة ، والطبيعة المراح الباسمة ؛ حيث كان سعيداً فى قناعته الصوفية ، وسذاجته الروحية ؛ وحيث كان يجد من وقته ما يذكر به ربه ، ويعيش معه لحظات من نهاره ، كما يقول قازان فى « معلقة الأرز » :

وكنت مــع الله فى قريتى   فصرتُ بلا الله فى غُربتى

فأصبح فى مهجره القصى بعيداً عن الله ، بعيداً عن سعادة القلب ، وطمأنينة الضمير ، وبساطة الروح – والشرق يظل يعيش بالروح وللروح ، مهما حاولت مدنية المادة أن تجرفه فى تيارها – فلا المال الكثير يخفف مـن فقره الروحى ، ولا الشهرة العريضة تدخل الرضى إلى ضميره ؛ فإذا به يهتف بلسان القروى :

إيه لبنــانُ ! هل يَراكْ   نــازحٌ شفَّــهُ هــواكْ
حبــذا العيشُ فى حماك   حبذا العيشُ ليلتَيْنْ – ثم حَيْنْ
كــلُّ شىء إلى الفنـــا   ما ترى الكـــدّ والعنَـــا
ما ترى المـــالَ والغـــنى   عند مرآك سَاعتَيْن – حلوتَيْن ؟

وبلسان نعمه قازان القائل :

هجرت ، وللنفْس أطماعُهـا   وإنى مع الحظِّ فى هجْرَتى
فلا المالُ أشبعَ من جوعتى   ولا المجدُ أطفأ من غلتى
هى النفسُ تحيا بإحساسها   وليسَ على الحسِّ من قدْرةِ
فلا ، لا أحبُّ سوى قرْيَتى   ولا ، لا أريدُ سوى أمَّتى

لقد أضرم الاغتراب حنين المهجريين ، فجعلوا يحنّون إلى الشرق الذى مازال يرسف فى قيود المذلة والهوان ، ويتمنون له الحرية الكاملة ليتسنى له أن يحتضن أبناءه من جديد كما تحتضن الدجاجة فراخها . وفى هذا الحنين أنتج لنا المهجريون شعراً رائعاً عبقريًّا ، سيبقى زغرودة فى فم الأيام ، لما ينصح به من حنين مشبوب ، ووجد صادق ، وما يزخر به من عاطفة محتدمة ، وخيال

ســاحر . وأبرز ما نجد ذلك عند شعراء المهجر الجنوبى – أمريكا الجنوبية – وعلى الأخص عند أبى الفضل الوليد وعند الشاعر القروى ، رشيد سليم الخورى ، وإلياس فرحات ، فهـم فى المهاجر الأميركية زعماء شعراء الحنين ، وشعراء الوطنية الثائرة ، بلا منازع . ولم يقصر شعراء المهجر الشمالى فى هذه الناحية ، فقد اكتوى الجميع بنار الغربة المحرقة ، وأحسوا بلواعج الحنين الملتهبة ، ففاضت قرائحهم بشعر هو السحر الحلال ، فى التغنى بجمال موطنهم الشرقى ، وفى تذكر أيامهم السالفة فى سهوله ورباه ، وفى تعنيف ذويه الذين كانوا راضين بحكم الغرباء فيه ، واستنهاض هممهم لدفع ذلك العار ، وللعمل على تحرير بلادهم من كل نير غريب .

يقول إلياس فرحات معترفاً بسبق الشاعر إلياس طعمه – أبو الفضل الوليد – له وللشاعر القروى فى الشعر القومى ، ما يلى فى كلمة له نشرتها مجلة (الضاد) الحلبية [١] :

« جاءت الحرب العالمية الأولى ، وفى خلالها لم نكن نسمع إلا شعر إلياس عبد الله طعمه (أبو الفضل الوليد) مجلجلاً بالقومية العربية . وقد بدأت أنا فى أواخر الحرب المذكورة أنظم الشعر العربى الفصيح مقلدًا به شعر إلياس طعمه . وكان القروى ساكتاً فى تلك الأيام ، أو كان ينظم بعض الترانيم لبعض الحفلات المدرسية والعائلية ، ويلحنها وينشرها ضارباً على عوده . . . »

ثم يضيف فرحات قائلاً :

« إن شعر القروى القومى جاء بعد شعر إلياس طعمه ، وبعد شعرى ؛ ولكنه كان أقوانا صوتاً وأعلانا نفسًا . وما زال صوت القروى يجلجل بهذا الشعر الحماسى النارىّ حتى أسكتته الشيخوخة التى أسكتتنى معه . . . »

هذا الشاعر القروى ، وهو من أكثر المهجريين حنيناً ، فى شعره ، وأعمقهم به شعوراً ، وأعنفهم فيه وطنية ، لا يرى فى البرازيل شيئاً إلا ويلوح له فيه خيال وطنه : ففى « أقحوانة أبرنكا » يخاطب تلك الأقحوانة التى قطفها من منتزه « أبرنكا » حيث نودى باستقلال البرازيل ، فيقول :

---

(١) الضاد – (ع ١١ و ١٢) تشرين الثانى / كانون الأول ١٩٦٨ .

يا زهرة يحيي شذاها العظامْ فوحي لأشقى أمةٍ فى الأمَمْ
مُسّى أنوفاً أصبحتْ فى الرغام فربما عـادَ إليهـا الشممْ
فجرّدت فى أبرنكا الحُسـام وركزتْ فى حرمونَ العَلَمْ

ويلوح له خيال سوريا فى جريان مياه النهر ، وفى لهيب النار ، وفى النسيم الذى يدغدغ الشاطئْ الوسنان . وهو يهتف فى قصيدته « أحبابنا » ملتاعاً فيقول :

أحبابَنـا ! سكتت على الأغصـان أصوات البلابلْ
وأتى الرعاةُ من الجبال ولم يعد فى الحقْل عاملْ
قوموا نعودُ إلى الحمَى ، عـاد الجميـع إلى المنازلْ

ونحن نلمح هذه اللوعة الصارخة العميقة فى البيت الأخير – « قوموا نعود إلى الحمى . . . » ولكن أين منه هذه العودة إلى الحمى ، وهو القائل :

أرومُ إلى ربَى لبنانَ عودًا فيمنعُنى عن العـود افتقارُ
ولو خيّرتُ لم أهجرْ بلادى ولكن ليس فى العيش اختيارُ

وهو فى هذا القول يصور لنا الشعور العميق الذى يحس به القسم الأكبر من المهجريين ، وقد عبّر عنه غير واحد منهم[١] .

وهـذا جبران الذى نال من الشهرة فى الغرب والشرق ما لم ينله أديب عربى آخر ، ودرّت عليه شهرته فى مؤلفاته ورسومه الأموال الكثيرة ، ولكنه ظل طوال مدة هجرته يحلم بالعودة إلى لبنان ، ليقضى أيامه فى صومعة هادئة فى دير مار سركيس هرباً من المدنية والضجيج . وقد أبرز لنا ميخائيل نعيمه صورة بارعة مؤثرة من حنين جبران ، فى كتابه عنه ؛ فقد ذكر أنه بينما كان جبران مرة يرسم صورة لنعيمه ، كان يحدثه عن حنينه فيقول : « ميشا ، ميشا ! نجّانى الله وإيـاك من المدنيـة والمتمدنين ، ومـن أميركا والأميركيين ! ونحـن سننجو بإذن الله ، وسنعود إلى قمم لبنان الطاهرة ، وأوديته الهادئة ، وسنأكل من عنبه

(١) لقد تحققت أمنية القروى ، فعاد إلى الوطن منذ عام ١٩٥٧ ، وهو يقيم الآن فى قريته (البربارة) فى لبنان .

وبقوله ، ونشرب من خمره وزيته ، وسننام على بيادره ، ونسرح مع قطعانه ، ونسهر على شبابات رعاته ، وخرير غدرانه . . . إن نفسى تطالبنى بعزتها ، وفكرى يطالبنى بحريته ، وجسمى يطالبنى براحته . ولن أستعيد عزة نفسى وحرية فكرى وراحة جسمى إلا فى لبنان . ولو كنت تعرف الصومعة التى اخترتها لى ولك هناك ، لكنت تجذبنى من يدى فى هذه الدقيقة وتقول : هيا بنا إليها ! هى صومعة أصلية يا ميشا ، لا تقليدية كصومعتى هذه » .

ولما طلب إليه نعيمه أن يترك كل شيء ويمضى إلى ذلك المكان ، اعتذر جبران بأشغاله التى تقتضيه البقاء حيناً آخر . فلما قال له نعيمه إنه إذا استرسل إلى الأشغال والمصالح فإنها ستظل تزداد وتحرمه أمنيته ، أجاب جبران : « لا ، بل سأسكنه – سنسكنه يا ميشا – بالجسد . إذا كنتَ قد مللت هذا العالم ، عالم الماكينات والخيالات ، فأنا قد مللته مثلك وأكثر . وأنت وأنا لن نجد منه ملجأ أجمل وأهنأ وأقدس من مار سركيس . وأنت ستحب تلك الصومعة مثلما أحبها » . فيجيب نعيمه قائلاً : « لقد جعلتنى أحبها منذ الآن ، وستزورها أحلامى مراراً كثيرة قبل أن تزورها عيناى ، وتطأ ترابها قدماى » .

غير أن جبران لم يزر صومعته تلك إلا ميتاً ، ليدفن فيها وينام نومته الأخيرة ، لا لكى يستسلم فيها إلى خيالاته وأحلامه الشعرية والروحية .

وكتاب « النبى » لجبران ليس سوى تعبير عن حنين جارف : فالمصطفى الذى قضى فى مدينة أورفليس اثنتى عشرة سنة يترقب عودة سفينة ليركبها عائداً إلى الجزيرة التى ولد فيها ، هو نفسه جبران الذى عاش فى مدينة نيويورك ، وفى قلبه حنين حارّ إلى القرية التى ولد فيها : إلى بشرى . وعودة النبى إن هى إلا أمنية روح جبران فى الرجوع إلى قريته .

وهذا إلياس فرحات يصور لنا حنين نفسه ، فيقول فى إحدى قصائده :

نازحٌ أقعدهُ وجْد مقيمْ ... فى الحَشا بين خمود واتقادِ
كلما افترّ له البدرُ الوسيمْ ... عضّهُ الحزنُ بأنياب حدادِ
يذكرُ الربْعَ القديمْ ... فينادى :
أين جناتُ النعيمْ ... من بلادى ؟

ثم يصف جمال لبنان ، وشوقه إليه ، فيقول :

خصه المبدعُ بالحسْن البديعْ زاهياً بين الرَّوابى والبطاحْ
ملقياً من نسْج أبكار الرّبيعْ فوق أكتاف الرُّبى أبهى وشاحْ
حبذا راعى القطيع فى المراحْ
منشداً لَحْنَ الهزيعْ للصّباحْ

ورشيد أيوب يرى الثلج المتساقط فيطير بخياله إلى الثلوج التى تكلل هامة صنّين ، و « شيخ » لبنان الأشم ، فيهتف قائلاً :

يا ثلجُ قد هيجتَ أشجانى ذكّرتنى أهلى بلبنان
بالله قلْ عنى لجيرانى : ما زالَ يرعىَ حرْمةَ العَهْدِ

ويفيض به الحنين والوجد ، فيهتف أيضا :

بلَى ، بعد هذا البعادْ ألا سجِّلى يا سما :
أنا فى أقاصى البلادْ وروحى بوادى الحمَى

ويهتف أيضاً فى قصيدة له بعنوان « ذكرى لبنان » :

هل يعُودْ عيشٌ قضيناهُ بتلك الصُّرودْ
أو تجودْ هذى الليالى بانتظام العقُودْ
كى نرودْ فى سفح صنِّين مقرّ الجدُودْ

يا رياحْ عودى إذا ما جئت تلك البطاحْ
شنّفى سمعى ، ومَن حدَّثتِ منهم صِفى
تشْتف روحى بمعناك اللذيذ الخفى

ونسيب عريضة ، شاعر الحيرة الأكبر بين المهجريين ، يحنّ إلى مدينته « حمص » فيناجيها فى قصيدة له بعنوان « أم الحجار السود » قائلا :

يا جارةَ العاصىَ لديك السؤددُ لبنانُ دونَك ساجدٌ متعبدُ
هو عاشقٌ من دمعه لك موردُ وارحْمتا لمتيّمٍ مصفودِ
يَسقِى الهَوى من قلبه الجلمودِ

يادهرُ قد طال البعادُ عن الوطَنْ   هل عودةٌ ترجَى وقد فات الظَّعَنْ
عُـد بى إلى حمص ولو حشو الكفن   واهتف : أتيت بعاثرٍ مردودِ
واجعلْ ضريحى من حجارٍ سودِ

وفى قصيدة أخرى يصور لنا لوعة المهاجر فى تذكره أهله وبلاده ، وفى حنينه الجارف إلى قريته وخلاّنه ، فيقول :

تدفَّقى يا رياح الشرق هائجـةً   فأنت لا شك من أهـلى وإخوانى
وذكِّرينى بما أنسيتُ من أمل   وجنِّحينى أرفرفْ فوق أوطانى
مرّت ثلاثون لم أنْسَ العهود وهل   تُنسى مواثيقُ أرحام وإيمان
الأهلُ أهلى وأطلال الحمَى وطنى   وسـاكنو الرَّبْع أترابى وأقرانى
قد كنت أشتـاقهم والعينُ تنظرهُمْ   واعِظْمَ شوقى عـلى بعدٍ وهجران !

ومثله مسعود سماحة القائل :

أحـبُّ بلادى وإن لم أنَـمْ   قـريرَ الجفـون بأحضانها
فكم أنت النفسُ من يأسها   وناءتْ بأثقـال أشجانها
تـودّ الرّجوع إلى عشّهـا   وليس الرّجـوعُ بإمكانها

وهذا الحنين الملتهب الذى يلتعج فى صدور المهاجرين يصوّر لبنان وسوريا فى نفوسهم بأروع الصور ، حتى لتحسدهما الفراديس على مالهما من جمال وبهاء وعظمة ؛ فيهتف القروى قائلاً :

عجبـاً لسـورىّ يحقّر أرْضَهُ   والخلْقُ يسجد للتراب السورى

أو يقول :

غرستُ بلبنـان ورد الأمَل   فقـلْ للبرازيل أن تمحلا
وَجُدتُ عليه بدمْـع المُقَـلْ   فقلْ للأمازون أن يبخـلا
وحلّيت قلبى بنبـع العَسَـلْ   فقـل للّيالى : امْطرى حنْظَلا

ونعمه قازان يدعو لبنان باسم « حد السماء » ثم يقول :

إذا عيّروكمْ بهـذا الشموخ   ألا فارْجمـوهُمُ بالنَّجْمةِ

ويقول أيضاً :

أقول : بقاعُ الدُّنى حلوة ... وأحلى بقاع الدُّنى بُقْعَتى

ويقول أبو ماضى :

الأرضُ : سوريا أحَبُّ ربوعها ... عندى ، ولبنانٌ أعزّ جبالها

والناسُ أكرمهم علىّ عشيرَها ... – روحى الفداءُ لرهْطها ولآلها : –

تشتاقُ عينى قبل يُغمضها الرَّدى ... لو أنها اكتحلتْ ولو برمالها

وفى قصيدة أخرى يقول :

اثنان أعيْا الدهر أن يبليهما : ... لبنانُ والأمل الذى لبنيهِ

ويقول جورج صيدح معبراً عن شوقه وحنينه إلى دمشق :

عهْدُ الشباب وعهْدُ الشام إن مَضيا ... فكل ما أبْقت الأيامُ حرْمانُ

ويقول أيضاً مخاطباً نهر بردى :

ملأتُ منكَ يدى بعد امتلاء فمى ... ولو قدرتُ ملأت الصّدْرَ والكَبدا

حتَّى أقول لدهر سامنى ظمَأً ... فى غربتى : لن ترانى ظامئاً أبَدا

ولشفيق المعلوف قصيدة بعنوان «حنين» من روائع الشعر المهجرى ، يبدؤها بقوله :

طالَ بى الشوقُ ولجّ الظما ... إلى ليال فى أعالى الكرُومْ

يُغرى بها البدر صبايا الحِمَى ... كأنما البدرُ خلالَ الغيُومْ

جَمَّع أنوارَ جميع النجومْ ... وصبّها من كوّة فى السما

ويقول الشاعر عقل الجرّ فى قصيدة له بعنوان «شبح الأرز» :

أعِدْنى إلى الأرز يا خالقى ... فليست بلادىَ هذى البلادْ

أعدنى إلى الشفَق المستنير ... يلفّ الرّبى ضوْؤُهُ والوهَادْ

أعدْنى إلى مسْرحى فى الشباب ... ومطلع فجْر المنَى والرّشادْ

أرى شبَح الأرز فى يقظتى ... ويعرضُ لى طيفُه فى الرّقادْ

أعدْنى لأشهدَ فصلَ المصيف ... وفصلَ الخريف وفصل الزّهَرْ

ولحف الثلوج تغطى الظلامَ ... فتحسب أنّ الصَّباحَ انتشَرْ

أعدْنى فليس جمالُ الوجود ... يعادلُ عندىَ تلك الصُّوَرْ

ويقول فوزى المعلوف معرباً عن شدة مرارته فى شعوره بالغربة عن الأهل والدار :

لهفى للربوع تضحى وتمسى | وهى خلوٌ إلاّ من التنكيدِ
ينزح الساكنونَ عنها ووجه الـ | أرض رحْبٌ إلى المزار البعيدِ
مثلما تنزح الطيورُ عن الـ | رَّوض وقد راعَهـا ذبولُ الورودِ
هجروهـا وماءهـا وهَواهـا | لم يطيقوا فيها هوانَ القعودِ
ودّعوهـا والدّمع ملء المآقى | لنواها ، والنارُ ملء الكبودِ
فلوَ اَنّ الأصمّ يسمع صوتاً | صرخوا بالبواخر الصمّ : عودى !

وأما أبو الفضل الوليد فيهتف بمرارة مناجياً بلاد الأرز وجبال لبنان العالية ، وشواطئ الشام الجميلة قائلاً :

يا شاطئ الشـام الجميـل سلامُ | فعليـكَ حـامَ الشعر والإلهامُ
وإليك يصبو نازحٌ فى صدره | نورٌ ، وحوليه عدى وظلامُ
قد ذابَ يا لبنانُ قلبى فى النوى | فمتى بعَـودٍ تسمح الأيامُ
بالله يا وطنى أحظّى عــودةٌ | وسعــادة ، أم غربةٌ وحِمامُ ؟
إن متّ فى أرض الأجانب يائساً | حنتْ إليـك من الغريب عظامُ
أنت العزيزُ عـلى التدانى والنوى | وبنـوكَ فى كل الأمور كرامُ

ويقول فى أحد موشحاته الرقيقة بعنوان : « بنت لبنان » :

يا نازحاً طـال عليه الزَّمَنْ | هلا تعللتَ بذكر الوطَنْ
فتبسم النفس لوقْع المحَنْ | كنجمة تطلع فوق الهضابْ

فى سفْح لبنان رعيناها

إذا من الموج سمعنـا الحنينْ | إذا من الروضة طال الأنينْ
إذا من العود شجانا الرنينْ | نذرف دمعاً هان فى الاغترابْ

ونكسر الكأسَ وننساها

وترافق الحنين إلى الوطن عند المهجريين نغمات أخر فيها عنف ورقة ، وفيها اضطرام وإثارة . تلك هى نغمات الوطنية والقومية . فهم يتألمون وتثور

لواعجهم لما تعـانيه أوطانهم من أنواع العبوديات : العبودية للمستعمر الغاصب ، والعبودية للجهل وللتفرقة الاجتماعية بين أبناء الوطن الواحد . لقد تحرر المهجريون من هذه العبوديات كلها ، فتـاقوا إلى رؤية بلادهم متحـررة منهـا مثلهم . وقـد كانت لهم فى كل حادثة وطنية ، وفى مختلف مراحل النهضة القومية الحاضرة أصوات مسموعة ، وأقلام مزمجرة ، تمهد الطريق ، وتهيئ الأفكار لاستكمال العدة للنهوض الصحيح ، والوعى القومى القويم . وقد اشترك الشعر والنثر فى هذه السبيل ، فى المهجر الشمالى والمهجر الجنوبى على السواء ، وإن تكن النزعة القومية والوطنية فى المهجر الجنوبى أبرز وأشدّ احتداماً .

٤ – التامل

هنالك ميزات يتميز بها مهجريو الشمال ، وميزات أخرى يتميز بها مهجريو الجنوب ، وميزات ثالثة يشتركون فيها جميعاً ولو على مقاييس متفاوتة . وقد رأينا فى القسم السابق من هذه الدراسة كيف أن المهجريين قد اشتركوا كلهم فى الحنين إلى الوطن ، لأنهم جميعاً عانوا لواعج الغربة ، واكتووا بنيران الشوق إلى الحياة البسيطة : حياة القرية الهانئة الوادعة ، بعد أن صدمتهم مادية الغرب ومدنيته صدمات قاسية ، وفجعتهم بما ألفوه من أخلاق الشرق وروحانيته وسذاجته .

ونأتى الآن إلى ميزة اختص بها – فى الغالب – مهجريو الشمال ، وأذكر منهم فى المكان الأول ، جبران ، ونعيمه ، ونسيب عريضة ، وأبو ماضى ، والريحانى . ولم يشترك من مهجريى الجنوب بهذه المزية إلا الأقلون ، وعلى مدى ضيق .

وميزة التأمل هذه هى من أبرز ما يميز أدب الرابطة القلمية ، بنوع خاص ، عن سواه من آداب العرب جميعاً ، فى القديم والحديث – باستثناء القليل منها ، كأدب المعرى مثلا – لأنها بعض طابعهم الجديد ، وبعض الخصائص التى أدخلوها على الأدب العربى الحديث – وكم أدخلوا عليه من جديد نفيس ! –

وتفوقوا فيها ، وسموا إلى جواء عالية . والذى يقرأ أدبهم التأملى ؛ الشعرى والنثرى ، يرى أن هؤلاء الأدباء – الأدباء بالطبع لا بالمران والصناعة – ، كأنما كانوا فى تأملاتهم يتجردون من طبيعة الطين ، ويسمون فوق الحياة وفوق البشر ، ويحلّقون بأخيلتهم فى عوالم مجهولة ، يحللون النفس الإنسانية ويصورونها بدقة ، ويحاولون إماطة اللثام عن أسرار الحياة ، وأسرار ما وراء الحياة . وفى كثير من هذه التأملات العميقة الرحيبة يحدوهم الشك . . . ولكنه الشك الباحث عن الحقيقة ، المتطلع إلى تحقيق مثل إنسانية عليا خالدة ، لا تتطرق إليها الشكوك ، ولا تلفّعها الأوهام والأساطير . لذلك نستطيع أن نقول إن الأدب العربى لم يعرف الأدب التأملى قط كما عرفه فى أدب المهجر بشكل جديد رائع ، فيه عمق ورحابة وشمول ، وفيه قوة وحيوية وجمال .

ولكى ندرك انفساح الآفاق النفسية ، وامتداد الخيال الجموح فى أدب المهجر ، نأخذ أغلب مؤلفات جبران ، من مثل : يسوع ابن الإنسان ، وآلهة الأرض ، والنبى ، والمجنون ، والمواكب ، وأشياء من « العواصف » ، وغيرها .

ثم نأخذ كذلك من مؤلفات نعيمه : زاد المعاد ، والمراحل ، والبيادر ، وهمس الجفون ، ومرداد – هذان الأخيران بنوع خاص – . ونأخذ أيضاً القسم الأكبر من شعر إيليا أبى ماضى ، ولا سيا « الطلاسم » . ومثله من شعر نسيب عريضة ، وقسماً غير قليل من « الريحانيات » لأمين الريحانى ، ولا سيا من شعره المنثور الـذى فصله أخوه ألبرت الريحانى فيا بعد فى كتاب خاص دعاه (هتاف الأودية)

ثم لابد لنا من أن نعرّج قليلا على المهجر الجنوبى ، لنجد هناك فوزى المعلوف يشارك أدباء الشمال فى النزعة التأملية ، التى أنتجت له « على بساط الريح » و « شعلة العذاب » ؛ وهما مطولتان من أروع الشعر العربى الحديث ، يختلف فيهما الاتجاه الفكرى إلى حدّ ما ، ولكنهما تشتركان فى العمق ، كما تشتركان فى الجمال وفى براعة الخيال . وعدا ذلك لا يخلو أدب المهجر الجنوبى من تأملات قصار قلائل لشعراء آخرين ، ولكنها ليست من البروز على مثل حظها فى أدب الشمال . ونذكر منها على سبيل المثال قصيدة « بين البقر والبشر » للشاعر القروى ، وفيها يقول :

طوباكِ سارحة فى القفر طوباكِ | إن كنت أحسد مخلوقًا فإياكِ !
طوباكِ فى الصيف والرّمضاء تتقدُ | والحرّ منه يذوب الجلْدُ والجَلَدُ
هذا اللهيبُ الذى يُشوى به الجسد | أشدّ منه على أكبادنا الحسدُ
إن كان منه الذى سوّاكِ نجاكِ | طوباكِ فى لفحة الرّمضاء طوباكِ!

وكذلك نشير إلى قصيدة « بين الطفولة والشباب » لإلياس فرحات ؛ وهى قصيدة طويلة استعرض فيها الشاعر حياته وذكرياته الماضية فى كثير من الحنين واللهفة .

أما من شعر فوزى المعلوف فنأخذ مثالا فى نشيد « العبد » من مطولته « على بساط الريح » حيث يقول . . . :

أنا عبد الحياة والموت ، أمشى | مكرهاً من مهــودها لقبــورهْ
عبد ما ضمت الشرائع من جو | ر يخطّ القوىُّ كلّ سطــوره
بيراعٍ : دمُ الضعيف لــه حبــ | ـرٌ ونوحُ المظلوم وقْعُ صريـــره
أنا فى قبضة العبــــودية العمــ | ـياء أعمى مسيرٌ بغـــــروره
كلّ ما بى فى الكون أعمى ومنقا | دٌ على رغمه لأعمى نظـــيره

أما نعيمه فشعره كله من النوع التأملى ، وكذلك أغلب نثره . وبما أننا مضطرون إلى الاكتفاء بأقل ما يمكن من النماذج ، لذلك نكتفى من شعر نعيمه بقصيدته « الخير والشر » التى يقول فيها :

سمعتُ فى حلمى ، ويا للعَجبْ | سمعت شيطانًا يناجى مـــلاكْ
يقول : « أى بل ألف أى يا أخى ! | لولا جحيمى أين كانتْ سماك ؟ »
أليس أنا توأمـــــان ، اسْتوى | سرّ البقا فينا وسرّ الهـلاكْ ؟
ألم نُصَغْ من جوهـــــر واحـد ؟ | إنْ يَنسنى الناس أتنْسى أخاك ؟
فأطرق ابنُ النـــور مسترجعاً | فى نفسه ذكرى زمـــان قديمْ
واغرورقتْ عينــــاه لما انْحنى | مستغفراً ، وعانق ابْـــن الجحيمْ
وقال : « أى بل ألف أى يا أخى ؟ | من نارك الحرى أتانى النعيم »
وحلّق الاثنــــــان جنبــا إلى | جنب ، وضاعا بين وشى السديمْ

وأما جبران فليس ثمة من يجهل « مواكبه » التى تجمع فى ابياتها المائتين والثلاثة خلاصة فلسفة الحياة . وفيها يقول فى « العدل » على لسان الشيخ :

والعدلُ فى الأرض يُبكى الجنّ لو سمعوا ... به ويستضحكُ الأمواتَ لو نظروا
فالسجنُ والموتُ للجانين إن صغروا ... والمجدُ والفخرُ والإثراء إن كبروا
فسارقُ الزهر مذمومٌ ومحتقرٌ ... وسارقُ الحقل هو الباسلُ الخطرُ
وقاتلُ الجسم مقتولٌ بفعلته ... وقاتلُ الروح لا تدرى به البشرُ

وعلى لسان الفتى :

ليس فى الغابات عدْلٌ ... لا ولا فيها العقابْ
فإذا الصفصافُ ألقى ... ظله فوقَ الترابْ
لا يقولُ السرْو : هذى ... بدعةٌ ضد الكتابْ
إن عدلَ الناس ثلْجٌ ... إن رأته الشمسُ ذاب

وعلى هذه الطريقة من الحوار بين الشيخ والفتى يمضى فى تحليل أمور الحياة والمجتمع الإنسانى . ونقرأ « طلاسم » أبى ماضى ، فنراه يبدؤها بقوله :

جئتُ لا أعلمُ من أين ، ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرت قدّامى طريقاً ، فمشيتُ
وسأبقى سائراً ، إن شئتُ هذا أم أبيتُ
كيف جئتُ؟ كيف أبصرت طريقى ؟ لست أدرى

ثم يختمها بقوله :

إننى جئت وأمضى ، وأنا لا أعلمُ
أنا لغز ، وذهابى كمجيئى طلسمُ
والذى أوجدَ هذا اللغزَ لغز أعظمُ
لا تجادل . . . ذو الحجى من قال : إنى لست أدرى !

ونأتى إلى شعر نسيب عريضة ، صاحبُ ديوان « الأرواح الحائرة » : وهى تسمية تدل على حيرة روحه الباحثة عن الحقيقة خلف كل شئ ، والتى لعلّها لم تصل إلى شئ من الحقيقة حتى احتوتها الأبدية الخرساء ، فقشعت

عن عينيها حجب الفناء الجاهل الحاضر ، وأطلعتها على أسرار الأزل والأبد واضحة ، لا لبس فيها ولا تعمية فلنسمعه فى قصيدته « على الطريق » يتساءل وهو يحثّ على المسير :

لمـــاذا وقفت بخوف وحيرَه أيا نفس عند الطريق الأخيرَه ؟
ألا امْشى فإن الحياةَ قصيره ألا امْشى !
مقرُّ الإله بعيد ، فسيرى لكى تدركى الله قبل النشور
فجدّى ولا تسألى عن مصيرى بـــعَيــشى
ألا امْشى ، وبعد الجهاد الحقيقى سنسبــق آمالنـــا فى الطريق
ونجنى الأشعـــة قبـــلَ الشروق ألا امْشى !

وصاحب « الريحانيات » الذى تزخر « ريحانياته » بالتأملات اللطاف ، فى قصائده المنثورة ، لنستمع إليه كيف يخاطب الأمواج « على رمل الإسكندرية » بخيال شعرى ساحر ... « إيه أيتها الأمواج الخالدة ! كم شاهدت من أمواج الإنسانية ومن بحورها الفانية ! أمام عيونك الزرقاء ، وفى ظل ابتسامتك الفضية ، كم تَبَخَّر بحر ، وكم تبددت تحت أقدامك موجة هادرة ، شامخة من أمواج الناس !

« من ميازيب ذهبية ، فى بساتين من النور الأزلى الروحانى ، هناك نبعك أيتها الأمواج ، وهناك أيضاً نبع الإنسانية .

« لا تعجبى من هياج هذا الإنسان واضطرابه ، فما هو سوى طوائف من الأسماك والحيوانات البحرية ، تختبط فى بحر من النفس لا يرى .

« أيتها الأمواج الناطقة بلسان الفناء والأزل ، الحاملة إلينا نبأ من الموت ، ونبأ من الخلود ؟ إن بحر الإنسانية ليفيض وينضب ، وليُزيد ويهيج ، ليهدأ أو يتبخر ويتلاشى ، وأنت إلى الأبد فى أعين الشموس والأقمار ، تشاهدين أباطيل هذا الزمان ، كما شاهدت أباطيل الأزمنة الغابرة » .

وهكذا نرى أنه بهذا النوع من الأدب التأملى ، ولا سيا ما كان منه متسربلا أثواب الشك الحائر ، الباحث عن الحقائق العارية الصريحة خلف ما يكفّنها من أوهام وخرافات . يمتاز أدب المهجريين . الذى تحرر من قيود التقديم .

وتجرد عن قيود المادة ، وحلّق فى جواء حرّة سامية ، يكتشف المجهول ، ويستنطق الغيب ، ويحلل الأشياء ويعللها ، ليصل إلى حقائقها الخالدة . وهو أدب أفاضته أرواح حرة ، ورتلته ضمائر صريحة ، لا تجد ما يحدّها ويكبلها دون البحث عن الحقيقة .

٥ – النزعة الإنسانية

وكما يمتاز الأدب المهجرى بنزعته التأملية الواسعة ، ورقة حنينه وعمقه ، وبتحرره من قيود التقليد ، يمتاز كذلك برحابة نزعته أو روحه الإنسانية . فقد اتسعت آداب المهجريين – مثل اتساع قلوبهم – للحبّ المطلق لكل الوجود ، ولكل ما فى الوجود ، ولرغبة الخير المطلقة لكل المخلوقات .

فالذى يطلع على أدب المهجر اطلاعاً شاملاً دقيقاً ، يرى أن الممتازين من المهجريين يشتركون فى أهم الخصائص التى ميزت أدبهم فى مجموعه . وهذه الخصائص ترجع إلى عوامل نفسية ، اشترك فيها المهجريون جميعاً . ولا غرابة بعد ذلك فى أن يصدروا عن مدرسة واحدة ، ما دامت العوامل النفسية واحدة عند الجميع ، وما دام الجميع يغترفون من مصادر الحياة الواحدة الشاملة .

وإذا كانت النزعة الإنسانية ، التى لا تعرف الحدود ولا الفروق فى المخلوقات ، هى من أبرز خصائصهم ، جماعة وأفراداً ، فإن رشيد سليم الخورى وإلياس طعمه وفرحات وأمثالهم من شعراء الوطنية لم يشذوا عنهم فى هذا ، ولكنهم كانوا من عمق الإحساس الإنسانى بحيث كانوا يريدون أن يروا وطنهم حرًّا وقادراً على الاشتراك الفعال فى بناء صرح إنسانية حرّة سعيدة ، بدلا من أن يظل مستعبداً ، يستجدى الحرية فلا يجدها ، ويصبو إلى العدل فلا يناله . ولذلك تحوّل الشعور الإنسانى عندهم إلى نقمة عارمة على من يذلّون أمتهم ، ويغلون أقدامها دون الانطلاق فى موكب الإنسانية الحرة . فهذا الشعور الوطنى والقومى الناجم عن إنسانية عميقة رحيبة ، حصر فكرة الإنسانية عند أمثال القروى وفرحات ،

وجـورج صيدح ، وأبي الفضل الوليد ، و إلياس قنصل ، ونصر سمعان ، وغيرهم فى حب وطنهم وأمتهم إلى أن تصبح أمتهم حرّة ، وقادرة على المساهمة فى تشييـد المجتمـع الإنسـانى الشـامل الحر . وهذا التركيز جعـل من هؤلاء شعراء الوطنية الثائرة . ومصدر هذه الثورة هو ما كان من عدم إفساح المجال لأمتهم لكـى تكون نبتة حرّة فى حديقة الإنسانية الشاملة ، أسوة بغيرها من الأمم الحرة ، وليس هو مجرد حب العنصرية ، والتعصب للقومية الضيقة ، التى يعرفون أضرارها كما يعرف ذلك كل مثقف رحب الأفق النفسى . هذا من ناحية ، ومن الناحية الأخرى نجد أن العمل على تحرير الشعوب الضعيفة ، وقيادتها إلى الاشتراك فى الشعور بوحدة الإنسانية والعمل لها ، إنما ينطوى على معنى إنسانى سام نبيل ؛ لأنه إذا جاز لنا أن نرفق بالحيوان الأعجم وندعو هذا الرفق « إنسانية » ، فأى إنسانية أسمى من أن نرفق بالإنسان العاقل ، وعلى الأصح بشعوب كاملة ضعيفة من بنى الإنسان ؟ !

والإنسانية فى مفهومها العام ، هى نظرة واسعة إلى الحياة ، وإلى الوجود ؛ وعلى الأخص إلى المجتمع البشرى ؛ وهى الحلم الأكبر الذى يراود أخيلة المفكرين والشعراء والفلاسفة ، وكل ذى قلب كبير ، وضمير حى . ومن معانى هذه الإنسانية فى ما يتعلق بالجنس البشرى : نشر المبادئ السامية والمثل العليا بين الناس ، ومحاربة النظم التى تباعد بين الإنسان وأخيه الإنسان ، والعمل على خلق مجتمع إنسانى يسوده العدل والرحمة والمحبة ، وعلى تخفيف الشقاء الإنسانى ، وتصوير الحياة بصورة محببة إلى النفوس . أو هو بكلمة أخرى : المحبة الصحيحة لكل ما فى الوجود ، بغير تفضيل أو تفريق .

ولعل أبرز دلائل هذه المحبة الكبيرة عند المهجريين – وأعضاء الرابطة القلمية منهم بنوع خاص – وأجدرها بالذكر ، هو هذا النداء الرقيق الحنون الذى أشاعوه فى الأدب العربى ، وهو : « يا أخى » أو « يا رفيقى » . وهو نداء يلمس شغاف القلب ، فيحيله إلى شعلة من الحنان والمحبة ، ويفعل فيه فعل السحر . والأدب العربى فى ماضيه الطويل كله ، قبل ظهور المدرسة المهجرية ، قلّ – أو ندر – أن عرف هذا النوع من النداء العاطفى الإنسانى ، الذى

يُشعر كل إنسان على وجه الأرض بأنه أخ لنا حبيب فى رابطة الإنسانية الكبرى .

والذى يقرأ شعر المهجريين ونثرهم ، يقف بجلاء على مدى تغلغل الروح الإنسانية فى آدابهم . فمن ذلك قول إيليا أبى ماضى فى قصيدته « ابتسم » :

قال : السماءُ كئيبةٌ ! وتجهَّما   قلتُ : ابْتَسم ، يكفى التجهم فى السما
قال : الليالى جرّعتنى علْقَمـــا   قلتُ : ابتسمْ ولئن جرعت العلْقما
فلعــلّ غيرك إن رآك مرنمــا   طــرح الكآبة جانباً وترنمـا

ومن يقرأ شعر أبى ماضى كله ، ولا سيما فى « الجداول » و « الخمائل » ، يدرك إلى أىّ مدى بعيد تغلغلت فيه الروح الإنسانية ، وما يفيض به قلبه من المحبة الكبيرة .

وأما ميخائيل نعيمه فليس ثمة من يجهل قصيدته « أخى » وما تحمله من المعانى الإنسانية العميقة . ونحن نكتفى بالإشارة إليها لشهرتها . وما عــداهـا لو شئنا لنقلنا الجزء الأكبر من كل كتبه ، ولا سيما زاد المعاد ، والبيادر ، والمراحل ، وهمس الجفون ، والنور والديجور ، وصوت العالم ، ومرداد . فليرجع إليها من شاء ، ليتزود من هذه الذخيرة الإنسانية الغنية ، أثمن الغذاء . ولعل من الواجب أن نذكر ههنا أن الآفاق النفسية فى أدب جبران ونعيمه وأبى ماضى ونسيب عريضة ، خاصّة ، أبرز فى رحابتها منها عند الآخرين . ولعل قصيدة نعيمه التى مطلعها :

كحّل اللهمّ عينى   بشعاع من ضيائكْ – كى تراك . .

والتى يقول فيها :

واجعل اللهمَّ قلبى   واحةً تسقى القريبْ – والغريبْ

لعلها من أبرز الأدلة على رحابة الأفق الإنسانى .

وأما جبران فإننا نستدل على مبلغ شعوره الإنسانى الحار الذى سكبه فى كتبه الكثيرة ، ولا سيما فى « النبى » ، من شذراته القصيرة التالية فى كتابه « رمل وزبد » التى يقول فيها :

« ما أنبل القلب الحزين الذى لا يمنعه حزنه عن أن ينشد أغنية مع القلوب

الفرحة » . وأيضاً « اجعلني يا الله فريسة للأسد ، قبل أن تجعل الأرنب فريسة لى » . وأيضاً « البغض جثة راقدة ، فمن منكم يريد أن يكون قبراً ؟ »

وقوله فى « دمعة وابتسامة » . . « أنت أخى ، وكلانا ابن روح واحد قدوس كلي . . وأنت رفيقى على طريق الحياة ، ومسعفى فى إدراك كنه الحقيقة المستترة وراء الغيوم . . أنت إنسان ، وقد أحببتك ، وأحبك يا أخى . . . خذ منى ما شئت ، فلستَ بسالب غير مال لك الحق بقسم منه ، وعقار استأثرت به لمطامعى ، فأنت خليق ببعضه إن كان يرضيك بعضه . أنت أخى وأنا أحبك ، ساجداً فى « جامعك » ، وراكعاً فى « هيكلك » ، ومصلياً فى « كنيستك » . . . »

وتسمع همسة الإنسانية اللطيفة ، التى من معانيها الفناء فى المجموع لخير المجموع ، يرددها نعمة قازان فى « معلقة الأرز » حيث يقول :

ألا فاشربوا الوحْىَ من جرّتى ... ولا بأسَ إن تكسروا جرّتى
إذا كان فيها الحياةُ اشْربوا ... ولا ترفعوها على صحتى

وكذلك تتجلى لنا الإنسانية على أروعها فى تصوير الشاعر القروى لضعف اندى المنتصر بقوة غصن السلام ، وإن يكن تصويراً استعملت فيه ألفاظ الحرب والقوة ، التى هى من مميزات شعر القروى . فهو يقول فى قصيدته « الربيع الأخير » :

وهل سمعتَ بغاندى ؟ إنه حمَلٌ ... فى الهند ثار على الضرغامِ وانتصرا
إن كان عابَ عليه العرىَ مستترٌ ... فإن آدمَ لولا الإثم ما استترا
هذا الضّعيف الذى لو هزّه ولَدٌ ... لا ندقّ كالعود فى كفيه مندثرا
هزُّوا الحسام فلم يحفلْ وهزّ لهم ... غصنَ السلام ، فهزّ البحر والجزرا
وغادر السيف يحكى غمده فللاً ... فاعجبْ لغصن يفلّ الصّارم الذكرا

وفى وصفه لحبة القمح ، وهو من أعمق المعانى الإنسانية النبيلة الدالة على صفاء القلب والروح :

وكأنما الشق الذى فى وسْطها ... لك قائلٌ : نصفى يخص أخاك

كما تتجلى أيضاً فى قول وليم كاتسفليس : « ما عَمَّرَ الأكوانَ إلا المحبة . والقلب إن لم يسع الدنيا ، فهو وعاء صغير ؛ وإن لم يفهم أنغام الكائنات فهو أوتار ميتة لا تحركها أغانى الأرواح المتآخية . فليحدث كل جرح فى قلوبكم جرحاً » .

وفى قول أمين الريحانى : « إنى فى تلك الذرىٰ زهرة من أزهار الحب الدائم العميم ؛ وفى الحب الدائم تتلاشى العصبيات الدينية والقومية كلها . إنى فى تلك الذرى بذرة من بذور الخير الإنسانى الأكبر ؛ وفى الخير الإنسانى الأكبر تضمحل الضغائن ، وتزول الخصومات فى مشارق الأرض ومغاربها ، بين الأمم جمعاء » .

وهكذا نرى آداب المهجر قد امتازت باتساع المدى : بالعمق ، والعلو ، وانفراج الأرجاء ، كما يقول نعيمه فى كتابه « الغربال » فى وصف ديوان نسيب عريضة . وقد اتسع أفق إنسانيتهم حتى شمل الوجود بأسره : بناسه ، وحيوانه ، وجماده ؛ فهم يرون الجمال فى كل شىء ، حتى فى « الدودة » : فيرى نعيمه أنها ليست أقل شأناً من العقبان والنسور ، ولا هى دميمة فى عين الحياة ، ثم هى لا تعرف الفروق : فلا التبر عندها أغلى من التراب ، ولا الماس من الحجارة ، ولا الغراب من البلبل ، ولا الغزلان من الدود ، ولا هى تحرق عوسجة لكى تغرس مكانها أزهارًا وآساً . لقد تساوت بذرة الحياة ، التى يعبر عنها نعيمه « بوحدانية الحياة التى جوهرها واحد لا يتغير » ، فى كل كائن حى .

وهذه المعانى تلخص نظرة المهجريين إلى الحياة والوجود ، فهم ، كما يقول جبران : « قد بلغوا إلى قلب الحياة فوجدوا الجمال فى كل شىء ، حتى فى العيون المتعامية عن الجمال » . ولذلك يرون أن كل ما فى الوجود إنما وجد ليؤدى قسطه من رسالة الحياة على الوجه الذى أراده له واهب الحياة .

وبهذه الروح الواسعة اصطبغ أدب المهجريين ، فجاء تعبيراً سامياً عن نوازع إنسانية رحيبة ، وتصويرًا لحياة إنسانية شاملة مثلى .

٦ – حب الطبيعة

أدباء المهجر جميعهم من أخلص أبناء الطبيعة وعشاقها ؛ فهم عميقو الإحساس بها ، عميقو الحب لها والاتصال بها ؛ يرون فى كل ما فيها أشياء حية : تحب وتكره ، تسعد وتشقى ، تفرح وتحزن ، وترجو وتخيب . وهم لذلك يناجونها ، ويستلهمونها ، ويتمثلون بها ، ويبثونها آمال قلوبهم وآلامها ، وأشواق نفوسهم وحيرتها . وهى توحى إليهم بالحنين ، إذ تذكّرهم بما كانوا يجدونه من جمالها الفتان فى ربوع بلادهم ، وتوحى إليهم بالتأمل العميق فى أسرارها ، وما أبدع الله فيها من معجزات تحار فيها العقول ، وتوحى إليهم بالنوازع المهذبة والأفكار السامية ، وبالأخيلة البعيدة كأطراف الأفق ، المترقرقة كالجداول المنسابة ، اللطيفة كأنسام أيار ، والرحيبة كصفحة الفضاء .

والذى يطلع على إنتاجهم الأدبى يرى أن للغاب حظاً وافراً من هيامهم ، فهم يرون فى حياته مثالية سامية ، « فمواكب » جبران ذات المائتين والثلاثة الأبيات فيها مائة وخمسة وعشرون بيتاً تدور على الغاب ، وقدسية الغاب ، ووحدانية الغاب ، وسعادة الغاب . وفيها يقابل جبران بين حياة المجتمع ذات الفروق والتقاليد والمعاملات المبنية فى الغالب على الرياء ، والأهواء الشخصية ، وحياة الغاب الوادعة البسيطة التى تضيع فيها الفروق كلها ، وتستوى فيها سائر المخلوقات ، لأن لها مشيئة واحدة تجريها على الجميع ببساطة ومن دون تفريق ؛ فيفضل هذه على تلك قائلا :

العيشُ فى الغاب ، والأيام لو نظمتْ فى قبضتى لغدَتْ فى الغاب تنتشرُ

ذلك لأن أنين الناى فيه هو أبقى وأنقى من كل ما فى المجتمع البشرى من أوهامه الزائلة .

« وما الناى سوى رمز الروح الذى تلتقى فيه كل الأرواح ، فتؤلف لحناً واحداً كاملا لا نفار فيه ولا تشويش » كما يفسره نعيمه .

وفى القسم الأخير من « المواكب » يتساءل جبران ، على لسان الفتى القادم من الغاب ، يعزف على نايه ألحان السعادة ، يسأل الشيخ الخارج من

المدينة مثقل الروح بهمومها وأوصابها وسخافاتها ، فيقول :

هل تخذت الغابَ مثلى منزلاً دون القصورْ
فتتبعتَ السواقى ، وتسلقتَ الصخورْ

هل جلستَ العصرَ مثلى ، بين جفنات العنبْ
والعناقيد تدلتْ ، كثريّات الذهَبْ

هل فرشتَ العشبَ ليلاً ، وتلحفتَ الفضا
زاهداً فى ما سيأتى ، ناسياً ما قد مضى

وليس هذا فقط ، فالطبيعة عند جبران هى رفيقة خياله ، وملهمته البارعة . نـراها تترقرق فى أقاصيصه ، وفى تأملاته ، وفى شذراته ، وفى همسات قلبه وروحه ووجدانه التى جرى بها قلمه المبدع . فالذى يقرأ نجواه لليل ولقلبه « بين ليل وصباح » وللأرض ، وغيرها ، يشعر بنشوة عميقة تهزّ جوانحه لهذه الصور التى تتواكب أمام خياله ، فيترنم مع جبران بأغاريد الطبيعة الحنون ، التى تمسح على جبينها أنامل النور ، والتى تجنّحها الكآبة بخيوط من نسيجها الرهيف .

وكما كان جبران شديد الإحساس بالطبيعة ، كذلك كان القسم الأكبر من رفاقه : فأبو ماضى ، لشدة اتصاله بالطبيعة ، وشغفه بها يراها دائماً تتعرّى له عن فنـــون جديدة من السحر الخلاب ، وتغذى خياله بصنوف من الموسيقى والشعر والإلهام . ولذلك يشعر قارئ دواوينه بأنه يعيش فى دنيا من الشموس والزهر والعطر والألحان . ولم يختلف عن جبران فى الهيام بالغاب الذى يدعوه أحياناً بالقفر ، فيقول :

خلتُ أنى فى القفر أصبحتُ وحدى فإذا الناسُ كلهم فى ثيابى

ويقول فى إحدى قصائده الغزلية :

تعالى ، إن ربّ الحبّ يدعونا إلى الغاب
لكى يمزجنا كالماء والخمرة فى كاس
ويغدو النورُ جلبابَك فى الغاب وجلبابى
فكم نصغى إلى الناس ونعصى خالقَ الناس

ويصبو إلى حياة الغاب ، حيث يأنس إلى جوار الطبيعة ، وحيث يطيب له أن يفنى فى الطبيعة ، وتفنى فيه ، فيقول :

وَلَيْكُ الليلُ راهبى ، وشموعى الـ شهب ، والأرض كلها محرابى
وكتابى الفضاء أقــرأ فيه سُوَراً ما قرأتها فى كتاب
وصلاتى الذى تقولُ السواقى وغنائى صوت الصَّبا فى الغاب
وكؤوسى الأوراق ، ألقت عليها الـ شمس ذُوب اللجَين عند الغياب
ورحيقى ما سال من مقلة الفجـ ر على العشب كاللجين المذاب

وكذلك يهيم نسيب عريضه بالغاب ، فيقول فى إحدى قصائده :

أصبتِ يا نفسُ ، فاتبعينى فليس كالغاب من مقامْ
يا غاب ! جئناك للتعــرى أنا وروحى ، ولا حرامْ
فليذع الغصْنُ ما يــــراه منـا إذا أحسن الكلامْ

والحنين إلى الغاب هو التعبير الصادق عن رجاء السعادة فى نفس كل إنسان . فالغاب عند المهجريين هو رمز البساطة والجمال ، أو هو – كما يقول نسيب عريضة : « كتاب مقدس ، كلماته تعاويذ تشفى من لذعات فلسفة الحياة » ويعرّفه ميخائيل نعيمه بأنه « عنوان الحياة الشاملة . . التى تطعم ذاتها من ذاتها : فلا موت الحمل عندها مأتم ، ولا غذاء الذئب وليمة » .

وقد صوّر لنا نعيمه ، فى حياة جبران ، مدى شعور المهجريين بالطبيعة بصورة دقيقة ، إذ قال : « سيان عند الشجرة أأكل ثمرتها إنسان أم ثعبان ، أو تفيأ ظلها قنفذ أم غزال ، أو تدفأ بحطبها ملاك أم شيطان ؛ فالإنسان والثعبان ، والقنفذ والغزال ، والملاك والشيطان ، أبناء الغاب الواحد ، وللغاب منهم غاية واحدة ، وله فيهم مشيئة واحدة ، من عرفها لم يعاندها ، بل استسلم لها ، وباستسلامه لها جعلها مشيئة له ، ومن جهلها فعاندها ، سحقته فأشقته » .

ونعيمه إذ يقول ، إنما ينظر إلى الوجود كله – كما كان ينظر إليه جبران من قبله – على أنه وحدة كاملة ، تتنوع مظاهرها ولكن جُوهرها واحد لا ينفصل .

والذى يصل إلى مثل هذا الفهم الدقيق ، وهذا الشعور العميق بالطبيعة وأسرارها ، ليس عجيباً أن يتخذها مصدراً لوحيه ، ومحوراً لإلهامه . فها هو ذا نعيمه يخاطب الله فى الفصل الأول من « بيادره » قائلا : « يا الله ، أمس جاءنى رسولك نيسان ، وعلى حقويه منطقة من شقائق النعمان والأقحوان ، وعلى رأسه إكليل من النسرين والوزال . وقد لف ذراعيه بالورود والياسمين والريحان ، وساقيه بالأرز والسرو والسنديان . . فما إن وطئ عتبة دارى حتى أعشبت عرصاتها واخضلّت ، وكانت قبلا جرداء يابسة . . لقد وددت لو يقيم الرسول عندى إلى الأبد ، ولكنه كان على سفر ، فما كاد يسلم حتى راح يودع » .

ثم يمضى فى ذلك الفصل الطويل الرائع على هذا النسق الشعرى ، ليصل إلى نهاية الفكرة الروحية التى يريدها ، عن طريق تصوير الطبيعة هذا التصوير النابض بالحياة وبالإيحاء .

وفى شعره يناجى « النهر المتجمد » فيبثه همومه فى قصيدة طويلة ، ثم يعود فى ختامها إلى تفاؤله ، الذى لا يفارقه إلا ليعود إليه ، وإلى طمأنينة روحه التى أوحت إليه أن يقول فى قصيدة أخرى :

سقْفُ بيتى حديدْ ركْن بيتى حجَرْ
فاعصفى يا رياح وانتحبْ يا شجَرْ
واقصفى يا رعودْ لستُ أخشى خطَرْ

« وأوراق الخريف » ، تلك التى اعتاد الشعراء أن يتخذوا منها رمزاً للآمال المحطمة فى النفس الكئيبة ، يناجيها نعيمه مودّعاً ، وفى وداعه ينثر لنا حكمة الروح التى ترى أن كل شىء فى الحياة يجرى وفق خطة مرسومة فى لوح القدر من قديم الأزل : فالموت والحياة ، والضحك والبكاء ، والسعادة والشقاء ، إن هى إلا أدوار تأتى فى أماكنها من رواية الحياة التى ألفها المبدع الحكيم منذ أن أوجد الحياة . فهو لذلك يمر بهذه المناظر متفرجاً ، متأملا ، ليستخلص العبرة من فصولها وأدوارها .

وكذلك نراه يصغى إلى « ترنيمة الرياح » فيناجيها نجوى الروح المحلّق للروح المحلّق ؛ ويفهم « لغة الأجراس » فيشرح للناس معانيها وصداها ، ويناجى

« البحر » و « الدودة » . ولا يمل من مناجاة الطبيعة ، والإفضاء إليها بخلجات روحه ونبضات قلبه ، لأن الطبيعة هى مظهر الحياة الشاملة والوجود الكلّى .

فهذا الإحساس العميق بالطبيعة ، الذى نجده فى أدب المهجريين – وأصحاب الرابطة القلمية منهم بنوع خاص – جديد فى طريقته ، جديد فى روحه ؛ وجدّته تسمو بالروح إلى جواء من اللذة الصوفية ، والنشوة الروحية ، وتترك فى النفس رنيناً حالماً ، يقطر بالعذوبة والغبطة ، ويتعالى بالروح فوق أوهام العالم ، وفوق قيود المادة .

ونحن نمضى فى تتبع أثر الطبيعة فى أدب المهجريين ، فنسمع أمين مشرق يناجى « كمنجته » نجوى كلها رقة وجمال وحنو ، كأنه يخاطب روحاً معزياً ، فيفضى إليها بهمسات روحه وخلجات وجدانه فيقول :

يا ابْنة الألحان ، ما أنت سوى ... صوت روحى ، وصدى قلبى الطموحْ
فى فؤادى ألف « رست ونوى » ... وكمنجاتٌ وأعوادٌ تنوحْ
لا تخافى ، أنا أعطيك الصّدى ... إنما فى داخلى يبقى الألَمْ
هو ذا قلبى مضحىً أبداً ... فدية عن قلبك الخالى الأصمْ
ردّدى منه الأنينا ... واملئى الليل حنينا

ونتنشى بجمال الطبيعة حينما نستمع إلى الريحانى فى صلاته الرقيقة فى محاريبها ، العذراء دائماً وأبداً ، فيقول فى قصيدته المنثورة « معبدى فى الوادى » :

« إيه أم الطبيعة ، بل أمى ! جئت أجدد معك آمال الحياة وسرورها . جئت أجدد عهدى وإيمانى مع كلأ الحقول وزهورها .

« جئت أردد تحت هذه الأفنان الخضراء ابتهال أبنائك الأتقياء .

« إن فى ورقة من أوراق التوت سرًّا لا يكشفه اللاهوت .

« إلى الوادى إذاً : هناك بين أشجار البطم والزمزريق ، وتحت أدواح الصنوبر والسنديان ، أشيد هيكل الإيمان .

« أرانى هنا فى بيتى ، بل فى بيت الطبيعة ، بل فى بيت الله . .

« سَماع : إنّ من حلق الحسون الذهبى ، تتدفق الأنغام الفضية .

« إن الأطيار تدعوك إلى تجديد إيمانك وآمالك فى الحياة .

« باسمك أيتها النفس الإلهية أصنع لإيمانى إكليلا من أزاهر الزعرور ، لا من أشواكه . .

« وإلى أتباع الذى صُلب ، وبنى الذين صلبوه ، أقول : تعالوا نتصافح تحت السماء ، حيث لا حاجز يحول دون الحب ، ولا ما يحول دون الإخاء » .

وهذا الشاعر القروى فى قصيدته « الربيع الأخير » يقدم إلينا طبقاً من فاكهة شعر الطبيعة الجميل ، فيقول :

عيب علينا نكون البلبلين ولا　　نشاركُ الطيرَ فى أعيادها سَحَرا
أما ترين الدّجى لُمَّت غدائرهُ　　سوداً فنشَّرها رأدُ الضحى شُقُرا
هيّا إلى الغاب ، إنى قد بنيتُ لنا　　من الرّياحين عشا ليّناً عطرا
إذا سئمنا ذرى أفنانه سُرُراً　　مدّت سنا الأرض من أعشابها حُصُرا

فهذا الوصف الناطق للطبيعة يجعلنا نمتلئ شعوراً بأن الطبيعة فيها مثل ما فينا ، وفوق ما فينا من حياة ، وأننا جزء من هذه الطبيعة الحية ، وجزء بسيط جداً . . وفى هذا يقول إيليا أبو ماضى :

أنت جزء من الكيان ، وفيه　　كثَراهُ ، كنبْته ، كحصاهُ
كالورود التى تحبّ شذاها　　والبعوض الذى تخاف أذاهُ
ما لحىّ بالموت عنه انفصالٌ　　إنّ دنياهُ هذه أُخراهُ

٧ – البساطة فى التعبير والرقة الغنائية

فى الوقت الذى كان فيه الشعراء الكبار المبدعون فى الشرق – كالبارودى وشوقى ، وحافظ ، ومطران ، والرصافى ، وأمثالهم – لا يستطيعون أن يفوزوا برضى القارئ الشرقى وإعجابه إلا عن طريق الجزالة اللفظية ، والقوالب الشعرية العباسية ، والقصائد الدالة على التمكن من العروض واللغة ، وعلى طول النفَس ؛ فى ذلك الوقت نفسه كان الكبار الممتازون من شعراء المهجر يتغنون من بعيد

بشعر رقيق الألفاظ ، لا أجراس فيه ولا طبول ، سواء أطال فيه النفس أم قصر ، وسواء أكان فى مواضيع غنائية وجدانية ، أم فى مواضيع اجتماعية أو تأملية أو سواها .

ولم يكن ذلك عن ضعف أو هرباً من تكاليف الشعر ، فقد رسخ فى عقيدتهم أن الشعر فنّ الحياة ، لا تكلف فيه ولا تقليد ، وأن الشاعر الذى يلبس ثياب غيره طاوياً الأجيال بذلك إلى الوراء ، لا يعطى الحياة السائرة إلى الأمام من نفسه ، ولا يعطيها من نفسها . وصحّ فى مذهبهم أن البساطة والرقة والغنائية هى عماد الجمال فى الشعر وفى الفنّ ، ولذلك سرعان ما وَجَد شعرهم ، والكثير من نثرهم ، السبيل سهلة إلى نفوس القراء فى الشرق وفى المهاجر على السواء ؛ وما لبث هذا الاعتقاد ، مع الأيام ، أن أصبح هو السائد فى العالم العربى . فأخذ الناس ينظرون إلى نثر نعيمه وجبران والريحانى ، ومن سار على طرائقهم ، بغير العين التى كانوا ينظرون بها إلى نثر اليازجيين والبستانيين ، ونثر الكواكبى ومحمد كرد على فى بلاد الشام ، وإلى نثر الرافعى والزيات وأحمد أمين وأضرابهم فى مصر .

صحيح أن أديب إسحق والمنفلوطى ومى زيادة قد حاولوا تبسيط العبارة النثرية وترقيقها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يتخلصوا من اعتبارات الجماهير القارئة التى كانت تؤمن بأن اللغة التى تستحق الحياة هى اللغة التى أثبتت جدارتها فى عهد الجاحظ وابن المقفع وابن العميد ، وعهد المتنبى والبحترى وأبى تمام ، ولذلك لم تسلم لغة أديب إسحق والمنفلوطى مثلا ، من التكلف الثقيل ، والترادف الممل فى العبارات وفى الألفاظ ، لأن القراء فى الشرق لم يكن لديهم الاستعداد النفسى لقبول الجديد دفعة واحدة ، ولا سيما إذا جاءهم من أدباء يعيشون بينهم فى الشرق .

وصحيح أن إسماعيل صبرى قد حاول الخروج عن طرائق جيله فى التقليد ، فكان شاعراً ينظم فى المواضيع الوجدانية ، وينفر من القصائد الطوال . ولكنه هو أيضاً لم يستطع أن ينطلق مع طبيعته فى التجديد ، وأن يجعل ألفاظه مناسبة لمواضيعه من حيث الرقة والغنائية وبساطة التعبير .

أما المهجريون فقد انطلقوا من اعتبارات التقليد ، ومنحوا أنفسهم الحرية

التي كانت تعوز أدباء الشرق وشعراءه ؛ سواء فى نثرهم وفى شعرهم . ولهذا كان أدبهم شيئاً جديداً ، لأنه نسف مذاهب الشرقيين فى الأدب ، وفى الشعر ، وفى الفنّ ، وجعل أساس الأدب الحرية والبساطة قبل كل شيء ، وألا يعطى الأديب والشاعر من عند سواه ؛ بل من عند نفسه ، وألا يلبس ثياب غيره ولو كانت موشّاة بالذهب والحرير ، بل يرى ثيابه مفصّلة على قدّه ، ولو خلت من كل بهرجة وصناعة .

ولست أريد ههنا أن أتحدث على رقة النثر المهجرى وبساطته ، وبحسبى منه الإشارة وحدها إلى نثر جبران ونعيمه والر يحانى بشكل خاص ؛ والذى أودّ أن أنصرف إلى درسه هو الشعر وحده ، فهو أيسر منالا ، وأوفى بالغرض ، كما أن أصحابه المتفوقين أوفر عدداً ، وأكثر تفنناً فى غنائيتهم ورقتهم واختيار مواضيعهم .

ولقد رأينا فى ما تقدّم من الفصول شيئاً غير قليل من شعر المهجريين الغنائى الرقيق ، فى مختلف مناحيه ومواضيعه ، كما رأينا أشياء من النثر الرقيق البسيط فى تعابيره ، والجميل فى خيالاته وشاعريته .

ونضيف الآن نماذج أخرى من الشعر وحده لشعراء مختلفين من المهجر الشمالى ومن المهجر الجنوبى .

من ذلك قول أبى ماضى فى قصيدة له بعنوان « شاعر الشهور » :

أيارُ ، يا شاعر الشهور ... وبسمةَ الحبّ فى الدّهور
وخالقَ الزهر فى الرّوابى ... وخالقَ العطر فى الزهور
وغاسلَ الأفْق والدّرارى ... والأرض ، بالنور والعبير
أتيتَ فالكونُ مهرجانٌ ... من اللذاذات والحبور
أيقظت فى الأنفس الأمانى ... والابتسامات فى الثغور
وكدتَ تحيي الموتى البوالى ... وتنبتُ العشْب فى الصّخور
وتجعل الشوك ذا أريج ... وتجعل الصخرَ ذا شعور
فأينما سرتُ صوتُ بشْرى ... وكيفما ملْتُ طيفُ نور

وظاهر من هذه الأبيات المقتطفة أنه ليس حتما أن يتجرد الشعر من الوزن الواحد والقافية الواحدة لكى يكون غنائيًّا رقيقاً وإنما الأصل فيه جمال الخيال ،

وبساطة التعبير ، والذوق المرهف الذى يعرف كيف يضع اللفظة الشاعرة المعبرة ، دون تكلف أو جهد . فكثيرة هى القصائد ذات الوزن الواحد والقافية الواحدة لدى أبي ماضي ، ولكنها رائعة فى غنائيتها ، وفى رقة ألفاظها وتعابيرها ، وغنية بالخيال والجمال والتعبير الشعرى المباشر ، دون أصباغ ومساحيق .

ومثلها أيضاً قصائد كثيرة للشاعر القروى ، من شعره الوجدانى ، الذى لا يحتاج إلى صليل السيوف ، وبريق الرماح ، وإلى الجلجلة الخطابية . ومن ذلك قصيدته « الربيع الأخير » التى يقول فيها :

طيرى ننقرْ مع الأسراب فى فرص	إن طرن لن تجدى حَباً ولا ثَمرا
غداً نذوبُ إلى الأعناب من ظمإ	ونهبط الكرم لا نلقى لَهَا أثرا
لنا من الشَّفَق السحرىّ أجنحة	فما التفاعك فى جنحَى دجًى وكرى
وقد فشا بين أضلاع النوافذ من	عطر الخمائل سرٌّ حرّك السُررا
والغاب ألّف جوقاً من عشيرته :	الرّيحَ والنهرَ والأطيارَ والشجَرا
رفّ النسيم على أدواحه فبَهـا	ما بالمحبّ إذا طيف الحبيب سرى
والبدر كالناشئ العصرىّ عاد ضحى	من مرقص النجم يشكو الضّعفَ والخورا
والأرض حارت : أتلقى الفجر ضاحكة	لأمها الشمس ، أم تبكى ابنها القمَرا

وهكذا تمضى القصيدة الطويلة ذات المائة والثلاثة الأبيات ، سلسلة ، رقيقة ، عذبة ، فتحس لقراءتها بالنشوة الغامرة ، يسكبها فى نفسك قلم يفيض بالسحر حينما تفيض نفس صاحبه بنشوة الحياة وسحر الأحاسيس الدافئة : أحاسيس الحب ، والحنين ، والإنسانية الرحيمة . وإليك أبياتاً من قصيدته « أختى المريضة فى العيد » :

رأيت الصبايا صفوفاً تغنّى	وتطفُرُ فى العيد مثل الظبا
إلى كل روض ، على كل غصن	أهاب الربيع فلبَّى الصبا
قصائدُ من كل وزن ولحْن	يرتلها الله فوق الرّبى
وأختى البريئةُ رهْنُ الألَمْ	كما حُبس الطفلُ عن ملْعَبهْ
إلهىَ ! ضيّعت أحْلى نغَمْ	وعطلتَ شعْرَك من أعذبهْ !

* * *

فدعْها تطرْ نحو تلك الرّبى   وتَجن الزهــورَ كأترابها
وإلا فمُرْ بلبــلاً مطربا   من الروض يشدو على بابها
وقل للنسائم أن تجلبــا   إليها الشذا ملء جلبابها
وإن شاء عفوك أن يرحما   صباها ويدرأ عنها الخطَرْ
فَمُنَّ بإبلالها قبلمـــا   تجفّ الحقولُ ويذوى الزّهَرْ

ألا ، كم أود أن أعرف كيف أعلق على مثل هذا الشعر ! فهو من السحر الذى تمتلئ به النفس ، ولكن اللسان لا يعرف كيف يعبّر عن نشوتها به . فليست هنالك فخامة ألفاظ ، ولا غَرابة صور ، ولا جلجلة تعابير ، وإنما بساطة متناهية فى التعبير عن عاطفة أخوية حارة صادقة ، فكان التعبير عنها صادقاً مثلها ، وحاراً مثلها ، ورقيقاً عذباً مثلها . وكل شطر من القصيدة يغنّى نفسه بتدفق وحلاوة .

وهذا نسيب عريضة ، شاعر الحيرة الأكبر بين المهجريين ، يتحدث عن حيرة قلبه بملء البساطة المعبرة ، فيقول فى قصيدة بعنوان « مَركب الفؤاد » :

قلبى بلا شراع   يطوفُ فى البحارْ
قد قارب التداعى   من كثرة الأسفار

* * *

سفينة حقيره   ليس لها ربّانُ
فى ظلمات الحيره   منارُها الإيمانُ

* * *

طاف البحارَ يرجو   جــزائر الخلودِ
لعلّه أن ينجو   من لجة الوجودِ

* * *

يا عاصفاتُ هبّى   وغرّقى السفين
فى العمق يلقى قلبى   مرفأه الأمينْ

* * *

ويقول فى قصيدة بعنوان « كن » :

كن مثل كأس قد صفا لونها   تملؤها خمراً ولا تسكرُ
كن كالضحى يذهب فى دوره   تذكره الأسماء والأعصرُ
كن . مثل مرآة إذا استُقبلت   أظهرت الشيء كما يظهرُ
لكن إذا ما غبتَ عن وجهها   لا تفضح السرّ ولا تنشرُ
كن مثل شمس منحت نورها   لكل مخلوق ، ولا تُشكرُ

وهذا رفيقه « الدرويش » رشيد أيوب ، الشاعر الذى لم يعرف فى شعره إلا العبارة السهلة واللفظة الساذجة ، يقول من قصيدة بعنوان « الربيع » :

قالوا : ربيع ! قلت : أين الصبى   أين الفراشات ، وأين الطيور ؟
أيام أعدو خلفها حافياً   وكيفما فى الحقل دارتْ أدورْ
طائرة ، لكننى مثلها   من فرحى ما بين تلك الزهورْ
وكل ما فى الوجودْ
لنا حلال مباحْ
لا عاذلٌ ، لا حسودْ
لا غربة ، لا انتزاحْ
هذا ربيعٌ ، أعطنى مثله   وخذ إذا ما شئت كل الدهور !

ومن الشعر الوصفى والتأملى الرقيق قصيدة للشاعر شكر الله الجر ، يناجى بها حديقة وينذرها بخريف يعريها من البهجة والرواء ، ثم يمنّيها بربيع يعيد إليها الجمال . وفى ما يلى القصيدة كلها ، إذ أن الاقتباس منها لا يكفى لإبراز مدى ما فيها من الرقة والعذوبة والغنائية :

غداً ستعرّى بنانُ الخريف   أفانينَ أشجارك الزّاهره
وتنثرُ كفّ الشتاء هباءً   بقايا وريقاتك الناضره
وتحجبُ عنك ثغورَ النجوم   غمائمُ فى أفقها سائره
ويغشاك عند الصباح الضّبابْ
غداً ستلملم عنك الطيورُ الـ   جناحَ إلى أربع قاصيه
فلا ما يزقزقُ فوق الغصون   ولا ما يرفّ على الساقيه

بلى ، قد يمرّ عليك الغــــرابُ   وينعبُ فى الدّوحة العــارية
وبعضُ النعيب نذيرُ الخرابْ

سيجفو ظلالك أهــــل الهـوى   وتحتلك الوحشةُ المرعبــه
فلا تسمعينَ خفــــوق القلـوب   ولا رنّــة القُبَل المطـــربه
ولا تلمحين بنـــانَ الحسان   تداعبُ أثمـــارك الطيبـــه
فهــل تحسبين لهذا حسابْ ؟

لئن يحـــزننّك أن الخـــريفَ   غــداً سيبدّل مــن نضرتِكْ
فسوف يعيد إليك الرّبيــــع   – عريس الزمان – سنى بهجتكْ
فيرقص طيرك فـوقَ الغصـــون   ويستضحكُ النور فى وجنتِكْ
ويجـرى بعودك ماءُ الشبابْ

ولكنّ قلبى كمـــا تعهـدين   تكرّ فصولٌ وتأتى فصـــولْ
وكلّ الفصول لديه خريـــفٌ   وكلّ الليــالى شتاءٌ طويــلْ
فمـاذا أرجّى وقد جفّ فيــه   معينُ الشباب ، وعاثَ الذّبولْ
بزهــر الأمانى فأمسى ترابْ ؟

ولئن كانت هذه القصيدة تذكرنا بقصيدة « النهر المتجمد[١] » لميخائيل نعيمه من حيث الروح والنجوى والختام ، فإنها لا تقل عن أختها تلك رقة وغنائية وجمالا فى عبارتها وخيالاتها الملونة بالكآبة الجميلة . وهذه هى قصيدة نعيمه « النهر المتجمد » ، نورد منها بعض مقاطعها الرقيقة ، وخاتمتها التى تجللها كآبة لم نألفها فى ميخائيل نعيمه ، الفيلسوف والشاعر ، المؤمن بالحياة والوجود وبالطبيعة :

يا نهرُ هل نضبتْ ميـــا   هُك فانقطعت عن الخرير ؟
أم قد هرمتَ وخـارَ عـز   مك فانثنيتَ عن المسير ؟
بالأمس كنت مرنمـــاً   بين الحـــدائق والزهـــور
تتلـو على الدنيا ومــــا   فيها أحاديث الدهـــور

* * *

(١) كتب نعيمه هذه القصيدة أولاً باللغة الروسية حين كان طالباً فى روسيا ، ثم عاد فنظمها شعراً عربيًّا حين كان فى أميركا – كما يذكر فى كتابه « سبعون » .

بالأمس كنت إذا أتيـــ تك باكيــاً سلّيتــنى
واليــوم صرت إذا أتيـــ تك ضاحــكاً أبكيتنى

* * *

بالأمس كنتَ إذا سمعـ تَ تنهـدى وتوجّعــى
تبكى ، وها أبكى أنــا وحدى ولا تبكـى مــعى

* * *

ها حولك الصفصاف لا ورقٌ عليـه ولا جمـالْ
يجثـو كئيبــاً كلمــا مرّت بــه ريحُ الشمالْ

* * *

والحورُ يندب فــوق رأ سك ناثــراً أغصانــهُ
لا يسرح الحسون فيـــ ه مــردّداً ألحـــانهُ

* * *

تأتيــه أسراب مـــن الـ غربان تنعق فى الفضــا
فكأنهـــا ترثى شبــا باً من حياتك قد مضى

* * *

لكــن سينصرف الشتــا وتعــود أيــام الربيـعْ
فتفكّ جسمك من عقــا ل مكّنتـه يد الصقيــعْ

* * *

وتكـرّ موجتــك النقيــة (م) حــرّة نحــو البحـارْ
حبــلى بأسرار الدّجـــى تُمْـلى بأنـــوار النهــارْ

* * *

وتعــود تبسم إذ يـــلا طف وجهك الصافى النسيمْ
وتعـود تسبحُ فى ميــا هك أنجم الليــل البهيـمْ

* * *

قد كان لى يا نهــر قلـ بٌ ضاحك مثل المروجْ

حــرٌ كقلبك فيـه أهــ واء وآمـــالٌ تمـــوجْ

* * *

فتساوت الأيـــام فيــ ـه : صباحهـا ومساؤهـا
وتوازنت فيـــه الحيـا ة : نعيمهـــا وشقاؤهـا

* * *

سيان فيــه غـــدا الربيـ ـع مع الخريف أو الشتاء
سيان نـــوحُ البائسيـ ـن وضحك أبنــاء الصفاء

* * *

يا نهــرُ ، ذا قلبي أرا ه كمـا أراك مكبـــلا
والفـــرق أنك سوف تنـ ـشط من عقالِك وهو . . لا

* * *

ولئن كنا نحسّ بتجاوب عميق مع هذا التدفق النعيمى الكئيب ، وهذه الرقة الذائبة فى التصوير وبثّ الألم ، ونتنشى من طلاوة التعبير وموسيقيته ، فإننا لنتساءل برغمنا : من أين جاءت هذه الكآبة وهذا التشاؤم إلى نفس نعيمه ، وهو الذى يقول فى قصيدته « طمأنينة » :

باب قلبي حصـــينْ من صنـــوف الكـــدَرْ
فاهجمـــى يـــا همـــومْ فى المسا والسحَـــرْ
وانـــزلى بالألـــوفْ يا خطـــوبَ البشَرْ

ويقول أيضا :

إذا سماؤك يومـــاً تحجَّبت بالغيـــومْ
أغمض جفـــونك تبصرْ خلفَ الغيـــوم نجـــومْ

* * *

والأرض حـــولك إمـــا توشحتْ بالثلــــوجْ
أغمض جفـــونَك تبصرْ تحت الثلـــوج مـــروجْ

* * *

ونحن بعد هذا نرى مدى ما فى هذه النماذج من شعر نعيمه من العذوبة والغنائية الرقيقة ، مهما اختلفت الروح التى تملى أبياتها .

ونمـــضى فى الحديث لنصل إلى الأخوين الشاعرين : فوزى وشفيق المعلوف ، وكل منهما شاعر غنائى لطيف الشعر ، ذواقة للفظة الشعرية ، والعبارة الدالة على معناها ، وللتعبير الهامس الرقيق . خذ من « عبقر » لشفيق ، ما شئت من أناشيده ، لترى كيف تنساب الموسيقى فى كل نشيد ، مصوّرة باللفظ الجميل كل معنى من معانى المطوّلة ، رعباً كان أم تمرداً ، وسرداً كان أم حواراً . ومن ذلك « همس الجماجم » :

فقلت للأرواح والرمم الباليه :
أين الوجوهُ الصّباح والبسمة الزاهية ؟
من كَفّنَ الصّباح بالظلمة الدّاجيه ؟
كأس اللمى الحمراء من صاغَها وردّ للزهور أصباغها ؟
أكلما الموتُ رأى أكؤساً ملآنة ، حاول إفراغَها ؟
والأعين الساهرات أين لياليها ؟
هل يوم أطفا الممات ضوء مآقيها
تهاوت النيرات وانطفأت فيها ؟
والحبّ ، هل حين انقضى عيده ظل يُدَوّى فى الدجى عودُه
أم ماتت الطير فماتت على مناقر الطير أغاريده ؟

ومطولتا فوزى « على بساط الريح » و« شعلة العذاب » ، وكذلك أغاريده الغزلية وقصائد كآبته ؛ إنها كلها قطع غنائية تفيض بالرقة ، وتزخر بالموسيقى الممتعة المطربة .

وميشال معلوف ، خال فوزى وشفيق ، وأول رئيس للعصبة الأندلسية ؛ اقرأ قصيدته « الخريف فى جنائن فرسايل » لترى كيف تسيل الموسيقى فى الألفاظ :

يا سحُبًا راكضةً فى الفضـــاء مُجدّة فى السير نحو المغيبْ
ناشدتك الله ، تُرَى للفنـــاء ذاهبة ، أم للرجوع القريبْ ؟

ما ألطف الظلّ الذى تنشرينْ
أواه لو أنّــهُ
باق ولكنــهُ
سارٍ مع السائرين
فى الغـاب لا يُسمع غير الحفيفْ وغير شدو البلبل النـــازح
تَفَرّق الشمل وعاد الخريــفْ ما أقربَ اليوم إلى البـارح
ياليتنى أعلم أين النوى
وأيـن ريح الجنوبْ
تحملُ عند الغروبْ
أوراق غصن ذوى !

وزكى قنصل ، إنه فى مجموعته « سعاد » وفى الكثير من قصائده الوجدانية الأخرى شاعر كثير الرقة ، تذوب ألفاظه مع ذوب أحاسيسه . وإليك مرثيته لطفلته ، بعنوان « على ضريح سعاد » :

رفتْ رفيفَ الأقحوانه وانطفت فى عمــرها
ماذا جنت حتى تَصيَّدها الرَدى فى فجرها ؟ !
يا ربّ ! لا تحبس فؤادى لحظةً عن ذكرها
أنا قــد عبدتك بسمةً وضّاءة فى ثغـــرها
وشممتُ أنفـاس الجنـان شذيةً فى شَعرهـا

* * *

أسعادُ ! قد ضحك الصّباح على الروابى والوهادِ
قومى نُغَنّ مع الطيور ، ونَعْدُ من واد لـــوادِ
كذب النعيّ ، وضاع دمعُ النائحين على سعادِ
ما غبتِ عن عينى فكيف أغوصُ فى ثوب الحدادِ
إنى تحدّيت الردى ، وحملت شخصك فى فؤادى

* * *

وفرحات ، شاعر الوطنية العارمة ؛ إنه فى شعره الوجدانى رقيق ، كثير

البساطة فى عبارته ، والنعومة فى موسيقاه . وإليك كيف يصف غروب الشمس وهو يراقبه من منزله فى مدينة « الأفق الجميل – Bello Horizonte » فى البرازيل :

جـــاء الغروب ، فالتفتْ إليـــه مـــن شبّـــاكى
تجـدْ ضروب الحسن فى الـ أرضِـــينَ والأفــلاكِ

جاء على عادتهِ يختالُ فى مشيتهِ
مفضّضاً مذهّبـاً مقوّراً مقببـــاَ

يريك مـــن أشكاله الـ سعيـــدة الغرائبــــا
وَيُلبس الأشكال مـــن ألـــوانه جلابيــا
فَانهـرّ من فضّـــــة شطـــآنها مـــن دهَبِ
تصبّ فى بحـــيرة زاخـــرة باللهبِ
بين جبـــال تكتسى أزهى وأبهـــى ملبس
النـــارُ فى سفوحهـــا تسمو إلى سطوحهـــا
فتصبـــغ السهول والـ جبـــالَ والتـــلالا
حتى تـــرى الأفـــق وما فى الأفـــق قد تـــلالا

وهكذا يمضى فرحات فى تصوير مشهد الغروب بهذه البساطة المتناهية ، وهذه الخيالات العذبة إلى أن يختم قصيدته قائلا :

فَنِعْمَ مساءً يا غـــــرو ب « الأفـــق الجميـــلِ »
أنت إلى الحسن الـــذى لا ينتهـــى دليـــلى

* * *

وهذه أخيراً قصيدة قليلة الأبيات للشاعر جورج صيدح بعنوان « اللقاء الأخير » ، لا تقلّ عن أخواتها السابقات فى غنائيتها وجمال تعبيرها وبساطته :

لما التقينـــا بعد هجـر السنين سرنا معا فى الروض كالعاشقين
وكان أن أهديتُهـــــــا وردة فسقطتْ من كفها بعد حينْ
فالتقطتُها عن أديم الـــثرى إذا بها بيضـــاء كالياسمينْ

ما بيّض الوردةَ ثلــج همــى ... يا غادتى ، لا تنظــرى للسما
وتهمى الصيفَ بغدر مبين
من جوّ قلبينا الصّقيــعُ ارتمــى ... ثلجاً على الوردة ، والقاطفينْ
والحبّ أشتى ، فلنعــدْ قبلمــا ... تفضحنــا الزكمــة للناظرينْ

٨ – الحرية الدينية

الحرية هى الدعامة الأولى التى قام عليها الأدب المهجرى ، سواء فى المعتقدات الفكرية والمذهبية والاجتماعية ، أو فى التعبير وفى فنون البيان .
والحرية الدينية عامل عظيم التأثير ، وركن من أهم الأركان التى جعلت الأدب المهجرى يظفر بما ناله إلى اليوم من التقدير والإعجاب ، ويحتل مكانته البارزة فى تاريخ الأدب العربى الحديث .

ولعل المهجريين هم أهمّ فئة من رجال الفكر العربى الحديث نشرت معانى التسامح والتسامى فى الدين ، وجعلت لذلك نصيباً كبيراً من أدب أربابها : الشعر منه والنثر .

فنى أدب هؤلاء المهاجرين نجد الحرية فى التفكير والتعبير ، والمناقشة والتفسير لشؤون الدين ، بعيداً عن روح التعصب والجمود ، والتسليم الأعمى لما جاء فى كتب الدين وفى شروح رجاله . وأما التكفير الذى يرمى به الشرقيون بعضهم بعضاً ، وتتهم به كل طائفة وكل ملة أختها ، فهو أبعد ما يكون عن تكفير المهجريين وعن معتقداتهم ، وهم أبعد ما يكونون عن قبوله أو التسليم به .

ولعل أول من جهر من المهجريين برأيه الصريح فى الدين ورجاله ، جبران خليل جبران ، وأمين الريحانى ؛ وعلى الرغم من الاختلاف الكبير فى المنحى الفكرى لكل من هذين الأديبين ، فقد كانا على رأى واحد فى سذاجة المعتقدات الدينية الطائفية التى نشأ أهلهم عليها فى الوطن ، وفى الكثير من الشعوذات التى يحشو بها بعض رجال الدين أذهان العامة البسطاء . وكانا متفقين كذلك

فى حملاتهما العنيفة التى لا ترحم على الكثيرين من رجال الدين . وقد امتلأت بذلك مؤلفاتهما الكثيرة ، حتى لقد رُمى كلاهما بالإلحاد ، وأحرق أحد كتب جبران من أجل ذلك فى بيروت ، ووضعت كتب الريحانى وجبران فى القائمة السوداء التى يُحرم على الكاثوليك قراءتها ، لمخالفتها لتعاليم رجال الدين وتفسيراتهم لروح الدين الكاثوليكى .

خذ مثلاً لجبران : الأجنحة المتكسرة ، وعرائس المروج ، والأرواح المتمردة ، ويسوع ابن الإنسان ، والعواصف ، وغيرها من كتبه . واستمع إلى قوله فى قصيدته « المواكب » :

والدينُ فى الناس حقلٌ ليس يزرعـــهُ غيرُ الأولى لهمو فى زرعه وطـــرُ
من آمـلٍ بنعيم الخلـــد مبتشر ومِن جهـول يخاف النـار تستعرُ
فالقومُ لولا عقابُ البعث ما عبـــدوا ربًا ، ولولا الثوابُ المرتجى كفروا
كأنمـا الدين ضَرْبٌ من متاجـرهمْ إن واظبوا ربحوا أو أهملوا خسروا

ليس فى الغابات ديـــنٌ لا ولا الكفـــر القبيحْ
فـــإذا البلبلُ غـــنى لم يقلْ : هـــذا الصحيحْ
إن ديـــن الناس يـــأتى مثـــل ظل ويـــروح
لم يقمْ فى الأرض ديـــن بعـــد طـــه والمسيحْ

* * *

أعطنى النَّـــاىَ وغـــنِّ فالغنـــا خيرُ الصـــلاهْ
وأنين النـــــاى يبـــقى بعد أن تفنى الحَيـــاه

وخذ كذلك قوله فى كتابه « النبى » :

« إن حياتكم اليومية هى هيكلكم وهى ديانتكم ؛ فخذوا معكم كل مالكم عندما تدخلون هيكلها : خذوا السكة والكور والمطرقة والطنبور ، وكل ما لديكم من الآلات التى صنعتموها رغبة فى قضاء حاجاتكم ، أو سعياً وراء مسراتكم ولذاتكم ، لأنكم لا تستطيعون أن ترتفعوا بتأملاتكم فوق أعمالكم ، ولا تقدرون أن تنحدروا بتصرفاتكم إلى أدنى من خيباتكم . . . وإن شئتم أن تعرفوا ربكم فلا تعنوا بحلّ الأحاجى والألغاز ، بل تأملوا فيما حولكم تجدوه

لاعباً مع ألادكم ؛ وارفعوا أنظاركم إلى الفضاء الوسيع تبصروه يمشى فى السحاب ، ويبسط ذراعيه فى البرق ، وينزل إلى الأرض مع الأمطار . تأملوا جيداً ، تروا ربكم يبتسم بثغور الأزهار ، ثم ينهض ويحرّك يديه بالأشجار » .

أما الريحانى فخذ من كتبه : الريحانيات ، والمكارى والكاهن ، والمحالفة الثلاثية ، والتطرّف والإصلاح ، وغيرها ، ففيها من الحرية الدينية والفكرية الشىء الكثير المدهش . وهو يختلف عن جبران فى أنه اتخذ من هذه الحرية الدينية وسيلة لتوحيد قلوب أمته – قبل كل شىء – على الوعى الوطنى والقومى ، وعدم استخدام الدين فى التفرقة بين أبناء الوطن الواحد والأمة الواحدة . لقد أراد أن يكون للعرب كلهم دين واحد يجمعهم : هو « الوطنية » أو « القومية » إلى جانب أديانهم السماوية ؛ ولهذه الغاية سخر قلمه ، وكرّس حياته وجهوده .

استمع إليه يخطب فى إحدى الحفلات المدرسية ، فيقول للطلاب :

« إنكم فى هذه المدرسة إخوان وإن اختلفت لهجاتكم العربية ، وتعددت مذاهبكم الدينية . ولكن لا فضل لكم فى هذا الإخاء ، وهو ركن من اركان التعليم الحر الراقى ؛ إنما فضلكم فيها ستحملونه إن شاء الله إلى الوطن – كل إلى بلاده – من هذا الروح المقدس : روح الإخاء الذى سيضمّ تحت لوائه المسلم والمسيحى والدرزى ، كما سيجمع بين اللبنانى والسورى والعراقى والفلسطينى . . .

« كلنا ندين بدين التوحيد ؛ كلنا نوحد الله ولا نرجع فى النهاية إلى سواه ، نحن أبناء الأديان التوحيدية ؛ وما موسى وعيسى ومحمد غير رسل الإله الواحد ، رسل التوحيد . فإذا كان إلهنا واحداً ، ولساننا واحداً ، وبلادنا فى سهولها وجبالها وصحاريها واحدة ، ومصائبنا السياسية كلها واحدة ، أفلا ينبغى ان يكون الوطن كذلك واحداً فرداً لا تقسيم فيه ولا تجزئة ؟ ! . . .

« عندما أفكر فى المذاهب والطوائف الدينية – بليّتنا الكبرى – وفى أولئك المتعصبين جهلا أو نفاقاً ، الذين يكفّرون الناس ويتعيشون بجهل الناس ، أذكر بيتين من الشعر الإنكليزى لصديقى الأميركى الشاعر الكبير إدوين مركهام ، ترجمتها : « إن المتعصّب رَسَمَ دائرة صغيرة وجعلنى أنا الكافر خارجها ؛ ولكنى – والحب عونى – غلبناه . فرسمنا دائرة كبيرة وجعلناه ضمنها » . . »

اما ميخائيل نعيمه فإنه ينحو فى مذهبه منحى جبران عينَه ، حتى ليكرر أقواله بمعانيها فى بعض الأحيان . ولكنه لم يكن يحمل على رجال الدين مثل حملاته العنيفة ، بل كان يدعو إلى تحرير الفكر من عبودية المذاهب ، وإلى التسامى فى الدين فوق الطائفيات والمذاهب . فالإنسانية – لا الوطنية أو القومية – عنده وحدة لا تجزئة فيها ولا مذاهب ولا طوائف ، وقد خرجت كلها من منبع واحد ، وتسير نحو مصبٍّ واحد .

والذى يقرأ كتابه « المراحل » يجد فيه خلاصة لفلسفته الدينية المتحررة ، التى ترى فى (بوذا – ولاوتسو – والمسيح) ثلاثة وجوه « تقلصت أمامها خيالات كل وجوه البشر » ، ويرى فى تعاليمهم خلاصة الحكمة الإنسانية ؛ فهم « ثلاث منارات على شواطئ الوجود ، تستمدّ نورها من مصدر واحد ، وتنير سبيلا واحداً ، إلى مرفأ واحد » .

وعلى الرغم من أنه لم يحارب رجال الدين ، وشعوذات البعض منهم ، كما حاربها زميلاه جبران والريحانى ، فإنه لم يُعفهم فى بعض الأحيان من كلمة هنا أو كلمة هناك . وإليك مثالا من ذلك فى مقال له بعنوان « الجندى المجهول » فى كتابه « المراحل » يخاطب به الجندى المجهول فيقول :

« وأولئك الأحبار الكبار الذين يرعون قطيع المسيح ، ويكرزون بإنجيل المسيح ؛ أولئك الخدام الأمناء الذين قال لهم سيدهم : « أحبوا مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، احسنوا إلى الذين يسيئون إليكم » ، فقالوا لك باسم سيدهم : « أبغض مبغضيك ، والعن لاعنيك ، واذبح الذين يسيئون إليك » ، أولئك الأحبار الأتقياء الذين كانوا بالأمس يبتهلون من أجل سلامتك وموت عدوّك ، فلما متَّ شكروا الله لأنه استجاب طلباتهم . . . أولئك الأحبار الأجلاء أنفسهم يمشون مع نعشك اليوم وكأنهم قد وجدوا فيك حلقة جديدة تربطهم بعرش الديان . ألم يطلبوا الفوز لجنود مليكهم المظفر ؟ أوَ لم يسمع الله صلواتهم ؟ فقد فازت جنود الملك ، وها عظامك المجردة من الجلد واللحم ، والتى تجرّها الجياد المطهمة ، تشهد بذلك . وعما قليل سيقف هؤلاء الأحبار فوق رمسك وأمام مذبح الرّب ليصلوا من اجل راحة نفسك . وليشكروا الذى صُلب من

أجلك ومن أجلهم ، لأنه أهَّلك لأن تموت فى ميدان المجد . . . والشرف . . . والوطنية . . . »

وإذا بحثنا عن الدين لدى إيليا أبى ماضى – وهو مسيحى فى أصل معتقده ، مثل جبران والريحانى ونعيمه – وجدناه مثلهم أيضاً من حيث الحرية الفكرية التى لا تؤمن بمذهب يقيم الحدود والفوارق بين الإنسان والإنسان ، بل يدعو إلى التسامح والتسامى فى العقيدة ، وإلى التشبه بالطبيعة التى لا مذاهب فيها ولا طوائف .

فدينى كدين الروض يعبقُ بالشذا ولو لم يكن فيه سوى اللصّ منسلاً
فكم هش للأنسام والنـــور والنـدى وآوى إليـه الطيرَ والذرّ والنمـلا
وديـــنى الذى اختـــارَ الغديرُ لنفسه ويا حسن ما اختارَ الغدير وما أُحلىٰ !
تجىء إليه الطــير عطشى فترتـــوى وإن وردته الإبل لم يزجر الإبلا

فهؤلاء المهجريون يؤمنون بالله ، ويدعونَ إلى الإيمان به ، ولكنهم لا يرونه بعيون المعتقدات المذهبية التى نشأوا عليها فى طفولتهم ، والتى كانت تحذر الكاثوليكى من أن يشترى زيتاً من أخيه الأرثوذكسى – كما ذكر نعيمه فى كتابه عن جبران – بل يرونه أباً لجميع مخلوقاته على السواء ، ويحبون أن يراه جميع الناس كذلك ، مهما اختلفت مذاهبهم وطوائفهم ؛ فلا فضل لذى ملة منهم على ذى ملة أخرى ، ولا تفاوت بينهم أمامه .

ومثل جبران ونعيمه والريحانى وأبى ماضى كذلك كان جميع إخوانهم فى الرابطة القلمية وغير الرابطة ؛ فالتسامح الدينى ، والحرية الفكرية ، هما المذهب الذى ينتمون إليه ويدينون به .

ومثلهم كذلك نجد أدباء المهجر الجنوبى . فنرى المسيحيين والمسلمين يشتركون معاً فى تكريم ذكرى مولد الرسول ، ويمجدونه فى شعرهم ونثرهم ، ونراهم جميعاً يؤمنون بأن الدين لا يفرّق بينهم ما داموا إخواناً فى العروبة ، واللسان ، والموطن ، وبان الرسول مفخرة للامة التى نشأوا فيها . والتى يجمعهم لواؤها تحت ظلاله .

وكم من حفلة دينية إسلامية هناك كان خطباؤها وشعراؤها من المسيحيين ،

كالقروى ، وفرحات ، وأبى الفضل الوليد ، وشكر الله الجرّ ، ورياض المعلوف ، ونصر سمعان ، وجورج صيدح ، وسواهم .

من ذلك قول الشاعر القروى فى عيد الفطر – والقروى لا يؤمن بدين غير دين العروبة ؛ فكل ما يبعث على رفعتها ووحدتها ومجدها فهو عيده ، وهو مهرجانه ؛ والرسول هو باعث هذه الأمة الأول وموحّدها بدينه ودعوته – :

أكرّم هذا العيدَ تكريم شاعر ... يتيه بآيات النبيّ المعظم
ولكننى أصبو إلى عيد أمة ... محرّرة الأعناق من رقّ أعجمى
إلى علَم من نسج عيسى وأحمد ... وآمنةٌ فى ظلّه أخت مريم
هبونىَ عيداً يجعل العُرْبَ أمةً ... وسيروا بجثمانى على دين برهم
فقد مزقت هذى المذاهبُ شملنا ... وقد حطّمتنا بين ناب ومنسم
سلامٌ على كفر يوحد بيننا ... وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم !

وقوله فى عيد المولد النبوى :

عيدُ العروبة عيدُ المولد النبوى ... فى المشرقين له والمغربين دوى
عيد النبى ابن عبد الله من طلعت ... شمسُ الهداية من قرآنه العلوى
يا قوم ! هذا مسيحىٌّ يذكّركمْ ... لا يُنهض الشرق إلا حبّنا الأخوى
فإن ذكرتم رسولَ الله تكرمةً ... فبلّغوه سلامَ « الشاعر القروى »

وإلياس فرحات ، زميل القروى وصنوه فى الإيمان القومى ، يقول فى التسامح الدينى والأخوة الوطنية :

فيمَ التقاطعُ والأوطانُ تجمعنا ؟ ... قم نغسل القلبَ مما فيه من وَضَر
ما دمتَ محترماً حقى فأنت أخى ... آمنتَ بالله أم آمنت بالحجَر !

وعلى الرغم من نصرانيته فإنه لم يكن يؤمن قطّ بدين غير دين العروبة ، ولم يشأ أن يخضع عقله لسلطان المعتقدات والطقوس الدينية :

الدينُ قلب نقىٌّ لا اتصالَ له ... بالزيت والملح والتعزيم والهذر

والدين عنده هو حسن المعاملة ، والخلق النبيل . وهو يقول فى ذلك :

يا مؤمناً كان يدنينى ليقنعنى ... أن الصلاةَ سلاحٌ غير منكسر
وأنّ فى صور الأبرار تعزيةً ... للمؤمنين ومنجاةً من الخطر

لِمْ لا أراك إذا انتابتك نائبةٌ مستسلماً لقضاء الدين والقدَر
لا تَسْعَ للكسب ، وادفع ما عليك وعش كالناس ، واشربْ وكلْ من هذه الصّور

ويقول أيضاً :

إذا الشيخُ والقسيس لم يكرما النهى وأحكامه ، فليبرأ الدينُ منهما
إذا أنت أديت الفرائضَ كلها ولم تَحْو حُسنَ الخَلق لم تك مسلما

ويقول كذلك :

كافرٌ يعشق المكارم ، خيرٌ من لئيم يغوص فى الإيمان

وكم له من حملة على من يفرّقون بين الإخوان فى الوطن الواحد باسم الدين ؛ كقوله يعنف أهل لبنان لعدم اشتراكهم فى الثورة السورية الكبرى (١٩٢٥ – ١٩٢٧) :

أبناء يعربَ إخوان إذا قعدوا للحادثات ، وإخوانٌ إذا قاموا
إخوانكم وذووكم ليس يفصلهم عنكم لدى غِيَرَ الأيام إسلامُ
إن كان يأمر دينٌ بالعداء لهم فالكفرُ بالدين للديان إعظامُ

وقوله :

ما خطط الدينُ التخومَ لأمة إلا وقد نخر الفساد عظامها

وأيضاً :

فلو أوصى بكره العرب دينٌ لكنتُ إذن إمامَ الملحدينا

وهذا الشاعر نصر سمعان يشترك فى حفلة أقيمت بمناسبة عيد المولد النبوى فى البرازيل ، فيستهل تحيته لهذه الذكرى المجيدة بقوله فى خطبة تخللتها مقاطع من الشعر :

كوكب رحّب الوجودُ به يو مَ تجلى على الوجود شعاعُهْ
كلما مرّت العصورُ وغارَتْ فى مهاوى الزّمان زاد ارْتفاعُهْ
شهد اللهُ أننا فى سبيل الـ حق والمجْد كلنا أتباعُه

وفى أثنائها يشكو إلى الرسول من تقاعس أمته فى حاضرها ، فيقول :

فلا عُمَرٌ تراه ولا علىّ يقودُ إلى مراقى العزّ جنْدَكْ
وغايةُ ما ترى أشتاتُ شعب تردّى فوق بُرد الحيف بُردكْ

أعيـذك أن تكون رسول قــوم ... أضاعوا ما وقفتَ عليه جهدَكْ
فقم ، إنّ العروبــةَ رهــن ضيم ... أطال وصاله وأطلت صــدَّكْ

* * *

وحين أعلن الدستور الجديد فى سوريا عام ١٩٥٠ ، وأعلن فيه أن دين الدولة الرسمى فى سوريا هو الإسلام ، لم يجد المهجريون فى ذلك ما كانوا يصبون إليه من إصلاح ووحدة وطنية . فقامت هنالك ضجّة كبيرة ، وارتفعت الأصوات تطالب بأن يكون الدين لله والوطن للجميع . وفى هذه المناسبة قال جورج صيدح من قصيدة بعنوان « دين الدولة فى دستور سوريا » :

تُحاسِبُنى دمشقُ على ضمــيرى ... فياليتَ الحساب على الأيـادى
وتحسبنى دخيــلاً فى حمــاها ... كأنّ الضاد فيها غير ضادى
ذرينى يا دمشــقُ اعِــدُّ لحدى ... بأرض الملحِدين من العبــادِ
فدينى غير دينك لم يفــرّق ... وليــداً عن وليــد فى المهــادِ
ولم يشرك بحبــك أعجميــاً ... وينبــذ نسل غسان وعــادِ
ذرينى أعبــد الوطنَ المفــدّى ... على شرع التضامــن والتفادى
خيالاً صــورة الفيحــاء فيــه ... وألــوان الحواضر والبــوادى
أحَــدّق لا أرى فيــه جراحــاً ... يضمدها الأساةُ عــلى فسادِ
ولا أثــر الصليب عــلى يديــه ... ولا أثــر الهلال عليــه بــادِ
ذرينى أبعث الذكــرى نذيــراً ... لشعب مــن خلائقــه التمادى
بنى أركانَ عزّتــه اتحــادٌ ... ويأبى أن يعيش على اتحــادِ
وما استسلامه للــدين إلاّ ... كتسليم السلاح إلى الأعــادى
إذا نزلت بساحتــه عــوادٍ ... أيَعْصمه الكتابُ من العــوادى ؟
دعــوا سنّ الشرائــع والفتاوى ... وسنّوهــا سيوفاً للجــلادِ
أقلُّ الديــن فقْهٌ واجتهــادٌ ... وأكثره استبــاقٌ للجهــادِ

٩ - الوصف والتصوير

(ا) فى أدب المهجر عامة

ليس الوصف شيئاً جديداً فى الأدب العربى ، ولا فى أدب أية أمة من أمم الأرض ، فهو من العناصر الأساسية التى يعتمد عليها الأدب ، للسموّ بأسلوبه ومادته ، ولتغذيته بعناصر التأثير والنفوذ إلى النفوس والمشاعر ، وصبغه بالصبغة الفنية وبالجمال الأخاذ .

وفى تاريخ الأدب العربى كثير جدًّا من النماذج الجياد من الأدب الوصفى والتصويرى البارع ، كأوصاف الرياض ، ومجالس الطرب وغيرها ، والأوصاف الوجدانية الغنية بالشعور والعاطفة . وحينما نشأت المدرسة الأندلسية ، التى اعتمدت قبل كل شىء على رقة التعبير عن أحاسيس الوجدان ، وعن الشعور بجمال المخلوقات ، ونقلت الشعر من التقليدية إلى مقاطع غنائية تسيل رقة وحناناً وعذوبة ، كان شعر الأندلسيين الغنائى الرقيق يعتمد كثيراً على الصور والأوصاف الجميلة اللطيفة . ولكن هذا الغنى بالصور اللطاف فى الأدب العربى القديم ظلّ محدود المدى ، وفى موضوعات ونواح من الفن معينة ، لا شمول فيها ولا امتداد ، ولا عمق . فلم تكن تتعدّى ، إلا فى ما ندر ، أوصاف الرياض والخمر ومجالس الطرب والأنس ، والتعبير عن خلجات الوجدان فى الحب والألم ، وبعض أوصاف الحروب ، ومزايا الممدوحين والمرثيين .

فلما ظهرت المدرسة المهجرية اعتمدت إلى حدّ كبير على جمال التصوير فى الشعر والنثر على السواء ، ولكن على مدى كبير من رحابة الأفق الإنسانى ، ودقة الإحساس بشتى نواحى الحياة والمجتمع ، والجمع بين العاطفة المشبوبة ، والفكر الموجِّه الحر ، والخيال الخصيب المجنّح ، مع عمق وحيوية عظيمين . والمدرسة المهجرية تمتاز بهذا كله عن سائر عصور الأدب العربى الماضية ، ذلك لأنها كانت بداية موفقة كل التوفيق لصحة إدراك معنى الأدب والشعر ،

وصلتهما بالحياة والطبيعة وارتباطهما بالفن والجمال ، ولتقدير القيم الأدبية والفنية الصالحة للحياة .

فإذا كان التصوير فى الأدب عامة ، دعامة كبرى من دعاماته ، تسبغ عليه أفانين من الرقة واللطف والجمال ، وتترك فى النفس أعمق الآثار ، فهو فى الأدب المهجرى خاصة إحدى مزاياه الجميلة التى برع فيها ، وقدّم منها ألواناً عجاباً فى مختلف صور الحياة ، ونوازع النفس البشرية ، والفكر الإنسانى .

ومن هذه الصور البوارع ، القطعة النثرية التالية لجبران خليل جبران — والقطع التصويرية عند جبران هى عماد أدبه وفنه ، لأن التصوير هو ميزته الكبرى — وهى على لسان « الجمال » يصف نفسه : « أنا دليل الحب ، أنا خمرة النفس ، أنا مأكل القلب ، أنا وردة أفتح قلبى عند فتوّة النهار ، فتأخذنى الصبية وتقبلنى وتضعنى على صدرها . . أنا ابتسامة لطيفة على شفتى غادة : يرانى الشاب فينسى أتعابه ، وتصير حياته مسرح أحلام لذيذة . . . أنا نظرة فى عين طفل ، تراها الأم الحنونة فتسجد وتصلى وتمجد الله . تجليت لآدم بجسم حواء فاستعبدته ، وظهرت لسليمان فى قدّ حبيبته فصيرته حكيماً وشاعراً ، ابتسمت لهيلانة فخرّبت تروادة ، وتوّجت كليوباترة فعمّ الأنس فى وادى النيل . . أنا أرقّ من تنهدة زهرة البنفسج ، أنا أشدّ من العاصفة . . » .

وفى وصف جبران « للقبلة الأولى » صور روائع من الخيال البعيد الانطلاق . يقول جبران : « هى الرشفة الأولى من كأس ملأتها الآلهة من كوثر الحب . هى الحد الفاصل بين شك يراود القلب فيحزنه ، ويقين يفعمه فيغبطه . هى مطلع قصيدة الحياة الروحية ، والفصل الأول من رواية الإنسان المعنوى . . . هى كلمة تقولها الشفاه الأربع معلنة صيرورة القلب عرشاً ، والحب مليكاً ، والوفاء تاجاً . . وإذا كانت النظرة الأولى تشابه نواة ألقتها آلهة الحب فى حقل القلب البشرى ، فالقبلة الأولى تحاكى أول زهرة فى أطراف أول غصن فى شجرة الحياة » .

هذا وشل من فيض ممّا تزخر به مؤلفات جبران من روائع الصور ، التى

يشترك فى نسج أبرادها خيال خصيب ، وقلب رحيب ، وشعور مستوفز دفاق . وفكر موهوب خلاق . وفى الواقع ان فى اوصاف جبران وتصاويره النثرية جمالا وموسيقى وفنا هى السحر الحلال ؛ فهى شعر فوق الشعر ، وطرب ونشوة فوق فنون الطرب والنشوة ، يدغدغان أعمق خلايا الحس فى النفس . فإذا عزف جبران على اوتار الألم ، تجاوبت أصداء ألمه فى النفوس ، وإذا تهلل تجاوبت أصداء تهاليله فى الصدور . ولا عجب فجبران فنان قبل أن يكون كاتباً ، وفى هذا سر إبداعه .

ويشترك ميخائيل نعيمه مع جبران فى هذه المزايا ، فقلمه ريشة رسام قبل أن يكون مرقماً لكتابة الألفاظ . ومن شاء أن يعرف إلى أى مدى بلغت براعة نعيمه التصويرية ، فليقرأ كتابه عن حياة جبران ، وليقف خاصة عند وصفه لمدينة نيويورك ، أو وصفه لمارى هسكل أو لميشلين ، فهناك صور من الفن عجيبة الألوان ، ساحرة الظلال والخطوط .

وأنقل فيما يلى قطعة من رسومه النثرية فى كتابه « البيادر » : « ومن صخور السفوح ما عبّد به صنين الطريق التى يسلكها حبيبه البحر عند عودته من زياراته العديدة له . . . »

« فنى الصيف ما ينفك البحر يغمر بأنفاسه وجه صنين : فآناً سحاب ، وآونة ضباب ، وآناً ندى ما أظن جنة عدن عرفت ألطف أو أخف منه . أما فى الخريف ، وقد راح صنين يستعد لغفوة الشتاء ، فيصعد إليه البحر مراراً ، ويغسله من أم رأسه حتى إخمصيه كأنه العروس تُعَدّ للزفاف . ويأتى الشتاء ، فيطير البحر إلى صنين ، ليغفو وإياه غفوتهما الطويلة البيضاء . ويجىء الربيع ، فيستفيق العروسان ، ويعود أحدهما إلى شواطئه فى الطريق التى رصفها له الآخر بفلذات من كبده » . .

ونأخذ أيضاً شعر أبى ماضى ، فنطالع فيه سلاسل متواصلة الحلقات من الصور الفواتن ، يستمدها الشاعر من الحياة والطبّيعة ، ويخلع عليها من شعوره العميق بالحياة والطبيعة ، ومن خياله الخصيب فنوناً من الفتنة والبهاء . فإذا قرأنا له « السجينة » أو « العليقة » أو « فلسفة الحياة » ، أو « الطلاسم »

او « الطين » أو « ابن الليل » أو « المساء » أو « الحكاية الأزلية » أو « القفر » او « بين الجزر والمد » أو ما شئنا من قصائده الكثيرة فى دواوينه الخمسة ، التى تزخر بالإبداع والروعة ، فإننا نجد لديه كنوزاً غالية من اللوحات الفنية .

نأخذ قصيدته « الحكاية الأزلية » مثلا ، فإذا أمامنا سلسلة من الصور العميقة الإحساس ، البارعة الخيال ، لثمانية أشخاص يمثلون بنى الحياة ، او قسماً كبيراً من بنى الحياة ، وكل صورة منها تتألف من مجموعة من الصور الشعرية الزاهية . فى عتاب الجارية لربها :

إن أخطأ الخزّاف فى جبـــله الـ　　طين فأىُّ الذنْب للآنيـــه ؟

وفى قول الفتى الشاكى :

عبءٌ على نفسىَ هـــذا الصبى　　الجائش المستوفـــز الطـامى
يزرع حـولى زَهـرات المـنى　　وشوكها فى قلبى الـــدّامى

وفى قول الحسناء :

وجهى سنىٌّ مشرقٌ ، إنمـــا　　مرعى عيون الخلق هذا السَّنى
حظّىَ منـــه حظّ ورد الـــربى　　من عطـره الفوّاح ، والسوسن
ومثل حظ السرْو مـــن فيئـــه　　والطير مـــن تغريدها المتقَـن

وفى شكوى الغنى من عبوديته لثروته :

فاستعبدتنى فى زمـــان الصبى　　وأُوقـرت بالهمّ شيخوختـــى
قد ملكتنى قبلمـــــا حـــزتُها　　وملكـــتنى وهى فى حـــوزتى
كنحلـــة أمسكهـــا شهدهـــا　　مـــن الجناحين فلم تفلتِ
كم فى عباب البحـــر من سابح　　قد مات ظمـآن إلى قطـــرةِ

وفى قول الأبله فى عتابه لربه ، لأنه خلقه بلا عقل بين دنيا من ذوى العقول :

... أم أنت كالحقل ... على رغمـــه　　ينمـــو مع الحنطة فيه الزؤانْ ؟

فى هذه كلها ، وفى سواها مما لم نورده ههنا ، رسوم فنية رائعة تدهش القارئ بعمق إحساسها وخصب خيالها ، وإبداع تصويرها وتحليلها . ومثل هذه الصور الغنية بالشعور والعاطفة والفن ، تدلّ على عبقرية خلاقة مبدعة ، وهى تحتاج قبل كل شيء إلى امتداد فى الخيال ، وخصب فى التفكير ،

وعمق فى الشعور ، وانفساح فى العاطفة ، لتتسنى للشعر هذه الحيوية الدافقة فى الصور ، وهذا الغنى الوافر فى الجمال الفنى .

ولابدّ لنا ، ونحن لا نزال فى المهجر الشمالى ، من الإشارة إلى ما فى أدب غير هؤلاء من أبناء المهجر الشمالى ، من الصور الحية ، مما لا يتسع المجال لسرده . فنذكر بنوع خاص قصيدة « النعامى » لنسيب عريضة ، وسائر قصائد حيرته التى يصور فيها حنينه إلى المجهول ؛ وقصيدة « المهاجر » لرشيد أيوب ؛ و« أمى » – نثر – لأمين مشرق ؛ وعدداً كبيراً من قصائد الريحانى المنثورة فى « ريحانياته » ؛ و« المهاجر » لمسعود سماحة ؛ و« الحب » لندرة حداد . وقد وصف ندرة حداد « الحب » فى قصيدتين جميلتين فى ديوانه « اوراق الخريف » .

أما فى المهجر الجنوبى فقد نبغ عدد من الشعراء الذين اجادوا فى رسم الصور الشعرية البارعة ، التى تصدر عن طبع أصيل فى الفن والشاعرية . ومن هؤلاء الشاعر القروى رشيد سليم الخورى . وقصيدته « أقحوانة أبرنكا » مثلا ، فيها رسوم وتصاوير غنية بالصدق والإحساس ، كقوله يخاطب الزنبقة :

زنبقـةَ الوادى ! عليك السلامْ ... يا آية اللطف وروح العفافْ !
أيـن مضى ذيالك الابتسامْ ... وما لهذا الثغر يشكو الجفافْ ؟
هل نقض الزّنبقُ عهـدَ الغرامْ ... أم أجّل النرجس يوم الزّفافْ ؟

او قوله مخاطباً زهرة « لا تنسنى » :

ما لك يازهـرةَ « لا تنسنى » ... هل نسى المحبوب عهد الودادْ ؟
قد يذكرُ الناسى ، فلا تحـزنى ... فالعهدُ بالزهـر رقيقُ الفـؤادْ
يكسر قلبى رأسك المنحـنى ... دون وساد ، ليت رأسى وسادْ ؟

ولقد عرف المهجر الجنوبى شاعراً شابا – طار عن الأرض قبل أوانه – كان شعره غنيًّا بالوصف والتصوير ، أو هو يعتمد على الوصف التصويرى كدعامة كبرى للشعر الجيد لا تنفصل عنه ولا يجود بدونها . ورسومه الشعرية تعتمد على الصدق فى الإحساس وفى التعبير ، كما تعتمد على موهبة كبيرة من الخيال المتفجر الذى لا ينضب معينه . ذلك الشاعر هو فوزى المعلوف الذى سارت

قصيدته « على بساط الريح » فى الآفاق ، لما فيها من حيوية متدفقة ، وتصوير جميل . ونحن نختار شيئاً من قصيدة له بعنوان « بائعة الهوى » ، ففيها براعة تصويرية فائقة :

غانيــةٌ من بائعـات الهـــوى ... فى بردتيها كلُّ غصــن جميلْ
كان عليها حسْنُها فى الصبى ... ويلاً ، فضلّت عن سواء السبيل
مالتْ وقالتْ . . أنت يا شاعرى ... صِفْنى وقلْ ، هل لقوامى مثيلْ ؟
اليس غصناً ؟ قلت . . لم تخطئى ... لكنــه لكل ريـح يميـــلْ
قالت : وعينى ، إنها نجمـــةٌ ... رجراجةٌ فى ظلّ جفنى الكحيلْ
قلت : جمادٌ كنجـــوم الدجى ... عينك لا رحمــة فيها تسيلْ
قالت : وشعرى فاحمٌ كالدجى ... يغفو به الصبّ بليل اليـــلْ
فقلت : لم يسودّ لو لم يقـــعْ ... عليه من روحك ظلّ ظليـــلْ
قالت : وقلبى ، إنــه طائـــرٌ ... فى نبضة شدوٌ وفيـــه عويـلْ
فقلت : حقًّا إنـــــه طائـرٌ ... فهـو على كل السواقى نزيـلْ
قالت : وخـــدّى ، إنــه وردةٌ ... ما خلقت كغيرهـــا للذبـولْ
قلت : هو الوردةُ لكنهــــا ... مشاعةٌ لكل باع طويـــــلْ
قالت : وجسمى فهو ذوب الندى ... قلت : لو العفة فيه تجـــولْ
كان نقيا كالنــــدى إنمـــا ... القت به الشهوة بين الوحـــولْ

والذى يقرأ هذه القطعة – وهى ليست سوى نموذج صغير جدًّا لشعر فوزى المعلوف – يستطيع ان يتبين أى جمال وصفى كان يترقرق زاهياً فى شعر هذا الشاب ، أو هذا الحسّون الذى طار عن الروض وحنجرته ملأى بالأغاريد ؛ ولكنه بما سكبه من أغاريد – على قلّتها – ترك له فى دنيا الضاد تلاميذ ومعجبين ، ومدرسة شعرية خاصة تقوم على الصورة والنغم والانسجام ، لايصال الفكرة او الإحساس إلى قلب القارئ وحسه .

وكذلك وفق اخوه شفيق فى خلق عدد كبير من اللوحات الروائع فى شعره ، ولا سيا فى مطولة « عبقر » التى هى ايضاً مجموعة رسوم فنية ، غنية بالإحساس والجمال كما هى غنية بالرقة والموسيقى والخيال .

ولرياض المعلوف قصيدة فى وصف المصدور ، وفق كثيراً فى حبكتها وفى معانيها المؤثرة ، فيقول فيها :

هو يمشى والموتُ فى خطـواتهْ   عاثر الحظ بانتظـار ممـاتِهْ
ويريد الكلام والـداءُ يـأبى   ناثـراً صـدره على كلماتـه
كلّمـا هاجَ صـدرُه بسعال   اطعم المـوتَ لقمةً من رفاتِـه
رئـة كالقفير والنحل فيهـا   مرضٌ ناهشٌ خلايـا حياتِه

ويقول جورج صيدح صاحب ديوان « النوافل » فى وصف ناطحات السحاب فى اميركا :

كُوىً تُطلّ على الاكـوان اعينها   واذنهـا تستقى اخبـار باريها
انوارها تكشفُ الآفاق معلنـةً   عن سلعة ربما الاملاك تشريها !

وهو اجود ما وصفت به هذه القباب الشوامخ التى تمتاز بها بلاد الدولار عن سائر البلدان . ومثل هذا الوصف دليل على خيال بعيد جداً ، يربط بين المحسوس وغير المحسوس برباط ساحر مفتان .

واری ان اختم هذا الفصل بتقديم شيء من قصيدة « الراهبة » لإلياس فرحات ، فهى من أجمل اللوحات الشعرية ، وألطفها حسًّا وذوقاً . يبدؤها الشاعر بوصف الراهبة فيقول :

اطلّت من الديـر عند الضحى   وفى ناظريهـا بريقُ الاسى
فتاة كأنَّ الإلـه براهـا   ليجعلها فتنـةً للنهـى
ولكنهـا فى صبـاح الحياة   عـرا وجنتيْهـا شحوبُ المسا
رماها الزمانُ بهجـر الحبيب   فداوت ضلالَ الهـوى بالهـدى
تصـلّى فتحسبها دميـةً   من العاج ساجدةً للدّمى
وتلثم تـلك الـدّمى بخشوع   فيوشكن يلثمنهـا من جـوى

ثم يذكر الشاعر انها خرجت ذات صباح تجمع باقة من الزهر لتزين بها الهيكل ، فرات زهرة نامية فى اعالى الجدار . فاعجبها شكلها ، وازدادت قيمتها لديها عند ما رات انها « تعزّ على من يروم الجنى » ؛ فجعلت تخاطبها بقولها :

أُخيّـةُ ! يهنيـك هـذا السموّ   وهـذا البهـاءُ وهذا الرضى

ولكـن أما كان أشهى لديـك ... جـوار الأزاهر بين الـربى ؟

تحـوم عليك بناتُ القفـير ... وتسعى إليك صبايـا القـرى

لانت تعيشين فى عـزلة ... فلا فى السماء ولا فى الـثرى

لمـن خلق اللهُ هـذا الجمـالَ ... ومن يتنشّق هـذا الشذا ؟ !

وفى الليل ، عندما آوت إلى مخدعها ، رن فى قرارة نفسها صدى خطابها للزهرة يقول لها :

وأنت تعيشين فى عـزلـة ... فلا فى السماء ولا فى الثرى

لمن خـلق الله هذا الجمـال ... ومن يتنشق هذا الشـذا ؟

إنها ، كما ترى ، قصيدة من عيون الشعر الوصفى ؛ فلو لم يكن لصاحبها غيرها ، لكانت كافية لتدلّ على شاعرية موهوبة .

وأنت فى الواقع تقع فى أشد الحيرة حين تحاول أن تختار أجمل الصور الشعرية فى الأدب المهجرى : فالجمال كثير بحيث تفقد القدرة على المفاضلة ، فكأنما أنت فى حديقة ملأى بأجمل الورود الناضرة ، فأنت مضطر إلى الاكتفاء بأقرب ما يقع تحت يدك ؛ وكذلك فعلت أنا فى اختيار القطع التى قدمتها ههنا . ولست أشك فى أن هنالك الكثير مما قد يفوقها جمالا ورقة وصدقاً ، غير أننى أكتفى بها لأنها تفى بالغرض .

(ب) الريحانى والأدب التصويرى

على الرغم من كل ما قلته فى البحث السابق ، وما أوردته من شواهد وأمثلة على الأدب التصويرى فى المهجر ، أرانى فى حاجة إلى أن أفرد بحثاً آخر مستقلاً أخص به الأديب الرحالة ، والمفكر العربى المهجرىّ الحر أمين الريحانى ؛ ذلك لان الريحانى ينفرد عن سائر زملائه المهجريين – الشماليين منهم والجنوبيين – بعدد من المزايا ، واهمها – فى رايي – واقعيته الاجتماعية ، ورحلاته المتعددة فى اقطار العروبة ، ومؤلفاته الكثيرة التى وضعها فى هذه الرحلات بالعربية والإنجليزية

هادفاً منها إلى تعريف العرب بعضهم ببعض ، وتعريفهم إلى العالم ، وإيقاظ وعيهم لتكوين الوحدة العربية الشاملة .

والريحانى بذلك كله صاحب مدرسة مستقلة فى أدب المهجر ، ومدرسته عربية خالصة ، تلبس فى بلاد الدولار وناطحات السحاب ثياب العروبة الحقة دون مواربة ، ولا تحاول أن تتخلى عنها مجاراة للبيئة الغربية ، لأنها لا تخجل من صورتها ولا من ثيابها ما دامت نظيفة الصورة والثياب . هذا فى الوقت الذى كان فيه اكثر إخوانه الشماليين ينزعون فى أدبهم نزعة إيديالية ، وفى الوقت الذى لم يكن فيه العربى يعرف أخاه العربى ، ولا يكاد فيه قطر عربى يعرف شيئاً ذا بال عن الأقطار العربية الأخرى .

وليس من هدفى الآن أن أتحدث عن واقعية الريحانى ووطنيته وغيرته القومية – وهذه أبرز مزاياه – ولكننى سأتحدث عن الوصف والتصوير فى أدبه : الخيالى منهما والواقعى معاً ، وقد أبدع الريحانى فى كليهما ، سواء فى نثره وفى شعره المنثور ، أم فى مؤلفاته الأدبية ورحلاته ؛ ففى هذه كلها صنوف من الوصف الواقعى المجرد ، ومن التصوير الذى يعكس الأحاسيس والانفعالات النفسية ، ويلوّنها ، ويخلع عليها الظلال . وفيها أيضاً الكثير من الزخارف الجميلة ، والصور الجذابة الزاهية لكثير من شئون الحياة والمجتمع .

والتصوير – عندى – فن رفيع ، يضفى على الموصوفات ألواناً وظلالاً ، ويبعث فيها روحاً وحيوية ، ويخلق لها سماوات وجواء تسرح فيها النفس ، ويهيم فيها الخيال . وهو يتناول الأحاسيس والخيالات والأشياء ، ويؤلف بينها تأليفاً بارعاً يثير ويحرّك ، ويفرح أو يحزن .

أما الوصف الواقعى المادى المحسوس فيؤلف القسم الأكبر من تآليف الريحانى ؛ فرحلاته كلها تعتمد على تصوير الواقع فى الأقطار التى كان يرحل إليها ويتجوّل فى أرجائها : فهو يصف واقعها ، وعادات أهلها ، وتقاليدهم ، وحكاياتهم ، وخرافاتهم ، ومجالسهم ، وكلامهم ، وكل ما يمكنه أن يقع تحت بصره أو سمعه فى تلك البلاد .

وهو لا يكتفى بمجرد الوصف لما يراه ويسمعه ، وإنما يمزج ذلك بألوان من

التاريخ . والتعليق ، والنصح ، والتوجيه ، ورغبة الإصلاح .

ومن العبث ان نجيء بأمثلة من أوصاف الريحاني فى رحلاته ، ففى : « ملوك العرب – ونجد الحديث وملحقاته – وقلب لبنان – وقلب العراق » ، أوصاف جميلة . تتخللها الحكايات الطريفة المسلية التي تفوق فى طلاوة سردها وحلاوة تعليقاتها . وخفة روحها ، ما فى القطع الوصفية الخالصة من الجمال والرشاقة والطرافة . وهذه الحكايات والتعليقات نفسها ، بكل ما فيها من الدعابة والطلاوة ، ليست لدى الريحانى سوى ألوان من الوصف الجميل ، أو متممات لما يصفه من مشاهد رحلاته ، فإذا الرحلة كلها شريط واحد متسلسل ، تكمل الحكاية والتعليق والطرفة منه الوصف الواقعى المحسوس ، ويكمل الوصف منه الحكاية والتعليق والطرفة .

واجمل ما فى رحلات الريحانى أنها تمتاز بروح الفكاهة والدعابة ، فلا يشعر القارئ بشيء من الملل مهما يضخم الكتاب الذى يرويها ، ومهما تتعدد صفحاته .

خذ مثلاً نموذجاً صغيراً جدا من كتاب « قلب العراق » – الكتاب أتناوله عفواً من بين رحلات الريحانى ، والصفحة أفتحها عفواً كذلك ، لا أتعمد انتقاء الكتاب ولا الصفحة ، فجميع رحلات الريحانى متشابهة فى روحها وفى أسلوبها – الحديث فى الصفحة ٧٩ وما بعدها من الكتاب – الطبعة الأولى – مطبعة صادر سنة ١٩٣٥ ؛ والموضوع هو « فنادق بغداد » :

« اما ونحن الآن فى بغداد للمرة الثانية ، فإننا نتوكل بعد الله على الملازم سردست ليهدينا إلى ما أصلح وانشئ وجدد خلال السنين العشر الأخيرة . إن اولها النُّزل ذات الأسماء الإنكليزية المضللة : – نزل وندزور – نزل كارلتون – – نزل كرزون – نزل مادجستك – واحسنها وأصدقها فى شطر من اسمه هو هذا النزل الذى نحن فيه ، فقد كان اسمه نزل مود ، فتغير بعد ذلك مراراً ، وصار يدعى « تيغريس بالاس » اى قصر دجلة .

« إنه صادق فى الشطر الأخير من اسمه ، فهو على دجلة ، أما الشطر الأول فهو مثل اسماء النزل الأخرى كذب وتضليل . ليس فى بغداد اليوم قصور إلا إذا قلنا قول القاموس : إن القصر كل بيت من حجر . او إنه سمى كذلك لاقتصاره

على بقعة من الارض ، بخلاف بيوت الشعر ، فلا ينتقل مثلها . إذن كل بيوت بغداد قصور . أما إذا كان القصر قصراً لقصور الناس عن الارتقاء إليه – لا نزال رهن القاموس – فليس فى بغداد قصر واحد ، لان اعلى بيوتها لا يتجاوز ثلاث طبقات ، ولا يقصر دون ارتقائها إلا العُرج وذوو الفتوق .

« على انه قبيح بنا ذم قصر دجلة ما زال يوسف الكلدانى التلكيفى مديره ، وما زال المعاونون والخدم من إخوانه الكلدانيين التلكيفيين . . . وليس فى قصر دجلة ما قد يكون شائناً لسمعته وفضائله غير ذلك البار الاميريكانى ، الحافل بالكؤوس والقنانى ، المغرى بابنة الدالية وابنة الشعير الغالية ؛ وبكراسيه العالية . ذلك البار الذى يديره ابن عم يوسف ، الحذق اللبق البسام على الدوام ، فيمزج العقيق والذهب والمرجان – الوسكى والروم والجن والجان – ولا يبالى بما يكون من شانها فى رؤوس الشبان – المسلمين والكلدان – الذين يتهافتون على « نعيمة » تهافت الذباب على اديمه . فيا يوسف ويا ابن عم يوسف ، ارفقوا فى الاقل بالشباب العراقيين ، وفرّغوا زجاجاتكم فى بطون الإنكليز ، ولا تتشبهوا فى مطبخكم بهؤلاء الإنكليز ، الذين يحسنون كل شيء فى الحياة إلا الاكل وفن المطبخ ، فيسلقون الخضر ويحسبونها مطبوخة ، ويشوون اللحم ويقدمون معها الابازير والسوائل المتبّلة ليكمل طبخها الضيوف ، كل على مائدته . والعجل والثور والخنزير ، يا يوسف ، إنك فيها عدوّ العرب . تجيء بالثور فى التنك ، وتجلب الخنازير بالصناديق ، وتطبخ منها وتقدمها باردة لابناء لندن – ولا باس – وتفسد بها – ولا رحمة فى قلبك ولا رحمة عليك – معد العرب واذواقهم ودينهم . وماذا يفعل خسّ بغداد بخنزير يوركشير ؟ وما لذة الحبارى ، يا ابن تكليف ، وهى تستحيل فى مطبخك قطعة من « الروزبيف » ؟ » .

هذه قطعة – على طولها – صغيرة من رحلات الريحانى ، يمتزج فيها الوصف بالحكاية والتعليق والدعابة الفكهة ، كنماذج من ادب الريحانى فى رحلاته ؛ ويـلاحظ القارئ ما يتخللها من السجع المتعمد الذى كان الريحانى يلجا إليه فى مواطن كثيرة ، لا بقصد التقليد والإعجاب بالسجعة ، ولكن كلون من الوان الدعـابة والتنكيت ، ولذلك تجيء بعيدة جداً عن سماجة التكلف فى سجع

المقامات الهمذانية والحريرية واليازجية والمويلحية ، مثلاً ، أو ما جرى مجراها من السجع المتكلف الذى يقصد فيه إلى التجميل اللفظى ، فإذا هو إفساد للذوق الفنى والأدبى ، ومسخ للمعانى والفكر الموحية .

ولا يتسع المجال لتقديم نماذج أخرى من أوصاف الريحانى لمشاهداته فى رحلاته المتنوعة الطويلة ، فنجتزئ بهذا المقدار لننتقل إلى ألوان أخرى من أوصافه التصويرية ، التى يمتزج فيها الخيال بالواقع ، وتترقرق فيها التشابيه والاستعارات والكنايات الجميلة الرشيقة .

وهذه التصاوير التى نعنيها تتناثر بكثرة فى أقاصيصه ، ورواياته ، وقصائده المنثورة ، ومقالاته المتفرقة .

خذ مثلاً تصويره للفجر فى قصة « المكارى والكاهن » :

« هى ساعة الفجر الواقف بين القمر والشمس صفر اليدين ، يشيع نوراً ، ويبشر بنور . هى ساعة الفجر التى تتقدم الحادث الذى حدث كل يوم منذ كانت الارض ، وظل جديداً . . فى مثل هذه الساعة اليتيمة الشريدة التى لا تعدّ من الليل ولا من النهار ، يتصل فجر حياة الإنسان بفجر العالم ، فيحلم إذا كان نائماً الأحلام القريبة من الحقيقة ؛ ويصوّر الحقيقة إذا كان مستفيقاً ، فى أشكال تقرب من الأحلام . وفى مثل هذه الساعة يفنى ويتجدد جزء كبير من الجنس الإنسانى . . . ويكتب القبر والمهد اسميهما فى سجل الله ، ويفترقان بعيد اجتماعهما . هى ساعة التحول والتجدد ، ساعة يقبل الموت الحياة فيريحها من القديم البالى ، ومن الفاسد العقيم ، وساعة تجىء الحياة بالجديد الطاهر ، السليم النشيط ، الجميل » .

هذه صورة يجتمع فيها الخيال الجميل ، بالتأمل الرائع ، فتتألف منهما لوحة زاخرة بالإيحاء والتأثير الروحى العميق .

وفى ما يلى صورة أخرى للجامع ، وهى صورة يمتزج فيهما الواقع بالخيال ، والتأمل بالإيمان ، والعقل بالإحساس ، فتتآلف هذه كلها فى لوحة واحدة ، تبهرك بساطتها كما يبهرك ما يخلعه عليها الحس الإنسانى العميق من الألوان والظلال لساذجة الساحرة :

« لم أَرَ بين سائر أماكن العبادة التى أعرفها – وقد حملت نفسى المنسحقة وركبتىّ التعبتين إلى هياكل عديدة – أفضل من الجامع – وما أدراك ما الجامع ؟ هو المكان الذى يؤثر علىّ بديموقراطيته أكثر من سواه ، لما فيه من شواعرها المتنوعة ، فليس فى الجامع ما يداهن الأغنياء ، أو يكسر قلوب الفقراء ، أو يردّ ثقيلى الأحمال ، أو يغفل الورعين . . . هنا درويش يتمتم قائلاً : بسم الله الرحمن الرحيم ، ويعدّ خرزات مسبحته إلى أن تصل نفسه إلى درجة الغيبوبة ؛ وهناك فقير يتثاءب متبعاً تثاؤبه بقوله : يا الله ! يا كريم ! ويخر مكبًّا على وجهه ، وهناك بدوى ممدد تحت الرواق كأنه جثة هامدة .

« الجامع ميناء يرتاح إليه الشحاذ والأمير ، وهيكل يضم المؤمنين ، ونادٍ يقبل أولاد الله على السواء ؛ هو حيث يعثر المنبوذ على حجر يسند إليه رأسه ، فتكتنفه رهبة القبة الواسعة التى تعلوه . وما يتخلل سكينة ذلك المكان الرهيب إلا كلمات : يا الله ! يا كريم ! التى تدفعها الصدور وقتاً فآخر . . . وإن النفس فيه لتخشع من هذا السكون ، ويسبح العقل فى العلويات فينبه النفس بلا صنوج ولا أجراس ، بلا آلة موسيقية ولا جوق مغنين ، بلا رسوم ولا تماثيل ، ولكن بأضواء الإيمان الدائمة التى لا تطفأ ، تندفع النفس لتجد سبيلاً لها من خلال السكون الفائق الوصف ، والرهبة التى لا تحدّ ، إلى العزة الإلهية ، إلى الإله الواحد ، إلى الله » .

الصورة ، كما يرى القارئ حسية حقيقية إذا شاء ، وروحية خيالية إذا شاء أيضاً ؛ ولكن جمال الروح الذى صيغت به ، والأسلوب الذى سكبت فيه ، يجعلها أعمق تأثيراً من الواقع ، ويجعل للواقع نفسه جمالاً فائقاً ، من جمال الإيمان والخشوع اللذين يوحى بهما ويدعو إليهما .

ليس فى كل ما رأينا من الأوصاف والصور شىء من وصف مجالس الطرب ، ولا الخمرة ، ولا مجالى الطبيعة ، ولا مزايا الممدوحين والمهجوّين والمرثيين . ولكن هناك لوحات جميلة جداً من الأدب الجديد الحى الذى جاءنا به أدباء المهجر ، أو أديب من المهجر هو الريحانى .

ولكن الريحانى الأديب والفنان ، الذى كان يرسم لوحاته الرائعة بالألفاظ والجمل ، لم يقتصر على هذه الألوان من الصور ؛ فللطبيعة من أدبه حظها

الكبير . والطبيعة فن كلها ، والقلم القدير الخلاق يستطيع أن يبدع ما يشاء فى نقل صورها ورسومها ، وأن يتفنن ما يشاء فى تلوينها وتجسيدها .

وقد فعل الريحانى ذلك فى كثير من قصائده المنثورة ، ومقالاته التأملية ، ونجوياته الهامسة .

خذ قصيدته المنثورة « معبدى فى الوادى » مثلاً ، وتأمل جمال الصورة الشعرية التى يرسمها قلمه الفنان فى شكل نجوى هامسة رقيقة عذبة :

« إيه أمّى الطبيعة ، جئت أجدّد معك آمال الحياة وسرورها
جئت أجدد عهدى وإيمانى مع كلأ الحقول وزهورها
وقفت على ضريح الشتاء ليلاً
فشاهدت هناك مشهداً جليلاً
شاهدت ربة الربيع تقبّل جبين أبيها
فينوّر الأقحوان تحت شفتيها
رأيتها تكتب بدموعها سفر الخلود
فيردد العصفور فى الجلمود
رأيت الأولاد فى الحقول حفاة
يقطفون الزهور لرسول الخير والحياة

* * *

هناك من حلْق الحسّون الذهبى تتدفق الأنغام الفضية
هناك من منقر الدورى النحاسى ترتفع الأناشيد الشجية

* * *

فى ظل القويسة والغار
وبين الصقر والوزال والخنشار
أبنى لك أيتها النفس هيكلاً من الإيمان
أقيم فيه تمثالاً للوداد والإخاء
وأدعو إليه كل بشر تحت السماء »

* * *

وهل غير الطبيعة الجميلة ما يوحى بالإيمان ، وصفاء النفس ، ووداعة الروح ، ونقاء الضمير ؛ وما يدعو إلى المحبة والرحمة والتعاطف الإنسانى ؟ ! هذه الطبيعة الزاخرة بالإيحاءات الفنية والوجدانية ، وهذا المعرض الزاخر بالتحف الثمينة ، ومباهج العين والأذن والحس .

وإليك صورة أخرى لهذا الشرق الذى أنت وأنا من أهله وبنيه ؛ صورة تحسها أنت وأحسها أنا كما أَحسَّها أمين الريحانى ، فعبر عنها لك ولى كما عبر عنها لنفسه :

« أنا الشرق
أنا جسر الشمس
من أعماق ظلمات الأكوان إلى الأفلاك الدائمة الأنوار
تصعد كل يوم على كتفى وتكافئنى مكافأة جميلة
أجل إن فى جيوبى وفى يدى وفى نفسى من ذهب الفجر
ما لا نظير له فى معادن الأرض كلها .

* * *

أنا الشرق
قد جئتك يا فتى الغرب رفيقاً
فى جيوبى وفى يدى أشياء من حقول النفس ومن جبالها
وأشياء من أغوار الحياة
أشياء ترضى الله وترضى الإنسان
وأشياء لا ترضى الإنسان ولا الله
عندى ما يسكن نفسك المضطربة وينعشها
عندى ما يشفى قلبك من أمراض التمدين
عندى ما يبعث فيك عدلاً يتجاوز استياءك
وحرمة لما يقدسه سواك »

وإلى هنا والصورة صورة استسلام مؤمن . مطمئن إلى السماويات والفلسفات

والأديان التى انبعثت من الشرق ، وعزوف عن مجالى المدنيات الغربية ، مدنيات التدمير والإبادة ، ثم تنتفض الصورة فجأة ، وتتمرد على الاستسلام والتعلق بالروحيات ، والجرى وراء الفلسفات والعقائد ، لأن هذه كلها لا تؤمّنه من خوف ، ولا ترد عنه الاعتداء :

« أنا الشرق ، عندى فلسفات وعندى ديانات
فمن يبيعنى بها طيارات ؟ ! »

إن فى هاتين العبارتين صورة للشرق الذى فتح عينيه على حقيقة الحياة ، وعلى مدنية الأقوياء ، فعرف أن القوة هى كل شىء فى الحياة ، وأنه بدونها ليس له حياة .

إنه شرقنا هذا الذى طال نومه حتى سبقته الأمم والشعوب ، فلما استفاق من تخدير المذاهب والفلسفات وجد نفسه مقيداً ذليلاً ، ووجد سكاكين الجزارين تقترب من عنقه للإجهاز عليه ، وأنياب الوحوش المسنونة تتهيأ لتمزيقه . فرأى أن خلاصه منها لن يكون بالمذاهب والفلسفات ، وتمتمات الدراويش والكهان ، ولكنه سيكون بالمدافع والطيارات .

* * *

هذه بعض الصور الشعرية والحسية التى نجدها لدى الريحانى ، وهى صور ضئيلة جدًّا إلى جانب ما تزخر به مؤلفات الريحانى المتعددة من اللوحات الروائع . خذ مقالاته : (وادى الفريكة ، وعلى جسر بروكلين ، وفوق سطوح نيويورك ، وأصوات السكينة) وغيرها وغيرها من « الريحانيات » ومن « هتاف الأودية » — وخذ عشرات أو مئات غيرها مما تضمه مؤلفات الريحانى الأخرى ، من رحلاته . ومن رواياته ؛ فقد كان الريحانى فى جميعها مصوّراً مرهف الحس ، دقيق الملاحظة ، واسع الخيال ، بارعاً فى توزيع الألوان والظلال ، سواء حين كان يرسم مشاهد واقعية ، أو يرسم صوراً من الخيال ، أو يلوّن أحاسيسه تجاه مشاهد الطبيعة ، أو يصوّر خلجات القلوب ، أو أمانى الحياة فى الصدور ، أو مصارع الرجاء فى النفوس .

وهذه ميزة واحدة من مزايا أمين الريحانى الأديب ، وأما ميزته الكبرى فهى أنه كان « عربياً » خالصاً بروحه وإحساسه ، بقلمه ولسانه ، وكانت أعظم أمنية له أن يرى أقطار العروبة تتمتع بالوحدة والسيادة والحرية . ولهذا الهدف كان أمين الريحانى يكتب ، ويحاضر ، ولأجله كان يتنقل بين الشرق والغرب ، ويطوّف فى ديار العروبة كلها دون تعب ولا ملل .

الفصل الخامس

القصة والرواية فى الأدب المهجرى

١ – عرض عام

من المؤكد أن أدباء العرب فى المهاجر الأميريكية كانوا من أول العاملين على انطلاق الفكر العربى الحديث من مكامن الجمود ، والأقلام العربية من قيود التقليد ، فقد خدموا الأدب العربى بتحررهم أكبر خدمة ، ونفحوه بأروع النفائس من إنتاجهم الجميل ، وقفزوا بنهضة الأدب الحديثة قفزة عظيمة لم يعرف تاريخ الأدب العربى لها مثيلاً فى قوتها وحيويتها وشدة تأثيرها . ولقد كتبوا فى كل ناحية من نواحى الأدب ، فكان لهم فى الشعر ، وأدب المقالة ، وتأليف الكتب ، آثار تدل على النضج والعمق . وكذلك كان للأدب المهجرى حصة أو مشاركة غير قليلة فى الإنتاج القصصى والروائى ، سواء فى المهجر الشمالى أو الجنوبى . غير أن هذا كان فى الشمال أقدم فى الظهور وفى النضج منه فى الجنوب . وأول ما ظهر هذا النوع من الأدب على أقلام جبران والريحانى – أولا – ثم نعيمه ، ونسيب عريضة ، وعبد المسيح حداد . ولعل آثارهم القصصية هذه كانت عاملاً كبير الأهمية فى تطور القصة الفنية فى الأدب العربى الحديث بعدئذ ونضجها .

وتأييداً لهذا الاعتقاد أرى من المستحسن أن أنقل ههنا ما أورده الكاتب والناقد الأدبى الكبير المرحوم إسماعيل أحمد أدهم فى كتابه عن توفيق الحكيم ، فى أثناء استعراضه لنشأة الفن القصصى الحديث فى الأدب العربى ؛ فقد قال ما يلى : «لقدعنى جبران بالقصة والأقصوصة فى أدبه ؛ وللمرة الأولى فى تاريخ العربية نقف على قصص وأقصوصات فنية . ومن الأهمية بمكان أن نقول إن قصة «الأجنحة المتكسرة» التى ظهرت عن نيويورك عام ١٩١٢ ، وقصة

« العاصفة » التى نشرت فى المجموعة السنوية للرابطة القلمية عام ١٩٢١ ، تعتبران النموذج الفنى الأول للقصة العربية ، كما أن « عرائس المروج » . التى ظهرت عن نيويورك عام ١٩٠٦ ، و« الأرواح المتمردة » التى ظهرت عام ١٩٠٨ ، بما تحتويانه من الأقاصيص ، تضعان النموذج الأوّلى للأقصوصة العربية الفنية . . وفى نفس الوقت الذى كان فيه جبران يفرض أدبه المستحدث على العربية ، كان زميله فى الرابطة القلمية ميخائيل نعيمه يعالج فن التمثيل بكتابة مسرحية عربية . وفى عام ١٩١٧ أخرج مسرحية « الآباء والبنون » . . وفى هذه المسرحية نجح ميخـــائيل فى حل مشكلة اللغة المسرحية ، بأن جعل الشخصيات المتعلمة تتكلم الفصحى ، وغير المتعلمة تتكلم العربية الدارجة . وهذه المسرحية التى ظهرت عام ١٩١٨ فى نيويورك على خشبة المسرح تعتبر مقدمة لطليعة الفن المسرحى . . . وبينما كانت جهود نعيمه موجهة نحو المسرحية والأقصوصة ، كان أمين فارس الريحانى يعنى بالمسرحية والقصة فى اللغتين العربية والإنكليزية . ولقد نجح أمين فى تقديم قصتين عربيتين « زنبقة الغور » ، و« خارج الحريم » قبل الحرب ، كما كتب تاريخ حياته فى الإنكليزية فى « كتاب خالد » على نمط قصصى ، ووضع مسرحية « وجدة » بالإنكليزية . . » ويستطرد الدكتور أدهم فيقول : « ويمكننا أن نلخص القول فى مدرسة المهجر بأنها كانت أول مدرسة قوية فى الأدب العربى ، نجحت فى تقديم أروع ما فى الأدب الحديث من القصص والمسرحيات والأقاصيص » .

وهذه الشهادة من ناقد كالدكتور إسماعيل أحمد أدهم لها قيمتها الكبيرة فى تقرير هذا الواقع الأدبى التاريخى ، لما كان يمتاز به الدكتور أدهم فى النقد من العمق والتدقيق العلمى الصحيح .

على أن أدب القصة والرواية المهجرى ، حتى لدى هؤلاء الثلاثة الذين ذكرهم أدهم ، لم يقف عند هذه الروايات والقصص التى ذكرها ، وإنما تجاوزها كثيراً ؛ فقد أنتج جبران عدداً من الأقاصيص الأخرى ؛ وكتابه « العواصف » يحتوى على عدد منها ، وهى – عدا « العاصفة » : (الشيطان ، السم فى الدسم ،

ما وراء الرداء ، الشاعر البعلبكى ، البنفسجية الطموح) وهذه الأخيرة أقصوصة رمزية .

وأما فى المسرحية فإن له فى كتاب « العواصف » نفسه مسرحية قصيرة بعنوان « الصلبان » . وقد ذكر له نعيمه فى كتابه عنه مسرحية أخرى قصيرة بعنوان « ملك البلاد وراعى الغنم » . وله فى كتاب « البدائع والطرائف » مسرحية ثالثة قصيرة بعنوان « إرم ذات العماد » .

أما نعيمه فقد عالج فى المهجر كتابة القصة والمسرحية ، وبعد عودته ظل يكتب بنفس الروح التى كانت تملى عليه من قبل ، ويكرر نفسه فى مؤلفاته فى أغلب الأحيان . وقد أنتج عدداً من الأقاصيص المتفرقة ، كما أنتج رواية طويلة عنوانها « لقاء » ، وأخرى كان قد بدأها ووضع أغلبها فى المهجر ، ثم زاد عليها وطبعها فى كتاب بعنوان « مذكرات الأرقش » . وأما أقاصيصه القصار فقد أصدر منها مجموعته الأولى فى كتاب بعنوان « كان ما كان » ، يضم بين دفتيه ست أقاصيص كان قد نشر بعضها فى المهجر ، وبعضها كتبه بعد عودته إلى لبنان . وأما بقية أقاصيصه فمبعثرة فى كتبه الأخرى ، مثل « صوت العالم » و« النور والديجور» وغيرها من مؤلفاته العديدة الأخيرة ، وبعضها لا يزال متفرقاً فى الصحف .

ونستطيع أن نقول إن نعيمه فى الأقاصيص القليلة التى كتبها فى أثناء وجوده فى المهجر قد وفق أكثر من جبران والريحانى فى خلق الأقصوصة الفنية ؛ فبينما كانت تغلب على أقاصيصهما ورواياتهما المواقف الخطابية والإنشائية التى تفسد جو القصة الفنى ، كانت أقاصيصه تمضى بسهولة وواقعية وبأسلوب فنى منسجم . تدلنا على ذلك الأقصوصة التى نشرها فى مجموعة الرابطة القلمية سنة ١٩٢١ بعنوان « العاقر » ومثلها « مذكرات الأرقش » المنشورة أيضاً فى المجموعة نفسها .

أما « العاقر » فقد أعاد نشرها فى مجموعته القصصية « كان ما كان » التى تحتوى على خمس أقاصيص أخرى هى (ساعة الكوكو ، سنتها الجديدة ، الذخيرة ، سعادة البيك ، شورتى) .

وأما الريحانى فعدا (زنبقة الغور . وخارج الحريم . وكتاب خالد . ووجدة –

وهو بالإنكليزية ولم يطبع بعد –) له أيضاً قصة فى كتيب صغير بعنوان « المكارى والكاهن ». ومسرحية بعنوان « وفاء الزمان » ، ورواية كتبت بالإنكليزية ولم تطبع ، وعنوانها « كريمة » ، ومجموعة أخرى من الأقاصيص الاجتماعية ، بينها مسرحية – لم تكن قد طبعت من قبل – وقد صدرت فى سلسلة « اقرأ » بعنوان « سجل التوبة » .

وقد عرف المهجر الشمالى عدا هؤلاء الثلاثة ، أديبين آخرين كان لهما إنتاج قوى فى القصة والأقصوصة ، هما عبد المسيح حداد ، ونسيب عريضة . أما عبد المسيح فقد نشر مجموعة كبيرة من الأقاصيص فى كتاب بعنوان « حكايات المهجر » صوّر فيها أشكالاً وأوضاعاً شتى لحياة المهاجرين العرب الاجتماعية فى أميركا ، فيها المضحك والمبكى ، والمثير والمسلى . ويقول عبد المسيح فى مقدمة هذا الكتاب ما يلى :

« لقد ظل هذا الفكر يراودنى حتى كتبت أول قصة « عبد الفطرة » لخاطرة خطرت ببالى أملأ بها بعض فسحة من صفحات « السائح » ، ولم أدر إلا وأنا مدفوع من نفسى فى ذلك الميدان . . ثم شعرت بيد لطيفة ممسكة بيدى ؛ تلك كانت يد عميد الرابطة القلمية جبران خليل جبران ، وسمعته يقول : « أريد أن أقرأ لك قصة من هذا النوع فى كل عدد من أعداد السائح ، ولا عذر لك عن عدم القيام بذلك العمل » .

وإزاء تشجيع جبران وغيره من الأصدقاء وضع عبد المسيح حداد طائفة من الأقاصيص الاجتماعية التصويرية عن حياة السوريين فى أميركا ، ثم جمعها فى كتابه « حكايات المهجر » ؛ وهو الكتاب الوحيد لعبد المسيح حداد فى القصة والحكاية ، وقد أصدره عام ١٩٣١ .

وإلى جانب هؤلاء جميعاً كان للشاعر التأملى نسيب عريضة أيضاً مشاركة فى الأدب القصصى ؛ وقد نشر له فى مجموعة الرابطة القلمية قصتان تاريخيتان ، هما : (ديك الجن الحمصى ، وقصة الصمصامة) وفّق فيهما توفيقاً كبيراً ، مما يدل على مقدرة قصصية أصيلة بارعة .

هذا فى المهجر الشمالى . أما فى المهجر الجنوبى . فالمعروف أن القسم الأكبر

من إنتاج أدبائه المشهور هو من الشعر ، إلا أن القصة كان لها حظ لا بأس به من الإنتاج النثرى . ونحن نعرف من أدب القصة فى المهجر الجنوبى – على قلة ما وصل إلينا منه – كتاب « من اللحد إلى المهد » لأنطون أنيس شكور ؛ وهى رواية ضخمة تتميز بخفة الروح ، وطرافة الفكرة ، وكثرة التحليل ، وحلاوة النكتة ؛ وكتاب « أقاصيص » لجورج حسون معلوف ؛ ومسرحية (ابن حامد أو سقوط غرناطة) لفوزى المعلوف .

ولنظير زيتون ، وهو من أعضاء رابطة الأدب المشهورة فى البرازيل باسم « العصبة الأندلسية » ، عدد من الروايات المترجمة عن البرتغالية والإسبانية والروسية ، كما أن له رواية من وضعه بعنوان « ذنوب الآباء » .

ولشكر الله الجرّ روايتان هما (الشبح الأبيض ، وجزر الخطيئة) ظهرتا بعد عودته إلى لبنان .

وهناك أيضاً الأديب الشاعر إلياس قنصل ، صاحب مجلة « المناهل » التى كانت تصدر فى الأرجنتين ، وصاحب المؤلفات الشعرية والنثرية المتعددة . وله أيضاً عدد من القصص والروايات ، نذكر منها عناوين بعضها وهى : (فى سبيل الحرية – وهذه خلاصة رواية تمثيلية للكاتب الفرنسى فرنسوا كوبيه – ، على ضفاف بردى ، بين معارك الثورة ، عساف شوفان ، صديقى أبو حسن ، لصوص الشرف ، غالب أفندى المغلوب ، العبقرى المجنون ، نساء) وأخيراً روايته (فى مهب الريح) .

وقد يكون هناك عدد آخر من الروايات والأقاصيص لأدباء آخرين من المهاجر الأميركية ، إلا أن هذا كل ما وصل إلى علمنا . وهو على كل حال إنتاج ضخم لفئة من ذوى الأقلام الموهوبة ضاقت بهم سبل العيش والحرية فى بلادهم ، فراحوا يضربون فى الأرض سعياً وراء العيش والحرية ، ولم ينسوا فى كفاحهم الشاق أن يكافحوا أيضاً فى ميدان القلم والفكر ، فكانوا مصدر فخر للعروبة فى كل ميدان خاضوه .

على أن هذا الاستعراض الخاطف للإنتاج الروائى فى المهجر لا يكفى وحده لإعطاء فكرة عن قيمة هذا الإنتاج ونوعه ؛ ولذلك لابد من عرضه ، أو على

الأصح عرض نماذج منه بتفصيل أوفى ، واستعراض الفكر والمواضيع التى تطرقت إليها هذه الآثار الأدبية .

وها نحن أولاء نبدأ بالإنتاج القصصى لدى زعيم المهجريين ، وباعث النهضة الأدبية فى المهجر ، جبران خليل جبران ، صاحب (عرائس المروج ، والأرواح المتمردة ، والأجنحة المتكسرة) والأقاصيص الأخرى التى نجدها متفرقة فى كتابه « العواصف » وغيره . وقبل أن نتناول هذا الإنتاج الأدبى بالعرض الموجز نذكر أن جبران قد عالج بقلمه ، فى القصة والرواية والمقالة معاً ، كثيراً من نواحى الحياة الشرقية والمجتمع الإنسانى بفلسفته الثائرة على التقاليد الاجتماعية والتشريعية ، ولذلك جاء أبطاله كلهم ثائرين متمردين إلى أبعد حدود الثورة على شرائع البشر ، وعلى الحكام ورجال الدين بشكل خاص ، ثم على تقاليد المجتمع. فلما بلغ جبران نضجه الأدبى والفنى انصرف إلى معالجة النواحى الروحية ، وتناولها بشىء من التلميح والرمزية ، سواء فى أدبه وفى رسومه . وليس لجبران قصة طويلة سوى « الأجنحة المتكسرة » ، وأغلب قصصه الباقية أقاصيص صغيرة مجموعة فى كتب .

فى كتاب « عرائس المروج » – وهو من أوائل كتب جبران – ثلاث أقاصيص هى : « رماد الأجيال ، والنار الخالدة » وتدور حول عقيدة تناسخ الأرواح ، التى كان جبران يؤمن بها كل الايمان ، وقد استطاع أن ينقل إيمانه بها إلى بعض زملائه ، فرأينا زميله نعيمه يحملها من بعده ، ويتخذها موضوعاً لروايته الفنية الجميلة « لقاء » .

والقصة الثانية فى « عرائس المروج » عنوانها « مرتا البانيّة » ؛ وهذه قصة إنسانية مؤثرة تدور على لؤم بعض الاغنياء الذين يفترسون أعراض البريئات ، ثم يتخلون عنهن ليفترسهن من بعدهم عذاب العمر . وقد صَبَّ فيها جبران نيران غضبه على هذه النذالة النفسية ، وعلى جور الشرائع البشرية .

والقصة الثالثة بعنوان « يوحنا المجنون » ، وهى إحدى ثورات جبران العنيفة على رجال الدين ؛ ومثلها « خليل الكافر » أيضاً فى كتابه الآخر « الأرواح المتمردة » ، وقصص أخرى كثيرة غيرها .

وما دمنا قد ذكرنا « خليل الكافر » فنذكر معها أن هذه القصة هى واحدة من اربع قصص ينطوى عليها كتاب « الأرواح المتمردة » ؛ والأقاصيص الثلاث الباقية هى : (وردة الهانى – ومضجع العروس – وصراخ القبور) . وهذه الأخيرة هى قصة ثلاثة أشخاص : أحدهم فتى دافع بحياته عن شرف فتاة عذراء ضعيفة وأنقذها من شراسة أحد رجال الأمير ؛ والثانى صبية عذراء ليس لها من ذنب سوى أنها قد « لامس الحب قلبها قبل ان تغتصب المطامع جسدها » – على حد تعبير جبران – ، والثالث فقير بائس عاش يعمل فى حقول الدير حتى هرم فطرده الرهبان ، فلما لم يجد وسيلة لإعاشة أولاده ، عاد إلى الدير يلتمس شيئاً من عرق جبينه الذى طالما سفحه فيه مدى حياته كلها ، فقبض عليه الرهبان وسلموه إلى الأمير لينتقم منه . وقد حكم الأمير بإعدام الأشخاص الثلاثة طبقاً لشرائع البشر غير العادلة .

أما « الأجنحة المتكسرة » فهى رواية فيها حرارة وفورة شديدتان ، لأنها تعبر عن حب وحقد شديدين ، وفيها كثير من نقمة جبران على رجال الدين ؛ تلك النقمة التى رافقته مدى الحياة ، وكانت محور القسم الأكبر من أقاصيصه .

وفى الرواية إلى جانب ذلك نقمة على ظلم البشر وجهالتهم . والذى يطالعها يرى جبران الفنان يرسم بالألفاظ ، وجبران الأديب الشاعر يبتدع المعانى الجميلة ، وجبران المحب للإنسانية وللمجتمع البشرى يعمل على هدم الكثير مما يعوق تقدمهما ، ويبعدهما عن الراحة والسعادة والحرية . ومن أبرز مزايا هذه القصة الوصف البارع المؤثر ، والعبارة الرقيقة الخلابة . وهى قصة جعل جبران نفسه بطلها ، وجعل بطلتها فتاة اسمها سلمى كرامة ، وقد تحابا حباً قوياً ، ولما أراد ان يخطبها لنفسه ، تقدم المطران بولس فخطبها لابن أخيه ، فلم يكن بد من الرضوخ لإرادته ، فحال بذلك بين قلبين متحابين بإخلاص ؛ وظل الحب يحرق قلب سلمى إلى أن قضت كمداً ، وقضى قبلها الطفل الذى كان أول ثمرة لزواجها .

أما الأقاصيص التى جمعها جبران فى كتابه « العواصف » فأهمها « العاصفة » وبطلها يوسف الفخرى شاب فى الثلاثين من عمره ، هجر الدنيا ، وعاش فى

صومعة منفردة صامتاً بعيداً عن الناس ، لأنه أراد أن يحرر نفسه من العبوديات التي يخضع لها الناس فى حياتهم اليومية ، وهى : عبودية الحياة ، وعبودية الماضى ، وعبودية التعاليم والعادات والأزياء ، والعبودية للموتى ؛ فهو لا يرى فى حياة الناس إلا العبودية والرياء والنفاق .

ومن أقوى هذه الأقاصيص أيضاً قصة « السم فى الدسم » ، وبطلها فارس الرّحال شاب وزعيم فى قريته ، جمع بين المال والجمال والجاه ؛ وقد اقترن بفتاة جميلة فأثار زواجه حسد رجال القرية . ولم يلبث بعد ستة أشهر أن اكتشف علاقات حب متين بين زوجته وصديق له . فغادر القرية سرًّا بعد أن ترك لدى كاهن القرية رسالة إلى صديقه . فلما قرا الصديق الرسالة ، وعلم منها أن فارس الرحال قد غادر القرية لكى لا يقف حجر عثرة فى سبيل حبه ، وأنه يرجوه ألا يتخلى عن العناية بالمرأة التى يحبها ، لم يجد بدًّا من الانتحار ، إذ رأى كيف يقابل صديقه خيانته بمنتهى الكرم والتضحية .

ومثل جبران كذلك كان الريحانى ، صديق جبران وخصمه فى آن واحد معاً ، فهو شبيه به فى بعض كتاباته القصصية . فكتابه الصغير « المكارى والكاهن » هو ثورة تهكمية على رجال الدين ، واسلوبه هو أسلوب جبران عينه فى قصصه ، إذ تكثر فيه المواقف الخطابية ، وتضعف قوة الحبكة الفنية من جراء ذلك .

وأما روايتاه (زنبقة الغور ، وخارج الحريم) فهما تعالجان أشياء من صميم حياة الشرق العربى ، فى مشاكله السياسية والقومية والاجتماعية . فروايته « خارج الحريم » مثلاً تصور كيف كان الألمان يتحكمون فى أمور الشرق العربى أيام العهد التركى.ثم هى دعوة للمراة العربية المحجبة إلى الخروج على تقاليد الحجاب ، وإلى المشاركة فى الأعمال الوطنية بجراة وقوة .

والريحانى يختلف عن صاحبه جبران فى انه كان قد صرف جهوده إلى القضايا القومية العربية ، وإلى معالجتها بطريقة المقالات وكتابة الكتب والرحلات ؛ وفى هذه كلها كان ينفث ثورته العنيفة على خمود الروح الوطنية والقومية فى الشرق العربى . وكانت هذه الناحية أهم شاغل لقلمه ، وفيها أفنى حياته بالرحلات

والتاليف ، والسعى الصادق للوحدة العربية التى تدعمها القوة ، والقوة وحدها ، لتحمى بها ديارها وكرامتها .

أما مسرحية « وفاء الزمان » التى طبعت عام ١٩٣٤ ، فقد وضعت خصيصاً بمناسبة مهرجان الفردوسى ، الذى أقامته إيران فى ذلك العام بمناسبة مرور ألف سنة على ولادة شاعر الفرس الأكبر ، وصاحب الشاهنامة الشهيرة . وقد أعطى الريحانى الزمان شخصية الوفىّ الذى يقدر الرجال العظام الذين قدموا للحياة آثاراً عظيمة تستحق الخلود .

ونأتى الآن إلى ميخائيل نعيمه - وإنتاجه القصصى والروائى غير قليل - وقد ذكرنا فى الحديث السابق أن له مسرحية بعنوان « الآباء والبنون » طبعها فى أميركا ، ومجموعة قصصية بعنوان « كان ما كان » أغلب ما فيها كان مما كتبه نعيمه فى أميركا ، ولكنه لم يطبع إلا بعد عودته إلى لبنان . ولسنا نريد أن ندخل فى حسابنا الآن كل ما ألف نعيمه من أقاصيص وروايات فى لبنان ، وحتى رواية « لقاء » وهى من أعظم ما كتبه نعيمه ، نكتفى ههنا بما قلناه فيها قبل قليل عند ذكرنا لعقيدة التناسخ عند جبران . وحسبنا الآن أن نتحدث على كتابه « كان ما كان » ؛ وهو كتاب يحتوى على ست أقاصيص ذكرنا أسماءها فى ما تقدَّم ، وكلها من صميم الواقع الاجتماعى فى لبنان والشرق العربى عامة .

من هذه الأقاصيص نذكر على الأخص « سنتها الجديدة » التى يعالج فيها الكاتب عادة كراهية الشرق للبنات ، ولا سيما عند ولادتهن . وقد أبدع كثيراً فى حبكتها وإعطائها أكبر قسط من التأثير .

وقصة « العاقر » وهى أيضاً تعالج موضوعاً خطيراً كثيراً ما يكون فى الشرق سبب مآس عائلية ، وسبب تعاسات كثيرة . وخلاصتها أن عزيزاً وجميلة - القرقور والقرقورة - قد تحابا وتزوجا ؛ ولكن الأيام مرت وزواجهما لم يثمر أبناء ، وعبثاً جعلت أم عزيز تلجأ بكنّتها إلى الكنائس وصور القديسين . ولذلك ما لبث أن خمد الحب فى قلب عزيز وبدأ ينصرف عن قرقورته ، لأنه صار يعتقد أنها عاقر ، وأنه لن يكون له نسل منها . . . غير أنها جلبت أخيرا ، وظن الجميع أن صلوات حماتها قد استجيبت ، فعاد عزيز يحبها من جديد ويظهر

لها الحنان والرضى . أما هى فقد استبد بها الحزن ، إذ رأت نفسها لا تستحق هذا الحب المعاود من زوجها . وفى ذات يوم عاد عزيز إلى البيت فلم يجد امرأته ، بل وجد ورقة منها تذكر فيها أنها تنتظره عند السنديانة ، فذهب إلى هناك ووجدها جثة هامدة ، وبين طيات ثوبها كتاب منها إليه – وقرأ الكتاب فإذا هو أمام حقيقة قاتلة ، وهى أن الجنين الذى تحمله ليس ابنه ، وأنها اضطرت إلى هذه الفعلة لتثبت له أنها ليست هى العاقر بل هو نفسه .

أما قصصه الأخرى فكل واحدة منها تعالج موضوعاً خاصًّا : فقصة « جمعية الموتى » ينكر فيها إخلاص من يتشدّقون بالوطنية من الزعماء والكتاب والصحفيين وغيرهم من قادة الرأى ، ويعلن أن الوطنى الصادق هو الذى يشقّ الأرض بمحراثه ليستخرج للناس خيراتها ، ويتحمل بصبر وتضحية نصيبه الكبير من مصائب وطنه ومن كفاحه . وأما قصة « الذخيرة » فيتهكم فيها بأولئك الذين يؤمنون إيماناً أعمى بقدرة ذخائر القديسين على اجتراح العجائب . وفى قصة « سعادة البيك » سخرية من ولع الشرقيين بالألقاب ، وبطلها – الشيخ أحمد الداعوق – لا يحب أن يدعى بغير « سعادتلو أحمد بيك الداعوق » حتى وهو يأكل ويشرب بالدَّين – وأما قصة « شورتى » فهى حملة على الحروب ومثيريها ، لأن الإنسان إنما يثيرها ليفتك بأخيه الإنسان ، بدلاً من أن يبادله الحب ويتعاون معه لخير البشرية وسعادة الحياة .

هذا عرض خاطف لنماذج من الإنتاج الروائى المهجرى ، القصد منه التعريف السريع وحده . ولكننى أرى استيفاء للبحث أن أقدّم فى ما يلى تحليلاً وافياً لروايتين كبيرتين ، إحداهما من أدب المهجر الشمالى ، وهى « لقاء » لميخائيل نعيمه ، والثانية من أدب المهجر الجنوبى ، وهى « من اللحد إلى المهد » لأنطون شكور .

٢ – « لقاء » لميخائيل نعيمه

فى عام ١٩٤٦ صدرت الطبعة الأولى من قصة « لقاء » لميخائيل نعيمه . وهى أول قصة طويلة كاملة له ، تستغرق كتاباً مستقلا .

يقدم لنا نعيمه فى كتابه « لقاء » قصة تجمع بين الخيال الأسطورى والأسلوب الواقعى الاجتماعى . ولكن خيال الأسطورة – أو العقيدة الأسطورية – هو الذى يملأ جو القصة ، والذى يسيطر على أهم مواقفها ، وعلى خاتمتها .

والذى أعنيه بالخيال الأسطورى هو عقيدة « تناسخ الأرواح » التى تدور عليها القصة كلها ، والتى كان أول من تأثر بها من المهجريين عن أصحابها الأصليين الهنود ، وأبرزها فى كتاباته بوضوح ، هو جبران خليل جبران ، ومن بعده انتقل تأثيرها إلى نعيمه ، فظهرت فى أدب كل منهما مظهر العقيدة الراسخة ، واقترنت لديهما بعقيدة وحدانية الوجود ، أو الحلولية ، فكانتا معاً أهم عنصرين فى فلسفتهما وأدبهما .

ولندع الآن قضية التأثر والتأثير هذه ، لننظر فى قصة « لقاء » . تدور هذه القصة على فنان ساحر فى فنه ، جىء به ليعزف فى حفلة افتتاح فندق ، فَسُحِرتْ ابنة صاحب الفندق الوحيدة بعزفه ، وسحر هو بجمالها . ولكنهما لم يتصارحا بشىء من حبهما ، وإن كان كل منهما يشعر بأنه ناقص لا يتممه إلا الآخر .

وترينا القصة أن هذه لم تكن ولادتهما الأولى على الأرض ، بل سبقتها ولادة أخرى قبل ألوف من السنين ، وكانت ابنة صاحب الفندق هذه أميرة حينذاك ، وكان الفنان راعياً لدى والدها ، وكان يعزف على شبابته ؛ وقد تحابا منذ ذلك العهد السحيق ، ولكنهما ماتا قبل أن يحققا حبهما الشديد . فعادا فى هذه المرة أيضاً ليحققاه ، ولكنهما أخفقا للمرة الثانية ، وقضيا قبل أن يصلا إلى شىء مما يريدان .

هذه هى الخلاصة الصغرى للقصة ، ولكنها ليست التلخيص الكافى لإعطاء صورة واضحة عن القصة فى جوها الاجتماعى ، وإن تكن هى الغرض الرئيسى

الذى من أجله أنشئت القصة . على أننا لو اكتفينا بهذه الخلاصة الصغيرة فإننا نظلم المؤلف كثيراً ، ولا نعطى صورة صحيحة عن فنه القصصى . فمن السهل على كل مبتدئ فى الأدب أن يجعل لعمله خلاصة وغاية ، ولكن ليس من السهل أن يصل بطريقة فنية إلى ما يريد ، كما استطاع نعيمه فى عمله الفنى والأدبى هذا .

للقصة بطل خفى هو راوية القصة ، وليس له اسم واضح ، ولها إلى جانبه أبطال آخرون ، هم بحسب أهميتهم فيها :

ليوناردو – عازف الكمان
بهاء – ابنة صاحب الفندق ، وحبيبة ليوناردو
سليم الكرام – والد بهاء وصاحب فندق المنارة
نور الهدى – والدة بهاء
وداد – شقيقة سليم الكرام
فؤاد الفهداوى – خطيب بهاء
أبو منصور – الناطور والصياد

وهناك أشخاص آخرون قليلو الأهمية ، منهم الشيخ أبو طقة الذى يدّعى اكتشاف السحر ، وآخرون غيره أقل منه أهمية .

أما ليوناردو فإننا نرى فى بداية القصة أنه مولود من أب لبنانى وأم إيطالية ، وقد مات والداه ولم يتركا له شيئاً من حطام الدنيا سوى كمنجته العزيزة . وهو لذلك لم يكن يحب أن يُعرَف باسم أبيه أو أمه ، بل باسمه الخاص وحده .

ولكننا لا نلبث بعد فصول قليلة أن نعلم من وداد ، شقيقة سليم الكرام ، أن ليوناردو لقيط مجهول الأبوين ، وأن والدة زوجها كانت قد التقطته من المقبرة طفلاً ، وجاءت به ليعيش مع وحيدها – زوج وداد فيما بعد – الذى كان يكبره بعشر سنوات . وقد تعلما معاً العزف على البيانو حتى أتقناه ، إلا أن ليوناردو كان عظيم التفوق فيه . ثم مات زوجها ، واختفى ليوناردو عدداً من السنين إلى أن عاد فظهر فى حفلة افتتاح فندق المنارة .

تبدأ قصة « لقاء » بزيارة ليلية مفاجئة يقوم بها ليوناردو فى الهزيع الثالث من الليل إلى صديقه – راوية القصة – فيستودعه كمنجته الغالية ، ويوصيه بألا يدع أحداً غيره يراها أو يلمسها ، فإذا لم يعد هو لأخذها خلال عامين ، فعلى صديقه أن يحرقها هى وبيتها ، ويدفن رمادها فى جذع صنوبرة مسنة منفردة . ويطلب إليه ليوناردو أن يكتم عن الناس أمر هذه الزيارة الليلية ، ثم يودّعه وينصرف .

ومن سياق الفصل الأول نعرف أن راوية القصة كان صديقاً حميماً لصاحب « فندق المنارة » ، سليم الكرام ، وأن بهاء – ابنة صاحب الفندق – لم تكن تدعوه إلا « الصديق الأعز » ؛ وأما ليوناردو فإنه لم يكن قد رآه إلا ليلة حفلة افتتاح الفندق ، ولم تكن له صلة به . وكل ما يذكره به أن معزوفته التى عزفها على الكمنجة تلك الليلة ، ودعاها « لقاء » كانت عظيمة التأثير فى نفسه ، كما كانت عظيمة التأثير فى نفس بهاء ، بحيث أصيبت على أثرها بالإغماء .

ولعل من المناسب أن نعرف شيئاً عن بهاء ما دامت هى بطلة القصة . وها هى ذى كما يصفها المؤلف – بلسان راوية القصة – فى الصفحة ٢٢ من الكتاب :

« لقد جمعت هذه الفتاة إلى سذاجة الطفل نقاوة الملاك وصفاء النبى ، فما هى باللعوب الطروب ، برغم سنيها التسع عشرة ، ولا هى بالمترصنة المتجهمة ، برغم رزانتها الفطرية وحكمتها البديهية ؛ تبسم ولا تضحك ، وتتكلم من غير أن ترفع صوتها ، فكأنها تهمس همساً ، ولكنه همس تترقرق فيه أعذب الألحان ، وتتمازج ألطف الألوان . لا ترقص ، ولكنّ فى مشيتها أنبل ما فى الرقص من تموجات الحياة . . . كان لا يطيب لها أن تحدثنى إلا فى الشعر والموسيقى والأمور التى ندعوها « ما وراء الطبيعة » ، حتى إننى لشدة نهمها فى هذه الموضوعات كنت أخشى على روحها النقى الفتى أن يصاب بشىء من « الاحتقان » أو « عسر الهضم » ؛ إلا أنها كانت تبدّد كل مخاوفى من هذا القبيل بما تبديه من مقدرة عجيبة ، لا عناء فيها ولا إجهاد ، على الغوص إلى الأغوار السحيقة ، والسمو إلى بواسق الفكر والخيال » .

ولكن لماذا كانت زيارة ليوناردو الليلية المفاجئة الغامضة ، وإيداعه الكمنجة لدى صديقه ، ووصيته له بأن يحرقها إن لم يعد ليوناردو بعد عامين ؟

ذلك ما لم يعرفه الصديق إلا بعد ثلاثة أيام من تلك الزيارة ، حين جاءه سليم الكرام ، صاحب الفندق ، مهموماً منزعجاً ، وأخبره أن بهاء قد أصيبت منذ ثلاثة أيام إصابة لا أمل فى شفائها منها ، وأنها فى غيبوبة مستمرة منذ ذلك الحين ، فلا تتناول طعاماً ولا شراباً ، والموت يرفرف فوقها بجناحه الأسود المرعب . ولكن أباها يرجو أن يرافقه صديقه – راوية القصة – إلى المدينة لمؤاساة زوجته ، لئلا تقضى هى أيضاً أسًى وحسرة على وحيدتها بهاء التى لم يعد لأحد أمل فى حياتها .

وقد روى والد بهاء لصديقه أن عيد ميلاد بهاء كان قبل أيام ، وقد أراد أبوها أن يجعله عيداً مزدوجاً ، فيفاجئ الناس فى الحفلة بعقد خطبة بهاء على شاب اسمه فؤاد بن جاهد الفهداوى . وأقيمت الحفلة فى الفندق ، وبعد أن تمت مراسم الخطوبة طلبت بهاء إلى ليوناردو أن يعزف لها مقطوعة « لقاء » ، فعزفها عزفاً ساحراً ، بين زفرات صدور المحتفلين ونشيجهم . فما كاد ينتهى من معزوفته حتى التوى عنق بهاء ، وارتمت فى حضن والدها ، وما زالت من تلك الساعة بين الموت والحياة ، غائبة عن الوعى والإحساس بما حولها .

وكانت نقمة سليم الكرام على ليوناردو – الذى اختفى بعد العزف – عظيمة جدًّا ، فهو يعتقد بأن ليوناردو ساحر دنىء ، وأنه قد سحر ابنته ليفرق بينها وبين خطيبها . وقد أعلن سليم لصديقه أنه قد لفق له تهمة دنيئة ، فادعى للشرطة أن ليوناردو قد سرق نقوداً منه وهرب بها متوارياً عن الأبصار . وهو يود لو يستطيع أن يمسك به وينتقم منه لما فعله بابنته .

وعبثاً يحاول صديقه – راوية القصة – أن يقنعه بخطئه ، وأن يردعه عن هذه التهمة الملفقة ، فلم يكن سليم الكرام مستعدًّا لسماع شيء من هذا .

ويمضى الصيف وما تزال بهاء على حالها ، وحال أبويها تزداد سوءاً يوماً عن يوم ، حتى سقطت نور الهدى – والدتها – صريعة الحسرة المريرة ، ونحل جسم سليم الكرام من الهم والألم .

* * *

وهناك يتغير جو القصة فنرى راويتها يهبط إلى واد يدعى « وادى العذارى » كان يحب التردد عليه ، وعلى جرن ماء فيه يعرف باسم « عين الدموع » ، ماؤه صاف دائماً ، ولا يعتريه نقص او نضوب . وبينما هو جالس قرب عين الدموع هذه سقط فيها أمامه حجل جريح ، فاختلط دمه بماء الجرن فغدا الماء أحمر مما اختلط به من الدم . وإذا صوت ينادى من بعيد سائلاً عن الحجل . فلما عرف صاحبه أنه هناك ، جاء إلى الجرن ، فعرفه الجالس هناك ، وإذا هو أبو منصور الصياد ناطور تلك المنطقة .

ومن حديثهما نعرف أسطورة وادى العذارى ، وعين الدموع : فقد روى أبو منصور أن أميراً كان يقيم فى تلك المنطقة منذ ألوف السنين ، وكان له ثلاث فتيات ، ولديه راع جميل ، يجيد العزف على الشبابة . وعلى الرغم من تهافت الشبان على خطبة الأميرات الثلاث ، فإنهن لم يحببن إلا الراعى الجميل . ولكن كلا منهن كانت تكتم ذلك عن أختيها وعن الراعى نفسه .

وفى إحدى المرات استأذنت إحداهن والدها بالخروج إلى الوادى ، ثم تلتها الثانية ، فالثالثة ؛ فقد خشيت كل منهن أن تلاقى أختها الراعى فتبوح له بحبها من دونها . والتقت الأميرات الثلاث فى الوادى ، وهناك جلسن على تلك الصخرة التى يجلس عليها أبو منصور ورفيقه ، ورحن يبكين فتسقط دموعهن فى ذلك الجرن . ومنذ ذلك الحين والماء فى الجرن لا ينضب ولا ينقص ولا يعتكر ، بل يظل صافياً كدموع العذارى . ومنذ ذلك الحين اختفت الأميرات الثلاث واختفى الراعى ، فلم يظهر له أثر ولا لهن .

والتفت رفيق أبى منصور إلى صخرة قريبة عالية فيها مغارة ذات باب مرتفع ، تقوم عليه بطمة كبيرة تكاد تخفيه . فسأله عن هذه المغارة ، فقال له أبو منصور إن الناس يتناقلون رواية عنها خلاصتها أنه بعد اختفاء الراعى والأميرات بأجيال ، وجدت فى المغارة ثلاثة هياكل بشرية يقال إنها هياكل العذارى الثلاث . ويقول أبو منصور إنه كثيراً ما يسمع صوت شبابة فى هذا الوادى ، وأصوات نسوة يبكين ، ولكنه لم يتمكن قط من رؤية نافخ الشبابة ولا النسوة الباكيات . وزاد على هذه الرواية أن هناك من يؤكدون أنهم أبصروا غير مرة — لا سيما فى ضوء

القمر – ثلاث صبايا فى ثياب بيض يمشين خلف شاب ينفخ فى شبابته .

ويشعر راوية القصة برغبة جارفة فى أن يدخل المغارة ، فيتسلق إليها بصعوبة ، وفى داخلها لا يجد غير ثعلبين نائمين ، وشبابة ، فيحاول إيقاظ الثعلبين ولكنهما لا يستيقظان . ويغادر المغارة ولكنه لا يلبث أن يعود إليها بعد أيام ، فلا يجد الثعلبين ، بل يجد شابًّا نائمًا ملتفًّا بعباءة ، وبجانبه الشبابة فيوقظه ، وإذا هو ليوناردو نفسه . . .

وفى الحديث الذى يدور بينهما يعرب ليوناردو لصاحبه عن أنه كان من قبل فى هذا المكان ، وكان إذ ذاك راعياً ، وكانت بهاء أميرة ، وكان يحبها وتحبه ؛ ولكنه اشتهاها مرة فأفسدت شهوته غايته ، فعوقب بالشقاء بعد أن لم يكن يفصله عن السعادة غير شعرة . . . وعاد فلقيها هذه المرة فى الفندق ، فعاد يبثها أشواقه بأوتار كمنجته كما كان مِن قبل . . . وعاد يشتهيها من جديد ، فعاد إليه الشقاء .

ثم يأخذ ليوناردو الشبابة ويعزف عليها ، فيخرج إليه الثعلبان من كوة صغيرة فى أقصى المغارة ، ثم يأخذان فى القفز والرقص على أنغام الشبابة ، حتى انتهى من عزفه فجثما أمامه ، فقدمهما ليوناردو إلى صديقه باسمى « شهلبة ومهلبة » ، وطلب إليه فى النهاية ألا يعود ليبحث عنه فى هذه المغارة لأنه لن يعود إليها بعد الآن .

* * *

بعد أيام يعلم راوية القصة أن رجال التحرى قد ألقوا القبض على ليوناردو بعد أن سلمه إليهم أبو منصور الناطور لقاء مكافأة مالية مغرية ، فسجنوه واضطهدوه وعذبوه ، ووضعوا فى جيبه نقوداً وجواز سفر مزوّراً ، ثم اتهموه بالسرقة والتزوير .

واستطاعت وداد – عمة بهاء – أن تتصل به فى سجنه ، وأن تحمل منه وريقة إلى صديقه – راوية القصة – فجاءت بها تحاول أن تتفق معه على وسيلة لتهريب ليوناردو من سجنه ، ولكنه أبى ذلك . ولما أخذ الورقة قرأ فيها رغبة ليوناردو فى أن يذهب لزيارته فى السجن حالاً ، ومعه الكمنجة .

وبعد جهد كبير استطاع الصديق أن يقنع المسئولين فى السجن بالسماح

له بمقابلة ليوناردو ، ومعه الكمنجة . وفى السجن طلب إليه ليوناردو أن يبذل كل جهد ممكن ليسمح له بزيارة بهاء مساء ذلك اليوم ، وأن يكفل للمسئولين عودته . ووجد الصديق صعوبات جمة ، ولكنه ذللها ، ونال الموافقة على زيارة السجين لبهاء .

وكانت الصعوبة الكبرى هى فى أن يقبل والد بهاء دخول ليوناردو إلى بيته وزيارته لابنته التى ما تزال فاقدة الوعى . لقد كان سليم الكرام بود لو يستطيع أن يشرب من دمه ، ولكن الصديق تغلّب على مقاومته ، ونال منه الإذن فى الزيارة .

وفى المساء دخل ليوناردو ومعه كمنجته وصديقه إلى غرفة بهاء ، بينما كان والدها فى غرفة أخرى . وأخذ ليوناردو الكمنجة وراح يعزف عليها عزفاً ساحراً يصب فيه روحه وأشواقه ، وعندئذ أخذت الفتاة تتحرك ثم تبتسم ، ثم تفتح عينيها ، ثم تعتدل جالسة فى فراشها وهى تنظر مسحورة إلى ليوناردو وأصابعه التى تنقر الأوتار . حتى إذا ما انتهى ليوناردو مدت إليه بهاء ذراعيها ونادته باسمه ملهوفة . فقال لها : « هأنذا » . ثم سقط على الأرض وفارق الحياة ، وعادت هى فاستلقت على سريرها ولحقت به إلى الأبدية .

وعند ذاك تقدم والدها وجس نبضها ونبض ليوناردو ، فلما لم يجد فيهما حياة وضع يد كل منهما فى يد الآخر وهتف : « لقد تلاقيا » .

وفى جذع سنديانة مسنة منفردة دفن الحبيبان ، ودفنت معهما قارورة فيها رماد الكمنجة . . .

* * *

هذا هو موجز القصة الطويلة ذات الصفحات المائة والخمس ، ولكن القصة لا تتم بإعطاء مثل هذا الموجز الصغير جدًّا لها ، فليست البراعة فى أن يعطى المؤلف قصة ما ، ولكن البراعة هى فى ما يتخللها من مواقف تحليلية ووصفية ، ومن حوار وآراء تتناول شئون الحياة والفكر والمجتمع ، ومدى ما فى هذه المواقف والآراء والأحاديث من انسجام مع سياق القصة وجوّها وموضوعها .

وفى قصة « لقاء » كثير من هذه المواقف والآراء ؛ ونحن نعرض لبعضها لتكمل لنا دراسة القصة من جميع جوانبها .

فى الفصل الأول الذى يتحدث على الزيارة الليلية المفاجئة ، يتحدث راوية القصة مع ليوناردو الفنان عن الحفلة الأولى لافتتاح فندق المنارة ، فيذكر له أن معزوفته « لقاء » التى عزفها حينذاك قد بقيت عالقة فى نفسه بتأثير عظيم . فيسأله ليوناردو : « ماذا قالت لك كمنجتى فى تلك الليلة ؟ » فيجيب بهذا الوصف الرائع الخلاب للنغم الذى كان ينساب من الأوتار الساحرة .

« لقد خاطبتنى ببيان ما سمعت فى حياتى بياناً يدانيه عذوبة ورقة ومعنى ، لا مـــن فم ولا من قلم ولا من وتر ؛ وبالأخص فى ذلك اللحن الذى دعوته « لقاء » ، فكان أكثر من لقاء : كان فى البداية حرقة صاهرة ، فتحوّل فى النهاية نشوة ربانية ؛ كان حنيناً غامضاً كالضباب ، تائهاً كالدخان ، فصار طمأنينة فيها صفاء النور واستقرار الأبد ؛ وكنتَ كأنك الكمنجة وكانت الكمنجة كأنها أنت ، وكنتما معاً ذلك اللحن العجيب الذى لن أنسى تأثيره ما حييت ، وما أظن غيرى من الذين سمعوه ينسونه ، ولا سيما ابنة صاحب الفندق – الآنسة بهاء – . كنت جالساً بجانبها ، وكنت أحس اهتزازات غريبة تجرى إلىّ من جسمها المفعم بعافية الشباب الغض وجمالها الفائق الوصف ؛ فقد كانت همسات كمنجتك وصيحاتها تفعل فيها فعل الكهرباء ، فما دهشت عندما أغمى عليها فى آخر اللحن . بل كأنى كنت أتوقع ذلك » .

وفى الفصل الأخير عندما يمضى ليوناردو من السجن ليرى بهاء ويعزف لها معزوفته الأخيرة ، يعود راوية القصة إلى الحديث عن ذلك الموقف ، وإلى وصف السحر الذى كان ينبعث من أصابع ليوناردو وأوتار كمنجته ، فتقرأ ما يلى :

« لقد خيل لى بادئ ذى بدء أن الكمنجة طفل فى أول عهده بالمقاطع والكلام : فهى تلثغ وتردد وتتعثر ، ولكنها لا تتردد ولا تأبه للعثرات ، بل تضحك ضحك الأطفال ، مزهوّة باكتشافها لذة النطق والبيان ، وإن يكن نطق طفل وبيان طفل . وأحياناً كانت تنطلق انطلاق فرخ الطير من عشه ، وقد اكتسى بالريش واشتد جناحاه فألقى بنفسه فى خضم اللانهـاية ، وللمرة الأولى تذوّق لذة

القوة ونشوة المدى وسحر التسلط على الهواء . ذاك وقلبه الصغير فى خفقان من هول التجربة ومن خوف الفشل ، ثم من غبطة الفوز ولجاجة الشوق إلى فوز أكبر وأبعد . . . وما عتمت أن شعرت كما لو كان جسدى بكامله آلة موقعة أتم التوقيع . . .

« حياة تمطت بين فجر الزمان وغسقه ، راحت تتواثب علىّ مشاهدها من جوف تلك الآلة الجوفاء . كلما أمعن القوس وأمعنت أصابع ليوناردو فى أوتارها ضمًّا ولثماً ، فمن غفوة بيضاء ، إلى يقظة سوداء ، ومن بهجة راقصة إلى حرقة صاهرة ، ومن طمأنينة تملأ رحاب النفس ، إلى قلق يقرض نياط القلب . إيمان وشك ، إعياء وراحة ، نصر وهزيمة ، زوابع وعواصف ، صواعق وزلازل ، تتخللها فسحات من السكون الحالم ، والتأمل الهانئ ، والأمل الواثق ، والاستقرار المطمئن . وهذه كلها يهيمن عليها حنين لاهب لا يخبو له أوار ، حتى لأعجب للكمنجة كيف لا تلتهب فى يدى ليوناردو ، وأعجب لليوناردو كيف عاش ما عاش من السنين وذاك الحنين لم يلتهمه بلحمه ودمه وعظامه . . .

« بلغت الكمنجة نفثة من نفثاتها خلتنى أسمع فيها هدهدة الأنسام فى وادى العذارى ، وأبصر زرقة الماء الزلال فى جرن عين الدموع ، وأكرع فيه فأحس عذوبته تمشى فى عروقى ، ثم أتسلق الصخر إلى المغارة حيث شهلبة ومهلبة يرقصان على أنغام شبابة ليوناردو ، ثم ينامان ، ثم يفيقان ؛ فكأن الكمنجة انقلبت شبـــابة ؛ وكأن الغرفة التى نحن فيها تحولت إلى المغارة فى وادى العذارى . أفينتهى المشهد أمامى بمثل ما انتهى ذلك المشهد فى المغارة ، وتستفيق بهاء مثلما استفاق شهلبة ومهلبة ؟ ولكنها تستفيق ، بل هى قد استفاقت . . . أما أراها تتململ فى فراشها ، ثم تتقلب من ظهرها إلى جنبها الأيمن ثم من الأيمن إلى الأيسر ، ثم ترد اللحاف عنها بكلتا يديها ، كأنها تستعد للنهوض ؟ ! بلى ، بلى ، ومن الحق أن يشهد والدها ما أنا شاهد . . . » .

هذا الوصف الرائع لست أدرى أهو الأكثر سحراً وروعة أم أصابع ليوناردو وهى تنقر أوتار الكمنجة ؟ إن الموسيقى لتنبعث من هذه العبارات كما تنبعث

الألحان من أروع سيمفونية ؛ بل لعلها أوقع بألفاظها المعبرة المصورة ، من أية موسيقى . وهذا شيء من موهبة نعيمه الأدبية ، وفن قلمه القدير .

هذا من حيث الخيال المصوّر ، والإحساس الفنى المرهف الذى يترجم الحياة والأشياء ترجمة فنية كلها حياة وعنفوان . ولكن نعيمه فنان ذو هدف وعقيدة ، فهو لا يكتب بلا غاية . أما عقيدته وهدفه فى هذه القصة فليسا سوى توكيد العقيدة الهندية القديمة : « تناسخ الأرواح » التى تؤمن بأن الأرواح لا تخرج من الأرض ، بل تظل تنتقل على مدار الزمان من جسم إلى جسم ، ساعية فى كل ولادة جديدة إلى تحقيق ما يمكن من الكمال الإنسانى .

وهذه العقيدة الشرقية القديمة ليست ، فى الحقيقة ، سوى رمز لحب البقاء الذى تطمح إليه الإنسانية ، فليس من السهل أن يتصور الإنسان أنه بالموت يفنى ويتلاشى . ولذلك جاءت الكتب المقدسة تمنّيه بحياة أخرى خالدة لا موت فيها . أما عقيدة تناسخ الأرواح فتمنّيه بأنه لا يموت بموت جسده ، بل يعود إلى الظهور فى جسد آخر ، ليحقق فى حياته الجديدة ما فاته تحقيقه فى حياته السابقة .

وفى يقينى أن هذه العقيدة الساذجة أوقع فى النفس مما سواها ، لأن الإنسان يفضل أن يظل فى الوجود ، يرى ويسمع ويشم ويذوق ويمشى ، على أن تعيش روحه خالدة فى عالم آخر غير الأرض ، وغير ما فيها من محسوسات ومرئيات .

إن الشقاء الذى يعانيه الإنسان فى حياة الأرض يظل شيئاً جميلاً إذا قيس بالموت ؛ وكل مصيبة تهون أمام الموت . ولذلك تطمئن النفس إلى عقيدة التناسخ ، وترى فيها التعزية والأمل بالبقاء المتجدد الدائم ، على الرغم مما تقدمه له كتب الأديان من إغراء فى حديثها على الحياة الآخرة .

ولذلك لست أستغرب أن تجد هذه العقيدة سبيلها إلى نفس جبران ونعيمه ، وأن نقرأ لجبران مثلاً أحاديث حول « ولادته الأولى » و« ولادته السابقة » ، وحول الشاعر البعلبكى الذى عاش فى الزمن القديم مع أمير لم يعرف له قدره ، فعاد كلاهما فى القرن العشرين إلى الحياة لينال الشاعر – وهو يقصد به خليل مطران – التقدير اللائق به على يد الأمير نفسه الذى لم يعرف قيمته فى المرة الأولى . أو نقرأ

له « رماد الأجيال والنار الخالدة » ، وما إلى ذلك من الأقاصيص والفصول التى تشير إلى إيمانه الراسخ بهذه العقيدة المعزّية عن حقيقة الفناء الدامغة ، التى لا مفر منها للجسم البشرى .

وكذلك لست أستغرب أن أقرأ لنعيمه كلاماً يدل على إيمانه المطلق بهذه العقيدة ، فيقول فى كتابه « زاد المعاد » : « ليس هناك حياة أو موت ؛ فالحياة هى بنت الموت ، والموت هو أبو الحياة ، وكلاهما حياة لا فناء لها . ولابد من فناء التراب فينا لولادة حيوات جديدة متعددة . فالذى ندعوه بالموت هو فى الواقع امتداد للحياة ، وانفساح فى أطرافها ، إذ منه تتولد الحيوات الكثيرة . . . كالبزرة تبقى بزرة فقط وهى وحدها فى الحياة ، فإذا ماتت ودفنت فى الأرض ولدت للحياة فروعاً وأوراقاً وزهوراً وأثماراً » .

أو يقول أيضاً : « أوَ ليس الله حيًّا من الأزل وإلى الأبد ؟ إن كل ما ينبثق منه يحيا بحياته مهما تبدلت أحواله وكيفما تغيرت أشكاله . والذى يقول إن الأموات قد بادوا واندثروا ، إنما يقول إن الله الذى كان وما يزال حيًّا فيهم قد باد واندثر . والذى يبصر فى الموت نهاية الحياة إنما هو ضرير لا يبصر الحياة ولا الموت » .

إن عقيدة التناسخ هذه ليست شيئاً مستقلاً بذاته ، وإنما هى جزء متمم لعقيدة أخرى أوسع منها وأكبر ، وهى « وحدة الوجود » ؛ ونعيمه — كزميله جبران — يؤمن بهذه العقيدة إيماناً مطلقاً . وهى المحور الأكبر الذى يدور عليه أدب هذين الإنسانين الفنانين . وهى عقيدة آمن بها فلاسفة الهند من قبلهم ، وآمن بها الصوفيون كذلك ، واطمأنت نفوسهم إلى أنهم جزء من كون واحد كبير ، خالقه الأعظم يحل فيه وهو يحل فى خالقه ، ويمتزج الجميع امتزاجاً لا حدود تفصل بين أجزائه ، أو تحدّد تخومه . وما دام خالقه خالداً لا يموت ، فهو كذلك خالد معه لا يموت .

وعن هذه العقيدة العامة الشاملة تتفرع آراء نعيمه — كزميله جبران — فإذا الإنسانية عنده وحدة شاملة ، والطبيعة عنصر تكمل فيه إنسانية الإنسان ووحدة الكون الشامل .

إن نعيمه إنسان عمقت صلته بالحياة ، وتأمله لأسرارها وخفاياها ، ولعناصر الطبيعة وقواها . والطبيعة هى ملهمته فلسفته وفنه : جمالها وتناسقها ألهماه فنه الجميل المتناسق ، وحكمتها وعمقها ألهماه فلسفته الحكيمة العميقة ، وفى استلهامها والحديث عنها يشترك خياله وحسه ، بصره وبصيرته ، عقله وقلبه ، وكل جوارحه وأحاسيسه . وتأملاته الطويلة فى الحياة والطبيعة جعلته يهتم بالروح قبل الجسد ، بالخالد قبل الفانى ، بالجوهر الأزلى قبل العرض الترابى ، وبذات الإنسان التى لا تموت قبل ذاته الفانية . وإلى هذه الناحية وجه كل عنايته – كما وجهها من قبل أستاذه وزميله جبران – وركّز فيها خلاصة عقيدته وفنه وإيمانه المطلق .

وهو يؤمن بأن الخيال هو الجناح الذى يحلّق بالإنسانية فى أجواء السعادة ، أما العقل والحواس وحدها فلا تهديه إلى السعادة ، لأنها لا تهديه ، ولا يمكن أن تهديه ، إلى الوحدة الشاملة التى تجمع الزمان والمكان ، والله والإنسان ، والنور والظلام ، وكل ما فى الوجود من مخلوقات ، فى شىء واحد شامل لا انفصام له ؛ والتى تجعل الإنسان يلمس نفسه فى كل ما يلمس ، ويبصر نفسه فى كل ما يبصر ويتذوق نشوة المعرفة بأنه والحياة بأسرها وحدة لا تتجزأ .

* * *

هذا من حيث عقيدة نعيمه وهدفه من قصته « لقاء » هذه التى جعلناها موضوع هذا الحديث . فنعيمه يرمى من ورائها إلى أن يؤكد عقيدة التناسخ وأن يؤكد معها وحدة الوجود ، التى هى الأصل الأشمل للتناسخ وغيره من الأحلام النفسية وأمانى البشرية فى البقاء .

وفى الحوار الذى دار بين راوية القصة والفنان ليوناردو ، حين لقيه فى مغارة وادى العذارى ، نرى كيف يعبر الفنان عن عقيدة التناسخ هذه بثقة لا تعرف التردد أو التزعزع :

الراوية : من هداك إلى هذا الوادى وهذه المغارة ؟

الفنان : بل من هداك أنت ؟

الراوية : أنا ربيب هذه الجبال ، وقد عشقت وادى العذارى وعين الدموع من زمان ، ومع ذلك ما عرفت هذه المغارة ولا دخلتها غير مرة

قبل الآن ، وذلك منذ أيام لا غير .

الفنان : أما أنا فقد عرفت الوادى والعين والمغارة قبل أن تعرفها بأجيال

: بأجيال ؟ !

: أجل بأجيال !

: وأنت دون الثلاثين وأنا فوق الخمسين ؟ !

: ما أعلم أينا الأسنّ ، وأعلم أننى أعتق منك صلة بهذا الوادى ، فما لقيتك مرة فيه أيام كنت أنفخ فى شبابتى وأسرح مع أغنامى فى هذه الجهات .

: ما قال لى أحد من الذين يعرفونك حق المعرفة أنك كنت راعى غنم فى حياتك .

: لا ، ما رعيت غنماً فى هذه الفترة من حياتى

: وأية فترة تعنى ؟

: أعنى منذ أن ولدت

: إذن فى أى فترة من حياتك رعيت الغنم ؟

: قبل أن ولدت

: عدنا إلى الألغاز والأحاجى يا ليوناردو . قل لى من أنت ؟ ألست من يقول عارفوك إنك أنت . . . ؟

: ومن هم الذين يعرفون من أنا ؟ . . .

ثم يلى ذلك حديث آخر ، يتخلله حديث عن السحر وأفاعيله ، يختمه ليوناردو بقوله :

ليوناردو : أما قلت لك إن الحياة هى وحدها الساحر ، وإن كل ما فى الكون مسحور بسحرها ؟ فما نحن غير مسحورين نسحر مسحورين . . . أى كلنا مسحور وساحر . . . أما ترى السحر فى اهتزازات أوراق هذه البطمة ، واهتزازات النور والظل على أرض هذه المغارة ؟ وليوناردو بطمة عجيبة ما تنفك أوراقها فى اهتزازات عجيبة ، لا تنقطع فترة واحدة لا فى النهار ولا فى

الليل . أما الأنسام التى ما تفتر تهـز أوراقى فأشواق ملحاحة حراقة ، أهمها شوق اللقاء .

الراوية : وأى لقاء تعنى ؟

ليوناردو : لقاء من كان سحرها أشد فعلاً بى من سحرى بها . . .

: أتسمح لى أن أسألك من هى ؟

: لقد ظننتنى لقيتها منذ أجيال يوم كنت أرعى غنم والدها ، فجاءت وتبعتها شقيقتاها إلى هذا الوادى ، ولكنها أفلتت من يدى حين نفخت لها شوقى فى شبابتى ، فغابت عن الوعى ، وغابت شقيقتاها فما تمكنت من إيقاظهن . فحطمت شبابتى وهمت على وجهى أفتش عن النغم الذى أفلت من بين شفتى ، لأن شفتى اشتهتا فى تلك اللحظة قبلة من شفتيها . لقد أفسدت شهوتى غايتى ، فغايتى كانت أن أكتمل بها وراء حدود الزمان والمكان ، وشهوتى كانت أن أتمتع بها ضمن حدود المكان والزمان .

الراوية : إذن أسطورة وادى العذارى حقيقة لا أسطورة ؟ !

ليوناردو : عدت فلقيتها أمس . وما أقرب أمس وما أبعده ! فبثثتها أشواقى بأفواه أوتار كمنجتى ، وظننتنى أفلحت حيث أخفقت من قبل . وعندما كدت أقتطف النصر صافياً كاملاً وجميلاً فوق كل وصف ، استيقظت الشهوة التى حسبتنى قهرتها من زمان ، فأفلت منى النغم ، ومع النغم النصر ، وقهرتنى شهوتى ، فهمت على وجهى من جديد أقاهر شهوتى ؛ وإنى لقاهرها فى النهاية . كن على ثقة من ذلك يا صاحبى .

* * *

ونحن فى هذه القصة يرجع بنا الخيال إلى « على الحسينى » فى أقصوصة « رماد الأجيال والنار الخالدة » لجبران – وإلى شبابته وحبه المتجدد فى حياته على الأرض – (فى خريف عام ١١٦ قبل الميلاد – ثم فى ربيع سنة ١٨٩٠ بعد الميلاد) . ولسنا ندرى المناسبة التى تجعل كلاً من ليوناردو وعلى الحسينى راعياً .

ولكننا لا نملك إلا أن نعترف بالفرق البعيد جداً بين القصتين ، والمستوى الفنى لكل منهما ، وإن كانت روحهما واحدة ، وهدفهما واحداً ؛ فقصة نعيمه قصة فنية بارعة ، لها كل مميزات القصة الفنية وعناصرها ، وأقصوصة جبران عواطف وخيالات فى شكل حكاية أسطورية . وهناك فارق آخر وهو أن أقصوصة جبران تجعل البطل فى المرة الأولى ابن كاهن عظيم تموت حبيبته ، ثم يعود فى شكل راع يعزف على شبابته عند خرائب معابد بعلبك ، وهناك يلتقى بحبيبته تحمل جرتها لتملأها من الجدول ، فيهتدى كل منهما إلى الآخر بهاتف داخلى يسمعهما صوت الماضى ، ويهديهما بحنينه اللهيف ، فيتعارفان ويتعانقان ويقضيان معاً لحظات حلوة تعوضهما عن حرمان الماضى وحرقته .

أما فى قصة نعيمه فقد كان البطل راعياً فى المرة الأولى ، وكانت حبيبته إحدى ثلاث أخوات أميرات كلهن يحببنه ويهمن به ؛ ولكنه لا يشبع لهفة الحب فى صدره ، لأن شهوته تحوّل سعادة الحب إلى شقاء طويل . وفى المرة الثانية يعود فى شكل فنان يعزف على كمنجته ، ويجد فتاته فى شكل « بهاء » ابنة صاحب الفندق . وفى هذه المرة أيضاً تحول شهوته دون سعادته ، فيموت جسمه من جديد بحسرته وشقائه كما تموت هى أيضاً بحرمانها ولهفتها .

إن الحب فى القصتين مختلف : فجبران يؤمن بأن شهوة العناق ولذة الجسد عنصر مهم فى الحب ، أما نعيمه فيرى الحب تسامياً وترفعاً عن شهوات الجسد ، بل يجعل من شهوة الجسد عنصر شقاء للمحبين .

وإذا نحن أخذنا واقع الحياة رأينا أننا أميل إلى عقيدة جبران منا إلى عقيدة نعيمه ، فالحب لهفة إلى تفاهم الأرواح واتصال الأجساد ، فإذا تسامى فوق شهوة الجسد تحوّل إلى تحرق وعذاب لا تطيب معهما الحياة . ولذلك نشعر بارتياح إلى نهاية أقصوصة جبران التى أفاءت ظلال الهناءة والسلوان على قلبى على الحسينى وفتاته ، ونشعر بالغصة المحرقة لنهاية قصة ليوناردو وبهاء ، التى بدأت بالحرمان المحرق ، وانتهت بالحرمان المحرق الشقى . ولا يعزينا عن ذلك أن يرينا المؤلف روحى الحبيبين تتعانقان فى الأثير بعد انفصالهما عن الجسد الترابى . إنها لتعزية ناقصة ، بل ممسوخة ، لا تغنى ولا تسمن من جوع . وهل يستطيع من يطوى

لياليه على الجوع أن يتعزى بأنه سيجد فى السماء – عالم الأرواح – شبعاً وريًّا ؟ !

إن الإنسان لا يكون إنساناً إلا باجتماع الخالد والفانى فيه معاً ، باجتماع الروح والجسد ؛ فإذا انفصلا لم يعد الإنسان إنساناً . ولذلك لا تكفى لذة الروح لتشعر الإنسان بتمام إنسانيته ، كما أن لذة الجسد وحدها مع حرمان الروح ليست بالشيء الذى يحقق هذه الإنسانية التامة .

ولهذا السبب رأينا فى قصة « لقاء » ، ولا سيما فى وسطها وختامها ، ما يدخل فى باب « اللا معقولات » ، ليحوّل القصة إلى ضرب من الخيال الجميل الذى لا يمكن تحقيق شيء منه فى الحياة ، والذى يَشعُر القارئ حينما يصل إليه أنه لا يعيش قصة من حياته ، وأن عالم الأرض ليس له حصة من هذه القصة ؛ فالحب فيها شيء من حصة الروح والخيال وحدهما ، والفنان فيها روح هائمة تبحث عن الحب لتكمل به سعادتها ، فلا تلقاه إلا فى عالم اللا محسوس ، أما الإنسان بلحمه ودمه فليس سوى مخلوق للعذاب والألم والجراح .

والموقف الأخير – خروج ليوناردو من السجن ، ودخوله على بهاء برغم أن أباها كان يودّ لو يشرب من دمه ، ثم عزفه لها على الكمنجة حتى تصحو ، ثم سقوطه ميتاً وسقوطها هى كذلك بعد انتهاء المعزوفة ، ودخول والد بهاء عليهما قبل موتهما ، ثم وضعه يد كل منهما فى يد الآخر بعد موتهما ، والطمأنينة التى بدت على أساريره عندما قال : « التقيا » كل هذا يجعل القصة مجرد أسطورة ؛ مجرد خيال وحلم لا حصة للمعقول وللحقيقة فيه .

ولكن القصة كلها لم تكن سوى توكيد لفكرة أسطورية ، كما قدمنا ، وهى لذلك ما كان يمكن أن تنسجم وتتساوق لولا هذه المواقف الخيالية التى تدعم أسطوريتها وروحانيتها .

وما دام الأمر كذلك فلسنا نملك إلا أن نعترف بأن نعيمه قد وصل من حيث التأثير إلى ما أراد ، وقدم عملاً فنيًّا له قيمته من حيث الفن وبراعة الأداء ، وإن لم يكن لواقع الحياة حصة فيه .

* * *

ولكن القصة لم تتم ، ففيها أشياء من آراء نعيمه الروحانية يجدر بنا أن نعرض

لها قبل أن نقف عن الحديث . ومن ذلك أننا رأينا فى ما تقدم شيئاً عن السحر ونظرة نعيمه إليه ؛ إذ يرى أن الحياة هى الساحر الأعظم ، وأن بنى الأرض ليسوا إلا مسحورين يسحرون مسحورين ؛ فكلهم ساحر وكلهم مسحور .

ولكن للناس آراء غير آراء نعيمه فى السحر والسحرة ، ففؤاد بن جاهد الفهداوى خطيب بهاء – يؤمن بأن هناك أناساً من بنى البشر يستطيعون أن يؤثروا فى الآخرين بقوة السحر التى تفرّق بين المتحابين ، وتزرع البغضاء بين الإخوة ، وتربط بين قلوب المتباغضين ، وما إلى ذلك . وهو لذلك يلجأ إلى شيخ اسمه « أبو طقة » فيؤكد له الشيخ أن خطيبته « بهاء » مسحورة ، وأن الذى سحرها فأوقعها فى المرض هو ليوناردو ، وأن ليوناردو هذا قد ركب سفينة وهرب فيها بعيداً ، وأن كمنجته هى مصدر السحر المشئوم ، وأنها مخبأة فى بيت فى الجبل ، وأن صاحب هذا البيت يشبه فى أوصافه راوية قصة لقاء .

كل هذه المعلومات يلقيها فؤاد الفهداوى فى أثناء زيارة راوية القصة لبيت والد بهاء . ثم يدور النقاش بين الحضور ، فيتساءل البعض عما إذا كان هناك قانون يعاقب على السحر ، فيجيب أحد رجال الدين : « أما الدين فيعترف بالسحر وينذر السحرة بنار جهنم ! » .

ولكن راوية القصة ، ووداد شقيقة سليم الكرام ، لا يؤمنان بهذا السحر المزعوم ، ويؤمنان بأن ليوناردو إنسان أمين صادق موهوب ، وأن السحر فى كمنجته ليس من سحر المشعوذين ، بل من سحر الموهبة المبدعة التى تأخذ بمجامع القلوب وتأسرها أسراً .

وأخيراً نسمع على لسان ليوناردو نفسه رأى نعيمه فى السحر والسحرة . وهو أن الحياة هى الساحر الأعظم ، وأن جميع البشر سحرة ومسحورون فى آن واحد ، وأن هذا السحر يبدو فى مقدرة كل إنسان على إقناع أناس آخرين بآراء أو أعمال يتقبلونها منه بإيمان وتصديق . أما السحر الذى يتحدث عنه فؤاد الفهداوى ورجل الدين وغيرهما من الزائرين فضرب من العبث الفارغ والخيال السقيم .

* * *

وفى الصفحة ٢٥ من الكتاب نقع على شيء من آراء نعيمه فى الحياة وفى معاملات البشر واعتقاداتهم ، فهو يقول :

« كان صديقى – يقصد سليم الكرام – لا يسمع غير فحيح الداهية التى دهمته ، ولا يحس غير أنيابها تغور أبعد فأبعد فى قلب سعادته البيتية ، لتتركها عما قليل شلواً من أشلاء السعادات البشرية المكدسة على مفارق الطرق فى طول الأرض وعرضها . أما أنا فكنت أحاول أن أصرف أبصارى عن بهجة الأرض والسماء فلا تنصرف ، وأن ألفّ أفكارى بظلمة الموت التى كانت تتخبط فيها أفكار جارى ، فتأبى أن تلتفّ بغير النور . ورحت أساجل نفسى بنفسى ، فأعجب للغشاوات التى تسدلها كلمة أو حركة أو حادث على أبصار الناس ، فتبدل ضياءها ظلاماً ، وظلامها ضياء ، وأعجب للناس كيف يعجزون عن تمزيق تلك الغشاوات ، بل على العكس من ذلك يفتنّون فى صقلها ، ولا ينفكون يدعمون نسيجها الواهى بنسيج من قلوبهم ، حتى تصبح سدًّا أصم منيعاً بينهم وبين العالم الأوسع .

« ها هو ذا صديقى يتنفس مثلى هواء الربيع المنعش ، فلا يتنفس فيه غير صقيع الموت ؛ ويبصر مثلى دفائن الأرض تموج نضرة وغبطة وحياة على أديم الأرض ، فلا يبصر فيها غير حياة دفينة لا يأمل لها بالقيامة ؛ وأمس – منذ ثلاثة أيام لا غير – كان لا يتنفس غير جذل الحياة ، ولا يبصر غير جذل الربيع حتى فى صميم الشتاء » .

إن نعيمه بهذه العبارات يريد أن يجمل مرأى الحياة فى نفوس المتعبين ويفتح أمامهم باباً إلى الغبطة .

ولكننا لا نعدم أن نجد لدى نعيمه فى قصته هذه – كما نجد فى كتبه الأخرى – آراء أخرى فيها كثير من الغرابة والغموض . كقوله على لسان ليوناردو :

« ويل الهاربين من شهواتهم ، لأنهم من سجن إلى سجن يهربون . وويل الهاربين من سجونهم ، فهم يهربون من منقذيهم من حيث لا يعلمون ! »

لقد قال ليوناردو هذه العبارة حينما جاء صديقه يزوره فى السجن ، ويعرض عليه أن يدبر له وسيلة للهرب من سجنه .

ومثل هذه الأفكار الغريبة الغامضة نجدها بكثرة لدى نعيمه ، كما نجدها لدى جبران . وأكثر ما نجده لدى نعيمه فى كتابه « مرداد » . إن فيه تلاعباً فى اللفظ هو مصدر الغرابة والإبهام . ولكننا لا نسأل عن تفسير لهذا الغموض ، بل نتجاوزه ونمر ، وقد نكتفى منه بصدى رنين العبارة ، لأننا لا نحتاج إلى أن نفلسف كل شيء ، ونحلل كل كلمة يخطر لكاتب أن يقولها لكى نفهمها .

ونعيمه نفسه يقول لنا على لسان ليوناردو ، فى الصفحة (٧٤) :

« أى شيء ليس بالعجيب ؟ أواثق أنت من أنك تفهم كل ما يصدر عنك ويعود إليك من الأعمال والنيات والأفكار ؟ هل أنت فاهم لعجيبة التنفس التى تتم فيك ما دمت حيًّا ؟ »

ثم يتابع : « ما كان غير طبيعى عندك قد يكون طبيعيًّا عند غيرك . ليس فى الطبيعة ما يتجاوز حدود الطبيعة ، وإن تجاوز حدود المألوف والمعقول عند الناس . ليس فى الطبيعة من مستحيل . ويا ليت حدودها ما كانت غير حدود المألوف عند الناس ، إذن ما كان أسهلها مطية وأسْلَسها قياداً للإنسان ؟ »

إن نعيمه ينثر آراءه وأفكاره فى كل مقال وفى كل قصة بشكل يعبر عن تأمل دائم ، وتفكير متواصل فى الحياة والطبيعة والوجود ، وفى ما وراء الحياة والطبيعة والوجود . وسواء أعجبنا ما يقوله أم لم يعجبنا ، فنحن لا نملك إلا أن نقدر له تأملاته وآراءه الإنسانية الجميلة ، وإن لم تقف معنا بأقدام من اللحم والدم على أرض من التراب والحصى والصخور ، بل مضت تحلق فوقنا بأجنحة من أثير وهيولى وضباب .

٣ – « من اللحد إلى المهد » لأنطون أنيس شكور

هذا كتاب كبير الحجم ، يقع فى ٢٤٤ صفحة من القطع الكبير ، وتنطبق دفتاه على رواية لطيفة الفكر والأسلوب ، يطل من ورائها وجه أديب مرح ، طيب القلب ، هو مؤلفها الأديب الحمصى المهاجر أنطون أنيس شكور .

وإذا استعاد القارئ فى ذهنه أسماء أدباء العرب وشعرائهم فى الدنيا الجديدة ،

الذين وصلت أسماؤهم إلى الشرق العربى ، فلن يعثر على اسمه بينهم ، لأنه من الأدباء المغمورين ، الذين بخلت عليهم الحياة الجائرة بكثير مما لا تنى تجود به على أناس ممن يستحقون وممن لا يستحقون مواهبها . ولولا أن اهتدى إليه الشاعر نعمة قازان فمدّ إليه يد التشجيع الكريم ، ورعى موهبته الأدبية بالعناية اللازمة ، لكان هذا الأديب الآن نسياً منسياً فى عالم الأدب . وكم لقازان من خدمة مثل هذه للأدب وأصحابه ، يلهج بها فى المهاجر عارفو فضله وقادرو أدبه . وقد أشار المؤلف إلى فضله فى مقدمة الكتاب وفى ثنايا فصوله .

وليس شكور من حملة الشهادات العالية ، بل هو على العكس لم يتلق من العلم على مقاعد الدراسة إلا حظًّا تافهاً جدًّا ، لأنه كان يتيم الأب منذ طفولته ، وقد عاش فى رعاية جده لأمه . ثم تقاذفته أيدى الاغتراب ، فنزح عن مدينته حمص وما يزال دون الخامسة عشرة من العمر ؛ فاستوطن الأرجنتين بضع سنوات ، ثم غادرها إلى البرازيل واستوطن ريو دى جانيرو ، وقد توفى فيها عن عمر يقرب من ستين عاماً بعد أن مضى على هجرته إلى أميركا الجنوبية نحو خمس وأربعين سنة ، تقلب فيها على أكف الجهاد المضنى لأجل الرزق .

على أنه كان يحمل بين جنبيه نفساً نزاعة إلى الأدب ، برغم حظها الضئيل من التحصيل . فانكب فى ديار غربته على المطالعة ، وكان الأديب العربى الذى ظفر منه بأعظم الإعجاب والتقدير والمحبة هو أبو الطيب المتنبى . فانصرف أنطون إلى مطالعة ديوانه ، وحفظ جزءاً كبيراً من شعره ، فكان يستشهد بأبيات منه فى خلال أحاديثه ، مما لفت الناس إليه ، وإلى ميله الأدبى .

وفى سنة ١٩٢٠ أنشأ أنطون فى البرازيل جريدة دعاها « المياس » ، ولكن التوفيق خانه ، فلم يلبث أن أقفلها ، وخسر فيها كل رأس ماله ، وعاد يضرب فى الحياة بجهاد شاق .

وفى عام ١٩٤٠ تعرف أنطون إلى نعمة قازان ، وكان واسطة التعارف هو « المتنبى » نفسه . . . فقد سمع قازان شكوراً يستشهد بأبيات من شعر المتنبى فى حديث عام فى النادى السورى اللبنانى – وكان شكور متعهداً لمقصف ذلك النادى – فاسترعى ذلك اهتمام قازان ، وزاد من صلته به ؛ فعرف أن لديه

موهبة أدبية دفينة تحتاج إلى من يكشف عنها ويقدمها للناس . فلم يتوان قازان عن مدّ يده إليه ؛ وكان من ثمار ذلك هذا الكتاب اللطيف الكبير « من اللحد إلى المهد » .

ونوجز تلخيص قصة « من اللحد إلى المهد » فيما يلى :

كان بطل القصة – والمؤلف يرويها بضمير المتكلم – موظفاً فى شركة أجنبية فى البرازيل . فلما اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، خسر مركزه ومورد رزقه بموت تلك الشركة ؛ فكان ذلك ضربة كبيرة حلت به وأقلقت باله ، ولا سيما وهو لا يعرف صناعة يعيش بها . وكان من ذلك أن عجز مدة شهرين عن دفع أجرة البيت الذى يسكنه . وكان صاحب البيت – واسمه إلياس – فظًّا ، محبًّا للمال إلى أبعد الحدود – كعادة الأكثرين ممن يملكون المال الكثير – وقد دعاه أنطون باسم « جعفر » تهكماً عليه . ولما تضايق أنطون من ملاحقته له صار يغير مواعيد عودته إلى البيت هرباً من وجهه . ولكنه مرة أراد العودة قبل الموعد الجديد بساعة ، فلما قرب من البيت رأى صاحبه جعفر – إلياس – واقفاً هناك ينتظره ؛ فهمّ بالتراجع إلى الخلف ؛ وكان ذلك آخر ما يذكره من عهده بدنيا الناس ، فقد دهمته سيارة كانت قادمة من الخلف بسرعة ، وأسقطته على الأرض مهشماً . وإذ ذاك ، وبتأثير هذه الصدمة الهائلة ، التى ظهر فيما بعد أنها حطمت أضلاعه ، وكسرت رجله من مكانين ، ورجّت دماغه رجة عنيفة كان يخشى معها على عقله ، رأى نفسه يرتفع فى الفضاء صعداً ، وقد هبط إليه من السماء شخصان رائعا الجمال ، متشحان بملابس بيض ، ليرافقاه فى رحلته السماوية . فحسبهما فتاتين ، وهمّ بمناغشة إحداهما . . . فظهر له أنهما ملاكان – ذكَران – قدما لمرافقته ، وأن اسم أحدهما « جعفر » والآخر « إلياس » ! . . .

إلياس وجعفر ! ! اسمان كريهان لشخص واحد ، هو السبب الأول والأخير فى هذه الرحلة السماوية ! فيالها من رحلة مشئومة !

ومضى الثلاثة صعداً حتى وصلوا إلى كوكب بعيد ، ودخلوا إليه من باب عريض ، إلى حيث يجد أنطون سجل حياته الماضية ، ومن هناك يمضى إما إلى السماء وإما إلى الجحيم ، تبعاً لمآتيه الماضية . وهناك نظر أنطون حوله فإذا نوافذ

كثيرة متقابلة على جانبيه ، وفوق كل منها لافتة تحمل اسم مديرها ومهنته ، وأصحابها يسجلون أسماء الموتى يوماً فيوماً ، كل بحسب اختصاصه ؛ فواحد لضحايا الغرق ، وآخر لضحايا القمار ، وثالث لضحايا السيارات ، ورابع وخامس لضحايا الشعر والنثر ! . . وهلم جرًّا .

وجاء دور أنطون فوقف أمام نافذة مسجل ضحايا السيارات « ليتناول بطاقته ، فإذا رقمها ١٤١١٨ ، أى أنه سبقه قبل عصر ذلك اليوم ١٤١١٧ شخصاً إلى الأبدية ، وكلهم من ضحايا السيارات وحدها . . . ثم مضي بتلك البطاقة إلى « رضوان » وكيل السماء ، ليعيّن له مكانه فى الآخرة . وبعد الكشف الدقيق ظهر أن خطاياه لا تستحق جهنم ، وإنما يكفى للتكفير عنها أن يقضى أنطون يومين فى « المصهر » وأربعين يوماً فى « المطهر » ، مع ما تتطلبه أوزاره من عقاقير ومطهرات لتنظيف ما قبح من أعماله ، وغسل أفكاره مما علق بها من أدران فى الحياة . . . ولقاء هذا عليه أن يدفع سلفاً خمسة آلاف قرش ، وعشرة قروش ورقة تمغة . . . وبعد هذا يمكنه أن يذهب إلى السماء ليجلس « عن يمين الله » فى « أحضان إبراهيم » .

فصعق أنطون ولم يصدّق أذنيه . . . فحاول أن يحتج ، وأن يمتنع عن الدفع لأنه فى السماء ، حيث لا تجارة ولا « أجرة بيوت » ؛ ثم لأنه لو كان يملك شيئاً من المال لما جاء الآن إلى هذا المكان ! . . ولما لم ينفع احتجاجه طلب أن يعاد إلى الأرض ، لأنه لم يكن له إرادة فى هذا المجىء ، ولا كانت له إرادة حينما جىء به إلى الحياة ، ولذلك يريد أن يعود أدراجه إلى حيث ينتهى إلى العدم عن طريق « الرحم » لا عن طريق القبر . . .

وبعد لأى ومراجعات كثيرة صدرت إرادة الخالق العظيم بإجابة طلبة ، فعاد إلى الأرض وفى صحبته ملاكه « جعفر » ليكرر حياته كلها من جديد كما عاشها فى السابق ، رجوعاً من منتهاها إلى الوراء حتى يعود إلى أحشاء أمه ، ثم إلى العدم الذى جاء منه .

وكرت عليه الأيام رجوعاً : فرأى شبابه بعد سنوات يعود جميلاً نضيراً . ثم تكر به الأيام فإذا هو غلام ، فطفل . . . ثم قبل أن يعود إلى أحشاء أمه . . .

يفتح عينيه فإذا هو فى مكان يشبه المستشفى ، وإلى جانبه فتاة بلباس أبيض تشبه ملاكه « جعفر » . . . وإذا صوت من بعيد يتكلم ببعض كلام الأطباء ، ولكنه يشبه صوت الوكيل « رضوان » . . . أفهذا هو « الرحم » الذى وصل إليه فى حياته الراجعة ؟ ! . . .

ويعود إلى رشده فى دنيا الناس ، إذ يشعر بآلام الكسر والتهشيم فى رجليه وأضلاعه ، وبالصداع الشديد فى رأسه . لقد كان إذ ذاك فى المستشفى ، وقد أفاق من غيبوبة دامت خمسة أيام كاملة ، كان يُخشى فيها على حياته .

ولكن فرحته بعودة الحياة لم تكد تبدأ حتى نغّصها عليه وجه بغيض ، هو وجه « إلياس » صاحب البيت ، فقد رآه يقف عند رأسه يذكّره بأجرة البيت أو بوجوب إخلاء المسكن . . . فعاد إلى الغيبوبة مرة ثانية ، فرأى ملاكه جعفر يغادره إلى السماء منفرداً . . . فراح يصرخ وهو يتابعه بنظره – وكان نظره عالقاً بالممرضة التى تلبس مثل ثياب جعفر الملاك – ويقول :

« برجع يا جعفر ! . . . بحياتك ! . . . برجع ! »

* * *

هذه هى خلاصة الرواية بإيجاز شديد ، ولكنه كاف ليعطى القارئ فكرة عن طرافتها ، وقوة حوادثها ، وظرف مؤلفها . ومما تجدر الإشارة إليه فى الكتاب ما فى أسلوبه من صفاء ولطف ، ومن رشاقة فى التعبير والتصوير ، ومن انطلاق فى الخيال دون تكلف . ولا يفسد ذلك أن فى لغته شيئاً من الضعف . وكذلك تجدر بنا الإشارة إلى ما فيه من قوة التحليل والتعليل فى معالجة كثير من الفِكَر وأمور الحياة وأخلاق البشر . والتحليل هو عماد هذه الرواية الكبيرة . وهو لطيف وخفيف الظل ، على الرغم من كثرته وطول وقفاته : فأشخاصه كلهم كثيرو التحليل والتعليل ، وكل شىء يمر بهم لا يتركونه دون كلام طويل . كذلك كان بطل الرواية ، وصاحب البيت ، والملاك جعفر ، والوكيل رضوان . . . ولعل من المستحسن أن أنقل ههنا دفاعه عن يهوذا الإسخريوطى ، كما جاء فى ص ١٥٠ ، وهو :

« إنى مشفق أيما إشفاق على هذا المسكين الإسخريوطى الذى ما زال

منذ ألف وتسعمائة وأربعين سنة وهو محط رحال اللعنات من أجل غلطة واحدة – وما أفظعها ! – ولكنها واحدة ، وقد كفّر عنها باقتصاصه من نفسه شنقاً ، وبما يتحمله من لعنات وشتائم تصبّ عليه كالميازيب من أفواه ثلثي الخلق ، منذ وجدوا وإلى دهر الداهرين ؛ فى حين أن تسعة وتسعين بالمائة من لاعنيه يرتكبون خيانات وجرائم أفظع بكثير من خيانته وجريمته ، ومعظمهم يبيع حتى أعز الناس إليه بأقل من ثلاثين من الفضة ، وهم مع ذلك لا ينتحرون ، ولا يقتصّون من نفوسهم ؛ وإذا قيست جرائمهم بجريمة يهوذا فقد يسبقهم هذا إلى النعيم بسرعة النيزك أو أسرع . . . ونحن لا نزال حتى اليوم ناصبينه مثالاً للخيانة ، وجاعلينه عنواناً للشر والغدر » .

ومن المعالجات الهامة التى أفرد لها الأديب شكور مجالاً من كتابه ، موضوع الأدب ، فقد جعل له « ضحايا » فى السماء . . . ضحايا ليسوا من أربابه ، ولكنهم من « المختنقين » بعفونة الكثير مما تنتج أقلام أربابه أو الذين يدّعونه . . . وهو يؤمن بأن الأدب الحق هو أدب رسالة عليا ، وأن أسسه هى : « المشقة ، والمحبة والمروءة ، والمجد ، وما شابه ذلك من الصفات العالية والمزايا الحميدة التي ليس سواها معدن للأدب الصحيح والشعر الخالد » .

وليس من الممكن أن نكثر من سرد الأمثلة مما عالجه المؤلف من أمور الحياة وأخلاق البشر ، لأن ذلك يطول بنا كثيراً ؛ ولكننى أود أن أشير إلى أشياء منها فقط ؛ ومنها حديثه على الصداقة (ص ١٧٥) ، وعلى غريزة الظلم فى الإنسان (ص ١٢٥) وغيرهما . وكذلك أود أن أذكر مقدرة المؤلف الكبيرة فى التصوير الجميل البارع للأحاسيس والعواطف ، والمواقف الحرجة . فمن ذلك تصويره لموقفه فى حياته الراجعة من أصدقائه وإخوانه الذين يفارقهم ويغيب ذكرهم فى طيات الحياة المنقرضة فى رجوعها ، وذلك فى الصفحة ٢١٩ إلى الصفحة ٢٢٣ . وكذلك تصويره لشعوره الفزع من أجرة البيت عندما يعجز المرء عن دفعها ، ويلاحقه صاحب البيت مطالباً بها . وفيما يلى نبذة من هذا الوصف البارع فى ص ١٨ :

« أجرة البيت ؟ . . . إن أجرة البيت بحدّ ذاتها لا ترعب ، فهى لا تعنى

أكثر من مصروف إجبارى حيث لا مندوحة لك ولا غنى عن مكان تأوى إليه ، وتجهّز فيه ما يلزمك من طعام ومنام وباقى ضروريات العيش . ولكن الذى يرعب من كلمة أجرة البيت هو أن وراء التفكير أو التلفظ بها تلوح أمامك صورة صاحب البيت ، تلك الصورة ، بل السحنة ، المهدّدة المقطبة ، التي بدون أن تحرّك شفتيها تسمعها تقول لك : إنك من الزوائد فى الخلق ! أنت من الطفيليات والحشرات التى تعيش على أتعاب الغير ! أنت لا تنفع لشىء طالما أنت عاجز عن القيام بدفع أجرة مكان تأوى إليه . . . ولو كان عندك ما عندنا من الهمة والإقدام والدراية والمقدرة على مجابهة الظروف ، لكنت مثلنا من أصحاب الدور والأراضى ؛ وإذن فضآلة قيمتك وعدم أهليتك للحياة جعلاك على الهامش ، فأنت دائماً مُتعَبٌ مُتعِب ، ولا تصلح للحياة ! »

وللمؤلف . إلى جانب الميزات المتقدمة ، ميزة أخرى هى الظرف والفكاهة التى تتجلى فى فصول روايته . وأودّ أن أنقل فى ما يلى طرفاً من فكاهاته . فمن ذلك أنه عندما وقف فى حضرة الوكيل رضوان ، سأله هذا عن مسقط رأسه ، فكان جوابه كما يلى : « حمص ، سوريا ، عربى صميم . وأظننى متسلسلاً من بنى غسان . ولكننى أؤكد لك يا سيدى بأن الدم الذى يجرى فى عروقى ، ليس من الدم الآرى ، مع الحمد لله ! . . . » ثم لما سأله عن عمره كان جوابه : ست وأربعون سنة . متزوج ، أب لأربعة أولاد : ذكر ، فأنثى ، فأنثى ، فذكر . مطعم بالجدرى . حامل أوراق هوية لا تنفع لشىء . أبيض اللون ، والقلب ، والشعر ، والجيب ، وال . . . ! »

وحينما نصحه الوكيل بأن يبقى فى السماء ، ولا يصر على فكرة الرجوع إلى الأرض لمعاودة شقاء الحياة ؛ وذكر له أن الله الذى رعاه طول عمره ، لن يعجز عن رعاية أبنائه وأسرته من بعده ؛ فليكل أمرهم إليه وحده ، وهو يدبرّهم ؛ أجاب الوكيلَ قائلاً : « إننى لا أنكر آلاء الله ونعمه ، بل أنا شاكر له رحمته وعطفه . فقط هناك أمر أحبّ أن أذكره لك ، لأنه كان السبب الأقوى فى قدومى إلى هنا ، ألا وهو المأوى ؛ فإننى قد تأخرت عن دفع أجرة البيت عن شهرين . وهذا العجز هو الذى رفعنى إلى هنا . . . والذى أرغب أن أقوله ، هو

أن الله كان معى ، أى أننا كنا نحن الاثنان ، ومع ذلك وقع العجز ، فما قولك دام فضلك ، لو بقى هو وحده ؟ . . . إنى أخاف أن أترك عبء عيلتى عليه وحده ، فيأكلها الجوع ! » .

* * *

هذه بعض النماذج من كتاب « من اللحد إلى المهد » ، تتجلى فيها خفة روح المؤلف ، وقوة الحبكة القصصية ، وانطلاق الخيال بغير تكلف ؛ كما يتجلى فيها صفاء الأسلوب ، ورشاقة التعبير والتصوير ؛ وكلها ميزات تستحق الثناء والتقدير ، وقد كان لنعمه قازان فضل كبير فى إبرازها للقراء ، مما جعل المؤلف يقول فى أثناء حديثه عنه إنه يغتفر لدهره مساوئه لأنه أتاح له معرفة قازان .

٤ – القصة الشعرية فى أدب المهجر

لم تقتصر القصة المهجرية على النثر ، فقد عالج الكثير من شعراء المهجر الشعر القصصى . ومن عادة القصة الشعرية أن تكون لإعطاء عبرة أو لموعظة إنسانية أو اجتماعية فى الغالب ؛ ولا أكاد أعرف فى الأدب المهجرى قصة شعرية كانت الغاية منها مجرد إظهار البراعة فى نظم حادثة معينة ، أو مجرد الرغبة فى صياغة قصة ما شعراً منظوماً ، إلا فى النادر .

وأشهر من برع فى القصة الشعرية – ولا سيما الأسطورية منها – إيليا أبو ماضى ؛ فقد امتلأت دواوينه بهذا اللون من الشعر ، وبعض قصائده كانت تأتى طويلة منوعة القوافى ، وأحياناً منوعة الأوزان أيضاً ، مثل « الحكاية الأزلية » و« الشاعر والسلطان الجائر » و« أمنية إلهة » و« الشاعر فى السماء » و« الأشباح الثلاثة » و« الشاعر والأمة » و« المجنون » وكثير غيرها ؛ والبعض الآخر كان يأتى مقطوعات قصيرة ، فيها الحكمة والعبرة والعظة الأخلاقية أو الاجتماعية ؛ مثل « التينة الحمقاء » و« الضفادع والنجوم » و« الحجر الصغير » و« العير المتنكر » و« الإله الثرثار » وقصائد أخرى متعددة .

ونحن لهذا السبب مضطرون إلى أن نقف عند أبى ماضى أطول مما نقف عند سواه ، لأن فى شعره القصصى كثيراً من الغنى والدسم ، وكثيراً من الفن والجمال ، وكثيراً من الحكمة والعبر الثمينة .

فى قصيدة « الشاعر والأمة » – وهى تتألف من ٥٩ بيتاً – يتحدث الشاعر على أمة كانت تعيش فى رخاء ومنعة وحرية فى كنف ملك عادل يحب شعبه ويتفانى فى خدمته ، حتى أوصل شعبه إلى أفضل ما تتمناه أمة من العيش الرغيد . ثم مات الملك وخلفه ملك طائش الرأى ، أفسدته حاشية سوء لا تحب الخير للشعب ، وزينت له آثامه وشروره ؛ فركب رأسه ومضى فى طرق الغى ، لا يلتفت إلى مصلحة شعبه ، ولا يعتنى بمملكته . وسكت الشعب على شروره فلم يحاسبوه ، حتى استفحل فيهم ظلمه وبطشه ، فراحوا يبكون على قبر سلفه العادل الأمين .

وفى أحد الأيام مر شاعر بمقبرة البلدة ، فرأى شيوخها يبكون عند قبر الملك السابق . فلما سألهم عن سبب بكائهم ، أجابوه بأنهم يبكون العدل والرحمة والحرية والعزة فى ذلك القبر ، وشكوا من جور ملكهم الحالى وطغيانه وفجوره . وعند ذاك :

هزئ الشاعرُ منهم قائلاً :	بلغ السوس أصولَ الشجرَه
رحمة الله على أسلافكمْ	إنهم كانوا تقاة بررَه
إنّ من تبكونه يا سادتى	كالذى تشكون فيكم بطره
إنما بأسُ الألى قد سلفوا	قتل النهمة فيه والشرَه
فاحبسوا الأدمع فى آماقكمْ	واتركوا هذى العظامَ النَّخره
لو فعلتم فعل أجدادكمو	ما قضى الظالمُ منكم وطرَه
كيف لا يبغى ويطغى آمرٌ	يتقى أشجَعُكم أن ينظره
ما استحال الهرّ ليثاً إنما	أُسُدُ الآجام صارت هررَه
وإذا الليثُ وهت أظفاره	أنشب السِنَّور فيه ظُفُرَه

والعبرة من هذه القصة الشعرية واضحة جداً ، فما يمكن أن يطغى ويبغى

فى الشعوب حاكم إذا كان الشعب يعرف حقوقه وواجباته ، ويعمل لرفاهية نفسه وعزة بلاده ، وليوقف الطغيان والفساد والجور عند حدودها .

وأما قصة « الشاعر والسلطان الجائر » فهى قصة المساواة الاجتماعية التى لا تميز بين عظيم وصغير ، أو بين سلطان وشاعر فقير . والقصيدة تقع فى أربعة وسبعين بيتاً ، مختلفة الأوزان ، مختلفة القوافى . يتمثل فى اختلاف أوزانها مختلف الأحاسيس والفكر التى يعبر عنها الشاعر .

وتتلخص القصة فى أن سلطاناً متعجرفاً جائراً دعا يوماً بأحد الشعراء ، وطلب إليه أن يمدحه بالشعر ، ويصف جاهه وسلطانه ، ويتحدث عن عظمته :

قال : صف جاهى ، فنى وصفك لى للشعر جاهْ
إن لى القصر الـــذى لا تبلغ الطيرُ ذراه
ولىَ الروضُ الـــذى يعبق بالمسك ثَـــراه
ولىَ الجيش الـــذى ترشحُ بالمـــوت ظبـــاه
ولىَ الغابـــات والشمّ الرواسى والميـــــاه
ولى النـــاس ، وبـؤس النـاس منى والحيـــاه

ولكن الشاعر ضحك من كلام السلطان ، ولم يطاوعه قلبه ولسانه على أن يحابى أو يتملق ، فإن له من نفسه ملكاً يتضاءل أمامه أى سلطان آخر . ولذلك أجاب السلطان بقوله :

القصرُ ينبئُ عن مهـــارة شاعر — لبق ، ويخبر بُعْـدَهُ عنكا
هو للألى يدرون كنْـهَ جمالِـه — فإذا مضـــوا فكأنـــه دُكـا
ستزول أنت ولا يزول جلالُـــه — فالفُلكُ تُبقى – إن خلَتْ – فلكا

ثم تحدث عن الروض ، والجيش ، والبحر ، والجبل ، التى يدعى السلطان أنه يملكها ، وختم حديثه بقوله :

ومررتُ بالجبل الأشمّ فما زوى — عنى محاسنه – ولست أميرا !
ومررتَ أنت فما رأيتَ صخوره — ضحكتْ ولا رقصتْ لديك حبورا
ولقد نقلتُ لنملة ما تـــدعى — فتعجبتْ ممـــا حكيتُ كثيرا
قالت : صديقك ما يكون؟ أقشعماً — أم أرقمًا ، أم ضيغماً هيصورا ؟

أيحوك مثـل العنكبوت بيوتَـه   حوكًا ، ويبنى كالنسور وكورا ؟
هل يملأ الأغوار تبراً كالضحى   ويردّ ، كالغيث ، الموات نضيرا ؟
أيلفٌّ كالليل الأباطحَ والرُبى   والمنزل المعمـور والمهجـورا ؟
فأجبتها : كلاّ ! فقالت : سَمِّه   فى غير خوف « كائناً مغرورا » !

وعند ذاك احتدم غيظ السلطان ، فأمر الجلاد أن يدحرج رأس الشاعر عن كتفيه ، فلما سقط رأسه يتدحرج على الأرض ، انفثأ غضب السلطان ، وقال وهو يضحك مسروراً لفعلته :

« ذو جِنة أمسي بلا جِنّته ! »

ومضت الأيام ثم :

فى ليلـة طامسـة الأنجـم   تسـلل المـوت إلى القصْر
بين حـراب الجنـد والأسهم   والأسيف الهنـدية الحمـر
إلى سرير المِلك الأعظـم   إلى أمير البرّ والبحـر ! ! . . .
ففارق الدنيـا ولمـا تـزَلْ   فيهـا خمـورٌ وأغاريـدُ
فلم يَمِـدْ حزنًا عليـه الجبَـل   ولا ذوَى فى الرّوض أملـودُ

وفى دنيا الحقائق الأزلية الخالدة وراء الحياة التقى السلطان والشاعر :

هذا بلا مجـد ، وهـذا بـلا   ذل . . . فلا باغٍ ولا ثائـرُ
عانقت الأسمال تلك الحـلى   واصطحب المقهـور والقاهرُ

ثم توالت الأجيال ، وأطاحت بالقصور والجدران ، وذهبت بالصالحين والأشرار . . .

وطوت ملوكـاً ما لهم   فكأنهم فى الأرض ما وجدوا
والشاعـر المقتـولُ باقيـةٌ   أقـواله فكأنهـا الأبـدُ

هكذا نجد العبرة فى كل قصة شعرية ينظمها أبو ماضى ، ونجد مع العبرة إبداعاً فى الصياغة الشعرية ، ومقدرة فائقة على إخضاع اللغة للمعانى الإنسانية الجليلة ، وللأوصاف الطبيعية المدهشة .

ولا أريد أن أكثر من سرد القصص الشعرية الطويلة لدى أبى ماضى ، لأنها تستحق وحدها فصلاً كاملاً ، ولكننى أتحول عنها إلى بعض المقطوعات

الحكمية القصيرة ، التى ترينا مبلغ ما كان يمتاز به أبو ماضى من الرأى الثاقب ، والحكمة العميقة .

فى قصيدة « التينة الحمقاء » يرينا الشاعر أن ما لا ينفع الناس لا يسمح له الناس بالبقاء ، والمنطوى على نفسه لا نفع منه ولا فائدة فى بقائه :

وتينة غضّة الأفنان باسقة ... قالت لأترابها والصيف يُحتَضرُ :
بئس القضاءُ الذى فى الأرض أوجدنى ! ... عندى الجمال وغيرى عنده النظر
لأحبسنّ على نفسى عوارفَها ... فلا يبين لها فى غيرها أثرُ
كم ذا أكلف نفسى غير طاقتها ... وليس لى بل لغيرى الفىء والثمرُ
لذى الجناح وذى الأظفار بى وطرٌ ... وليس فى العيش لى فيما أرى وطرُ
إنّى مفصّلةٌ ظِلّى على جسَدى ... فلا يكونُ به طولٌ ولا قصَرُ
ولست مثمرةً إلاّ على ثقة ... أنْ ليس يطرقنى طيرٌ ولا بشرُ

وماذا كانت النتيجة ؟ !

عاد الربيع إلى الدنيا بموكبه ... فازّيّنتْ واكتستْ بالسندس الشجرُ
وظلت التينة الحمقاء عاريةً ... كأنها وتدٌ فى الأرض أو حجرُ
ولم يطق صاحبُ البستان رؤيتها ... فاجتثها ، فَهَوَت فى النار تستعرُ
مَن ليس يسخو بما تسخو الحياةُ به ... فإنه أحمق بالحرص ينتحرُ !

أما « الحجر الصغير » فإنها ترينا أن ليس فى الدنيا شىء — مهما يكن صغيراً — إلا وله قيمته ونفعه الكبيران :

سمع الليلُ ذو النجوم أنينًا ... وهو يغشى المدينةَ البيضاءَ
فانحنى فوقها كمسترق الهمـ ... ـس يطيلُ السكوتَ والإصغاءَ
فرأى أهلها نياماً كأهل الـ ... ـكهف لا جَلْبة ولا ضوضاءَ
ورأى السدَّ خلفها محكم البنـ ... ـيان والماء يشبهُ الصّحراءَ
كان ذاك الأنينُ من حجر فى الـ ... ـسدّ يشكو المقادر العمياءَ
« أىُّ شأن — يقول — فى الكون شأنى ... لست شيئاً فيه ولستُ هباءَ
لا رخام أنا فأُنْحَت تمثا ... لا ولا صخرةٌ تكون بناءَ
لست أرضًا فأرشف الماء ، أو ما ... ءً فأروى الحدائقَ الغناءَ

لست درًّا تُنافسُ الغـادة الحسـ نـاءُ فيـه المليحـةَ الحسناءَ
لا أنا دمعة ، ولا أنا عـينٌ لست خالاً أو جنـةً حمراءَ
حجـر أغـبر أنـا وحقيرٌ لا جمالاً ، لا حكمة ، لا مضاء
فلأغادرْ هـذا الوجود وأمضى بسلام ، إنى كرهتُ البقاءَ »
وَهَوى من مكانه وهو يشكو الـ أرض والشهْب والدّجى والسماء

* * *

فتح الفجـر جفنـه فإذا الطـو فانُ يغشى المدينـة البيضـاء !

وهذه القصة القصيرة تعلم الإنسان أن لا يستهين بنفسه ، ولا يستصغر شأنه ، وتقوّى من ثقته بنفسه ، وبقيمته فى الحياة ، وبنفعه للمجتمع مهما ظن نفسه حقيراً تافهاً .

* * *

وأما « العير المتنكر » فهى ترينا أن تغيير الشكل لا يستطيع أن يغير الحقيقة النفسية فى الناس ، لأن الخلق القويم يبقى خلقاً قويماً ، والفاسد يبقى فاسداً مهما تغيرت المظاهر الخارجية :

زعم المـؤدبُ أنَّ عَـيرًا ساءه أن لا يُسارَ به إلى الميـدانِ
فمضى ، فَقَصَّرت القواطعُ ذيله وَسَطَتْ مواضيها على الآذانِ
حتى إذا جاء المروضُ واعتـلى متنيه ، راب الفارسَ الكشحانِ
لكنـه ما زال غير مصـدّق حتى علا صوت كصوت الجانِ
فاستلّ صارمه ، فطاح برأسه ورمى بجثتـه إلى الغـربانِ
ما دام يصحب كلَّ حى صوتُـه هيهات يُخْفى العيرَ جلدُ حصانِ

هذا فيما يتعلق بأبى ماضى وحده ، وما أوردتُ إلا نماذج قليلة من شعره القصصى ، أما زملاؤه فى الرابطة القلمية فلم يبرز أحد منهم مثل بروزه — أو قريباً منه — فى هذا المجال ؛ غير أن نسيب عريضة نظم شبه مسرحية شعرية بعنوان « احتضار أبى فراس » ، جاءت فى ٧٣ بيتاً من الشعر ، تخللتها مقاطع من شعر أبى فراس الحمدانى نفسه ، وقد ختمها بقوله :

كـذا مات فى البيـداء غيرَ موسَّد أميرٌ (عصىّ الدمع شيمته الصبرُ)

وأسلم للرحمـــان نفساً عـــزيزةً　　وذاق أفاويق الردى وهـــو يفترُّ
قضى نحبه مَن صاح فى أذن قومـه　　(لنا الصدر دون العالمين أو القبرُ)
على قبره فى القفـر ألف تحيـة　　يخلّـدها من بعده الذكر والشعرُ

ونظم ندرة حداد قصة شعرية طويلة بعنوان « الراهبة » تقع فى (١١٠ أبيات) بـوزن واحد وقواف متعددة . وفيها يروى قصة فتاة بائسة مات عنها ذووهـا وهى طفلة ، فأدخلت الدير ، وألبست مسوح الراهبات . حتى إذا نمت وتكوّر نهداها ، بدأت تشعر بأن من الغبن أن تدفن أشواقها وأحاسيسها الحلوة فى تلك المسوح بين جدران الدير . وفى أحد الأيام كانت جالسة وحدها فى حديقة الدير ، فرأت فتى هارباً من الحياة يريد الالتحاق بالرهبان . فجعلت تحذره وتنصحه ، وتبين له جمال الحياة ، وحلاوة الأشواق ، وهمسات الحب . ولم تلبث أن وضعت يدها فى يده وغادرت الدير معه لتنعم بدفء الحب وحلاوته .

غير أن الصياغة الشعرية فى هذه القصيدة الطويلة لم تكن موفقة ، فقد كانت عبارتها ركيكة مهلهلة . ولذلك لا نحاول أن نقتطف منها شيئاً لشدة ضعفها .

وللشاعر إلياس فرحات غير قليل من القصائد القصصية ، وأهمها « أحلام الراعى » ، فقد جاءت جميع القصائد هناك بطريقة القصة الشعرية . وله عدا تلك الأحلام قصائد أخرى قصصية ، نذكر منها « احتجاج السعادين على مذهب داروين » . وعنوان هذه القصيدة يدل على فكرتها ، ففيها تهكم بنظرية النشوء والارتقاء الداروينية التى تقول إن الإنسان متحدر من سلالة القرود . وقد جعل الشاعر القرود فى هذه القصيدة ترسل نائباً عنها ليحتج باسمها على ما يدعيه البشر من تحدّرهم من أصلها . وفى احتجاجه يقول للخالق العظيم :

قد قامَ فى الغرب مخلوقٌ بلا ذَنَب　　من نسل آدمَ أشبـاه الشياطينِ
من الذين إذا ثارت مطامعهـم　　تُنسى البرية نيران لبراكـين
يقـول إنّـا وهُمْ فرعـان بينهما　　قـربى يؤيدهـا قرب التكاوينِ
فبالأصـالة عن نفسى أكذّبـه　　وبالنيـابة عن رهط السعاديـنِ
الناس ، يا مبدعَ الأكوان ، ما برحوا　　والشرّ فطرتهم من عهـد قايينِ
أعمالهـم فى الثرى تنبيك أن لهم　　بعضَ القرابة مع بعض الثعابينِ

قالوا ارتقى جدّهم عن جدّنا ، وهـــو أحطّ ما صنعت كفاك من طـينِ
يكفى السعادين فخراً أنها عـــرفتْ معنى السعادة عفـواً دون تلقينِ
وأنهـــا تجهل الكذْب الذى أخذتْ منه الحكوماتُ أركان الدواوين
لا تعرف الدين فى غير الإخـاء ولا تجنى على الخلق باسْم الله والدين
الغـابُ تجمعهـا من كلّ طائفـــة تحيا الصعاليـك فيها كالأساطينِ

ويختم الشاعر قصته الشاعرية بأن يجعل الله يبرأ من مخلوقاته كلها ، ويعلن قطع علاقاته بها جميعاً .

وللشاعر جورج صيدح فى ديوانه « النوافل » قصة شعرية بعنوان « العاصفة فى غابة بولون » نظمها فى باريس عام ١٩٢٦ ، وروى فيها حادثة من عهد الشباب وقعت له مع فتاة فى غابة بولون . وفى هذه القصة الشعرية شيء من الأدب المكشوف . وهى تتحدث عن لقاء بين الشاعر وفتاة فرنسية صغيرة اسمها « ليدى » فى يوم كانت شمسه تغرى بالنزهة فى ظلال الأشجار الدافئة . فغادرت الفتاة منزل أبويها زاعمة أنها تمضى إلى الكنيسة ، ولكنها كانت تريد الانطلاق إلى موعدها مع الشاعر . وما كادا يلتقيان حتى هطل المطر غزيراً ، فابتلت ثيابها وثيابه . فحملها إلى فندق قريب ، وقد دبّ الذعر فى نفسها لأنها تخشى من لقاء أبويها بتلك الثياب المبتلة . وفى الفندق طلب إليها الشاعر أن تخلع جميع ثيابها ، وخلع هو جميع ثيابه ، ودفع بها جميعاً إلى صاحب الفندق لينشفها ويكويها . وبقيا عاريين حتى أعاد إليهما صاحب الفندق ثيابهما مجففة مكوية .

ويصف الشاعر فترة العرى هذه فيقول :

وكان ما كان لـــدى خلـوة لو عرف الغيث مداهـا لتابْ
شاهدتُ فيها الحسْنَ مستكملاً وشاهدتْ (ليدى) عجيب العجاب
والعرْىُ إن باح بسرّ البهـــا قاطعَه الحبّ بفصل الخطابْ
أشهى ثمار الروض مقشورُها يغرى بمجناه وضوحُ اللبابْ
جنـــايةٌ للحب مغفـــورةٌ فـاز ضحـايـاها بحسن المآبْ
دوّنتُ منها فى سجلّ الصبى حسنةً للغيث فى شهر آب . .

ويختم الشاعر قصته بالأبيات التالية :

في الأحـــد التالى وما بعـــــده   عدْنا إلى الغاب بظَنّ .. فخابْ
ما بلل الأرضَ صبيب الحيـــا   ولم نجـد عذراً لغسْل الثيابْ
فمن ترى خفَّ إلى المنحـــنى ؟   يا غرفةَ الفندق ردّى الجوابْ !

وهذه – فيما أعرف – هى القصة الشعرية الوحيدة فى شعر المهجر التى لم تنظم لعبرة اجتماعية ، وإنما كان الدافع إليها مجرد سرد حادثة معينة ذات أثر نفسى خاص ؛ وهى من حيث البناء فى غاية الجمال والإبداع .

* * *

وهناك شاعر آخر من المهجر الجنوبى نظم القصة الشعرية ، فوفق فيها توفيقاً غير قليل ، وهو الشاعر ميشال مغربى . ومن قصصه الشعرية أشير إلى قصيدتين هما « الصياد » و« ليون وغرناطة » ؛ وفى هذه الأخيرة يروى الشاعر قصة أمير عربى أندلسى أغار على مدينة ليون الفرنسية ، ووقعت فى أسره فتاة بارعة الجمال من بنات ليون ، فأحبَّ أن يتخذها زوجة له ، ولكنها اعتذرت إليه بلطف ، وأعربت له عن حبها لوطنها وعدم رغبتها فى الزواج غريبة ؛ وراحت تبكى أمامه ، فلان قلبه لبكائها وأشفق على حبها لوطنها ؛ فأطلق سراحها وأعادها إلى قومها . وقد ختمها الشاعر بوصف عفو الأمير العربى ، فقال :

أطرق المغربى مما لـــــه الحسـ   ـناء قالت وغاص فى التفكيرِ
وأمرَّ البنانَ فى شعر عُثنـــو   ن قد اخضلّ تحت دمع غزيرِ
قائلاً : ليس ما نطقتِ به حقًّا   م ولا (ليونُ) ذات عـــز خطيرِ
إن تكونى آثرتِهـــا فهى الأو   طان تغرى حتى بشىء حقيرِ
غير أنى أخـــال قلبك يا حسـ   ـناء يصبو إلى حبيبٍ عشيرِ
فلئن كان ما أخال فمـــا من   شيمة العرب سحق قلب الفقيرِ
اذهبى ، أنت حرّة ، واعلمى أن   ليس فى العفو مثل عفو القديرِ

وهى قصة تستهدف الإشادة بفضائل العرب ونبل أخلاقهم ، وتمجيد ماضيهم العزيز الرفيع ؛ وتقع فى ٣٩ بيتاً من الشعر .

أما « الصياد » فهى قصة حب بين صياد وإحدى حوريات البحار

الأسطورية ، تروى أن صياداً ألقى شبكته يوماً إلى البحر ، فخرجت إليه فيها حورية جميلة ، فراح يبثها الهوى وتبثه ، وعرض عليها أن يأخذها معه إلى منزله ويتزوجها ، ولكنها لم تكن تستطيع مغادرة الماء ، على الرغم من رغبتها فى أن تلحق به ولو إلى آخر الدنيا . وعند ذاك قال لها إنَّ دموعه تغنيها عن مياه البحر :

قالتْ : فما نصنعُ حتى نلتقى إن كان ليس للقا من موضعٍ ؟
قال : انظرى عينىَّ يا نورهما ففيهما بحرٌ طما من أدمعى
قالت : ففيهما أقيمُ فنعيش أبدا
لا يُشبعُ الخلودُ إلاَّ مَن أجاع الجسد

* * *

ولفوزى المعلوف قصة شعرية يتحدث فيها عن آدم وحواء حينما طُردا من الجنة ، فهاما على وجهيهما شريدين بائسين بعد أن حُرما من نعيم الفردوس ، ولم يعودا يجدان تعزية فى حياة الكدح والشقاء . غير أنهما لم يلبثا أن وجدا تعزيتهما المنشودة حينما وضعت حواء ابنها الأول ، فرأت فى عينيه كل النعيم وكل السعادة :

يا لها ساعةً على أبويه شاهدَيْها
حين أدنت حواء من شفتيه شفتيها
ومشى آدم طروبًا إليه وإليهما
لاثمًا من سروره ليديه ويديها

* * *

قال أيضًا لزوجه حوَّاء بابتسامِ
كفكفى الدمع ، أبْشرى بالصفاءِ والسلامِ
لم يعد موجب لماضى البكاء والملامِ
استعدنا الفردوس بالأبناء والهيامِ

* * *

ولكن الشاعر نفسه – فوزى المعلوف – لم يعش ليجد مثل هذه السعادة التى يصفها ؛ فقد طار عن عشه قبل أن ينعم بدفء البيت الذى تملؤه الزوجة والأبناء . ومع ذلك عبّر بقصيدته هذه عن الحقيقة الخالدة التى يحسها الآباء والأمهات كل يوم .

الفصل السادس

الأدب المهجرى أدب رسالة

١ – توطئة

الأدب المهجرى أدب رسالة ؛ وهل الأدب الصحيح سوى رسالة سامية تنير سبل الحياة ، وتعرّف الناس كيف يهتدون إلى منابع السعادة والمعرفة فيها ، وكيف ينهلون من ذلك المنبع الأزلى الأبدى ، الذى لا يحده الزمان ولا المكان لأنه أصل الزمان والمكان ، وأصل الحياة والوجود ، بكل ما فيهما من شمول وأبدية ؟

وأدباء المهجر أدباء رسالة ؛ وهل الأديب الحق سوى رسول ، يحمل بيده مشعل الحب والحرية ، ويبحث بكل ما فى ضميره من شوق وشغف ، وما فى نفسه من نشاط وإخلاص ، عن مصدر السعادة والمعرفة فى الحياة ، ليهدى إليهما نفوس البشر الحائرة ، فيزيل عن وجه الحياة قشور الكآبة والجفاف ، ويكلله بنور الغبطة والانتعاش ؟

كانت المقاييس الكبرى للأدب هى أن يكون تعبيراً عن عاطفة ، مهما يكن نوعها ، أو تصويراً للنفس أو للمجتمع ، فى حدود ضيقة أو واسعة . لذلك كنا دائماً نعتبر الشعر والنثر هما الجناحين اللذين يتألف منهما « الأدب » . ونحن طبعاً نعتبر كل كلام منظوم « شعراً » ، وكل كلام غير ذى وزن وقافية « نثراً » ، مهما تكن صفات هذا النثر وذاك الشعر . وعلى هذا القياس تكون خمريات الأخطل وأبى نواس ، وغراميات امرئ القيس وعمر بن أبى ربيعة ، ومدائح المتنبى والبحترى ، وأهاجى جرير والحُطيئة ، ومقامات الحريرى واليازجى ، أدباً ، وأدباً فى الصميم ، تماماً كتأملات المعرى وجبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى : تلك التأملات الإنسانية التى تنزل على القلوب برداً وسلاماً ، وترفع النفوس معها ،

بعد أن تجرّدها من أوضار الطين ، وعبودية المادّة ، وتحلّق بها فى عوالم يغمرها النور ، وتتألق فى حواشيها ابتسامات التعزية والسعادة .

أما نحن ، أبناء الجيل الحاضر ، فإننا ننظر إلى الأدب نظرة فيها علوّ ، وعمق ، وسعة ؛ وفيها تقديس ومهابة : فليس المدح عندنا أدباً ، لأنه استجداء صريح ، أو وسيلة إلى الاستجداء فى الغالب ، والاستجداء عندنا ذل ورذيلة ؛ وليس التبذل فى الحب والشراب عندنا أدباً ، لأنه دعوة صارخة إلى سيادة الرذيلة ؛ وليس الفخر والحماسة عندنا أدباً ، لأنهما غرور وكبرياء ، والغرور والكبرياء عندنا من أمهات الرذائل ، ولا سيما أنهما يصدران عن ابن الطين ! ومتى كان للطين أن يغتر ويتكبر وهو لا يغتر ويتكبر إلا على طين مثله ؟

وهكذا نحن اليوم نفهم أن الأدب رسالة تعلم الحياة ، وترشد البشر ، وأن قيمة الأدب هى فى ما يسديه إلى الحياة وإلى الناس من خير ، أو فى ما يمكن أن ينتجه فى الحياة من خير للأحياء . فالأديب – كما يقول نعمه قازان – هو « كل من يدلنى على الطريق ، ويسير أمامى » . وعلى هذا الأساس نستطيع أن نقول إن الأدب المهجرى هو أدب رسالة ، وإن أدباء المهجر هم أدباء رسالة ، أو رسل أدباء . ورسالة المهجر الأدبية ذات ثلاثة فروع : فهى أولاً رسالة روحية واجتماعية إلى الحياة عامة ؛ وهى ثانياً رسالة أدبية إلى اللغة العربية ، وهى ثالثاً رسالة قومية إلى الشرق العربى . وفى الكلمات التالية سنرى كيف أدّى المهجريون هذه الرسالات الثلاث على أكمل وجه .

٢ – رسالة الأدب المهجرى الإنسانية العامة

ولئن كنت أقول « أدب المهجر » ، وأدباء المهجر ، فإننى أشعر بأن فى قولى هذا تعميماً وإطلاقاً ، وأن فى التعميم – غالباً – شيئاً من المغالاة . لذلك لابد لى من التخصيص ؛ فلم يكن كل ما عرفناه من أدب المهجر أدب رسالة ، ولا كل من عرفنا من أدباء المهجر أدباء رسالة . وإنما الذين يتميزون منهم بهذه الصفة

وتتسم بها آدابهم ، هم فئة كريمة من أدباء المهجر ، وفى مقدمتهم أصحاب « الرابطة القلمية » ؛ تلك الرابطة المباركة التى صنعت العجائب فى النهوض بمستوى الأدب العربى الحديث . وأصحاب هذه الفئة المباركة يتفاوتون فى فهمهم لرسالة الأدب ، وينهجون فى تأديتها سبلاً تتباين أحياناً ، ولكنها تظل مع ذلك متقاربة كل التقارب ، لأنها تصدر عن إحساس واحد للحياة الشاملة الواحدة .

فجبران ، ونعيمه ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة ، مثلا ، اتخذوا من الأدب « رسالة إنسانية » مثالية ، تتعالى على سائر الفروق والنزعات الإقليمية والطائفية والقومية والدينية ، فى حين اتخذ الريحانى والقروى وفرحات وصيدح وطعمه وقنصل وغيرهم من الأدب « رسالة قومية » ، كما سنرى ذلك بوضوح فى حديثنا على « رسالة الأدب المهجرى إلى الشرق العربى » . ولم تخل آدابهم من الأفكار الإنسانية العالية ؛ لأن رسالتهم القومية لم تكن من الضيق بحيث تنسيهم أن الوطن إنما هو جزء من الوجود الشامل ، وأن سعادته إنما تقوم بسعادة سائر الأجزاء الأخرى . وهذه « قومية مثالية » لا تقل نبلاً وسموًا عن « الإنسانية المثالية » ؛ فهى جدول رقراق صاف ينبع منها ويؤدى إليها .

وهذا المعنى قد عبر عنه الريحانى بقوله : « لا تنسوا وطنكم فى حبكم الإنسانى ، ولا تنسوا الإنسانية فى نزعتكم الوطنية » . وعبر عنه كذلك الشاعر القروى فى ديوانه « الأعاصير » بقوله يخاطب فتاة إنكليزية اسمها « مود » أحبته فلم يبادلها الحب غيرة منه على قوميته ، وحفاظاً على كرامته :

لعمرُكِ يا « مــود » لولا ذووكِ   لما فرق الحبُّ بين العبـــادْ

ولا أكرهوا شاعـــراً أن يقـــو   لَ هذى البلاد ، وتلك البلاد

ولكن الريحانى لم تكن كل رسالته الأدبية قومية فحسب ، وإنما كانت تشمل نواحى الإصلاح الاجتماعى والخلقى ، أو هى كانت رسالة للحياة العامة . ولعل القطعة التالية من « ريحانياته » تعبر عن ذلك ، وترينا أن الرجل كان عمليًا واقعيًّا ، لا يقنعه الإيمان بالمثالية الروحية والعاطفية وحدها إن لم تكن ترمى إلى خلق جيل من الناس قوى فى روحه وفى أخلاقه . والريحانى هو القائل : « أنا

الشرق ، عندى فلسفات ، وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات » ؟ !

أما القطعة التى نشير إليها ، فقد أوردها الأستاذ ألبرت الريحانى فى كتابه « أمين الريحانى » ، وذكر أنها من الجزء السادس من « الريحانيات » الذى لم يطبع بعد . وفى هذه القطعة يقول أمين الريحانى تحت عنوان « المندوب الأسمى » : « إن كنت مكتئباً فلا تكن يائساً ، وإن كنت يائساً فلا تكن جامداً ، وإن تكن جامداً فاذكر أنك خلقت للخلود ؛ فهل تريد أن تخلد كالجلمود ؟ إن المذلة لفى الحياة الجامدة ، لا فى الموت . وإن الموت على رأس الجبل لنور يضىء . فإن متّ فى الغور ذليلاً ، عشت خالداً فى المذلة ، وإن عشت حرًّا كريماً ، ومتّ حرًّا كريماً ، كانت الحرية ركناً والكرامة نوراً لخلودك السعيد . . . إن الصحة والمال والبنين لأشياء تذكر إذا ما ذكر الجمال وحسن الحال ؛ ولكن أجمل منها الشجاعة وعزّة النفس ، وأجمل منها الحرية والمثل الأعلى فى الحياة . . . إن غضبة لكرامة لخير من اليسر والسلامة . وإن جنوناً فى سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة والعبودية . وإن عزًّا فى الممات لخير من حياة شاكية باكية ، تتوسد اليأس ، وتلتحف الخنوع . . . »

وأما جبران الذى كانت تتسم كتاباته بالروح الإنسانية المثالية ، فإننا نجد معانى هذه الإنسانية فى كل كتاباته تقريباً ؛ ومنها قطعة بعنوان « وعظتنى نفسى » يقول فيها : « وعظتنى نفسى فعلمتنى وأثبتت لى أننى لست بأرفع من الصعاليك ولا أدنى من الجبابرة . وقبل أن تعظنى نفسى كنت أحسب الناس رجلين : رجلاً ضعيفاً أرقّ له أو أزدرى به ، ورجلاً قويًّا أتبعه وأتمرد عليه . أما الآن فقد علمت أننى كوِّنت فرداً مما كوّن البشر منه جماعة : فعناصرى عناصرهم ، وطويتى طويتهم ، ومنازعى منازعهم ، ومحجتى محجتهم . فإن أذنبوا فأنا المذنب ، وإن أحسنوا عملاً ، فاخرت بعملهم ، وإن نهضوا نهضت وإياهم ، وإن تقاعدوا تقاعدت معهم » .

وكذلك نجدها فى القطعة التالية بعنوان « صوت الشاعر » ؛ وهى نفحة إنسانية من النفحات التى تهبّ من القلوب الكبيرة ، لتوسع آفاق عاطفتنا ، وتبسط حدود أدبنا ، فتربطنا بالإنسانية كلها . ففيها يقول نابغتنا الخالد جبران :

« أحنّ إلى بلادى لجمالها ، وأحبّ سكان بلادى لتعاستهم ؛ ولكن إذا ما هبّ قومى مدفوعين بما يدعونه وطنية ، وزحفوا على وطن قريب وسلبوا أمواله ، وقتلوا رجاله ، ويتموا أطفاله ، ورملوا نساءه ، وسقوا أرضه دماء بنيه ، وأشبعوا ضواريه لحوم فتيانه ، كرهت إذ ذاك بلادى وسكان بلادى .

« أتشبب بذكر مسقط رأسى ، وأشتاق إلى بيت ربيت فيه ؛ ولكن إذا مرّ عابر طريق وطلب مأوى فى ذلك البيت وقوتاً من سكانه ، وَمُنع مطروداً ، استبدلت تشبيبى بالرثاء وشوقى بالسلوّ ، وقلت بذاتى : إن البيت الذى يضنّ بالخبز على محتاجه ، وبالفراش على طالبه ، لهو أحق البيوت بالخراب .

« أحب مسقط رأسى ببعض محبتى لبلادى ، وأحبّ بلادى بقسم من محبتى لأرض وطنى ، وأحب الأرض بكليتى لأنها مرتع الإنسانية ، روح الألوهية على الأرض » .

وليس من السهل فى الواقع أن نتخذ من القطعة القصيرة أو من القطعتين دليلاً على المجموعة الكبيرة من المؤلفات التى تشترك فى الخصائص الأصلية الكبرى للرسالة الأدبية الواسعة بمعناها الروحى والاجتماعى معاً ؛ فالذى يقرأ مؤلفات جبران كلها – أقول كلها ولا أستثنى ، على الرغم من أن مفهوم الرسالة الأدبية ، وطريقة تأديتها يتنوعان أحياناً فيها ، أو هما على الأصح يتطوران وينصقلان مع الزمن – يجد أنها جميعاً تستهدف تأدية رسالة الأديب إلى الحياة وإلى الأحياء على الوجه الأكمل الذى يراه الأديب نفسه .

وفى هذه الصفة يشترك معه نعيمه فى سائر مؤلفاته أيضاً . ومن أقوال نعيمه التى تدل على عمق شعوره الإنسانى قوله فى كتابه « المراحل » تحت عنوان « المزابل » : « يمر الناس بقصر من القصور ، فيهتفون : ما أجمل وما أبهى ! يحيطون صاحب القصر بالإجلال ، فيطأطئون أمامه الرؤوس ، ويعفرون الوجوه ، ويحنون الركب . أما الأيدى التى اقتلعت الصخر من صدر الأرض ونحتته حجارة . . . الأيدى التى تبنى فيسكن غيرها ما تبنيه ، وتنسج فيلبس غيرها ما تنسجه ، وتزرع وتحصد فيأكل غيرها ما تحصده . . . تلك الأيدى – وما أكثرها – مزابل بشرية يشمخ عليها الذين يحيون بكدّها وجناها ، ويكفّون

عنها الأبصار . . . وهم أحوج إليها من سمكة إلى الماء . فيا للغرور ويا للعمى ! . ما أكثر المزابل البشرية ، وما أحقرها فى نظر البشرية ، وما أقدسها وأجلّها فى عين الحياة ! الناس يهربون من مزابلهم ، ومزابلهم سماد الحياة فيهم . . . فما أعماهم ! يكرمون النبتة ، ويرذلون التربة ! » .

وكما تتنوع طرق الحياة ووسائلها وأهدافها ، كذلك لابد أن تتنوع رسالة الأدب إليها . وكذلك تنوعت رسالة الأدب المهجرى إلى الحياة العامة ، فكان من أبرز مزايا أبى ماضى الأدبية ، أنه صرف قسماً كبيراً من أدبه إلى تحبيب الحياة إلى الأحياء ، والدعوة إلى التمتع بما فى الحياة من مباهج ، لأن الحياة لا تستحق منا أن نستقبلها بالكآبة والعبوس ، وهى أقصر من أن ننفقها فى التجهم والهم . . من ذلك قوله :

قلتُ : ابتسمْ ما دامَ بينك والرَّدى   شبْرٌ فإنك بعــدُ لن تتبسـما

وقد تكررت هذه الدعوة فى عدد كبير من قصائد أبى ماضى بصور مختلفة فى شكلها متفقة فى معناها . . فى قصيدة « المساء » يقول :

فاصغى إلى همْس الجداول ، جاريات فى السفوحْ
واستنشقى الأزهارَ فى الجنات ما دامت تفـوحْ
وتمتعى بالشهب فى الأفلاك ما دامتْ تلـوحْ
من قبل أن يأتى زمانٌ كالضّباب أو الدّخـانْ
لا تبصرينَ به الغديرَ ، ولا يلذ لك الخَـريرْ

وفى قصيدته « فلسفة الحياة » نسمعه يردد هذه المعانى بصورة أخرى ، فيقول :

كن مع الفجر نسمة توسع الأز   هـار شمًّا وتـارةً تقبيـلا
لا سموماً مع السوافى اللـواتى   تملأ الأرضَ فى الظلام عويلا

أما نسيب عريضة فإنه فى قصيدته « يا أخى ، يا أخى ! » يعلمنا الثقة بالنفس ، والفرح بالحياة ، والتعاون . فيهتف بنا بإخلاص وحرارة قائلاً :

فلنسرْ فى الظلام ، فى القفر ، فى الوحـ   ـشة ، فى الويل ، فى طريق المجاهدْ
فلنسر أعزلين إلا مـن الحـقّ   م سلاحاً ، والفكر حـادٍ وقائـدْ

وإذا اشتدت الذّئاب عـــــواءً فلنقابلْ عواءهـــا بالنشائدْ
يا أخى ! يا رفيقَ عزمى وضعفى ! سرْ نكابدْ ، إنّ الشجاعَ المكابـدْ
فإذا مـــا عييتُ تسند ضعـــفى وأنـــا بعد ذا لضعفك سانـدْ
سرْ تقـــدم لكى نخطّ طريقـــاً لأبـاة الهـــوان عند الشدائـــدْ

وتتجلى لنا نزعته الإنسانية التى تفيض عن نفس كبيرة تعلّم الحب والإخاء والصدق فى قصيدته « ادنُ منى » التى يصور فيها رسالة الأخوة الإنسانية تصويراً مؤثراً فيقول :

إن هـذى الحياةَ أقصر مـــن أنْ تشغل المرءَ برهـــةً بعـــلاله
فعلامَ الزّحام ، والرّكض ، والحقـ ـد ؟ علامَ الخصامُ ؟ فيم الجهاله ؟
فلنسر صاحبَيْن فى مهمـــه العيـ ـش فنطـوى وهـــاده وتلالـــه
يا ابن ودى ! يا صاحبى ! يا صديقى ! ليس حبى تطفلاً أو ثقـــالـــه
فأجبنى « بيا أخى ! » يا صـــديقى وأعد ، إنهـــا ألـــذّ مقالـــه
وإذا شئتَ أن تسير وحيـــــداً وإذا ما اعترتْكَ منى ملالـــه
فامْض ، لكنما ستسمع صـــوتى صارخاً : « يا أخى ! » يؤدى الرساله
وسيأتيك أين كنتَ صـــدى حبّى فتـــدرى جمالـــه وجلالـه

وقريب من هذه الروح الإنسانية الصادقة الحارّة ، ما نجده فى قصيدة « سر معى » لندرة حداد ، التى جعلها مطلعاً لديوانه « أوراق الخريف » .

٣ — رسالته إلى اللغة العربية

برزت مدرسة المهجر الأدبية إلى الوجود ، فى زمن كان كل ما فيه فى الشرق تقليداً ومسخاً ؛ والأدب ، بنوع خاص ، لا يقل عن كل شيء آخر تقليداً ومحاكاة : فهو ألفاظ وتراكيب تعتمد قبل كل شيء على القاموس ، وعلى قواعد البلاغة والعروض ، لا على العاطفة والفكرة والشعور . حتى لقد عَرف عصر النهضة ، أكبر مجموعة من القواميس الضخمة ، لبطرس البستانى ، وعبد الله

البستانى ، والشرتونى ، والأب المعلوف ، والكرملى ، وغيرهم . كما عرف أيضاً افتتان الكتاب بتقليد الأساليب القديمة تقليداً مملاً ، كما فعل ناصيف اليازجى فى « مجمع البحرين » ، والمويلحى فى « حديث عيسى بن هشام » وإبراهيم اليازجى فى « نجعة الرائد » ، وغيرهم كثير .

أما الشعراء فقد كانوا يتنافسون فى تقليد أساليب الشعراء السابقين ، بحيث لا يمكن لمن يطالع شعرهم أن يقع فيه على شخصية متميزة بخصائص ذاتية أصيلة ، بل يستطيع بكل سهولة أن ينسب شعرهم إلى بعض شعراء عصر الانحطاط ، أو الأعصر التي سبقته . كذلك كان الأدب العربى حتى ظهور المدرسة المهجرية ، أو على الأصح حتى ظهور جبران على رأس المدرسة المهجرية ، التى قلبت الأوضاع الأدبية قلباً جديداً .

فى هذا العصر ، الذى كان فى الغالب امتداداً لعصر الانحطاط ، وإن يكن فى الظاهر بدء نهضة أدبية جديدة ، اجتمعت فى المهاجر الأميركية نخبة من الشبان المتوثبين المستنيرين ، طوّحت بهم إلى هناك أسباب المعاش ، أو ظروف سواها ، وبين جوانح كل منهم رصيد كبير من المواهب الكبيرة التى تتحين الفرص للبروز إلى الميدان مزودة بكل صفات الخلق والإبداع . وكان أسبقهم إلى الظهور من مهجره البعيد ، جبران خليل جبران ، وأمين الريحانى . ولم تلبث أن انضمت إلى قلميهما الجريئين الموهوبين أقلام أخرى جريئة موهوبة لزمرة كريمة من الشبان الذين كانوا جميعهم يشعرون بما فى النهضة الجديدة فى الشرق من عوامل الضعف والانحطاط ، ويرون أنه قد آن الأوان ليترفعوا بالأدب عن التقليد المبتذل إلى حيث يمكنه أن يسهم فى الإنتاج الأدبى الإنسانى ، ويسلكوا به فى سبل شريفة حرّة ، تحفظ له جلاله وسموّه ، ولأصحابه كرامة نفوسهم ، وحرية ضمائرهم وأقلامهم . وهكذا وحّدت بينهم الحوافز ، فإذا بهم ينصرفون بهمة وبإخلاص وغيرة لتأدية رسالتهم الأدبية إلى اللغة العربية على الشكل الأكمل .

ولعل أقرب السبل إلى تعريف الطريقة التى أدّى بها أدباء المهجر رسالة الأدب إلى اللغة العربية هى فى مقال لجبران عنوانه : « مستقبل اللغة العربية » ، كتبه ردًّا على سؤال وجهته مجلة « الهلال » إليه وإلى طائفة من مشاهير الكتاب

العرب . وفيه يرى جبران « أن اللغة مظهر من مظاهر قوة الابتكار فى مجموع الأمة ، فإذا هجعت قوة الابتكار ، توقفت اللغة عن مسيرها » . ويقول : « إن مستقبل اللغة العربية يتوقف على مستقبل الفكر المبدع الكائن – أو غير الكائن – فى مجموع الأمم التى تتكلم اللغة العربية » ، ثم يرى أن خير الوسائل بل الوسيلة الوحيدة لإحياء اللغة وإنعاشها هى فى قلب الشاعر ، وعلى شفتيه وبين أصابعه . فالشاعر هو الوسيط بين قوة الابتكار والبشر ، وهو السلك الذى ينقل ما يحدثه عالم النفس إلى عالم البحث . . . وهو أبو اللغة وأمها . تسير حيثما يسير ، وتربض حيثما يربض . . . وأما المقلد فهو ناسج كفنها ، وحفّار قبرها » .

وإلى مثل هذا المعنى رمى ميخائيل نعيمه فى مقدمته « لمجموعة الرابطة القلمية » إذ قال : « إن الرابطة القلمية ما كانت لتقدّم هذه المجموعة إلى قراء العربية لولا اعتقادها بأنها قد اتخذت من الأدب رسولاً ، لا معرضاً للأزياء اللغوية والبهرجة العروضية » .

وليس من شك فى أن نعيمه هو خير من يرينا رأى المهجريين فى اللغة ، وفى أحسن الطرق إلى إنعاشها ؛ ولذلك نقف عنده قليلاً لنتمثل بأقواله ، لأنه قد تفرّغ أكثر من سائر زملائه لمعالجة موضوع الأدب واللغة ، فكان من ذلك كتابه الشهير « الغربال » الذى لا يزال نموذجاً صالحاً ، يردد أفكاره ومقاييسه وأحكامه كل مشتغل بالنقد الأدبى الحديث عند العرب .

من أقوال نعيمه التى لابد من ذكرها ههنا ، قطعة من « مذكرات الأرقش » ؛ وهى قصة فى مذكرات كانت منشورة فى « مجموعة الرابطة » ثم توسع فيها المؤلف فنشرها فى كتاب مستقل . وفيها يقول نعيمه : « إن القصد من كل لغة هو البيان : الإفصاح عن فكر ، أو حالة روحية أو جسدية . والقصد من كل قاعدة لغوية هو رفع الالتباس ، والدقة فى التعبير . فكل قاعدة لا ترفع التباساً ، ولا تساعد على دقة التعبير هى سلسلة من حديد . . . الناس ينسون أن اللغة هبة أعطيت لهم من الله ، وأنهـا كبقية الهبات الإلهية قد أعطيت لهم لا لتدفن ، لا لتقيد بما لا يلزم من القواعد والاصطلاحات فتبقى هى هى من جيل إلى جيل ، بل لتنمو وتتسع وتزداد جمالاً بازديادها بساطة » .

ثم يعالج نعيمه الموضوع مرة أخرى فى « غرباله » فيقول : « لا قيمة للرمز فى ذاته ، إنما قيمته مكتسبة بما يرمز إليه . لذلك فلا قيمة للغة فى نفسها ، بل قيمتها فيما ترمز إليه من فكر وعاطفة . . . فجميل بنا أن نصرف همنا إلى تهذيبها وتنسيقها لنكسبها دقة ورقة ؛ إنما قبيح بنا أن ننسى أو نتناسى كونها رمزاً إلى ما هو أكبر وأجلّ منها بمراحل ؛ وأقبح من ذلك أن نحسبها وافية كاملة » .

وأيضاً : « إن القصد من الأدب هو الإفصاح عن عوامل الحياة كما تنتابنا من أفكار وعواطف . واللغة ليست سوى وسيلة من وسائل كثيرة اهتدت إليها البشرية للإفصاح عن أفكارها وعواطفها » .

ولم يكن أمين الريحانى أقل من زملائه اهتماماً بإنعاش اللغة العربية ، وكان يرى رأيهم فى أن الوسيلة الوحيدة لتغذية اللغة إنما هى بتلقيحها بالمعانى الكبيرة والأفكار الواسعة الباقية ، لا الاهتمام بألفاظها وقواعدها وحدها . ولذلك نراه فى مقال له بعنوان « التجديد المزيف » ينحى على دعاة التجديد فى مصر بالملامة والتأنيب ، لأنهم وقفوا فى تجديدهم عند حدود تغيير بعض الألفاظ ، ولم يعمدوا إلى العناية بالأفكار والمعانى والعواطف ، فيقول :

« والذى يفجعنى أكثر من كل فجيعة أدبية هو أنهم يحصرون نظرهم فى ظاهر اللغة : فى هيكلها ، فى عظامها ، ويظنون أن الميثاق القومى ، والسيادة الوطنية ، والعز ، والمجد ، والصولة ، والاقتدار ، تتوقف كلها على شىء من « حتى » ؛ فالفضل فى كينونتنا القومية ، هو للفظة جديدة يكتشفونها ، أو لتعبير عربى مضرى يعودون إليه . والسبب فى عدميتنا القومية هو غلطة نحوية أو صرفية أغلطها أنا أو يغلطها من هم أكثر منى علماً فى اللغة وآدابها . أما روح اللغة ، وطريقة الفكر فيها ، وأسلوب الكاتب الذى هو صورة لشخصيته ، والحرية الذوقية فى اختيار الأماكن بين الكلمات والسطور لهمساته وصيحاته ، ودمعاته وضحكاته ، وغمزاته ولمزاته ، والاختراع فى معالجة المواضيع القديمة ليعطيها شيئاً من الجديد . . . كل ذلك هو عندهم فى الدرجة الثانية أو الثالثة من الأهمية ، إذا قيس بشىء من « حتى » ! »

وكذلك نسمع قوله فى الجزء الثالث من « الريحانيات » تحت عنوان « روح

اللغة » : « إن للغة جسماً لا ينمو إلا بالغذاء الجديد ، وإن لها روحاً لا يعلو أدب عليها ، ولا يدوم أدب دونها . ولكن الأجسام عرضة للأسقام ، وآراء الناس فى الأرواح لا تخلو من الأوهام . فاللغة إذن تحتاج إلى رجل الدين حيناً ، ورجل الطب أحياناً ؛ أما إمامها فهو شاعرها ، وأما طبيبها فهو أديبها » .

ثم يضيف قائلاً : من الخطأ أن يُظن أن كل ما جاء به عرب الجزيرة إنما هو منتهى الفصاحة والبلاغة ، وأن استعاراتهم كلها جميلة فى كل مكان وزمان . ومن الوهم أن نتصور فى الماضى رب العصمة والكمال ؛ كما أنه من الوهم أن نحصر نبوغ زماننا فى إحسان لغة مضر وقحطان ، أو فى الخروج عليها . . . إن رقى اللغة فى نموها الدائم ، والنمو فى الحياة ، والحياة فى ما نألف اليوم ونكتشف غداً ، والاكتشاف فى الفكر والنظر والإرادة ، والفكر والنظر والإرادة لا تدوم عاملة بغير الحكمة ، والحكمة أن نخبر المألوف فنتجاوزه إلى سواه » .

هذه المعانى المتقدمة كلها تلخص لنا نظرة المهجريين — وأخص مهجريى الشمال — إلى اللغة العربية ، وشعورهم بالرسالة التى ينبغى عليهم تأديتها إليها . فاللغة أداة عاجزة إن لم تكن هناك أفكار جديدة ، ومعان جديدة ، وأخيلة جديدة تدأب على تأديتها . وكل لغة لا تستحق الحياة إلا بمقدار ما فيها من المعانى الحية الخالدة ، التى من دونها لا تكون القواميس والقواعد سوى عوامل للفناء الأكيد ، لأنها فاقدة لكل عناصر الحياة .

ولذلك لم يكتف المهجريون بأن يرشدوا ويوجهوا ويعلّموا ، بل انصرفوا إلى الخلق والإبداع بنشاط جبار يتغذى من مواهب فياضة . فطبقوا بذلك العمل على القول أحسن تطبيق ؛ فرأينا فى نثرهم وشعرهم كنوزاً من الحياة الدافقة التى تهب كثيراً وتبقى على فيضها ، وروحاً لم يألفها الأدب العربى ، لأنها من صميم الحياة والنفس البشرية ، ولأنها تعبير صحيح صادق عن منازع الحياة ، ومرامى الفكر الإنسانى ، يستهدف الحقيقة والجمال والحرية ؛ ووسيلتهم فى هذا هى البساطة فى الأداء ، لأن فى البساطة جمالاً لا يعرفه التقعر والغموض والتعقيد .

بهذه الروح الجديدة الجريئة ، وهذا اللقاح الجديد من المعانى والأفكار

التى خلقها المهجريون فى الأدب العربى ، انتعشت اللغة العربية ، وأصبحنا نشعر باعتزاز كبير إذ نجد لغتنا قادرة كل القدرة على الإسهام فى تراث الإنسانية الأدبى الخالد .

٤ – رسالته إلى الشرق العربى

لعلّ خلاصة معنى « الرسالة الأدبية » ، الاهتمام بالتوجيه الصحيح إلى خير السبل المؤدية إلى سعادة الحياة . فقلم الأديب هو الفأس التى تحطم وعر الطريق لئلا تعثر به أقدام أبناء الحياة ، والمشعل الذى ينير لهم هذه الطريق ليهتدوا إلى السعادة الحقة ، وليبلغوا إلى راحة القلب ، وطمأنينة الروح ، وسلامة الضمير .

ولقد كان الأدب المهجرى ، كما رأينا سابقاً ، أدب رسالة حقة ، تتناول نواحى الحياة المختلفة : الروحية منها والاجتماعية ، والإنسانية الشاملة منها والقومية المحدودة . والآن قبل أن نمضى فى بيان مدى تأديته لرسالته القومية لابد لنا من أن نتساءل : هل يجب أن تكون رسالة الأدب إلى الأمة – كل أمة – رسالة قومية صرفة ، مقيدة بحدود العاطفة والعصبية ، أم رسالة إنسانية مطلقة واسعة الآفاق ، مترامية المنازع ؟

يرى كثيرون أن هذه الأخيرة هى الرسالة الصحيحة التى يجب أن يؤديها الأدب إلى كل أمة – والأمة العربية ليست بدعاً بين الأمم – . ولكن غيرهم – وهم الأكثرون – يرون أن الأمة العربية فى حاضرها هى فى أشد الحاجة إلى أدب قومى صرف ، يعلمها كيف تقف على أقدامها قوية كريمة ، لتتبوأ مكانها تحت الشمس إلى جانب الأمم الحرة القوية ، ولو كلفها ذلك أن تلغ فى الدماء ، وتخوض فيها أقدامها طويلاً . أما نحن فإننا نعتقد بأن الشرق العربى فى حاجة إلى أدب قومى يقيله من عثاره ، ويقوده إلى الحياة الحرة ، وهو إلى جانب ذلك فى حاجة إلى أدب إنسانى ، يجعله يشعر شعوراً عميقاً بالصلة التى تربطه بكل

بنى الحياة وتربطهم به ، فتؤلف منهم جميعاً جوقة ترتل نشيد الحياة الواحدة الشاملة ، التى لا تتفرق ولا تتنابذ .

وسنقصر الآن حديثنا على رسالة الأدب المهجرى القومية . ونحن حين نتحدث عن هذه الناحية وحدها ، لابد لنا من الوقوف طويلاً عند أربعة أدباء كبار من أبرز أدباء المهجر ، هم أمين الريحانى ، والشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، والشاعر إلياس فرحات ، والشاعر إلياس طعمه ، فالأدب القومى أبرز وأكثر ما نجده عندهم ، وهو عماد أدبهم وسر قوّته .

أما الريحانى فقد جعل قلمه وسيلة لتهذيب قومه ، وفتح عيونهم على ما كانوا فيه من مذلة وعبودية ، وعلى الطرق الممكن اتباعها لنهج سبيل الحرية الصحيحة ؛ فأراهم أن ما هم عليه من تفرقة متعددة الأسباب والنواحى هى السبب الأهم فى ما عانوه من الذل .

فالطائفية ، والحزبية ، والمذهبية ، كلها أمراض تنخر فى جسم العروبة والوطن العربى ، وتساعد على إضعافه وإذلاله ؛ والسبيل الوحيد إلى نهوضه هو فى إزالة كل هذه الفروق ، والاتحاد الصحيح فى ظل لواء عربى واحد لا يميّز ديناً ولا طائفة ولا حزباً ولا جنساً فى وطنيته . وبغير هذا السبيل لا يمكن للشرق أن ينضو عنه الهوان .

وفى ذلك يقول الريحانى فى كتابه « التطرف والإصلاح » : « إخوانى أبناء وطنى ! إن أول ما يلزمنا فى هذه البلاد ... هو هذا الشعور الوطنى الخالص من شوائب المذهبيات والطائفيات كلها ، الشعور الصافى السليم ، الخالص للوطن ... علينا أن نرفع فى شئون الحياة المدنية الوطن على الدين . . . بل علينا أن نفكك الطوائف كلها لنستطيع أن نؤلف طائفة الوطن الكبرى . أجل علينا أن نسعى فى تأليف وطنية عالية شاملة ، ركنها الأول الوحدة القومية ، وأن نعزز هذه الوحدة بالأعمال لا بالأقوال . وعلينا أن نغرس هذه الفكرة فى البيت وفى المدرسة ، وأن نؤسس لها الجمعيات من النساء والرجال لتبثها فى الأمة » .

والريحانى فى وطنيته رجل عملى واقعى ، لذلك نسمعه يردّ فى كتابه « أنتم الشعراء » على دعاة « الفن للفن » ، لا « الفن لخدمة الحياة والبشر » بكلام يعطينا

أوضح صورة عن نوع إدراكه لرسالة الأديب ، فيقول : « لقد أنكرتم علينا القول : إن زينة الحياة القوة ؛ فقلتم وقد فاتكم ما شمل من كلامنا : إن فى الحياة غير القوة مما يستوجب الرعاية والإجلال : أى أن فيها للعبقريين من رقة الشعور وعذوبة الأرواح ما يتألف منه روعة الفن وطهارة الدموع ؛ وأمام تلك الرقة والعذوبة ، وعند قدمى الروعة والطهارة يجب أن نخرّ ساجدين . وأنا أقول لكم إن من ينشدون فنًّا لا وطن له يُمسون ولا فن ولا وطن لهم . القوة ، ثم القوة ، ثم القوة ! القوة العقلية العلمية ، والقوة الروحية اللاطائفية ، والقوة المادية الاقتصادية ! يوم نظفر بهذه القوى كلها نصير أمة حرة مستقلة ، عزيزة النفس ، عزيزة الجانب بدون الأجانب » .

وكما اتخذ الريحانى من قلمه وسيلة لتحرير قومه ، كذلك جعله أيضاً وسيلة لإطلاع الغرب على أحسن ما فى الأدب العربى من كنوز ، وما فى الشرق العربى من ذخائر . فقد ترجم إلى الإنكليزية لزوميات المعرى ، وألف فى تلك اللغة عدداً من الكتب التى تتحدث على العرب والعروبة والبلاد العربية ؛ فكان بذلك رسولاً حقًّا بين الشرق والغرب ؛ ينقل إلى الغرب خلاصة أدب الشرق وروحيته ، وإلى الشرق أحسن ما فى مدنية الغرب . وقد ظل يتنقل بين الشرق والغرب مبشراً برسالته الأدبية ، وبتعاليمه القومية التى تستهدف نهضة الشرق ومجده ، ووحدة العرب وعزهم . وقد طوّف فى أرجاء البلاد العربية ، ووضع فيها المؤلفات الكثيرة التى تخدم رسالته القومية ، وهى أشهر من أن تعرّف .

والذى يريد الاطلاع على توجيهات الريحانى الأدبية والاجتماعية والقومية لابد له من الاطلاع — عدا كتبه عن البلاد العربية وملوك العرب — على « الريحانيات » و« النكبات » و« التطرف والإصلاح » وغيرها ، حيث يرى أن الريحانى قد كان فى الرعيل الأول من دعاة القومية ، المبشرين برسالتها عن وعى صحيح وإيمان عميق . وقد كان قلمه البارع الحكيم يجول فى مختلف شئون الشرق العربى ، فيعالجها معالجة خبير مجرب ، ويبين وجه الرشاد والحكمة فى معالجتها . وهو فى هذه الناحية لا يجاريه أديب آخر من زملائه المهجريين .

أما الشاعر القروى فتتجلى نزعته القومية فى شعره بارزة ، بل أبرز من كل

ما طرقه فى شعره من مواضيع . وهو فى شعره القومى أكثر توفيقاً ، وأعمق تأثيراً ، وأجود شاعريةً منه فى غيره . وفى كل قطعة من حنينه وشعره الوطنى فلذة من قلب وطنى ثائر ، وشعلة من إيمان وطنى عميق ؛ مع خطابية مجلجلة فى عبارته الشعرية .

والذى يطالع شعره الوطنى يشعر بأن فى كل بيت منه جذوة متقدة تلذع قومه لذعاً ، لتدفعهم إلى نشدان الحق والحرية بكل وسيلة ممكنة . ومن ذا الذى يقرأ أبياته السبعة التى توّج بها غلاف ديوانه « الأعاصير » ، ولا يثور الدم فى عروقه وهو يقرأ :

إلهى ! ردّ ما لك من أياد ... على وطنى ، وردّ له الإيادا
خلعتَ على رُباهُ الحسْن فذًّا ... وألبست القطينَ به الحدادا
وما شرفُ الجبال بساكنيها ... وشُمّ إبائهم خُسِفت وهادا ؟
أهيب بهم فلا ألقى سميعاً ... كأننىَ المنادى والمنادَى
ألا ذوّقتهم ألمى فثاروا ؟ ... فيا ربّاه ! لست أنا البلادا !
شبول الأرز ! بات الحلم عجْزاً ... وبعض الصبر موتٌ إن تمادى
فكونوا النار تحرُق ، أو قذى فى ... عيون البُطْل إن كنتم رمادا

وأىّ عربى — من لبنان وغير لبنان — لا يحترق صدره بالثورة الملتهبة غضباً لكرامته فيهبّ ليغسل عار هوانه ، حينما يقرأ قوله :

أمُدوّنَ التاريخ ! مرحمةً ! ولا ... تذكر لهم لبنانَ فى صفحاتهِ
لا تَمْحُ رسم المجد من تاريخه ... يكفيه عيث بنيه فى آياتهِ
لا تخبر الأحفادَ أنّ جدودهُمْ ... لم يشهروا سيفاً بوجه عداتهِ

وفرحات فى المهجر الجنوبى صنو القروى ، ورفيق جهاده فى حقل الأدب القومى . وهما مارجان متقدان غيرة على العرب والعروبة والوطن العربى . فالعروبة دين كليهما قبل كل دين ، وحرية العرب ومنعتهم وقوتهم هى التى تملى عليهما أروع الأغانى . أما أعدى أعدائهما فهى الفئة التى تتعصب للأجانب على أمتها ، وتناصر القوى الأجنبية على وطنها . وفرحات هو القائل :

يقولونَ لى : صادق فلاناً فإنه ... أخو نجدة يرجى لساعة ضيق
فقلت لهم : هذا صحيحٌ وإنما ... عدوّ بلادى لن يكونَ صديقى

والقائل أيضاً :

فلو أوصى بكره العرْب ديــنٌ   لكنت إذن إمام الملحدينــــــا

وعاطفة فرحات القومية لا تعرف الحدود الهزيلة التى أقامها الأجنبى بين أقطار العروبة ليجعلها دويلات وممالك تتناحر وتتطاحن لأجل أغراضه ومصالحه . وهو مؤمن بقوة أمته وقدرتها على سحق كل طغيان أجنبي ، وفى ذلك يقول مندّداً (بغورو) الفرنسي صاحب مجزرة ميسلون :

ويا غورو ! أتحسبُ أنّ شعبــاً   طليقَ النفس يرضى بالقيـــودِ
هزئتم بالوعـــــود ، ونحن قومٌ   غداة الرّوع نهـــزأ بالوعيدِ
ستعلم أنّ ما انتُدبَت إليـــه   جنـــودك ساحق عظم الجنـــودِ
فوزّع روح نابليـــون فيهـــم   وسلّحْهم بأنيـــاب الأســودِ
فإنّ الحـــق ينجدُ تابعيــــه   بأجناد العواصف والرّعـــودِ

ولست أريد أن أجيء بنماذج أخرى من شعره الوطنى ، ولكنى أحيل القراء إلى كتابى المطول عن فرحات بعنوان « إلياس فرحات شاعر العروبة فى المهجر » المطبوع فى عمان سنة ١٩٥٦ ، ففيه التفصيل الوافى لهذا الموضوع[١] .

أما الشاعر إلياس طعمة فقد بلغ من احتدام الشعور القومى عنده أنه لم يجد فى نصرانيته ما يشبع شعوره العربى القومى ، فأعلن إسلامه ، واستبدل باسمه النصرانى اسم « أبى الفضل الوليد » ، وعُرفت بهذا الاسم دواوينه الشعرية المتعددة ، ومؤلفاته النثرية . وما كان فى حاجة إلى ذلك ، فالشعور القومى لا يحتاج إلى مثل هذا ، وقد نال القروى وفرحات مثل حظه من بعد الصيت فى شعرهما القومى ، وإن لم يكن أى منهما فى حاجة إلى تغيير دينه لهذا الغرض[٢] .

وفى ما يلى أبيات من شعره القومى الكثير الذى تضمه دواوينه المتعددة . قال فى قصيدة بعنوان : « زئير وزفير » يحن فيها إلى وطنه ، ويتألم لتحكم الأجانب

---

(١) وانظر كذلك كتاب (إلياس فرحات) لسمير قطامى .

(٢) راجت فى فترة ما أقوال عن أن القروى قد ترك النصرانية وآمن بالإسلام : ولكنه اضطرّ إلى نفى ذلك .

– الفرنسيين حينذاك – فيه ويستثير قومه على أولئك الأجانب لينالوا الحرية والاستقلال :

يا أمتى ضيعتِ كــل فضيلـة	وغـــدوتِ لا عِلمٌ ولا أعـلامُ
وإذا أضاعت أمةٌ أعـــلامهــا	وعلومها فسدت بهــا الأحكامُ
وغدت تئنُّ من الغريب ذليـــلةً	إنَّ الأجانبَ كلهم ظُــلاّمُ
هبّـوا بنى أمى وصيحوا صيحةً	يصحو العراقُ لها وتصحو الشامُ
واللهِ لا عـدلٌ ولا حرّيـــــة	حتى يجـرِّدَ بيننا الصّمصامُ
يا حبذا الحامون أرض جـدودهمْ	لولا القساورُ هانت الآجـامُ
ما حرّر الأقــوام إلا ثــورةٌ	فيها تعانقت الظبى والهـامُ

ويقول فى قصيدة أخرى عنوانها : « ذكرى الجمال والشباب » وهى من قصائد الحنين والوطنية :

أقسمتُ أن أقضى الحياةَ مجاهداً	والحقُّ لى ولتابعىَّ شعـــارُ
حتى نفوزَ به ونرفـــع رايــة	من حولهــا يُستشهد الأنصارُ
الموتُ فخرٌ فى الدفاع عن الحمى	والعيش فى دار المــذلة عارُ

وبعد فلئن وقفنا كل هذه الوقفة الطويلة عند الريحانى والقروى وفرحات وأبى الفضل الوليد ، فليس معنى هذا أن أقلام الآخرين قد جفت عليها النفثات الوطنية والقومية ؛ فللكثير من شعراء المهجر شعر قومى ، يتمثل فيه صدق الوطنية وعمقها ؛ وأود أن أشير منه إلى قصيدة لأمين مشرق بعنوان « آية الأجيال » ، وإلى الكثير من شعر أبى ماضى ، وجورج صيدح ، ومسعود سماحة ، وعقل الجر ، ونصر سمعان ، وشكر الله الجر ، وندرة حداد ، وإلياس قنصل ، وأخيه زكى قنصل ، ونسيب عريضة ، وجورج كعدى ، وفيليب لطف الله ، ونزيه سلامه ، وغيرهم . ولولا خشية الإطالة لأوردنا لكل منهم شيئاً من النماذج الشعرية الرائعة فى هذا الميدان .

ولابد لنا من أن نذكر جبران فى حديثنا على رسالة الأدب المهجرى إلى الشرق العربى ؛ فعلى الرغم من مثاليته وإنسانيته التى تتعالى على كل الحدود والفروق والعصبيات ، لم يستطع أن يتجرد من العاطفة الوطنية ، بل جرى فيها

قلمه مراراً – ولا سيا فى كتابه « العواصف » – ومن ذلك قوله تحت عنوان : « مات أهلى » : « لو ثار قومى على حكامهم الطغاة وماتوا جميعاً متمردين ، لقلت إن الموت فى سبيل الحرية لأشرف من الحياة فى ظلال الاستسلام ؛ ومن يعتنق الأبدية والسيف فى يده كان خالداً بخلود الحق » . ثم يردف قائلاً : « إن العاطفة التى تجعلك يا أخى السورى تعطى شيئاً من حياتك لمن يكاد أن يفقد حياته ، هى هى الأمر الوحيد الذى يجعلك حريًّا بنور النهار وهدوء الليل » .

وجبران فى وطنياته حادّ اللهجة ، كثير التأنيب والتعنيف . وما ذلك إلا لشدة حبه لبلاده ، ورغبته الصادقة المتحمسة فى أن يراها تنفض الذل عنها ، كما ينفض العصفور قطرات المطر عن جناحيه ، لتستقبل صباح الحرية والمجد بحنجرة صادحة ، وجناح قوىّ . ومن غضباته النارية مقاله بعنوان « يا بنى أمى » يقول فيها : « ناديتكم فى سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب ، فهببتم من مضاجعكم مذعورين ، وقبضتم على سيوفكم ورماحكم صارخين : أين العدوّ لنصرعه ؟ وعند الصباح ، وقد جاء العدو بخيله ورجله ، ناديتكم فلم تهبوا من رقادكم ، بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام . . أرواحكم تنتفض فى مقابض الكهان والمشعوذين ، وأجسادكم ترتجف بين أنياب الطغاة والسفاحين ، وبلادكم ترتعش تحت أقدام الأعداء والفاتحين ؛ فماذا ترجون من وقوفكم أمام وجه الشمس ؟ سيوفكم مغلفة بالصدأ ، ورماحكم مكسورة الحراب ، وتروسكم مغمورة بالتراب ؛ فلماذا تقفون فى ساحة الحرب والقتال ؟ ! . . أنا أكرهكم يا بنى أمى ، لأنكم تكرهون المجد والعظمة ! أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم ! » .

ومنه قوله تحت عنوان : « لكم لبنانكم ولى لبنانى » : « هل بينكم من يمثل العزم فى صخور لبنان ، أم النبل فى ارتفاعه ، أم العذوبة فى مائه ، أم العطر فى هوائه ؟ هل بينكم من يتجرأ أن يقول : إذا ما متّ تركت وطنى أفضل قليلاً مما وجدته عندما ولدت ؟ هل بينكم من يتجرأ أن يقول : لقد كانت حياتى قطرة من الدم فى عروق لبنان ، أو دمعة بين أجفانه ، أو ابتسامة على ثغره ؟ ! » . .

وأما ميخائيل نعيمه فليس ثمة من يجهل إيمانه بروحانية الشرق ، وبوجوب المحافظة عليها ، لأنها ، فى رأيه ، أفضل الوسائل لسعادة البشرية جمعاء ، ولأنها

هى الرسالة التى يحملها الشرق إلى العالم وإلى الحياة ، والتى عليه أن يؤديها فى الحاضر ، ويستمر على تأديتها فى المستقبل كما أدّاها فى الماضى بلسان أنبيائه ورسله . وهو فى هذا الرأى على نقيض تام من الريحانى القائل : «أنا الشرق عندى فلسفات وعندى أديان ، فمن يبيعنى بها طيارات ؟ ! »

ونعيمه يردّ على قول الريحانى هذا فى كتابه « البيادر » تحت عنوان : « التوأمان : الشرق والغرب » فيقول : « فاعجبوا معى لهذا الشرق – وقد أهدى إلى العالم المحبة والقناعة ، والتضامن والتآخى – يقف اليوم على مفرق طريق البصيرة والبصر ، كسير القلب . ويمينه الفارغة ممدودة نحو الغرب ، و فى يساره قائمة بأسفاره المقدسة ، وأسماء أنبيائه . ثم اسمعوه يستعطى بصوت متهدّج ، فيه الانسحاق ، وفيه المسكنة والاندحار . وماذا عساه يستعطى ؟ إنه ليستعطى طيارات ودبابات ومدمرات ، ومدافع ، وقنابل . وإنى لأسمعه يقول ومن يقايضنى قنبلة محرقة بآية منزلة ، وطيارة أو دبابة بسفر مقدس ؟ بل من يقايضنى مخترعاً واحداً بعشرة أنبياء ؟ ، ما هذا ، ما هذا ؟ أبصيرة تستجدى بصراً ؟ أشمس تستغيث بذبالة ؟ »

٥ – رسالته الاجتماعية

من الطبيعى أن يكون المجتمع البشرى حجر الزاوية فى كل عمل فنى ؛ فالإنسان ليس شيئاً منفصلاً عن مجتمعه ، ولكنه حجر فى مجموعة البناء الإنسانى ؛ وهو بصفته هذه يتفاعل حتماً مع كل من حوله : يتفاعل مع ذويه فى المنزل ، ومع رفاقه وجيرانه فى الحى ، ومع الناس فى القرية والمدينة ، ويتفاعل كذلك مع البيئة العامة فى وطنه كله ، كما يتفاعل مع أحداث العالم بأسره وتطوراته ومدنيته وحضارته .

إنه يتأثر بالنكبات الفردية والعامة ، وبالأحداث السياسية والاجتماعية فى وطنه . وكإنسان ، يتألم مع المتألمين ، ويفرح مع الفرحين ، يحس بسعادة

السعداء وبشقاء الأشقياء ؛ يشعر مع الأم بين أطفالها ، والأب فى سعيه وكدحه لتحصيل المعاش لأسرته .

وإذا كان هذا شأن الإنسان العادى فهو أحق بأن يكون شأن الأديب والفنان ، لأن الأديب لا عدّة له غير الإحساس المرهف ، والتعبير الجميل ، وهو من الإنسانية بمنزلة القائد الأمين ، والدليل الصادق ، والمرشد الحكيم . تلك هى رسالته الكبرى ، وذلك هو سبيله الأول .

ولقد تحدثنا فى ما تقدم على رسالة الأدب المهجرى الإنسانية ، ورسالته إلى اللغة العربية ، ورسالته الوطنية . وفى ما يلى نتحدث على رسالته الاجتماعية ؛ ونحن نعرف أنه حديث قد يطول ويطول إذا شئنا أن نستقصى أطرافه ، ونسترسل إليه الاسترسال اللازم ، ، ولكننا سنجتزئ بالقليل ليكون دليلاً على ما فى أدب المهجر من الصور الاجتماعية الثمينة ، ومن الغيرة الاجتماعية المخلصة .

وأول ما أود الإشارة إليه هو أن أدباء المهجر يشتركون كلهم فى أن أدبهم يهدف إلى خلق مجتمع إنسانى أفضل ، وأكثر إنسانية وتآلفاً ومحبة . وإلى خلق مجتمع عربىّ أقوى وأكثر حرية ورقيًا ؛ وإذا كانوا قد اختلفوا فى اتجاهاتهم ، فنظر فريق منهم إلى المجتمع الإنسانى كوحدة كبيرة لا تفريق فيها – كبعض جماعة الرابطة القلمية وآخرين غيرهم – ووقف الفريق الآخر عند حدود وطنهم العربى ، فإن هذا الاختلاف ليس فى الواقع سوى مظهر خارجى ، لا يجرّد الإنسان العربى من الاشتراك فى المجموعة الإنسانية الكبرى ، ولا يعزله عنها ، ولكنه يسلط عليه الأنوار ليدفع قافلة الإنسانية إلى الأخذ بيده ، وليدفعه هو إلى النهوض للسير مع القافلة .

ولئن كانت الوطنية وما يرافقها من حب للمواطنين وللوطن ، ومن نقمة على الظلم والظالمين ، والعبودية والمستعبدين ، والاستعمار والمستعمرين ؛ لئن كان كل ذلك من رسالة الأدب الاجتماعية ، فليس من شأننا الآن أن نقترب من هذه الناحية ، فقد تحدثنا عليها فى ما تقدم بما فيه الكفاية .

* * *

المعروف عن أبى ماضى أن شعره كان أغنى ما يكون بالتفاؤل ، وبالدعوة إلى

حب الحياة ، والاستهانة بما فيها من متاعب ومصاعب . وهو من هذه الناحية شاعر الابتسام والأمل . وقد دعا إلى ذلك فى عدد كبير من قصائده ، فى ديوانه الثانى – أول دواوينه المطبوعة فى المهجر – وفى « الجداول » و « الخمائل » و « تبر وتراب » ؛ ففى قصيدته « المساء » يقول :

إن التأمـــل فى الحيــا ... ة يزيــد آلامَ الحيـاهْ
فدعى السآمـــة والأسى ... واسترجعى مرحَ الفتـــاه
قد كان وجهُك فى الضحى ... مثل الضُّحى متهلـــلا
فيه البشاشةُ والبهـــــاء ... ليكن كذلك فى المســاء

وفى قصيدته « ابسمى » يقول :

ابسمى كالورد فى فجْر الصبــا ... وابسمى كالورد إن جن المساءْ
وإذا ما كفَّـــن الثلج الثرى ... وإذا مـا ستر الـغيمُ السماءْ
وتعرّى الروضُ مـن أزهــاره ... وتوارى النور فى كهف الشتاءْ
فاحلمى بالصّيف ثم ابتسمى ... تخلقى حـــولك زهراً وشذاءْ

ويقول فى قصيدته « تعالى » :

يـريـد الحبُّ أن نضحـ ... ـك فلنضحكْ مع الفجر
وأن نـركض ، فلنركض ... مع الجـدول والنهـرِ
وأن نهتـــف ، فلنهتـف ... مـع البلبــل والقُمْـرى
فمن يعـلمُ بعْـد اليـو ... م مـا يحـدث أو يجرى ؟ !

وهكذا نرى أبا ماضى يسعى لينشر العطر والنور فى الحياة ، ويشيع الابتسام والأمل فى نفوس الناس ، ويملأ المجتمع بالسعادة والخير والرضى .

وقد عالج فى شعره كثيراً من عيوب المجتمع ونقائصه ، وحنا على الأشقياء من أبنائه ، ففى قصيدته « اليتيم » يقول :

إننى كلمـــا تأملتُ طفْـــلاً ... خلْتُ أنى أرى ملاكا سويًا
قل لمن يبصر الضبابَ كثيفاً ... إنّ تحت الضّباب فجراً نقيًا
اليتيـمُ الذى يلــوحُ زريًّا ... ليس شيئاً ، لو تعلمون ، زريّا
إنه غـرسة ستُطلـع يومـاً ... ثمـراً طيباً وزهـراً جنيـّا

ربما، كان أودع الله فيه — فيلسوفاً أو شاعراً أو نبيّا
إن يك الموتُ قد مضى بأبيه — ما مضى بالشعور فيك وفيّا
إن هذا الطفلَ الصّغيرَ ملاك — كيف ترضون أن يكونَ شقيًا ؟

ويقول فى قصيدته « الفقير » :

قُلْ للغنىّ المستعزّ بماله — مهْلاً فقد أسرفتَ فى الخيلاءِ
جُبلَ الفقير أخوك من طين ومن — ماء ، ومن طين خُلقتَ وماءِ
أتضنُّ بالدّينار فى إسعافه — وتجودُ بالآلاف فى الفحشاءِ ؟
انصرْ أخاك ، فإن فعلتَ كفيته — ذلّ السؤال ومنّة البُخَلاءِ

وأما قصيدته « الطين » فأكتفى بمجرد الإشارة إليها لشهرتها ؛ وهى من أروع الشعر الاجتماعى المملوء بالحدب على الضعفاء ، والنقمة على ظلم الأقوياء . ومثلها قصيدة « كلوا واشربوا أيها الأغنياء » التهكمية . وهناك الكثير غيرها من قصائد أبى ماضي ، وكذلك من مقالاته المتعددة فى جريدته « السمير » .

وأمين الريحانى كان أدبه كله اجتماعيًّا ، وكان كله يستهدف خلق المجتمع القوى الحر ، ونشر الإخاء والمساواة والعدالة الاجتماعية . كذلك كان فى رحلاته ، وفى خطبه ومقالاته ؛ وفى ريحانياته ، وكتابه « التطرف والإصلاح » ، وكذلك فى قصصه ورواياته ، أدلة أكثر من أن يمكن إحصاؤها فى هذا المجال .

غير أننى أود أن أشير إلى شيء يسير جدًّا من غيرته الاجتماعية ؛ فعندما وقعت المجاعة الكبرى فى لبنان فى أثناء الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٦ ، هبّ أمين الريحانى يعمل بكل قواه ليجمع المال من إخوانه المهاجرين لأبناء وطنه الجياع ، فكرّس قلمه لهذا العمل الإنسانى الكبير ، واتخذ من نفسه قدوة للآخرين ، فصام يومين وقدّم ثمن طعامه للجياع فى وطنه ، ودعا المهاجرين إلى الصيام يوما واحداً ، والتبرع بثمن قوت ذلك اليوم لأولئك المواطنين الجياع ؛ وألّف لجنة من رفاق الهجرة ليجمعوا التبرعات لهذا الغرض .

ويجد القارئ كل ذلك فى كتابه « الريحانيات » – الجزء الرابع ، من الطبعة الأولى عام ١٩٢٣ و١٩٢٤ – من الصفحة ٨٣ إلى ١٢٤ .

والذى يقرأ رحلاته المتعددة يجد فيها إلى جانب الوصف الواقعى للعالم العربى ،

الغيرة الشديدة على إصلاح المجتمع العربى ، والدعوة الجاهدة إلى الثورة الاجتماعية التى تقلب الأوضاع ، وترفع المجتمع من وهدة الشقاء والجهل والجوع والعبودية إلى مراقى السعادة والعلم والرخاء والحرية .

وإليك نموذجاً من أدبه الاجتماعى الداعى إلى الثورة الاجتماعية ، بعنوان « التمدن الحديث » من « الريحانيات – الجزء الأول » :

« بشر فلاسفة الجيل الثامن عشر بالإخاء والحرية والمساواة ، ونهض تلاميذهم السياسيون فطالبوا بهذه الحقوق ، وسلّ الشعب سيفه فى أكثر ممالك أوربا تنفيذاً لمطالبه ، فحدث ما حدث من الثورات والفتن فى آخر الجيل الثامن عشر ونصف الجيل الآخر . وماذا كانت النتيجة ؟ هل تتوجت الحرية ؟ هل شملت المساواة الناس ؟ هل توارت اختلافات الأمم وتلاشت الضغائن وحزازات الصدور؟..

« تأمل هؤلاء العملة الفقراء الذين يطلبون من أصحاب المعامل زيادة أجورهم كى يستطيعوا القيام بمعاشهم ومعاش عيالهم ، فإنّ كل ذى عقل يفكر وقلب يشعر يرى صحة دعوى العملة واعتدال مطالبهم . . ولكن هل يصغى أصحاب الشركات لصوت الشعب ؟ . . .

« يقولون إن الحرية الشخصية مطلقة لكل فرد فى الحكومات الحرة المستقلة . وما جوابنا لهم إلا أن الجرائم الفظيعة التى تحدث بالعشرات كل يوم فى المدن الكبرى ليست إلا بعض نتائج تلك الحرية : فالتسميم والقتل والطلاق التى تزداد حوادثها يوماً فيوماً ، كلها من مظاهر التمدن الحديث الموهوم .

« أما الإخاء فكلمة لا معني لها فى معجمات اللغة . . إن هذا التمدن الناشئ بين الكنائس والمكاتب والملاهى والمتاحف والقصور ، والمشيد على المال والتجارة والظلم والاستئثار ، لا يولد إلا الرذيلة والجهل . . وإذا زحف جيش الجهل على معاقل تمدننا الزاهر الباهى يجعل عاليها سافلها . . وقصارى القول أن الخطر على تمدننا الكاذب هو من الداخل لا من الخارج ؛ هو من أنفسنا لا من الأعاجم » .

وقد عالج الريحانى كثيراً من المشاكل الاجتماعية ، ومن ذلك قوله فى مقال « الفقر وبنوه » :

« ان الفقر لحليف الجهل ، وأليف القذارة ، ورسول الفوضى . ولكن ما هو

سبب الفقر ؟ هى مسألة أقدم من يعقوب بن إسحق بن إبرهيم الذى خدع حماه ليكثر غنمه فيجنى من ذلك مغنماً . نعم هى مسألة قديمة ، ولكنها تظل جديدة لأنها لا تحل ما دامت الأحكام فى أيدى ذوى المآرب والأغراض الذاتية . .

« إن خيرات الأرض تكفى سكانها إذا وزعت توزيعاً عادلاً على الجميع : فالقمح الذى يزرع فى الولايات المتحدة سنويًّا يقوم بقوت سكان الأرض كافة . ولكن مع وجود هذا القدر الوافر من القمح لا يزال المتسولون والبائسون يطوفون أسواق المدن الكبرى ، وكثيراً ما يموتون جوعاً ؛ ولا يزال الملايين من الفقراء عاجزين عن ابتياع اللحوم كل يوم . .

« إذا كانت خيرات العالم غزيرة ألا يجب أن تسود القناعة والسعادة فى جميع البشر ؟ ألا يجب أن يكون الكل على مبلغ الكفاية ؟ متى يستريح الأفراد من التخمة ، ويأمن الجمهور من الجوع ؟ كم يموت من المتمولين بالانتفاخ ، وكم يموت من المساكين بالانقباض ؟ ! »

وإننى لأترك القارئ أن يعود إلى مؤلفات الريحانى ، ليرى كم كان هذا المفكر العربى العملاق حريصاً على رخاء المجتمع الإنسانى ، وعلى توفير السعادة والأمن والحرية له .

أما جبران فقد عالج الكثير من عيوب المجتمع ونقائصه فى كثير من مؤلفاته : فى المواكب ، والعواصف ، والأجنحة المتكسرة ، والأرواح المتمردة ، وعرائس المروج ، والبدائع والطرائف . غير أن كتابه « النبي » كان أوسع هذه المؤلفات التفاتاً إلى المجتمع الإنسانى عامة ؛ فقد عالج فيه كثيراً من القضايا الاجتماعية معالجة المفكر المصلح ، الراغب فى السعادة والخير للإنسانية . وقد تحدث فيه على « المحبة والأبناء ، والعطاء ، والمأكل والمشرب ، والعمل ، والفرح والترح ، والبيوت ، والثياب ، والبيع والشراء ، والجرائم والعقوبات ، والشرائع ، والحرية ، والعقل ، والهوى ، والألم ، ومعرفة النفس ، والتعليم ، والصداقة ، والكلام ، والزمان . والخير والشر ، والصلاة ، واللذة ، والجمال ، والدين ، والموت » .

كل هذا تحدث عليه جبران حديث المفكر المؤمن ، والشاعر الفنان ، والإنسان المحبّ لإخوانه من بنى البشر ، ولكنه كان يهدف منه أن يجعل الخير

يبدأ من داخل الإنسان نفسه ليعمّ بعد ذلك مجتمعه الإنسانى كله .

ولقد سار ميخائيل نعيمه على درب جبران نفسه ، وعالج شئون المجتمع الإنسانى على طريقته . ونجد ذلك فى العديد من مؤلفاته : كالمراحل ، والأوثان ، وزاد المعاد ، والبيادر ، والنور والديجور ، وكذلك فى « مرداد » الذى وضعه على غرار نبيّ جبران ، وملأ صفحاته بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبالتجرّد النفسى .

أما كتابه « الأوثان » فقد عالج فيه عدداً من الأمور التى يعبدها الناس ، وهى : المال – والقوة – والسلطان – والرأى العام – والقومية – والكلمة السوداء ، أى الكتب والصحف المطبوعة – والعلم ؛ وهو فى معالجته لها يدعوها بالأوثان ، أو الآلهة التى يخلقها الناس لأنفسهم ثم يعبدونها ويخضعون لأحكامها ، وهى أشياء تستعبد الإنسان لنفوذها وطغيانها ، وتحرمهُ راحه النفس ، وحرية الضمير إلى حد بعيد ، وتمنعه حرية العمل والتصرف .

وكذلك نقرأ فى شعر نسيب عريضة عدداً من القصائد التى تدلّ على انفعاله بأمور المجتمع ، على الرغم من إغراقه فى التأملات الروحية ؛ فقصيدته « النهاية » هى ثورة على الشعوب التى لا تسعى لحريتها ؛ و« نفس الشجاع » هى تحية للشبان المتطوعين فى حرب الحرية خلال الحرب العالمية الأولى ؛ ومثلها قصيدة « نخب الجنود » . وقصيدته « إلى فلسطين » هى تمجيد لنضال الشعب الفلسطينى ضد الانتداب والصهيونية ؛ و« ترنيمة السرير » هى أنه ملأى بالجراح على حالة لبنان ، إبان المجاعة الكبرى عام ١٩١٦ .

* * *

وفى المهجر الجنوبى نجد دواوين الشعر وصفحات الصحف تزخر بالمعالجات الاجتماعية ، إلى جانب ما تزخر به من الأدب الوجدانى والوطنى : فالشاعر زكى قنصل خصّص عدداً من قصائده لمختلف أرباب الحرف والصناعات : كالبنّاء ، والنجار والخياط ، وغيرهم . ومن ذلك قصيدته « البنّاء » التى يقول فيها :

يبنى القصور وكوخُه خربُ ساءت حياةٌ كلها تعبُ
الشوكُ يزخرُ فى مسالكها والرّيحُ ما تنفكُّ تضطربُ
لا يزدهى فى ليله قَبَسٌ إلاّ تولتْ طمْسه النوبُ

لكأنه فى الناس حاشيةٌ ... وكأنه فى الأهل مغتربُ
جلبابهُ رُقَعٌ تألفها ... غرضٌ وباعد بينها نسبُ
مشت السنين عليه فاختلطت ... أصباغه وتقارب السببُ
بالروح فى تموز وقْفَته ... يكويه من أنفاسه لهبُ
دامى الفؤاد يمضّه ألمٌ ... ذاوى الجفون يعضّه سغبُ
عرق الجهاد يزين جبْهَته ... تاجاً عَلَتْهُ هالةٌ عجَبُ
بالروح فى كانون نظرته ... يصطكّ من قرّ ويضطربُ
جمدتْ على المنقار راحته ... فكأنها من بعضه خشبُ
تلهو الرياح به ، فإن سكنتْ ... فتحت عليه ثقوبَها السحبُ
يا ربّ عفوك إن كَفَرتُ فما ... ترقى إلى ملكوتك الرِّيبُ
أوَ ضَاق عَطفُك دون حاجته ... فحبسْتَ عنه بعضَ ما يجبُ ؟
أوَ ليس يجمعه بسيده ... نسب من الصّلصال أو حسب ؟
فعلامَ تشتاق الرّيال يدٌ ... ويدٌ تراكَمَ حولها الذهبُ ؟
وعلام يُغصَبُ حقٌّ مجتهد ... ليفوز باللذات مغتصبُ ؟
يا غائصا بالطين ، لا نَصَبٌ ... يوهى عزيمته ولا وصبُ
ما أنت أوّل كادح عثرتْ ... آماله وكَبَا به الدأبُ

وللفلاح نصيبه الكبير فى شعر المهجر ، ومن ذلك قول شفيق معلوف فى ديوانه « لكل زهرة عبير » .

وفىّ الحياةَ ديونها ... كرماً ، وما وفيتْ ديونُهْ
ومضى تشقّ الأرض قبـ ... ضته بعزم لا يخونُهْ
عرق الجهاد همى على ... عينيه فانطبقتْ جفونُهْ
هلاّ نظرت جبينه ... كم فيه لؤلؤة تزينُهْ
ضنَتْ عليه بالدّمو ... ع عيونُه فبكى جبينُهْ

وفى هذا الديوان عينه لشفيق معلوف نصيب للراعى ، وللورّاق ، وللبستانى ، ولساعى البريد . إليك من ذلك قوله فى ساعى البريد — وهو أجمل ما قيل فى هذا الموضوع :

ساعى البريد ، وما ينفكّ منطلقاً   وكل بات عليه غير موصودِ
يسعى بأكداس أوراق مغلّفة   تفوح منهنّ أطياب المواعيدِ
خلف النوافذ أجفانٌ مشوَّقة   إليه تخفقُ من وجد وتسهيدِ
بدا فهزّ عقودَ الغيد مقدمُه   هزَّ النسيم لحبّات العناقيدِ
كم قبلة من فم العشاق يحملُها   على يديه ويهديها إلى الغيدِ
يا ساعياً بابتسامات توزّعها   على الشفاه بلا مَنٍّ وترديدِ
كم وجهأمّ عجوز إن برزتَ له   لم تُبقِ من أثر فيه لتجعيدِ
تُلقى إليها كتاباً إن يُصِبْ يدها   شدّته باليد بين النحر والجيدِ
كأنّ كل غلاف منك ملتحف   بابن إلى صدر تلك الأمّ مردودِ
وكم وكم رقعة كالحظ مشرقة   وهبتها كلّ كابى الحظ منكودِ
يا واهباً كلّ بشرى حين جدت بها   راحتْ تكذّب عنك الفقر بالجودِ
أَبَعْدَ بَذْلك فينا ما بذلتَ نرى   عينيك فى مأتم والناسُ فى عيدِ ؟
لو تعلم الناسُ يوماً أنها سلختْ   أيامها البيض من ليلاتك السودِ !

ويقول شفيق فى « البستانى » :

مررت به يُكبُّ على غراس   لَوَيْنَ العنْقَ للعصْف الشديدِ
فيرفعهنّ فوق الأرض كيما   ينجيهنّ من ذلّ السجودِ
بصرتُ به ينقّلُ راحتَيْه   على الأغراس من عود لعُودِ
فينزع سلخةً من كلّ غصْن   ويدفنها لتولدَ من جديدِ
يداهُ على التراب ومقلتاهُ   معلّقتان بالأفق البعيدِ

ولأخيه رياض معلوف قصيدة فى « المصدور » يقول فيها :

هو يمشى والموتُ فى خطواته   عاثر الحظ بانتظار مماتهْ
شاحباً بائساً حزيناً كئيباً   واحتضار الصدور فى بسماتهْ
ويريدُ الكلامَ والداء يأبى   ناثراً صدرَه على كلماتهْ
كلّ يوم يموتُ فيه قليلٌ   من بقايا أيامه لوفاتهْ
رئةٌ كالقفير والنحْلُ فيها   مَرَضٌ ناهشٌ بقايا حياتهْ
وفؤادٌ واهٍ يدقّ سريعاً   ونعىُ النعاة فى دقاتهْ

و « للشاعر المدنى » قيصر سليم خورى ، قصيدة جميلة فى « الفلاح » يقول فيها :

يهنيكَ فلْسكَ يا فلاحُ تكسبـــــهُ ... فى حلْبة الجد لا فى حمأة الكَذبِ
الشمسُ فوقكَ كالأتون مسعـــــرة ... فى لذْعها لك إنهاض إلى الدَّأبِ
تطالعُ الوقت فيهـا وهْىَ سافـرَةٌ ... كأنها ساعةٌ صيغَتْ من الذَّهبِ
يكاد زرعُكَ ممـــا بتَّ تنزفـــهُ ... من ماء جهْدك يستغنى عن السحبِ
لله كفكَ والمحراثُ كَمْ لهمــــا ... دَيْنٌ على الناس لن يوفى مدى الحقبِ
لم يمرحـــوا شبَعاً أو يشبعوا مَرَحاً ... لولا الذى بكَ من فقْر ومن نصَبِ
يا قاتلَ الجُوعِ كم أشبعتَ من حَكَم ... منفِّذ فيك حُكْمَ الجوع والتعبِ
لو خافَ ربَّك مَن عقُّوا لكنتَ لهُمْ ... للعَيْن كالجفْن أو للجَفْن كالهُدبِ

أما نصر سمعان فله شعر اجتماعى غير قليل ، ألقاه فى مناسبات اجتماعية ووطنية متعددة (١) ومن ذلك قصيدة له بعنوان « ملائك المنفى » قالها فى التفجع لأبناء المجاهدين ، ومنها :

يا رياحَ المنـــون كـــــونى شفيقَه ... وتحاشَىْ هصْرَ الغصُون الوريقَـهْ
أنْشَبَ الجوع فى الفراخ نيوبـــاً ... ليت تلك النيوبَ كانت سحيقَهْ
يا لطفـــل تسعى إلى مهْـده الهـا ... دى أفـــاع من الجحيم طليقَـــهْ
أجــزاءُ المــلائك الأبـرياء الـ ... زَجٌّ فى هــوّة الشقـاء العميقَهْ ؟ !
يا قفـــاراً تغلغـلَ الدّمْعُ فيهـــا ... وسقـــاها القلْب الجريحُ رحيقَهْ
يوم أصبحت للمـــلائك منْـــفى ... صرت أسْمَى من القصور الأنيقَهْ
هزّك العطـــفُ والحنـــانُ عليهم ... فتمنيتُ لـــــو خُـلقت حديقَهْ
كلّ طفلٍ على ثـــراك طريـــح ... كوكبٌ تـــرقبُ الشآمُ بريقَـــهْ
أين مَن يخبرُ النـــدى عن ذبول الـ ... زَّهْـــر فى جنـــة الحياة الوريقَهْ
يجمع الموتُ كلَّ ما تجْمعُ الـدنـ ... يـــا ويبقى عطْفُ القلوب الرّقيقَهْ
ودمُ الطفْـــل بالحنـــان خليـــق ... وحـــرامٌ عـــلى النَّدَى أن يريقَهْ

---

(١) انظر (ديوان نصر سمعان) الذى نشرته (دار المراحل) فى البرازيل بعد وفاة الشاعر عام ١٩٧٢.

وللمهجريين نظرات اجتماعية عامة نظمها الشعراء منهم فى أبيات قصار متفرقات فجاء بعضها بشكل مقطوعات قصيرة ، وبعضها بشكل رباعيات شعرية . ومن ذلك قول حسنى غراب فى « البخيل » :

يقـولُ لىَ البخيلُ وقد رآنى ... أجودُ ببعض ما ملكتْ يدايا :
ألم تحسبْ ليوم غد حساباً ... ويوم غد محوطٌ بالرّزايا ؟ !
فقلت : صدقتَ واسترعيتَ سمْعاً ... لوَ انكَ ناصحٌ بشرًا سوايا
أتنهـانى عن المعروف خوفاً ... على مـال تبـدّدهُ العَطـايا
وحولى من ضَحايا البؤس ناس ... تذوبُ لفرْط شقوتِهمْ حشايـا
أكنتَ تلجُّ فى عذلى ولومى ... لوانك بعض هاتيك الضّحايا ؟ !

وقد اشتهر فرحات برباعياته ، وأغلب هذه الرباعيات فى شئون اجتماعية مختلفة . ومن رباعياته قوله فى « العدالة » :

معنى العدالة روحٌ طار مبتعـداً ... واللفظُ جسمٌ طواه الناس فى الكتُب
يشكو الضّعيفُ القوىّ المستبدَّ وإنْ ... يَقْو استبدَّ ، وما فى الأمر من عجَبِ
فالخيرُ فى البعض بالتهذيب مكتسَبٌ ... والشرُّ فى الكلّ طبْعٌ غير مكتسبِ
لم يخلـق الله أنيـاباً محـدّدةً ... للمرء ، فاعتاضَ عنها أنْصُل القضُبِ

وقوله فى « الرقص » :

للغرب فى الشرق عاداتٌ مقدّمة ... كانت وما برحَتْ أولى بتأخيرِ
لا تتبعوها ، فكم من زهرة حسنتْ ... فى الناظرين وساءتْ فى المناخيرِ
يا أيها الناسُ إنْ كانتْ ضمائركم ... تأبى الخداعَ وما ترضى بتسخيرِ
قولوا لكلّ أب فى الشرق محترم : ... إنّ المراقصَ أبوابُ المـواخيرِ

وفى « الطمع » :

المرءُ شرُّ سبـاع الـبرِّ قاطبـةً ... خبْثاً ، وشرُّ تنانين البحار معـَا
قولوا عن الذئب ماشئتم فسامِعُكمْ ... بمثل شرّ ذئاب الناس ما سمعـَا
الذئبُ يتركُ شيئـاً مـن فريستـه ... للجائعينَ من الذّؤبان إن شبعَـا
والمرءُ وهْوَ يداوى البطْن من بشم ... يسعى ليسلبَ طاوى البطن ما جمعا

وفى « الخمول والقعود عن السعى » :

صلىّ الجهــولُ إلى البارى ليرزقَــهُ قوتاً ، ونامَ ، فعاش العمْرَ جوْعانا
ولو سعَى فى سبيل القوت مجتهــداً لكــان من أمْــره غيرُ الذى كانا
ليس العــرائنُ للآســاد رازقــة كبشــاً ، وقد يرزق التجوال قطعانا
والحظّ يخدمُ بعضَ الناس عن عَمَهٍ حينــاً ، ويخذلُ كل الناس أحيانا

وهكذا يمضى فرحات فى نظراته الاجتماعية بمثل هذه الرباعيات القصيرة الخفيفة الملأى بالحكمة والنظر الصائب .

وقد فعل إلياس قنصل مثل ذلك ، فنظم عدداً كبيراً من الرباعيات فى شئون الحياة والمجتمع المختلفة . وفى ما يلى بعض هذه الرباعيات :

١ – إن كان ضوء الحقّ نورك وحْده فجليلُ جهــدكَ حسرةٌ وهباءُ
كم من عباقــرة خَبا إصلاحهم لم يَخْبُ لولا أنهم ضعفاءُ
فاتركْ زمــانك لا تلمْهُ فإنما أخـــلاقُنا وخلالُنــا الخرقاءُ
كفُّ القوى لصفعةٍ وتحيــةٍ أما الضّعيفُ فكفهُ استْعطاءُ !

* * *

٢ – كن قويًّا لتجعل الحقَّ فرضاً يتـــولى بقسْطه الأحكامـــا
ظالمٌ يفتحُ النواظــرَ خــيرٌ من رحـــيم يُغيثُ من يتعامى
إنَّ حقَّ الضّعيف حقٌّ ضعيف عَصَرَ الداءُ لحْمَــهُ والعظاما
أسْخفُ الناس ناعمٌ بخمول يتمنَّــى من القوىّ احْتراما

* * *

٣ – خلّوا التحسر والبــكاءَ وعالجُوا أمراضَ أنفسكم بلا إشفاقِ
فَشَلُ المقصّر إن عــزاهُ لغيره فشلٌ يلوّثه طــلاءُ نفـــاقِ
إنا خسرنا « القدْس » وهْيَ وديعة فى عهدنا من سؤدد الخلاقِ
ما كانَ من وهَن السلاح ضياعها بل من شيوع الذلّ فى الأخلاقِ

* * *

وهكذا نرى أن الأدب المهجرى لم يبتعد عن النظر فى شؤون المجتمع الإنسانى ، والمجتمع العربى ؛ ولم يتهرّب من معالجة الواقع ، بل عمل أصحابه جهدهم ليسهموا فى خدمة الإنسان والإنسانية عن طريق محاربة الضعف والخمول والظلم الاجتماعى ، والتبشير بالخير والحرية والسعادة وسائر الفضائل الاجتماعية . ولم نورد ههنا إلا الشىء القليل ، ولكنه فى رأينا يفتح العيون على ما فى أدب المهجريين من الواقعية الاجتماعية ، ومن النظر الصائب والرأى السديد فى كل شأن من شئون الحياة والمجتمع .

الفصل السابع

الأمهات والبنون فى أدب المهجر

١ – الأمهات

فى مطالعاتى لبعض كتب الأدب الإيطالى وصحفه كثيراً ما استوقفتنى قطع روائع – نثرية وشعرية – من أدب الأمومة ، ومن أدب الطفولة . وأذكر أن أستاذ اللغة الإيطالية أعطانا مرة فى درس المحفوظات قصيدة للشاعر إدموندو دى أميشيس (Edmondo de Amicis) هذه ترجمتها :

« إن الزمان لا يقوى دائماً على محو الجمال
ولا تذبله الدموع والأحزان
فإن لأمّى من العمر ستين عاماً
وكلما ازددت تحديقاً فى وجهها ازدادت فى عينىّ بهاء

* * *

كل حركة ، أو نظرة ، أو ابتسامة ، أو عمل منها
تلامس أعماق قلبى بعذوبة وحلاوة
فليتنى كنت رسّاماً
لأقف حياتى كلها على رسم صورتها

* * *

أتمنى أن أصوّرها حينما تحنى إلىّ وجهها
لكى أقبّل ضفيرتها البيضاء
أو حينما تكون مريضة أو تعبة
وتخفى عنى ألمها بابتسامة حنون

* * *

لو كانت السماء تحقق لى أمنية
لالتمست من الرسام الأوربينى العظيم « رفائيل »
أن يعيرنى ريشته الإلهية
لكى أتوّج بالمجد جبينها البهى

* * *

وددت لو أستطيع أن أستبدل حياة بحياة :
فأهب أمّى شبابى وقوتى
لأرى نفسى شيخاً هرماً
وأراها من تضحيتى فى عنفوان الشباب » .

إن مثل هذه القطع العاطفية الجميلة تجعل النفس تخشع أمام عظمة الأمهات ، وتمتلئ بمعانى الجمال والحنان واللطف والبهجة . ولذلك كثيراً ما بحثت فى الأدب العربى عن مثل هذا الشعر الذى يبعثه حب الأم ، ويوحى به جمال الطفولة وبراءتها . ومن المؤسف أن أذكر أن هاتين الناحيتين ضعيفتا الحظ فى الأدب العربى ، بمقدار ما هما كبيرتا الحظ فى الآداب الأجنبية .

وفى دراساتى للشعر المهجرى بحثت عن حظ الأمهات وحظ الأبناء ، فوقعت على أشياء منه فيها الكثير من الجمال ، والحنان ، واللطف ، والرقة ؛ ولعل أشهر من عنى بشعر الأمومة من شعراء المهجر هو الشاعر القروى رشيد سليم الخورى ، فله فى أمه عدة قصائد ، كلها تعرب عن تعلقه الشديد بأمه ، وتقديسه لها ، وخشوعه العميق أمام مشاعر الأم ورسالتها الشاقة فى الحياة .

من قصائد القروى فى الأم قصيدة طويلة يروى فيها أسطورة ابتدعها خياله فى جلسة له إلى جانب أمه ، أطال فيها التحديق بعينيها وتقاطيع وجهها ، فكأنما جعله ذلك التحديق يتغلغل إلى أعماق نفسها ، فيختبر مشاعر الأمومة المقدسة التى تعتلج فيها . وفى تلك القصيدة يروى أن شاعراً قد مات فحملته الملائكة إلى السماء ، فرقّ له الخالق العظيم وهيأ له مكاناً فى حضن إبراهيم أبى الأنبياء ولكن الشاعر لم يهدأ له بال ولم ترقأ له دمعة . فنقله الله إلى حضنه هو نفسه ، فلم يقنع ولم تهدأ دموعه . فسأله الله عما به فأجابه أنه يتمنى لو نقله الله إلى حضن أمه ،

لأنه أحنى عليه من كل حضن آخر . فتعجب الخالق من هذا الطلب ، وأدهشه أن يرى مخلوقاً غريباً يفضّل على أحضانه الإلهية حضن امرأة على الأرض . وصمّم على أن يختبر بنفسه حضن الأم .

ويختم الشاعر قصيدته بالبيت التالى :

وكانت ليلةٌ ، وإذا صبيٌّ صغيرٌ نائمٌ فى حضْن مريمْ

وقد عبّر الشاعر بهذا البيت أروع تعبير عن عقيدة المسيحيين بألوهية المسيح ، كما استطاع بالقصيدة كلها أن يرسم أروع صورة وأجلّها لقداسة الأم وعظم مكانتها . ولكنّ المؤسف جدًّا أن القصيدة ، على سموّ فكرتها وروعتها ، نثرية ركيكة فى عبارتها ، وليس من نسب بينها وبين الجيّد من شعر القروى .

وقبل أن تنتقل أمه فى عام ١٩٢٤ من لبنان إلى البرازيل ، حيث كان يقيم ، كانت قصائد حنينه تطفح باللهفة إلى رؤيتها بعد غيابه الطويل عنها .

ومن ذلك قصيدة له بعنوان « إلى القمر » ، يناجى فيها القمر قائلاً :

فإن شِمْتَ أمّيَ عند المغيبِ تُوَجِّهُ للبحر عنّى السّؤالا
تؤمّ الموانىَ بعدىَ تبغى بمدْمَعِها – لا بهنّ – اغتسالا
وتنظر عنّىَ تلك الرمال فتبكى وتلثم عنّى الرِّمالا
فقبّلْ بنوركَ ذاكَ الجبينَ ليزدادَ نورُك منه جَلالا

ويقول فى قصيدة حنين أخرى عنوانها « تحية مغترب » ، ذاكراً أمه وإخوته البعيدين عنه فى أرض الوطن :

سلامٌ إلى حيثُ غادرتُ روحى بلبنان سابحةً هائمه
أحنّ إليه وأطواده تزمجرُ قاعدةً قائمه
إلى إخوةٍ كفراخ القطَا وأمٍّ على أمرهمْ قائمه
إذا عبس الدهرُ فى وجهها تظلّ لهم أبداً باسمَه
فيا ربّ رفْقاً بتلك الفراخ وأبقِ لهمْ أمّهمْ سالمَه

وفى قصيدة له بعنوان « أمى » يقول :

ولو مُلِئَتْ لىَ الجاماتُ صبْرا ولو جُرِّعتُ حلْوَ العيش مُرّا

فـفى شفتىَ ـ ينبـوعٌ عجيبٌ　　يحوّل لى كـؤوس الخلِّ خمْرا
فيسكرنى ، وذلك صوتُ أُمّى

ولو هجمتْ على قلبى البَـلايا　　وهـدّت سورَ آمالى الرزايا
فـإنَّ بباب فردوسى مــلاكاً　　يسلّ السيفَ فى وجـه المنـايا
فيحرسنى ، وذلك طيف أمّى

وهذه أبيات من قصيدة أخرى :

علّقتَ فـوق سريرى رسمَ وَالدتى　　تعـويذةً لىَ من أشباح أتْـراحِ
فإن تبدَّى على بلّـوره غبَشٌ　　كما يغشّى دخانٌ وجْهَ مصباحِ
وَكَلْتُ أطرافَ منديلى به فجَلا　　وشفّ عن باسمٍ كالفجر وضّاحِ
ورحتُ أغمض أجفانى وأفتحُها　　على رضَى الأمّ إمسائى وإصباحى

وليس هذا كل ما نظمه الرشيد من شعر فى الأم ، فله عدّة قصائد أخرى يذكر فيها أمه ، ويعبّر عن تقديسه العميق لها . ولكنها حين توفيت عام ١٩٥٤ لم يستطع القروى أن يرثيها وحدها ، إذ كانت مأساة فلسطين تملأ أفق نفسه ، فأراد أن يجعل رثاءها رثاء للشعب الذى تشرّد وتعذّب ، فقال :

كفى الميتَ منا أن يحسّ له فقْـدُ　　أبَعْدَ هلاك الجمْع يفتقدُ الفَرْدُ ؟
أبعدَ فلسطينٍ ينـاحُ على فتًى　　وهل بقيتْ فى مقلةٍ دمعةٌ بَعْدُ ؟
بـكائى على المليـون أنضبَ أدمعى　　فما أنا إلاّ النار والحجرُ الصَّلْدُ

ثم يذكر أمّه فى القسم الأخير فيقول :

ألا دمعةٌ من « لاجئ » أستمـدّها　　فأبكىَ بالبحر الذى جَزْرُه مـدٌّ
وأندب أمًّا لم يجـدْ مثلَ حبّهـا　　وحبّى لها ، لا الوالداتُ ولا الولْدُ

ولكن المؤسف أن العاطفة فى هذه القصيدة جاءت فاترة ، خالية من الحرارة العاطفية ، كما جاءت باردة العبارة .

والأم فى الشعر المهجرى رفيقة الحنين إلى الوطن ؛ فشعراء المهجر يحنّون إلى أوطانهم حنيناً كله شوق ولهفة ، وفى حنينهم يتذكرون الأهل والأحباب ، وذكريات الهوى والشباب . وأبرز ما يذكرونه ويحنّون إليه أمهاتهم . ومن ذلك

قول أمين مشرق من قصيدة له فى الحنين ، نظمها إبّان المجاعة الكبرى فى لبنان على عهد جمال السفّاح :

يا نسمةَ الصّبْح لامسيها — وبَرّدِى قلبىَ الحزينْ
يا نسمةَ الصّبْح قبّليها — فى الخدِّ ، عنى ، وفى الجبينْ
أمّاهُ ! بالله ما دهاكِ — وما دهى إخْوتى الصّغارْ
هل أوقعتْهمْ يدُ الهلاكِ — ما بين نارٍ وبين عارْ ؟
وهل طغَى فيكمُ الأعادى — وطاردُوكم إلى البوادى
وحْولَكم خيّمَ السّكونُ — وأُغمضتْ فى الدُّجى عُيونُ
ومرّ فى بالكمْ أمينُ ؟ — أماه ردّى ، أنا أمينُ !

ولشفيق المعلوف فى شعر الحنين قصيدة ختم بها ديوانه « نداء المجاذيف » وقد قال فى المقطع الأخير منها ، وهو يمنّى النفس بالعودة إلى الوطن :

إذ ذاك آلامى وذكراها — تطوى على جُرْحى جناحَيْها
لأن أمّى حين ألقاها — إن طوّقتنى بذراعَيْها
لقيتُ فى بؤبؤ عينيها — ألذّ أيّامى وأحلاها

ويصف شعور الأم فى شوقها إلى ابنها المغترب ، فى قصيدة من ديوانه « لكل زهرة عبير » ، فيقول :

شراعٌ مدّ فوقَ الموج عنْقا — وراح يرودُ خلْفَ الأفق أفقا
يُقل فتى تبدّى الشط جهما — له فأشاحَ عنه الوجه طَلْقا
وغادرَ عند صخر الشطّ أمّا — تذوبُ إليه تحناناً وشوقا
فما نضبتْ لمقلتها دموعٌ — كأنَّ لعينها فى البحر عرْقا
تُرى هل آبَ من سفرٍ شراعٌ — ولم تشبعه تقبيلاً ونشْقا
وهل أشفى على الترْحال إلاّ — رأيت فماً على الكتان ملْقى
إلى أذن الشراع يبثّ شيئاً — ويعهد للرياح بما تبقّى

وبهذا المعنى نفسه يقول الشاعر إلياس فرحات من قصيدة له بعنوان « يا أمّى » يرثى بها أمّه :

أنفقت عمركِ ترقبين رجوعنا — وتجوسُ كلّ سفينةٍ عيناكِ

ما مرّت النسماتُ بي عند الضّحى | إلاّ عرفتُ بطيبها رَيّاكِ
والبدرُ لم يَظهرْ لعيني مرّةً | إلاّ قرأتُ بوجهه نجواكِ
وهواتفُ الروض الطروبة ماشدَتْ | إلا سمعتُ بشدْوها شكواكِ
أشْقَى النساء على الثرى أمٌّ قضَت | أيامها في وحدة النّساكِ
ترنو إلى الأفقِ البعيدِ بمقلةٍ | تبغي اخْتراقَ دوامس الأحلاكِ
وتسائلُ الأقمارَ : أين محلّهمْ | ومتى يكونُ من الإسار فكاكي؟
ركبوا الخضمَّ إلى النّضار فليتني | ألقيتُ نفسي فيه للأسماكِ
وقضتْ ملوّعة الفؤاد وعينُها | تجتالُ بين الباب والشبّاكِ
أمّاه ! يا فخرَ البنين ! تحيّة | منّا عليك لها شذا ذكراكِ
حسب المهاجر لوعةً أنَّ الأسى | يقضي عليه ولا يرى مثواكِ !

وللشاعر شكر الله الجر قصيدة طويلة ذات مائة وثمانية أبيات يرثي بها والدته ؛ وهي من الشعر الذي يتفجر رقة ولوعة وحبًّا ، نقتطف منها الأبيات التالية :

أمّاهُ إنْ غابتْ ملامحُك الرضيّة في السحابِ
سيظلّ من صلوات أمْسك ما يقيني في الصعابِ
ويظلّ من أضواء حبّكِ ما يضيء دجَى اغترابي

* * *

ولكم أحسّ بأنَّ قلبك حولَ قلبي خافقُ
وبأنّ طيفَكِ حيث سرْت مرافقٌ ومعانقُ
متحدّياً حتى الفناء فلم تعقْهُ عوائقُ

وللشاعر عقل الجرّ – أخي شكر الله الجرّ – قصيدة رائعة بعنوان « أمي » تفيض حناناً ورقة وجمالاً ، نقتطف منها ما يلي :

ذكرتُ ، ولكن كحلْم الكَرى | أموراً تقضّت زمانَ الصِّغَرْ
غداةَ أدبُّ دبيبَ النّمال | وحولي تدبُّ ظروفُ القدَرْ
أتعتعُ لا مفْصحاً كلمة | فتحسب أمّي كلامي دُرَرْ
وأبكي فيضجرُ بي والدي | وليس يلمّ بأمي الضَّجَرْ

فتلهب خـــدّىَّ من لثْمهـــا وتمسحُ من آدمعى ما انْحَدَرْ

* * *

ويوم مرضتُ فجنّت وراحَتْ تـرودُ الكنائسَ قبل السَّحَرْ
تـــودّ لـوَانَّ الفـدَى ممكنٌ فتفـدى حيـــاتى بنور البصَرْ
وتخلع ، إن تستطعْ ، عمْـرَها علىّ لآمن بطْش القَدَرْ
أئنُّ فتشعرُ فى صـــــدرها كأنَّ أنيـــنىَ وخْـــزُ الإبَرْ

* * *

ودارَ الزّمـــــانُ بأحــــداثه ومـرّ على عِقْدنا فانْتَثَرْ
وجـــرّد أمّى منّى كمـــــا تجرّد كفُّ الخريفِ الشجَرْ
ورحتُ أخوضُ غمـــارَ الحياة ودون الحيـــاةِ زحـــام البشَرْ
فأعـــثر بالمكْرِ والإحتيـــال وأمنَى على عِفّتى بالضَّرَرْ
فأيقظَ فى النفس هذا القنوطُ (م) ادّكارىَ أمّى وعهداً عـبَرْ
إذا مـا تمنى رجوعَ الشبـــاب أناسٌ ، تمنيتُ عودَ الصِّغَرْ

ولم يقتصر ما قاله المهجريون فى الأمهات على الشعر وحده ، فإن فى نثرهم أيضاً نماذج رائعة من أدب الأمومة ، نختار منها لجبران من « الأجنحة المتكسرة » قوله :

« إن أعذب ما تحدّثه الشفاه البشرية هو لفظة « الأم » ، وأجمل مناداة هى « يا أمى » . كلمة صغيرة كبيرة ، مملوءة بالأمل والحب والانعطاف ، وكل ما فى القلب البشرى من الرقة والحلاوة والعذوبة .

« الأم هى كل شىء فى هذه الحياة : هى التعزية فى الحزن ، والرجاء فى اليأس ، والقوة فى الضعف . هى ينبوع الحنو والرأفة والشفقة والغفران ، فالذى يفقد أمّه يفقد صدراً يسند إليه رأسه ، ويداً تباركه ، وعيناً تحرسه .

« كل شىء فى الطبيعة يرمز ويتكلم عن الأمومة : فالشمس هى أم هذه الأرض ترضعها حرارتها ، وتحضنها بنورها ، ولا تغادرها عند المساء إلا بعد أن تنوّمها على نغمة أمواج البحر ، وترنيمة العصافير والسواقى . وهذه الأرض هى أمّ للأشجار والأزهار ، تلدها وترضعها ثم تفطمها . والأشجار والأزهار تصير بدورها

أمهات حنونات للأثمار الشهية والبذور الحية . وأمّ كل شيء فى الكيان هى الروح الكلية الأزلية الأبدية ، المملوءة بالجمال والمحبة » .

ويقول ميخائيل نعيمه فى رثاء أمه ، بعنوان « قلوب الوالدات » :

« كل القلوب عجيب ورائع وغريب ، ولكن أعجبها وأروعها وأغربها من غير شك قلوب الوالدات ، فما إن يزحل ولد عن قلب والدة حتى تصبح الوالدة ولها قلبان وجسدان وحياتان . وتتعدد المواليد فإذا الوالدة ذات قلوب وأجساد وحيوات عدة ، فكأنها شجرة التين الهندى ، التى ما إن يتدلى غصن من أغصانها إلى الأرض فيلمس التراب حتى يتخذ له جذوراً ، وينمو شجرة مستقلة فى الظاهر بساقها وفروعها وأغصانها عن ساق أمها وفروعها وأغصانها ، أما فى الواقع فهى متصلة بها أوثق اتصال .

« . . . لهف قلبى على الوالدات ! فهنّ يعشن أعماراً عدة فى عمر واحد !

« إن الوالدات لسن الينابيع التى منها تتفجر الحياة ، ولكنهن الآنية المقدسة المعدة لاقتبال الحياة واحتضانها . . وللوالدات المجد فى أن يكنَّ من الإنسانية طليعتها المباركة فى طريق نكران الذات .

« ألا رفقاً بالوالدات ، حتى اللواتى يظهرن للناس ولأولادهنّ كما لو كنّ غير صالحات . أفما كفاهنّ صلاحاً أن تختارهن الحياة آنية صالحة للحياة ؟ !

أىْ ، رأفةً ثم رأفة بقلوب الوالدات ! »

٢ – البنون

إذا كان البنون زينة الحياة الدنيا ، وسلوة الوالدين ومجلى سعادتهم ، فالشعر الذى يوحى به البنون إلى والديهم ليس سوى مجلى من مجالى الحب والحنان اللذين يحسهما الوالدون نحو أبنائهم ، والآمال التى يبنونها لمستقبلهم .

وإذا كانت الطفولة أعذب فترة فى الحياة ، والأطفال أجمل ما يمنح الحياة البهجة والحيوية والسعادة ، فإن الشعر الذى يستوحى الطفولة ومرحها وعبثها

وسذاجتها لابد أن يجيء حلواً مثلها ، لأنه شعر الإحساس الصادق ، والتجربة الحقيقية .

وفى شعر المهجر غير قليل من شعر الطفولة والأطفال ، وكله من الشعر الرفيع فى أحاسيسه ، الناعم فى صياغته ، والمبدع فى تصوراته وخيالاته ، سواء أكان فرحاً وغبطة ، أم ألماً وإشفاقاً . وفى ما يلى نستعرض طائفة من شعراء المهجر الذين نظموا الشعر فى أبنائهم . ونبدأ بالشاعر جورج صيدح ، صاحب « النوافل » و « نبضات » .

لجورج صيدح ابنة وحيدة اسمها جاكلين ، كانت سلوة حياة أبويها . وقد تزوجت وأنجبت له أحفاداً زادوا فى بهجة حياته . وفى صغرها اضطرت مرة إلى دخول المستشفى لتجرى لها عملية جراحية ، فكاد قلب أبيها يتمزق عليها ألماً وهى بين يدى الجراح يعمل فيها آلاته الحادة . فنظم قلقه وخشيته وألمه قصيدة من أروع ما تجود به العاطفة الصادقة الحارة ، فقال :

رفقاً بها يا مبضعَ الجـرّاحِ ... شرّحتَ قلبَ الوالد الملتـاحِ
والله لو أطلقتُ روحى لارتمت ... تحت النصال تصدّها بجراحى
ماذا جنتْ وهى الفطيمةُ فى الرّبى ... حتى تسامَ خثارةَ الأقداح
بالأمس مدّتْ عنقَها من وكْنِها ... واليوم تشهدُ مديةَ الذبّـاح !
الياسمين الغضُّ فى أكمامـهِ ... غُبن النَّضارة أخْذُه بالرّاحِ
أنا لا أخدّشه بغير نواظرى ... وبغير شم عبيره الفوّاحِ
مالى أراهُ على الخِوان ممدَّداً ... وأكادُ ألثم أنملَ الجرّاحِ ؟
ويحى ! دفعتُ إلى المشارط فلْذةً ... كنت الضّنين بها على الأرباحِ
قالوا : غلوتَ بحبها ! فأجبتهم : ... ويل الشجىّ من الخلىّ اللاحى !
النوحُ إن يَثقُلْ على أسمـاعكمْ ... صلّوا لأجل نجاتها وصداحى
هى فرحةٌ للوالدين وحيـدةٌ ... يتآسيـان بهـا على الأتراحِ
إنّ الذى أشفى على خوض الدجى ... مثلى ، ليقدرُ قيمةَ المصباحِ
آمنتُ فى علم الطبيب ، وأنّ فى ... جرح الجسوم سلامةَ الأرواحِ
ربّاه ! سدّدْ كفَّه وسـلاحَه ... إنى طرحتُ على يديه سلاحى

وليس من السهل أن نعلّق بشيء على مثل هذا الشعر الذى ينطق كل بيت منه

بألف معنى جميل حار ، ملىء بالصدق ، وعمق الإحساس .

ولقد تزوجت وحيدة الشاعر ، وأنجبت طفلها الأول فدعاه « جورج » ، على اسمه ؛ ولما أتم الحول الأول نظم فيه قصيدة طويلة قال فيها :

نجـــواك نثرةُ حلْوى وقطـــرةٌ من زلالِ
يا فـــرحتى إذ تناغى على البساطِ حيالِى
حـــتى أمطّيك ظهْرى فى غفلةٍ من عيـــالى
أحبـــو وأرهفُ سمْعى كاللصِّ عنـــد انسلالِ
كأنّـــنى حـــزتُ كنْزاً مخبّـــأً فى رحـــالى
حملى له حظٌّ غنًى حمْلَ السنين الثّقالِ
بنىَّ ، يا روحَ روحى ويا خيـــالَ خيالى
يا وصلةً بين أمسى وحاضِرى ومـــآلى
أنتَ الربيـــعُ المرجَّى لدوحـــةٍ فى انحلالِ
تـــزكو غـــداً فتزكى فضل الجذوعِ الأوالى
حوّطتُ باسْمِك إسْمى من عـاديات الزّوالِ
يا ربّ أطْلِقْ سراحى رأت عُيونى مثـــالى

أما الشاعر ندرة حداد فيحدثنا عن مشاعره الرقيقة وهو يرى طفليه يهجعان بعد أمسية أزعجا بها البيت والجيران بلهوهما الصاخب المرح ، فيقول :

والله مـــا مُلْكُ سليمـــانٍ قِدْماً ، وما فى الكون من مالِ
عندى بأشْهَى مع حـرمانى من حسْن هذا المنظر الغـــالى

ثم ارتفع الشاعر بقلبه إلى خالقه ، ليناجيه بهذه الصلاة ، فيقول :

لم يبـــقَ لى إلا الصّـــغيران تعـــزية فى عمرىَ الآتى
إن عافنى فى الشيب خلاّنى كانا رجائى فى الملمّاتِ

* * *

فاجعلْهما غصْنين ، إن أثمـــرا فليثمرا فى الكون ما ينفـــعُ

وليكتبا فى سِفْره أسْطــــرا   تبقى مع الباقى الذى يُجْمَع

* * *

واجعلْهُما نــوراً به أهتـــدى   إن نفد الزيتُ وناسَ السِّراجْ
وقــوّة تحملنى فى غـــدى   إن ضعف الجسْمُ وخاب العلاجْ

* * *

حتى إذا ما انصرمَتْ مدّتى   وأُطلقتْ نفسى مــن الأسْر
حــلا ملاكين على تربــتى   وأنْعَشــا روحىَ فى القَــبْرْ

إننا نلمس فى هذه القصيدة شيئاً من بساطة الصياغة الشعرية ، ولكننا لا نملك إلا الإحساس بجمال العاطفة التى يعبر عنها الشاعر ، ورقتها ، وبصدق الانفعال الذى يستوحى منه القول .

وهذا الشاعر إلياس فرحات يستقبل ابنته البكر « ليلى » بقصيدة يقول فيها :

هذى الرياضُ منابتُ الزّهْر   تلك البحــارُ مصادرُ الدر
ذاك الفضاءُ نجومُه تجرى

بالله يا بنتى — من أيها أنتِ ؟   فى أيهــا كنتِ ؟
لا تحزنى لأبيك إن جَهــلا   خلّى البكاءَ وحالفى الجذَالا
ما أنت من هذا التراب ، ولا   تلك الميــاه وذلك الجـلَد
بل أنت من روحى ومن جسَدى

وأما ابنته « سعاد » فإنه ما كاد يستقبلها قادمة إلى الحياة ، حتى ودّعها راحلة إلى الأبدية ، فقال حين رآها تفارق الحياة :

يهنيك نومُك يا سعادُ كأنه   نومُ الرضيع على ذراع المرْضع
يهنيك يا ولدى السكونُ محرّكاً   بجلال هيبتــه سواكنَ أدمعى
كم قبلةٍ تهفو إلى شفتىَّ من   قلبى الحزين الواله المتفجّـع
حتى إذا وجدت سريرَك خاليــاً   رجعتْ فصارتْ جمرةً فى أضلعى

وتزوجت ابنته ليلى ، وجاءت مرة تزوره ومعها بناتها الصغيرات ، فملأن البيت بهجة وحبورا ؛ فلما عدن من عنده أحس بالوحشة لخلو بيته منهن ، فقال فى ذلك من قصيدة بعنوان « حفيداتى » :

نأى الأحبابُ عن بيتى فبيتى بعـدهُمْ قَفْرُ
وعينى من شخوصِهمُ إذا ما استيقظتْ صفرٌ
فـلا عـين تراعينى ولا يفترُّ لى ثغْـرُ

* * *

وفى دُنيـا النّـوى وادٍ خيـالى فوقَهُ جسْرُ
أسيرُ عليـه يحدُونى فؤادٌ مـا لـه صـبْرُ
فألقاهـنَّ فى وهْمى فيا وهْمى لك الشكرُ
وألثمهـنّ ظمآنـا فيحلو فى فمى المـرُّ
فراشاتٌ عـلى شبى تحومُ وكلها طهْرٌ

وهذا رياض المعلوف ، أخو الشاعرين فوزى وشفيق معلوف ، المقيم الآن فى لبنان ، يخاطب طفلتيه « نجوى – وحياة » خطاباً كله عذوبة ورقة ، فيقول فى مقطوعة قصيرة :

أعـزٌّ عـلىَّ من المقلتيْن حيـاةٌ بعينٍ ونجوى بعَيْن
فإنّ الصّغارَ نعيمُ الحيـاة فحمـداً لـربّى عـلى نعمتَيْن
وأصبحتُ مثل فراش الرّياض يـرفّ جناحى على وردتَيْن
أعـزٌّ عـلىّ من المقلتيْن حيـاةٌ بعين ونجوى بعيْن

ولكن هذه المقطوعة القصيرة ألطف ما تكون حين كانت تلقيها الطفلتان أنفسهما بلثغة الطفولة البريئة ، التى تتحول فيها السين ثاء ، والراء لاما ، والجيم والزاى ذالا ، والقاف همزة ، فتلفظان البيت التالى هكذا :

أعـذّ علىّ من المؤلتـيْن حياةٌ بعين و (نذوى) بعَيْن

أما الشاعر زكى قنصل ، المقيم فى الأرجنتين ، فقد فجع بطفلته البكر « سعاد » وهى ابنة ثمانية أشهر فقط ، فنظم فيها ديواناً صغيراً من الشعر يحتوى على ثمانى قصائد ، تعبر كلها عن فجيعته بتلك الفلذة العزيزة . ويتذكر فيها سريرها ودُماها ، ولهوها ، ومناغاتها الحلوة . ومن قصائده فيها قصيدة بعنوان « على ضريح سعاد » ، يقول فيها :

رفَّتْ رفيفَ الأقحوانة وانطفتْ فى عمْرِها

ماذا جنَتْ حتى تصيَّدَها الرَّدَى فى فجرها ؟
يا ربّ لا تحبسْ فؤادى لحظةً عن ذكرِها
أنا قد عبدتُكَ بسمةً وضّاءةً فى ثغـرها
وشممتُ أنفاسَ الجنانِ شذيّةً فى شعرِها

* * *

أسعادُ ! قد ضحك الصّباحُ على الرَّوابى والوهادِ
قُومى نغنّ مع الطيور ونَعْدُ من وادٍ لوادِ
كذب النعيُّ وضاعَ دمعُ النائحينَ على سُعادَ
ما غبتِ عن عينى فكيفَ أغوصُ فى ثوب الحداد؟
إنى تحدّيتُ الرَّدَى وحملتُ شخصَك فى فؤادى

ومثل زكى قنصل كذلك جورج كعدى ، فقد فجع بفقد طفلته « ثريا » فنظم فيها عدداً من القصائد ، ثم جمعها فى كراسة صغيرة .

وقال الشاعر عقل الجرّ يصف « الطفل » بلسان أم — وهو نفسه لم يتزوج ولم يكن له أبناء :

أُعطِيتُه كالصّبح غُـرّتهُ ملكاً تقمّصَ صورة الولدِ
أزهـو بطلعتـه وأحسبُه ألكون جُمّع كله بيَدى
وأطـلّ منه على غدٍ لمعتْ آمالُه فى مفرقِ الأبَـدِ
تغفـو عيونُ الناس هانئةً وهنـاء عينى فيه بالسُّهُدِ
تهتاجُنى من فيـه زقزقـةٌ تزرى بصوت البلبل الغَردِ
ويهفّ نحوى منشباً يـدَهُ فى العين أو فى النَحرِ والعضُدِ
فأزفُّه قُبَـلى وأرهقُــهُ وأكادُ أرجعه إلى كَبدى
فكأنـنى وأنا أدغـدغُه طفلٌ ، وطفلى دمْيَةٌ بيَدى

ويتألم « الشاعر المدنى » قيصر سليم الخورى إذ يرى حرمان طفله فى العيد من الملابس الجديدة ، فيقول :

رأى بُنَىّ صغارَ الحى قد غنمُوا فى ليلة العيد أشياءً ، وما غنما
فجاء يسألُ مالاً لستُ أملـكه ولو أتى طالباً روحى لما حُرما

وَعَدْتُه وجفُونى حشْوُها أرقٌ   وَعْـداً تعلَّقَ فى أجفانه حلُما
لمـا رأت أمـه حـالى وحالتـهُ   مالتْ لناحية تذرى الدموعَ دما

ويقول فى قصيدة أخرى عنوانها « المشيب الجميل » فى أطفاله الثلاثة :

وثـلاثةٍ لـمـا ضممتهمو إلى   صدرى شفيتُ من الفؤاد غَليلا
يتسارعونَ إلىّ حين أعودُ مـن   سفرٍ قصيرٍ قـد رأوه طَـويلا
فتخالُنـا عند التعانق دوحـةً   صغرى تريكَ نضـارةً وذُبولا

* * *

ما بالُ قلبى كلما أعطيتهم   أضعافَ ما طلبوا أظلُّ بَخيلا !
وعدى لهم أرَبٌ ، فإن قصرت يدى   عن مطلب فرحوا به تعليـلا
قبـلاتهمْ عند السؤال عطيـةٌ   منهم تعيدُ السائل المسئولا
يا طالما أدنيتُ خـدى مغمضاً   عينىّ أفتـحُ للسؤال سَبيلا
قد فرّجوا عنى الهموم وزحزحوا   عن منكبى صخراً أصمَّ ثقيلا
لولا همو ما كانَ ضَعفى قـوّة   والعسْرُ يسراً والمشيبُ جميـلا

* * *

وبعد فهذا قليل من كثير مما نظمه شعراء المهجر فى أبنائهم ، فى أفراحهم معهم وأحزانهم عليهم ، نكتفى منه بهذا المقدار لأن المجال لا يتسع لأكثر منه .

الفصل الثامن

مشابه وانطباعات أندلسية فى شعر المهجر

١ – الآفاق النفسية فى الموشحات المهجرية

لم يتح للانطلاقة الأندلسية الشعرية – وقد كانت أول انطلاقة لتجديد الشعر العربى – أن تبلغ بموشحاتها وتجديدها فى الشعر مرحلة النضج ، فتؤتى شعراً عميقاً خالياً من التلاعب اللفظى ، وكافياً للتعبير عن مختلف النوازع الروحية والإنسانية والاجتماعية ، غير أنها كانت تجربة ناجحة جداً لتسهيل الشعر العربى ، ولتحريره من قيود الوزن والقافية . وكان لا بدّ من انطلاقة ثانية فى سبيل البلوغ بالشعر العربى إلى مرحلة العمق والبساطة ، وإلى جعله فنًّا جميلاً يعبر عن خلجات النفس ونوازع الحياة بغير افتعال أو زخرفة لفظية .

ولقد جاءت هذه الانطلاقة الثانية بعد قرون من تاريخ الانطلاقة الأولى . وكما كان الذين جاءوا بالأولى من العرب الذين عاشوا فى الغرب ، كذلك جاءت الثانية على أيدى العرب الذين هاجروا من بلادهم إلى المهاجر الأميركية ؛ وقد ساعد على خلقها الجو الجديد الذى عاش فيه شعراء المهجر فى هذا القرن العشرين ، والآداب الغربية التى اتصلوا بها وبأهلها ، والحرية الواسعة التى امتلأت بها نفوسهم فراحت تجود بالكثير من الجميل المطرب ، والرقيق المؤثر ، والناعم الممتع .

وجدير بالذكر أن شعراء المهجر – وأسبقهم شعراء الرابطة القلمية – قد استفادوا من انطلاقة الأندلس الأولى فى طرائق النظم ، فقد وجدوا الطريق أمامهم مشقوقة ، وليس عليهم غير أن يطوّروها التطوير الذى يقتضيه الفنّ الرفيع ، ويبلغوا بها المرحلة التى تجعل من الشعر رفيقاً للنفس ، وتصويراً للإحساس .

وكذلك استفاد المهجريون كثيراً من الآداب الغربية التى عرفوها فى أوجها ؛ فقد كان فيهم المطلعون على الآداب الأميركية والروسية والإنجليزية والفرنسية ، وعلى

كثير من المترجم عن الألمانية والإيطالية . وباطلاعهم هذا استطاعوا أن يجمعوا فى انطلاقتهم الجديدة بين قوة المعانى ، وصدق التعبير ، وبراعة الصور ، وبساطة الصياغة وموسيقيتها . لقد أدركوا أن الشعر فن جميل ، يعبّر عن تجربة حقيقية وانفعال صادق قبل كل شيء ، وليس مجرد صناعة كلامية يتجزأ عليها من يشاء ؛ وأدركوا أن صدق التعبير وبساطته عنصر رئيسى ، كما أن الموسيقى هى أيضاً عنصر رئيسى آخر . وهكذا جاءوا ، إلى جانب الشعر الكلاسيكى التقليدى ، الذى أغنوه بجمال المعانى الجديدة ، بشعر آخر جميل ، غنىّ بالموسيقى والألوان والصور الحية البديعة .

كان الشعر الأندلسى – وأعنى شعر الموشحات – يعوزه العمق ، واتساع الأفق ، وبساطة التعبير غير المفتعل ؛ فجاء الشعر المهجرى الجديد غنياً بهذه كلها : فقد جمع إلى ما عرفه الأندلسيون من شعر الطبيعة والحنين والحب ، شعر التأمل ، والشعور الإنسانى الواسع ، والوطنية المتدفقة ، وشعر الأمومة والطفولة ، وغيرها من الأحاسيس الإنسانية الرقيقة ، وأشاعوا فى كل هذه ألواناً من الموسيقى والغنائية الحلوة .

خذ مثلا قصيدة « أخى » لميخائيل نعيمه التى تزخر بجمال العاطفة الإنسانية وقد أوردنا بعضها من قبل .

وخذ قصيدته التأملية « أوراق الخريف » :

تناثَـرى ، تناثَـرى يا بهجةَ النَّظَر
يا مرقصَ الشمس ويا أرجوحَةَ القَمر
يـا أرغنَ الليل ويا قيثارةَ السَّحَر
يا رمزَ فكرٍ حائرٍ ، ورسم روحٍ ثائر
يا ذكرَ مجدٍ غابر ، قد عافَك الشَّجر

تناثرى ، تناثرى

سيرى ولا تعاتبى ، لا ينفعُ العتـابْ
ولا تلومى الغُصْنَ والرّياحَ والسَّحابْ
فهْىَ إذا خاطبْتها لا تحْسن الجـــوابْ

فنى هذا الشعر استعارات وتشابيه وكنايات ، ولكن ليس فيه تكلّف للحسّ أو افتعال للصور والخيالات ، لا فى مرقص الشمس ، ولا فى أرجوحة القمر ، أو أرغن الليل ، أو قيثارة السحر ، لأن هذه كلها – إلى جانب ما فيها من الغنى الموسيقى – فيها كذلك تصوير غنى بالخيال والجمال والتأمل معاً .

وخذ أيضاً وقفة الشاعر شكر الله الجر عند شلال « تيجوكا » فى البرازيل ، لترى أية تأملات رائعة وصور حية تهتاج فى نفس الشاعر أمام الشلال المتدفق الجميل ، وأية حياة غنية بالجمال يخلعها الشاعر على ذلك الشلال . وهذا مقطع واحد منها :

فديتُـك قيثـارةً للطبيعـ ـة من مقلتَيْها نسلتُ الوتَرْ
فعطِّـرْ بدمعك شعرَ الدُّجى وشنِّفْ بلحنك أذْنَ القَمَـرْ
وَعَسِّلْ بكأسك ثغـرَ الورود فـترقص نشوانةً فى السَّحَـرْ
وخـلِّ فؤادىَ يقضى ظمـأً لدى بَـرْدِ سَلْسالك الدَّافـق
فلست تروِّى قـلوبَ العطاش إلى نَهَـلات الهـوى الصَّادق
ولو سالَ من جفْنك الكوثَرَ

وقد وصل بعض المهجريين – كما وصل بعض الأندلسيين من قبل – إلى جعل التفعيلة الواحدة أساساً للقصيدة ، فتلاعبوا بالتفاعيل كما طاب لهم ؛ ومن ذلك قصيدة « النهاية » لنسيب عريضة ، التى يثور فيها لكرامة أمته وحريتها ، ويعرب عن شدة نقمته على الخنوع والمذلة ، فيقول :

كفِّنوهْ ! وادفنوهْ ! أسكنوهْ – هوّة اللحد العميق
واذهبوا لا تندبوهْ ، فهو شعبٌ – ميتٌ ليس يفيقْ

* * *

ربّ ثارٍ ، ربّ عارٍ ، ربّ نـارٍ حـــرّكتْ قلبَ الجبــانْ
كلهـا فينا ولكن لم تحرِّكْ ســاكناً إلاّ اللســانْ

وتلاحظ هنا الخروج الكلى على نظام التفاعيل التقليدى ، ولكننا نجد التماسك الموسيقى والتناغم باقيين بكثير من الجمال والتأثير ، لأن القافية تنوّعت تنوّعاً غنائيًّا بارعاً فيها ، مما حفظ للشعر روحه العربية ، وأصالته الموسيقية الفنية

معاً ، ولم يتحول إلى تعابير نثرية جامدة ، أو استعارات وتشابيه مفتعلة افتعالاً .

وهذه أبيات من قصيدة للشاعر فرحات ، عن ديوانه « أحلام الراعى » يصف فيها حلماً جميلا :

فى مسْرَح الشاء الفسيح الخصيبْ بينَ رياض تُنبت العــافيهْ

فـوقَ بساط سندسىّ قشيبْ تحت سماءٍ رحبْةٍ صافيَهْ

أطلقــت أغنــامى – تــرعى وتجــترّْ

والزّنبــقُ النــاّمى – للفجْــر يفــتَرّْ

والنَّرجس النَّعْسانْ من سهرة الأمسِ

قد أطبق الأجفان – خـوفاً من الشمْسِ

وفى مطوّلة « عبقر » لشفيق معلوف كثير من القطع الروائع ، تلاعب فيها الشاعر بالتفاعيل تلاعباً فنيًّا ساحراً . وهى قصيدة أسطورية متعددة الأناشيد ، يختلط فيها الجن والبشر ، والعرّافون والبغايا ، ويخالطها الرعب ، والوصف ، والسحر ، والثورة ؛ فهى شىء يختلف كل الاختلاف عن الموشحات الأندلسية التى اقتصرت على الغزل والوصف والطبيعة والحنين .

وإليك أمثلة من « أغنية الجنية » فى « عبقر » شفيق المعلوف :

هل أنا إلاّ ذرّةٌ من ضيــاءْ

هل أنا إلاّ زفــرةُ الله قَــدْ

صعَّدَهَا فـوق قباب الجَلَدْ

فلم تزلْ لاهيةً فى الفضــاءْ !

* * *

فى العالَم الآخــر حيثُ الأرجْ

يجاذبُ الأنفس أهــــواءَها

متى تلظّتْ شهـوةٌ فى المُهَجْ

لم تعــدم الأجساد إطفاءَها . .

وإليك نموذجاً آخر من « نشيد البغايا » الثائرات فى الجحيم ، من المطوّلة عينها

نحنُ الفراشات بنات الصبَّاحْ

إن صعَّـد الصّبـاح أنفاسـهُ
نـراه قـد مدّ لنا كاسهُ
فنمتطى إليـه متْنَ الرِّياحْ

* * *

أزمنةُ اللهـو انْقَضى نصْفُها
وصدرُنا وسـادةٌ للجبـاهْ
فإنْ دنت من الشّفاه الشفاهْ
نهـزّها هـزًّا ونشتفُّهـا

* * *

كان لنـا شعاعُ أحداقنا
فأقبـلَ الليلُ وأطْفـاهُ
والجسَدُ البضُّ تركنـاهُ
تدوسُـه أقـدامُ عشّاقنـا

* * *

مـذ خلَعَ اللهُ علينـا المُقَـلْ
زوّدَنا بنظـرة ضائِعـةْ
وشـوة ملحّـةٍ جائعـه
وبشرةٍ هفّـافـةٍ للقُبَـلْ

* * *

فمَنْ لنـا بطـاعة اللهِ
وهـو الذى فى وسَط العاصفهْ
زجّ بنا بالأضلع الرَّاجِفـهْ
والجسَد المستسلم الـواهى ؟ !

وهناك أناشيد أخرى متعددة تلاعب فيها شفيق بالتفاعيل تلاعباً جميلاً منها :

والتجأتْ إلى الوكور الحِسانْ
خـائرة القـوى

تكسّر الأغصانْ
وتستر الكُوى
كيلا تراها العُيونْ
واختلجتْ على الركود الغصُونْ
صفراء تقشعرُّ أوراقها
راويةً حالَ بناتِ الهوى

ومثل هذا كثير فى المطولة ، وليس فى وسعنا الاستمرار فى تقديم النماذج منه .

أما الحنين فقد أبدع القسم الأكبر من شعراء المهجر فى التعبير عنه بقصائدهم : أبدع فيه نسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وأبو ماضى ، والقروى ، وطعمه ، وفرحات ، وشفيق معلوف ، وعقل الجرّ ، وشكر الله الجرّ ، وكثيرون غيرهم . وقد قدمنا فى فصل سابق كثيراً من النماذج والأمثلة على هذا ، ونضيف الآن أمثلة أخرى من الموشحات الرقيقة التى تزخر بالحنين اللهيف إلى الأهل والوطن .

من ذلك قول نسيب عريضة يحنّ إلى بلده « حمص » :

يا جارةَ العاصى إليك قد انتّهى أملى ، وأنت المبتغى والمشْتَهى
قلبى يرى فيكِ المحاسنِ كلَّها وعلى هواك يدينُ بالتوْحيد
يا حمصُ ، يا أمَّ الحجارِ السُّودِ !

ومنه أيضاً قول رشيد أيوب فى قصيدة بعنوان « المسافر » من ديوانه « أغانى الدرويش » :

أيا جيرةَ الحىِّ أين الطَّريقْ ؟ فإنّى ضللتُ عن المنزلِ
لقد كانَ لى فى حماكمْ رفيقْ من المَهْد فى الزَّمَن الأوّل !
فَغَضُّوا العيون وفيها الدُّموعْ فحارَ فؤادى بتلك العُيونْ
وفى الأدْمعِ !

وقالوا : رأينا شريداً يجولْ بعيداً عن الناس فى معزلِ
يبيتُ الليالى يؤمُّ الطُّلولْ ويبكى على عَهْده الأوّل
فقلنا : دعُوه ، عَراه جنُونْ ومرَّتْ ليالٍ وكرت سنُونْ
ولم يرجعِ

ولست أريد أن أطيل فى حديث الحنين ، بعد أن خصّصت له فصلاً سابقاً . ولكننى سأقدّم فى ما يلى نماذج من الشعر النفسى ، الذى يعالج خطرات النفس ونوازعها الإنسانية ؛ ففيه يخاطب الشاعر نفسه خطاباً باطنيًّا ، فيجوس معها خلال العوالم المنظورة وغير المنظورة ، ويحاورها فى شؤون البشر والطبيعة ، وفى شؤون المجتمع الواقعية ، والروحية ، وفى شؤون الدنيا والآخرة .

هذا اللون من الشعر قد لا يخلو من مسحة من الألم تطغى عليه ، ولكنه قد ينتهى إلى الرجاء والتفاؤل ، وإلى الإيمان بالحب والحق والخير والجمال ، أو قد تظلّ نزعة الألم مسيطرة عليه فى النهاية .

ولعلّ مطولة أبى ماضى الكبرى « لست أدرى » أول ما يتبادر إلى الذهن من هذا اللون الشعرى الذى أدعوه بالشعر النفسى ، والذى اعتاد الأدباء أن يدعوه بالشعر التأملى . وتلك القصيدة طويلة جدًّا ، فلا أرى حاجة إلى أخذ نماذج منها ، بل أكتفى بالإشارة إليها ههنا ، لأننى سأعود فأفرد لها حديثاً آخر خاصًّا ، بين المطوّلات الشعرية المهجرية .

ثم هناك مطوّلة « على بساط الريح » ومطوّلة « شعلة العذاب » لفوزى المعلوف ، وهما أيضاً قصيدتان طويلتان سأفرد لهما حديثاً آخر خاصًّا فيما بعد .

ولعلّ جبران ، ونعيمه ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وندرة حداد ، أكثر من عالجوا هذا اللون من الشعر النفسى ؛ كما أن الريحانى عالجه فى شعر منثور – أو نثر منفرط على الأصحّ – وهو لهذا لا يدخل فى حديثنا الآن ، لأن الحديث يقتصر على الموشحات وحدها .

من هذه الموشحات قصيدة « يا نفس » لجبران ، منها :

يا نفسُ لولا مطمعى ‏ ‏ بالخـــلد ما كنتُ أعى
لحناً تغنّيه الدُّهـــورْ
بل كنتُ أنهى حاضرى ‏ ‏ قسْراً فيغـدُو ظاهرى
سرًّا تـــواريه القُبُـــورْ

* * *

يا نفسُ ما العيشُ سوى ليلٍ إذا جنّ انتهى
بالفجْرِ ، والفجرُ يدُومْ
وفى ظَما قلبي دليلْ على وجود السَّلْسبيلْ
فى جرّة الموت الرَّحيمْ

* * *

يا نفس إن قال الجهولْ : الرّوحُ كالجسْمِ تزُولْ
وما يزولُ لا يعودْ !
قولى له : إنَّ الوُرودْ تمضي ولكنَّ البُذورْ
تبقى ، وذا كُنْهُ الخلُودْ !

ومن هذا اللون أيضاً قول نسيب عريضة فى قصيدة بعنوان « سيان » :

سيّان إنْ تصغى للنُّصْح أو تغضى
يا نفس ، فالآتى مثْلُ الذى يمضى

* * *

العيشُ إذ يَشْفى كالعيش إذْ يُضنى
إنَّ الذى يُحيي بعض الذى يُفنى

* * *

الطهرُ لا يدنى والعهْرُ لا يُقصى
فالكأسُ إنْ تطفَحْ كالكأس فى النَّقْص

* * *

الجوهرُ السَّامى يبقى بلا رجْسِ
كم مومسٍ تمضى عذراءَ للرَّمْسِ

* * *

وقوله فى قصيدة بعنوان « رباعيات » :

شربتُ كأسى أمامَ نفسى وقلت : يا نفس ما المرامْ ؟
حياةُ شكٌّ وموتُ شكٌّ فلنغمر الشكَّ بالمدامْ
آمالُنا شعشعتْ فغابَتْ كالآل أبقى لنا الأوامْ

لا بأسَ ليس الحياةُ إلا مـرحلةً بدؤهـا ختـامْ

* * *

كم دوحـةٍ لا يبينُ منها إلاّ قليـلٌ من الكثيرْ
فـروعُها والغصونُ جـزء بـدا ، ولكنـه حقـيرْ
وتحت سطْحِ الثرى أصول محجـوبةٌ ، حجْمُها وفيرْ
فيهـا حياةُ الغصون لكنْ لدى الوَرى شأنها صغيرْ

* * *

لو حدّقَ المرءُ فى البَرايا لشامَ ما لا ترى العُيونْ
مـا حولَـنا عـالمٌ خفىّ تدركهُ الرّوحُ فى السّكونْ
كم مبصرٍ لا يَرى ، وأعمى يرَى ويدرى الذى يكُونْ
يا ويحَ مَنْ لا يـرون شيئاً إلاّ إذا فتّحوا العُيونْ !

* * *

هذه النماذج والكثير جداًّ من مثلها مما تـزخر به دواوين الشعر المهجرى ، يضاف إليها ما أبدعه شعراء المهجر من شعر الأمومة والطفولة ، والشعر القصصى والأسطورى ، والاجتماعى ، ترينا إلى أىّ مدى استطاع المهجريون فى انطلاقتهم أن يمنحوا الشعر الجمال والعمق والاتساع والغنى ، مما كان يعـوز انطلاقة الأندلس لتأتى انطلاقة غنيّة راسخة الجذور فى قلب الحياة .

٢ – ذكريات الأندلس
وإثارتها للأحاسيس القومية

لم يقتصر تأثير الأندلس فى المهجريين ، أو يقف بهم ، عند حدّ استكمال الوثبة التحريرية للشعر العربى التى بدأها الأندلسيون ، فهناك تأثيرات أخرى من استيحاء أمجاد العرب فى ذلك الفردوس الذى أضاعه العرب ، فبكوه مثل النساء لأنهم لم يعرفوا كيف يحافظون عليه مثل الرجال . . .

وأكثر ما نجد ذلك التأثير الاستيحائى فى أدب المهجر الجنوبى ؛ والسبب فى ذلك هو أن شعراء المهجر الجنوبى يعيشون بين أقوام ذوى صلة وثيقة بالإسبان – أهل الأندلس – وهذه الصلة وحدها كافية للتأثير العميق المباشر. يضاف إلى ذلك أنهم قد اتصلوا ببعض شعراء الإسبان الذين كانوا يذكّرونهم بعهود الأندلس الغابرة ، كالشاعر الإسبانى الشهير فرنسيسكو فيلاسبازا ، الذى عاش مدة من عمره فى البرازيل ، واتصل به عدد من شعراء العرب هناك ، ومن بينهم فوزى المعلوف ؛ وهو الذى وضع مقدمة المطولة الشعرية المشهورة « على بساط الريح » لفوزى المعلوف ؛ وترجم المطولة شعراً إلى اللغة الإسبانية . ويروى أنه كان يحب العرب كثيراً ، وقد رثى أيامهم فى الأندلس بقصائد جميلة ، وترجم له فوزى المعلوف قصيدة من هذه المراثى الإسبانية لمجد العرب ، وهى بعنوان « غرناطة » هذا بعضها :

غرناطة ، أواه غـــرناطةُ   لم يبقَ شىءٌ لك من صولَتِكْ
هل نهرك الجارى سوى أدْمعٍ   تجرى على ما دالَ من دولتكْ
والنسمة الغـادية الرَّائحـــهْ   هـل هى إلاَّ زفـرةٌ نائحهْ
ما عدتِ فى النهْر كسلطـانةٍ   جبهتهـــا فى مائـــه ساطعهْ
للقبة الحمـــراءِ فى تاجهـــا   وهـج ، وللمئذنة اللاَّمعـهْ
آه على أمجادك الضَّائعـهْ
شيَّعتُهـــا بالنَّظْــرة الدَّامعـهْ .

* * *

لله حمـــراؤك تحسو الأسى   وحيدةً فى الرَّوْضة الخاليـهْ
لم يبْقَ لا زهـوةُ ندمانهـــا   ولا صدى أعيـادهـــا الماضيهْ
ولم يعُـــدْ للحب فيهـــا أنينْ
ينقــلهُ العودُ عـن العاشقينْ
بينـــا يجيل البـــدرُ ألحاظَـــهُ   باهتـةً فى المـرمـــر اللاَّمع
بين أريـــجِ الزَّهَـــر المنتشى   وبين شـــدو البلبـــل الساجع .

وقصرها الخاوى بأرجائه
كم غمَرَ الليل بضوضائهِ
إذِ الجوارى خاطراتٌ على سجّاده جاريةً جاريه
أروع ما فى الشرق من رقْصةٍ تنسجُهُ أقدامُها العاريهْ

* * *

على أنه قد يكون هناك سبب ثالث يذكر شعراء المهجر بالأندلس ، ويجعل لها فى شعرهم ونثرهم مكاناً بارزاً ، ذلك هو شعورهم بأن هنالك شبهاً بينهم وبين العرب القدامى الذين انطلقوا من مشرقهم البعيد إلى بلاد الأندلس القاصية ، واستطاعوا أن يقيموا هنالك دولة للأدب العربى الرفيع ، وأن يجدّدوا فى ضروب الشعر تجديداً رائعاً ؛ فهم كذلك مغتربون فى أقاصى الأرض ، ولكنهم استطاعوا أن يقيموا للأدب العربى مملكة عظيمة ، وأن يدهشوا المشرق العربى بأدبهم الجديد الباهر فى بداياته ، كما أدهشه من قبل أسلافهم العرب الأندلسيون بموشحاتهم الجميلة .

وما دمنا قد ذكرنا فوزى المعلوف فى ما تقدم ، فلا بدّ أن نذكر أن أثر الأندلس لم يظهر فى شعره فحسب ، بل ظهر كذلك فى نثره ؛ فقد وضع رواية عنوانها « ابن حامد ، أو سقوط غرناطة » ، وهى مسرحية ذات خمسة فصول . وقد مثلت على المسارح فى البرازيل ، ثم نشرتها مجلة « العصبة » بدلاً من عددها العاشر من سنتها الثانية عشرة ، وصدرت ، فى كانون الأول (ديسمبر) من عام ١٩٥٢ .

وللشاعر إلياس فرحات موشح جميل بعنوان « تحية الأندلس » يستهله بقوله :

أيقظتْ ذكراك آمالاً جسامَا كنَّ فى أرجُوحة الصّدر نيامَا
وشَجانا بلبلٌ حولَك حامَا فسقَانا من أغانيه مُدامَا
قد رأى منك دلالاً واحتشامَا فانْثَنى حيرانَ صَبًّا مستهامَا
ليسَ يدرى كيفَ يقريك السلامَا

ويختم ذلك الموشح الجميل بقوله :

يا ابْنَة الزّهْراء يا أندلسيَّهْ إنَّ من أجدادك العُرب بقيهْ

لم تزلْ شامخةَ الرّأس أبيّـهْ لم تفـرّقْهـا مسـاع أجنبيّـهْ
لم تُفَتّقْهـا دواعٍ مذهبيّـهْ كلما مرّتْ بها ريحُ الخزامى
أرسلتْ معْهـا لأهليك السلامَا

* * *

يا ابْنةَ الأحـرار يا أخْتَ الكرامِ وعروس الصِّيد من عتْرة سامِ
ومُنَى كلّ فـؤادٍ مستهـام اذكرى بالخير أبناءَ الشّآم
واذكرى صقْرَ قريشٍ باحترام وارفعى عن عُنُق الريف الحُساما
ليسَ من يستعبدُ الحرَّ هُماماً

وهذه القصيدة استوحاها الشاعر من محاضرة ألقاها الشاعر الإسبانى فرانسيسكو فيلاسبازا فى مدينة سان باولو فى البرازيل ، منوّهاً فيها بأمجاد العرب فى الأندلس ، ومباهياً بأنه هو نفسه من أصل عربى أندلسى ؛ فهاج ذلك شاعرية فرحات والقروى ، فنظم كل منهما موشحاً جميلاً فى ذكرى الأندلس . وكان الموشحان على نسق واحد ، حتى لتكاد تتلاقى فيهما بعض التعابير والأبيات عينها . وكانت قصيدة الشاعر القروى بعنوان « تحية الأندلس » كذلك . وقد استهلها بقوله :

خبّرينـا كيف نقريك السلامَا طيِّبَ النَّشْر كأنفاس الخزامى
والشذا المُحْيِي بسوريّا العِظاما غادرَ الشامَ وبيروتَ وهـامَا
فى بلادٍ حـرّةٍ لم تخْن هَـاما وأنوف لم يقبِّلْنَ الرّغـامَا
خـبّرينا كيف نقريك السلامَا

وفيها يقول :

يا ابْنةَ الزَّهْـراء يا أندلسيّهْ لم تـزلْ فيك من المجد بقيّهْ
لمعتْ فيها السيوفُ المشرفيّهْ ضاربات بزنـودٍ عربيّـهْ
فعـلى مثلك لا تُلْقَى التحيّهْ بأكفّ لم يجرّدْنَ حُسامَا
خـبّرينا كيفَ نقريك السَّلاما

ثم يختمها قائلاً :

وإذا بيروتُ ، أمُّ النور ، ولّى عن سماها أثْقَلُ الرّايات ظلاًّ

وإذا السيف من الصّحراء سُلاَّ　　نافضاً عن أرْبُع الفيحاء ذُلاَّ
وإذا لبنـــان بالأمْـــر اسْتقلاَّ　　فلبسنا العـــزَّ أو متْنا كراما
عنـــد هـــذا سوف نهديك السّلاما

وللشاعر إلياس طعمة « أبى الفضل الوليد » قصائد متعددة مستوحاة من ذكريات الأندلس . نذكر منها قصيدتيه « فى حمراء غرناطة » و « إلى فتاة أندلسية » من ديوانه « الأنفاس الملهبة » . يقول فى الأولى :

أمعاهدَ الحمـــراء هل تدْرينا　　ماذا لقيتِ من العدى ولقينا
نزعوك منَّـا بعد تكسير الظُّبَى　　فبتَعْس من فقدوك تفتخرينا
هذا جلالُك عن جمالك مخبرٌ　　فلأنت رسْمُ المجد من ماضينا

ويقول فى الثانية :

هـــذا المحيَّا خليطُ اللون والنَّسَب　　فيه تلاقَى دمُ الإسْبان والعَـــرَبِ
فى الحرْب والحب قد كان امتزاجُهما　　فأنْزَلَ الحسْنُ منه آيةَ العجَبِ
على جبينـــك تـــاريخٌ صحائفُـــهُ　　مـكتوبةٌ بحروف النور والذّهَبِ
إذا الفراسةُ صحّتْ قلتُ مفتخـــراً　　يا بنْتَ عمّى حباك الحسْنُ خيرَ أبِ
فحدّثينى عن الأطـــلال دارســـة　　ففى حديثك شئٌ ليس فى الكتبِ
يا قرطبيَّـــةُ ، هل شاقتْك قـــرطبةٌ　　مثلى فهزتْك نوباتٌ من الطَّربِ
ليس الجمالُ الذى أشتاق بهجتَـــهُ　　من حمرة الروم ، بل من سمرة العرَبِ

ولم يكتف شعراؤنا الأندلسيون الجدد – المهجريون – بأن استوحوا أمجاد الأندلس وأيامه الجميلة فى شعرهم ونثرهم ، فقد دعيت رابطة أدباء المهجر الجنوبى الكبرى فى البرازيل باسم « العصبة الأندلسية » ، وإليها ينتسب القسم الأكبر والأكثر شهرة هناك من الأدباء والشعراء ، من أمثال القروى ، وأخيه المدنى ، وفرحات ، وشفيق المعلوف ، وأخيه رياض ، وخالهما ميشال معلوف ، وعقل الجرّ ، وشكر الله الجرّ ، والمغربى ، ونصر سمعان ، وحسنى غراب ، ويوسف البعينى ، ونظير زيتون ، وغيرهم . ومن بين هؤلاء أديب كان يكتب فى « العصبة » دائماً بتوقيع « أندلسى » ولست أعرف من هو ذلك الأديب . . .

والشاعر شكر الله الجرّ أصدر مجلة هناك فدعاها « الأندلس الجديدة » .

وحينما ألقى الشاعر الإسبانى فيلاسبازا محاضرته فى سان باولو عن الأندلس وتبارى أدباء العرب هناك فى تكريمه ، ومن بينهم الشاعر القروى وفرحات ، ألقى كذلك شكر الله الجرّ قصيدة بعنوان « الأندلسية » ، يقول فيها :

أسرّحُ فى محاسنها العُيونا ... وأذرى فى معالمها الشؤونا
بلادٌ كيف جالَ الطرْفُ فيها ... يرى أثَرَ الجدود الغابرينا
تكادُ قبورُهم مما حوته ... يقدسُها الورَى حجَراً وطينا
كسَوْا جنباتها جنداً وخيْلاً ... كما ملأوا شواطئَها سفِينا
فسلْ عنهمْ طليطلةً حديثاً ... ودونك عندها الخبَرَ اليقينا
وسل غرناطةً فى أىّ تُرْب ... ثوى مَنْ روّعوا الدنيا مِئينا(١)
تَقلّصَ ظلهم عنها وكانتْ ... أعزَّ بمَنْ حوت منهم عَرينا
وسَلْ كم معهد للعلْم شادُوا ... بقرطبة ، فكانوا السّابقينا
فحسْبُكِ أرضَ أندلسٍ فخاراً ... بأنك كنت مهْدَ الخالدينا
ترعرعَ فى حماك المجدُ طفْلاً ... وشبَّ على ثَراك النّابغُونا

وله قصيدة أخرى عنوانها « على شواطئ الأندلس » يقول فيها :

لكَ الله فى الغرْب من شاطئ ... إلى الشرْق فى مجْده يرجعُ
تمرُّ فتخشعُ فيك النفوسُ ... ومن ذا لماضيكَ لا يخْشَعُ

ويقول أيضاً :

وقفتُ بشاطيك أذرى الدموع ... وأندبُ فى الأمس ما ضيّعوا
فأين معاهدك النيراتُ ... وأين مآذنك اللمّعُ ؟
وأين قصور كساها الغناءُ ... وشاحاً من الخلْد لا يُقشعُ
وأين جداوِلُك الجاريات ... وأين خمائلُك الضُوَّعُ
ملوكُ القريض وأربابُهُ ... تغمَّدهم تُرْبُك الممرعُ

ولشفيق المعلوف قصيدة بعنوان « غرناطة » يقول فيها :

لا عينَ ، غرناطة ، ولا أثَرُ ... دُلّتِ فهيهاتَ تنفعُ الذكَرُ
أهكذا النسْر بعد رفْعَته ... إلى حضيض الهوان ينحدرُ ؟ !

---

(١) مئات من السنين .

يا سائلَ البـدْو عن حضارتهـم　　يُنْبيكَ عنها الصوّان والحَجَـرُ
فاستنْبِ إشبيليـــا وقرطبـــةً　　تُجبْكَ تلك المعاهدُ الزُّهُـرُ
لهُمْ حديثٌ لـــدى طليطلـة　　وعنـــد غرناطةٍ لهم خـبَرُ

* * *

أما المهجر الشمالى فلا نعرف أحداً من أدبائه استلهم الأندلس فى شىء من أدبه ، أو استوحى منها ذكريات أو أمجاداً قومية ، سوى أمين الريحانى . وهذا بالنسبة إلى الريحانى طبيعى جدًّا ، فهو أديب وقف قلمه وفكره وحياته على أمته العربية ؛ والأندلس جزء عظيم الأهمية من تاريخ الأمة العربية ، وشحنة كبيرة من أمجادها وبطولاتها وحضارتها وعلومها . ولقد كان يكون من الغريب لو لم يلتفت إليها الريحانى ، بل لعله يكون أغرب لو أنه لم يزر الأندلس بنفسه – لا بخياله وحده – ويقف على آيات الفن العربى الرائعة فى بقايا قصورها ومعابدها .

لقد زار الريحانى الأندلس إذن ، وكتب عن زيارته تلك مقالاً طويلاً بعنوان « نور الأندلس » ، نجده فى مستهل الجزء الثالث من « الريحانيات » فى طبعتها الثانية عام ١٩٢٣ – وفى الصفحة ٢٢٦ من الجزء الأول ، فى طبعتها الثالثة عام ١٩٥٦ ، وقد جاء ذلك المقال فى ٢٢ صفحة من طبعة الريحانيات الثانية . ولئن كان الريحانى تغلب عليه روح الرّحالة المؤرخ ، فلقد كان فى هذا المقال رحالة ، وشاعراً خياليًّا ، ومصوّراً عظيم البراعة . وقد استهلّ مقاله بقوله :

« من حسنات الحياة زيارة الأندلس ، ومن الكفَّارات عن ذنوب الناطق بالضاد الحج إلى الحمراء التى قال فيها الشاعر :

تمدّ لها الجوزاءُ كفَّ مصافـــح　　ويدنو لها بدرُ السماء مناجيا

ومن حظى أنى كنت من الحاجين . زرت تلك البلاد المباركة فى موسم ظننته أولاً موسم الأعياد ، ولكنى بعد أن طفت فى شوارع سيفيليا « إشبيلية العرب » ، وتنشقت هواء برّها ، وشممت نفح طيبها ، وسمعت حمارها وفلاحها وشريفها يتغنون بـ « أندليثيا » – وهم يلفظون السين ثاء – ويناجون ربة السرور ليل نهار ، بعيونهم وبأرواحهم ساعة الأشغال ، وبالعود والقانون ساعة اللهو والطرب ، علمت أن عام تلك البلاد موسم ، ومواسمها أعوام يتلو الواحد الآخر دون انقطاع .

فالأندلس – بلاد الرقص والقمار ، وبلاد الكنائس أيضاً وحرب الثيران – إنما هى قطب السرور فى فلك الأسبان ، بل هى فى نظر الأندلسيين بلاد الله وحدها ، لا شريك لها فى ذا الشرف الفريد . وقد قال أحد ظرفائها : « خلق الله العالم فى ستة أيام ، ثم جلس فى اليوم السابع فى الأندلس ليستريح » » .

ثم يمضى فى الحديث ، حتى يستبدّ به الخيال الشعرى الجميل فيقول :

« والذى يخيل إلىّ أن الله بعد أن جلس فى الأندلس يستريح باركها ثم هجرها . وأبناء البلاد حتى الآن يعيّدون كتلاميذ المدرسة عند تغيّب المعلم . وما أجمل ما فاح من تلك البركة ، وما تجلّى ، وما تجسد فى تلك البقعة من الأرض . ففى سمائها وفى شمسها عرض للعيد وهّاج ، وفى بساتينها وفى مروجها حلة للعيد لا تبلى ، وفى هوائها جرثومة سحر تدخل قلبك فتشرع ترقص فيه حتى تستهويك وتستغويك ، فتخف الروح منك إلى نقطة الدائرة فى مدينة الطرب والسرور ، بل تستوقفك بهجاً دهشاً نشوان ، فتسترسل مثل ابن البلاد إلى كل من رقص وكل من شدا ، وتسير معهم من عيد صغير إلى عيد كبير إلى عيد أكبر ، إلى عيد الأعياد فى الربيع . . . »

ويمضى فى الحديث أيضاً إلى أن يقول فى وصف طلول المجد العربى الدارس :

« طلول كانت بالأمس معاهد وقصوراً ؛ وقصور كانت يوماً دائرة المجد وقطب الحبور . فى قناطرها وقبابها وأبوابها صناعة دقيقة نادرة ، وفى كل رسم من رسومها آية جمال تدهش حتى اليوم أرباب الفن ، وفى كل بيت من الشعر على جدرانها درّة من المعنى ، أو زهرة من التقوى منقوشة فى بلاط منقطع النظير لوناً وتذهيباً .

وصنائـــعُ الزِلّيـــج فى حيطانها والأرض مثلُ بدائع الديبـــاج

« هذى آثار العرب وقد أمست عروشاً لربة النسيان ، ومدفناً لمجد الزمان ، وظلالاً تجلب الأحزان ، وعبرة بليغة للإنسان ، وهى ، وإن كانت كذلك ، بهجة للناظرين ، ومصدر وحى لأرباب الفنون والمتفننين . ولكن الذكرى –

وياالله من ذكرى تقبض على النفس فتجعلها كالجماد ! لله من آثار تبتهج لمرآها العين فيذوب لمعناها الفؤاد ! لله من بلد تغنت بمكارمه كل بلاد !

« لله عزّك يا ابن أمية ، ومجدك يا ابن عباد !

« أى عبد الرحمن والمنصور والمعتمد ! من شادوا معاهد العلم والدين !

« لقد طالما اهتزت النفس لذكر مآثركم ، وطالما وقفت العين شغفاً عند أسمائكم فى التاريخ ، ولقد تاقت النفس منى والعين إلى مشاهدة ما تبقّى من تلك الآثار المجيدة ؛ وها قد استجيبت طِلبتى وتحقق أكبر آمالى ، فقد وطئت أرضاً عطرتّها شمائل العرب ، وجلت بلاداً عمرتها همم العرب ، ووقفت أمام عروش هدمتّها عصبية العرب . . . »

هكذا يتحدث الريحانى عن أندلس العرب ، ويستوحى تاريخهم وأمجادهم من عمرانها ومن أطلالها ، ويمجد أيامهم وحضارتهم وعلومهم وفنونهم بروح العربى المخلص المؤمن .

* * *

وأكتفى بهذا المقدار من الأمثلة على تأثير الأندلس فى أدب المهجر من حيث إلهاب العاطفة القومية ، وإثارة الإحساس الوطنى .

غير أننى أودّ ههنا أن أضيف إلى الأسباب التى تقدّم ذكرها لهذا التأثير الأندلسى سبباً آخر ، وهو أن من دواعى الوطنية أن يعتز العربى بماضيه المجيد ، وأن يذكّر به قومه ويحثهم على بناء مجد مثله .

وأدباء المهجر وشعراؤه عرب أحرار ، يحبون قومهم ، ويحنون إلى أمجادهم ، ويودّون لبلادهم العربية المجد والرفعة ، فلا عجب فى أن نراهم يستوحون أمجاد الماضى لكى يبنى قومهم أمجاداً جديدة مثلها فى الحاضر .

٣ - الزجل المهجرى

كماساير الزجل فى الأندلس نهضة الموشحات هناك ، كذلك رافق الزجل الشعر والنثر فى المهاجر الأميركية ؛ وبرز بين المهجريين عدد من الزجالين المبدعين ، الذين يتفوق زجلهم فى جماله ورقته على شعر الكثيرين من شعراء الفصحى .

والصحف المهجرية تعنى عناية غير قليلة بالزجل ، إلى جانب عنايتها بالشعر والنثر ، وتنشره إلى جانب القصائد الفصحى لكبار الشعراء .

ولم يقتصر الأمر على هذا وحده ، فقد عرفنا فى البرازيل مجلتين كبريين للزجل ، لا تقلان عن مجلتى « الشرق » و« المراحل » الأدبيتين أناقة وفخامة . والمجلتان الزجليتان هما « روضة الزجل » وكان يصدرها سليم لطف الله ، المعروف باسم « أمير الزجل المهجرى » ، و« الروضة » وكانت تصدرها عصبة الشعر القومى فى البرازيل . وفى كل عدد من هاتين المجلتين كنا نجد كثيراً من الأزجال المختلفة الألوان والمواضيع .

ويشترك عدد من الشعراء المعروفين هناك مع الزجالين فى أنهم ينظمون الشعر الفصيح والأزجال العامية ، ويجيدون هذين اللونين إجادة كثيرة . ومن هؤلاء أخص بالذكر يوسف أسعد غانم « عضو العصبة الأندلسية » وسليم نادر ، ونعمة قازان ؛ كما أشير إلى أن الشاعر القومى إلياس فرحات كان فى بدء الأمر زجالاً ، ثم هجر الزجل إلى الشعر الفصيح ، فنال فيه مكانة عالية بين أكبر شعراء العرب فى العصر الحاضر .

وقد أورد فرحات فى مذكراته — التى نشرتها وزارة الثقافة والإرشاد القومى فى دمشق فى كتاب بعنوان (قال الراوى) عام ١٩٦٥ ؛ وكانت هذه المذكرات قد نشرت أولاً فى مجلة (القلم الجديد) لصاحب هذا الكتاب عام ١٩٥٢ / ١٩٥٣ ثم فى مجلة (الرائد العربى) فى حماة / سوريا عام ١٩٥٧ — عدداً من أزجاله القديمة ، وتحدث طويلا عن منافساته لكبار الزجالين فى كفر شيما والقرى

القرية منها قبل هجرته إلى البرازيل . ومن شاء أن يطلع على هذا الجانب من حياة فرحات وشاعريته ، فليراجع كتابى « إلياس فرحات شاعر القومية العربية » المطبوع فى الأردن عام ١٩٥٦ ، ففيه الكفاية ، ولا حاجة إلى تكرار ذلك ههنا .

أما يوسف أسعد غانم ، الشاعر الثائر ، فقد أصدر عام ١٩٥٣ ديواناً زجلياً لطيف الحجم والشعر ، دعاه « البرج الأخضر » ، جمع فيه عدداً كبيراً من قصائده الزجلية الرقيقة ، وأغلبها فى الحنين ، وفى الغزل .

وقبل أن أمضى فى الحديث أود أن أعترف بأننى لم أول الزجل المهجرى كثيراً من اهتمامى خلال دراستى الطويلة لأدب المهجر ، ولذلك لن أتمكن من الإحاطة بجميع المبرزين فى هذا الميدان ، ولا بمختلف نواحيه . وإنما هى إلمامة لابدّ منها لاستيفاء البحث التاريخى قبل كل شيء . ولهذا أعتذر عما سيكون فى بحثى من التقصير ، وعما قد أقع فيه من عدم الدقة ، ومن الاقتصار على عدد محدود من الزجالين الذين وقعت على أسمائهم وأزجالهم فى القليل من أعداد « الروضة » و« روضة الزجل » التى وصلت إلى يدى ، وفى أعداد مختلفة من مجلات « الشرق » و« المراحل » و« العصبة » ، ومن جرائد المهجر اليومية أو الأسبوعية .

والزجالون الذين قرأت لهم وما يزال لدىّ أشياء من أزجالهم ، إلى جانب سليم لطف الله ، ويوسف أسعد غانم ، وسليم نادر ، هم : طانيوس كحلاوى ، وجورج ناصيف فاضل ، وطانيوس بعقلينى ، وزغلول الدامور ، وفرخ النسر ؛ وكلهم فى المهجر الجنوبى . أما (فرخ النسر) فهو الشاعر نعمة قازان ، كما أكّدت لى ذلك السيدة مريانا دعبول فاخورى فى رسالة منها بتاريخ ١٩٧٣/٧/١٢ ؛ ومريانا دعبول هى صاحبة مجلة (المراحل) التى تصدر فى البرازيل . وكذلك وقعتُ فى (المراحل) على قصائد كانت تحمل اسم الشاعر الحقيقى (نعمة قازان) واسمه المستعار للزجل (فرخ النسر) .

وأما « زغلول الدامور » فلست أعرف اسمه الحقيقى ، فهذا اسم مستعار له ؛ غير أننى وقعت له على أزجال رقيقة فى بعض الصحف المحفوظة لدىّ .

وأما المهجر الشمالى فلم أحتفظ لدىّ بشىء من قصائد زجّاليه التى كانت تصل إلىّ فى الجرائد اليومية ، كالسمير ، والسائح ، والبيان ، ولكنى لم أتمكن من الاحتفاظ بها للرجوع إليها فى معرفة أسماء الزجالين ، ونماذج من أزجالهم . وأذكر منهم ملحم حاوى ، وسعيد جبرين فقط . غير أننى سأقتصر على من ذكرت من زجالى المهجر الجنوبى وحدهم ، ففى زجلهم غنية وكفاية لإعطاء صورة واضحة عن الزجل فى المهجر .

وعلى كل حال ليس فى زجل المهجر ما يفرقه عن الزجل اللبنانى المألوف إلا فى ناحية واحدة هى « الحنين » ؛ فقد اكتوى الزجالون ، كما اكتوى أدباء المهجر عامة ، بنار الحنين إلى وطنهم وإلى أحبائهم فيه ، ففاضت نفوسهم بقصائد حلوة فى التعبير عن لهفتهم ولوعتهم ، وفى تصوير شقائهم فى الغربة .

ولست أعرف لهؤلاء الزجالين دواوين زجلية مطبوعة ، غير ديوان « البرج الأخضر » للأديب الشاعر يوسف أسعد غانم . ومن الإنصاف أن أذكر ههنا أن يوسف غانم كان أديباً موهوباً فى الشعر الفصيح وفى النثر الفصيح ، وكذلك فى الزجل العامى . والذين رافقوا مجلة « العصبة » ومجلة « الشرق » وجريدة « العلم العربى » وغيرها من صحف المهجر ، يعرفون شعره ونثره ، ويقدرون موهبته الأدبية الجميلة .

وشعر يوسف غانم – الفصيح منه والعامى – مقطوعات قصيرة ، تحمل الإحساس أو الخاطرة أو الفكرة بإيجاز حلو ، فلا يسهب ولا يطيل النَّفَس ، بل يقتصر على أبيات قليلة معبرة .

وفى ما يلى شىء من قصائده العامية فى ديوانه « البرج الأخضر » ، وأغلبها فى الحنين إلى الأهل والوطن . يقول فى قصيدة بعنوان « عالشط » :

عالشَّطّ صـــار لى سنـــين   ناطر البابـــور حتى يطـــلّ
محـروم ، دايب شـــوق   عـــلْوطنْ تافـــلّ
غبـــاشة تِجى وتْـــرُوح   عـــلْمَوْجـــة الزّرْقـــا
بخمّـــنْ سفينة نـــوح   وبهـــفّ للملْقَـــى

يا طـــير عـــرسك نـــوح مظلـــوم شـــو بتلـــقى
هنيّـــال للى فى بلادو ظَلّ

* * *

وإن كان جفّ البحر يا بابور ما فى عتـــاب ولُـــومْ
هَيْـــدى دموعى من عيونى بْحُور خُـــوضْ فيهـــا وعُـــوم
قلبي وروحى بالبـــلاد ، وهـــون جسمى عشطّ البحـــــر
عالشطّ صـــار لو سنين
ناطـــر البابـــور حتى يْطلّ

وفى قصيدة « سمعت بلادى » :

سمعت بـــلادى بتْنـــادى عـــــراس التـــل
بـــدّى شوف وجـــه أولادى مـــن البحـــر يطلّ
يا مركبْ ديـــر الدّفـــى صـــوب الدّيـــار
الدّنيـــا ما بْتِســـوْى شحفى من حجـــار الدار

* * *

يا خيمـــة حارتْنـــا ويـــن انتى ووَيْـــن صْرنـــا نحنـــا
بالغربـــة وبدمـــوع العين بكينـــا عالمـــاضى ونحْنـــا
يقصف عمـــرو غراب البينْ هلـــنَتَّف جـــوانحنـــا
خُبـــزات الضيعـــة سخنينْ طعمتهُـــنْ تحـــت ضراسى

* * *

وكثيرة هى قصائد الحنين فى ديوان « البرج الأخضر » ، وكلها من هذا اللون الرقيق المؤثر بعبارته الحلوة الناعمة . وليس فى وسعنا أن نمضى فى الاقتباس منها – وهى الديوان كله أو أغلبه – ولكننا نأخذ أشياء من أزجاله الغزلية والوصفية الرقيقة الأخرى .

فمن غزله قصيدة بعنوان « نور ونار » يقول فيها :

لَزْرعْ لِكى هالأرض كِلاّ نجوم

وانصبْ لكي هالشمس خيمي ودار
ونَقْوِشّا بقمار
واربطهــا بشُلُوش قلبي الصار
رمـاد وجمـر وهموم
وادْبَـحْ لكي هالليل عجْرَيْكي
تالكَـوْن كلــه يصير نـور ونار
مثـل عينيكي

ويقول في قصيدة « وينك يا ليلى » :

ملهوف ، عيني بتاكل الطرقـاتْ عمتُــبرُمْ عليكـي
وروحي ، إن طرتي فوق هالغيماتْ رفّـت حـواليكـي

* * *

ليـلى يا ليلى ، زهرة المنتــور عشتي عَشَمّ وضَـــمّ
إنتي عطـور ودايبي عَزْهــور حـلم السما والأرض
إنتي بعمري دهــور
إنتي بعيـنى نــور
إنــتي بقلــبي دم

وفي ما يلي أبيات من قصيدة بعنوان « عرس الشتي » ، وهي تجمع بين الوصف والحنين :

عرس الشتي محــلاه بِلُبنـان والليل عَمْيْتصَرصَر وبـرْدان
وسراج عمبيــدْ وبِـل وعطشان وبيّ عَنغمــة خزقــة المزراب
مسرغس ، وحَـدّ الموقدي نعسان
والنـار عمتاكل حطـــب
والمــوقدي بتنبع لهــب
وعلْباب تلطم هالرياح العاصفي وعالسطح تفقع هالرعود القاصفي
والليل طايف مثل جنّ وزاحــفي وعين السما بالمىّ حاتم طـىّ
والسنديانى مثل مارد واقفي

والجبـال ملفلفى بضبـاب
حيَّكتلّيَّاه الريح ثيـاب

وهذه أبيات من قصيدة خيالية بعنوان « موت القمر » :

الليل بيَّك يا قمـر لابسْ حـداد   عافرقتك ، والشمس أمك نايحا(١)
ها شل شعاعا بالسهول وبالوهـاد   وما عاد تعرف كيف هيّ رايحا

* * *

يا حسرتى قدّيش ما شال الهموم   عنى ، وسيهرنى وطوّلنـا السهـر
ونامت عيونُ الكون عهداب النجوم   وغفيتْ شفاف الزهر عشَفاف القمر

* * *

ومن ذلك أيضاً زجلية فى الحنين للشاعر نعمه قازان ، أشارت إليها مجلة (المراحل) فى عددها الصادر فى شهر نيسان ١٩٧٢ ، يقول فيها مخاطباً الشمس :

بينى وبين الشمس كلمه مبهَمى
وما بتِفْهَما منيِ الشمس غير تمتمى :
حَدّقِ يا شمس فِى عين الغرِيب
بلكيِ إن حدّقتِ بعينيِ بتفهمى !
يا مفتّحه ومغمّضـه علينـا البصر
بينك وبين الأرز فِى شَلحة حجـر
بسّ تشرِق جبيلنـا عنهم خـبر
ووين ما غبتِ عليهم سلّمـى !

ويقول قازان أيضاً فى زجليّة أخرى ، أشارت إليها (المراحل) كذلك فى العدد المذكور نفسه :

---

(١) هذا البيت الزجلى يذكرّنا بقول الشاعر القروى فى قصيدته (الربيع الأخير) :
« والأرض حارت : أتلقى الفجر ضاحكة   لأمّها الشمس أم تبكى ابنها القمرا ! »
رغم الشبه القليل بينهما .

من يوم تركت الضيعه وشلحت النير
صرت من برّا كبير ومن جوّا زغــــير
مشتاق أرجع عالضيعه مشتاق كتير
وارجع من برّا زغير ومن جوّا كبير !

* * *

ونأتى الآن إلى عدد آخر من الزجالين المعروفين فى المهجر ، فنذكر أن أخيلة الزجالين هناك قد انطلقت تغرّد وتبدع حينما زار رئيس جمهورية لبنان الأسبق كميل شمعون البرازيل عام ١٩٥٤ ، فقد رأى المهاجرون هناك فى وجهه وجه لبنانهم الجميل ، فكأنما جاء لبنان نفسه يزورهم فى غربتهم .

وقد أصدرت مجلة « روضة الزجل » حينذاك عدداً خاصًّا جمعت فيه العديد من تحياتهم وأغاريدهم الزجلية . ونذكر ممن شاركوا بأزجالهم فى ذلك العدد صاحب المجلة سليم لطف الله ، وطانيوس الحملاوى ، وزغلول الدّامور ، وغيرهم .

وفى ما يلى أبيات من قصيدة سليم لطف الله :

بهالزيارة يا رئيس لهــــا لحِمى	فرّحِتْ منا قلوب حارقْها الظمـا
للبنـان موطنّا الحلـو جار السما	والمـلايكْ لحـن حبه بينشدو

ومن قصيدة زغلول الدامور نقتطف ما يلى :

يا فرحة الغيّاب وكبـار الشعوبْ	بنشْر طاللْ من جبـال معينى
من مشرق الشمس المضَيي للغروبْ	عاجوانحَك شفنا العلامة مبيّنى
ومش بس نصَبُولك بيارق عالدروب	وزهور من حقل الضيافة الليّنى
بتقدر تفتشْ بالصدور وبالقلوب	وتشوفْ كيف شكل الطريق مزينى

* * *

واليوم هالشعب البدَمّو بيفتديك	لا تلومهنْ لولا عليك تجمعوا
شافوك هجنى وريحة الأرزات فيك	اتركهُنْ يشمو ريحتك تايشبعوا

* * *

ويقول طانيوس الحملاوى :

طلّ الرئيس وطلت الأرزه معـو	يا فرحة المشتاق حتى يشوفهـا

يا غايبين تهللـــوا وتطلعـــوا   الأيام معكُنْ كمّلت معروفها
وعا صوت لبنان الحقيقي تسمعوا   ببلاد فتحت قلبها لضيوفهـا

هذا بعض ما قيل فى مناسبة واحدة هاجت مشاعر زجالى البرازيل ، ولكنّ المناسبات كثيرة ، والشعر العامى ينطلق فى كل مناسبة ، شخصية كانت أم قومية أم عائلية ، أو ما إلى ذلك مما لا يسعنا أن نتعرض له لكثرته ، ولا سيما قصائد الإخوانيات التى تزخر بها صحف الزجل هناك .

من ذلك مثلاً ما نشرته مجلة (المراحل) البرازيلية فى عددها الصادر فى نيسان ١٩٧٢ من زجل إخوانى بين (عصبة الزجل اللبنانية) والشاعر والزجال فيليب لطف الله بمناسبة عيد الميلاد .

١ – معايدة عصبة الزجل :

عصبة شعـــر اللبنـــانى   عا محبّتــكم رَبيـــانِى
ومع طلّـة بسمات العيـــد   بتقــــدّم بالتهـــانِى

* * *

٢ – من ردّ فيليب لطف الله :

عصبـــة شعـــر اللبنانِى   بوطنهـــــا شَعـــلانِى
بتهنّينى بطلّـــة عيـــــد   ما أطيبهـــا تهـــانِى !

* * *

بتمنّى كـــلّ الأعيـــاد   بالخـــير عليهـــا تنعـاد
الأعـــوام وعيـــد الميلاد   مـــن إلهـــيِ الربّـــانِى

* * *

إلى الملتـــقى بالأوطان   وبشاهدكم يا إخـــوان
من بعـــد محبّـــة لبنـــان   تبقى الدنيـــا خربانى !

غير أننا نود أن نذكر شيئاً من الشعر العاطفى ، فى الحنين والحب وغيرهما ، ومن ذلك قول الشاعر جورج ناصيف فاضل فى الحنين :

قدّيش أنا مشتاق لبـــــلادى　　أعلا الجبل واهبط الوادى
وانشقْ زهور ، وأورد الغـدران　　وبـرّد حرارة نار فوآدى
وانشقْ زهور وأوْرد الغـدرانْ　　وشـاهد ربيع الأرض بيلبنان
وألطى بنىّ الأرز والريحـانْ　　واختـلى ، واتذكر الأيام
وعَالغصنْ أسمـع بلبـل الشادى

ولبولس إلياس الخورى قصيدة بعنوان « يا حب » ، يقول فيها :

يا حبّ الله يقطعكْ من هالدّنى　　وما تضـلّ ليـلى أحبّها وتحبّنى
بركى بيفضى بالنـا ساعة زمانْ　　ونرتاح منـك شى دقيقة بالسنى

* * *

يا حبّ يللى كل طرقاتك سهولْ　　ما فى بدر بك لا طلوع ولا نزول
بعهدك إذا قلبين عقدوا مْحالـنى　　داسوا النظام وحطموا عروش الأصول

وأوردت مجلة (المراحل) فى عدد آب ١٩٧٠ زجلية لسلمى نادر زكريا من نوع (هيهات يا بو الزُلُف) فى الحنين إلى الحبيب ، تقول فيها :

هيهـات يا بـو الزُلُـف　　عينيِ يا موليّـــا
نغّص حيـاتى البُعُـد　　روّج تعاليّـــــا

* * *

من حين ما شوفتُـك　　غابت عن ربوعـك
عَينى صباح ومسـا　　مـترقّبى رجـوعـك
سُـلّمتنِي للنـــوى　　ومـا جِـرْيَت دموعك
هـالقـدّ قلبك قسيِ　　يا مـلاق حنَيا ؟ !

* * *

يا عـين لا تضجـرى　　مـن مدمعـى الجـارى
ها لنـوح ما بَتركـو　　ليلى ولا نهـــارىِ
لو كنت يا بـو الزُلف　　بمصيبـتى دارى
ما تركت شبح الأسـى　　يتسلّط عليّــا !

* * *

هيهات يا بو الزُّلُف عيني يا موليّا
ما غبت عن ناظري بعدك حواليّا !

* * *

ويبدو من قراءة القصيدة كلّها أن صاحبتها في لبنان ، تحنّ إلى زوجها المهاجر منذ ثلاثين سنة ، وقد ختمتها بإعلان عزمها إلى اللحاق به .

وهناك لون آخر من الزجل ، أو شعر البادية على الأصحّ ، يقدّمه لنا الشاعر البدوي الأردني جميل مطر ، في كتاب له عنوانه (حنين البادية) ظهر في البرازيل عام ١٩٦٤ ، وفيه العديد من القصائد البدوية ، نذكر في ما يلي أبياتًا متفرّقة منها ، للأمانة التاريخية والأدبية :

من ذلك قوله في حفاظه على الصداقة :

كلّ عمري للصداقة أنتمي
ولا يوم بعت فيها واشتريتْ
ثابت عليها وعن أساسها ما بحيد
وللوفا والصدق بقلبي حويت
بَحِبّ خير الناس وما بْريد الأذى
ومعتصم بالله ومن فضلوا اكتفيتْ

* * *

ويقول جميل مطر في حياته الطويلة في ديار الهجرة في البرازيل بعنوان (شكوى) . وهي في الحنين إلى الوطن :

صار لي فِي المهجر فوق الأربعين
ودوم أطلب من إلهي وأستعينْ
حتى يساعدنِي ت ازور الوطن
وأشاهد أختي والأقارب أجمعينْ
لكنَ بيظهرَ حظّ ما عندي أنا
حتى أمور الدهر دوم معاكسين

وبعد فليست هذه النماذج إلاّ وشلاً من فيض ، وليس القصد من إيرادها سوى تسجيل لون من أدب المهجر لم يقتصر على شعراء العامية وحدهم هناك ، بل شاركهم فيه بعض شعراء الفصحى كذلك . وإنما فعلنا ذلك ههنا أسوة بمن جعلوا للزجل نصيبه من الدرس والعناية فى أدب الأندلس .

الفصل التاسع

من المطولات الشعرية فى الأدب المهجرى

توطئة

ليس فى وسعنا أن نستقصى جميع المطولات فى الشعر المهجرى ، فهى كثيرة ، وبعضها مطبوع فى كتب مستقلة ، مثل « المواكب » لجبران ، و« عبقر » لشفيق المعلوف ، و« على بساط الريح » لفوزى المعلوف ، و« معلقة الأرز » لنعمة قازان ؛ وبعضها مطبوع بين القصائد الأخرى فى دواوين الشعراء ؛ مثل : « على طريق إرم » ، لنسيب عريضة ، و« أحلام الراعى » لفرحات ، و« الربيع الأخير » للشاعر القروى ، و« الطلاسم – والحكاية الأزلية – والشاعر والسلطان الجائر » لأبى ماضى ، وقصائد أخرى غير قليلة لشعراء آخرين ، مثل ندرة حداد ، وسعيد اليازجى ، وشكر الله الجرّ ، وغيرهم .

غير أننا مضطرون إلى الاكتفاء بعدد من هذه المطولات ، كنماذج للشعر المهجرى الطويل النفس ، والمتدفق بالجمال والحيوية والمعانى الكبيرة فى آن واحد . ونعتذر عن عدم استطاعتنا دراسة جميع المطولات الأخرى .

ونحب أن نشير ههنا إلى أن هذه المطولات التى اخترناها وأردنا تقديمها ههنا قد نالت جميعها حظوظاً من الشهرة فى المهجر وفى الوطن العربى ، وإن لم يتسنّ للكثيرين من القراء فى ربوع الشرق العربى أن يطلعوا عليها جميعها ، فى غير هذا الكتاب . وها نحن نقدمها إليهم واحدة واحدة فى ما يلى :

١ – المواكب لجبران خليل جبران

« الخير فى الناسِ مصنوعٌ إذا جبروا   والشرُّ فى الناس لا يفنى وإن قبروا »

هكذا يستهل جبران قصيدته « المواكب » ؛ وهو استهلال يلخص لنا حقيقة الخير والشر كما يفهمها المجتمع ، لا كما يجب أن يكون . والمواكب قصيدة لجبران نظمها عام ١٩١٨ فى مائتين وثلاثة أبيات ، وجعلها ذات صوتين : صوت الشيخ الخارج من المدينة مثقلاً بهمومها وآلامها ، ومستنكفاً من شرورها ونذالاتها ، وصوت الفتى المرح الخارج من الغاب يعزف على نايه أنغام السعادة المطلقة ، والحب اللامتناهى ، داعياً الناس إلى الغاب ، حيث تتساوى الحياة وتنسجم ، فينشأ عن تساويها وانسجامها الخير المطلق .

وجبران أديب يرسم بدم القلب ويكتب بعصير الروح ، وشاعر يغنى بأفراح الإنسانية ويبكى بأوجاعها . وقد نصب نفسه رساماً لآلامها وآمالها ، وهادياً لها إلى الخير والحق والجمال . ولقد أحسن التعبير والتصوير فى منظومته الكبرى « المـواكب » التى كانت فنًّا جديداً حينذاك فى الأدب العربى ؛ فجبران كاتب وشاعر موهوب مبدع ، وهو دائم التنويع فى أساليبه الكتابية لأنه يهمه أن يوصل إلى القراء مبادئه وأفكاره بالطريقة التى يعتقد أنهم يستحسنونها ، لكى يعملوا معه على تطهير المجتمع من أوضار الجهل والعبودية . ومن هنا فقط كان تنوع أساليب جبران فى مختلف كتبه .

ومنظومته « المواكب » إن هى إلا تصوير للمجتمع فى تقاليده المجرمة ، وسيرته المضطربة ، وقيادة له نحو الجمال والخير ؛ فالشيخ الخارج من المدينة إنما يصوّر بألفاظه حياة المجتمع الواقعية ، بكل ما فيها من توافه العقائد التى تمليها المصالح الخاصة لطبقات معينة من الناس ، وتفرضها على بقية الطبقات فرضاً ، فتصبح أساساً للمعاملات البشرية ، فلا يتسبب عنها إلا النفاق والخداع والغدر والحسد فيما يتعامل به الناس . ومما تناوله جبران على لسان الشيـخ : الوهم ،

الدين ، الحب ، الموت ، العدل والعقاب ، الحق والقوة ، الحرية والعبودية ، والسعادة والأمل ، وغيرها .

أما الفتى العارى الخارج من الغاب يعزف على نايه بمرح ونشوة فهو يمثل حقيقة الحياة المجردة التي تهدى إلى نوز المعرفة الحقيقية ، وإلى الجمال المطلق ، وإلى التجرد من النفاق والخداع والغدر والحسد ؛ وبكلمة أخرى ، هو الهادى إلى سعادة الحياة حيث الخير والحب والجمال ، وهى الثالوث الذى يعبده جبران ، وقد عاش عمره كله يسعى لنشر عبادته بين الناس .

وقد سمّى جبران منظومته « بالمواكب » لأنها تصور مواكب أبناء الحياة فى حياتهم الواقعية الشقية ، كما تصوّر مواكب نفوسهم التى تنزع إلى هدفها البعيد وراء الحياة ، وهو الكمال الإنسانى .

ولما كان جبران رساماً رمزيًّا ، فقد جمع فى مواكبه أحد عشر رسماً ترمز إلى معانيها . ولكن رسوم جبران الرمزية لا يمكن أن يفهمها أو يشعر بجمالها إلا طائفة خاصة من ذوى الأذواق الفنية ؛ أو لعل كل متأمل فيها يستطيع أن يفهمها على الشكل الذى يريده . أما إذا وجدت من يشرحها كما أرادها جبران – وقد شرح نعيمه بعضها فى كتابه عن جبران – فهناك تظهر فيها مواطن البراعة والجمال .

ونترك هذه الرسوم الرمزية لأننا لا نستطيع أن نفهم مراميها ، لننظر كيف تتسلسل رسومه اللفظية فى أبيات منظومته ؛ فهى فى الواقع سلسلة صور تتعاقب من المطلع حتى الخاتمة . خذ مثلاً البداية التى تصوّر بلسان الشيخ حياة البشر كما هى فى علاقاتهم المنافقة :

الخيرُ فى الناس مصنوعٌ إذا جُبروا ... والشرّ فى الناس لا يفنى وإن قُبروا

وأكثر الناس آلاتٌ تحركُـــــها ... أصابعُ الدّهر يومـاً ثم تنكسرُ

فأفضلُ الناس قطعانٌ يسير بهـا ... صوتُ الرّعاة ومن لم يمْش يندثرُ

قد يكون جبران أساء التعبير فى الألفاظ ، كاستعماله لفظة « مصنوع » فى البيت الأول ، وهى الدلالة على المعنى الذى يريده ، ولرفعه للفعل « يندثر » فى البيت الأخير ، مع أنه جواب الشرط ، وحقه الجزم . ولكن لنتجاوز عن هذه التفاهات اللفظية ؛ ألسنا نرى الحياة أمامنا كأنما هى موكب واحد يجرى فى مقدمته

الرعاة ، والناس من خلفهم كأنهم القطعان تسير مذعنة إلى حيث تقاد ؟ إن هذه هي حقيقة الحياة كما نحياها ، وإن تكن ليست أصل صفات النفس البشرية المصنوعة من طينة الألوهية ، والتي لا تني تنزع إلى مصدرها الأعظم ، أو ذاتها الكبرى ؛ فلئن كان الناس بأجسامهم الترابية قطعاناً تساق إلى حيث تشاء أو لا تشاء ، فهم بنفوسهم أجزاء من إله ، يسيرون أبداً نحو صوته الذي يدعوهم إلى التحرر والكمال . وقد عبر جبران عن هذا فيما رَسمه بلسان الفتى ، فقد ردّ على هذا الشيخ بقوله :

ليس في الغابات راعٍ ... لا ولا فيها القطيعْ
فالشتا يمشي ولكنْ ... لا يجاريه الربيعْ
أعطني الناى وغنِّ ... فالغنا يرعى العقولْ
وأنينُ الناى أبْقَى ... من مجيد وذليلْ

وهكذا كلما حاول الشيخ أن يرسم صورة قبيحة من صور الحياة والعقائد والتقاليد البشرية ، وبعبارة أخرى ، من صور النفاق البشرى ، انبرى له الفتى يحبب إليه حياة الغاب – أو على الأصحّ يذكّره بجوهر الحياة المطلق – حيث لا نفاق ، ولا اختلاف ، ولا عقائد ، ولا تقاليد ، ولا طبقات ، ولا أطماع ، ولا شيء مما يعرفه المجتمع من فروق .

يقول الشيخ مصوراً الوهم الذى يسكر به أبناء الحياة ، وهو ليس سوى رغوة جوفاء :

قد قلَّ في الأرض من يرضى الحياة كما ... تأتيه عفواً ، ولم يحكم به الضَّجَرُ
لذاك قد حوّلوا نهرَ الحياة إلى ... أكواب وهْم إذا طافوا بها خدروا
فالناس إن شربوا سُرّوا ، كأنَّهمو ... رَهْنُ الهوى وعلى التخدير قد فطروا
فذا يعربدُ إن صلّى ، وذاك إذا ... أثْرَى ، وذلك بالأحلام يختمرُ
فالأرض خمارةٌ ، والدهرُ صاحبُها ... وليس يرضى بها غيرُ الألى سكروا
فإن رأيتَ أخا صحْوٍ ، فقل : عجباً ... هل استظلّ بغيم ممطر قَمَرُ ؟ !

فيرد عليه الفتى باسماً ، ساخراً من حماقات الناس :

ليس في الغابات سكْر ... من خيال أو مدامْ

فالسواقى ليس فيهـــا غـيرُ إكسير الغَمامْ
إنمـــا التخـــديرُ ثَدْىٌ وحليـــبٌ للأنـــامْ
فإذا شـــاخُوا ومـــاتـــوا بلغـــوا سنّ الفطـــامْ
أعْطنى النـــاىَ وغَـــنِّ فالغنـــا خـــيرُ الشَّرابْ
وأنـــينُ النــاى يــبْقَى بعـــد أن تفْنَى الهضابْ

ويصوّر الشيخ عدل البشر ، فيقول متألماً ناقماً :

والعدلُ فى الأرض يُبكى الجنّ لو سمعوا به ، ويستضحك الأموات لو نظروا
فالسجنُ والموتُ للجانينَ إن صغروا والمجدُ والفخْر والإثراءُ إن كبروا
فسارقُ الزّهْر مــذموم ومحتقـــرٌ وسارقُ الحقْل لَهْوَ الباسلُ الخطرُ
وقاتلُ الجسم مأخـــوذٌ بفعْـلَته وقاتلُ الرُّوح لا تدرى به البشَرُ

فيضحك الفتى السعيد ، البعيد عن مثل هذا العدل المجرم ، ويداعب بأنامله اللطاف ثقوب نايه ، ثم يعزف عليه أنشودته الساخرة من عدل البشر العجيب ، فيقول :

ليسَ فى الغابات عـــدْلٌ لا ولا فيهـــا العقابْ
فإذا الصّفصافُ ألْقَـــى ظلَّـــه فـــوق الـــتُّرابْ
لا يقولُ السَّرْوُ : هذى بدْعـــةٌ ضدّ الكتـــابْ
إنّ عدْلَ النـــاس ثَلْجٌ إن رأته الشمسُ ذابْ
أعْطنى النـــاىَ وغَـــنِّ فالغنا عـــدْلُ القلـــوبْ
وأنـــينُ النـــاى يـــبْقَى بعدَ أن تفْنَى الذّنـــوبْ

ويصوّر الشيخ ما يفهمه البشر من معانى الحق والقوة ، وبأيهما يؤمنون ، فيقول ، متأثراً فى ذلك بروح فيلسوف القوة الألمانى (نيتشه) صاحب (هكذا تكلّم زرادشت) :

والحقُّ للعزْم ، والأرواح إن قويَتْ سادَت وإن ضعفتْ حلّت بها الغِيَرُ
ففى العرينـــة ريحٌ ليس يقـــربهُ بنو الثعالب ، غابَ الأسدُ أم حضروا
وفى الزرازير جبْنٌ وهْىَ طائـــرة وفى البُزاة شموخٌ وهْىَ تُحتْضر

فيسخر الفتى من هذا الفهم البشرى الملتوى للقوة والضعف ، لأن جوهر الحياة الواحدة لا ضعف فيه ولا قوة ، فيهتف قائلاً :

ليس فى الغابات عزمٌ لا ولا فيها الضّعيف
فإذا ما الأسْدُ صاحتْ لم تقُلْ هذا المخيفْ !
إن عزْم الناس ظلٌّ فى فضَا الفكْر يطوفْ
أعطنى الناىَ وغَنٍّ فالغنا عزْمُ النفوسْ
وأنينُ الناى يبْقَى بعد أن تفنَى الشموسْ

فالشيخ فى هذا كله ، وفى سواه مما لم نسرده من شعر « المواكب » ، هو صورة الحياة الواقعية التى يحياها بنو الإنسان ، وأما الفتى فهو صورة للأمانى البشرية : أمانىّ الأخوة الحقيقية ، والعدل ، والحب ، والجمال ، والسعادة ، فهو إذ يحاول فى القسم الأخير من المنظومة أن يرسم للشيخ جمال الغاب ، فيسأله قائلا :

هل تخذت الغابَ مثلى منزلاً دونَ القصُورْ
فتتبعت السواقى وتسلقْتَ الصّخور
هل تحمَّمْتَ بعطْرٍ وتنشقتَ بنور
وشربتَ الفجّرَ خمْراً فى كؤوس من أثير ؟
هل جلستَ العصْرَ مثلى بين جفنات العنَبْ
والعناقيدُ تدلّتْ كثريّات الذّهَبْ
فهْىَ للصّادى عيونٌ ولمن جاعَ الطعامْ
وهى شهْدٌ ، وهى عطْرٌ ولمن شاء المدامْ

إنما يرمز بهذه الصور الطبيعية الزاهية إلى السعادة الكبرى ، والجمال الأعظم فى الإيمان المطلق بوحدانية الحياة ، وفى نزوع النفس إلى الاتصال بجوهرها الأسمى ، مبدع الوجود ، وواهب الحياة ؛ فالغاب هو رمز إلى جوهر الحياة الواحد ، أو هو – كما يفسّره ميخائيل نعيمه – رمز إلى حقيقة الحياة الواحدة الشاملة التى لا تتجزأ ولا تتفرّق .

وعندما يعرف الشيخ كل هذا عن الغاب الذى يدعو إليه الفتى العارى ذو الناى السحرى العجيب ، تثور فى نفسه عوامل النزوع إلى هذه الحياة الجميلة

حياة الغاب ، ولكنه يشعر بأن المدينة لا تزال تجذبه إليها ، فهو فيها مقيد بسلاسل قوية من شهواته ونوازعه . وأنَّى له أن يتملص من هذه القيود الثقيلة ؟ لذلك يهتف فى نهاية القصيدة معبّراً عن هذا الصراع العنيف الدائر فى نفسه وعن ألمه الشديد لعدم تمكنه من التخلص من قيوده الثقيلة التى تربطه بحياة المجتمع المنافقة ، فيقول :

العيشُ فى الغاب ، والأيامُ لو نُظمتْ فى قبضتى لغَدَتْ فى الغاب تنتثرْ
لـــكنْ هو الدّهرُ فى نفسى له أرب فكلّما رمْتُ غاباً راحَ يعتـــذرُ

وهكذا تتغلب شهوة الحياة الخسيسة على نوازع الخير فى النفس البشرية . فهل كان جبران فى هذا مصوّراً لنفسه وحده ، كما أراد نعيمه أن يصوّره فى كتابه عن جبران ، أم هى صورة كل أبناء الحياة على السواء ، ومنهم نعيمه نفسه ؟ !

٢ – على بساط الريح لفوزى المعلوف

تتألف مطولة « على بساط الريح » من أربعة عشر نشيداً تبلغ فى مجموعها مائتين وثمانية عشر بيتاً ؛ فهى بذلك ليست ملحمة بالمعنى المفهوم من الملاحم الشعرية التى عرفها الأدباء والمثقفون فى « إلياذة » هوميروس و « أوديسته » ، وفى « إنياذة » فرجيل ، ولا التى عرفوها فى أغنية دانتى الإلهية ، ولا فى فردوس ملتون المفقود أو فى (شاهنامة) الفردوسى ؛ ولكنها شيء أقرب ما يكون إلى المطوّلات الشعرية ، أو المعلقات ، وإن تكن مغايرة كل المغايرة فى جوهرها لما عرف إلى اليوم من ملاحم ومطوّلات ومعلقات شعرية ؛ فهى كما قال فيها فرنسيسكو فيلاسبازا : « مجموعة قصائد عميقة المغزى ، مرتبطة بفكرة واحدة ، وشعور واحد ، يغلب فيها التأمل على الفلسفة ، فترى روح الشاعر الحالمة متنبهة لأجمل مظاهر الطبيعة ، وأعمق العواطف الحية . كل ذلك فى شعر غنائى جلى[١] .

هى نفثات شاعر يحس بأنه مقيد بجسمه فى الأرض . ولكن روحه تسرح

(١) من مقدّمة (على بساط الريح)

حرة فى الفضاء الطلق الرحيب بين الأرواح العلوية الخالدة ، البعيدة عما يعرفه العالم الأرضى من أطماع ، وحزازات ، وشرور ، وشهوات ، وأدران ؛ شاعر يحزنه ما يراه فى دنياه من هذه الشرور التى يخلق بعضها العلم ، وبعضها الآخر الجهل ، ويسبب بعضها الغرور ، وبعضها الآخر الطمع ، وبعضها الرياء ؛ ويولّد بعضها الذكاء ، وبعضها البلادة . فهو لذلك يريد أن ينفى كل هذا من دنياه لتسعد ، وليهنأ فيها أبناؤها .

نفثات شاعر يتلهف شوقاً إلى الانطلاق من عبودية الأرض العمياء لمعانقة روحه المحلقة فى الفضاء . كل ذلك يصوّره بشعر رائع ، صادر عن طبع شعرى أصيل ، وسليقة فنية مطبوعة ، وملكة شعرية فائقة . فى كل من أناشيده فكرة ، أو مجموعة فكر رائعة ، يجلوها الشاعر الشاب نابضة بالحياة وبالفن ، نابضة بالصدق وبالحقيقة ، دافقة بالجمال وبالسحر ، عامرة بالوصف الشعرى البارع ، والرشاقة فى التعبير عن خطرات هذه النفس الشابة الشاعرة التى تتألم – أكثر من ألمها لنفسها – لألم العالم الذى تعيش فيه ، فتنشد له الأمن والراحة والطمأنينة .

لقد كان فوزى شاعراً موهوباً ، متفتح النفس والإحساس ، مطبوعاً على رقة الفن والشعور ، بعيد الخيال فى صدق ولطف ؛ ولقد اعتمدت ملحمته على الخيال كثيراً ، ولكنه خيال جميل صادق . ونحن لا نطلب من الشعر أكثر من أن يكون فى خياله عنصرا الصدق والجمال ، إذا اجتمع إليهما طلاوة فى التعبير ، ورقة فى الوصف .

والآن ننساق مع الشاعر خطوة خطوة ، مستعرضين هذه الصور الروائع ، والأحاسيس اللطاف المشرقات التى يعرضها علينا فى أناشيده الأربعة عشر من هذه المطولة الخالدة ، التى أراد فوزى فى بدء الأمر أن يجعلها قصيدة عادية ذات نشيد واحد ، ولكن أبت شاعريته إلا أن تجعل منها ملحمة طويلة . فقد ذكر شقيقه شفيق (فى ص ٣٢) من كتاب « ذكرى فوزى المعلوف » ما يلى : « نظم فوزى قصيدته « على بساط الريح » فى أيام قلائل ، وحسب أولا أن تكون قصيدة عادية ذات قافية واحدة ، فبدأها بالقطعة اللامية التى وصف بها الطيارة . . فما بلغ فيها البيت الذى يقول فيه :

حلّقى ، حلّقى وألّقى على الأف لاك رُعباً وروعة وفضُولا
واشهدى فى الطيور كرًّا وفرًّا واسمَعى فى النجوم قالاً وقيلا

حتى تفتقت له تصورات جديدة ، وتخيل له ما تقوله الطيور ، وتهمس به النجوم ، فنوّع قوافى القصيدة ، واندفع يعالج الموضوع الجديد الطارئ ، الذى جاء واسطة عقد الملحمة وجوهرة تاجها . وكان يقول : إنه لم ينظم فى حياته قصيدة بالسهولة التى نظم بها هذه ، فقد كانت الأفكار تجيئه عفواً ، واللفظ ينقاد له صاغراً » .

يبدأ شاعرنا الملهم ملحمته فى النشيد الأول بوصف ما يسميه « مملكة الشاعر » – مملكة روحه التى يبحث عنها – فى الفضاء ؛ فيصف هذه المملكة بشعر نقرأه مبهوتين ، وننساق مع خيالاته على أجنحة لطاف خفاف ، تحلّق بنا فى السموات العلا ، فيتمنى كل منا لو يكون ذلك الشاعر صاحب تلك المملكة الخيالية الرائعة ، التى لا يعرف صاحبها معنى الدسائس والأطماع والغرور والرذائل :

فى عُباب الفضاء فوق غيومهْ فوقَ نسْرهْ – ونجْمَتهْ
حيثُ بثَّ الهوى بثغْر نسيمه كلَّ عطْره – ورقّتهْ
موطنُ الشاعر المحلق منذ ال بدء لكنْ بروحه لا بجسْمهْ
أنزلتْهُ فيه عروسُ قوافيـ ـه بعيداً عن الوجود بظلمهْ
ملكٌ : قُبّةُ السماء له عر شٌ وقلبُ الأثير مسْرحُ حكمهْ
ضاربٌ فى الفضاء : موكبُهُ النو ر وأتباعه عرائسُ حلمهْ
تاجهُ هـالَةٌ ينضّد فى فضّـ ـتهـا الأفْق بدره قرب نَجْمهْ
والدُّجَى طيلسانُه ، فاح كافو ر دراريه فوق عَنْبر فَحْمهْ
والثريـا فى كفهٌ صولجـان دُرّه لَمَّـهُ الصَّبـاح بكمّهْ
ملك طـائرٌ بغير جنـاحيـ ـن بأمر الخيال يقْضى وباسمه

ثم يمضى شاعرنا فى إبداعه فيصف فى النشيد الثانى « روح الشعراء » ، فيناجيها مناجاة كلها لطف ورقة ، ويصفها وصفاً كله جمال وبراعة :

أنتَ يا روحَهمْ من النور ذرا تٌ أضاءتْ فى الكون فى عالَمَيه
أنتَ من عالم بعيد عن الأر ض يفيضُ الجلالُ عن جانبَيهِ
هو فردوسُك السحيقُ فلا الإثـ ـمُ ولا الشرُّ يبلغان إليْهِ

وفَى الشعر فيه يستنزل الوحى · بياناً يجثو الخلــودُ لديْهِ
ما احمرارُ الأصيــل غيرُ لهيب · شعَّ من قلبــه على شفتيْهِ
ما ندَى الفجْر غير لؤلؤ دمْــع · رشفتهُ الأزهارُ من محجرَيْهِ
وبريقُ النجــوم غيرُ شظايا · كأس حب تحطمتْ فى يديْهِ

وأما النشيد الثالث فإنه يزخر بالصدق ، وبالجمال فى تقرير الحقيقة المرة الواقعة ، والتعبير الرائع عن خلجات النفس المرهفة الحساسة . وهو وصف لعبودية الحياة لا نظنّ أحداً بلغ فيه مدى فوزى من الجودة والرقة . يقول الشاعر :

أنا عبدُ الحياة والموت ، أمشى · مكرهــاً من مهودها لقبورهْ
عبدُ ما ضمت الشرائع من جو · ر يخطُّ القوىُّ كلَّ سطـــورهْ
بيراع : دمُ الضّعيف له حبـ · ـرٌ ونوحُ المظلوم وقْعُ صَريرهْ
أنا عبدُ القضاء ، تملأ نفسى · رهبــةٌ من بَشيره ونَذيــرهْ
عبدُ عصْر من التمدّن ، نلهو · ضلَّــة عن لبابه بقشــورهْ
عبدُ مالى ، أحظى به بعد جهْد · فإذا بِى أنوءُ من ثقْل نيرهْ
عبدُ إسمى ، ذوّبتُ روحى وجسمى · طمَعاً فى خلــودِه ونشورهْ
عبدُ حبى ، أنزلتُه فى فؤادى · فكَوى أضلعى بنار سعيرهْ
أنا فى قبضـــة العبودية العمـ · ـيــاء أعمى مسيرٌ بغرورهْ

إلا أنه إذا كان الشعر الرفيع هو الذى يجعلنا نفكر ، بل نغرق فى التفكير ، بعد قراءته ، فهذه الملحمة التى زين بها فوزى المعلوف الخزانة العربية هى قطعة من هذا الشعر السامى ؛ وهذا النشيد خاصة من هذه الملحمة ، هو من أروع الشعر الذى يحملنا على التفكير العميق ، لأن كلاًّ منا يرى فيه صورة نفسه ، وصورة أحاسيسه . ومن منا ليس ذلك العبد الذى يصفه شاعرنا بهذا الأسلوب المتدفق الرشيق ؟ من منا ليس عبداً لحبه ، ينزله فى فؤاده ، فتكتوى أضلعه بناره ؛ وعبداً لاسمه ، يذوّب جسمه وروحه فى سبيل خلوده ؟ ومن منا لا يشعر بأنه فى قبضة العبودية العمياء ، ولكنه مسيّر بغروره ؟

إلى هنا ولم نعرف بعد شيئاً عن « بساط الريح » . لقد رافقنا الشاعر فى ثلاثة أناشيد من ملحمته ، ولكننا لم نتجاوز بعد دور التمهيد لهذه الرحلة الغريبة ، التى

يقوم بها شاعرنا بحثاً عن روحه التى تسرح حرة فى أجواز الفضاء ، هذه الروح التى يتلهف إلى معانقتها ويغامر – فى الخيال ، طبعاً – مغامرة لم يسبقه إلى مثلها شاعر ، سوى صاحب بياتريس – دانتى ألليجيرى – الذى نزل فى الخيال إلى الجحيم ، ثم ذهب إلى المطهر ، ثم صعد إلى السماء ، باحثاً عن صاحبته ، ووصف فى أغنيته الإلهية ما شاهده فى تلك الرحلة الغريبة من عجائب وأهوال . فكلا هذين الشاعرين رحل باحثاً عن شيء عزيز عليه ، حبيب إليه : دانتى عن حبيبته بياتريس ، وفوزى عن روحه التى يشعر بأنه يعيش على الأرض من دونها .

والنشيد الرابع من الملحمة يرينا كيف بدأت هذه الرحلة التى رحلها شاعرنا فى الحلم . وفى هذا النشيد وصف للطائرة لم يُسبق شاعرنا الملهم إليه ؛ وصفٌ فيه جمال وفيه براعة ، وفيه خيال بعيد موهوب :

صعِّد الطرْف فى الأثير ، تجدنى	قاطعاً فى الأثير ميلاً فميلا
خبباً تارة ، وطوراً وئيداً	صُعُداً مرةً ، وأخرى نُزولا
فوقَ طيارة على صهوات الر	يح راحتْ تروّضُ المستحيلا
هىَ طيرٌ من الجماد ، كأن الـ	جنَّ فى صدْرها تحثُّ خُيولا
حمحمتْ تضربُ الرياح بنعليْـ	ـها فشقتْ إلى السماء سَبيلا
ثمّ مدّتْ إلى النجوم جناحيـ	ـن ، وجرَّتْ على السحاب ذيولا
غرقتْ فى الأصيل حيناً ، وعامت	بعد حين تعلو قليلاً قليلا
ترتدى من دخانها بُرْدة الليـ	ـل وتلقى عن منكبيْها الأصيلا
وعليها من الشرار نجومٌ	عقدتْ حولَ رأسها إكيلا
حلِّقى ، حلِّقى ، وألقى على الأفْـ	ـلاك رُعْباً وروعةً وفضُولا
واشْهدى فى الطيور كرًّا وفرًّا	واسْمَعى فى النجوم قالاً وقيلا

ثم يمضى فيصف فى النشيد الخامس رحلته بين الطيور ، وتهامس هذه الطيور فيما بينها عن هذا « الطائر الغريب الذى يبث اللهبَ بركانُ صدره ، والذى جاء يستعمر الفضاء بأسره ، ويقذفه بالرعب والروعة والفضول » . والذى . . « كرة الأرض عن مطامعه ضاقت فحطت هنا مطامح فكره » . وإذ ينتهى الشاعر فى هذا النشيد من تصوير فزع الطيور وتهامسها وتساؤلها ، يمضى فى النشيد السادس

يصف نفسه بشعر يغلب عليه الألم واليأس ، فيقول للنسور عن نفسه وهو يهدئ من روعها :

هُوَ فى مَيْعَة الشباب ولو حد دقتِ فيه ألفيتِ شيخاً هزيلا
فهُـوَ لا يعـرف التبسّمَ إلاّ عندما يستعيـدُ حلْمًا جميلا

إنها لصورة من أعمق صور الألم وأعنفها أن لا يعرف الإنسان التبسم إلا عندما يستعيد من أطواء النسيان حلماً جميلاً ابتلعه حوت الماضى ، وغيّبته الأيام فى حنايا ظلماتها .

وفى النشيد السابع يأخذ الشاعر فى تصوير فزع النجوم ، بذلك الأسلوب الرشيق الطلىّ الذى وصف به فزع الطيور . وفيه يصف الإنسان على لسان أحد النجوم فيقول :

هو من خلْق عالم إسْمُه الأ رضُ يغطى الشقاءُ كلَّ بطاحه
عالمٌ ما شعارُه غير أن الـ حقّ للقوّة التى فى سلاحهْ
لا تخافى منه ، وخلّيه يعلـو فقريباً يهوى صريعَ كفاحهْ

وأود أن أقف عند هذا البيت الأخير قليلاً لأسجل أن فيه نبوءة شاعر — وفى الشعراء أرواح الأنبياء أحياناً — قد حققتها الأيام . فليس من شك فى أن الإنسان الذى اخترع الطيارة ، قد جعل هذا الاختراع من أكبر أدوات التدمير وأهمها فى الحروب الهمجية الأخيرة ، التى عادت بالبشرية عشرات القرون إلى الوراء . وهو فى صواريخه الرهيبة الجديدة سيحقق للبشريّة الفناء والدمار ، وبذلك نستطيع أن نقول إن الإنسان قد هوى صريع كفاحه حقاً ، فتحققت بذلك نبوءة شاعر « على بساط الريح » أو هى ستتحقق بعد حين .

ونسير مع الشاعر فى رحلته الشعرية الشائقة ، فنسمعه فى النشيد الثامن يبث النجوم الفزعة شكواه ، كما بثها الطيور فى نشيد سابق . فنرى فى هذا البثّ أشواق تلك النفس التى يئست من وجود الخير فى الأرض ، فراحت تنشده فى السماء . ولكأنى بالشاعر فى هذا النشيد ، وفى النشيد العاشر الذى سنراه بعد قليل ، يتنبأ باختصار عوده فى ميعة الشباب وزهرته ، فيحاول أن يترك فى الناس من بعده صوراً صوادق لأحاسيسه وأشواقه ، وآلامه وأوهامه . فيقول فى هذا النشيد الثامن :

عشتُ بين المنى يراودُ نفسى خُلَّبٌ من طيوفها وعقــامُ
أقتفيها وفى يدىّ فــؤادى ثم أُلوى وفى يـــدىَّ حُطامُ
أىُّ عــود حملتُه للتلهـــى لم تقطّع أوتارَهُ الأيامُ ؟
أىُّ كأس قرّبتُه من شفاهى لم يحلْ حنظلاً عليه المدامُ ؟
ضاعَ عمرى سعْياً وراء رسوم خطّطتّها فى الشاطئ الأقدامُ

وأنا أكاد أجزم بأن هذا العمق فى الإحساس هو الذى جنى على الشاعر ، وعجل بالقضاء عليه قبل الأوان . كما أننى أعتقد – وأنا أسوق رأيى فى شاعرية فوزى – أنه ليس فى وسع شاعر أن يأتى بأبدع وأكثر مما جاء به فوزى فى هذه المطوّلة ، وفى أخواتها من أناشيده الروائع . فإذا كان الشعر الحق تصويراً صادقاً لنفس الشاعر ونوازعه ، وتصويراً للمجتمع بآلامه وأفراحه ، بأوهامه وحقائقه ، ومحاولة للسمو به ، فقد صوّر فوزى كل ذلك فى مطوّلاته حتى لأوفى على الغاية . وقد قلت « مطوّلاته » لأن لفوزى عدا « على بساط الريح » أربعة دواوين – كما ذكر فيلاسبازا فى مقدمته لهذه الملحمة – وهى « شعلة العذاب » و « تأوهات الروح » و « من قلب السماء » و « أغانى الأندلس » ؛ وإن كنا لم نعرف منها سوى مطولتين ، هما « شعلة العذاب » و « على بساط الريح » .

ونتابع السير مع شاعرنا الموهوب فى رحلته على بساط الريح ، فنرى الارواح فى نشيده التاسع يتألبن عليه جماعات ملأن الجو الفسيح دوياً لأنهن « شممن فى السديم ريح أنس » . ونراه فى حيرة إذ يسمع أصواتاً ، ويعى أشياء ، ولكنه لا يرى شيئاً . ونسمع وصفه لهذه الأشباح التى تساوره ، والتى تحوم ثم تهوى ترفّ بين يديه . وهو يستمع إلى ما توشوشه هذه الأرواح عنه ، فيمضى يتلوه علينا فى النشيد العاشر ، الذى جعل الشاعر عنوانه « حفنة التراب » ، والذى يقول فيه عن الإنسان :

ليته عادَ للثّرى مثلمـــا جا ء نقياً بنفسه وإهابهْ
جاء والحسْنُ والرُّواء رفيقـــا ه وثوبُ العفاف كلُّ ثيابهْ
وتولّى يقـــوده الإثمُ والدَّا ء إلى القبر فى ربيع شَبابهْ
هو يحيا للشر ، فالشرُّ يحيا أبداً حيثُ حلَّ شؤمُ ركابهْ

وشاعرنا يرى فى هذا النشيد أن . . .

. . . . كلّ النبات الذى فى الـ أرض من زهره إلى لبلابه
ليس إلاّ عصير أجسام مَن ما توا فزانوا الثرى بأجمل ما بهْ

فهو فى هذا يتفق مع أبى العلاء القائل :

« خفف الوطء ، ما أظن أديم الـ أرض إلاّ من هذه الأجساد »

والواقع أن بين المعرى وفوزى المعلوف تجاوباً عظيماً فى نظرتهما إلى الحياة ، وفى آرائهما فى الموت والخلود ؛ فلقد انطوى المعرى على نفسه يتأمل الدنيا من خلال عَماه ، فبدا له أن شرها يطغى على خيرها ، فعافها وهام بحربها . وأطال فوزى التأمل فيها ببصره وبصيرته معاً ، فلم ينتج له تأمله إلا كرهها ومقتها ، فضم قلمه إلى قلم شيخ المعرة فى محاربة الحياة والناس .

وفى النشيد الحادى عشر نستمع إلى تتمة الوشوشة التى تبدأ فى النشيد السابق ؛ فهنا فى هذا النشيد تتكلم روح أخرى . أو على الأصح يتابع الشاعر بلسان روح أخرى نقمته على الإنسان : ذلك المخلوق الشرير الذى سخر سائر قواه للبشر ، وللهدم والتدمير ، والذى :

أُعطىَ النطْق والحجى ميزة تفـ رقهُ فى الوجود عن حيَوانهْ
فإذا بالأذى وليـدُ حجـاهُ وإذا بالشرور بنْتُ لسـانهْ
ليتَه لم يكن ذكيًّا ! فكـلُّ الـ ويل فى الكون من نُهَى إنسانهْ

وفى النشيد الثانى عشر تظهر روح الشاعر « فتطوّقه بكل عطف » ، وتقف بين الأرواح الصاخبة الثائرة ، لتدفع عنه ما ترميه به هذه الأرواح من جارح القول ، ولتخلّصه من « غضب العالم الفخور بشمسه » وتعتذر عنه بقولها :

هو بالرّغم عنه من عالم الأر ض تزياً بشكل أبْناء جنْسهْ
سكنَ الأرضَ مرغماً ، وهو لوخُـ يّرما اختارَ غير ظلْمة رَمْسهْ

وفى النشيد الثالث عشر ، يصف وقفته مع روحه بقلب السماء يتمليان من القبل ويغرقان فى فرحة اللقاء ، وهما يجلسان على بساط من السحب « يفوح الغرام من جنباته » فينتقلان إلى فضاء من البحران والغيبوبة ، و « يملآن من لفح قبلاتهما الجو » . كل ذلك يصفه بشعر بليغ ، وخيال بعيد متدفق تطول به متعة القارئ ،

ويسمو بروحه إلى أجواء شعرية ساحرة .

وما تمرّ بضع دقائق على فرحة الشاعر بلقاء روحه ، وكأن هذه الدقائق من عمر الخلود فى هذا الموقف الشعرى الساحر ، حتى نراه وقد عاد إلى اليقظة ، وإلى دنيا الواقع – وذلك فى النشيد الرابع عشر – وقد زال الحلم الجميل الذى سعد بحلاوته لحظات طوالا ، وزالت معه حلاوته . فيتلفت الشاعر حوله ، فلا يرى سوى يراعه . فيهتف مناجياً هذا السمير الأمين . وهذا الرفيق المخلص :

يا يَراعى ! مازلتَ خيرَ صديق لىَ منذُ امتزجتَ بى ، وستبقَى
باسماً من سعادتى حينَ أهنا باكياً من تعاستى حين أشْقَى
كم حبيب سلا ، وعهْدُكَ باقٍ فهو أوفى من كلّ عهدٍ وأبقى
يا يراعى ! رافقتَ كلَّ حياتى فاروِ عنِّى ما كانَ حقاً وصدْقا
أنا لم ألق مثل صمْتك صمْتاً حوّلَتْهُ عرائسُ الشعْر نُطْقا

* * *

هذه هى ملحمة « على بساط الريح » للشاعر اللبنانى الخالد ، المرحوم فوزى المعلوف ، وهى فى يقينى ، درة ساطعة ، فى تاج الشعر العربى الحديث ، لو اجتمع فى أدبنا عدد من مثلها لكان قبلة عشاق الأدب العالى .

٣ – الحكاية الأزلية

٤ – الطلاسم

لإيليا أبى ماضى

لإيليا أبى ماضى ثلاث مطوّلات شعرية فى الواقع ، هى : « الطلاسم ، والحكاية الأزلية ، والشاعر والسلطان الجائر » – اثنتان منها منشورتان فى ديوانه « الخمائل » وهما : « الشاعر والسلطان الجائر – والحكاية الأزلية » أما الثالثة « الطلاسم » فمنشورة فى ديوانه « الجداول » . هذا عدا الكثير من قصائده الأخرى

التى طال فيها نفسه الشعرى ، وتنوّعت فيها القوافى أحياناً ، أو اقتصرت على قافية واحدة أحياناً أخرى .

غير أننى سأقتصر ههنا على اثنتين من مطولاته هذه ، وهما من الشعر التأملى ، الفلسفى والاجتماعى . وقد سبق أن تحدثت عليهما فى كتابى « إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث »[1] ، وههنا مجال لنقل ما نشر فى ذلك الكتاب لاستكمال البحث فى المطوّلات الشعرية المهجرية .

الحكاية الأزليه

تسيطر الصبغة التأملية على قسم كبير من شعر إيليا أبى ماضى ، وتكاد تكون ملهمته الكبرى . ولا عجب ، فأعضاء « الرابطة القلمية » الأربعة البارزون – وهم : جبران ، ونعيمه ، وأبو ماضى ، وعريضة – يشتركون فى أن الميزة الكبرى لأدبهم هى أنه مستمد من صميم الحياة والنفس البشرية ؛ فطول تأملهم فى خفايا الحياة وفى منازع النفس البشرية ، جعلهم ينتجون إنتاجهم الأدبى السخى ، المثقل بالعناقيد النواضج ، والثمار الزواهى .

ومن أبرز قصائد أبى ماضى التأملية « أسطورة الوجود ، أو الحكاية الأزلية » ، وهى قصيدة مطولة ذات مائة واثنين وأربعين بيتاً ، تجمعها عشرة أناشيد ، يتمثل فيها أبناء الحياة على اختلاف طبقاتهم ونوازعهم النفسية .

والحكاية أزلية حقاً ، فالإنسان منذ أن وجد على الأرض لم يرض قط بنصيبه من الحياة ، ولا بقسمته من الوجود ، فهو أبداً ناقم على هذه القسمة يريد تغييرها ، ولكنه لن يرضى أو يقنع أبداً ولو تغيرت قسمته فى كل لحظة .

ولقد عالج أبو ماضى هذا الموضوع على طريقته الشعرية الفذة – طريقة الحكاية الأسطورية – التى برع فيها بحيث يندر أن يجاريه فيها شاعر عربى آخر ، والتى من أبرز مزاياها القدرة الفائقة على تصوير مختلف الأحاسيس الإنسانية بحيث تنقلها إلى القارئ بيسر وسهولة .

---

(١) الطبعة الأولى (عمان سنة ١٩٥١) والطبعة الثانية فى منشورات عويدات (بيروت سنة ١٩٥٨) .

وتتلخص هذه الحكاية فى أن الناس قد ضجّوا مرة بالشكوى إلى الله ، وودوا لو أعاد تكوينهم من جديد . فنزل ذو الجلال على مشيئتهم ، وهبط إليهم فى ليلة قمراء ، يستمع إلى شكاياتهم ، ويتساءل عن مصدر هياجهم . فتقدم إليه كل منهم بشكواه ؛ وأول المتقدمين شاب ناقم على حظه من الحياة لأن الله قد جعله شاباً يعيش بين جماعات من الشيوخ الذين لا يرون فى الشباب إلاّ طيشاً ورعونة وحمقاً ؛ فهو لذلك يريد أن يسرع به الزمن ليغدو شيخاً حكيماً ، فيتخلص من أحلام الشباب التى يشقى بها كثيراً :

عبءٌ على نَفْسىَ هذا الصّبى ... أجائشُ المستوفزُ الطّامى
يزرعُ حولى زهَراتُ المـنى ... وشوكُها فى قلبىَ الدّامى
خذْهُ وخذ قلبى وأحلامَهُ ... فإننى أشقى بأحـلامى
وازرعْ نجومَ الشيب فى لمَّـتى ... فينجلى حِنْدِسُ أوهامى

ولا يكاد الفتى ينتهى من شكواه ، حتى يقف بين الجمع شيخ « مشتعل اللمة بالى الإهاب » :

كأنمـا زلزلـةٌ تحتَهُ ... ممَّـا به من رعشة واضطرابْ

فيصرخ سائلاً خالقه أن يأخذ كل حكمته ويردّ عليه الشباب ؛ فقد ذبلت حياته بذبول أمانيه ، وهو يريد المنى أمامه لا وراءه ، ولو زادت بها متاعبه :

مُرْ تقف الأيامُ عن سيْرِها ... فإنها تركضُ مثْلَ السحابْ
وضعْ أمامى ، لا ورائى ، المنىَ ... وطوّل الدَّرْب وزدْ فى الصّعابْ
ما لذّتى بالماء أرْوَى بـه ... بل لذّتى فى العَدْو خَلْفَ السرابْ

وتنهض بعده فتاة حسناء ، فتعاتب ربها لأنه خلقها جميلة ، والجمال لا يورث إلا الفضائح والأقاويل :

وجْهى سنىٌّ مشرقٌ ، إنمـا ... مرعى عيون الخلق هذا السَّنى
كم ريبــةٍ دبّتْ إلى مضجعى ... وتهمةٍ حامتْ على مَسْكنى
لم يبقَ فى روحىَ من موضعٍ ... ياربّ لم يُخدشْ ولم يُطْعَنِ
كأنّمـا لا أدبٌ ممكنٌ ... مع الجمالِ الرّائع الممكنِ

فهى لا تسلم من ثرثرات الألسنة ، ومن خيانة الأعين التى تلاحقها بغمزات الخنى والريبة .

ثم تسكت الحسناء ، فتهبّ الجارية الدميمة حانقة ناقمة على قسمتها القبيحة فتقول :

ذنبى إلى هذا الورى خلْقَتى فهل أنا المجرمةُ الجانيهْ ؟
إن أخطأ الخزّافُ فى جَبْله الـ طينَ ، فأىُّ الذنب للآنيهْ ؟

فهى تعلم أن للجمال « الرتبة العالية » ، فلو كانت جميلة :

لباتَ من أسجدُ قدّامَهُ صاغرة ، يسجدُ قُدّاميَهْ

وترى أنها تعيش فى عالمٍ أحكامُه جائرة ، ومن جور هذه الأحكام أنه :

ليس لذاتِ القبحِ من غافرٍ وفيه من يغفر للزّانيهْ

وقد ذكر الإنجيل أن السيد المسيح قد غفر للزانية ، وأنقذها من الرجم ؛ فمن هو الذى غفر لفتاة دميمة دمامتها ؟ ولِمَ لا يهبها الله الحسن ، وهو الذى خلق نفسها على صورته ومثاله ؟

ولا تكاد تنتهى من شكواها حتى يهبّ الصعلوك الفقير ناقماً بدوره ، شاكياً من تحكم الموسر فى نفسه ، ومن تجرّعه كؤوس الفقر والهوان ؛ ويقول إنه لا يحسد الغنىّ ولا يتمنى زوال النعمة عنه ، ولكن :

يا ربّ لا تنقلْهُ عن أنسه ولكن انقُلْنى إلى الأنس !

فما يمكن أن يذوق طعم الهناءة ما دام يشعر بهوانه أمام سعادة الآخرين . و :

لو لم يكنْ غيرىَ فى غبْطةٍ ما شعرَتْ روحىَ بالبُؤس

ثم يتنحّى ، فينهض الغنى على إثره شاكياً . . . وممّ يشكو ؟ ! إنه يشكو تحكم المال فى نفسه ، وعبوديته له قبل جمعه وبعده :

أنفقتُ أيامى على جمْعها وخلتُنى أدركتُ أمنيَّتى
فاستعبَدتْنى فى زمان الصّبا وأوقَرتْ بالهم شيخوختى
قد ملكتْنى قبلَما حزتُها وملكتنى وهْىَ فى حوزتى

والذى يشكوه بالأكثر هو شقاؤه الشديد فى خوفه المستمر من ضياع هذا المال :

والخوفُ من كارثة لم تقَعْ أمَضّ من كارثةٍ حلَّتِ

فيطلب من الله أن ينزع المال من قبضته ، وينزع معه صلابة الدينار من سحنته ، على شرط أن يحول ماله إلى راحة إذ يحوّل قصره إلى خيمة .

وينهض بعده الأبله ، فيبثّ بدوره شكواه لهذه القسمة الجائرة التى منى بها ، ويعاتب ربه قائلاً :

ألم يكنْ يكملُ هذا الورى إلا إذا أوجدتَـنى فى فسادْ ؟
إن كنتُ إنساناً فلمْ يا تـرى لست بإدراكى كباقى العبادْ ؟
أم أنت كالحقْـل : على رغْـمه ينمو مع الحنْطة فيه القَـتادْ ؟

وبعد أن ينتهى ، يتقدم « الألمعى العبقرى اللبيب » . . وهل يخلو العبقرى أيضاً من نقمة على عبقريته ، وعلى قسمته من الحياة ؟ إنه يرى نفسه « غريباً فى مكان غريب » ، لأنه لا يستطيع أن يعيش كما يعيش عامة الناس ، فيؤمن بما يقبلونه ويكفر بما لا يؤمنون به ، ولكنه يحب أن يبحث عن كل صغيرة وكبيرة : فإذا ضحك الناس أو بكوا حاول أن يعرف سبب ضحكهم وبكائهم ، وكذلك يحاول أن يعرف لماذا تبدو الكواكب وتغيب ، وأسرار الوجود ، والماضى والحاضر والمستقبل ؛ فإذا لم يتوصل إلى معرفة كل ذلك فهو شقى بعقله :

لو أننى كنتُ بـلا فطْنَـة سِرتُ ولم تكـثر أمامى الدُّروبْ
مـا العقلُ يا ربى سوى محْنَـةٍ لولاه لم تكتبْ علىّ الذنـوبْ

وأخيراً . . . أخيراً جدًّا تنتهى الشّكايات كلها ، ويقف الجميع فى انتظار حكم الكائن الأعلى . . . :

لمـَّا وعى اللهُ شكايا الورى قال لهمْ : كونوا كما تشتَهُونْ !

فكانوا كما يشتهون : عاد الشيخ فتى ، والفتى شيخاً ، وصارت الحسناء دميمة ، والدميمة حسناء ، وانقلب الصعلوك غنيًّا ، والغنىّ صعلوكاً ، وأصبح الأبله عبقريًّا والعبقرىّ معتوهاً . . ويطلع الصباح على الكون ، فإذا الحياة هى هى من جديد : فيها الشاب والشيخ ، والحسناء والقبيحة ، والفقير والغنى ، والأبله والباقعة . . . وإذا الشكوى ما تزال هى الشكوى ، تتردد فى دواليب الدهور بنغمتها الأزلية الواحدة ، ولا تنتهى . . . ولماذا ؟ . . . ذلك لأنهم :

هم حدّدوا القُبْحَ ، فكان الجمالْ وعرّفوا الخيرَ ، فكان الطّلاحْ

وأما الحقيقة التى لا تتغير – كما يراها أبو ماضى – فهى أنه :

وليسَ من نقصٍ ولا من كمالْ فالشوكُ فى التحقيق مثل الأقاحْ
وذرّة الرّمْـل ككـلّ الجبـــالْ وكالذى عزّ الذى هانـا

الطلاسم

وهذه المطولة هى مجموعة تأملات متطلعة إلى البحث عن الحقيقة ، يرسلها عقل كبير ، لا يقنع بالوقوف عند الظواهر والقشور ، بل يحاول التغلغل إلى الأعماق . ويبلغ مجموع هذه المطولة واحداً وسبعين مقطعاً ، يتألف كل منها من أربعة أبيات ، تنتهى دائماً بعبارة « لست أدرى » . ويستهل الشاعر طلاسمه بالتساؤل الحائر عن مصدره وعن سر وجوده :

جئتُ ، لا أعلمُ من أينَ ، ولكنى أتيتُ
ولقد أبصرتُ قدّامى طريقـاً ، فمشيتُ
وسأبقى سائراً ، إن شئتُ هذا أم أبيْتُ
كيف جئتُ ؟ كيف أبصرتُ طريقى ؟
لستُ أدرى !

لقد جاء إلى الوجود ، وها هو ذا يحيا فيه ، فمن أى عالم جاء ؟ وكيف جاء ؟ وهل هو شيءقديم أم جديد فى الوجود ؟ مقيد أم طليق ؟ وهل طريقه طويلة أم قصيرة ؟ وهل كان ، قبل أن يأتى إلى الوجود ، شيئاً يشعر بوجوده ، أمْ لم يكن شيئاً ، ولا كان يمكن أن يدرك شيئاً ، أو يشعر بشىء ؟

يتساءل الشاعر عن كل ذلك بحيرة يخنقها الجهل والظلام ، ولكنه لا يجد الجواب عن شيءمن أسئلته من عند نفسه ، فيهتف :

ألهــذا اللُّغْز حَلٌّ ؟ أم سيبقى أبديًّا ؟
لستُ أدرى ! ولمـــاذا لست أدرى ؟
لست أدرى !

فينطلق إلى البحر يسأله ، وتتشعب الأسئلة وتتنوع ، وفى تلك الأسئلة يقول :

فيك مثلى أيُّها الجبَّار أصدافٌ ورمْلُ
إنما أنتَ بلا ظِلٍّ ، ولى فى الأرض ظلٌّ
إنَّما أنتَ بلا عقلٍ ، ولى يا بحرُ عقْلُ
فلماذا يا تُرَى أمضى وتبْقى ؟ !
لستُ أدرى !

وحين لا يجد عند البحر جواباً عن شيء من أسئلته يمدّه ولو ببصيص من النور الذى ينشده ، يتركه ويمضى إلى الدير ، فقد قيل له إن هناك قوماً عندهم مفاتيح الحياة ، وأسرار العلوم ، وكنوز الحكمة والمعرفة . غير أنه ما يكاد يصل إلى الدير حتّى تستقبله على الباب لوحة مكتوب عليها بالخط العريض : « لست أدرى ! »

قد دخلتُ الدّيْرَ أستنطق فيه النَّاسكينا
فإذا القومُ من الحَيرة مثلى باهتُونا
غلب اليأسُ عليهمْ ، فهمو مستسلمُونا
وإذا بالباب مكتوبٌ عليه :
« لستُ أدرى ! »

فيغادر الشاعر الدير ، ويمضى فى سبيله حتّى يصل إلى المقابر ، فيلقى عليها فيضاً من الأسئلة . وتثور فى نفسه التأملات ، والخواطر المستغربة الحائرة ، التى تبحث عن جواب تطمئن إليه ، فيخاطب نفسه قائلاً :

انظرى كيف تساوَى الكلُّ فى هذا المكانِ
وتلاشَى فى بَقايا العبْدِ ربُّ الصوْلجانِ
والتقى العاشقُ والقالى فما يفترقانِ
أفهاذا منْتَهى العدل ؟ فقالتْ :
لستُ أدرى !

فيعود كما جاء والحيرة هى هى لا تنقشع ، والأسئلة هى هى لا تلقى جواباً . فينطلق الشاعر حتّى يصل إلى قصر شاهق فخم فيلجه ويمضى فى استرساله

إلى خواطره وأسئلته . ولكنه لا يسمع جواباً . فينصرف إلى المقابلة بين القصر والكوخ فلا يجد فى الحقيقة فرقاً بينهما ؛ أوليس صاحب هذا وصاحب ذاك يشتركان فى كل الصفات والمزايا العامة ؟ ألا يتقلب على كليهما الليل والنهار ويساور نفسيهما الشك واليقين ، والغضب والرضى ، والرجاء والخشية ؟ إذن فكل ما بينهما من فوارق إنما هو وليد الأوهام البشرية السخيفة .
أما الطبيعة الأمّ فلا تعرف هذه الفروق ، لأن كل المخلوقات فى عينها سواء :

سائل الفجْرَ : أعندَ الفجْر طينٌ ورخامْ ؟
واسأل القصْرَ : ألا يخفيه كالكوخ الظَّلامْ ؟
واسأل الأنجُمَ والرّيحَ ، وسَلْ صوبَ الغَمامْ
أترى الشيء كما نحن نراهُ ؟
لست أدرى ؟

وينصرف الشاعر بعدئذ إلى التساؤل عن مصدر الأفكار والخواطر التى تعتلج فى عقول البشر وضمائرهم ، أو فى رؤوسهم وصدورهم ، فلا يجد جواباً . ويرى ما يقوم فى نفسه من صراع مستمر بين الخير والشر ، أو بين الملاك والشيطان – كما يقول – وما يدفع كل منهما من لذة أو غصة ، من سعادة أو شقاء ، من اشتهاء أو كراهية ، من حب أو بغض ، من حسن أو قبح ، فيقابل بينها جميعاً . ولكنه لا يهتدى من مقابلاته إلى شيء يبدّد حيرته ، لأن كل ما فى حياته ودنياه « طلاسم » يعجز العقل عن الوصول إلى كنهها ، وتفسير رموزها .

وحين يمل الشاعر الطواف ، وتسأم نفسه التساؤل ، ثم لا يقع على شيء من الحقيقة التى أجهد نفسه فى البحث عنها ، يعود من جديد إلى حيث بدأ . . . يعود إلى نفسه ، يتساءل عن كنهها وعن حقيقتها ، فلا يزداد إلا عماية وحيرة : فيهتف :

أنا لا أذكر شيئاً من حياتى الماضيهْ
أنا لا أعرف شيئاً عن حياتى الآتيهْ

لىَ ذاتٌ ، غــيرَ أنــِّى لستُ أدرى ما هيه
فمـــتى تعـــرفُ ذاتى كنْـــهَ ذاتى ؟
لستُ أدرى !

ثم يختتم القصيدة ذات المائتين والأربعة والثمانين بيتاً ، على حيرة مستسلمة واستسلام حائر ، فيقول :

إنَّـــنى جئتُ وأمضى وأنـــا لا أعلمُ
أنـــا لغزٌ ، وذَهابى كمجيئ طلْسَمُ
والذى أوجد هـــذا اللغزَ لغـــزٌ أعظمُ
لا تجـــادِلْ ! ذو الحجى من قال : إنى
لستُ أدرى !

هذه هى خلاصة « الطلاسم » بأقصر إيضاح . ونحن لدى مطالعتها تمرّ بخاطرنا ثلاثة أنواع من الرأى فى المطولة نفسها ، وفى عقيدة ناظمها : فهناك نوع من الناس يستكبرون أن يعمد إنسان إلى البحث فى أسرار الحياة وما وراء الحياة ، ويرون فى هذا التساؤل الحائر ، وفى هذه « اللاأدريات » المتعددة سبباً للشقاء النفسي الكثير ، وأنه خير للإنسان أن يأخذ الحياة كما هى من أن يظل يتساءل عن حقائقها ، ويحاول أن يحل طلاسمها .

وهناك نوع ثان من الناس يتخذون من هذه القصيدة حجة على عقيدة الشاعر الفلسفية ، فينسبونه بكل بساطة إلى جماعة « اللا أدريين » .

ونوع ثالث من الناس يأخذون الأمور بظواهرها ، فيرون أن الشاعر يبدو فى هذه القصيدة كبدوىّ ساذج يدخل المدينة لأول مرة ، فتبهره أضواؤها وزيناتها وبناياتها الفخمة ، فيقف أمامها حائراً ملجوم اللسان ، لا يدرك من معجزاتها شيئاً .

أما نحن فإننا نرى فى هذه القصيدة رأياً لا يتفق بشىء مع هذه الآراء الثلاثة ؛ فأصحاب الرأى الأول إنما يحسبون أن السعادة فى الجهل والرضى بالظاهر وحده ، وأن الشقاء هو فى البحث عن المعرفة . وهذه هى فلسفة الكسالى الذين لا يجدون فى أنفسهم القدرة على تحمل أعباء المعرفة الحقيقية التى هى وحدها

سبيل السعادة الحقيقية ، والتى يكون شقاء البحث عنها أهون بكثير من شقاء الجهل والقناعة بالمعرفة السطحية . وأبو ماضى أعلى نفساً وأبعد همةً من أن يجلس فى هذا الحضيض كما تجلس العجائز حول مواقد كانون .

وأما الرأى الثانى فدليل على جهل أصحابه بصحة عقيدة أبى ماضى ، ودوافعه النفسية ؛ فليس أبو ماضى من اللاأدريين ، ولا هو بالرجل الذى يحسب أن فى اللاأدرية سعادة الروح ، وإن يكن قد جمع فى « طلاسمه » نحواً من خمسة وسبعين « لست أدرى » فى مختلف شئون الحياة الروحية والدنيوية . وما هذه « اللاأدريات » كلها سوى نوع من التغطية البارعة – الكاموفلاج – لغرضه الحقيقى ، كما سنرى فيما بعد .

وأما أصحاب الرأى الثالث فهم أيضاً لم يفهموا أبا ماضى ؛ فهو ليس بدويًّا ساذجاً يدخل المدينة لأول مرة ، وإنما هو ، على العكس ، أحد أبنائها الخبيرين بما فيها كأى خبير من أبنائها .

أما لماذا كل هذه « اللاأدريات » فى « طلاسمه » ، فالذى نراه أن الشاعر قد بحث كثيراً مع نفسه ، وتساءل كثيراً ، ولكنه انتهى أخيراً إلى « المعرفة » التى يبحث عنها . وبكلمة أخرى انتهى فى كل ما كان يتساءل عنه إلى رأى يرضيه ويدخل السعادة إلى نفسه . غير أن سعادته هذه بالمعرفة لم تكن كاملة ، لأن الشاعر الذى يقول :

كن غديراً يسيرُ فى الأرض رقرا قاً ويسقى عن جانبيْــهِ الحُقولا

يعلم أن السعادة لا تتم بغير المشاركة ، لذلك راح يعرض على الناس تلك الأسئلة الكثيرة التى تغلّب عليها ، متظاهراً فى عرضها بالحيرة الكبرى ، لكى يرى الناس جميعاً يهتدون إلى حلها بأنفسهم كما اهتدى هو ؛ ومتى اهتدوا إلى حلها ، وصلوا إلى قلب الحياة – على حد تعبير جبران – وهناك الفرحة الكبرى ، والسعادة العظمى .

والذى يؤكد لنا هذا الرأى هو الطريقة التى أورد فيها الشاعر أسئلته ، فهى جميعاً من نوع « تجاهل العارف » . فقوله ، مثلاً ، يخاطب نفسه وهو واقف فى المقابر :

انظرى كيفَ تساوى الكلُّ فى هذا المكان
وتلاشَى فى بقايا العبْد ربُّ الصوْلجان
والتَقى العاشقُ والقالى ، فما يفترقان
أفهذا منتهى العدل ؟ ! فقالتْ :
لستُ أدرى !

ألا يعنى بكل وضوح أن منتهى العدل هو فى المساواة الحقيقية بين كل أبناء الحياة ، كما تفعل القبور التى لا تفرق بين إنسان وإنسان ؟

وقوله أيضاً :

قيلَ : أدرَى النـَّاس بالأسْرار سكَّان الصوامعْ
قلت : إن صحّ الذى قالوا ، فإن السرَّ شائعْ
عجباً ! كيف ترى الشَّمس عيونٌ فى بَراقعْ
والتى لم تتبرقَعْ لا تراها ؟ !
لستُ أدرى !

وأيضاً :

قد يصيرُ الشّوكُ إكليلاً لملْك أو نبىّ
ويصيرُ الوردُ فى عروة لصّ أو بغىّ
أيغارُ الشَّوكُ فى الحقل من الزّهْر الجَنىّ ؟
أم ترى يحسبهُ أحْقرَ منه ؟ !
لستُ أدرى !

وغير هذه الأقوال كثير ، أليست كلها أجوبة صريحة ، أكثر منها أسئلة حائرة يقصد بها البحث عن المعرفة ؟ وليس يمنع من هذا الرأى أن نسمع الشاعر يختتم مطولته بقوله :

لا تجادلْ ! ذو الحجى من قال : إنىّ
لستُ أدرى ؟

فهى من قبيل زيادة التغطية التى أشرنا إليها فيا تقدم ، وليس غير ذلك .

٥ – « عبقر » – لشفيق معلوف

للشاعر شفيق معلوف فى الواقع مطولتان شعريتان : الأولى دعاها « الأحلام » ، وقد طبعت فى لبنان عام ١٩٢٦ حين كان شفيق فى مستهلّ الشباب ؛ والثانية « عبقر » ، وقد طبعت لأول مرة فى منشورات مجلة « الشرق » العربية فى البرازيل ، وكتب مقدمتها والد الشاعر الشيخ عيسى إسكندر المعلوف . ثم أعيد طبعها فى البرازيل للمرة الثانية وقد أضيف إليها عدد من القصائد الأسطورية ، ومقدمة طويلة جامعة عن الأساطير العربية كتبها الشاعر نفسه . وهذه المقدمة من أوسع المراجع عن الأساطير عند العرب ، وقد جاءت فى نحو (١٣٥) صفحة من القطع الكبير ، واستغرقت المطولة الشعرية بعد ذلك بقية صفحات الكتاب إلى الصفحة ٣٢١ . وكانت الطبعة الجديدة فى منشورات العصبة الأندلسية عام ١٩٤٩ ، وكلها بخطّ الأديب الفنان حبيب مسعود ، رئيس تحرير « العصبة » .

أما « الأحلام » فقد كانت تتألف من ثلاثة أحلام ، كل حلم منها يتألف من عدد من القصائد الخيالية الوجدانية ، المتأثرة بالرومنتية الغربية ، يشيع الألم والتشاؤم فى أبياتها ، كما تشيع فيها النقمة على الوجود الإنسانى أحياناً .

ونحن لا نتوقف عند « الأحلام » فى هذا البحث ، لأنها ليست من عمل المهجر ، ثم لأنها عمل فنى لم يتم فيه نضج الشاعر ، وفن الفنان ، وإن تكن غنية بالخيالات الشعرية ، والتأملات ، ولكنه غير الغنى الفنى الذى نلمسه فى « عبقر » وفى دواوين شفيق الأخرى ، بعد أن طرح عنه التشاؤم والنقمة على الوجود .

تقع مطولة عبقر – فى طبعتها الأخيرة – فى اثنى عشر نشيداً ، وكل نشيد يتألف من عدد من القصائد المختلفة الأوزان والقوافى . والمطولة رحلة خيالية فى دنيا الأساطير التى تبعثها « عبقر » فى خيال الشاعر . والنشيد الأول بعنوان « فى طريق عبقر » يبدأه الشاعر بقوله فى القصيدة الأولى التى عنوانها « يقظات ورؤى » :

صاح ! هى اليقظةُ دبّتْ على جفنىّ فاستْلانت المـوطئا

وعالجتْ بالنّــــور بابَيْـــهما   حتّى استطابتْ فيهما ملجأْ
تقول : يا شاعرُ خلّ الكَــرى   إنّ الضّحى بكفّـه أومــأْ
فدونك اللذّات موفـــورة   لا تكُ فى انْتهابـها مبطئـا
من يهزأ الدّهرُ به فليكـنْ   بدهـــرِه الغاشم مستهزئـا

ثم تلى القصيدة الأولى قصيدة ثانية بعنوان « شيطان الشاعر » . وفى هذه القصيدة يظهر للشاعر شيطان شعره سائراً تحت غمامة ، وكأنما قذفه من الثرى ساحر :

فى فمـــه من سَقَرٍ جــذوةٌ   منها يطيرُ الشّررُ الثّائــرُ
ووجهه جمجمةٌ ، راعَـنى   أنيابُـها والمحـجرُ الغـــائرُ
كأنّـــما محجرُها كـــوّةٌ   يطلّ منهـا الزّمنُ الغـــابر

ويضع الشيطان نفسه تحت إمرة الشاعر ، ليطوف به فى « عبقر » موطن الجنّ التى :

تسوسُ فيـها الجنَّ عرّافـةٌ   ترى بزجْر الطَّير ما لا يُـرى
الشعرُ ولأّهـا شيـــاطينَهُ   فسادت الهوْجَل والهوْبَـرا
تقفو السَّعالى إثْرَها كلَّـــما   أجّجت المنـــدلَ والعنْبرا
جنٌّ من النُّـور جلابيبُـــها   فى كل سعلاةٍ ترى نيّـرا
تضطربُ الأرضُ متى أقبلتْ   قاذفة عزيفَـها المنـكرا

وبعد أن يصف له الشيطان موطن الجن وشياطين الشعر التى يزخر بها ، يمضى به إلى ذلك « البلد المرصود » ، حتى يحط به فى موضع . . . « ما راقه من قبله موضع » :

غمائمٌ زرقٌ على متْنـها   منازلٌ جدرانُـــها تسطـــعُ
تثور فى أبراجها ضجَّـــةٌ   بها يضيق الأفُقُ الأوســـعُ

وقال له الشيطان إن هذه هى « عبقر » ، وإن الضجة التى يسمعها هى ضجة الجن .

ومضى الشاعر يطوّف بالأبراج على ظهر شيطانه ، ويتعجب من ضخامتها ومن عفاريتها التى تدرج كالنمل من مهواة إلى أخرى :

أقزامُ جن فى سفوح الرُّبى   جيَّشهم طاغيــةٌ عــات
إن أزمعوا زحفاً تراهم عــلوا   أغـربَ أصنــافِ المطيَّاتِ
فمن يرابيع ، ومن أنعُــمٍ   إلى ديــوك وعظايــاتِ
مواكبٌ للجنّ يرمى بهـــا   فرسانُـها صــدرَ المفــازاتِ
من كلّ قزمٍ لا يمسّ الثرى   برجـــله الصّغرى المُــدلاّةِ
نشابة القنفــذ مزراقـــه   وترسه قحْـــفُ السّلحفــاةِ

وبهذه القصائد الخمس ينتهى النشيد الأول ، ثم يجيء النشيد الثانى ، وهو بعنوان : « الإله الناقص » . وأول قصيدة فيه عنوانها : عرّافة عبقر » ، نرى فيها الشاعر ، بعد أن يحوّم به شيطانه فوق عبقر ، يهبط فى وسطها فإذا به أمام « شمطاء طواها الكبر » :

تلفّ ثعبانــاً على وسْطها   يكمنُ فى نابَيْـه كيدُ القدَرْ
مجامر الصّنْـدلِ من حولهـــا   تألّـب الجنّ عليها زُمَــرْ
ينبعثُ الدّخـان من شَعْرها   ويلتظى فى مقلتَيْـها الشَّرَرْ
كأنَّمــا الله لدى بعْثها   زوّدَها بكـل ما فى سقَـــرْ

فلما أحسّت العرّافة بوجود إنسان فى مملكتها :

. . . انتفضتْ ، والجنُّ من حولها   أجفَلْنَ وارفَضَضْنَ بين الشَّجرْ
ودمدمت سخطــاً وقــد هالها   أن يُقلق الأرواحَ مرأى البشَرْ
فيا لصوت خِلْتُ لمــا دوى   أنّ أديمَ الأرض تحتى أقشعَرّ

والتفتت العرافة نحو الشاعر الذى أزعج مملكتها ، وراحت تعنفه وتصب عليه سخطها ونقمتها ، وتقول :

ويْحَــكَ يا إنســانْ   ألْـقِ عصــا سِحْرِكْ
ذَعرتَ فينا الجــانْ   فعـــذْنَ بالشَّيطانْ
من شَرّكْ

وودتُ يا غادرُ لو أنَّــنى   أطلقتُ ثعبانىَ لا ينثــنى
عنك فيرديكَ ، ولكنَّنى
أخشى عـــلى الثعبانْ مـــن غـــدْرِكْ

في نابه السمّ كــــان وصــارَ في صدرِكْ
فليس هذا الصلّ بالأفعوان بل أنت يا إنسانْ
فارجْع إلى وكْرِكْ

ومضت تصب نقمتها على الجنس البشرى ، فتقول للشاعر :

لأنت ، ويحك ، مهـما بدّلتَ من ألوانــكْ
أعمى بليتَ بأعمــى فلم تزلْ في مــكانكْ
مهما صقلتَ حِـجاكْ يــظــلّ مُحْلَولكْ
فليس خلْفَ ضُحاكْ إلاّ دُجَــى ليلــكْ

وإذ تنتهى العرافة من هياجها وثورتها ينتهى معها النشيد الثانى . ثم يجىء النشيد الثالث وعنوانه : « حسرة الروح » ، فنرى الشاعر يطلب إلى شيطانه أن يخرجه من هذا المكان المملوء بالغيلان :

فإنّ خلْفَ الأفق لى موطنــاً أبناؤهْ تعــنى بضيفانِها
للنفس فى أوطانها حرمةٌ ضائعةٌ فى غير أوطانها

ولكن الشيطان يهدئ من روعه ، ثم ينبهه إلى صوت أنشودة تتردد هناك من أميرة للجنّ ما تنى تمعن فى وثبها كأنها مذعورة ، وقد مسّتها روح ليست من عبقر ، ولم تفد معها رُقى العرافين ولا حكمة الكهان . وكانت الأميرة الجنية :

حُلّتُها كالضوء شفافَةٌ عن بشرة تزيدُ إشعاعَــها
كأنّما الشمسُ التى كوّرتْ من حَلَقات النور أضلاعَها
ألقتْ إلى الأرض بما أبدعتْ ليُكبر العالمُ إبداعَــهــا
من عالم الأجساد ، مبليَّــة بنهمة تــودّ إشباعَها
لشهوة فى نفْسها طاردَت فى ظلمة الأدغال أتباعَــها
تعانق الأرواح ، حتى إذا خابتْ مضَتْ تحمل أوجاعَــها

وهل يستطيع عناقُ الأرواح أن يشفى من ظمأ الشهوة العطشى إلى الارتواء ؟ !

لقد كانت الجنية التى عصفت بها شهوة الجسد تغنى وتقول :

وَيحىَ ! مَن يُشبع فىّ النَّهَمْ ؟
أكلّما استلقتْ على معْصَمى

روحٌ ، فقرّبتُ إليها فمــى
تملَّصَتْ ، فلم أُقبِّل ولَمْ
أضمّ إلاّ عدَماً فى عَدَمْ ؟

وتتلهف على عالم الجسد الذى تستطيع أن تشبع فيه نهمها بالضمّ والعناق ، فتقول :

فنحن . . والهفى ! بنات الظِّلالْ
لسنا ، وقد حُمْنا على أرْضنا
غيرُ خليطٍ من طيوفٍ ضئالْ
كقطع الغيم . . . إذاً بعضُنا
تعانق ، اضمحلّ فى بعْضنا

* * *

ما نفعُ روحٍ خالدٍ عشتُ فيه
ما زلتُ لم أُحضنْ ولم أُحتَضَنْ
يا حاملَ الجسْم ، ألا أعطنيه
وخذ إذا شئتَ خلودى ثَمَنْ

هكذا يرى شفيق معلوف أن عالم الأرواح لا لذة ولا سعادة فيه ، لأنه لا يعرف الحب الذى يسعد به أبناء الجسد ، ، وأن حسرة الأرواح على حرمانها من الحب لا يعوّض عنها الخلود . . . وما أشبه هذا النشيد من (عبقر) المعلوف بالنشيد الخامس من « جحيم » دانتى . . .

ويجىء بعد ذلك النشيد الرابع ، وعنوانه : « نهر الغىّ » — وهو نشيد لم يكن فى الطبعة الأولى — ويشرح الشاعر هذا النهر بأنه نهر فى جهنم ، ثم يضيف أنه كان هناك شيطان أعمى اسمه « سرحوب » يسكن الأنهر والبحار . . .

وفى هذا النشيد يطير الشيطان وعلى ظهره الشاعر[1] ، فيريه نهر الغىّ وعلى ضفته الشيطان الأعمى « سرحوب » يحرسه ، فيرحب سرحوب بالشاعر

(١) فى النشيد السابع عشر من (جحيم) دانتى صورة شبيهة بهذا ؛ والشيطان الذى يحمل دانتى وفرجيل هناك على ظهره هو وحش أسطورى يدعى (جيريون) له رأس آدمى جميل وذنب طويل مدبب .

ومطيّته ، ويضرب النهر بعكازه فينشق عن باب يفضى إلى سرداب مظلم . . . ومضى بهما داخل السرداب فى شعاب مظلمة متعددة ، لا يتلكأ ولا يتعثر ولا تزلّ قدمه ، فكأنه لم يكن به شىء من العمى .

ولست أدرى كيف وثب الشاعر من « عبقر » مدينة الجن ، إلى نهر الغىّ والسرداب الذى خلفه ، مع أنه قد ذكر أن هذا النهر فى جهنم . . . وجهنم غير عبقر . وقد استمرت الرحلة فى أرجاء جهنم بعد ذلك فى النشيد الخامس أيضاً ، إذ سار سرحوب بضيفيه حتى بلغ بهما الضفة الثانية من نهر الغىّ ، ومن هناك سار الشاعر حتى استشرف « وادى سجّين » – وقد ذكر فى مستهل النشيد أن هذا الوادى « فى جهنم . . . وقيل إنه محل إبليس وجنوده » . . .

وعند سجّين كان إبليس يطوف فى أرجاء مملكته ، وكذلك أولاده الخمسة الذين تزعم الأسطورة أن أسماءهم : (ثبر – وداسم – وأعور – وزلبنور – ومسوط) .

أما ثبر فهو الشيطان الذى يثير الحروب . . . وداسم هو إبليس النقائص . . وأعور هو إبليس الشهوة . . . وزلبنور هو شيطان المال . . . ومسوط هو إبليس الكذب . . . وقد فصّل الشاعر فى نشيده الخامس مزايا كل من هؤلاء الأبالسة ووظيفته . ثم انتقل من هناك إلى النشيد السادس ، ليصل من بعد وادى سجّين إلى واحة يقيم فيها شيطانا الشعر المشهوران « الهوجل والهوبر » ، فيخبره شيطانه أن « الهوجل » شرير يزرع ظلال الشؤم فى النفوس ، أما الهوبر فهو شيطان صالح يمشى على آثار الهوجل ليمحو الشؤم ، ويزرع الأمل فى مكانه . وكان الهوجل كلما لاحت له ثمرة فجة تناولها عن غصنها فأكلها ورمى بنواتها إلى الأرض ، فيأتى الهوبر على أثره ، فيلتقط النواة ويزرعها فى الأرض لتنبت شجرة جديدة . .

وبعد الهوجل والهوبر يرى الشاعر – فى النشيد السابع – شيطاناً آخر اسمه « هراء » هو الشيطان الموكل بقبيح الأحلام ، فيحدّثه هذا الشيطان الخبيث عن حلم قبيح كان قد أوحى به إلى الشاعر المخضرم أمية بن أبى الصلت .

ثم ينتقل إلى النشيد الثامن ، ليقدّم صورة عن الكاهنين الأسطوريين « شقّ وسطيح » . وتقول الأسطورة إن سطحاً كان إنساناً من لحم دون عظام ،

والثانى كان له عين واحدة ، ويد واحدة ، ورجل واحدة . . .

ولقد هبط بالشاعر شيطانه إلى هوّة الغيلان ، ووصلا إلى كهفين فى بابيهما كاهنان :

الكاهنُ الواحدُ فى وسْطه مُديةُ نار غِمْدُها من دُخانْ
مخلَّعٌ جُرِّدَ من عظْمه مذ ربُّهُ قال له كن فكانْ
رخو ، لو التفّ على نفْسه لخلته فوقَ الثَّرى أفعوانْ

ذلك هو الكاهن سطيح ، أما الكاهن الثانى « شقّ » فيصفه بقوله :

والكاهنَ الآخر ذو خلْقة لم يحبس الخالقُ فيها أحَدْ
قد شُقّ من أعلى إلى أسفلٍ ولم يزلْ حياً بشطر الجَسَدْ

فيطلب إليهما الشاعر أن يزوّداه بحكمة ينشرها عنهما فى الناس . فيقول له سطيح كلاماً يعرب فيه عن رضاه عن نفسه ، ويختمه بقوله :

على فمى ابتسامةٌ هازئه تفيضُ بالسخرية الموجعَه
أواجه النّسائمَ الهادئه بها كما أواجهُ الزوبعَه
يا واقفَ العمر على حكمة مركومة كالغيم خلَّفَ الجباه
الحكمةُ الحكمةُ فى بسمةٍ تمخَّض الهزء به فى الشفاه !

ويحدّثه « شق » كذلك عن نفسه ، ويعرب له عن رضاه بقسمته ، ويقول :

إن لم تكُ العينان فيَّاضتيْنْ كلتاهما بحكمة مشرقَه
هيهاتَ تستنيرُ عينٌ بعيْنْ إن لم تكن إحداهما مغْلَقه
نطقت من نصف لسان وفمْ فلم يضرْنى أىُّ نطق يفوتْ
تاللهَ قد بلوتُ دهرى فلمْ أصلْ إلى الحكمة لولا السكوتْ
وإن قلباً بعضُه يشعــرُ وبعضُه كأنّــه الجلْمَدُ
حسْبىَ منه نصفُه النيِّرُ لا كان قلبٌ نصْفُه أسْودُ

ويجىء بعد ذلك النشيد التاسع ، وعنوانه « ثورة البغايا » . وفيه يصل الشاعر إلى « غابة الحُور » ، فيراهن يملأن الأعشاش ، وهن عاريات الأجسام . ففررن منه كالطيور المذعورة . . . ثم لم يلبثن أن أخذن يغمزنه ، فعرف فيهن بنات الفجور . . .

وقال له الشيطان إن هؤلاء الفاجرات قد ثرن وهن فى الجحيم ثورة عنيفة لحرمانهنّ لذة الحب ومتعة الجسد ، ولم يخشين غضبة جبرين ولا سيفه الذى يهدّدهنّ به ، ولا الثعابين التى يطلقها إبليس لإرهابهنّ . وفى ثورتهن كنّ يغببن الجمر ويرشقن به الشياطين . فلما تضايق أهل النار من ثورتهنّ شكوا إلىٰ ربهم ، فنقل هؤلاء النسوة الثائرات من جهنم إلى عبقر :

زجّ بهنّ الله فى عبْقَر يبلو بهنّ العبقريينا . .

وسمعهن الشاعر ينشدن نشيد الثورة على الحرمان ، واللهفة على أيام الحبّ وشهوة الجسد ، ويقلن :

مذ خَلَعَ اللهُ علينا المقَلْ
زَوّدنَا بنظـــرة ضائعـــهْ
وشهوة ملحَّـــةٍ جائعـــهْ
وبَشْرةٍ هفَّافةٍ للقُبَلْ

فمن لنا بطاعـــة الله
وهو الذى فى وَسَط العاصفهْ
زجَّ بنـــا بالأضلع الرَّاجفهْ
والجسَد المستبســلم الواهى

ثُرنـــا عليه حينما سامَنـــا
عسْفاً ، فلم نصبرْ على عَسْفهِ
قد حشَد اللذَّات قُدَّامنا
وجيَّشَ العَذابَ من خلْفهِ

أفتى بأن نقومَ فى ربْقنا
بجزية العبْد إلى ربِّهِ
هو الذى أذْنَبَ فى خلْقنا
وراحَ يجزينا على ذَنْبهِ ! . .

* * *

والنشيد العاشر عنوانه : « العنقاء » ، وفيه يصل الشاعر وشيطانه إلى مجثم ذلك الطائر الأسطورى العظيم فى عبقر ، ويقول فى وصفها :

أعظمْ بها طائرةً ضخمةً مُسَرْوَلٌ بالليل ساقاها
ضاقَ بها الوادى فإن فرّشت دَقَّ جـداريه جَناحاها

ومع العنقاء يجد فرخيها : الرخّ والفينق ، وهما أيضاً طائران خرافيان ، تقول الأسطورة إن الرخ إذا طار غطى الشمس بجناحيه ، وأن الفينق يعمر أجيالاً ، وفى النهاية يحرق نفسه ثم ينبعث حياً من وسط رماده . والشاعر فى قصائد هذا النشيد يتحدث على العنقاء وفرخيها حديثاً يتناسب مع روايات الأسطورة عنها جميعاً . وكذلك يتحدث على طيور أخرى أسطورية ضخمة .

ثم ينتقل فى النشيد الحادى عشر ليتحدث على « أحاديث خرافة » . . . وخرافة هذا – كما تقول عنه الأسطورة – رجل عربى استهوته الجنّ فأقام بينهم زمناً ، ولما عاد إلى قومه حدّثهم بما رأى هناك فلم يصدّقه أحد منهم .

ويروى الشاعر بعض أحاديث خرافة هذا عن « نصر بن دهمان » الذى أعادت إليه إحدى الجنيات عنفوان الشباب بعد أن شاب وانحنى ظهره . . . وعن « أناهيد » وهى امرأة بغىّ مسخت نجماً وأصبح اسمها « الزهرة » . . . وعن نسور لقمان ، ومنها نسر اسمه (لُبَد) . . .

ويختم الشاعر مطوّلته الأسطورية الشائقة بالنشيد الثانى عشر ، وعنوانه : « العبقريون » ، وفيه يخرج الشاعر من عبقر يستشرف صحراء صامتة ، ثم يرى جماجم ورمماً بالية ، فيخبره شيطانه أن هذه رمم العبقريين ، وأن شياطين عبقر تأتى إلى هذه الصحراء لتنبش القبور وتحمل العبقريين لتدفنها فى عبقر . .

فيتحدث الشاعر مع تلك الرمم البالية ، فتتقمص تلك الرمم أرواحها وتخاطبه بدورها :

فصاحت العظامْ :
أعطى الذى أخَذْ
لم تظفر الأيّامْ

منَّا بغير الفِلَذْ
فكنَّ عشَّ الغَرامْ
وصِرْنَ مأوى الجُرَذْ
لكنَّما أحلامُنا لم تــزَلْ ترقصْ سكرى فوق غلف المُقَلْ
حاملةً للناس خمرَ الهوى مشعَّةً خلفَ كؤوس الأمَلْ
عشنا مع الناس دهْرا
نحلمُ بالشَّبابْ
واليوم والعمر مـرّا
وضمَّنا الترابْ
نعيش فيهم بذكْرى
أيَّامِنــا العِذابْ
أحلامُنا نحن ، فقُلْ للألى شادوا لنا الأنصابَ إكبارا :
أحلامنا كنَّ لطافاً فــلا تصيِّروا الأحلامَ أحجارا
تاللهِ لا الأصنامْ
ولا الخُرافاتُ
تهزّ منّـا العظامْ
ونحن أمواتُ
تلاشت الأوهامْ
وأهْلُهـــا ماتــوا

* * *

والمطوّلة – كما يرى القارئ – حديث خيالىّ أسطورى بمجموعها ، والشاعرية فيها شائقة مبدعة، فى خيالها ، وحوارها ، وفى الحوادث الأسطورية التى ترويها .

إلاّ أن تداخل جهنم وعبقر فيها دون أن تكون هناك نقلة واضحة شىء يبدو غريباً بعض الغرابة . فالشاعر يجوس خلال عبقر ، ولكننا نجده يصل إلى نهر الغىّ ثم وادى سجّين ، فى جهنم ، ثم نراه ما يزال فى عبقر من جديد .

وهذا ما نأخذه على المطوّلة ، وأما فيما عداه فهى عمل فنى رائع ، يستحق عليه الشاعر أبلغ الإعجاب ، وفيها مواقف شبيهة ببعض مواقف دانتى أليجيرى فى (الجحيم) ، وببعض مواقف (رسالة الغفران) للمعرّى .

ومما هو جدير بالذكر أن هذه المطوّلة الرائعة قد ترجمت شعراً إلى اللغة البرتغالية بقلم موسى كريم مرة ، ومرة بقلم الشاعر البرازيلى « جودس إيزغورغوتا » ، وقد نالت هنالك شهرة واسعة ، وثناء كثيراً من كبار النقاد . ومن بين هؤلاء النقاد الناقد البرازيلى « أغربينوغريكو » ، الذى يعدّه البرازيليون فى مرتبة الناقد الفرنسى الشهير « سان بيف » كما ترجمت إلى الإسبانية ، والفرنسية ، والروسية ، والألمانية ، والإيطالية وفاز عليها شفيق بجائزة الشعر العربى ومقدارها عشرة ملايين كروزيرو [١]

وقد قال « أغربينو » فى رسالة بعث بها إلى شفيق المعلوف :

« لقد وجدت فى ملحمتك أفكاراً وصوراً جديدة رائعة . فالوزن ينقاد حرًّا طليقاً معبراً عن انفعالات تنمّ عن نزعة فلسفية ندر وجودها فى شعراء اليوم . وفيها كثير من التآلف والانسجام ، ولكن الأهمّ هو ما انطوت عليه من فكر صائبة ؛ مما يدل على اتصالك الطويل بكبار المؤلفين ، وتأملك العميق فى مصير البشرية . أما القسم الخيالى من الملحمة فقد حفل برموز غنية ، ليست فى الحقيقة سوى وسيلة للتعبير عن كثير من الأهواء والنزعات التى يتخبط فى دياجيرها إنسان هذا العصر المعذب . .

« ولا يجوز لنا أن نعدّ سحر هذه الشياطين زخارف ابتدعت لتسلية عشاق الصور المجازية الأخاذة ، فهى تدل بمجموعها على نبل فى الغاية ، وتعمق فى درس ما وراء الطبيعة ، وتتكشف عن فنان مرهف الحس . . وهو فى حديثه عن الحروب والخداع والميول والمنازع ، ومغامرات شياطين المال والكذب ، يقدم لنا عبراً وحكماً وأمثولات أدبية بالغة ، تؤهله لأن يدعى بحق منشد الأزمان المقبلة والإنسانية المحررة ، والعالم المتآخى الذى هو قبلة كل المخلوقات » . (العصبة — عدد كانون الثانى وشباط — يناير وفبراير — ١٩٥٠) .

---

(١) انظر جريدة (الحياة) البيروتية ، الأحد ١١ / ٦ / ٧٢ .

ومثلما لقيت هذه المطولة أجمل الثناء من أقلام مشاهير كتاب الغرب ، كذلك لقيت الشيء الكثير من ثناء الأقلام العربية ، ولم أعرف ممن تحاملوا عليها بين الكتاب العرب سوى مارون عبود – فى كتابه « على المحك » – ومحمود شريف – مهجرى – فى كتابه « ثورة قازان فى معلقة الأرز » . وفى نقدهما لها جانبا الإخلاص والتجرد مجانبة كبيرة .

فالواقع أن شفيق المعلوف فى هذه المطوّلة كان فى الرعيل الأول من الشعراء العرب ذوى الموهبة الفنية المبدعة ، والخيال الشعرى المرهف . وقد اتخذ من مطوّلته وسيلة لإبداء آرائه الحكيمة فى الحياة والناس ، ولتغليب الحبّ والخير فى الحياة . وإذا كان (الاتحاد الثقافى – برازيل / لبنان) قد منح الشاعر (جائزة الشعر العربى) فى البرازيل بإجماع الآراء عام ١٩٧٢ ، فقد كان هذا التكريم أقلّ ما يستحقّه شاعر (عبقر) و (الأحلام) .

٦ – الربيع الأخير

للشاعر القروى رشيد سليم الخورى

إلى جانب ما اشتهر به القروى من الحنين الحار ، والوطنية الخطابية المجلجلة فى الشعر ، نجد له قصائد كثيرة من الشعر الوجدانى هى من أجود الشعر وأرقه ، ومن أغناه بالصور اللطاف ، والمعانى الأبكار ، واللفتات الروائع . ولعل أجود ما لديه فى هذه الناحية ، قصيدته المطوّلة « الربيع الأخير » ، ذات الأبيات المائة والثلاثة ، التى تشبه متحفاً فخماً ، يعجّ بأروع تحف الفن الخالدة ، والتى تستحق أن تدعى بحق باسم « المتحف » . أقول هذا على الرغم من أن القصيدة –

---

(١) من ذلك دراسة مستفيضة بقلم عادل الغضبان نشرت بمجلة « الكتاب » فى أعداد شباط وآذار ونيسان – فبراير ومارس وأبريل – سنة ١٩٥١ ؛ ودراسة أخرى للمستعرب الإيطالى مارتينو ماريو مورينو ، نشرها بالإيطالية فى مجلة (LEVANTE المشرق) السنة السادسة ، العدد ٢ – حزيران/يونيو ١٩٥٩ ، وجاءت فى ١٨ صفحة من المجلة .

على طولها - ذات قافية واحدة ؛ والقافية الواحدة كم لها من جناية حتى على القصائد القصار ، لأن الشاعر يضطر فى أحيان وأماكن كثيرة إلى إخضاع معانيه للألفاظ المناسبة للقافية .

غير أن صاحب « الربيع الأخير » قد استطاع أن يقود سفينة قصيدته هذه بأمان ، بحيث تأتى كل لفظة فى مكانها دون أن تصطدم بضرورات القافية ، أو تتأثر بها إلا فى النادر .

ويجدر بنا قبل أن نسترسل فى الحديث على هذه المطوّلة الرائعة ، أن نذكر أبرز مزاياها وأقسامها ؛ فهذه تتلخص فى ما يلى : ١ - لطف الاستهلال ، وبراعة الاسترسال المنسجم ، ٢ - جمال التصوير ، ٣ - الرقة فى النداء وفى الغزل - وهذه الرقة تبدو فى المعانى وفى التعابير على السواء ، ٤ - وصف حياة الشعراء والفنانين الخيالية الحالمة ، وحياة أبناء المجتمع المادية الجامدة ، ٥ - التفاتات إنسانية ، ٦ - التفاتات وطنية .

يستهل الشاعر قصيدته بمخاطبة فتاة حبه وإلهامه ، فيقول :

لمياء ! هذا جبينُ الفجْر قد سفَرا ... وموسمُ الحبّ عنّا مزْمعٌ سفَرا

وهو مطلع جميل : جميل بهذا الاسم الحلو « لمياء » الذى يستفتح به ، وجميل فى استهلاله بسفور الفجر ، وهو إشارة إلى أن النور يغرى بالحياة والحب والسعادة ؛ وجميل فى تصويره للهفة الشاعر على حبه الذى يزمع السفر . ويزداد جماله حين يسترسل الشاعر فى تصوير لهفته على اغتنام ما بقى من فرصة قبل رحيل عهد الهوى وعمر الشباب ، فيقول :

وأضْيعُ النَّاس مَنْ يمضى الشَّبابُ ولا ... يقضى من الحبّ فى أيَّامه وطَرا

ثم يستحثّ لمياءه على مشاركته فى اقتناص الفرصة ، بألفاظ تزيد فى رقة النجوى ، وحنين العاطفة فيقول :

طِيرى ننقِّرْ مع الأسراب فى فرص ... إن طِرْنَ لن تجدى حباً ولا ثمَرا

غداً نذوبُ إلى الأعناب من ظمأ ... ونهبط الكرْمَ لا نلقى لها أثَرا

عيبٌ علينا نكون البلبلين ولا ... نشارك الطَّيرَ فى أعيادها سحَرا

وتأخذنا هزة من النشوة حينما نستمع إلى نجواه السحرية للميائه ، وإلى ندائه

الحنون لها « حسّونتى » ! وتصويره لنوع الحياة التى يحبها ، والتى لا يهيم بها سوى أبناء الفن ؛ وذلك حين يقول :

هيَّا إلى الغاب [١] ! إنى قد بنيتُ لنا ... من الرَّياحين عشًّا ليناً عَطِرا
تحنُو علينا ظلالُ الأيْك ، رقَّطَها ... من الأشعَّة كفٌّ ترسمُ النَّمِرا
إذا سئمنا ذُرَى أفنانها سُرُراً ... مدَّتْ لنا الأرضُ من أعشابها حُصُرا
إنى كريمٌ أحبُّ المالَ مشتركاً ... لكن غيورٌ أحبُّ الحُبَّ محتكَرا
حسُّونتى ! حسْبُنا فى دورهم جزَعاً ... وحسْبُنا ما لقينا بينهم عِبرَا

أما التصوير البارع الذى تظهر فيه الخطوط موشاة بمزيج ساحر من الألوان والظلال فهو الصفة الغالبة على القصيدة كلها ، والطابع العام الذى تتميز به . ومن ذلك الأبيات التالية ، التى يستطيع القارئ أن يركّب أجزاءها وألوانها فى خياله كما يشاء ، ليجد صورها الجميلة البارعة :

أما ترينَ الدُّجَى لُمَّتْ غدائرُهُ ... سوداً ، فنشَّرها رأْد الضُّحَى شُقُرا ؟
والغابُ أَلَّف جوقاً من عشيرتـه : ... الرِّيحَ ، والنَّهَرَ ، والأطيارَ ، والشَّجَرا
والبدرُ كالنَّاشئ العصرىّ عاد ضحىً ... من مرقص النَّجْم يشكو الضَّعْفَ والخوَرا
والأرض حارتْ : أتَلْقَى الفجْرَ ضاحكةً ... لأمِّها الشمس ، أم تبكى ابْنَها القمرا ؟
والليلُ فرّ فرارَ العبْد حين رأى ... مستودَع النُّور فى آفاقها انْفجرَا
والنَّهرُ ساحَ ، كأنَّ البحْرَ مدّ يداً ... بين المزارع تُهْدى الماء والدُّررا
وللسَّحاب ثنيَّات مجعَّدةٌ ... بيض كأن عجوزاً جعَّدَتْ شعرَا
كأنمَّا التلُّ أمَّ النَّهْرَ مبترداً ... ثمَّ استَحى عن عيون الفجْر فأْتزَرا

ففى هذه الأبيات القليلة المختارة صور متلاحقة رائعة فى مواقعها ، وفى دلالتها على ما استُخدمت له من تشابيه ومعان : فغدائر الدجى السوداء التى يذهبّها نور الضحى ، وجوقة الغاب الصدوح ، والقمر الناشئ المتهدّم فى عودته من مرقص النجوم ، وحيرة الأرض بين أن تستقبل أمها الشمس بالضحك ، أو تودّع ابنها

(١) لم يعتد مهجريو الجنوب الدعوة إلى الغاب ؛ ولا نشكّ فى أن لجوء القروىّ فى هذه القصيدة إلى التغنّى بالغاب وجمال الحياة فيه ، إنما هو من أثر جبران خاصة ، والرابطة القلمية عامة . ولا نعرف أن هذه الدعوة تكررت من القروى فى غير هذه القصيدة .

القمر بالبكاء ، وفرار الليل كالعبد من أمام مستودع النور المنفجر فى الآفاق ، وغيرها وغيرها ، كلها صور منتقاة أتقنت ريشة الشاعر المبدع رسم خطوطها ومزج ألوانها ، فجاءت آية فى الحيوية والفن الناطق .

ولنستمع الآن إلى الشاعر كيف يصوّر حياة الشعراء الخيالية ، وحياة المجتمع المادية . وقبل هذا نذكر أن الشاعر قد تخلّص إلى هذا المعنى وسواه بعد أن قطع فى نجوى فتاته أربعة وخمسين بيتاً ، ثم قام فى نفسه أنها تأبى المضىّ معه إلى الغاب لتنعم بالحب ، وتفضل على صحبته حياة القصور ، وإن تكن تحيا فيها كما تحيا البلابل داخل قضبان أقفاصها . لذلك يخاطبها نافثاً نقمته عليها وعلى دنياها الشقية فيقول :

لا ، لا ، دعينىَ وحْدى ، لا أريدُ معى ... إلاَّ الكتابَ وإلاَّ العودَ والوتَــرا
فرفرى أنت فى القضبان ناعمــةً ... وأطْربى السَّقْفَ بالألحان والجُدُرا
ماذا تلاقينَ من حَلْى ومن حُلَل ... فى الغاب تفتنُ منك السَّمْعَ والبصَرا ؟
ما فى الحقول سوى درّ الندى ، وسوى ... ماس الشُّعاع حلىٌّ تبهرُ النَّظَرا
ولا معارض أزياء سوى قطَـع ... من الرِّياض عليها اللؤلؤُ انْتَثرا
هذى سخافاتُ أهْل الفنّ ينْشُدُهـــا ... من رهْطهم كُلٌّ من غنَّى ومن شعَرا
وأنتِ من فئة الجدّ التى زعمتْ ... أنَّ السعادةَ بَيْعٌ دائمٌ وشِرا

فالخيال الشعرى الذى أسبغه الشاعر على حياة أبناء الفن لوّنها بأجمل الألوان ، وزينها بأبهى الصور ؛ ولم يكتف بها وحده ، بل مضى يصف من دنيا الشعراء أشياء وأشياء أخر ، فيقول :

لا يُنْبتُ الدِّينُ بغْضاً فى مزارعنـــا ... مهما أخو الجَهْل من أشواكه بذرا
الكلُّ فينا جنودٌ للإخاء ، فمـــا ... فى دولة الشعْر نوّابٌ ولأُوزَرا
أمَّا الطّغاةُ ، فلا نَخشى صوالجــةً ... وكم نصبنا لها هاماتنا أُكَرا
نستعذبُ الموتَ من أجْل الحياة ، فما ... يجنى الورَى الشهْدَ حتى نجنى الإبرا

وماذا يمكن أن تكون أخلاق هذه الفئة الموهوبة الشقية التى شاءت إرادة الحياة أن تضعها من البشرية فى مكان القيادة ، إن لم تكن هذه الأخلاق السمحة الألوف ؟ !

وفى القصيدة لفتات إنسانية جميلة غير هذه أوردها الشاعر فى أسلوب بالغ التأثير ، فحديثه عن « قوة غاندى الضعيف » التى لا تعرف سلاحاً غير غصن السلام ، ولكنها تهز به الدنيا ، إنما هو حديث يثير فى القلوب أرفع الأحاسيس وأنبلها :

وهل سمعتَ بغاندى ؟ إنّه « حَمَلٌ »   فى الهنـد ثار على « الضّرْغام » وانْتَصرا
إن كان عابَ عليه العُرْىَ مستترٌ   فإنَّ آدمَ لولا الإثْـمُ ما استَترا
هذا الضّعيفُ الذى لو هزَّهُ ولَـــدٌ   لانْدقّ كالعُود فى كفَّيْـه مندثرا
هزّوا الحسامَ فلم يحفلْ ، وهزَّ لهمْ   غصْنَ السَّـلام ، فهزّ البحْرَ والجُزُرا
وغادرَ السيْفَ يحكى غمـده فَلَلاً   فاعجب لغصن يفلّ الصارم الذَّكر ! !

وأى صورة أنبل وأجمل مما فى هذا البيت :

إن كانَ عابَ عليه العُــرْىَ مستَتِرٌ   فإنَّ آدمَ لولا الإثْـم ما استَتَرا

ولا ينسى الشاعر أن يطرّز مطوّلته بأبيات متفرقات تحمل أشياء من روحه الوطنية الثائرة ، ومن حنينه الملتهب . فهو حين يصف الريح بقوله :

والرّيحُ تنفخُ نايات الغصون عــلى   سمْع العَقيق فيجرى دمْـعُه غُدُرا
ناحَتْ على أرْزِها المهجور شارحةً   ما رجَّـعَ الشَّاعر المنْفىُّ مختصرا

إنما يجعل الريح تعبر عن بثّه وشدة حنينه ؛ وحين يصف انسياب النهر بين الزروع ، تخطر على باله معان من الوطنية فيها اعتزاز وفيها ألم ، فيقول فى خرير النهر :

طوراً له زأرةُ الدُّرْزىِّ ثارَ (١) على   جلاّده ، وإلى اسْتقلاله نفَـرَا
وتارةً يملأ الوادى تنهــُّــدُهُ   كأنَّ لبنانَ فى أغلاله زفَـــرا

فيعبر بذلك عن عمق إعجابه وافتخاره بالذين يزأرون فى وجوه أعدائهم كالأسود ذياداً عن حريتهم ، وعن عمق ألمه للضعفاء الذين يزفرون فى أغلال ذلهم . ولكنه لا ينسى أيضاً وهو يختم قصيدته بعد أكثر من مائة بيت ، أن يسكب من لظى غضبه الوطنى المقدس على رؤوس الظُّلاّم الأقوياء ، وأن يعزّى الضعفاء المدافعين عن حقوقهم ، مطمئناً إياهم إلى حسن العاقبة ، فيقول :

يا صاحبَ الحقّ ! قد حالفتَ مقْتدرا   فلا تخَفْ — ما صحبْتَ الحقَّ — مقتدرا

(١) إشارة إلى ثورة الدروز « الثورة السورية الكبرى » عام ١٩٢٥ / ١٩٢٧ .

٧ – أحلام الراعى[1]

لإلياس فرحات

لعل من أروع قصائد فرحات وأشدها أصالة فى الفن والشاعرية ، وأوفرها حظًّا من جمال الوصف ، وتفتح الإحساس ، قصائده التى دعاها « أحلام الراعى » . وهذه التسمية وحدها كافية لتهز النفوس برقتها ؛ فهى تسمية بارعة ، موحية بأجمل المعانى الشعرية . ولا غرابة فى هذا ، فهى من إنتاج شاعر متفتح النفس والإحساس ، كوّنت الطبيعة وحدها موهبته الشعرية ، وصقلتها وأرهفتها ، فاتخذ الشاعر من حب الجمال ملهماً لقسم كبير من شعره ، كما اتخذ من العقيدة الوطنية ملهماً للقسم الآخر .

و « أحلام الراعى » مجموعة شعرية تتألف من ستّ مطوّلات ، نظمها فرحات ما بين عامى ١٩٣٣ ، ١٩٣٤ ، وقد تخيل نفسه فى كل منها راعياً يرافق خرافه إلى المراعى والحقول ، ويسهر على سلامتها وحريتها وأمنها ، يرافقه فى ذلك كلبه – وهو يكثر من ذكره فى هذه القصائد – وقد أطلق عليه اسم « الغضروف » . وكل حلم من هذه الأحلام الستة يتناول موضوعاً خاصًّا ، ويعبر عن فكرة اجتماعية إنسانية ، أو عن عاطفة رقيقة ؛ فيتألف من مجموعها ديوان لطيف فى موضوعاته وخيالاته ، وفى صوره وفكره .

أما الموحى بعنوانها فهو أن الشاعر كان يملك بالفعل قطيعاً من الغنم فى مزرعة له فى البرازيل ، وقد ذكر فى مذكراته[2] أنه حينما دعته الجالية العربية فى الأرجنتين مع زميله الشاعر القروى للاشتراك فى حفلات تأبين الملك فيصل

---

(١) هذا فصل من كتاب للمؤلف عنوانه : « إلياس فرحات شاعر العروبة فى المهجر » – عمان سنة ١٩٥٦ – مع شىء من زيادة التفصيل والإيضاح .

(٢) نشر قسم من هذه المذكرات فى بعض أعداد مجلة « القلم الجديد » المحتجبة – لصاحب هذا الكتاب – ثم نشرت كلها فى مجلة الرائد العربى » فى حماة – سوريا ، ثم ظهرت فى كتاب فى منشورات وزارة الثقافة السورية عام ١٩٦٥ بعنوان (قال الراوى) .

الأول عام ١٩٣٣ لم يجد لديه من المال ما يكفى ليوصله من مدينة « لابا » فى ولاية « برنا » – حيث كان يقيم – إلى سان باولو للسفر من هناك ، فاضطرّ إلى بيع عدد من الحملان ، وسافر بثمنها .

وقد طبعت هذه المجموعة الشعرية فى البرازيل طباعة أنيقة على نفقة مجلة « الشرق » التى كان يصدرها موسى كريّم هناك ، ووزّعت هدية على المشتركين . وقد جاءت فى ١٣٧ صفحة من القطع الصغير . وعناوين هذه القصائد هى : (الخمر والحب والشباب – سلام الغاب – محاكمة – فلسفة الغضروف – ؟ – رثاء الغضروف) .

وقد اعتمد الشاعر كثيراً فى هذه الأحلام الستة على الحركة ، والغنائية ، والحوار التمثيلى ، كما اعتمد التنويع فى الوزن والقافية ، فوفق فى هذا كله إلى حد بعيد ، مما يدل على لطف الذوق الشعرى عنده ، وجمال الحاسة الفنية .

وإليك مثالاً على جمال التوزيع الموسيقى فى قصيدته الأولى « الخمر والحب والشباب » ، ومع التوزيع الموسيقى جمال التعبير ، ولطف الخيال ، وحسن الابتكار :

بعْدَ ثوانٍ كنتُ فوقَ الغُيــومْ ... أرعى نعــاجى فى جبال القَمَرْ
– فى الحلْم تدنو قاصياتُ النجوم ... والصّعْب فيـه هيِّن مختصرْ –
وكانت النعـــاجْ ... أظـلافُهـا ذهَــبْ
وصُوفُهـا وهّـــاجْ ... يـولِّـــدُ العجَـبْ
كأنّــه أســلاكْ ... من مغـزل الضُّحى
من أين للنُّسّـــاكْ ... من جنسه لحى !
وفوق رأس الكَبْش تاجٌ عظيـمْ ... تجمَّـــد الطَّـلّ عليـــه دُرَرْ
وحـــول قـرنَيْه نجـــومٌ تحُومْ ... كما تحومُ النَّحْــلُ حولَ الزَّهَر
وجـــاءنى عُصْفُورْ ... مرصّـــعُ المِنْقـــارْ
ذو ريشــة من نُــورْ ... وريشـــة من نَـــارْ
قال : تمتّعْ ، إنَّ هذى الصُّـوَرْ ... لا تتركُ اليقظـــةُ منهـــا أثَـرْ

* * *

لقد كان هذا نشيداً واحداً من الحلم الأول من أحلام فرحات ، وهذا الحلم يتألف من عشرة أناشيد مثل هذا . وقد جعل فرحات عنوان الحلم : « الخمر والحب والشباب » .

وقصيدة « الخمر والحب والشباب » هذه – وهى أول الأحلام الستة – هىّ أكثر قصائد الديوان جرياً مع العاطفة ، وروح الغناء ، والخيال التصويرى الإبداعى ؛ فهى تعبر عن حنين الشاعر إلى عمر الشباب ، عمر الحب واللذة . وتتلخص فكرة الشاعر فيها فى أن الشباب هو الذى يجعل للحب والخمر لذةً وجمالاً ، وأن اجتماع الشباب والحب والخمر هو اللذة الحقيقية فى الحياة . وقد أجرى الشاعر فى ذلك كلاماً على لسان ثلاث نعاج – حوّلهنّ الحلم إلى نساء – أخذت إحداهن تدافع عن الخمر ، والثانية تدافع عن الحب ، فى حين انبرت الثالثة تدافع عن الشباب .

والقصيدة الثانية « سلام الغاب » تصور ثورة روح الشاعر الإنسانى على قسوة الإنسان ووحشيته ؛ فهو يتخيل إحدى نعاجه تقف لتؤنبه لأنه قتل الذئب الذى حاول السطو على القطيع وتذكّره بالوليمة التى أعدّها لبعض أصدقائه يوم العيد ، وقدم لهم فيها حملاً من أولادها ، وأنه يثكلها فى كل عام حملاً ؛ فتقول :

تتّهمُ الذّئابَ بـالحمْـــلان ... وأنتَ أضراها وأسوا عَمَــلا
يا أيّـــها الجانى ويا ابْنَ الجانى ... يا مثكلى فى كلّ عام حَمَــلا
الذّئبُ لا يسطو إذا لم يَجُعِ ... وأنت تسـطو جائعــاً ومتخما
بل أنت يا إنسانُ عند الشبـعِ ... والرّى لا تزدادُ إلاّ نهَـــمـا

ومثل هذه القصيدة قصيدته الأخرى « فلسفة الغضروف » التى يدير فيها الكلام على لسان الكلب ؛ فبعد أن يتبجح الراعى أمام كلبه بعلوم الإنسان وحضارته ، يقول الكلب ساخراً :

أما علومـــــكم فقد أتانــا ... عنها من الأخبــار ما كفانا
دِرهمُ خير ليتــهُ ما كــانــا ... ولا جنى الشرَّ على دنيانــا
روضٌ يوارى تحتهُ بُرْكـانا ... وكيسُ خزٍّ يحتــوى ثُعبـانا

ثم يضيف أن فصيلة الكلاب كانت ميالة فى أصل طبيعتها إلى الكذب والخداع كالإنسان ، ولكنها ارتقت عن ذلك مع الزمن ، أما الذى يعود منها إلى الكذب والخيانة فإن الله يحوله إلى مخلوق بشرى عقاباً له . . .

أما قصيدة « محاكمة » فصورة لبعض المفسدين ، الذين يمضون من الشرق ليبثوا روح التفرقة العنصرية والطائفية والإقليمية بين المهاجرين الذين يعيشون جميعاً على حب الوطن العر بى الأصيل الذى نزحوا عنه مرغمين ، والوطن الأميركى الذى يفسح لهم فى مجال الحياة الحرة والرزق الحلال ؛ فإذا بهم ينقسمون على أنفسهم ، ويتناحرون كما يتناحر أبناء الشرق المقيمون على التفاهات . وينتهى الشاعر فى هذه القصيدة إلى حكم القاضى على الكبش الدخيل المفسد الذى قضى مثخناً بالجراح بعد الوقيعة التى دبّت بسببه بين الغنم ، بأن يُسلخ وجهه ويحفظ ليظل شكل الخيانة ماثلاً أمام الجميع ، ثم يطرح جسمه فى النهر :

ولا رحمَ اللهُ روحــــاً تدفّــق منهــا القَذَرْ
إذا ســقَرٌ قبِلَــتها فقــد زادَ شرٌّ سَقَرْ

وفى هذه القصيدة قطعة فى وصف شعور المغترب نحو وطنه الأصلى ووطنه الجديد هى من أروع ما يزفر به قلم ، ويجود به خيال . وهذه القطعة تبدأ فى الصفحة ٦٣ وتستمر إلى الصفحة ٦٧ ، وهى على لسان كبش من الغنم وقف أمام القضاء يدلى بشهادته عما أوقعه الكبش الدخيل من فساد وشر فى الغنم بعد أن كانت آمنة هانئة .

ونأتى إلى القصيدة التى عنوانها علامة استفهام (؟) ، وهذه تعبر عن رأى الشاعر فى الأديان ودعاتها ؛ وهو ينفر ممن يكفّرون من يخالفهم فى العقيدة ويحسبون الجنة وقفاً عليهم وعلى أتباعهم ، والنار وقفاً على سواهم .

والقصيدة الأخيرة « رثاء الغضروف » من أطول قصائد المجموعة ، يبدؤها الشاعر بمرثية صغيرة متحسرة على كلبه الأمين وساعده الأيمن فى رعاية أغنامه ، ثم يستطرد إلى حلم رأى فيه كلبه قد عاد إلى الحياة فى ثوب إنسان عقاباً من الله له ، فأصبح مضطرًا إلى الجرى على سنّة الناس فى المجاملة والتملّق والكذب . وحين

يصحو الراعي من حلمه يهرع ليرى قطيعه فيراه قد كرت عليه الضوارى ، فيتذكر كلبه الأمين من جديد ، ويذرف عليه دمعة حارة قائلاً :

غضروفُ ، يا حسرتى عليكَ ويا ذلِّى وذل المــراح والشَّاء !

وفى عودة الكلب إلى الحياة على شكل إنسان وجعل ذلك عقاباً له من الله ، رجوع إلى الفكرة التى عبر عنها الشاعر فى قصيدة سابقة هى « فلسفة الغضروف » . فإذا ربطنا هذه الفكرة فى القصيــدتين بحملة النعجة على لؤم الإنسان وغدره فى قصيدة « سلام الغاب » ، وبحملة الشاعر على المفرّقين بين الناس بحجة الدين ، فى قصيدة « علامة استفهام » ، والذين يبثّون روح الانقسامية بين الآمنين ، فى قصيدة « محاكمة » ، رأينا أن الشاعر فى خمسة أسداس ديوانه هذا يهدف إلى تهذيب الإنسان ، وتعليمه معانى العدل والرحمة والمحبة ، ويعرب بصراحة عن نقمته على طبيعة الغدر والوحشية البشرية التى تتبدى فى مظاهر متعددة ، كالحروب ، والظلم ، واستعباد الشعوب ، وخنق الحريات ، وغيرها . وهو وإن لم يذكر هذه الأشياء بعينها فى قصائده ، فقد اكتفى بالتلميح دون التصريح ، وانتهى إلى تفضيل الذئاب والكلاب على الإنسان ، لأن تلك تعمل بوحى الغريزة والحاجة فلا تأثم فى ما تعمله ، وأما الإنسان فإنما يعمل بتصميم وإصرار ، ويستخدم العقل لتنفيذ أغراضه غير الإنسانية ، والوصول إلى أهدافه غير العادلة ؛ فيقول الشاعر فى « سلام الغاب » مقايساً بين ذئاب الغاب وذئاب البشر :

قضيتُ يومى حائراً مقايســا بينَ ذئاب الغاب والأسواقِ

هذى ترى الدّنيا لها فرائســاً وتلك ترضَى بالغذاء الواقى

فريسةُ الإنسان ما يحوى الثَّرَى والجوُّ والضّحضاحُ والعُبابُ

ويدّعى العفَّـةَ والعينُ تـرى والعقلُ يروى أنَّـه كذّابُ

هذا هو ديوان « أحلام الراعى » لفرحات من حيث الفكرة ، وأما من حيث النظم فهو مجموعة من الألحان والصور ينتقل القارئ معها بغبطة كمن يشاهد حلماً جميلاً . ومن ألطف ما فى هذه القصائد خواتيمها ، فهى غاية فى البراعة والجمال ولا سيما فى « الخمر والحب والشباب » و« محاكمة » ، « سلام الغاب » .

٨ – على طريق إرم

لنسيب عريضة

اشتهر نسيب عريضة بين شعراء المهجر بالحيرة الشديدة ، والشكوك المتواصلة ، بحيث يكاد يصطبغ شعره ، وتصطبغ حياته بهذا الطابع الحائر . وقد ترك لنا ديواناً ضخماً دعاه « الأرواح الحائرة » ، جمع فيه نحو خمس وتسعين قصيدة ، فى كل منها خطوط بارزة من صورة نفسه الحائرة المتشككة ، الباحثة عن الكمال والمعرفة خلف حجب الحياة والوجود ، وعن السعادة الكبرى فى الاتصال الروحى بمصدر الحياة والوجود . ولذلك نجد نسيبا دائم البحث مع نفسه وفى زوايا نفسه ليهتدى إلى خفايا الوجود الأعظم . ونفسه هى رفيقهُ ودليله ومؤنس وحشته ؛ يناجيها كثيراً ، ويستأنس إليها طويلاً . وهو فى شعره شديد الحرارة والصدق فى التعبير عن هذا الجهاد النفسى العنيف الذى رافقه كل حياته ، وكان مصدر شعره ، ومميزه بطابعه الخاص .

وقد ترك لنا نسيب فى ديوانه قصيدة مطولة بعنوان « على طريق إرم » تصور المراحل التى قطعها فى صحارى حيرته الطويلة ، وما كان يعانيه من قسوة الجهاد النفسى . وتبلغ هذه المطولة مائتين وستة وثلاثين بيتاً موزعة على ستة أناشيد . وسبب تسميتها بهذا الاسم هو ما ترويه الأساطير عن مدينة إرم العجيبة التى يقال إن حجارتها كانت من الذهب والجواهر ، وإن بريقها اللامع كان يزيغ الأبصار . ولكن هذه المدينة قد اختفت بطريقة عجيبة غامضة بكل ما فيها من عمائر لا تثمن ، وقد بحث عنها كثيرون فهلكوا دون أن تتحقق لهم أمنية الوصول إليها .

وقد اتخذ الشاعر من هذه الأسطورة مادة لمطولته : فقد خلق لنفسه « إرم » روحية غير منظورة يبحث عنها جاهداً ، حتى يخيل إليه أخيراً أنه لمح نارها من بعيد . . . ولكنه لم يصل إليها . وإرمَهُ هذه هى « المعرفة » التى قضى عمره يبحث عنها .

وما دمنا قد عرفنا سبب تسمية هذه القصيدة فسنمضى الآن فى استعراضها لنرى المراحل التى سار فيها ظعن الشاعر الروحى نحو هدفه البعيد ، ومدينته السحرية المفقودة .

النشيد الأول بعنوان « أول الطريق » يصف لنا كيف بدأت الرحلة . وقد بدأت لأن روح الشاعر الطموح لا تنى تنزع إلى المجهول ، وتحن إليه حنيناً جامحاً لا يهدأ ولا ينقطع :

أحنُّ شوقاً إلى ديارِ رأيتُ فيها سَنَى الجمالِ
أُهبطتُ منها إلى قرارِ أمستْ به الروحُ فى اعْتقالِ

لذلك يخاطب الشاعر شخصاً مجهولاً يدعوه « سمير نفسه » ، فيطلب إليه أن يمضى معه فى الرحلة البعيدة ليقتفى آثار من ساروا على طريق الحيرة قبله ، فيقول :

انظرْ ، فلى فى البروق سرٌّ تعرفهُ النَّفْسُ فى البروق
ألا ترى البرْق نارَ ركْب تقدَّمونا على الطريق ؟
مِن ألْف دهْرٍ وألْف دنيا سَمَوْا إلى المشْرِع الحقيقى
فسر بنا نقتفى خُطاهمْ نَصِرْ إلى منبتِ الشروق

وتبدأ الرحلة ، فتسمع الشاعر يهتف وكأنما يحدو لظعنه ، ويستحثه بما يغنّيه من أشواقه المتلهفة وحنينه الصادى :

خيَّم الليلُ فوق ركْبِ أثقلتهمْ رحالُ حبٍّ
ليس يدرون أىَّ دَرْب ينتهى باللقا ، وقلبى
فى مطايا الرُّكوبْ
كاد شوقاً يذوبْ
صوت أجراسنا يرنُّ تلك أرواحنا تئنُّ
والصّدَى خلفنا يطنُّ إنه مثلنا — يحنُّ
يا صدى هل تنوبْ
عن هُتاف القلوبْ ؟

ويختم النشيد على هدهدة التشجيع والاستحثاث يغنّيها الشاعر فى مسامع ظعن القلوب السائر معه على الطريق .

والنشيد الثالث بعنوان « الطلل الأخير » ، يناجى فيه الشاعر ذلك الطلل نجوى فيها لهفة وحنين ورمزية صوفية ، فيتساءل عمن نزلوا لديه من الأحبة ثم لم يعودوا ، فيقول :

هنيئاً ! أنت تعرفهُمْ وتذكر أنّهمْ نزلوا
ولكنّى حلمت بِهِمْ وأتبعهم فلا أصلُ

ويظل الظعن سائراً فى « القفر الأعظم » . ولكن الشاعر فى احتدام حيرته يستوحش فيلتفت إلى نفسه فى النشيد الرابع يناجيها قائلاً :

سيرى ولو كنتِ ، نفسى! على ضلال مبين
فأىّ فضْلٍ لركبٍ على الطّريق الأمين ؟ !

وفى النشيد الخامس بعنوان « القيروان » يقدم لنا الشاعر قائمة كاملة بأسماء رفقائه فى هذه الرحلة ، فيقول :

قد كانَ فى الرَّكْب « قلبى » و « مهجتى » و « هَوايا »
و « العقلُ » حامى السَّرايا و « الشّوق » زاجى المطايا
وفى الهوادج « حلمى » و « رغبتى » و « الطَّوايا »
« بناتُ صدرى وشعْرى » و « الذّكرياتُ » الحَظايا
و « ساحراتُ الأمانى » و « عائلات الخطايا »

وأما الذى يقود هذه القافلة العجيبة فى مفاوز طريقه العسيرة ، فهو الحنين إلى المجهول :

يحدو لهنَّ حنينى حداءَ أعْمى سجين
يرى بغيرِ عيونٍ رؤيا تشوق وتُصْبى

وهنا فى هذا النشيد يحدّثنا الشاعر عن ست مراحل قطعها ظعنه فى رحلته :
المرحلة الأولى كان فيها « قلب » الشاعر يسير فى مقدّمة الركب ليهديه إلى الطريق الأمين . ولكن إلى أين يقودهم القلب ؟

السقلب يقفو هواهُ ونحنُ إثْر الفؤادِ
للهِ درٌّ فؤادٍ يهدى وليس بهاذ !
طَوى بنا كلّ شِعْب إلاّ سبيل الرَّشادِ !

وإذن فكيف يرضى العقل بأن يستسلم إلى القلب ليقوده فى مهاوى الضلال ؟ وها هو ذا يثور ، ويعلن تمّرده . وهنا تبدأ المرحلة الثانية بتمرّد العقل على القلب وانقلابه عليه :

فجرّد العقلُ سيفاً من الصّواب صريحا
فخرّ قلبي صريعاً فوقَ الرِّمال ذبيحا
يا ويحَ قلبٍ شقيٍّ لم يسترحْ ، فأُريحا

ويمضى العقل – بعد أن صرع القلب على رمالُ الصحراء – يقود الركب غير عابئ بصوت القلب الذى تركه يتلوى على الرمال من شدّة ألم الجراح . غير أن العقل أيضاً لم يكن بالدليل الحكيم ، لأنه كان جائراً عاتياً ؛ فلم يطق الركب صبراً عن تحكمه ودكتاتوريته . وإذن فقد فشل العقل والقلب معاً فى معرفة الحقيقة ، فما يؤتمنان على قيادة الحياة نحو النور والمعرفة ، وبالتالى نحو السعادة الحقة . كذلك يقول لنا الشاعر بعد اختبار شخصى طويل .

وتبدأ المرحلة الثالثة إذ تثور الشكوك متمرّدة على قسوة العقل ، فتدفع الركب كله إلى التمرد عليه . وتتسلط عليه جيوش الشكوك فيهرب العقل هائماً على وجهه فى الصحراء ، وقد جنّ لكثرة ما انتابه من الشكوك .

وفى المرحلة الرابعة يقف الشاعر ليجمع ما بقى لديه من ذلك الركب معللا إياهم بالصبر ، فيقول :

يا ركبُ ! يا ركبُ ! صبْراً لم يبْق إلاّ اليسيرُ
لا ترجعوا لقفارٍ فيها الأمانى تبورُ
فلنَرقَ طودَ التجلّى فى الذّرى نستنيرُ

ولكن الركب يعلنون تمّردهم عليه ، ويعودون ليبحثوا عن المكان الذى تركوا فيه دليلهم الأول الصريع ، وهو القلب . وتكون هذه هى المرحلة الخامسة . وأما فى المرحلة السادسة فينظر الشاعر حوله فإذا هو وحيد ، ينادى ركبه ، وما من

مجيب إلا نفسه ، فقد كانت هناك تبكى وحيدة . وقد قدّمنا أن نفس الشاعر هى رفيقه الملازم فى كل مراحل حيرته ، وهى هنا لم تفارقه . فيلتفت إليها ويناجيها بشعور ذائب حارّ فيه كل معانى الخيبة الحائرة والحيرة الخائبة ، فيقول :

يا نفس ! رفقاً ومهلاً فأنْتَ ظَعْنى وَرْحلى
طرحتُ كلَّ رحالى إلاّكِ ، ما زلْتِ حملى
تعلَّلى بسكوتٍ وعلِّلينى بجهلى

ويتابع طريقه لعله يبدو له وجه ربّه . . .

وهنا ينتهى النشيد الخامس . ثم نُطلّ على المشهد الأخير من المطولة ، حيث تنتهى الرحلة فى مرحلتها السابعة ؛ فى النشيد السادس بعنوان « نار إرم » ، ينظر الشاعر فيرى على البعد ناراً ، فيطمئن ويتعزّى ، ويأخذ فى مناجاة ذلك الضوء قائلاً :

إيه ضوئى البعيدْ لُحْ ولُحْ ما تريدْ
ليسَ طرفى يحيدْ عنكَ حتَّى يعودْ
لترابٍ ودُودْ
لُحْ ولُحْ فى الفضاءْ قد سمعتُ النِّداء
. ودليلى الرَّجاء فعساهُ يقُودْ
ظامئاً للوُرود

وحقاً لقد سمع نسيب النداء : نداء روحه الصادية إلى المعرفة ، والمتطلعة إلى الكمال ، فسار نحو ذلك الضوء البعيد ، وما زال طرفه عالقاً به حتى عاد – كما قال – إلى تراب ودود ، بعد رحلة مضنية فى مجاهل الحياة .

٩ – معلّقة الأرز

لنعمه قازان

نعمه قازان شاعر مهجرى لم يصل اسمه إلى الشرق مدوياً كما وصلت أسماء الكثيرين من أقرانه المهجريين. وهو من المهجر الجنوبى ، من زملاء القروى ، وفوزى المعلوف ، وشفيق المعلوف ، وفرحات . شاعر يحاول أن يوحى إليك بأنه لا ينظم الشعر ليرضى به نزعة من نزعات الهوى فقط ، ولا ليغنى للناس مزامير حبه ، ولا ليصوّر لهم عادات مجتمعهم وتقاليدهم ، بل لغاية أسمى وأبعد مطلباً ، وهى أن فى الشعر رسالة الحياة ، وأن هذه الرسالة يجب أن تقود الناس إلى الله . ومن كانت هذه الرسالة الروحية السامية هدفه ، فلابدّ أن يكون فى شعره شيء ثمين يستحقّ منا أن ننظر فيه بشغف كبير ، لنقع على هذا الشيء الثمين فنستجيب له ، ولا سيما أن الشاعر حريص كل الحرص على تأدية رسالة الشعر كما يفهمها برغم كل ما يمكن أن يناله من اضطهاد ، وما يعرقل رسالته من مثبطات :

وإن تصلبونى ولى كلْمةٌ فلستُ لأرجعَ عن كلْمتى

كذلك يقول هو فى قصيدته التائية التى دعاها « معلقة الأرز » ، والتى جاءت فى ثمانية أناشيد ، يبلغ مجموع أبياتها مائتين وواحداً وأربعين بيتاً . ولعل فى تسميتها « بالمعلقة » معارضة للمعلقات ، التى هى أشهر شعر الجاهلية ، والتى يرى الشاعر أنها لولا تعليقها فى الكعبة المقدسة ما كان لها قيمة ولا شهرة ، فى حين أن « معلقته » هو تستحق أن يمهر بها الخلود بما تحمله من المعانى والأبكار البواقى ، والأفكار المشرقات العوالى ؛ لذلك يعلّقها على الأرز لترافق خلوده ويرافق خلودها ، ولتكون إحدى مفاخر وطنه لبنان . وفى هذا المعنى سبب إضافة « الأرز » إلى « المعلقة » .

همو علَّقوا النَّار فى الكَعْبة ففاضت بنورٍ من الكعبةِ
وإنّى مهرتُ الخلودَ بهـــا فعلَّقتُ فى الأرز تائيَّتى

ترتكز « معلقة الأرز » على أمرين رئيسيين : الأول يتصل باللغة والأدب ،

وهو التحرر – أو الدعوة إلى التحرر – من عبودية القديم وسيطرة اللغة على الأدب ، لأن اللغة يجب أن تكون وسيلة لنقل الأفكار والمعانى فحسب ، لا غاية فى ذاتها ؛ واللغة بحالتها الحاضرة وما تعانيه من جمود ثقيل لا تصلح لذلك ، لأنها ما تزال تجرى على سنن القدماء دون تبديل أو محاولة للتبديل ؛ والقدماء الذين وضعوها وسنّوا قواعدها وأصولها وأساليبها إنما فعلوا ما يلائم زمانهم فقط ، لا سائر الأزمان :

أقاسَ النحاةُ حدودَ الزَّمان ومرمى خيالى وعقليَّتى ؟
لقد حدَّدوها لأفكارهمْ فضاقتْ وزمَّت على فكرتى

والأمر الثانى يتصل بالروح ، وهو التحرر من الشر ، وتطهير النفوس من أوضارها ، وتوجيهها نحو إنسانية مثلى ، لتصل إلى غايتها من الكمال حين تتصل بمصدرها الأعظم : « الله » ، وتعيش معه سعيدة :

ولكنَّنى شاعرٌ مــؤمنٌ دعوتُ إلى الله فى دعوتى

ويذكر أنه بحث فى الشعر العربى كله – قديمه وحديثه – فلم يجد فيه ما تتوق إليه نفسه من التعريف بالله؛ وهذا من أسباب نقمته على الشعر العربى :

سعيتُ إلى الله فى شعْرِكمْ فكنت كساعٍ إلى بــؤرة
وفتَّشتُ عنــه بآثارِكُمْ كأنِّى أفتِّش عن علَّةٍ
فكنتُ ، وبى عطَشٌ قاتلٌ كمن يأكل النَّارَ بالشوكةِ

فهو لم يجد فى الشعر العربى كله « ما يخفف من لوعة » ولا « ما يجفف دمعة أو يشدّد من همّة ، أو يولِّد من بهجة » ؛ ولذلك يهتف مندّداً بهذا الأدب السطحى بأنه ، وبأن كل أدب ليست له تلك الصفات :

ولو كانَ للنَّفْس فيه غنىً نثارةُ حبْرٍ على صَفْحةِ

وقد جعل مقدّمة المعلقة – إن جاز لنا أن ندعو تلك الخواطر الفائرة مقدمة – شرحاً لهذا المعنى الروحى الإلهى ، فقال فيها : « آمنت بالله وبرحمته وعدله ، وبالدنيا ملكوت الله وفردوس الإنسان ، وبالإنسان المخلوق على صورة الله ومثاله » . ثم يردف قائلاً : « فالأدب إذن – أدبى – : كل زرع مثمر فى هذا الحقل ، وكل نور ، ولو ضئيلاً ، يضيء فى هذه الطريق ، والأديب – أديبى – : كل

من يدلنى على الطريق ويسير أمامى ؛ والشاعر – شاعرى – : كل من أدخلنى الجنة ، وعرّفنى الله » .

وقد قال الأديب المصرى المهجرى محمود شريف ، الذى تعصّب لهذه المعلقة – ولغيرها من شعر قازان – تعصّباً مطلقاً ، فحللها وشرحها ودافع عنها ، وهاجم كل ما عداها وكل من عدا صاحبها فى كتابه « ثورة قازان فى معلقة الأرز » : « المعلقة ثورة جاشت فى صدر شاعر مصلح » .

وإذا رحنا نقلّب المعلقة نشيداً نشيداً ، ونسايرها خطوةً خطوةً رأينا النشيد الأول منها ينطوى على اعتداد شديد بالنفس ، من مطلعه :

تطاوَلَ قومٌ على شهْرَتى فقلتُ خذُوها بلا منَّة

إلى خاتمته :

كلوا واحْسدُونى ، فلا بدعة لَيُحْسَد مثلى على الموتة

ولكن يبدو أن هذا الاعتداد لا يهوى بصاحبه إلى مهواة الغرور السمج ، وإنما يسمو به إلى التسامح ، والتفانى فى التضحية ، لأنه صادر عن شعور واسع بالامتلاء ، وثقة عظيمة بأن لديه كثيراً من فيض العبقرية والغنى الروحى ، والقدرة على المنح من هذا الفيض الكثير :

أكلتمُ خبزى فياشبْعَتى وأطعمتمُونى فواجَوْعَتى !
كلوا يا فراخى ، كلوا وانْعَموا فإنَّ أباكم فى نعْمـــةِ

وفى هذا النشيد معنى الإحسان إلى المسيئين ، فالشاعر يطعم من فيض شبعه حتى أولئك المتطاولين على شهرته ، وحساده الذين يقابل نقمتهم وغدرهم بسلاح الابتسام والإشفاق والتسامح :

وأَمضَى سِلاحى ، فإن تغدروا فأمْضَى سلاحىَ فى بسْمتى

وفى النشيد الثانى يحاول الشاعر جاهداً أن يظهر خطأ القول بأن لا جديد تحت الشمس ؛ فهو يرى أن كل ما فى الحياة « يتجدد » بلا انقطاع :

أليس الزّمانُ على كرِّه دليلَ التجدّدِ فى الكرّة ؟

ثم يتطرّق من ذلك إلى موضوعه الأصيل : موضوع الشعر والأدب ، فيذكر

أنه سيمضى فى سبيله ليخلق فى الأدب كل جديد باهر برغم حُسّاده ومثبطى همته ، الذين يهتف بهم قائلاً :

دعونى أسير إلى غايــــتى   دعونى أسير إلى نبْعَتى
فإمَّا عثرت ولُذْتُ بكُمْ   فلا تُنْجدونىَ فى عَثْرتى

وأما غايته ونبعته اللتان يريد أن يسير إليهما ، فنحن نفهم أنهما الدعوة إلى إحكام الصلة بالله ، وإلى اتخاذ الله نفسه سبيلاً إلى الله .

ونحن نعلم أن هذه الفكرة : فكرة الاتصال المحكم بالله ، ليست جديدة ، فقد دارت عليها رسالات الأنبياء من قديم الزمان ، وكانت بارزة الأثر فى آداب جبران وطاغور وتولستوى وميخائيل نعيمه . والذى يقرأ « زاد المعاد » و « المراحل » لنعيمه يجدها فى كل فصل من فصولهما بمثابة الروح من الجسم .

ونسير مع المعلقة ، فنرى الشاعر فى النشيد الثالث الذى جعل عنوانه « إمارة الشعر » ، يتهكم بتلك الرواية التى مثّلها عدد كبير من أدباء الأقطار العربية حينما بايعوا شوقى أميراً للشعر .

والنشيد الرابع يستحق منَّا وقفة أطول من الوقفات السابقة لنتبيّن مدى التضحية الراضية فى سبيل البشرية ، الذى يلخصه قول الشاعر :

ألا فاشربوا الوحْىَ من جرّتى   ولا بأسَ أن تكسروا جـــرّتى
إذا كان فيها الحياةُ اشربوا   ولا ترفعُــوها على صحَّتى

وهذا ما يدفعه إلى أن يرى أن شعره هو شعر الروح وليس شعر المعدة ، ولذلك يعتزُّ بما فيه من سموّ .

ونحن نجد فى هذا النشيد شيئاً من جبران خليل جبران ، ولا سيما فى قطعة نثرية له بعنوان : « بين ليل وصباح » يقول فيها جبران : « لقد أزهرت نفسى فى الربيع ، وأثمرت فى الصيف ، ولما جاء الخريف جمعت أثمارها فى أطباق من الفضة ووضعتها على قارعة الطريق ، فكان العابرون يتناولون منها ويأكلون ثم يسيرون فى سبيلهم » . . وقازان يقول فى هذا النشيد الرابع :

لعبتُ بأوتار قيثــــــارتى   فطفتم بشعْرى على نَشْوة
ولما سكرتمْ كفرتمْ بها   وقلتمُ ما الخمرُ من كرْمتى

وليس عجيباً أن يتأثر قازان بجبران ، وهو القائل فى ذلك :

وإنى رسولٌ على دينــه حملتُ الصّليب إلى البيعةِ

كما أنه ليس عجيباً أن نرى فى شعره أثر نعيمه ؛ فقازان يرى أن نعيمه هو « الدرّة » الوحيدة التى عثر عليها فى الأدب العربى كله ، قديماً وحديثاً . وفى الواقع أن لجبران ونعيمه أثراً كبيراً فى شعر قازان ولا سيما فى توجيهه نحو الاهتمام بالناحية الروحية والإنسانية .

أما النشيد الخامس من « معلقة الأرز » فهو قطعة من الحنين الرقيق العذب الذى عوّدنا إياه المهجريون فى تذكاراتهم لوطنهم . ومنه قول الشاعر :

تغنّيتُ بالأرز ، ما حيلتى إذا الأرزُ طابتْ له نغمتى
ولبنانُ ، أمّى به حَفْنةٌ سقتْك السّماوات يا حفنتى
أقول : بِقاع الدّنى حلوةٌ وأحلى بقاع الدُّنى بُقْعتى

وفى هذا النشيد يسرد الشاعر قصة ولادة هذه المعلقة ، فيذكر أنه فى إحدى الليالى قد هاج به الحنين إلى لبنان : منبع النور فى حياته ، فهمت من عينه دمعة شاهدَ فيها أمه تبدو فى عمود من النور ، فهبّ مستعيناً بخياله ليخلّد تلك الحفنة من التراب – أمه – التى ترقد تحت أجنحة الأرز . فلما وصل بخياله إلى لبنان – وهو يدعوه « حدّ السماء » – نشر خياله على الأرزة ، ومضى يجوب العوالم فى لحظة . . . وهنا تتكرر فى خياله قصة العليقة المشتعلة التى رآها موسى ، كما وردت فى التوراة والقرآن ، وسمع فيها صوت الله يأمره بخلع نعليه ، لأن الأرض التى يقف عليها مقدّسة ؛ فقد رأى خيال الشاعر فى هبّة النسيم ناراً مشتعلة ، وسمع صوتاً من الأرز يدعوه لخلع حذائه ، فكبر لله الذى يخاطبه من الأرزة . . . وفاضت عليه المعانى فيضاً فعاد بهذه القصيدة التى يعدها بدعة فى الشعر .

وفى النشيد السادس يصب قازان نقمته من جديد على اللغة وعلى الأدب القديم ، ويرى أن جبران قد كان « الفجر » الذى بدأ الناس عنده يحاولون الانطلاق من قيود عبوديتهم للأدب اللفظى . ولذلك يرى أن كل ما قاله جبران هو القول ، وكل ما قاله علماء اللغة وأتباعهم لا قيمة له :

وزدتُ : لقد قال جبرانُنا وما قيلَ قبلُ بلا زُبْدةِ

وهو يفتخر بأنه رسول يدين فى الأدب بدين جبران ، فقد دعا الناس إلى اتباعه فلم ترقهم دعوته ، لأن جبران فى رأيهم خارج على تعاليم النحاة . ولذلك ينقم قازان عليهم وعلى لغة النحاة ، فيهتف مهدّداً بمنتهى النقمة والوعيد والتّحدى :

إذا فتح الله يوماً علىّ رفعتُ البناءَ على الكَسْرة

فإن كنتُ نظْماً فقد تكسرونى وإن كنتُ شعراً فيا منعتى !

ونحن نرى أن صدق المعنى الذى فى البيت الثانى يخفف من حدّة التمرّد المفرط فى البيت الأول ، لأننا نرى فيه أن الأدب الحق يعتمد على قيمته المعنوية مثلما يعتمد على قيمته اللفظية ، ولكننا لا نرى فى التحدى الذى يشتمل عليه البيت الأول ما يستحق الاهتمام الكبير ، ولا سيما أننا نعرف أن (المبنى) لا (يرفع) لأن الرفع علامة (إعراب) لا تدخل على (المبنى) . والتحدّى هنا يثير الضحك ليس إلاّ ، لطرافته .

وأما النشيد السابع ففى بدايته يحاول قازان أن يرسم صورة لأخلاقه العالية ، وما يعتلج فى نفسه من النوازع الخيرة ، برغم ما توحى به لهجته من خشونة ، ومظهره من قسوة فيقول :

سمعتم حديثى فلم تسمعوا سوى نَبْرَة الصّوت فى لهجتى

ولو تنظرونَ بغير العيُون نظرتمْ معيناً من الرأفةِ

فإذا كان الناس قد خدعوا بلهجته الناقمة على قديمهم المقدس عندهم ، فإن وراء نقمته ينبوعاً من الرحمة ، لأنه يريد أن يقودهم إلى ينابيع الأدب الحقّ . وفى هذا النشيد يذكر الشاعر أنه قد غاص فى بحر الشعر العربى إلى قاعه فلم يعثر فيه على غير درّة واحدة هى الشاعر ميخائيل نعيمه ؛ فهو يفضله على الجميع ، لأنه فى رأيه ، الوحيد الذى عرف الله فى أدبه بين سائر شعراء العرب .

ونحن نرى أن فى هذا ظلماً للآداب العالمية كلها ، وليس فقط للأدب العربى الذى لا شك فى أن نعيمه أحد نوابغه الموهوبين . فلو كانت الدعوة إلى الله هى الشعر كله ، لأقفرت ، أو كادت ، الآداب العالمية كلها من الشعر ، اللهمّ إلا شعر الترانيم الدينية . فالشعر عندنا هو صنو الحياة الواسعة الشاملة المتعددة النواحى

والحاجات والنوازع . وعلى هذا يكون إلى جانب نعيمه عدد آخر من الشعراء المبدعين الذين عزفوا على قيثارات الخلود ، وواكبوا الحياة ، وغنوا للنفس البشرية أروع ألحانها بكل ما فى نفوسهم من صدق وإخلاص وحرارة ، وإن لم يرد ذكر الله فى شعرهم .

وأخيراً فى النشيد الثامن يقف الشاعر ليؤدى رسالته الشعرية ، ولكنه يتألم إذ يرى انصراف الناس عن سماع رسالته ، لأنه – كما يقول :

ولكنّنى شاعرٌ مؤمـــنٌ دعوتُ إلى اللهِ فى دعـــوتى

* * *

هذه خلاصة « لمعلقة الأرز » ، تبين معالمها وحدودها على قدر الإمكان ، لتعطى القارئ فكرة عامة عنها . ولنا عليها تعليقات لابدّ منها ؛ من ذلك أن قازان يحاول فى بعض مقاطع المعلقة أن يخرج عامداً على المألوف ليأتى بجديد فى الأسلوب الشعرى ، فلا يوفق فى ذلك ، بل يأتى جديده ضعيفاً ثقيلاً ، كقوله :

فليسَ كبيرٌ سوى « نعيْـــمة » وليس صغيرٌ سوى « نعْمة »[1]

وأيضاً :

فمن امرئ القيس « للذبيانى » إلى « أبى سلمى » إلى « طرفة »

وكذلك جعله : لفظة « معدة » قافية لثلاثة أبيات متلاحقة ، وقد فعل مثل ذلك فى قصائد أخرى غير المعلقة . وقوله أيضاً :

فياما شربتُ من النيِّرات ويا ما أكلتُ من القتلةِ !

ويا ما هربتُ من الكلبة ويا ما لعبت مع « البسَّةِ » !

فالتعبير العامية ههنا تهبط بمستوى الشعر . ونحن نعتقد أن الشعر يجب أن تكون له ألفاظه وموسيقاه وانسجامه ليتميز عن النثر . وألفاظ الشعر ليست فى العامية ولا فى فصحى الأصمعى والزمخشرى ؛ فالشاعر الملهم هو الذى يعرف كيف يختار ألفاظه وتعابيره التى تنغم الشعر تنغيماً ساحراً ؛ وإلا فما أسهل أن

---

(١) اسم الشاعر نفسه « نعمه قازان » . . . والتواضع هنا فى عجز البيت ركيك ولا يثير حسًّا ، وكذلك تكبير نعيمه فى الصدر .

يعمد الإنسان إلى التعابير العامية والنثرية كما هى ، فيشبكها فى أوزان ، ويدعوها شعراً ، كما فعل قازان فى « أنشودة الغريب » التى ألحقها « بمعلقة الأرز » ، فقال فى بعضها :

أفدى صبايا العين إلها وما لها عين
تحكى من الخدين يا حيا لبنان
ترنيمة الدورى تسبيحة الخورى
تبخيرة الجورى يا صلا لبنان

فقد ضاع معنى تلك القصيدة وجمالها بتعابيرها العامية ، وترادف ألفاظها بغير ترتيب كما فى قوله :

يا سكّة الفلاح يا مبضع الجرّاح
يا إبرة اللقاح يا قوى لبنان

ثم يبدو لنا أن قازان لم يتحرر فى شعره تماماً من قيود القديم كما يزعم . وأول ما يبدو ذلك فى التزامه قافية واحدة للقصيدة كلها على طولها ؛ وفى هذا ما فيه من تكلف النظم والتقليد للقديم . وكذلك أفلتت منه فى بعض قصائده تعابير كانت روح العصر تقضى باستعمال سواها لو أنه فطن لها . فهو مثلاً يشبه بنات لبنان بالمها ، فى أنشودة الغريب . وأين « المها » فى لبنان ؟ وهل تظلّ هذه اللفظة إلى الأبد وصفاً للحسان ، ونحن لم نعد نعرف ما هى المهاة ، أو على الأصحّ لا يعرفها منا إلا فئة بعيدة عن المدن ؟ . أليست هذه اللفظة من القديم ، بقايا الصحراء التى ترتع فيها المها ؟

وفى قصيدته الأخرى المنشورة فى آخر كتاب « ثورة قازان » لمحمود شريف ، ورد مرات قول الشاعر : « همزت الجواد » . . وخاصة قوله :

لئن عاقَ دربى إلى الله لفظٌ همزتُ جوادى يسير الخبَبْ

أفلم يجد غير همز الجواد للهرب من اللفظ الذى يعوق طريقه عن الله ؟ وما قيمة الجواد فى السرعة إلى جانب مخترعات العصر الحديث التى تحلق وتجتاز الآفاق بمثل لمح البصر ؟ أليست هذه خيراً من الحصان فى هذا المقام ؟

وأخيراً نحن نرى أن هذه المعلقة ليست سوى إرهاصة بعمل أدبى قيّم ، وتحديد لأهداف أدبية معينة ، ولكنها ليست هى بنفسها ذلك العمل القيم ولا تلك الأهداف ؛ وهى وحدها لا تيسّر لنا أن نحكم فى أدب نعمه قازان لنرى أينطبق أدبه « الإبداعى » – لا النقدى والتوجيهى – على أهدافه ومقاييسه أم لا . ولا بدّ من الاطلاع على بقية أعماله الأدبية لنرى ذلك الجديد القيّم الذى يحاول قازان خلقه فى الأدب العربى ، والذى قال مشيراً إليه :

سأبقى وتبقى اللّيالى حَبالى ببكرٍ يزفّ إلى بكْرةِ

ولقد جاءت بقية أعماله الشعرية فى ديوان آخر دعاه (المحراث) وصدر فى البرازيل عام ١٩٦٤ ، ولم تختلف روح شعره ولا عبارته فيه عنها فى (معلّقة الأرز) ، وإن تنوّعت قصائده من حيث الموضوعات .

الفصل العاشر

طرائف ومطارحات فى شعر المهجر

فى الأدب المهجرى – كما فى الأدب العربى إجمالاً – كثير من الطرائف والحكايات المسلية ، وفيه كذلك كثير من المطارحات الشعرية المرحة .

وقد رأيت أن أدير حديثى الآن على أشياء من هذه الطرائف والمطارحات المهجرية التى تتجلى فيها خفة الروح ، وبراعة الصياغة ، والموهبة الشعرية المطبوعة .

ولعل أحق شعراء المهجر بأن نستهل هذا الحديث بذكره من أصحاب الطرائف والمطارحات الشعرية هو الشاعر أسعد رستم ؛ فقد اشتهر من بين جميع شعراء المهجر بالدعابة والمرح . وهو لا يهتمّ بأن يكون شعره منطبقاً على قوانين الجمال البيانى وقواعد اللغة والبلاغة بمقدار ما تهمه الفكاهة والطرفة المضحكة . ولقد قال مرة يرد على من كانوا يعيرونه بأن لغته ركيكة :

يقولُ بين النّاس لى حُسَّدٌ أعدَمْتُهم بنظمىَ العافيـــهْ
بأنّ شعرى لا يســـمّونهُ شعْراً ، فلم تَرْقَ له قافيه
فقلت : لو صحّ الذى شيَّعوا لما دعونى شاعرَ الجالِيـــهْ
ولا أغالى إن أقل إنَّـــنى حشرتُ أهلَ الشِّعْر فى الزاويه
والبعضُ لا ينظم فى ساعة ما ينظم « الأسعدُ » فى ثانيهْ
أما بإنشاء القوافى فــلا أحطُّها لأحـــدٍ واطيه ! . . .

وكان هناك لغوى متنطع يلاحق أخطاء الكتّاب اللفظية – ولعله كان يلاحق أسعد رستم نفسه كذلك – فردّ عليه الشاعر قائلاً :

يا أيُّها الرجلُ المباهى غـــيرَه علماً – وبعض العلم ليس يجوزُ –
فى النَّـــحو أشياءٌ تجـــوز وإنَّـــما أكل الهوا فى النحو ليس يجوزُ ! . .

والذى يطالع ديوانه المعروف « بديوان أسعد رستم » لا يملك نفسه عن الاستغراق

فى الضحك ، منذ أن يفتح صفحة الإهداء الأولى حتى يأتى على الصفحة الأخيرة منه . ونحن نكتفى بإيراد أشياء قليلة من ذلك الديوان الضخم :

حين مات الشيخ إبراهيم اليازجى ، رثاه أسعد رستم بأبيات أراد أن يجمع فيها إلى جانب الرثاء مداعبة هجائية لشكرى الخورى ، صاحب جريدة « أبى الهول » التى كانت تصدر آنذاك فى البرازيل . فقال :

قد ماتَ الشيخُ ، فواأسفا ... فى الأوّل من هذا الحَوْلِ
والشيــخ إمامٌ كان يفيـ ... ـدُ الناسَ بفعْلٍ مع قَوْلِ
نَقَدَ الشعراءَ من المتنـــ ... ـبىِّ ربّ الشعر ، إلى الصّولى
حتَّى قتلَتْهُ ركاكة شـــكـ ... ـرى الخورى ضمن « أبى الهول »

ونزل الطاعون مرة بلبنان سنة ١٩٠٧ أو ١٩٠٨ فكافحه أسعد رستم كفاحاً طريفاً ، إذ هجاه بقصيدة قال فيها :

إن كان لا يجدى بك القانونُ ... فالحامضُ الفينيكُ والصّابونُ
يا أيّها الطاعونُ إنَّ بلادَنــا ... منظومةٌ ومناخَهــا موزونُ
حتَّى جنابك جئت كى تقضى الشتا ... فيها ، فأنتَ إذن لها مديــونُ
أمن العدالة أن تقيمَ بأرضها ... ضيفاً ، وتقتلَ أهْلَها يا دونُ ؟ !
أمن العـــدالة أن تعشش عندنا ... يا ابْنَ الحرام ، وفى البلاد الصّينُ ؟

وأعجبته صلعة أحد أصدقائه ، فنظم فيها قصيدة بعنوان « الصلعة أو الطاسة المبصبصة » قال فيها :

لصـــديقنـا فى رأســـه صحـــراءُ ... جَفَّتْ فـــلا عشـــبٌ بها أو مـــاءُ
وكأنهـــا الميـــدانُ من بعـــد الوغَى ... فـــنى الجميـــعُ فما به أحْيـــاءُ
تـــزداد مـــا مرّ الـــزّمـــان مساحـــةً ... وصـــديقُنـــا من كـــبْرها يستـــاءُ
ولقـــد سمعنـــاه يقـــول ودمْعُـــه ... يجرى ، فيعمى مقلتيـــه بـــكاءُ :
كم من دوا للشّـــعْر قـــد جـــرّبتـــهُ ... يوماً ، فـــراح سـدًى وظلَ الـــدّاءُ
يا حسرتى ! ذهبَ الشَّبابُ وكان لى ... فيـــه مـــآثـــرُ جمَّـــةٌ غـــرَّاءُ !
أمَّـــا الحســـانُ الفاتناتُ فليس لى ... مـــع صلعـــتى فى وصْـــلهنَّ رجـــاءُ
قلنـــا له : مهلاً ، فلِم هـــذا البُـكا ... واسْمَعْ فـــى هـــذا الكلام عَـــزاءُ :

أَوَليسَ للإنسان فى إحرازها شرفٌ ، ويملك مثلَها العُلَماءُ ؟
فأجاب : لا شرفٌ أريدُ ولا عُلَى أفما لديكُمْ غير ذاك دَواءُ ؟
قلنا : نعم ، زبْلٌ يُرَشُّ فإنما بالزّبْل تحيا الرَّوْضَةُ الغنَّاءُ ! . . .

ولعل أسعد رستم أول شاعر عربى – بل لعله الشاعر الوحيد فيما أعرف – نظم الشعر العربى وجعل له قافية أجنبية ؛ فقد ألقى عام ١٩٠٨ قصيدة فى حفلة الخريجين فى جامعة بيروت الأميركية – وهو من خريجيها القدماء – فجاءت فى واحد وعشرين بيتاً ، جميع قوافيها إنجليزية . وقد استهلها بقوله[١] :

إن هذى معاهدُ ال (Education) عِلْمُها يكسبُ النهَى (Elevation)
قد بناها الأميركيون للخيـ ـر فحمداً إذن لتلك ال (Nation)
أمَّةٌ قد زهت وتاهَتْ وباهَتْ أمَمَ الأرض بال (Civilization)

* * *

وبعد هذا ننتقل إلى شاعر آخر من كبار شعراء الأمة العربية ؛ وهو إلياس فرحات ؛ فى حياته طرائف كثيرة ، وقد روى إحداها الشاعر جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر » ونلخصها بما يلى :

والمعروف أن فرحات لم يتعلم قط قواعد الصرف والنحو والعروض ، إذ غادر مقاعد الدراسة وهو فى سنّ العاشرة . بدأ حياته ينظم الأزجال العامية ويطالع الشعر الفصيح ويحاول تقليده ، فكان نظمه يجىء فى البداية غريباً عن قواعد اللغة ، فيضطر إلى عرضه على آخرين ممن يثق بمعرفتهم للغة وقواعدها وعروضها .

وفى إحدى المرات نظم أبياتاً لا بأس بها وذهب يعرضها على الأديب توفيق قربان ، وهو من أساتذة العربية القديرين . فأراد قربان أن يداعبه ، فقال له إن فيها بيتين مكسورين ، واختلق له قاعدة لا أصل لها فى العروض . فشطب فرحات البيتين بألم ظاهر وهو يقول : « يلعن ساعتهن ! » ثم غاب فرحات قليلاً ، ولكنه لم يلبث أن عاد وهو يردّد بيتاً للمتنبى ويقول : لقد وقع المتنبى فى الغلطة نفسها » ثم أردف : « ولكن يجب أن لا أتشبه بالمتنبى إلا فى صحيحه لا فى غلطه » .

(١) مجلة سركيس – القاهرة – مجلد عام ١٩٠٨.

وبعد قليل تذكر بيتاً لابن الفارض ، فقال لقربان مندهشاً : « وابن الفارض أيضاً ارتكب الخطأ عينه ! » فاستمر قربان فى خطته ، فقال : « إن ابن الفارض شاعر الغرام الروحانى ، لا يجوز الاحتجاج به فى شئون اللغة والعروض » . فذهب فرحات كسيفاً ، ولكنه لم يلبث أن عاد من جديد وقد تذكر بيتاً للمعرى ، فقال بدهشة أكبر من ذى قبل : « والمعرى أيضاً وقع فى هذا الخطأ . فهل يخطئ المعرى أيضاً ؟ ! » فقال له قربان « القواعد فوق المعرى وابن الفارض والمتنبى » . وفى هذه المرة لم يطق فرحات الصبر ، فقال : « أنا أفضّل أن أكون مع المعرى وابن الفارض والمتنبي على أن أكون مع القواعد » ، وهمّ بالانصراف ، فانفجر قربان ضاحكاً ، واعترف له بأن أبياته صحيحة ، وأن له من فطرته السليمة ما يغنيه عن إتقان درس القواعد

وكان فرحات مرة وكيلا فى ولاية ميناس – مكان إقامته – لأحد معامل الحرير فى سان باولو ، وكان يتقاضى عن وكالته عمولة مقدارها خمسة بالمائة ، فأنقصها صاحب المعمل إلى ثلاثة بالمائة . فكتب إليه الشاعر يقول :

يا صاحبَ النَّوْل كُل لحمى ولا تَعْتَــذرْ
إنى الصّــديقُ الذى مهما تُسىء يغتفــرْ
أنقصتَ من أجْرتى فى ذا الزّمان العَسرْ
هل خفْتَ أن أغتــنى أم خفْتَ أن تفتقِر ؟
يا صاحبَ النَّوْل جُــرْ واظْلمْ فلن أنتحــرْ
ما زدتَ فى حاجتى فالوحْلُ لن يعتكرْ
من كان فى أسفل الهـ ـوّة لا ينحــدِرْ !

ولقد اشتهر فرحات وزميله الشاعر القروى – رشيد سليم خورى – بين شعراء المهجر بشعرهما القومى الحار المتدفق ، ولكنهما اشتهرا كذلك بشيئين آخرين هما : عزوبة القروى الدائمة ، وفقر فرحات المدقع .

وفى إحدى المرات حضر الشاعر القروى حفلة عرس ، واجتمعت حوله حلقة من زملائه العزاب ؛ فكأنما تسرّبت الغيرة من العرسان السعداء إلى قلب القروى فقال :

أيا رفاقى ! أنَقْضى عمْرَنا نَوراً لنُشبعَ الناسَ تزميراً وتطبيلا ؟
هيَّا بنا ولنجرِّبْ حَظَّنا معَهُمْ وليقْضِ ربُّك أمراً كان مفعولا
نكسو الحليلة أشعاراً ، فإن طلبَتْ مالاً سحبنا على (فرحاتَ) تحويلا !

ولم يكن فرحات حاضراً ، فلم يصل ذلك إلى علمه ، حتى اجتمع هو والقروى فى حفلة أخرى أنشد فيها القروى قصيدته « الربيع الأخير » ، فلما وصل منها إلى البيت التالى :

إنى كريمٌ أحبُّ المالَ مشتركاً لكن غيورٌ أحبُّ الحسْنَ محتكرا

قاطعه فرحات قائلاً : « الحسن مبروك عليك ، أما المال فهات قاسمنا ما معك منه » فأجابه القروى :

« أنا لم أقل « إنى أحب المال مشتركا » إلا طمعاً بما معك أنت ، لأنك الشاعر الوحيد الذى تسحب عليه التحاويل » ثم ذكر له البيت الذى سبق أن أنشده ، وهو :

نكسو الحليلة أشعاراً ، فإن طلبتْ مالاً سحبنا على فرحاتَ تحويلا

فضحك فرحات وقال : « وأية جنية ترضى بك عريساً ؟ ! »

ومن طريف ما يروى عن فرحات هذا ، فى أيام شقائه ونضاله البائس فى البرازيل لأجل العيش ، أن صديقيه الأديبين توفيق ضعون وجورج حسون معلوف أرادامرة أن يهيئا له عملاً يساعده على العيش ، فكلفاه أن يكون ممثلا لمجلة« الجديد » التى كانا يصدرانها ، ومراسلاً لها فى الداخلية . ولكى يليق مظهره بهذا العمل ابتاعا له بدلة جديدة يقسط ثمنها على عشرة أقساط شهرية . فلبسها فرحات ومضى فى مهمته ، وجعل حسون وضعون يترقبان رسائله وأنباء توفيقه فى تحصيل اشتراكات المجلة . فكانت رسالته الأولى – كما يقول ضعون فى كتابه « ذكرى الهجرة » – قصيدة ينعى بها كمّ ردائه الجديد ، والرسالة الثانية شكوى من مماطلة المشتركين ، أما الثالثة فكانت فرحات نفسه عائداً بالإخفاق . .

أما القصيدة التى نعى بها كمّ ردائه الجديد فهذه هى :

كأنَّ الهواءَ مع النار – لمَّا رآنى لبستُ جديدى – اتَّفَقْ

فجاء بها من دُخان القطار ونثَّرها فوقَــه فاحـْتَرَقْ
فقلتُ أعاتبُ ربِّي مشيراً إلى الحرْق وهو كبابِ النَّفَقْ :
« إلهى ! تضنّ علىّ بثــوب وتكسو الغصونَ ثيابَ الوَرَقْ !
ولو كنتُ غصناً لجدّدتُهُ متى ما بشيرُ الرّبيع انْطلَقْ
ولكنْ أرى دون تجــديدهِ غيومُ الأسى وسيولُ العَرَقْ !

وما دمنا فى ذكر فرحات فإننا نذكر الطرفة التالية ، وقد أوردها هو فى مذكراته . فقد ذكر أنه كان قد دعى عام ١٩٣٣ مع الشاعر القروى للاشتراك فى حفلات تأبين المغفور له الملك فيصل الأول فى الأرجنتين . وعند عودته منها أبرق إلى صديقه الشاعر نصر سمعان يطلب منه أن ينتظره فى المطار فى سان باولو . ولكنه حين وصل إلى المطار لم يجده ، فذهب توًّا إلى منزله . فقال له نصر : « كان عليك أن تدخل هذه المدينة على جحش ابن أتان كما دخل المسيح مدينة القدس » . فقال فرحات : لهذا السبب طلبت منك أن تنتظرنى فى المطار . . .

* * *

أما الشاعر حسنى غراب فقد روى له البدوى الملثم ، فى كتابه « الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية » ، مداعبة لصديقه الشاعر نصر سمعان — وكان كلاهما من شعراء العصبة الأندلسية فى البرازيل — ، فقد عهد مرة بدر سمعان إلى أخيه نصر بإدارة معامله ، فكتب إليه حسنى أبياتاً قال فيها :

يا نصرُ ، ويْحَ أخ ولاّكَ فَبْركةً أصبَحْتَ فيها على العُمَّال قوّاما
أخٌ أعاضَكَ ممَّا فتَّ من أدب دفاتراً وفواتيراً وأرقامــا
أضاعَ فى بعض يوم كل ما تعبَتْ يداكَ فى جَمْعه ، يا نصرُ ، أعواما
مَنْ للقوافى ، وقد جرّعتهنّ أسى وللمعانى وقد غودرْنَ أيتاما !
قد كنتَ تنظمُها فيما مضى غُرَراً واليومَ تنثُرها فى الطِّرْس أرقاما !

وروى له البدوى الملثم دعابة أخرى ، فقد دعا الأديب إلياس فاخورى يوماً بعض أعضاء العصبة الأندلسية إلى داره ، وكان بينهم حسنى غراب . وأبطأ الداعى فى تقديم الطعام ، فقرروا هجوه . فقال حسنى :

يدعو إلى بيته الضيوفَ فلا يذبحُ ديكاً لهم ولا جَمَلا
لعلْمه أنَّ ضيفَ منزله يدركهُ الموتُ قبل أن يصلا

* * *

ومن الشعراء الذين عرفوا بحب النوادر والطرائف الشاعر رشيد أيوب ، أحد أعضاء « الرابطة القلمية » فى نيويورك . وقد روى ميخائيل نعيمه فى كتابه على حياة جبران طرفة له بعنوان « الدبكّ » ، كما روى له صاحب جريدة « السائح » حادثة أخرى مع جبران نفسه ، تظاهر فيها بالجنون فى يوم أربعاء ، وهو فى مكتب « السائح » ، واتفق مع رفاقه على أن يوهموا جبران أن الجنون يصيبه مرة كل أسبوع فى مثل هذا اليوم نفسه . ولا يتسع المجال لرواية هاتين الحادثتين لأنهما طويلتان ، ولذلك نكتفى بهذه الإشارة العابرة إليهما .

والذى يطالع فى كتاب البدوى الملثم « الناطقون بالضاد » وقائع جلسات « الرابطة الأدبية » التى أنشأها الشاعر جورج صيدح ورفاقه فى الأرجنتين ، ولا سيمـا الجلســات الاثنتى عشرة الأولى ، يقع فيها على مطارحات شعرية غنية بالمرح والدعابة الحلوة ، كان يتنادر بها الشعراء : جورج صيدح ، وزكى قنصل ، وإلياس قنصل ، وعبد اللطيف الخشن ، ويوسف صارمى ، والمطران نيفن سابا ، وغيرهم من أعضاء الرابطة . وقد ورد ذكر شيء من وقائعها كذلك فى كتاب « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » لجورج صيدح . ونحن نجتزئ ههنا بشيء يسير منها .

فى حفلة شعرية أقيمت يوم تأسيس الرابطة كان على كل عضو فى الرابطة أن يسجل شعراً فى كتاب الوقائع . فكتب عبد اللطيف الخشن – صاحب جريدة « العَلَم العربى » هناك – الأبيات التالية :

تيقَّظْ يا أخى بعد الهُجوع تهيَّأْ زادُ روحكَ بعد جوعِ
لقد صمْنا زماناً عن غذانا وأفْطرنا على الرأس الصَّليع . . .
سأدلى بين هذا الجمْع دلوى وتقليـدى لصيدَحنـا شفيعى
فإمَّـا أن أصير أمير شعْـر وإمَّا أختفى وأسـدّ نيعى ! . .

أما « الرأس الصليع » فيعنى به رأس زميله الشاعر جورج صيدح . وقد فتح بهذه الدعابة باباً يتبارى فيه شعراء الرابطة فى نظم الشعر فى تلك الصلعة الصيدحية ، متعمدين فيه النظم على أعسر القوافى . فقال الشاعر إلياس قنصل يدافع عن صلعة صيدح :

عيَّروه بقبْحها وهى فى شر ... عى مثال الجَمال والتَّبْريزِ
لونُها كالشِّفاه مرَّ عليهـــا ... قلَمٌ للطِّلاء فى باريزِ
شَعْرةٌ فذّةٌ تساقَطُ منها ... لَتُساوى شهادةَ التَّجْهيز ! . . .

وتلاه أخوه زكى قنصل ، فقال :

لا تبالغْ بهَجْوها ، لا تبالغْ ... جلّ من صاغَها يتيمةَ صائغْ
ينبت العشْب فى الوهاد وتبقى ... قلَلُ الشَّامخات جرْداً فوارغْ
هذه الصَّلْعة التى أضحكتكم ... سالَ منها البَيان ريَّانَ سائغْ
هى عندى جريدةٌ لم تمالئْ ... مستبدًّا فى أمْـــره أو تراوغْ
راقَبَتْها من الحكومة عَيْنٌ ... فبدا حقْلُها الرئيسىُّ فارغْ ! . .

فهب صيدح بدوره يدافع عن صلعته التى أصبحت مجال وحى وإلهام للتندر الشعرى فقال :

صَلْعَةَ الخير ، لا أصابَتْك عَيْنٌ ... من عيون الحسَّاد ذات الشّواظ
إنّ لى صلْعةً أجلُّ من الشَّيْــ ... ـب وأحرى بمدْحَــة القُرّاظ
يشْتهى المشْطُ أن يمـــرَّ عليها ... بخيوطٍ دقيقة أو غـــلاظِ
ما أنا الأصْلَعُ الوحيد فيهجـو ... صَلْعَـــتى كلُّ شاعر مُغْتاظِ !

* * *

ومن المطارحات الشعرية المشهورة الحكاية التالية :

اجتمع مرة فى منزل إحدى سيدات آل معلوف فى البرازيل أربعة شعراء من آل معلوف ، هم : فوزى ، وأخوه شفيق ، وخالاهما ميشال ، وشاهين معلوف . وبينما كانت ربة الدار[١] تحتسى معهم القهوة سقط الفنجان من يدها إلى الأرض ، فكان ذلك فرصة للتندر والتعليقات العائلية البريئة . فأرادت السيدة أن تستغل

---

(١) اسمها السيدة إيزابيل معلوف .

الموقف لشحذ قرائح ضيوفها الشعراء ، فاقترحت عليهم أن ينظموا تعليقاتهم على الحادث شعراً مرتجلاً ، وجعلت للمبرز فيهم جائزة هى ساعة ثمينة . فقال شاهين :

ثملَ الفنجانُ لمَّا لامسَتْ شفتاه شفتيْها واسْتَعَرْ
فتلظَّتْ من لظـــاه يَدُها وهُوَ لو يدرى بما يجنى اعْتَذَرْ
وضعَتْهُ عنـــد ذا من كفها يتلوَّى قلقاً أنَّى اسْتَقَرْ
وارْتمى من وجْده مستعطفاً قدمَيْها وهو يَبْكى فانْكَسر

ثم تلاه ميشال معلوف – مؤسس العصبة الأندلسية التى كانت تضم خيرة شعراء العرب فى البرازيل – فقال :

عاشَ يهواهـــا ولـكنْ فى هَـــواها يتكتَّمْ
كلَّمـــــا أدْنَتْهُ منها لا صَقَ الثَّغْرَ وتمْتَمْ
دأبهُ التَّقْبيل ، لا ينـ فكُّ حـــتَّى يتحطَّمْ

وجاء بعده دور شفيق معلوف – آخر عميد للعصبة الأندلسية ، وصاحب مطوّلة « عبقر » ودواوين (الأحلام – ونداء المجاذيف – ولكل زهرة عبير – وسنابل راعوث – وعيناك مهرجان) فقال :

إن هوى الفنجانُ لا تعجَبْ وقد طفر الحزْنُ على مبْسَمها
كلُّ جـــزءٍ طارَ من فنجانها كان ذكرى قبلـــة من فمها

ونلاحظ أن هؤلاء الثلاثة قد جعلوا الفنجان يتحطم عند سقوطه من يد السيدة ، أما فوزى – صاحب مطوّلة « على بساط الريح » و « شعلة العذاب » ومسرحية « ابن حامد » – فقد أبى أن يعترف بتحطمه بل أبقاه سليماً ، فقال :

ما هوى الفنجانُ مختاراً ، ولو خيَّروهُ لم يفارقْ شفتَيْها
هى ألْقَتْهُ ، وذا حظُّ الذى يعتدى يوماً بتقبيلٍ علَيْها
لا ولا حطَّمَهُ اليأسُ ، فها هو يبكى شاكياً منها إليها
والذى أبقـــاهُ حيًّـــا سالمـــاً أمَلُ العودَة يوماً ليدَيْها

ولقد فازت هذه الأبيات بجائزة السيدة المعلوفية ، لبراعة معانيها ، ولطف الالتفاتة إلى عدم تحطم الفنجان عند سقوطه لأنه ما يزال يأمل فى أن يعود مرة أخرى إلى يدى السيدة التى ألقته غاضبة ، كما تفعل بكل من يحاول تقبيلها .

فلما رأى الشاعر شاهين أن فوزى قد فاز بالساعة الثمينة ، علّق على ذلك قائلاً :

يا ساعةً ، ما أنت أوّل ساعة ضيَّعتُها من ذكريات حياتى
ما دمتُ ضيَّعت السنين فما أنا بمعاتبٍ دهرى على الساعاتِ

* * *

وروى الأديب المهجرى ناصر شاتيلا فى مجلة « العصبة » حكاية مساجلة شعرية جرت بين الشاعرين رشيد سليم خورى « القروى » وعقل الجرّ عام ١٩٢٢ ؛ فذكر أن هذين الشاعرين دعيا مرة إلى منزل صديق لهما اسمه وديع عبد المسيح . وكان لوديع هذا طفلة تستأنس بعقل الجرّ ، لأنه كان كثير التردد على الأسرة ، وكان يلاطفها ويداعبها .

ومضى القروى يعزف على عوده فى تلك الجلسة ويغنّى ، والطفلة تطرب لعزفه وغنائه . فقال أبوها لعقل مداعباً : كنت عازماً أن أتخذك صهراً لى ، ولكننى الآن أرى الطفلة قد مالت عنك إلى القروى .

فارتجل عقل أبياتاً يخاطب بها الطفلة فقال :

رأيتك طفلةً فغرستُ حبى بهذا القلب كى تقوى فيقْوَى
فما لك إن شدا القروىُّ صوتاً هممتِ عليه أن تهوى فيهوى
كـذا تتحوّلينَ وأنت طفْلٌ فمن أنباك أنَّك بنْتُ حوّا ؟ !

فرد عليه القروى على الفور قائلاً :

بربك لا تلُمْ يا عقلُ طفْلا صغيراً كالملاك علىّ ألْوى
فما فى الحبّ كالتَّبْغ احتْكارٌ ولا مثل الجمارك فيه رشْوى
وقبلك فى الهوى كم حارَ عَقْلٌ فدعْ عنكَ الملامَ بدون جَدْوى

فما لبث عقل أن أعاد الكرة مخاطباً الطفلة :

لا يصدقُ الشُّعراءُ فى دعوى الهوى والكذبُ محمودٌ لهم مغفورُ
هو بلبلٌ هبطَ الرّياض عشيَّةً وغداً ينقر ما يشا ويطيرُ

فأجاب القروى محذراً الطفلة :

إن تحذرى من شاعر ، مَن تأمنيـ نَ ؟ ! حذار ممَّنْ ليس فيه شعورُ

عاب القريضَ عليَّ بلبـلُه وكمْ عاب النَّظيرَ لدى الحبيب نظيرُ
فتخيَّرى فى الشَّاعرَين : لىَ الهوى وله الغنى والخـامُ والمقصورُ

وكأن صوت القروى هوّم على الطفلة فأنامها ، فنهض يهزّ سريرها مغنياً ففاجأه عقل قائلاً :

إن هززتَ السرير منها فجانبْ مكمنَ الحبّ طىّ تلك السريرَه
إنّها برعمٌ فلا تكُ ريحاً واتّق الله فى فؤاد الصّغيره

فأجابه القروى :

ليس بدْعاً إن حرّكتْ نغمـاتى للهوى برْعماً وهزّت صغيره
أنا رمز التَّــغريد فى الطَّير ما نا دمْتُ روضاً ، إلاّ فتنتُ زهورَه
ومثال الحَنان فى الأمّ مانا غيتُ طفلاً ، إلاّ هزرتُ شعورَه

وأخيراً جاء دور الطعام فسكت البلبلان وتقطت أوتار الشعر .

* * *

وقبل أن أحبس القلم عن هذا الحديث أودّ أن أروى الدعابة التالية بين الشاعرين نعمه وتوفيق ضعون ؛ وقد رواها جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » :

زار توفيق ضعون الشاعر نعمه قازان – وقازان هذا صاحب (مصنع غاندى) وهو مصنع مشهور للأحذية فى البرازيل – فظفر منه توفيق بحذاء جديد ، ومع الحذاء بيتان من الشعر هما :

لقد أهديت توفيقاً حــذاءً فقال الحاسدون : وما عليهِ ؟ !
أما قال الفتى العربىُّ يوماً : شبيهُ الشىء منجذبٌ إليه ؟ !

فردّ عليه توفيق ضعون بالبيتين التاليين :

لو كان يُهدَى إلى الإنسان قيمته لكنتُ أسألك الدنيا وما فيها
لكن تقبلتُ هذا النعل معتقداً أن الهدايا على مقدار مهديها

وكذلك أودّ أن أشير إلى حادثة وقعت فى البرازيل عام ١٩٦٥ ، وأثارت شاعرية أكثر من خمسين شاعراً فى المهجر والمشرق . فقد عادت السيدة روزوزوجها

الشاعر شفيق معلوف من إحدى زياراتهما للوطن . وزارهما الشاعر نقولا المعلوف ، فأهدت إليه السيدة روز زجاجة عرق زحلاوى .

وحين فتح نقولا الزجاجة فى مجلس ضمّ بعض الإخوان الشعراء وجد أن ما فيها لم يكن عرقاً زحلاوياً ، بل كان ماء ورد . فهاجت شاعريته ، ونظم ثمانية أبيات جعل عنوانها « مقطّفة النجوم » – إشارة إلى قول شفيق المعلوف :

« بالّتى تقطف النجوم يـــداها ثم ترمى بهنّ تحت وسادى »

وأشار نقولا فى أبياته إلى أن الماء تحوّل إلى خمر على يد السيد المسيح ، فكيف تحوّل الخمر على يدى السيدة روز المعلوف إلى ماء ورد ؟

وتبارى الشعراء فى معارضة أبيات المعلوف ، ونُشرت المعارضات كلها فى أعداد متلاحقة من مجلة (المراحل) . وممن عارضوها الشعراء : فدعا المعلوف ، يوسف الفاخورى ، داود جرجس الخورى ، توفيق بربر ، إبراهيم البسط ، شاكر الدبس ، توفيق ضعون ، فيليب لطف الله ، نصرى حديفة ، سليم نادر ، فائز السمعانى ، إلياس زعرور ، أسد موسى ، جورج قيصر المعلوف ، الشاعر المدنى قيصر سليم خورى ، موسى الحداد ، أمين الغريّب ، يوسف الشرتونى ، محمد عبد الغنى حسن ، جورج صيدح ، رياض المعلوف ، الدكتور سليمان داود ، وكثيرون غيرهم[١].

ومن أطرف المعارضات قول الشاعر إلياس زعرور :

تحوّلت السلافةُ مـــاء ورد بسحر أنامل خضبت بعنبر

فلا عجب وهذا السحر فنّ تلقّنه الورى من « حُور عبقرْ »

وقول يوسف الشرتونى :

محوّلة الخمور لمـــاء ورد تركت الناس فى أخذ وردّ

---

(١) جمعت هذه المطارحات الشعرية كلها فى كتاب صدر عن دار مجلة (المراحل) فى البرازيل بعنوان (مقطفة النجوم) سنة ١٩٧٠ .

تحدّيتِ المسيح فكنتِ أُولى ملاحِ الكون فى هذا التحدّى

* * *

وهكذا نرى الأدب المهجرى يزخر – إلى جانب ما يزخر به من عناصر الإبداع والقوة ، والغنى الفنى – بروح المرح والفكاهة ، وحب المطارحات الإخوانية الطريفة المسلية .

القسم الثاني

أعلام الأدب المهجري

تمهيد

ليس من الممكن أن أكتب عن جميع أدباء المهجر ؛ فهناك أدباء لم أستطع الوصول إلى آثارهم ، ولا أتيح لى أن أتصل بهم – بالمراسلة – اتصالاً يمكننى من معرفة ما فيه الكفاية عنهم وعن أدبهم . ولذلك لابدّ لى من الاقتصار فى هذا القسم الثانى من هذا الكتاب على دراسة طائفة من أبرز أعلام الأدب المهجرى ، وآثارهم الأدبية ؛ مشيراً فى الوقت نفسه إلى أن آخرين غيرهم قد سبق أن تعرّضتُ لهم ولآثارهم الأدبية – رجالا ونساء – بما يعرّف القارئ إلى أدبهم ؛ وذلك فى القسم الأول من الكتاب .

وأرجو أن يثق الذين لم أتمكن من دراستهم ههنا من أننى لم أقصد قط إلى إهمالهم ، أو انتقاص فضلهم وأدبهم ، أو الإساءة إلى أحد منهم .

يضاف إلى هذا أننى لو استطعت دراسة جميع الأدباء المهجريين – الأحياء منهم والأموات – لكان على هذا الكتاب أن لا تقف صفحاته دون الألف ، على أقل تقدير .

وشيء آخر أحب أن أنبه إليه قبل أن أبدأ بدراسة أعلام الأدب المهجرى ، وهو أنه قد سبق أن أصدرت كتاباً كاملاً عن الشاعر إيليا أبى ماضى ، وكتاباً آخر مثله عن الشاعر إلياس فرحات . ولقد ترددت طويلاً قبل أن أعاود الكتابة عن هذين الشاعرين الكبيرين فى هذا القسم الثانى من الكتاب ، لأننى قلت فى ذينك الكتابين كل ما أعرفه عن الشاعرين ، ولم يعد لدىّ من جديد أقوله فيهما وفى أدبهما .

غير أننى – من جهة أخرى – أيقنت من أن القراء لن يعذرونى إذا خلا هذا الكتاب من فصل عن كل منهما . وإزاء هذا لم أجد بدًّا من أن أعود إلى الكتابين السابقين لأختار منهما شيئاً أنقله إلى هذا الكتاب عنهما . وإنى لذلك أستميح القراء المعذرة لهذا النقل الاضطرارى . وإنما يشفع لى أن الكثيرين من القراء لم تتح لهم فرصة الاطلاع على ذينك الكتابين ، فهم لذلك سيجدون شيئاً مختصراً عن هذين الشاعرين ، حيث لابدّ من الكتابة عنهما فى كتاب كهذا .

١ – أمين الريحانى

لست أستطيع أن أكتب – حين أكتب – عن أمين الريحانى إلا وفى نفسى وذهنى منه أكثر من صورة واحدة ، وأكثر من شخصية واحدة ؛ فهو عندى أكثر من أديب : هو كاتب وشاعر ، وهو رحالة كثير الرحلات والمؤلفات ، وهو رسول إصلاح اجتماعى ووطنى وإنسانى ، وهو فيلسوف اجتماعى ، وهو داعية قومى ، عمل للوحدة العربية قبل أن يفهم العرب معنى الوحدة وأهميتها وضرورتها لهم ، وحين لم يكن يؤمن بالعروبة والقومية العربية إلا أفراد قلائل جداً بين العرب .

هو كل ذلك فى آن واحد ، والكتابة عنه يجب أن تتناول ذلك كله وإلا كانت كتابة عن جانب واحد من جوانبه الكثيرة ، وعن شخصية واحدة من شخصياته المتعددة ، وعن موهبة واحدة من مواهبه الكبيرة .

ولد أمين بن فارس الريحانى فى قرية الفريكة فى لبنان فى ٢٤ تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٨٧٦ ، وتوفى فيها سنة ١٩٤٠ ؛ وبين هذين التاريخين أربع وستون سنة تنقّل فيها أمين بين الشرق والغرب : فركب البحر بينهما أكثر من عشرين مرة منذ أن كان فى الثانية عشرة من عمره ؛ وتجول فى الصحارى العربية فزار ملوكها وأمراءها ، وعاشر شعوبها ؛ كما تجول فى بلاد الغرب الأوربية والأميركية ، وخرج من كل ذلك بمؤلفات لا تقل عن خمسين مجلداً : كتب بعضها بلغة الضاد ، وبعضها بالإنكليزية . وكثير منها طبع فى حياته ، وبقى بعضها ليتولى أخوه ألبرت الريحانى إصداره بعد موته ؛ وقد فعل ألبرت ذلك مستأنفاً رسالة أخيه الأدبية والقومية ، ومتمماً لها ، وما يزال يفعل .

دخل أمين المدرسة ، أول ما دخلها ، فى قريته الفريكة ، فتتلمذ هو وأخته سعدى على الخورى مرقس فى كنيسة مار مارون ، ثم لم يلبث أن انتقل إلى مدرسة المعلم نعوم مكرزل – صاحب جريدة الهدى فى أميركا فيما بعد – ولما بلغ الثانية عشرة من عمره سافر إلى أميركا مع عمه « عبده » ومعلمه نعوم مكرزل . وهناك

أدخله عمه فى مدرسة راهبات المحبة ليتعلم اللغة الإنكليزية . فلم يمكث فيها أكثر من عام واحد ، ثم أخذ يعمل مع عمه وأبيه – الذى كان قد لحق بهما إلى هناك – فى التجارة . وفى السابعة عشرة من عمره انصرف إلى التمثيل المسرحى ، وراح يجوب أرجاء البلاد الأميركية مع فرقة تمثيلية معروفة هناك نحواً من ثلاثة أشهر ، ثم عاد إلى العمل فى متجر أبيه وعمه من جديد .

غير أنه فى عمله التجارى لم ينقطع عن الدرس والمطالعة ، فالتحق بمدرسة ليلية وراح يواصل الدرس ، كما استمر يطالع الكتب الإنكليزية والفرنسية ؛ وفى الوقت نفسه أخذ يكتب آراءه وخواطره بلغة عربية غير سليمة ، ويرسلها إلى جريدة الهدى التى أنشأها معلمه نعوم مكرزل فى نيويورك ، فكان معلمه يصحح لغة مقالاته قبل نشرها .

ولم يلبث أمين أن مرض وهزل جسمه ، فعاد إلى لبنـــان ليجـد العافية فى ربوعه ؛ وكان ذلك عام ١٨٩٨ . وهناك أخذ يعمل معلماً للغة الإنكليزية فى مدرسة قرنة شهوان ، القريبة من الفريكة ، وراح فى الوقت نفسه يتعلم اللغة العربية .

وفى هذه المدرسة وقع فى يده كتاب لزوميات أبى العلاء المعرى ، فعكف على درسها بعناية واهتمام ، فامتلأت نفسه إعجاباً بالمعرى وشعره الإنسانى ؛ فآلى على نفسه أن يترجم شيئاً من اللزوميات إلى اللغة الإنكليزية ليقدم للعالم الغربى هذا الشاعر العربى القديم المبدع .

وفى ذلك يقول فى مقدمة كتابه « ملوك العرب » :

« عدت إلى بلادى كئيباً . . وكنت لا أعرف من لغتى وآدابها غير اليسير ، فتغلغلت فى سراديبها دون أن أرثى لحالى . وبينا أنا أتخبط فى دياجى اللغة عثرت على كتاب شِعر أنسانى الكسائى وسيبويه وكل من علم حرفاً فى البصرة والكوفة .

جمعنى الله سبحانه وتعالى بأبى العلاء المعرى ، بعد أن هدانى بواسطة الفيلسوف الإنكليزى – كارليل – إلى الرسول العربى . قرأت اللزوميات معجباً

بها ، ثم قرأتها مترنحاً ، ورحت أفاخر بأنى من الأمة التى نبغ فيها هذا الشاعر الحر الجسور الحكيم .

عدت إلى أميركا أستصحب اللزوميات ، وكنت ترجمانه هناك . . .»

وإلى ذلــك الحين الذى عرف فيه الريحانى أبا العلاء ، لم تكن معرفته لبلاده العربية ولحقيقة أمته العربية وقوميته ذات بال . ولم يهتد إلى شىء من ذلك إلا عن طريق الأجانب ومؤلفاتهم . وكان ذلك يحز فى نفسه كثيراً . وفى ذلك يقول فى مقدمة « ملوك العرب » عينها :

« كان كارليل أول من عاد بى من وراء البحار إلى بلاد العرب . أجل ؛ وقد يستغرب قولى إنى عرفت بواسطة الكاتب الإنكليزى الكبير سيدَ العرب الأكبر النبى محمداً ، فأحسست لأول مرة بشىء من الحب للعرب ، وصرت أميل إلى الاستزادة من أخبارهم .

ثم فى غزواتى للكتب الإنكليزية غنمت كتاباً استوقفنى ظاهره الفخم ، وراقتنى الصور فيه . وما كان العنوان لينبئنى بشىء أكرهه أو أحبه . قرأت كتاب « الألهمبرا » فأدركت أن المؤلف يريد بالعنوان « الحمراء » ، وعرفت أن الحمراء هى لؤلؤة تاج العرب فى الأندلس .

لله أنت أيتها البلاد العربية التى لم يشأ الله أن أجهلك حياتى كلها ، فبعث إلىّ ، وأنا بعيد عنك ، إنكليزيًّا يعرّفنى إلى رسولك ، وأميركيًّا يصف لى محاسن أبنائك » .

* * *

ومن هنا راحت الفكرة تختمر فى رأس الريحانى ليطوف البلاد العربية ، وليتعرف إليها وإلى شعوبها عن كثب . وقد فعل ذلك حينما أتيحت له الفرصة ، ووضع فى رحلاته المؤلفات التالية بالعربية :

(ملوك العرب ، جزءان – تاريخ نجد الحديث – قلب العراق – قلب لبنان – المغرب الأقصى) .

ووضع بالإنكليزية كذلك : (ابن سعود ونجد – حول الشواطئ العربية – بلاد اليمن) .

والريحانى بهذه المؤلفات لا يزال من أكبر المراجع العربية – إلى يومنا هذا – فى تعريف العرب ببلادهم . ودراساته للبلاد العربية التى ما تزال تدعى بالمحميات – وهى فى كتابه « ملوك العرب » – لا تزال من أوفى المصادر العربية فى التعريف بتلك البلاد العربية . ولعل الريحانى كان بهذه الرحلات أول من فكر من العرب ، فى عصرهم الحديث ، فى أن الوحدة العربية لا يمكن أن تقوم دون أن يعرف العرب بعضهم بعضاً ، ودون أن يعرفوا الظروف المختلفة والبيئات المتباينة التى يعيش فيها كل قطر من أقطارهم ؛ وبكلمة أخرى ، لا يمكن تحقيقها عن غير طريق الدراسة الوثيقة لأحوال الأقطار العربية وشعوبها ، وظروف معاشهم ، وعاداتهم وتقاليدهم ، ووسائل الحياة عندهم .

وعدا المؤلفات المتقدم ذكرها كتب الريحانى كتباً أخرى تكمل حلقات رحلاته ، وتعرّف بملوك البلاد العربية وأمرائها ، كما تبين حالة البلاد العربية فى ذلك الحين . ومن هذه الكتب ، بالعربية :

(فيصل الأول – النكبات – التطرف والإصلاح – خارج الحريم – زنبقة الغور – الريحانيات . وبالإنكليزية : (العراق – الملك فيصل) ولم ينشر هذان الكتابان بعد ؛ وكتاب « قدر فلسطين » [١]، وقد نشره ألبرت الريحانى حديثاً .

وليست هذه كل مؤلفاته ؛ فهنالك مؤلفات أدبية أخرى بالعربية والإنكليزية بعضها طبع مرة واحدة ، وبعضها أعيد طبعه مرتين أو أكثر ، وترجم الكثير منها إلى لغات عالمية متعددة ، لا تقل عن خمس عشرة لغة . وفى ما يلى نتم سلسلة مؤلفاته فنذكر : (موجز تاريخ الثورة الفرنسية – المحالفة الثلاثية – المكارى والكاهن – ثلاث خطب – أنتم الشعراء – وفاء الزمان – سجل التوبة – رسائل أمين الريحانى – وجوه عربية وغربية) وهذه كلها باللغة العربية . وباللغة الإنكليزية الكتب التالية :

(رباعيات أبى العلاء المعرى – المر واللبان – كتاب خالد – لزوميات أبى العلاء – تحدّر البلشفية – جادة الرؤيا – أنشودة الصوفيين – دروس فى ألف ليلة وليلة – وَجْدة – كريمة) .

---

(١) The Fate of Palestine.

يضاف إلى هذه المؤلفات كلها مجموعات كبيرة من المقالات والمحاضرات والرسائل ، باللغتين العربية والإنكليزية ، لم تجمع كلها بعد فى كتب مستقلة . وجدير بالذكر أن المجموعة العربية الكاملة لمؤلفات الريحانى قد أصدرها أخوه ألبرت بمناسبة المهرجان الذى أقيم فى أكتوبر ١٩٦٥ تكريماً لذكرى الأمين فى لبنان ، وما يزال يوالى طبعاتها مجموعة ومتفرقة باستمرار .

* * *

بدأ ظهور الريحانى الأدبى فى المهجر قبل أن يعرف الناس جبران خليل جبران ورفاقه الآخرين ؛ وكان هو أول من كتب الشعر المنثور بين العرب متأثراً فى ذلك بالشاعر الأميركى وولت ويتمان ، الذى كان يعمل لتحرير الشعر من قيود الوزن والقافية . وقد راقت طريقته هذه للريحانى واستهوته ، فكتب عدداً من القطع الشعرية المنثورة ، ونثرها بين تضاعيف « الريحانيات » . وقد جمعها أخوه ألبرت فيما بعد فى كتاب مستقل دعاه « هتاف الأودية » . وفى ما يلى نموذج منها بعنوان « دجلة » :

أصافحه والقلب فى يدى
أحييه والروح على لسانى
أقف أمامه فتنكشف أمامى أعاجيب الزمان
له كلمة تخيف ، وكلمة تثير ، وكلمة تحيي وتميت
وهو يسير فى سبيله هادئاً مطمئناً
يحمل الخير من الشمال إلى الجنوب
من إقليم إلى إقليم يجيء بفيضه
يتحول غرباً وشرقاً لتعم بركاته البلاد
تقول له الجبال : اقرأ السهول أمامنا
ويقول هو للسهول : أقرئى سلامى قحطان ومضر
هو رب العراق ، هو حياته الخالدة
عينه عين الدهر ، ولسانه لسان الزمان
وحافظته حافظة الخالد من الأكوان

شاهد من الممالك ما قام منها بالسيف
وما قام منها بكلمة سحر حلال
وما قام منها بالعلم والفنون
تلألأت على ضفافه أنوار السرور والأهواء
وجرت فى ظلال نخيله مواكب العزة والمجد
وانطفأت الأنوار ، ودرست القصور
واضمحلت آثار العظمة كلها – إلى حين –
وظل هو سائراً فى سبيله هادئاً مطمئناً .

على أن هذا الأسلوب المنطلق الذى ينثر الخيال الشعرى الجميل فى العبارات النثرية القصيرة ، لم يلبث أن استهوى جبران كذلك فيما بعد ، فانطلق يكتب فيه محلقاً ، وأبدع فيه ما شاء له نبوغه وعبقريته ، فنسى الناس أن الريحانى كان أسبق منه إلى هذا الأسلوب ، واعتبروه من إبداع جبران نفسه ، لأن جبران تفوق فى إبداعه فيه على القليل الذى كتبه الريحانى بهذا الأسلوب نفسه ؛ فمؤلفات جبران التالية كلها مكتوبة بهذا الأسلوب الشعرى الغنى بالخيال والجمال والصور الروائع ، والأحاسيس الدافئة الهامسة : « النبى – يسوع ابن الإنسان – دمعة وابتسامة – المجنون – التائه – السابق » وغيرها .

وكان الريحانى منذ صغره ، وقبل أن يتمرن على حمل القلم لترجمة أحاسيسه فى مقالات وخطب وكتب ، يجيل فكره فى مجتمعه وشؤونه ، فكانت نفسه تثور على ما يعانيه مجتمعه من صنوف الجهل والجور ، وما يخضع له شعب بلاده من عبودية لرجال الدين ورجال الحكم ورجال الإقطاع . وحينما أصبح قادراً على التعبير عن ثورته هذه بالقلم راح يصب نقمته شواظاً من نار على كل لون من ألوان الجهل والظلم والعبودية : تارة ساخطاً معنفاً ، وطوراً متهكماً ساخراً . فلقى على ذلك الكثير من حملات رجال الدين ورجال الإقطاع معاً ؛ فنشروا فى أوساط الشعب الساذج الجاهل أن الريحانى ملحد ، يفسد الضمائر ، ويحاول أن يهدم الدين ، ويزرع الشكوك فى نفوس الشعب . وزاد رجال الدين أن حاربوا كتبه وجعلوها فى

القائمة السوداء التى لا يجوز لكاثوليكى قراءتها ، وفرضوا الحرمان من الكنيسة على من يتجرأون على قراءة شىء منها .

ولكن هذا كله لم يردع الريحانى عن أن « يقول كلمته ويمشى » ، مؤمناً بأن الحقيقة هى التى تعيش دائماً ، وأما الجهل والجور والعبودية فمصيرها إلى الزوال .

ومثلما حارب الريحانى الجهل وعبودية رجال الإقطاع والإكليروس ، حارب كذلك الاستعمار الفرنسى فى لبنان وسوريا ، والبريطانى فى مصر والعراق وفلسطين ، وحمل عليه حملات كثيرة قاسية بمقالاته وخطبه ومؤلفاته . وقد لقى على هذا أيضاً كثيراً من العنت والاضطهاد ، ولكنه استمر فى طريقه بتصميم وإيمان راسخين .

وحارب كذلك التفرقة والتباعد بين أبناء الأمة العربية ؛ والذى يقرأ كتابه « ملوك العرب » يرى كيف كان الريحانى فى سياحته فى الجزيرة العربية يسعى ويعمل بكل قواه ليزيل العداء من نفوس ملوك الجزيرة وأمرائها ؛ فقد توسط بين ملك نجد – عبد العزيز آل سعود – وأمير الكويت حتى أحل التفاهم بينهما محل الخصام ؛ وسعى لدى ملك الحجاز – الحسين بن على – والشريف الإدريسى ليعقد بينهما محالفة أخوّة ومودة ، وليوحد بين بلديهما لمصلحة العرب ؛ ووضع بنفسه مسودة الاتفاقية بينهما ، وإن لم يصل إلى النجاح الذى يريده . وكان يريد أن يوجد حلفاً عربياً يجمع ملوك الحجاز ونجد واليمن والإدريسى فى إمبراطورية عربية واحدة . وهو الكاتب العربى الوحيد الذى طمح وسعى إلى مثل هذه الغاية الكبرى .

وهكذا جمع أمين الريحانى بين الأدب ، والإصلاح الاجتماعى ، والدعوة الوطنية والقومية ، فكان فى كل ذلك رسولاً أميناً يؤدى رسالة الحب والخير والتعاون إلى المجتمع العربى كله ، كما كان فى الوقت نفسه رسولاً بين الشرق والغرب : يحمل إلى الشرق دعوة القوة والمدنية عن الغرب ، ويحمل إلى الغرب الروحانية الخيّرة المسالمة عن الشرق . وقد أدى هذه الرسالات كلها إلى آخر يوم من حياته .

ولئن كان الريحانى قد لقى محاربة قوية من رجال الإكليروس ورجال الإقطاع فى لبنان – بشكل خاص – فقد لقى كذلك كثيراً من التكريم والحفاوة

والإجلال حيثما حلّ : فى العراق ، ومصر ، والمغرب العربى ، وفلسطين ، وجميع أنحاء الجزيرة العربية . وقد أقيمت له الحفلات العديدة فى كل مكان ، تقديراً لأدبه وجهاده وسعيه المخلص إلى الإصلاح ومحاربة الفساد ، والعمل على نهضة الشرق وتحريره .

وقد جاء فى كتاب « أمين الريحانى » لمارون عبود ما يلى :

« . . وكما تُوِّج فولتير من قبل ، تُوِّج الريحانى بإكليل من الغار فى حفلة شائقة أقامها على شرفه نادى الثريا الأميركانى ، كما أنبأنا سليم سركيس فى مجلته المعروفة باسمه ، قال : لم أحضر حتى الآن حفلة تتويج ملك من ملوك البلدان والأبدان ، فهذه لا يدعى إليها إلا أصحاب التيجان ومن كان على طريقتهم . على أننى وُفِّقت إلى حضور حفلة تتويج أحد ملوك البيان ، أريد به أمين الريحانى الكاتب البليغ والشاعر المجيد ، صاحب المؤلفات الراقية فى اللغتين العربية والإنكليزية .

« تلك حفلة أقامها نفر من أمراء الشعر والنثر الأميركان فى مدينة نيويورك تكريماً لوطنيِّنا أمين الريحانى ، على أثر ما تبينوه فى مؤلفاته من الأدب الجم ؛ وذلك على أثر انتشار كتابه « اللزوميات » باللغة الإنكليزية . . . ولما فرغ الفضلاء من أقوالهم دعى أمين الريحانى إلى منبر خاص أقيم هناك ، وألقى رئيس نادى الثريا الأميركى خطاب الثناء والإطراء والإعجاب ، ثم تناول الإكليل وتَوّج به الأمين » .

وذكر مارون عبود كذلك أن اسم الريحانى قد ذكر فى دليل مشاهير كتاب أميركا وكندا سنة ١٩٣٠ ، وفى دليل مشاهير الأدباء المطبوع فى إنكلترا .

* * *

هذا شيء عن الريحانى ومؤلفاته ، وشهرته الأدبية فى الشرق والغرب ، وهو يكفى لبيان مدى ما بلغه الريحانى من الشهرة الواسعة كأديب واقعى ، ورسول أدبى قومى ، ومصلح اجتماعى ، وما أداه من رسالة أدبية سامية تظل معها مؤلفاته جديدة كلما تقادم عليها الزمن .

ولقد عاش الريحانى فى المهجر مع جبران ونعيمه ورفاقهما ، وكتب معهم

فى الفنون والسائح ، كما كتب فى الهدى ومرآة الغرب وغيرهما من صحف المهجر ، ولكنه لم يشترك معهم فى الرابطة القلمية حينما أنشئت ، فقد كان بينه وبين جبران خلاف جرّإلى خصومة شديدة ، فلم يكن ممكناً الجمع بينهما فى رابطة واحدة .

إلا أن هذا العداء الذى استحكم بين الأديبين الكبيرين فى الحياة لم يمنع الريحانى بعد وفاة جبران من أن يرثيه بحرارة ، وأن يستقبل جثمانه ، حينما أعيد ليدفن فى قرية بشرّى ، بنجوى دامعة مخلصة فى الوفاء ، قال فيها :

« جبران ، أخى ورفيقى وحبيبى

إن للشهرة يوماً ، وللحزن يوماً ، والباقى للبنان

لهذا الجبل العزيز الكريم الحنون ، الذى يضمك اليوم وغداً يضمنى إليه

إن ترابى ، غداً ، فى الفريكة يناجى ترابك فى الوادى المقدس

ومن ظلال الصنوبر الذى سيظلل ضريحى ، سيحمل النسيم قبلات عطرة صباح مساء ، إلى ضريحك فى ظلال الأرز » .

وحينما أصدر ميخائيل نعيمه كتابه عن حياة جبران ، عام ١٩٣٤ كان الريحانى أول من فطن إلى ما فيه من غمزات تسىء إلى جبران الإنسان ، وأول من ثار فى وجه نعيمه لأجلها ، ودخل معه فى عراك شديد العنف على صفحات الجرائد اللبنانية .

* * *

كان الريحانى قد أصيب منذ عام ١٩٠٧ بمرض عصبى فى يده اليمنى ، وقد رافقه ذلك الداء إلى آخر حياته ؛ ولعله السبب الذى أدى إلى مصرعه عام ١٩٤٠ ، فقد كان يقود دراجته فى الشارع العام على مقربة من الفريكة ، فارتخت عليها يده ، فسقطت به سقطة عنيفة ، ونقل إلى مستشفى ربيز فى بيروت ، ولم يلبث فيه سوى أيام قلائل ، ثم انتقل إلى الرفيق الأعلى فى الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الجمعة ١٣ أيلول (سبتمبر) ١٩٤٠ . ونقل رفاته إلى الفريكة ، حيث يقوم ضريحه الفخم فى مدفن الأسرة الريحانية محجة للزائرين .

وفى بيت الريحانى فى الفريكة اليوم متحف صغير خصصه أخوه ألبرت الريحانى لكل ما خلفه أمين بعد موته من آثار ؛ ففيه الهدايا والرسائل التى تلقاها

من ملوك العرب وأمرائهم ، والملابس التى كان يرتديها فى أثناء سياحته فى الأقطار العربية ، ونسخ من مؤلفاته العديدة . وهناك غرفة أخرى بقيت كما كانت فى عهد أمين : بسقفها المزخرف ، وأرضيتها الخشبية ؛ وغرفة أخرى تحوى مكتبته الكبيرة الفخمة ، وغرفة رابعة ما تزال فيها الصورة الدينية التى كانت تتعبّد لها المرحومة أم أمين الورعة طوال حياتها . وقد كان أمين حريصاً كل حياته على رضى أمه ومحبتها ، وعلى أن تظل لها عبادتها المفضلة . وما يزال أخوه ألبرت حريصاً كذلك على أن يبقى هذا الأثر من آثار تقواها وعبادتها الملازمة حرصه على آثار أخيه الأدبية ، وعنايته بطبعها طبعات أنيقة فخمة تليق بمكانته العالية . ومثل ذلك حرص على أن يرافق زوّاره إلى زيارة ضريح الأمين ، على ربوة فى أعلى الفريكه .

٢ – جبران خليل جبران
عميد الرابطة القلمية

« يا إخوتى وجيرانى ! ويا أيها المارّون ببابى كل يوم ! . . لقد أحببتكم كثيراً ، وفوق الكثير قد أحببت الواحد منكم كما لو كان كلكم ، وأحببتكم جميعاً كما لو كنتم واحداً . فى ربيع قلبى كنت أترنم فى جنانكم ، وفى صيف قلبى كنت أحرس بيادركم أجل ، قد أحببتكم جميعاً : جبّاركم وصعلوككم ، أبرصكم وصحيحكم ، وأحببت من يتلمس منكم سبيله فى الظلام ، كمن يرقص أيامه على الجبال والآكام »(١) .

كذلك أحب جبران العالم ؛ والمحبة عنده هى « ضحك بعيد فى أعماق الروح »(٢) فهو يحب العالم بكل ما فيه من إخلاص « الإنسان » وحنين « الشاعر » وحيوية « الفنان » ، وهى الصفات الثلاث التى يتكون منها ذلك « الأديب » الذى ندعوه « جبران خليل جبران » : فلقد كان جبران « إنساناً » ،

---

(١) السابق .
(٢) آلهة الأرض .

يحب كل إنسان على وجه الأرض خارجاً عن حدود الدين والجنس والإقليم ، لأن كل إنسان هو أخوه فى رابطة الإنسانية الكبرى ، أو هو صورته فى محيط الوجود الواحد الذى لا ينفصل : ثم لأن « المحبة هى ربه ومعلمه على كل حال[١] » .

وكان « شاعراً » يرسم بدم القلب ، ويكتب بعصير الروح ، ليغنى بأفراح الإنسانية ، ويبكى بأوجاعها ؛ وكان « فناناً » يعبر بالخطوط عن نوازع النفس البشرية ، ويصوّر آلام الإنسانية وآمالها . وقد سخر كل مواهبه العالية لقيادة البشرية إلى الجمال والخير والحق ، وإلى الحب والسعادة والحرية . ولا غرو فجبران أول أديب عربى فى العصر الحديث جهر بإيمانه المطلق بوحدانية الوجود ؛ فهو دائماً « يرى صورته فى كل الصور ، ويسمع صوته فى كل الأصوات »[٢] ويقول : « خيّل إلىّ فى الأمس أنى ذرّة تتموج مرتجفة فى دائرة الحياة بغير انتظام ، واليوم أعرف كل المعرفة أننى أنا الدائرة ، وأن الحياة بأسرها تتحرك فىّ بذرات منتظمة »[٣] . لذلك لا غرابة فى أن يبذل حبّه للناس ، وأن تكون محبته لا تعطى إلا نفسها ، ولا تأخذ إلا من نفسها . . . ولا تملك شيئاً . . لأنها مكتفية بالمحبة[٤] أو هى بكلمة أخرى ، محبة لأجل المحبة نفسها ، لا لغرض ترابى آخر . وهل فوق هذه المحبة محبة يبذلها إنسان للناس ؟

إذن فالمجتمع الإنسانى هو الألف والياء فى أدب جبران : الشاعر والفنان ، وهو الحقل الذى يغرس فيه عصارة روحه وشعوره ، وفيض عقله وخياله . ونحن ، بعد ، نستطيع أن ندرس كل ما خلفه لنا جبران من بدائع أدبه ، ومن روائع فنه على أنه نفحات من المحبة الكبيرة يبذلها لأبناء الحياة المتعطشين إلى المحبة الحقيقية . فجبران الشاعر « الثائر » فى (الأجنحة المتكسرة) ، و« المتمرد » فى (الأرواح المتمردة ، وعرائس المروج ، وحفار القبور ، والعواصف) ، و« الحالم » فى (دمعة وابتسامة) ، و« الحكيم » (فى المجنون ، والسابق ، والمواكب) ، و« الهادى » فى (النبى) هو عينه جبران المحب للإنسانية فى كل هذه الكتب ، والذى يدفعه حبه العظيم إلى أن يظلّ يحفر القبور – بقلمه – ليدفن فيها كل ما

---

(١) آلهة الأرض .
(٢) رمل وزبد .
(٣) رمل وزبد .
(٤) النبى .

ينغص سعادة الإنسانية من حماقات بعض أبنائها الذين يعيثون فيها فساداً ليبنوا لأنفسهم مجداً وجاهاً وسلطاناً وثروة على حساب البعض الآخر ، ويدعون كل أعمالهم تقاليد وشرائع مقدسة . وهو يسخّر كل فنه وشاعريته فى محاولة الوصول إلى كل قلب ، وكل ضمير ، وكل إدراك ، ليوقظ فى الناس الشعور الحى بإنسانيتهم التى يجب أن لا تذل وتضعف .

لقد ثار جبران على كل ما فى الحياة من لؤم وجهل وضعف ؛ فهل تكون الثورة على اللؤم والجهل والضعف إلا محبة كبيرة للإنسانية التى ترزح تحت أعبائها الثقيلة ؟ وحتى حين يهتف بمرارة ساخطة قائلاً : « إنى أكرهكم يا بنى أمى ، لأنكم تكرهون المجد والعظمة ! أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم »[١] أليست كراهيته هذه حبًّا مقدساً مخلصاً ؟ ! لقد قال هو نفسه فى سبب هذه اللهجة الساخطة ما يلى : « لا بأس ، فإنى سأحبهم أكثر ؛ نعم ، أكثر فأكثر ، ولكنى سوف أسدل على محبتى ستاراً من البغض ، وأستر عواطفى بشديد كراهيتى »[٢] وأضاف قائلا : « كذا شهرتكم بشفتى ، ولكن قلبى ، والدماء تنزف منه ، كان يدعوكم بأرق الأسماء وأحلاها »[٣]

وجبران فى هذا كله هو فى طليعة الرعيل الذى شق فى الأدب العربى هذا الطريق ، وقلمه كان أول قلم عربى ، فى مطلع عصر النهضة الحاضرة ، كان يتفجر بقوة دافقة بنور الحرية والمحبة والأخوة الإنسانية . ثم بتأثيره سارت بعض الأقلام الأخرى على الطريق التى عبّدها هو بجهاده الكبير .

ولم يكتف جبران بأن نفخ الروح الصحيح فى الأدب العربى الحديث ، وإنما كان أول من شق للناس سبيل البساطة فى التعبير عن خوالج النفس والحياة ، ومع البساطة الجمال فى الأساليب الكتابية . وقد كانت مؤلفاته فى حينها فتحاً جديداً ، لم يكن يعرف مثله الأدب العربى الحديث الذى كان ينوء قبل جبران تحت ركام من الألفاظ المتحجرة ، والقواعد الثقيلة .

لقد بدأ نجم جبران الأدبى فى الظهور ، من مهجره البعيد ، منذ أوائل هذا

---

(١) العواصف .

(٢ و ٣) السابق .

القرن العشرين ؛ ثم قبل أن تشبّ الحرب الكونية الأولى ، وفى أثنائها ، كان أدب جبران ملء الأسماع والقلوب فى الشرق العربى ؛ فقد تفتحت عيون الناس وقلوبهم على ألوان جديدة زاهية من الأدب تطل عليهم من بين دفات الأجنحة المتكسرة وعرائس المروج ، ودمعة وابتسامة ؛ فيها الروح الفائرة ، والعاطفة الحارة ، والفكرة المتوقدة ، وفيها الخيال المحلق ، والتصوير الرائع ، والعبارة المشرقة . وفى أثناء الحرب الكونية الأولى ، وبعدها ، اتصل بجبران جماعة من الشبان المتوقدى الشعور ، والمخلصين فى رغبتهم فى تحرير الأدب العربى من قيوده الثقيلة التى تعوقه عن رؤية النور ، فكان من تعاونهم جميعاً حافز جديد على النهوض بالأدب العربى ، إلى حيث يجرى مع أرقى الآداب العالمية ؛ فكانت « الرابطة القلمية » التى ضمت باقة طيبة من ذوى المواهب الأدبية الكبيرة ، كان على رأسهم جبران ينفخ فيهم من روحه ويبارك نشاطهم وإخلاصهم ، مما جعل « الرابطة القلمية » شعلة متوهجة ، تحمل إلى الشرق نوراً ، وحياة ، وحرية ، ويداً رحيمة تمسح عن عينيه جمود العدم .

كانت كتابات جبران قبل تأسيس الرابطة القلمية ، بالعربية ، ثم انصرف بعد ذلك إلى التأليف بالإنجليزية ، لأنه شاء أن تنتشر رسالته الأدبية بحيث تعم أكبر عدد ممكن من الناس . كان أول سهم أطلقه من جعبته فى هذا الاتجاه الجديد ، هو كتابه « المجنون » ثم تلاه بـ « النبى » الذى حمل خلاصة رسالة جبران الروحية المثالية إلى البشر الغارقين فى مادية العصر الحاضر الطاغية على كل ما هو روحى خالد فيهم . ثم مضى بعد ذلك قدماً فى هذا السبيل ، وإن كان لم يتخلّ عن مواصلة إمداد « السائح » – جريدة الرابطة – بفصول روائع من كتاباته العربية . ولقد اجتمع لديه من المؤلفات الإنجليزية عدد غير قليل ، أقبل عليه القراء فى الغرب ، وما يزالون إلى اليوم يزدادون إقبالاً ، وترجم إلى عدد كبير من اللغات العالمية ، وكذلك إلى العربية ، إذ كان المطران بشير[1] يعنى بترجمة مؤلفاته الإنجليزية إليها بأسلوب يقرب كثيراً من أسلوب جبران نفسه .

---

(١) توفى المطران بشير عام ١٩٦٥ .

أمـا كتبه الإنجليزية فهى : المجنـــون « The Madman » ، النبى « The Prophet » ، السابق « The Forerunner » ، آلهة الأرض « The Earth Gods » يسوع ابن الإنسان « Jesus Son of Man » ، رمل وزبد « Sand and Foam » ، التائه « The Wanderer » ، وحديقة النبى « The Garden of the Prophet » – وهذا الأخير ترجمه إلى اللغة العربية الدكتور ثروت عكاشة .

ولما كان جبران رساماً ، ينحو فى فنه منحى رمزيًّا خاصًّا ، لذلك لم تخل كتبه هذه – وكذلك كتابه الشعرى العربى « المواكب » – من مجموعات من الرسوم الرمزية التى تمثل فِكَراً معينة من مواضيع تلك الكتب . غير أنه لا يستطيع أن يحل رموز هذه الرسوم ، كماأرادها جبران ، إلا الأقلون ؛ فمثلاً إذا أراد جبران أن يرمز إلى قدرة الله المدبرة للكون رسم كفًّا فى وسطها عين تحيط بها العوالم أجساماً مترابطة فى حلقة واحدة ضبابية متماسكة منسجمة للدلالة على الوحدانية الكاملة المطلقة فى الوجود ، تلك الوحدانية التى كان جبران شديد الإيمان بها ، والتى استطاع أن ينقل إيمانه بها إلى زملائه فى الرابطة ، فوجد من بينهم من حملوا رسالتها بعده مخلصين .

وإذا أراد أن يصور النزوع إلى الحرية ، رسم شابًّا طويلاً قوىّ الجسم ، له جناحان ، وقد انفرجت رجلاه وتجمعت كل قواه ، وتكمشت كل عضلاته القوية من فرط ما بذله من جهد لكى يطير عن الأرض ، ولكنه لا يتمكن من الطيران لأن رجليه مقيدتان بقيود كثيرة هائلة من رغباته ونوازعه الأرضية .

وهكذا قل فى رسومه الأخرى المبثوثة فى أكثر كتبه ، فهى رموز إلى فكر كبيرة يعتنقها جبران . وقد كان يتعمد الجمع بين الأدب والفن فى كتبه ، لأن ميزته الكبرى هى التصوير : التصوير بالألفاظ ، والتصوير بالخطوط ؛ فكان يجمع بين فن التعبير بالألفاظ ، وفن التعبير بالخطوط ، لكى تتعاون الصورة واللفظ على تأدية معانيه الكبيرة .

وخلاصة القول : لقد كان جبران ، فى عصر النهضة هذا ، أول أديب عربى آمن بأن الأدب هو رسالة سامية تؤديها الألفاظ المكتوبة ، وأن رسالته هى أن يفتح عيون الناس على الجمال والحق ، ويقودهم إلى ينابيع الحب والحرية

وقد حمل رسالته هذه بإخلاص ، وسار ينشرها بين قومه أولاً ، ثم بين سائر أبناء الحياة ثانياً ، لأن رسالة الحياة لا تقتصر على أناس دون الآخرين ، وإنما تتخطى كل حدود الزمان والمكان ، والدين والجنس ، واللغة والإقليم ، والتقاليد والشرائع ، لتلقى فى كل النفوس بذور الخير والحق والسعادة الأكيدة . .

وهكذا استطاع جبران ، الشاعر والفنان ، أن يكون النفحة الأولى فى حياة الأدب العربى الحديث ، وأن يجعل للأدب العربى جذوراً قوية باقية فى حقل الآداب العالمية الخالدة ، ويجعل من بين حملة الأقلام العرب أديباً عالميًّا خالداً يفاخر به الشرق والغرب على السواء ، وأن يجدد عهد الرسالات التى ظهرت فى الشرق قديماً ، بنشر الإيمان برسالة الشرق الروحية التى يمكنها أن تقود أبناء الحياة إلى سعادة الحياة .

سيرة جبران

بين بربارا يونغ ، وميخائيل نعيمه ، ويوسف الحويّك ، ومارى هاسكل

من المفيد جدًّا أن نعقد هنا مقارنة بين كتابين وضعهما صاحباهما فى ترجمة حياة جبران وأعماله الأدبية والفنية . وهذان الكتابان هما : « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمه و« هذا الرجل اللبنانى – This man from Lebanon » – لبربـارة يونغ .

والمعروف أن نعيمه كان رفيقاً لجبران خلال فترة طويلة منتجة من حياته وحتى يوم وفاته ، وأن بربارة يونغ كانت سكرتيرته خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته ، وكانت « القابلة » التى تلقت يداها ميلاد روائعه الأدبية منذ عام ١٩٢٥ ، حتى اللحظة التى فارق فيها الحياة فى مستشفى « سان فنسنت » فى نيويورك ، الساعة الحادية عشرة ليلاً ، من اليوم العاشر من نيسان (أبريل) سنة ١٩٣١ ، وكانت بعد وفاته وكيلة أعماله الأدبية ..

وما دام الأمر كذلك فلابد من أن يكون ما يكتبه هذان الرفيقان عن الرجل ذا أهمية خاصة ، ويستحق من القراء الاهتمام الشديد ، كما يستحق المقارنة لكى نرى كيف ينظران إلى حياة الرجل الواحد الذى لازماه ، والذى أبديا فى كتابيهما حبًّا له ، ولكنه كان حبًّا حارًّا عميقاً فى أحد الكتابين ، وحذِراً غامضاً ، مثيراً للريب أحياناً ، فى الثانى .

وأول ما يلاحظه القارئ المتمعن فى الكتابين هو فقدان المودة بين المؤلفين فقداناً تامًّا : فنعيمه لا يذكر بربارة يونغ فى كتابه كله إلا مرة واحدة فى الفصل الأول ، فيشير إلى أنه التقى بها أمام غرفة جبران فى المستشفى أثناء ساعات نزاعه ويصفها – دون أن يذكر اسمها – بأنها : « طويلة القامة ، عظيمة الهيكل ، زعفرانية اللون ، حادة الأنف ، غارقة العينين » وأنها « شاعرة أميركية فى النصف الأول من عقدها السادس ، عرفت جبران منذ سبع سنوات فتقرّبت منه ، وكانت تساعده فى نسخ مؤلفاته ، وقد التقيتها مرة عنده . . »

والقارئ قد يفهم من هذا – إذا استطاع أن يحزر أن بربارة يونغ هى المقصودة بهذا الكلام – أن علاقتها بجبران علاقة عابرة جدًّا ما دام نعيمه يقرر أنه التقى بها عنده « مرة واحدة » خلال سبع سنوات ؛ فى حين تتحدث هى عن صلتها بجبران بما يؤكد أنها لازمته ، وكانت رفيقة عمله الدائمة خلال السنوات السبع الأخيرة من حياته . فتقول فى مقدمة كتابها : (لقد كان من حسن حظى ومن دواعى غبطتى أن أعرف جبران شاعراً ورساماً ورفيقاً حبيباً لمدة سبع سنوات ، وحتى اللحظة الأخيرة من حياته . سبع سنوات من الصداقة والعمل ، حتى لقد قال هو نفسه مرة متلطفاً إننا كنا « شاعرين نعمل معاً باسم الجمال ») .

ثم تروى فى الفصل التاسع أن عملها مع جبران بدأ فى خريف عام ١٩٢٥ واستمر إلى النهاية ؛ فهى التى كانت تتلقى مولد قصائده ومؤلفاته الجديدة كلها ، وهى بعد ذلك التى أعدت كتابه الإنجليزى « حديقة النبي – The Garden of the Prophet » للطبع ، لأن جبران مات قبل أن يعده الإعداد اللازم ، بل تركه أجزاء مبعثرة تحتاج إلى من له معرفة وثيقة بروح جبران وطريقته وأهدافه لكى يؤلف بينها .

أما نعيمه فلم تذكر برباره يونغ اسمه الصريح ، ولا وصفته قط فى أية صفحة من صفحات كتابها وصفاً صريحاً كوصفه لها ، ولكنها أشارت إليه إشارة صغيرة غامضة فى خلال حديثها على انفراط عقد « الرابطة القلمية » بعد وفاة جبران فقالت (One *who Shall be nameless,* has departed from the faith) أى: « وواحد من أعضاء الرابطة ، لن أسميه ، حاد عن الإخلاص لها » .

وليس لدينا أى شك فى أن هذا الشخص الذى تعنيه وتأبى أن تذكر اسمه هو نعيمه نفسه ؛ أما بقية أعضاء الرابطة الذين كانوا أحياء عندئذ فقد ذكرت أنهم ظلوا يعملون فى رابطتهم بملء الإخلاص لها ولذكرى عميدها الذى سبقهم إلى الأبدية .

هذه الإشارات العابرة – أو الحرب الباردة – بين نعيمه وبرباره تصرّح بأقصى وضوح عن روح العداء المستحكمة بين الاثنين – لا ندرى لماذا ، أو لعلنا ندرى إذا علمنا أن جبران قد ائتمن برباره على مؤلفاته وأعماله الأدبية بعد وفاته ، ولم يكل أمرها إلى نعيمه ؟ . . – وهى ترينا كذلك كيف كتب كل منهما كتابه عن جبران بروح تختلف عن روح الآخر . وهما إذا اتفقا – إلى حدّ ما – فى الحديث على بعض آثار جبران الأدبية والفنية ، وأهميّتها ، وأثرها البعيد ، فإنهما يختلفان كل الاختلاف فى ما يتعلق بشخصه وسلوكه كإنسان ؛ فبينما يهبط به نعيمه إلى الدرك الأسفل من الشهوانية ، تمضى برباره يونغ فى الحديث على حياته الخاصة ، وشعوره الجنسى ، ومسلكه الأخلاقى – فى الفصل الرابع عشر من كتابها – فترينا إياه إنساناً كباقى الناس المرهفى الشعور ، يتأثر بعوامل الجنس ، ويشعر بالظمأ إلى امتلاء العاطفة ، ولكنه لا ينحط إلى درك اللا أخلاقية الشهوانية .

ويتساءل القارئ : هل اتفق الكاتبان فى شىء بقدر ما اختلفا فى كتابيهما ؟

والحقيقة أنهما ، فى ما يتعلق بجبران الإنسان ، كانا شديدى الاختلاف ، بل كانا على طرفى نقيض ، فلم يكادا يتفقان إلا على أن جبران ولد ومات ، وبين الولادة والموت تنقّل بين لبنان وأميركا وفرنسا ، وكان أديباً وفناناً ، ألّف كتباً بالعربية والإنجليزية ، وصنع رسوماً عديدة ، وما إلى هذا من الأمور الأولية

التى لا يجوز الاختلاف فيها لأن جميع الناس يعرفونها ولو لم ترد فى هذين الكتابين .

وطبيعى جداً أن يختلف كاتبان فى طريقة عرضهما للأشياء . وفى تذكر بعض الحوادث ؛ ولكننا لا نفهم كيف يختلف كاتبان مثل نعيمه وبرباره يونغ – عاشا مع الرجل نفسه مدة غير قصيرة من عمره – فى الرواية الواحدة ، للشيء الواحد من أعماله أو أقواله ، وفى النظر إليه – والمفروض أن ينظرا من جانب واحد – إلا أن تكون هناك عوامل نفسية خاصة هى التى تقرر هذه النظرة وتلك الرواية . . .

من ذلك ، مثلاً ، رواية نعيمه لحادثة تلاوة فصول من كتاب « النبى » وتمثيله فى إحدى كنائس نيويورك . وهو يروى أن ذلك قد وقع مرة واحدة ، فى حين تذكر برباره يونغ أنه كان يجرى كل سنة .

إن المؤلفين يتفقان على عظمة هذا الكتاب ، ولم يقصرا فى الثناء عليه – وهو كتاب أثبت الواقع عظمته كذلك بدليل عشرات الطبعات التى طبعها بالإنجليزية ، وعشرات اللغات العالمية التى ترجم إليها ولكن لماذا كان الاختلاف فى حادثة تمثيله وتلاوة فصوله فى الكنيسة ؟ !

وكذلك لماذا كان اختلاف المؤلفين فى رواية عبارة جبران (I am a false alarm) وشرح معناها ، بحيث اكتفى منها نعيمه بهذا الجزء وحده ، وفسرها بأنها اعتراف من جبران بحقارته النفسية ، وتصوير منه لنفسه بصورة الخدّاع الحقير ؛ فى حين أوردتها برباره بشكل يختلف عن هذا كل الاختلاف ، وذكرت العبارة كاملة كما يلى : «I am a false alarm, I do not ring as true as I would» ثم أكملت شرحها بأن جبران لم يكن يرضى عن نفسه إلا إذا رآها فى أعلى مستوى من الكمال الإنسانى . وهو شرح يتفق كل الاتفاق مع النصف الثانى من العبارة ، ويتفق كل الاتفاق أيضاً مع ما يرويه أصدقاء جبران الآخرون – عدا نعيمه – عن سيرة جبران ، وما تبينه أقوال جبران فى جميع مؤلفاته .

والقارئ يشعر فى رواية برباره بأبلغ الإعجاب والمحبة لهذه الروح – روح جبران – التى تعيش فى صراع دائم لأجل الكمال . فى حين أن رواية نعيمه تشعره

بالنفور والحذر من هذا الإنسان الذى يعيش على خداع نفسه وخداع الآخرين . وشتان ما بين الصورتين !

وهناك حوادث وأمور وأقوال وردت فى الكتابين بكثير من التناقض والاختلاف ، كالذى ورد من قصة العمارة التى اشتراها جبران وأجّرها لرئيسة إحدى الجمعيات النسائية ؛ وأحاديث علاقات جبران الجنسية ، ومعارضه الفنية ، وقيمته فى نظر الناس ، ووطنيته ، وغيرته على أبناء بلاده ، مما لا يتسع المجال لتفصيله .

وهناك كتاب آخر عن جبران للفنان اللبنانى يوسف الحويّك عنوانه : « ذكرياتى مع جبران » وقد صدر عام ١٩٥٧ وفيه كثير من الإنصاف لجبران .

خذ مثلا فصل « مرض جبران » من كتاب يوسف الحويك (صفحة ١١٩ – ١٢٦) ، حيث يروى الحويك أن جبران أراد أن يهدى إلى روزينا الإيطالية سلسلة وثلاثة أساور من الفضة ، ولكنه لم يجرؤ على تقديمها لها بنفسه ، بل قدمها إلى يوسف وقال له : « أعطها يا يوسف هذه الهدية كما لو كانت منك » . فرفض يوسف أن يفعل ذلك ، بل التفت إلى الفتاة وقال لها بالإيطالية : « اقبلى هذه الهدية من جبران واشكريه » .

وإليك كيف يكمل يوسف الحويك هذه القصة :

« والتمعت عينا روزينا بفرح طفلة تفاجأ بهدية تحبها ، ولم تحاول ضبط سرورها ، وسارعت إلى الخيط المدلى من عنقها تستبدل به السلسة الجديدة . وبعصبية أدخلت الأساور الفضية فى زندها ، ثم التقطت يد جبران وهمّت أن تقبلها . فقلت لها :

على خده ! . .

فتخضبت وجنتاها بالدم ، وكذلك وجنتا جبران ، وتركها تقبله دون أن يجرؤ على إعادة القبلة . . .»

ثم يعلق الحويّك على ذلك بقوله :

« لقد كان جبران حيياً ، **يجيد فنون الغزل فقط فى الكتابة والكلام** » .

ويضيف إلى ذلك :

« **لم يكن جبران إبان وجوده فى باريس « دون جوان » كما يزعم البعض** ... »

ويوسف الحويك كان رفيق جبران فى باريس من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١٠ . وكانا يقيمان معاً ، ويعملان معاً ، ويتنزهان معاً . والحويك أعرف « بخصوصيات » جبران خلال هذه الفترة من أى إنسان آخر . ويعترف نعيمه نفسه فى مجلة « الحكمة » البيروتية بأنه لا يعرف شيئاً عن خصوصيات جبران الغرامية (الحكمة – عدد كانون الأول سنة ١٩٥٦ – فى حديث لنعيمه مع الدكتور جميل جبر) .

أما حكاية ميشلين التى كان لها شأن كثير البروز فى ما كتبه نعيمه عن جبران فإن يوسف الحويك يلقى لنا ضوءاً على هذا الاسم ، وبهذا الضوء نستطيع أن نستنتج نحن الحقيقة الكامنة وراءه ، وإن لم يهدنا إليها الحويك ولا سواه .

فى الفصل الختامى من كتاب « ذكرياتى مع جبران » للحويك ، وعنوانه « سفير روزينا » حديث بين الحويك والفتاة الإيطالية الفنانة – وهى فتاة رائعة الجمال كما يذكر الحويك – . وكان جبران قد غادر باريس ووصل إلى بوسطن ومن هناك كان يكاتب صديقه الحويك . وهذا هو الحديث :

روزينا – هل لديك أخبار من المسيو جبران ؟

الحويك – نعم ، وهو دائماً يسألنى عنك .

– أرجوك عندما تكتب له أن تهديه سلامى وتقول له . . .

– ماذا أقول له ؟

– إن روزينا كلما نظرت إلى الأساور الفضية تذكرك بالخير ...

ثم يتابع الحويك ذلك الفصل قائلاً :

سألتها فجأة :

– روزينا ! أصدقينى الخبر . . ما رأيك بصديقنا جبران ؟ أنا أعلم أنك كنت أثناء أسفارى تجلسين له[١] ، وأنه كان يدعوك أحياناً للأكل . . .

---

(١) كانت روزينا « مثالا » للرسم لجبران ويوسف الحويك . وقد حال جبران حينما أدخلها عليه يوسف لأول مرة بشعرها المنسدل كسبائك الذهب (لم تر عيناى أجمل من هذا الشعر) ثم قال بعد أن نزعت ثيابها واتخذت مجلسها على الطاولة ليرسماها : (هؤلاء هم الملائكة : آه أيا ليتنى واحد منهم !) .

فقالت روزينا :

– جبران يا سيدى أمير ، لطيف ، مهذب . لم تبدر لى منه ولا مرة حركة أو كلمة غير لائقة . لم أكن دائماً أفهم كل ما يقول ، إنما كنت بحدسى أشعر أن أحاديثه هى فوق مستوى الأحاديث العادية ، وأنها ممتعة وشائقة .

وأردفت بعد تفكير قليل : كدت مرة أتزاعل مع مرغريت[١] لأنها قالت لى : إن جبران ككل الرجال ، وإنه دعاها يوماً للغداء ، وأخبرها أنه يحب امرأتين : « بياتريس ومسالين » .

ويضيف الحويك قائلاً :

(هنا لم أتمالك من الضحك ، وقلت لها :

لم يكن جبران يحسن التعبير عن نفسه بالفرنسية ... وليست بياتريس) ومسالين هاتان سوى رمزين . . .

ميشلين ، ومسالين ! . .

إنهما اسمان متشابهان جدًّا . . ولكن مسالين إمبراطورة رومانية مشهورة فى التاريخ أما ميشلين ففتاة خيالية من صنع ميخائيل نعيمه . . . ويخيل إلىّ أن هذا الاسم محرّف عن « مسّالين » ، وأن حكاية اجتماعات جبران وميشلين فى باريس بالأوصاف والتفاصيل الخيالية المسيئة إلى جبران ، كما وردت فى كتاب نعيمه كلها ابتدعت على أساس قول جبران إنه يحب بياتريس و« مسالين » وإن لم يصنع ميخائيل نعيمه قصة أخرى عن بياتريس ... ومعروف أن هذا هو اسم حبيبة الشاعر الإيطالى دانتى الليجيرى التى كتب فيها « الكوميديا الإلهية » و« الحياة الجديدة » .

إن هذا الفصل من كتاب « ذكرياتى مع جبران » للحويك يفسر لنا بجلاء حقيقة قصة « ميشلين » فى كتاب نعيمه عن جبران . وقبل الحويّك كان عبد المسيح حداد ، رفيق العمر لجبران ، قد أنكر كذلك قصة « جبران وميشلين » فى حديث له مع يوسف البعينى نشرته « العصبة » و« السائح » .

ولكنّ هناك مصدراً آخر لسيرة جبران ، لعلّه أصدق المصادر لأنه أقربها

---

(١) فتاة يهودية كانت تبيع الكتب ، وكانت تحب جبران كثيراً ولكنه لم يكن يعيرها التفاتاً .

إليه وألصقها به . ذلك المصدر هو (ماري هاسكل) ومذكّراتها عن جبران . كما كشفها توفيق صائغ في كتابه (أضواء جديدة على جبران) الذى صدر أولاً فصولاً فى مجلة (حوار) اللبنانية عام ١٩٦٦ ، ثم نشر على حدة فى العام نفسه .

هذه الأضواء الجديدة من مذكرات مارى هاسكل تجعل من الضرورى أن يعيد ميخائيل نعيمه النظر فى كتابه ، لتصحيح الكثير ممّا جاء فيه عن سيرة جبران ، وعن ميشيلين ومارى هاسكل ، وعن علاقات جبران الإنسانية والجنسية ، وغيرها .

إن نعيمه قد جعل جبران يدمّر حياة ميشيلين تدميراً كاملا — ولا سيما فى اجتماعاته معها فى باريس ، التى زوّقها نعيمه بكلّ ما شاء له الخيال من صور الحقارة والنذالة — وأن يدفع بها إلى الاختفاء نهائيًّا من الحياة . ولكنّ مذكرات مارى هاسكل ترينا أن ميشيلين — المعلمة فى مدرسة مارى هاسكل ، وصديقة جبران ومارى هاسكل معاً — قد تزوّجت ، وانجبت ، وعاشت حتى العام نفسه الذى توفى فيه جبران (١٩٣٠) وتوفيت بعده بستة أشهر . وليس فى ما ترويه مارى هاسكل عن صلة جبران بميشيلين ما يمكن أن يشير إلى أن جبران قد دمّر حياتها ، أو حاول ذلك .

ويحاول نعيمه أن يصوّر لنا جبرانَ صورة قذرة أخرى ، وأنه حين عرض على مارى هاسكل أن يتزوّجها ، سألته : « هل أنت نظيف يا جبران ؟ » ومضى يعلّق على ذلك ما شاء من تعليق يسيء إلى سمعة زميله ورفيقه القديم . ولكن المذكرات تؤكد أن مارى كانت تحب جبران ، وتودّ لو تتزوجه ، لولا أنها كانت أكبر منه بعشر سنوات ، وأنها كانت ترى نفسها آخذة فى الانحدار نحو الشيخوخة ، فى حين يمضى هو صعداً نحو القوة والمجد . وكانت تشعر بحسّ الأنثى وغريزتها أن هذا الخارق الكبير لن يكتب السعادة لزواجهما .

لقد أراد نعيمه فى كتابته لسيرة جبران أن يصوّره أسوأ صورة ممكنة ، ولكننا لم نجد بين زملائه الآخرين فى الرابطة ، ولا بين أصدقاء جبران العديدين ، وأدمتهم يوسف الحويك ، وبرباره يونغ ، ومارى هاسكل ، من يدعم رواياته أو يرضى عنها . حتى عبد المسيح حداد ووليم كاتسفليس ، من زملاء نعيمه فى

الرابطة القلمية ، نفيا بشدّة كلّ ما اختلقه نعيمه عن جبران وما صوّره به من صور الحقارة الخلقية . حتى الريحاني ، أكبر خصوم جبران فى حياته ، لم يستطع إلاّ أن يهاجم نعيمه بعد صدور كتابه حول جبران ، لما وجده فيه من اختلافات مسيئة إلى الحقيقة .

من خصوم جبران

لكل عظيم فى الدنيا خصوم وأنصار ، خصوم قد يثيرهم اختلاف المبدأ والعقيدة ، أو اختلاف نهج التفكير والعمل ، كما قد يثيرهم الحسد أو التعصب ؛ وأنصار قد تؤلف بينهم وحدة المبدأ والعقيدة ، أو وحدة نهج التفكير والعمل ، كما قد يؤلف بينهم الإعجاب والحب . وجبران خليل جبران ، ككل عظيم آخر ، عاش ومات كثير الخصوم ، وكثير الأنصار ؛ ولم يعدم بعد موته خصوماً وأنصاراً جدداً ، وسيظل له فى كل جيل خصوم وأنصار ما دامت مؤلفاته حية بين الناس .

وليس من غرضى الآن أن أتحدث على أنصار جبران ، كما ليس من غرضى أن أتعرض للخصومات مع رجال الدين أو رجال السلطة الذين نالهم من قلم جبران أعنف الهجمات فى كتب متعددة ، حتى اضطروا إلى التعاون على حرق أحد هذه المؤلفات فى شوارع بيروت مرة ، وهو كتابه « الأرواح المتمردة » ؛ ولكننى سأقصر حديثى على الخصومات الأدبية والفكرية وحدها ، أو على الأصح ، على أشياء من هذه الخصومات الأدبية .

كان أشد خصوم جبران فى حياته صديقه ورفيق مهجره أمين الريحانى . وكانت الخصومة بينهما قد بدأت بسبب خلاف عقائدى قومىّ — كما ذكر الأستاذ ألبرت الريحانى فى مقال له فى العدد الأول من مجلة « القلم الجديد » المحتجبة[1] — ثم تطورت واشتدت بحيث أصبحت أدبية وشخصية أيضاً . ومعروف

(١) مجلة (القلم الجديد) ، لصاحب هذا الكتاب — عمّان — الأردن — أيلول / سبتمبر ١٩٥٢

أن الريحانى كان واقعيًا فى أدبه ، وكان من أعظم حملة رسالة القومية العربية ، وعلى هذه الدعوة وقف نشاطه الفكرى وجهاد حياته كلها . أما جبران فلم يؤمن قط بفكرة القومية العربية ، بل كان من ناحية الشعور القومى لبنانيًا إقليميًا ، وإلا فهو إنسانى واسع العاطفة ؛ وهذا هو الأغلب فى معتقده السياسى . ولذلك لم يكن غريباً أن يتعرض لخصومة الكثيرين ممن امتلأت نفوسهم بالعقيدة العربية القومية ، وفى طليعتهم رسول الوحدة العربية أمين الريحانى .

ولقد كان من نتيجة هذه الخصومة العنيفة بين الأديبين العظيمين أن الرابطة القلمية قد تألفت فى نيويورك ولم يشترك فيها الريحانى ، لأن وجوده فى رابطة واحدة مع جبران كان ضرباً من المستحيل . والحقيقة أن هذين الأديبين كانا علمين بارزين فى الأدب المهجرى ، ولكل منهما شهرته البعيدة فى أوساط الأدب فى الشرق والغرب ، وكل منهما يمثل اتجاهاً فى الأدب ويعتبر فيه « رأساً » . . واجتماع « رأسين » مثلهما فى الرابطة القلمية كان غير ممكن .

ثم مات جبران ، فزال من قلب الريحانى كل أثر للعداوة الشخصية والحقد عليه ، ورثاه بمقال يقطر أسى ولوعة ، ويطفح نبلا ووفاء وتقديراً . وقد نشر المقال فى مجلة « المقتطف » . وحينما أصدر ميخائيل نعيمه كتابه حول سيرة جبران عام ١٩٣٤ ، ثار الريحانى فى وجهه ثورة عنيفة ؛ ونشب بين الريحانى ونعيمه نقاش أدبى بلغ إلى أقصى درجة من العنف ، وكان ميدانه بعض صحف لبنان السيارة .

وكما كان الريحانى من خصوم جبران ، بسبب الواقعية الأدبية لدى الريحانى والعقيدة القومية ، كذلك كان الشاعر المهجرى إلياس فرحات من الناقمين عليه وعلى أسلوبه الكتابى وعلى الرابطة القلمية كلها من أجله . وصحيح أن خصومة فرحات لم يشتهر أمرها كثيراً ، إلا أننا لا نرى بأساً من الإشارة إليها ههنا . ولقد عبر فرحات عن نقمته على جبران والرابطة القلمية فى رباعيتين نشرهما فى ديوانه الأول « الرباعيات » وهما :

الأولى :

إنى لأعجبُ من آداب رابطةٍ ... قد أوجدتْ فى نظام الشعر تشويشا

شنَّتْ على الأدب الميمون غارتَها ... فأمعنتْ فيه تشويهاً وتخديشا

طارَتْ فخلْنا نسوراً فوقَنا ارتفعَتْ ثمّ استقرّتْ فكانت كلّها ريشا
أشعارها عَلْقَمٌ مع أنها شربتْ من ماء صنّين والعاصى وقاديشا

* * *

والثانية :

أصحابُنا (المتمرّدون) خيالهمْ تقضى قريش به وتحيا حِميَرُ !
لغةٌ مشوّشة ومعنى حائرٌ خلف المجاز ، ومنطقٌ متعثّرٌ
«وزعيمهمْ» فى زعمهمْ متفنِّنٌ عجباً ! أكان الفنّ فى ما يضمرُ ؟
لا الأرض تفهمُ ما يسطِّرهُ لها ذاك الزعيمُ ، ولا السماء تفسّرُ !

ويذكر توفيق ضعون فى كتابه «ذكرى الهجرة» أن ابن عم لجبران اسمه «نخله جبران» ، وهو أحد أغنياء المهاجرين فى البرازيل ، كان مستعداً لشراء خمسمائة نسخة من «الرباعيات» على شرط أن تخلو من هاتين الرباعيتين عند الطبع ؛ فلما رأى أن فرحات قد أدخل هاتين الرباعيتين غضب ورفض أن يشترى شيئاً منها .

أما خصوم جبران فى الشرق العربى فقد كانوا كثيرين جدًّا ؛ فقد جاء جبران بأسلوبه الخيالى المترقرق ، ذى التعابير الرمزية ، فى أحيان كثيرة ، فى زمن كانت تسود فيه كلاسيكية العبارة واللفظة القاموسية ، وبلاغة القدماء . ولذلك كان صوت جبران يعدّ نشازاً فى بيئة ما تزال تغطّ فى أحلام التقليد . وأكثر ما لقى جبران وزملاؤه الرابطيون من حملات وتهجمات كان فى مصر ، ومنها انتشرت العدوى إلى أقطار عربية أخرى ؛ ولولا العقاد والمازنى ، ومجلتا الهلال والمقتطف ، لاستطعنا أن نقول إن أوساط مصر الفكرية كانت كلها ضد جبران والرابطة ، فقد استقبلوا كتاباتهم ، ومؤلفاتهم بالنقد والتجريح ؛ وحجتهم فى ذلك خروجهم عن «أصول» العربية الصحيحة . وكان آخر خصوم الأدب المهجرى الأشدّاء فى عداوتهم له من المصريين ، الشاعر عزيز أباظه ؛ وظلّ على عداوته هذه حتى وفاته . إلا أن حملاتهم كلها لم تستطع أن تمنع «الأسلوب الجبرانى» من أن يسيطر على الأقلام الجديدة ، ويصبح هو الأسلوب الأدبى المفضل لدى الأجيال الأدبية الجديدة .

وهناك كتابان صغيران ، لغير أدباء مصر ، هوجم فيهما جبران هجوماً عنيفاً جدًّا .

أحد هذين الكتابين بعنوان « محاولات فى درس جبران » للكاتب اللبنانى أمين خالد . وقد كتب مقدمته الأستاذ فؤاد أفرام البستانى ، وطبع الكتاب فى مطبعة اليسوعيين فى بيروت عام ١٩٣٣ ، بعد أن نشرت فصوله متسلسلة فى مجلة « المشرق » اليسوعية . وأما الكتاب الثانى فهو بعنوان « جبران خليل جبران » ، ومؤلفه كاهن فلسطينى ناصرى من كهنة الروم الكاثوليك ، هو الأب إلياس زغبى . وقد طبع الكتاب فى مطبعة حريصا للروم الكاثوليك فى لبنان عام ١٩٣٩ ، بعد أن نشرت فصوله متسلسلة فى مجلة « المسرّة » التى تصدر عن دير حريصا .

الكتاب الأول يدرس جبران فى مؤلفاته ويتعرض له من الناحيتين : الأخلاقية والدينية . وقد هاجم جبران بشدة ، وحمل عليه حملات لا هوادة فيها ، معتمداً فى نقده ومهاجمته على تحليل أقواله وكتاباته تحليلاً فيه شيء من الصواب والمنطق ، وأشياء من التأويل والاستنتاج اللذين يحتاجان على الأقل إلى إعادة النظر . . . ولكنه كان موفقاً إلى حد بعيد فى الاتجاه بالنقد الأدبى وجهة الواقعية الاجتماعية والأخلاقية والعقائدية ، لا وجهة الفن المجرد . وهو بذلك أول دراسة تحليلية « خصومية » مركّزة لجبران .

أما الكتاب الثانى فقد كتب بعد أن وضع ميخائيل نعيمه كتابه على جبران ؛ ولذلك اعتمد فيه الأب زغبى كثيراً على روايات نعيمه ، ثم مضى بعد ذلك يدرس جبران فى مؤلفاته بمثل الروح والعنف واللهجة التى درسه بها أمين خالد ؛ فكان من الطبيعى جدًّا أن يتفق مع أمين خالد فى كثير من آرائه ، وأن يزيد عليه ، بحيث لا يجد لجبران فضيلة واحدة يمكنه الاعتراف بها . وكما خرج أمين خالد من دراسة جبران بأن جبران « يتميز بعدم الاكتراث للأخلاق فى بحثه عن لذة الجسد ، وبالخروج على قواعد الدين » كذلك خرج الأب زغبى بأن جبران « يهدم صرح الديانة المسيحية ، وينبذ جميع الأديان ، وأنه كثير الآلهة ولكن ليس الله بينها ؛ وأنه يدين بمذهب عبودية العقل والإرادة للشهوة الحيوانية ؛ وأنه هادم للسلطة المدنية ، والسلطة الدينية ، والأسرة » . وهو « صياح على قدّ الوجع »

كما يقول المثل العامى ؛ لكثرة ما لقى رجال الدين من حملات جبران عليهم .

* * *

وهنالك خصم آخر ، هو الكاتب المهجرى جبران مَسوّح [١] ، حشر جبران فى زمرة الأدباء الذين يتاجرون بأقلامهم ؛ فقال فى مقال له وجَّه الحديث فيه إلى صاحب جريدة « الصياد » اللبنانية عام ١٩٥٢ :

« المرحوم جبران خليل جبران قرف الأدب العربى وهجره إلى الأبد . . ولكنه راح يكتب بالإنكليزية ، لأن شركات الطبع والنشر الأميركية غنية تدفع أكثر من الشعب الفقير ... فهو لذلك تاجر بعبقريته ؛ ومن طبائع العبقريات أنها عندما تصير فى المزاد تقطع كل علاقة بينها وبين وطنها . . . » .

أما أن جبران « قد هجر الأدب العربى إلى الأبد » ، فليس صحيحاً ألبتة ؛ فعلى الرغم من أنه انصرف منذ سنة ١٩١٨ إلى تأليف الكتب بالإنكليزية ، إلا أنه استمر إلى النهاية يكتب فى « السائح » ، جريدة الرابطة القلمية ، كما يشهد بذلك صاحب « السائح » نفسه ؛ وقد شهد به نعيمه فى كتابه عنه ، وشهدت به الكاتبة الأميركية برباره يونغ – سكرتيرة جبران فى السبع السنوات الأخيرة من حياته – فى كتابها « هذا الرجل اللبنانى » . وفى ما يلى أترجم كلامها عن الصفحة ٣٥ من الكتاب :

« وحتى آخر حياته استمر يكتب بلغته القومية المحبوبة ، وكلما مرت الشهور كان يزداد شغفاً بقراءة العربية بصوت مرتفع ليشبع لذته فى سماع رنين ألفاظها » .

وأما تعلقه بقومه ، ونشره لفضلهم وفضائلهم باللغة التى يفهمها الأميركيون والعالم الغربى ، فلا يمكن أن ينكره إنسان . وأنا أحيل القارئ إلى كتاب برباره يونغ نفسه ليقرأ فيه الفصل الثامن بعنوان : « أهو صوت الشعب العربى ؟ » والفصل الخامس عشر بعنوان : « جبار وممتلئ بالقوة الحية » . فى الفصل الثامن خلاصة حديث طويل أفضى به جبران إلى صحفى أميركى اسمه جوزيف غولومب ، كان يحرر فى جريدة « المساء » النيويوركية ، على العرب وحضارتهم وأثرهم فى العالم ؛ فقد جعلهم فيه أساتذة العالم فى كل شيء : فى العلوم والفنون والآداب .

---

(١) من أدباء المهجر الأرجنتينى ، وهو ماركسى النزعة .

وقد ختم حديثه بقوله : « إن هناك أشياء كثيرة فى الشعر والأدب والفلسفة لم تترجم من العربية بعد ، ومتى أضيفت هذه الآثار الرائعة إلى الثقافة العالمية فسيجد العالم أنها آثار عظيمة قدمها شعب عظيم » وقد علق الصحفى على ذلك الحديث بقوله : « لقد ولد جبران على بعد ميل واحد من أرز لبنان الشهير ، وهو الآن يعيش مواطناً فى العالم الجديد . أهو خليل جبران نفسه الذى يعيش بيننا حقًّا ، أم هو صوت الشعب العربى وعبقريته ؟ » .

أما لماذا انصرف جبران إلى طبع كتبه الأخيرة باللغة الإنجليزية ، فالقارئ يعلم أن جبران كان يشعر بأنه يحمل رسالة روحية إنسانية إلى جانب رسالته الوطنية ، وأن هذه الرسالة الروحية شيء أوسع بكثير من أن تحده حدود العاطفة القومية ؛ ولم يكن فى وسع اللغة العربية أن تنشرها بشكل واسع فى العالم ، فى حين أن اللغة الإنكليزية تفى بذلك كل الوفاء لسعة انتشارها . وقد كان تقدير جبران فى محله ، إذ أن كتابه « النبى » – وقد وضعه فى الأصل بالعربية ولكنه لم يطبعه بها – قد ترجم عن الإنكليزية إلى أكثر من خمسين لغة عالمية ، وأعيد طبعه بالإنكليزية وحدها عشرات الطبعات[١] . وكتاب « المجنون » ترجم بعد طبعه حالا إلى نحو أربع لغات ، ثم تضاعفت ترجماته وطبعاته فيما بعد ، كما ترجم أغلب مؤلفات جبران الأخرى . وصحيح أن هذا الانتشار العظيم قد درّ على جبران أرباحاً طائلة – ولا يزال يدرّ إلى اليوم على ورثة جبران – وليس عيباً ولا جريمة أن يربح الأديب مالاً من أدبه ولقد كان يهم جبران سعة الانتشار لنقل الرسالة الروحية التى يشعر بأنه يحملها إلى العالم . ومع ذلك فقد كانت مؤلفات جبران الإنكليزية تترجم حالا إلى العربية ، وتحت إشراف جبران نفسه ، إلا كتابيه الأخيرين : حديقة النبى ، والتائه – اللذين طبعا بعد موته .

وأما شدة تعلق جبران بوطنه فيكفى دليلاً عليها شراؤه لدير مار سركيس من الرهبان الكرمليين فى قريته « بشرى » لكى يعود إلى الإقامة فيه . ولكن الأيام لم تمهله للإقامة حيًّا ، فعاد ليقيم فيه ميتاً .

---

(١) صدرت عن دار المعاف بمصر ترجمة لكتاب « النبى » فى طبعة أنيقة مزينة بلوحات جبران نفسه بقلم الدكتور ثروت عكاشة .

الواقع أن أمثال جبران – وليت لدينا ألوفاً مثل جبران – هم مفاخر لهذه الأمة ، وخير دعاية لها أمام عيون الغربيين وضمائرهم العمياء ، لأنهم يُفهمونهم أن العرب ليسوا جميعهم رعاة إبل وسكان خيام ، ولكن فيهم من يرغمون الغربيين على إحناء الرؤوس أمام عبقريتهم وعظمتهم وتفوّقهم ؛ فمن الظلم أن نتهم هؤلاء بالعقوق والتنكر لأمتهم ، وهم من أعظم مفاخرها ورسلها إلى العالم .

وبعد ، فإن المرء لا يسعه إلا أن يضحك كثيراً ، ويعجب كثيراً ، حين يقارن بين أقوال خصوم جبران وأقوال محبيه ، ويرى إلى أى حد تختلف الأذواق والمفاهيم ، وتتباعد وجهات النظر فى تقدير هذا الأديب الفنان الذى دخل الآداب العالمية الخالدة من أوسع أبوابها ، وبأقصى ما يمكن من الثبات ورسوخ الأقدام ، بما أنتجه بقلمه وريشته الخلاقين من آثار خالدة[١].

٣ – إيليا أبو ماضى[٢]

من الرابطة القلمية

هناك اختلاف غير قليل فى السنة التى رأى فيها أبو ماضى نور الوجود : فجريدة « السائح » فى عددها الممتاز لعام ١٩٢٧ تذكر أنه ولد عام ١٨٨٩ ؛ وهى حتماً لم تأت بهذا التاريخ اعتباطاً ، لعضو من أبرز أعضاء الرابطة القلمية التى كانت « السائح » لسانها الرسمى ، وندوتها الفكرية . فلابد أنها أخذته من الشاعر نفسه ، ولذلك ظل تاريخ « السائح » هو التاريخ الذى يعتمد عليه كل من يكتب عن أبى ماضى ، ويتعرّض لتاريخ مولده .

غير أن الأستاذ محمد قره على ، فى مقاليه المنشورين فى جريدة « الحياة » اللبنانية على أثر وفاة الشاعر . يقول : إنه سأله عن تاريخ مولده ، حين زار لبنان عام

---

(١) أرجو أن يرجع القارئ إلى المقالات والمناقشات التى دارت على صفحات مجلة « الأديب » البيرونية عام ١٩٥٤ وما بعده ، حول كتاب « جبران خليل جبران » لميخائيل نعيمه بين صاحب هذا الكتاب وأدباء آخرين . لا حاجة إلى العودة إليها فى هذا الكتاب .

(٢) انظر كتاب (إيليا أبو ماضى رسول الشعر العربى الحديث) الطبعة الثانية . منشورات عويدات – بيروت – ١٩٥٨ .

١٩٤٨ ، فأجابه أبو ماضى بأنه ولد عام ١٩٨٠ – وهذا خطأ طباعى واضح ، وهو حتماً يقصد عام ١٨٩٠ – والفرق بين هذا التاريخ والتاريخ الذى ذكرته « السائح » عام واحد ، مع أن المصدر فى التاريخين هو الشاعر نفسه .

أما الأستاذ جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهجر » فقد ذكر أن أبا ماضي ولد عام ١٨٩١ . وهنا يزيد الفرق عاماً آخر . ولسنا ندرى على أى سند اعتمد الأستاذ صيدح فى هذا التاريخ ، مع أنه هو نفسه يشير فى هامش الصفحة عينها (٢٥٣) إلى رواية جريدة « السائح » . وإذن لابد من أن يكون قد استند هو أيضاً إلى مصدر جدير بالثقة ، وإلا فإنه لا يجرؤ من عند نفسه على مخالفة مصدر يعرف مدى صلته بأبى ماضى .

ثم تجىء رواية رابعة ، فحين نعت جريدة « الحياة » أبا ماضى فى ١٩٥٧/١١/٢٤ ذكرت أنه ولد عام ١٨٩٤ ؛ وكذلك ذكرت جميع الصحف والإذاعات التى أذاعت نبأ وفاته أنه قد توفى عن ٦٤ عاماً . وإذن تكون كلها متفقة على أن عام ١٨٩٤ هو التاريخ الصحيح لمولده ، مع أنه يبعد خمس سنوات عن التاريخ الأول الذى جاء فى رواية « السائح » .

وغريب جدًّا أن تتضارب الروايات إلى هذا الحد فى مولد شاعر عظيم كأبى ماضى ، كان إلى الأمس القريب جدًّا ملء السمع والبصر والقلب ؛ وليس غريباً إذن أن تتضارب الروايات فى التأريخ لإنسان ممن عاشوا فى العصور المتقدمة .

أما مسقط رأس أبى ماضى والقرية التى تفتحت عيناه – أول ما تفتحتا – على جمالها وروعة مناظرها ، فهى قرية « المحيدثة » ، جارة بكفيا ، التى يحيها صنين مع شروق الشمس ، وتجثو عند أقدامها التلال والأودية ، وأشجار الصنوبر والسنديان المتعالية على السفوح والهضاب .

ولم ينل إيليا من الثقافة المدرسية إلا ما قدمته له مدرسة القرية الصغيرة ، ثم غادرها إلى الإسكندرية وما يزال فى الحادية عشرة من العمر . وكان ذلك عام ١٩٠١ ، كما يذكر محمد قره على فى « الحياة » نقلا عن أبى ماضى نفسه ، أو عام ١٩٠٢ ، كما يروى جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا » .

ولسنا نعرف الكثير عن حياة أبى ماضى فى طفولته فى « المحيدثة » ، ولا عن

شبابه الأول فى الإسكندرية . وكل ما نعرفه من القليل الذى كتب فى هذه الناحية أنه كان هناك يبيع السجائر ؛ فلم يكن الرزق موفوراً بالشكل الذى يحلم به إنسان اغترب عن أهله فى ميعة الطفولة بحثاً عن الرزق .

وقد أورد محمد قره على رد أبى ماضى على سؤال له حول هذه الفترة ، وهو كما يلى :

« وفى الإسكندرية تعاطيت بيع السجائر فى النهار فى متجر عمى ، وفى الليل كنت أدرس النحو والصرف ، تارة على نفسى ، وتارة فى بعض الكتاتيب . وقد أقمت فى الأراضى المصرية أحد عشر عاماً ، نظمت خلالها ديواناً من الشعر . أما قصائدى الوطنية فلم أودعها ذلك الديوان ، لأن سياسة ذلك الزمن كانت تعاقب بالسجن ، من شهر إلى ستة أشهر ، كل من قال بيتاً من الشعر يشتمّ فيه رائحة النقد » .

وهذا الحديث القصير هو جماع ما نعرفه عن الفترة التى قضاها الشاعر فى مصر . وليس من السهل أن نعرف أكثر منه ، فقد كان أبو ماضى ضنيناً جدًّا بالحديث على نفسه وحياته . حتى إننى حينما أردت إصدار الطبعة الأولى من كتابى « إيليا أبو ماضى » عام ١٩٥١ ، كتبت إليه أرجو أن يوافينى بموجز عن حياته لأقدمه إلى القراء ، وبصورة له أنشرها فى الكتاب ، فكتب إلىّ — بعد انتظار غير قصير — يقول : « يعزّ علىّ وأنا أجيبك عن رسالتك أن لا يكون مع جوابى رسم لى ، فإنى مهمل هذه الناحية كل الإهمال . أما سيرة حياتى فليس فيها ما يستحق النشر ، أو على الأقل هكذا أعتقد أنا ، إذ ليس فيها ما ينقع فضول أحد » .

وليس صحيحاً أن حياته ليس فيها ما ينقع فضول أحد ، فإنه لم يصل إلى المنزلة التى وصل إليها إلا بجهاد عصامى طويل ، تقلّب فيه على الشوك والجمر والحراب طويلاً قبل أن يعرف جنباه الفراش المريح . أتراه كان يخجل بجهاده هذا وهو مصدر فخر عظيم لمثله ؟

إن الذين يعانقون الثرى فى شقاء طويل ، ثم يرتفعون عنه بجهادهم الشخصى حتى يعانقوا السحاب ويتربعوا على الذرى ، هم الصفوة الممتازة من البشر الذين

لم يعرفوا ملاعق الذهب عند مولدهم ، بل أحالت أيديهم التراب إلى تبر بمواهبهم الفردية الغنية . إنهم جبابرة عظماء ، وهم الذين يكتبون تاريخ الحياة الناصع الجميل ، لا سواهم . فكيف لا يرى أبو ماضى فى حياته ما يستحق النشر ، ولا ما ينقع فضول أحد ؟

لقد كان من حق أبى ماضى أن يفتخر بحياته البسيطة كفرد كادح عصامى ، يبنى مداميك حياته العريضة بعرقه ودموعه ، لا أن يطوى صحائفها عن الناس .

أما هجرة إيليا إلى العالم الجديد فقد كانت عام ١٩١٢ ، وهناك أقام أربع سنوات فى ولاية سنسناتى يعمل فى التجارة مع أخيه مراد[١] . ويقول جورج صيدح إن هذه السنوات الأربع التى قضاها بعيداً عن دنيا الأدب ، كان لها تأثير على شاعريته ، فقد تطورت بسرعة عجيبة ، حتى غاب عن قصائده المنظومة فى خلالها ذلك الشاعر المقلد . . . الذى كان شأنه فى مصر شأن غيره من الشعراء : يستلهم شعر العصر العباسى ، ويحاول أن يقلد البارودى وصبرى وشوقى وحافظ فى أساليبهم . ولكنه حالما نزح عن المحيط المصرى تقمص شعره روحاً جديدة ، واستقل بطابع شخصى ؛ فنظم الروائع ، مثل قصيدة « ابنة الفجر » و« فلسفة الحياة » و« فى الليل » و« الخلود » وأصبح الركن الأهمّ فى بناء الشعر المهجرى الحديث فى المهجر الشمالى .

وأبو ماضى نفسه فى رده على السؤال التالى لمحمد قره على : « هل ألهتكم التجارة عن الشعر ؟ » يجيب قائلاً : « كلا ، بل ازدادت شاعريتى وتطورت تطوراً عجيباً » .

وفى عام ١٩١٦ انتقل إيليا إلى نيويورك ليبدأ حياته الصحفية ، وليبدأ كذلك مجده الشعرى العريض فى « الرابطة القلمية » بعدئذ .

وهذه الفترة الجديدة يلخصها أبو ماضى فى حديثه مع محمد قره على بقوله : « انتقلت إلى نيويورك عام ١٩١٦ ، إذ تلقيت دعوة من بعض الشباب العربى الفلسطينى يعهدون إلىّ بتحرير « المجلة العربية » التى كانوا يصدرونها فى

---

(١) توفى مراد بعد وفاة شقيقه إيليا . وله كتاب وحيد بعنوان (السنابل) يحتوى على مجموعة مقالات كان يكتبها مراد من حين إلى آخر ، وقد صدر عام ١٩٥٢ .

نيويورك . قبلت الدعوة ورأست تحرير المجلة المذكورة ؛ ولم يطل الوقت حتى أسهمت فى تحرير « الفتاة » التى كان يصدرها إذ ذاك صديقنا شكرى البخاش صاحب الزميلة « زحلة الفتاة » اليوم . وفى عام ١٩١٨ انصرفت إلى تحرير جريدة « مرآة الغرب » . وفى عام ١٩٢٨ تركت « المرآة » . وفى نيسان ١٩٢٩ أصدرت مجلة « السمير » ، وكنت أصدرها مرتين فى كل شهر . وفى سنة ١٩٣٦ حولتها إلى جريدة يومية » .

وقد استمرت « السمير » تصدر جريدة يومية ، وظل إيليا يحررها حتى وفاته . أما حياته العائلية فلسنا نعرف الكثير عنها ، وكل ما أعرفه أن له من الأبناء ثلاثة ، أكبرهم « رتشرد » وقد اقترن عام ١٩٥١ بفتاة أميركية اسمها « مارى لويز » ؛ وهو من علماء الذرة ، يحمل درجة « دكتور فى العلوم الطبيعية » . وتحمل زوجته درجة « أستاذ علوم » فى علم النفس . وأما الثانى فاسمه « روبرت » ، وكان يعمل فى جيش الطيران . والثالث كان مريضاً لا يتعاطى عملاً . ولعلهم جميعاً لا يقرأون شعر أبيهم أو يفهمونه ، لأنهم ولدوا وعاشوا فى بيئة أميركية ، ولغتهم هى الإنجليزية .

وأما زوجته فهى السيدة (دوروثى) ابنة نجيب دياب ، صاحب جريدة (مرآة الغرب) التى عمل فيها أبو ماضى . وقد اقترن بها حين كان يعمل فى جريدة أبيها . وهى تعيش إلى اليوم فى أميركا ، وقد عادت سنة ١٩٧٢ إلى لبنان لترى ، لأول مرة فى حياتها ، الضيعة التى خرج منها زوجها الشاعر العظيم . ثم عادت من جديد إلى أميركا .

* * *

أما « الرابطة القلمية » التى انتسب إليها أبو ماضى فى نيويورك ، فالذى كان لدينا عن تاريخ نشوئها هو ما كتبه ميخائيل نعيمه فى كتابه « جبران خليل جبران » ؛ فقد ذكر فى الصفحة ١٧١ من طبعته الأولى أن فكرة تأسيسها قد نشأت فى ٢٠ نيسان ١٩٢٠ فى بيت صاحب جريدة « السائح » ، ثم تألفت فى ٢٨ نيسان فى منزل جبران . وقد أورد نعيمه أسماء من حضروا الجلستين ، ولم يكن إيليا من بينهم ، وإن يكن بين الأعضاء المشتركين فى الرابطة باسم « العمال » .

ولم يذكر نعيمه أن الريحانى كان عضواً فيها ، وأكد لى فى إحدى رسائله أنه لم يكن قط عضواً فيها ، للخلاف الذى كان بينه وبين جبران من قبل تأسيسها . غير أن ما أورده محمد قره على فى جريدة « الحياة » على لسان أبى ماضى يختلف عن هذا ، إذ يرجع بتاريخ إنشائها إلى عام ١٩١٤ ، أى قبل انتقال أبى ماضى إلى نيويورك بعامين . ويذكر أبو ماضى – فى رواية محمد قره على فى « الحياة » – أنه انضمّ إلى الرابطة عام ١٩١٦ ، كما يذكر أن الريحانى كان أحد أعضائها . وهما روايتان متناقضتان جدًّا ، ففى حين يذكر نعيمه أن الرابطة أنشئت بعد عودته من ميدان القتال فى فرنسا ، عام ١٩٢٠ ، تبيّن رواية محمد قره على ، على لسان أبى ماضى ، أنها أنشئت قبل الحرب ، عام ١٩١٤ .

والذى أعتقده أن رواية نعيمه هى الصحيحة ، وقد اعتمدتُ عليها فى ما كتبته على الرابطة فى هذا الكتاب ، ولكن الذى ورد منسوباً إلى أبى ماضى فى رواية محمد قره على هو عن اجتماع الأدباء الذين تألفت منهم الرابطة فيما بعد فى بلد واحد هو نيويورك . واجتماعهم هناك وتآلفهم ، وتفاهمهم الفكرى ، والتفافهم حول مجلة « الفنون » لنسيب عريضة ، وبينهم أمين الريحانى ، هو الذى كان فى عام ١٩١٤ ، لا نشوء الرابطة القلمية . وقد انضم أبو ماضى عام ١٩١٦ إلى جماعتهم ، لا إلى الرابطة ، ومن هنا كان اسمه بين أعضائها حينما أنشئت عام ١٩٢٠ ، وإن لم يتمكن – لأسباب لا نعرفها – من حضور جلساتها الأولى .

وفى حياة الرابطة نضجت شاعرية أبى ماضى وبلغت قمة نضجها ، فكان شعره عنواناً للشعر المهجرى الجديد فى روحه وأفكاره وخيالاته وصياغته . لقد كان شاعر الرابطة الأكبر ، كما كان جبران ناثرها وفيلسوفها ، ونعيمه كاتبها وناقدها الفنان . وهؤلاء الثلاثة متقاربون فى مواهبهم الإبداعية ، كل فى ناحيته ، وإن يكن الأثر الأكبر للتوجيه الروحى والفكرى فى الرابطة لجبران (١) . وإذا كان نعيمه قد تأثر كثيراً بأفكار جبران فى الأخوّة الإنسانية ، ووحدة الوجود ،

---

(١) يحاول ميخائيل نعيمه فى كتابه (سبعون) أن يوهم القراء أنه هو وحده الذى كان يقود الفكر الرابطى ، ويقوم (وحده) بحركة التجديد المهجرية . وليته لم يحاول ذلك ، وحسبه أنه بين أكبر أصحاب هذه الحركة الجديدة .

والفلسفة الروحية ؛ وتفوق عليه بنصاعة العبارة ، وصفائها ، وقوتها ، وقوة الملكة النقدية ، فإن أبا ماضى قد استقل بشخصية شعرية قوية عارمة ، وإن يكن قد تأثر أحياناً ببعض الأفكار الجبرانية فى لمحات من بعض قصائده . حتى « وحدة الوجود » ، عقيدة جبران الكبرى ، تأثر بها أبو ماضى فى أبيات عابرة من بعض قصائده ، ولكنه لم يتخذها مذهباً فكريًّا كما اتخذها جبران ونعيمه .

والحقيقة أنه لولا وجود هؤلاء الثلاثة فى الرابطة ما كان للرابطة شىء من ذلك الأثر البعيد فى المحيط الأدبى ، الذى أحدث انقلاباً كبيراً فى مفاهيم الأدب وأساليبه فى أقطار العروبة ؛ فهى مدينة لهم ولمواهبهم الأدبية العظيمة ، وشخصياتهم الفكرية المتفوقة ، قبل كل شىء ، ومدينة بعد ذلك للتجاوب الروحى العميق الذى كان يسيطر على مجموعة أعضائها ، وإن يكن بينهم من لم يكتب صفحة واحدة طوال حياة الرابطة ، كإلياس عطا الله مثلا . وكذلك وديع باحوط الذى لا نعرف له غير مقال واحد .

وكان هناك رشيد أيوب ، وندرة حداد ، وهما شاعران ، ولكنهما لم يبلغا من قوة الموهبة واستقلال الشخصية شيئاً مما بلغه أبو ماضى ؛ وإن يكن لكل منهما شعر رقيق غير قليل . وكان هناك نسيب عريضة ، وهو الشاعر الثانى فى الرابطة بعد أبى ماضى ؛ فقد كان ذا طابع خاص ، وشاعرية لطيفة ، وقصائد إنسانية غاية فى اللطف والرقة والحنان ، إلى جانب قصائده التأملية الجميلة ، ولكنه لم يبلغ شأو أبى ماضى فى سعة الأفق ، ونصاعة العبارة ، ووفرة الحيوية ، والحرارة ، وبعد الخيال ، وجمال الصور المنتزعة من قلب الطبيعة ، وصدق الشعور فى ما يعالجه من حياة المجتمع .

* * *

وفى نيويورك طبع أبو ماضى ثلاثة دواوين ، هى : « ديوان إيليا أبو ماضى – الجزء الثانى » ، وقد كتب مقدمته جبران ، وأثنى على صاحبه أبلغ ثناء . وطبع هذا الديوان عام ١٩١٨ ، وقد ضمنه إيليا القصائد الوطنية التى لم يتمكن من نشرها فى ديوانه الأول « تذكار الماضى » الذى طبع فى مصر عام ١٩١١ . وفى هذا الديوان الثانى كان إيليا قد وضع قدمه على أول الطريق من الشاعرية المتفوقة

المبدعة ؛ فقد تخلص من قيود التقليد ، وأطلق خياله حرًّا يرود آفاق الوجود والطبيعة دون تهيّب ولا حذر . ومن أشهر قصائد ديوانه هذا قصيدة « فلسفة الحياة » التي نالت من الشهرة أوفر نصيب وأطيبه وأوسعه .

وفى عام ١٩٢٧ أصدر ديوانه « الجداول » وهو ثالث دواوينه . وقد كتب مقدمته ميخائيل نعيمه ، فبارك شاعريته ، وأثنى على روحه ثناء جميلا . وفى هذا الديوان بلغ أبو ماضى قمة مجده الشعرى ؛ فقد جاء فيه بعدد كبير من القصائد الملأى بالغنى والدسم والجمال ، فكان ثروة كبيرة للرابطة وللشعر المهجرى ، وكسباً عظيماً للشعر العربى .

وفى عام ١٩٤٠ صدر ديوانه الرابع « الخمائل » ؛ ومن بعده نظم أبو ماضى قصائد غير قليلة ، ولكن لم يتح له أن يجمعها فى ديوان ؛ فقد اخترمته المنية فى الثالث والعشرين من شهر تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٩٥٧ ، وبعد وفاته جُمعت هذه القصائد فى ديوان بعنوان : « تبر وتراب » صدر عن « دار العلم للملايين » فى بيروت ، وأعيد طبعه مراراً . وكانت وفاة أبى ماضى خسارة أدبية عظيمة ، لأن مثله من الأفذاذ لا تجود بهم الأيام إلا على ندرة .

* * *

لقد كان أبو ماضى شاعراً عظيماً ، ولكنه كان إلى جانب ذلك صحفيًّا موفقاً فى مغتربه ؛ والصحافة لا تقوم على الشعر ، وإنما تحتاج إلى عقل عامل ، وحركة دائبة ، وقلم مرن يخوض فى كل موضوع من مواضيع الحياة اليومية ، والسياسية ، والإخبارية والاجتماعية ، وما إلى ذلك ؛ فالشعر فيها ليس أكثر من فاكهة أو حلوى ، وإنما قوامها النثر وحده .

ولقد مارس أبو ماضى العمل الصحفى - كما تقدم - منذ عام ١٩١٦ إلى عام ١٩٢٩ محرراً لدى الآخرين فى عدد من الصحف ، ثم انفرد بإصدار « السمير » مجلة نصف شهرية لمدة سبع سنوات ، ثم حولها إلى جريدة يومية ، وظلت كذلك إلى حين وفاته . وكان له فى كل عدد من أعدادها نشاط قلمى كثير ، وكان يكتب افتتاحياتها غالباً ، فيعالج فيها شؤون المجتمع ، ومشاكل السياسة العربية والعالمية . وكان لقضايا الوطن العربى نصيب كبير من عنايته ،

فهو يعالجها ويدافع عنها فى كل مناسبة . وفى كثير من الأحيان كانت افتتاحياته تعالج شؤوناً أدبية كذلك ، أو قضايا إنسانية واجتماعية عامة .

أذكر أنه أفرد مرة افتتاحية الجريدة لمعالجة قضية اجتماعية قلّ أن يكترث لمثلها مجتمعنا الشرقى ؛ فقد قرأ إعلاناً فى إحدى الصحف اللبنانية يبحث فيه صاحبه عن « خادمة لبيته لا يزيد عمرها عن ١٤ سنة » . فعصف الألم بنفسه ، فسكبه فى افتتاحية جريدته ثورة عنيفة على المجتمع الذى يسمح لطفلة فى مثل هذه السن الغضة بأن تغادر مقاعد الدراسة لكى تعمل فى البيوت لقاء أجر يمنحها الطعام والكساء . وكان رائعاً فى معالجته لهذا الموضوع ، قويًّا فى دفاعه عنه .

حقيقة أن إيليا لم يكن قوى العبارة فى نثره كما هو صافى العبارة فى شعره ، ولكنه فى عمله الصحفى كان مجبراً على أن يكتب النثر باستمرار ، وإن لم يشتهر بين الناس ناثراً بليغاً متفنناً . على أن معرفتنا له شاعراً يجب أن لا تنسينا أنه كان كثيراً ما يوفق فى افتتاحياته ومقالاته النثرية التى يكتبها بروحه ومشاعره . ولو اجتمعت مقالاته النثرية هذه فى كتب ، لوقعنا منها على الشىء الكثير من المواضيع الحساسة والمعالجات القيّمة ، وإن لم نقع على آيات فى البلاغة والمقدرة اللغوية . وإهمال هذا الجانب من حياة أبى ماضى الأدبية فيه غمط لشىء من فضله وأدبه غير قليل .

فى أواخر عام ١٩٤٨ – عام المأساة الفلسطينية ، وعلى أثرها – أتيح لأبى ماضى أن يعود إلى وطنه الأصلى ، لبنان ، لفترة قصيرة – بعد حنينه الطويل إليه – ليمثل هو والأستاذ حبيب مسعود ، رئيس تحرير مجلة « العصبة » فى البرازيل ، صحافة المهجر فى مؤتمر اليونسكو ، الذى عقد حينذاك فى بيروت . وكان فى أثناء إقامته موضع الحفاوة العظيمة لدى الأوساط الرسمية والأدبية فى لبنان وسوريا .

وفى هذه الزيارة منحته الحكومة اللبنانية وسامى الاستحقاق والأرز ، وأقيمت له فى ١٩٤٩/٢/٦ حفلة كبرى فى دمشق برعاية الرئيس شكرى القوتلى الذى علّق على صدره وسام الاستحقاق الممتاز .

وكم أود لو أعرف كيف كانت حياة أبى ماضى فى الفترة الأخيرة التى سبقت وفاته . غير أن مرثية جورج صيدح له فى جريدة « الحياة » – الخميس

١٩٥٧/١١/٢٨ – تشير إلى أنه كان مريضاً خلال الصيف السابق ، وإلى أنه كان يود أن يزور لبنان بعد زوال الخطر عنه . فقد قال صيدح يناجيه :

« بشَرتني رسالتك الأخيرة بزوال الخطر عنك ، ومنّتني بالتلاقى فى الصيف المقبل فى « وطن النجوم » ، أتطيَّب بأنفاس شعرك ، وتتطيب أنت بنسمات الأرز من علة قلبك ، فتستّرد نشاطك ، وتجمع ما انتثر من منظوماتك » .

وتشير المرثية كذلك إلى أنه كان يعتزم التوقف عن إصدار « السمير » ، فقد قال فيها صيدح : « كتبت إلىّ منذ ستة شهور أنك عازم على حجب « سميرك » والإخلاد إلى الراحة ، وقلت : لابد من أن أنقذ نفسى من رائحة الحبر والرصاص ، وأنقذ الصحافة منى . . . »

وجاء فى جريدة (البيان) النيويوركية ، لصاحبها راجى الظاهر ، فى العدد ٦٣٣١ لسَنة (٤٧) بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٥٧ ما يلى :

« لقد قضى المرحوم إيليا أبو ماضى السنوات الأخيرة يشكو علّة فى القلب اضطرّته إلى دخول المستشفى فى طلب العلاج مرّتين ؛ وكانت المرة الأخيرة فى شهر حزيران الماضى حيث اشتدّت عليه العلّة وكادت تودى بحياته الغالية . ولكنه تغلّب عليها وعاد إلى داره فى أواخر شهر تموز الفائت ، وأخذ يتدرّج فى طريق الشفاء واستعادة نشاطه .

« وفى الساعة الرابعة من صباح يوم السبت الماضى استفاق الفقيد يشكو ضيقاً فى أنفاسه ، فأيقظ قرينته الفاضلة السيدة دوروثى ، واستنجدها لتسعفه بأقراص من المنعشات كان يستعين بها فى مثل هذه الحال ؛ فخفّت إليه وأنجدته بها . ولكنه بعد أن تناولها لم يشعر بتحسّن . فطلب إلى السيدة قرينته أن تستدعى الطبيب ، ففعلت ذلك فى الحال . فلما جاء وجده قد فارق الحياة . . .

« وهكذا كانت وفاته ما بين الساعة الرابعة والخامسة من صباح السبت فى الثالث والعشرين من شهر تشرين الثانى ؛ نوفمبر ، الحالى » .

وها قد احتجب هو عن « السمير » ، وابتعد عن رائحة الحبر والرصاص ، وانقطعت صلته بالصحف والصحافة ، وبالشعر والنثر بعد الكثير ممّا قدّمه للأدب العربى من كنوز لن تصل إليها يد الفناء .

نظرة عامة فى شعر أبى ماضى

يتردد اسم أبى ماضى فى دنيا الضاد مصحوباً بالإعجاب الكبير بما له من قصائد روائع ، تتناقلها الصحف والمذياعات ، ويتسابق إليها الناشرون ، وتتلاقفها الأيدى ، وتتغنى بها الألسنة ، ويستظهرها الطلاب على مقاعد الدراسة لأنها كنوز أدبية غنية بالصدق والجمال ، نابضة بالشعور والحياة ، دافقة بالسمو والغنى الروحى ؛ يجد فيها المحزون سلوى ، والمحروم أملاً ، والمتعب ترويحاً ؛ فهى من الحياة وإلى الحياة ، وهنا سر قوتها .

والذى لا شك فيه أن أبا ماضى قد وصل إلى منتهى نضجه الشعرى فى ديوانه « الجداول » . ومن قبله فى قسم من قصائد الجزء الثانى من ديوانه ، ولا سيما قصيدة « فلسفة الحياة » منه ، فهى من أشهر شعر أبى ماضى وأروعه . أما ديوانه الأول فلا يختلف فى شيء عن الدواوين الشعرية الأخرى التى كانت تظهر فى الشرق آنذاك ، وأما « الجداول » فغنى بالقصائد الجياد التى تعد من عيون الشعر ، والتى تمتاز بغناها الوافر فى الشعور الإنسانى ، وفى الإحساس بالطبيعة والحياة ، وفى لطف أسلوبها ، وبعد خيالها ، وجمال صورها ، مما يندر أن يجتمع كله لشاعر واحد . فهناك على الأخص قصائده التالية : « الفاتحة ، السجينة ، تعالى ، الطين ، فى القفر ، المساء ، الكمنجة المحطمة ، اليتيم ، أنا ، العليقة ، هى ، الطلاسم » ، هذه القصائد خاصة قَلّ أن اجتمع فى ديوان شعر واحد عدد مثلها ، له مثل خصائصها القوية الغنية ؛ وروحها الحساسة السامية . ولذلك لا غرابة فى أن يتردد اسم صاحب « الجداول » ، فى الوطن والمهاجر ، بملء الإعجاب ، وفى أن يتبارى الناشرون فى طبع ديوانه وتوزيعه مرات ، دون استئذان المؤلف – وهو ما لا نعرف وقوعه بهذا الشكل عند العرب قبل ديوان الجداول – فتنفد كل نسخة حال ظهورها فى الأسواق .

وكذلك ليس ثمة شيء من الغرابة إذا قلنا إن الذى يطالع ديوان « الخمائل » لن يعثر فيه على شيء جديد من الروح والأسلوب والخصائص الفنية غير الذى

عرفه فى « الجداول » ، فى حين يلاحظ بكل سهولة مقدار الفرق بين كل ديوان والآخر من دواوين أبى ماضى الثلاثة الأولى ؛ فهناك كانت الشاعرية تتدرج فى تطورها حتى وقفت فى النضج عند قمتها فى الديوان الثالث ، فلم تعد بعده خطوة جديدة يخطوها الشاعر إلى الأمام . ولذلك نجد فى « الخمائل » الخصائص عينها التى وجدناها من قبل فى شعر « الجداول » ، إلا شيئاً جديداً واحداً — نعدّه نحن نكسة إلى الوراء — وهو زيادة عـــدد قصائد المناسبات الشخصية فى « الخمائل » ، فقد اجتمع منها نحو اثنتى عشرة قصيدة ، أو تزيد ، ولم يكن فى « الجداول » منها سوى اثنتين . وهذه ظاهرة نستغربها فى ديوان لأكبر شاعر فى « الرابطة القلمية » التى طالما حاربت شعر المناسبات فى إبّان قوتها . أقول هذا وأنا لا أنكر أن فى قصائد المناسبات فى هذا الديوان عدداً من أروع القصائد الإنسانية أو الاجتماعية ، أو الوطنية . وأشير ههنا بنـــوع خاص إلى قصيدتيه : « بين مد وجزر » ، « وكن بلسماً » ، فحظ المناسبة الشخصية فيهما من الضآلة بحيث لا يكاد يظهر .

ويلاحظ قراء أبى ماضى دائماً أنه بين سائر إخوانه فى « الرابطة القلمية » أكثرهم نظماً ، وأطولهم فى شعره نفساً ، وأكثرهم استعمالاً للقافية الواحدة ، وأوفرهم نظماً للمطولات الشعرية ؛ فله منها ثلاث مشهورات ، هى الطلاسم (٢٨٤ بيتاً) ، الأسطورة الأزلية (كانت فى الأصل ١٤٢ بيتاً ، ولكنها فى الخمائل ١٣٧ بيتاً فقط) ؛ والشاعر والسلطان الجائر (٧٩ بيتاً) . وهو فى كل هذا موفق ومجيد إلى أبعد الحدود .

ويحتوى ديوان « الخمائل » على سبع وخمسين قصيدة (منها المطولتان المشهورتان : الأسطورة الأزلية ، والشاعر والسلطان الجائر) ومن أجود قصائده التى تجرى مع قصائد « الجداول » — إضافة إلى هاتين المطولتين — نذكر : « الدمعة الخرساء ، الفيلسوف المجنح ، أمنية آلهة ، وقائلة ، الفراشة المحتضرة ، ابتسم ، كتابى ، كن بلسماً ، تأملات ، شاعر الشهور ، الشاعر فى السماء ، كلوا واشربوا ، ابسمى ، بين مد وجزر » .

وهنا فى « الخمائل » ، كما فى « الجداول » ، تتلخص مميزات أبى ماضى

الشعرية فى شعوره الإنسانى ، وعمق إحساسه بالطبيعة ، وتفاؤله ، وحبه للحياة ، وشعره الاجتماعى ، وفى الحيوية الشعرية .

والذى يعرف مدى هذه الخصائص فى شعر أبى ماضى ، وغناه بها ، يعرف أن أبا ماضى هو خير مثال للشاعر الحق بكل معانيه ، فهو شاعر فى روحه : فى أفكاوه وعواطفه وخيالاته ؛ وشاعر فى أسلوبه : فى ألفاظه وتعابيره وصوره . أقول هذا وأنا أفهم أن الشاعر الحق هو رسول يعلم الحياة ، وتظهر فى شعره صور الحياة والمجتمع الإنسانى زاخرة بالعواطف ، جياشة بالحيوية ، دافقة بالجمال والرؤى الساحرة ؛ وأن الشاعر الحق هو رسالة الحياة الكبرى ، يقرأه الناس على اختلاف مشاربهم وأذواقهم وطبقاتهم ، وعلى تباعد أوطانهم وأقوامهم ، ويشعر كل منهم بأنه يرى فيه صورة نفسه ، وصورة عواطفه ، وتعبيراً عن آماله ونوازعه .

وأول ما تهمّنا الإشارة إليه فى هذه الإلمامة هو أن أبا ماضى يسير فى شعره ضمن حدود وأهداف تنبع من المجتمع ، وتستمد قوتها وعمقها وروعتها من إخلاص صاحبها فى خدمته ، ومن حياة اجتماعية مثالية يدعو إليها جاهداً ، ثم من اتصال شديد بالطبيعة ، بحيث يتخذ أمثلته وإلهامه من مائها وسمائها ، من حيوانها وطيرها ، ومن نباتها وجمادها ، أو بكلمة أخرى : من روحها المعبر .

ويصطبغ شعره بالصبغة الفلسفية ، الاجتماعية والروحية معاً ، فهو إنسانى مثالى ، يحب البشر ، ويحب الحياة ، ويستهدف سعادة المجتمع ، ويريد تحبيب الحياة إلى الأحياء ، ويدعوهم إلى تنقية العمر من الأشواك والأدران .

وأما أسلوبه الشعرى فهو مشرق ومُغرٍ كروحه الشاعرة ، نقرأه فنشعر بأننا فى حاجة إلى أن ننفض عن أنفسنا غبار الآلام والشقاء والتشاؤم ، لنستقبل الحياة بثغور مشرقة ، نشيطة ، وأرجل متحفزة للانطلاق فى ميدان السعادات مع فراشات الربيع ، وغزلان القفار ، وبحناجر مستعدة للغناء المرح مع ضفادع الغدران ، وطيور السماء ، وجنادب الحقول .

والذى يزود شعر أبى ماضى بعناصر الحيوية والتأثير هذه ، هو أن شعره

ينبع من قلبه ، وأنه يعبر عن عاطفة أو فكرة يشعر بها كل إنسان ، أو على الأقل القسم الأكبر من بنى الإنسان ، ولأن كل قارئ يجد فى قصائده صدى لما يشعر هو به ، أو يتألم منه ، أو يتمناه .

ولعل أبرز ما يحبب شعر أبى ماضى إلى النفوس ثلاث نواح منه ، الأولى : ناحيته الإنسانية ، والثانية : دعوته إلى محبة الحياة ، والثالثة : استلهامه الطبيعة فى كل شعره ، مما يلون شعره بأجمل الألوان وأصفاها ، ويرسم فيه أبرع الصور وأنقاها . يضاف إلى هذا ما يتمتع به الشاعر من القدرة الفائقة على التلاعب بالعواطف فى سائر شعره الباقى ، كشعر الحنين ، والوطنية ، والشعر التأملى ، وبقية الفنون الشعرية الأخرى .

٤ – ميخائيل نعيمه
من الرابطة القلمية

فى السابع عشر من شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٨٨٩ ، رأى ميخائيل نعيمه نور الحياة فى قرية بسكنتا اللبنانية الصغيرة ، التى يتوّجها صنين بصخوره وثلوجه ، وينساب وادى الجماجم من تحت قدميها هامساً خاشعاً . وكان الابن الثالث لأبويه بين خمسة إخوة وأخت واحدة . وكان والداه أمّيين – كأغلب سكان الشرق العربى فى ذلك الحين – وكان فى القرية مدرسة طائفية ، فأرسلاه إليها وهو بين الخامسة والسادسة من عمره ، إذ كان أبعد ما تطمح إليه والدته – كما يقول هو فى كتابه « صوت العالم » – أن ترى فى بيتها كتباً ودفاتر وأقلاماً ومحابر . وما كاد ينهى دراسته فى المدرسة الطائفية حتى كانت الجمعية الإمبراطورية الروسية الفلسطينية قد أنشأت مدرسة لها فى بسكنتا ، وكانت مدرسة ابتدائية مجانية منظمة أحسن تنظيم – كما يقول – فانتقل ميخائيل إليها ، وكان حينذاك بين السادسة والسابعة من عمره[١].

---

(١) كتب نعيمه سيرة حياته كاملة فى ثلاثة أجزاء بعنوان (سبعون) .

وفى هذه المدرسة يقول نعيمه : « وهذه المدرسة كان لها أبعد الأثر فى توجيه دراستى ، وبالتالى كل حياتى » . وكان أقصى ما يطمح إليه أن يتخرج منها « وله الأهلية لأن يدرّس الصفوف السفلى فى مدرسة مثلها ، وبراتب لا يتجاوز فى تلك الأيام عشرين فرنكاً فرنسيًّا » . ولكنه حين أنهى دراسته فيها بعد خمس سنوات وكان بين المبرزين من طلابها ، انتدب لمتابعة دروسه فى « دار المعلمين الروسية » فى الناصرة ، فلسطين – وكانت هذه أيضاً مجانية حتى فى لباس طلابها ، ومنظمة أفضل تنظيم ، ومدة الدراسة فيها ست سنوات ، وغايتها إعداد مديرين للمدارس الروسية الابتدائية – وكان عـــددها أكثر من خمسين مدرسة فى فلسطين وسوريا ولبنـــان .

إلا أن نعيمه لم يتم السنوات الست فى هذه المدرسة ، فما كاد يتم السنة الرابعة فيها حتى انتدبته رئاسة المدرسة لمتابعة دراسته فى روسيا على نفقة الجمعية الإمبراطورية . وهكذا غادر مدرسة الناصرة عام ١٩٠٦ ، وهو بين السادسة عشرة والسابعة عشرة من عمره ، إلى « السمنار اللاهوتى » فى بلتافا – فى أوكرانيا . وكان يحق لمن يتخرج من السمنار أن يختار الالتحاق بإحدى الأكاديميات الدينية ، أو يصبح كاهناً ، أو يسير فى أى سبيل يختاره للعيش .

وحين أكمل السنة الرابعة فى السمنار قرر أن يعود إلى لبنان ، ومنه إلى باريس ، ليلتحق بجامعة السوربون لدراسة المحاماة . وفى لبنان التقى بأخيه الأكبر أديب ، الذى عاد حينذاك من أميركا لزيارة أهله . فأقنعه أخوه بمرافقته إلى أميركا . وفى عام ١٩١١ وصل ميخائيل إلى مدينة « والا والا » من ولاية واشنطن فى الولايات المتحدة وفى عام ١٩١٢ دخل جامعة واشنطن لدراسة الحقوق فيها والآداب وظل فيها أربع سنوات حتى نال شهادة الحقوق وشهادة الآداب عام ١٩١٦ . ولكنه لم يمارس مهنة المحاماة قـط ، فقد كان الميل الأدبى ينمو معه فى جميع مراحل دراسته منذ مدرسة الناصرة . وما اختار دراسة الحقوق إلا لما بين المحاماة والخطابة والكتابة من صلات قوية .

كان ميخائيل بعد ذلك يرغب فى العودة إلى لبنان لممارسة المحاماة فيه ، ولكن الحرب العالمية التى كان قد مضى على اشتعالها سنتان كانت تسد عليه طريق

العودة ، فلم يجد بدًّا من البقاء فى أميركا . ولم يلبث أن أصبح فى شهر أيار (مايو) من عام ١٩١٨ جنديًّا فى الجيش الأميركى ، مسوقاً بنظام الجندية الإجبارى ، على الرغم من كراهيته للحرب وحمل السلاح . وأرسل بعد ذلك إلى جبهة القتال فى فرنسا ، فقضى هنالك السنة الأخيرة من سنى الحرب ، ومنها تسعة أيام فى خطوط النار .

وفى عام ١٩١٩ عاد من الحرب ، وسُرِّح من الجندية ، وراح يعمل مستخدماً فى محل تجارى . وفى هذه الآونة انعقدت الصلة بينه وبين جبران ، ونسيب عريضة ، وأبى ماضى ، ورفاقهم من الأدباء الذين تألفت منهم بعد ذلك « الرابطة القلمية » ، وانتخب ميخائيل نعيمه مستشاراً لها . وعاشت الرابطة بأعضائها العشرة من عام ١٩٢٠ إلى عام ١٩٣١ ؛ وفى ذلك العام توفى عميدها جبران ، وفى العام التالى . – ١٩٣٢ – عاد نعيمه إلى لبنان ، واستقر فى قريته بسكنتا ، ولا يزال هناك إلى اليوم[1] . وأخذت الرابطة القلمية تنفرط شيئاً فشيئاً ، فلم يبق من أعضائها إلى اليوم سوى نعيمه وحده – مدّ الله فى عمره – وقد شارف الثمانين .

* * *

وعلى الرغم من أن نعيمه كان من أبرز أعضاء الرابطة القلمية ، ومن أعظمهم ذكاء ، وأكثرهم نشاطاً ، وأرسخهم أدباً ، إلا أنه خلال السنوات الإحدى والعشرين التى قضاها فى المهجر لم يؤلف من الكتب سوى اثنين هما : « رواية مسرحية بعنوان « الآباء والبنون » ، وكتابه النقدى « الغربال » . والكتاب الأول طبع فى مطبعة « شركة الفنون » فى نيويورك عام ١٩١٧ ، وهو يشتمل على رواية تمثيلية ذات أربعة فصول ، جعل لها مقدمة تشرح رأيه فى المسرحية ، وطريقة حوارها .

أما الكتاب الثانى فقد طبع فى مصر عام ١٩٢٣ ، وكتب مقدمته الأديب المصرى عباس محمود العقاد – وكان من أكبر دعاة التجديد إذ ذاك – وقد قال فى تلك المقدمة : « شعرت وأنا أتابع قراءة هذه الصفحات بما تشعر به القافلة المنبتّة فى المفازة السحيقة ، إذا ارتفعت لها قافلة أخرى تنشد الغاية التى خرجت تنشدها ، وأوشكت أن ترتدّ عنها يائسة . . . وأ كاد أقول إنه لو لم يكتب قلم النعيمى

---

(١) استقت هذه الترجمة لحياة نعيمه من كتبه : (النور والديجور) ،و(صوت العالم) و (سبعون)

هذه الآراء التى تتمثل للقارئ فى هذه الصفحات ، لوجب أن أكتبها أنا . فأما وقد كتبها وحمل عبأها ، فقد وجب على الأقل أن أكتب مقدمتها . . . وسيشهد الخالون من الغرض أنه – أى نعيمه – عمل فى تصحيح كثير من مقاييس الأدب ، فأفاد وأفلح ؛ ومن صحح مقياساً للأدب فقد صحح مقياساً للحياة ، وخليق بتصحيح مقاييس الحياة أن يكون أمل أمة لا أمل أديب أو طائفة من الأدباء » .

وبعد أن يتحدث العقاد على الحرية التى يعيشها أدباء المهجر ، والتى « فكّت عن قرائحهم قيود التقليد ، وأخرجتهم من مآزق الأوزان المعهودة والقافية العتيقة ، وأفهمتهم حقيقة الأدب فافتنّوا فى الشعر ، وابتدعوا فى أوزان النظم ، وساروا بالأدب على نهج الحياة والتقدم » يختم مقدمته بقوله : « إن بين أيدينا الآن لهدية من أنفس هدايا تلك الحرية المباركة ، وروحاً من الحياة تهبّ على مقاييسنا الآلية البالية ؛ فلنفهمها مخلصين ، ولنتقبّلها شاكرين معجبين » .

* * *

على أنه إذا لم يؤلف نعيمه فى مهجره من الكتب سوى هذين الكتابين ، فقد كان نشاطه فى كتابة المقالات والأقاصيص ، وفى نظم الشعر ، وافراً غزيراً ؛ وقد تجمع لديه من ذلك ما يكفى لبعض المؤلفات الأخرى ، وقد نُشرت هذه المؤلفات الأخرى بعد عودة نعيمه إلى الشرق ، وهى : « همس الجفون ، شعراً – وكان ما كان ، مجموعة أقاصيص – والمراحل ، مقالات – ومذكرات الأرقش ، قصة » وكلها أو أغلب مواضيعها من إنتاجه إبّان وجوده فى الرابطة القلمية فى أميركا .

أما مؤلفاته الأخرى كلها فهى مما أنتجه فى لبنان ، ولكنها من الرصيد النفسى الضخم الذى تغذّت به روحه وعقله ووجدانه فى المهجر ، ولم تفِض إلا بعد العودة من الهجرة .

ومؤلفاته هذه عديدة ، ونحن نذكر منها ما يلى :

« جبران خليل جبران – زاد المعاد – لقاء – الأوثان – البيادر – صوت العالم –

النور والديجور – كرم على درب – مرداد « بالإنكليزية والعربية » – دروب – فى مهب الريح – سبعون « ثلاثة أجزاء » .

على أنه مهما تعددت مؤلفات النعيمى فليست سوى أجزاء من روحه ووجدانه ؛ فبينهـا جميعاً رابط روحى واحد ، هو رابط الرسالة الروحية الأدبية التى يجتهد نعيمه فى أن يؤديها فى حياته إلى المجتمع الإنسانى ؛ فكأن جميع هذه المؤلفات كتاب واحد لا كتب متعددة .

وليس من شك فى أن نعيمه كان بين أعضاء الرابطة القلمية أصفاهم بياناً ، وأروعهم عبارة ، وأقدرهم على إدراك اللفظة والعبارة المناسبتين للمعنى الذى يريده ؛ وكذلك كان أجودهم ملكة فى النقد الأدبى ، وأقربهم بياناً إلى نفوس القراء ، وإن يكن جبران أستاذهم والمؤثر الأكبر فيهم ، وأبعدهم شهرة فى المجالات الأدبية العالمية . والعقيدة التى تصدر عنها كتابات نعيمه هى عينها العقيدة التى عرفناها فى مؤلفات جبران ، وعلى الأخص فى كتابه « النبى » .

ذلك هو نعيمه كما عرفته ورافقته فى رحلتى الطويلة مع مؤلفاته العديدة فى آفاق الإنسانية ، وأجواء الوجود اللانهائى ، وكما تكونت صورته فى نفسى من تلك الرحلة الجميلة ، والصحبة الطويلة . ولقد رسخت هذه الصورة فى نفسى بعد أن استمعت إلى نعيمه أكثر من مرة يخطب فى الناس بنبراته القوية التى يسكب فيها كل حرارة إيمانه ، وكل قوة روحه ، فرأيت فى عينيه صفاء السماء ، وهدوء النسيم ، وعمق البحر ، وفى جبهته العريضة ميادين فسيحة للتأملات العميقة التى تتولد منها حكمة الأجيال ، وفى وجهه صوفية مؤمنة راضية هادئة .

إن نعيمه إنسان عمقت صلته بالحياة ، وكثر تأمله فى أسرارها وخفاياها ، وفى قوى الطبيعة وعناصرها . والطبيعة هى ملهمته فنه وفلسفته : جمالها وتناسقها ألهماه فنه الجميل المتناسق ، وحكمتها وعمقها ألهماه فلسفته الإنسانية الرحيمة . وفى استلهامها والحديث عنها يشترك خياله وحسه ، بصره وبصيرته ، عقله وقلبه ، وكل جارحة من جوارحه .

وتأملاته الطويلة فى الحياة والطبيعة هدته إلى أن يهتم بالروح قبل الجسد ،

وبالخالد قبل الفانى ؛ فوجّه إلى هذه الناحية كل عنايته ، وركز فيها خلاصة أدبه ، وخلاصة عقيدته وإيمانه المطلق .

والذى يبحث عن خلاصة عقيدة نعيمه يجدها فى كتابه « زاد المعاد » ؛ فهذا الكتاب هو – فى رأيى – دستور الفلسفة النعيمية الإنسانية ، وكل ما عداه من كتبه – عدا «الغربال – وجبران – والآباء والبنون » ليست سوى شروح وهوامش ، ولكنهـــا فى الوقت نفسه لوحات روائع من فنه ، وصور بديعة من أدبه وشعره .

تتلخص فلسفة نعيمه فى كلمتين : « وحدة الوجود » ، وهذه تتلخص فى أنها تعنى الفناء المطلق فى الله ، والفناء المطلق فى الإنسان ، والفناء المطلق فى الطبيعة ؛ وبكلمة أخرى فناء كل شىء فى كل شىء ؛ والفنــاء هو أقصى درجات المحبة . وإذا كنا نقول : الله ، والإنسان ، والطبيعة ، فهذه كلها تعنى شيئاً واحداً ، هو الحقيقة الكبرى ، أو الوجود الأعظم . وهى مترادفات لمعنى واحد فقط ، تختلف الألفاظ الدالة عليه ، بينما يبقى المدلول واحداً .

وعن هذه النقطة الرئيسية تتفرع سائر آراء نعيمه وفلسفته التناسخية ، والإنسانية ، والإلهية ، والطبيعية ؛ فما دام الوجود كله واحداً غير منفصل فليس هنـــاك إله وإنسان ؛ فالله هو نحن ، ونحن الله ، لأننا منه الجسد ، وهو فينا الروح . فنحن حين نعبده إنما نعبد خير ما فينا وأبقاه . وفى هذا يقول نعيمه :

« كما أن فى بذرة الأرز الصغيرة تنطوى كل أسرار الأرزة الكبيرة التى ولدتها ، هكذا انطوت فيكم كل أمجاد القدرة التى بعثتكم من اللاوجود إلى الوجود . . . فأنتم سرمديون كالقدرة التى من رحمها انبثقتم ، وفيكم كل أسرارها » (زاد المعاد ص ٨) . ويقول أيضاً : « إن الله الذى هو أنت وأنا وكل إنسان سيقيم له من سلالة آدم أنبياء » (ص ١١٢) .

وليس هناك « أنا » و « أنت » و « هو » ؛ فأنا كل إنسان ، وكل إنسان هو أنا . فإذا أحببت إنساناً أحببت نفسى ، وإذا أسأت إلى إنسان أسأت إلى نفسى .

« إن الوهم الذى تتفرع منه كل أوهام الإنسان ، هو اعتقاده أن له ذاتاً

منفصلة عن كل ذات ، وحياة مستقلة عن كل حياة . لو سأل الإنسان نفسه يوماً : من أنا ؟ لما تمكن من إقامة حد بينه وبين شيء . . . فإذا ما أكلتم ثمرة فكأنكم أدخلتم إلى جوفكم الحياة بأسرها ، لأن كل ما فى الحياة قد تعاون فى تكوين تلك الثمرة . . . وإذا ما صافحتم إنساناً فكأنكم صافحتم كل إنسان ، من آدم حتى آخر آدمى يمشى على سطح هذه الأرض ، لأن كل إنسان يحمل فى نفسه كل الناس » (ص ٥٣) .

وليس هناك زمان ولا مكان ، ولا قبلُ ولا بعد ، وإنما فى كل لحظة تتجمع كل الآزال والآباد ، وفى كل بقعة من الأرض تتجمع الأرض كلها ، كما تجتمع مياه البحار كلها فى القطرة الواحدة من الماء . يقول نعيمه :

« والخيال الذى يطوى كل الزمان فى « الآن » ويحشر كل المكان فى « هنا » لا يبصر شيئاً من هذا التفاوت » (ص ١٥) ، ويقول أيضاً : « وكل الأعداء إنما هى الآن هاجعة فى حضن هذا اليوم » (ص ١٣) .

وليس هناك حياة أو موت ؛ فالحياة هى بنت الموت ، والموت هو أبو الحياة ، وكلاهما حياة لا فناء لها . ولا بدّ من فناء التراب فينا لولادة حيوات جديدة متعددة ؛ فالذى ندعوه بالموت هو فى الواقع امتداد للحياة ، وانفساح فى أطرافها ، إذ منه تتولد الحيوات الكثيرة ؛ وأما الذى اصطلحنا أن ندعوه بالحياة فهو الموت فى أقرب معانيه ، لأنه ليس فيه خلق وامتداد وتنويع ، بل جمود على حياة واحدة ، كالبزرة تبقى بزرة فقط وهى وحدها فى الحياة ؛ فإذا ماتت ودفنت فى الأرض وَلَدت للحياة فروعاً وأوراقاً وزهراً وأثماراً . وفى ذلك يقول نعيمه :

« الخيال يعلمكم أن الأموات لم يموتوا ، فها هى أشواقهم وأحلامهم ، وأفراحهم وأتراحهم ، ولعناتهم وبركاتهم ، لا تزال منبثة فى الهواء الذى تتنفسون ، وفى محيط الرغائب والأفكار الذى منه تستمدون رغائبكم وأفكاركم ؛ والخيال يعلمكم أن الذين لم يولدوا هم الآن معكم وبينكم » (ص ١٣) . ويقول أيضاً :

« عندى أن من ينوح على ميت إنما ينوح على الله . ومتى كان الله فى حاجة إلى نوحى ونوحكم ؟ أوليس الله حيًّا من الأزل وإلى الأبد ؟ إذن كل ما ينبثق منه يحيا بحياته ، مهما تبدلت أحواله ، وكيفما تغيرت أشكاله . والذى يقول

إن الأموات قد بادوا واندثروا ، إنما يقول إن الله الذى كان وما يزال حيًّا فيهم قد باد واندثر . . . والذى يبصر فى الموت نهاية الحياة ، إنما هو ضرير لا يبصر الحياة ولا الموت » (ص ٧٠) .

وتبعاً لهذا فالذى ندعوه نحن ثواباً وعقاباً إنما هو سريان لأحكام القدرة الأزلية الموضوعة منذ أن تحرك النور فى قلب الوجود بأولى خفقاته . وإليك ما يقوله نعيمه فى هذا :

« لقد نفختُ مع الناس فى البوق الذى يمجدون به ربًّا يحيى ويميت ، ويعاقب ويثيب ؛ واليوم أنفخ فى بوق رب فوق الحياة والموت ، وأرفع من العقاب والثواب ، إذ قد وجدت أن القدرة التى ندعوها « الله » هى الكل فى الكل ، لا حالات فيها ولا صفات لها ، ولا حقيقة إلا ها ، ولا وجود لشىء إلا فيها . فإن هى أماتتنى فكأنها تميت ذاتها ، لأننى منها وفيها ، وهل يمحو الله ذاته بذاته ؟ وإن هى عاقبتنى فكأنها تعاقب ذاتها ، وتقتص من ذاتها لذاتها ؛ وهل يذنب الله إلى الله ؟ ! إن البحر لا يميت قطرة من الماء عندما يستردها من جوف صهريج فى الصحراء إلى جوفه ، إنما تميت القطـرة ذاتها إن هى توهمت أن الحياة كل الحياة فى جوف الصهريج ، ونسيت أنها أبداً فى حوزة البحر حيثما انطلقت ، وأنّى استقرت . والبحر لا يعاقب قطرة من الندى إن هو انتشلها من بين أجفان زهرة على رأس جبل ، وأنزلها على ذؤابة قرطبّة فى قعر واد ، وإنمـــا تعاقب قطرة الندى نفسها إن هى توهمت أجفان الزهرة خيراً من ذؤابة القرطبّة » ، (ص ١٨ ، ١٩) .

ثم ليس هناك امتلاك وحرمان ، فالدنيا كلها لنا ببحارها وجبالها ، بنباتها وحيوانها ، بأرضها وسمائها ، بشمسها وقمرها ، وبكل ما فيها من قوى .

يقول نعيمه : « الطبيعة جسد واحد يحيا بروح واحد ، وأنا ما سمعتها يوماً تقول : هذا لى ، وهذا ليس لى ، بل كل ما فيها لها ، وهى لكل ما فيها ، فلا مالك ولا مملوك » (ص ٩٢) . ثم يقول أيضاً : « أوَ لم تعطك الحياة السماء وكل ما فيها ، واليابسة وكل ما عليها ، والبحار وكل ما فى أحشائها ؟ أم أنت لا تحسب شيئاً ملكك إلا إذا استقر فى جيبك ، أو ضمن جدران بيتك . أو خلف أقفال خزانتك

الحديدية ، أو كان فى يدك صك مسجل فى محكمة من محاكم الناس يشهد لك بالملكية ؟ إذن ضع البحر فى جيبك ، والشمس والقمر والنجوم فى بيتك ، واحبس الهواء فى خزانتك الحديدية ، واحصل على صك بشذا الأزهار وأغاريد الأطيار . وأنت قد قصّرت فى ذلك فما اللوم على الحياة التى أعطتك ، بل على يدك التى لا تسع العطيّة ولا تعرف كيف تتناولها . ولو أنك تناولتها بروحك لما كنت فى حاجة إلى صكوك وخزائن من حديد » (ص ٧٢)

وكذلك ليس هناك قوة ولا ضعف ، فليس الإنسان أقوى من الحيوان ، ولا البعوضة أضعف من الأسد ، ولا الباشق أقوى من الحسون ، ولا الزهرة أضعف من الشجرة . فالإنسان القوى الذى يزعم لنفسه التسلّط والتغلّب على سائر المخلوقات ، لا يلبث حتى يصبح طعاماً للدودة والغراب والوحش ، والأسد لا يلبث أن يصبح فريسة للذئب والثعلب والنسر ، وفى قوة القوىّ ضعف ، وفى ضعف الضعيف قوة لا يدرك مداهما إلا من يرى بخياله حقائق الوجود الأصلية الدقيقة . وكلاهما – القوى والضعيف – متساويان قوة وضعفاً أمام مشيئة الحياة الكبرى ، وعناصر الطبيعة العظمى :

« والطبيعة – كما يقول نعيمه – ما جعلت الضعيف طعاماً للقوى إلا جعلت القوى طعاماً للضعيف ؛ فلا ضعف فيها ولا قوة ، ولا محاباة ولا تمييز . وهى تستخدم كل قواها لتخلق البرغشة وتحييها ، ولا تستخدم أكثر من قواها لتخلق العصفور وتحييه » (ص ٩٢ و ٩٣) .

وليس هناك زيادة ولا نقصان ، فكل ما فى الوجود بالغ منتهى الكمال ، لأن الذى أبدعه هو الله الكامل ؛ وهل فى وسع الكامل أن يخلق شيئاً ناقصاً ؟ فالمخلوقات كلها كاملة بكمال مبدعها ، وباقية ببقائه . وفى هذا يقول نعيمة :

« عندما تقيمون من أنفسكم مصلحين لأنفسكم ، تشهدون بذلك أن العالم الذى هو صنع الإله الكامل كامل ، وأنكم إمّا أبصرتموه ناقصاً فى جهة من جهاته ،

---

(١) من المؤسف أن نعيمه قد ناقض نفسه بنفسه أخيراً ، فأقام القيامة فى الصحافة اللبنانية عام ١٩٧٥ لأن الحكومة اللبنانية طالبته بدفع ما عليه من ضريبة متأخرة عن دخله لسنوات متعددة . لقد أثبت أنه يريد أن يأخذ فقط . دون أن يعطى . وأن يكتنز المال دون أن يدفع « مالله لله وما لقيصر لقيصر » . . .

أو معوجًا فى حالة من حالاته ، فلنقص فى معارفكم ، ولحسور فى أبصاركم . . .
لكنكم حالما تقيمون أنفسكم مصلحين للعالم تشهدون بأن العالم ناقص وأنكم كاملون .
ومعنى تلك الشهادة أن الله الذى هو مصدر العالم ومصدركم ناقص . . لكننى
أحذركم من الانخداع بأنكم تصلحون الكون أو بعض الكون فيما تفعلون ،
فالكون كامل للكاملين » (ص ٨٢ و ٨٦) .

وليس هناك سيادة وخضوع ، بل بالعكس ، هناك تمازج وتتميم لمشيئة الطبيعة
الكبرى ، التى لكل شىء فيها شركة فى كل شىء ، فلا تميز بين شىء وآخر ،
ولا تفضل شيئاً على سواه ، وإنما تسخّر الكل لخدمة الكل ، وتسيّر الجميع لخدمة
أهداف الحياة الشاملة ومقاصد الكون عامة .

يقول نعيمه : « لا تركنوا إلى ما ورثتموه واكتسبتموه من أوهام الناس وخرافاتهم ،
القائلة بأن الإنسان سيد الطبيعة ، فلو كان الإنسان كذلك لكان كل ما فى
الطبيعة رهن إرادته ، وطوع بنانه . وها هو : تدفئه الشمس ، وتحرقه ، ويرويه
البحر ، ويغرقه ، ويغذيه التراب ، ويأكله . ها هو : تحاربه البرغشة فى فراشه ،
وتسابقه النملة إلى بيدره ، والفأرة إلى معجنه ، والمكروبات التى لا تبصر تفتك
فيه ليل نهار . إذن ليس الإنسان بالسيد الذى يتوهم . إن هو فى الطبيعة إلا
شريك مُساو لكل ما فى الطبيعة ، يأخذ على قدر ما يعطى ويعطى على قدر
ما يأخذ » (ص ٧٨) .

وليس هناك شرف ولا حقارة ، فالله نفسه موجود فى كل ما خلقه ، وكل ما خلقه
موجود فيه ، فهل يمكن لمعدن الشرف أن يكون حقيراً ؟ أو هل يمكن له أن يخلق
شيئاً حقيراً ، وهو يخلق ذاته فى كل ما يخلقه ؟

ونعيمه يقول فى هذا الموضوع : « إن أصغر ما فى الحياة يتمم أكبر ما فيها ،
وإن أكبر ما فيها يخدم أصغر ما فيها . . . فلا الجبل أثقل من ذرة الرمل ، ولا الثور
أعظم من الضفدع ، ولا الثمرة أثمن من الحطبة ، ولا الزهرة أقدس وأجمل من
الشوكة » (ص ٢٢) .

* * *

وهكذا نرى أن الوجود – عند نعيمه ، كما هو عند جبران كذلك – كله

وحدة متماسكة ، مترابطة الأطراف ، لا انفصال لها ، ولا تجزئة ، ولا حدود : وحدة تبدأ بالله وتنتهى بالله . فكل جزء فى الوجود إنما هو تتمة وامتداد لكل جزء آخر ، لكى يتألف من مجموعة تلك الأجزاء ، الحقيقة الكبرى التى ندعوها : الوجود ، أو الحياة ، أو الطبيعة ، وبالتالى ندعوها « الله » الأزلى الأبدى الغير المحدود . فالله هو الوجود ، والوجود هو الله ، وأما ما نعرفه من فروق فى حياة الوجود ، فإنما هو من خلق أوهامنا العاجزة عن الوصول إلى الحقيقة .

هذه هى بالاختصار حقائق الحياة التى ترتكز عليها فلسفة نعيمه « وحدة الوجود » أو « وحدة الإنسانية » ، التى يشرك فيها الإنسان بألوهية الخالق ، كما يجعل له شركة فى كل ما فى الوجود ، ويجعل فيه شركة لكل ما فى الوجود ، وهذه الشركة التى يؤمن ميخائيل بوجودها بين كل أجزاء المخلوقات ، هى التى يبشر بإنجيلها ، وينادى بمبادئها فى كل ما يكتب وما يقول . ومن هنا جاء أدبه الإنسانى الصافى ، القريب إلى كل قلب لسموه وجماله . فنحن نشعر بتجاوب عميق بين نفوسنا ونفسه حينما نقرأ قوله :

« إذا ما نسجتم كساء لإنسان ، فحذار من أن تنسجوا فيه خيطاً واحداً من بغضائكم ، لأنه ، وإن تستر به بدن غير أبدانكم ، سيخدش ظهوركم . وإذا ما خبزتم رغيفاً ليباع فى السوق ، فحذار من أن تخبزوا فيه ذرة واحدة من حسدكم ، لأنه ، وإن مضغته أسنان غير أسنانكم ، سيكون غصّة مُرة فى حلاقيمكم ، وإذا ما حملتم الأثير فكراً من أفكاركم ، فحذار من أن تكون فيه لعنة ، لأنها وإن ولجت آذاناً غير آذانكم ، ستكون وباء لأحلامكم » (ص ١٤) .

وكذلك نشعر بخشوع ورهبة عميقين حينما نسمعه يهتف بنا قائلا : « إن شئتم الخلاص من الألم ، فعليكم أن تحبوا ذواتكم . غير أنكم إن أحببتم كل ما فى الكون إلا دودة واحدة ، فإنكم ما برحتم تكرهون ذواتكم بقدر كرهكم لتلك الدودة ، وسيبقى لكم فى كرهكم ينبوع ألم ، ولن ينضب هذا الينبوع حتى ينضب كرهكم » (ص ٥٦) .

أو حينما يقول أيضاً : « ألا وسّعوا أبواب روحكم كيلا يظل أحد خارجاً ؛ فإن رأيتم أعمى وكنتم مبصرين ، فاعلموا أنكم عميان مثله ما لم تعيروه من بصركم بصراً ،

فما زالت طريقه مظلمة ، فطريقكم مظلمة ، لأن طريقه وطريقكم واحدة . . . وإذا مررتم بأبرص وكنتم طاهرين ، فاعلموا أنكم برص مثله إذا أملتم وجهكم عنه ؛ أما إذا نقيتموه بطهركم ، فكأنكم نقيتم أنفسكم من برص خفي . لا تبغضوا الشرير ، وأبغضوا الشر ، لأنكم إن أبغضتم الشرير أصبحتم أشراراً مثله ، أما إذا أبغضتم الشر فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير » (ص ٤٨) .

فهذه النفحات الإنسانية – ومثلها كثير جداً عند نعيمه وعند زميله جبران خاصة – تهبّ برداً وسلاماً على النفوس ، فترتفع بها إلى أسمى درجات الصفاء والنبل فى الحياة ؛ وقد استمدها ميخائيل نعيمه – كما استمدها جبران من قبل – من « وحدة الوجود » التى جعلها محور فلسفته ، واتخذها عقيدة له وديناً يبشر بهما ، ويدافع عنهما بكل ما فيه من حرارة وقوة ، وبكل ما وهب من فن وإبداع .

ولكن كيف نستطيع نحن أن ندرك الحقائق الكبيرة العديدة التى تنبنى عليها « وحدة الوجود » هذه ، وما يتفرّع عنها من حقائق ومبادئ ، كالتى رأيناها فيما تقدم ؟ أبالعقل ؟ ونعيمه يحذرنا من أن نلقى عليه كل اتكالنا ، ويقول إنه : « ليس سوى ولد جموح يقوده الخيال من أنفه ، ولكن قلما يمشى به بعيداً . . . أوَما ترونه يجهد ذاته بغير انقطاع وبغير جدوى ، فى تفهّم أسرار الكون ، وهو ما يزال فى جهده كالولد الذى أعطيتموه أكداساً من الوريقات الملونة ، وأمرتموه أن يركّب منها صورة حيوان أو إنسان ؟ . . . وحتى اليوم لم تستقم له صورة كاملة ، لا لحيوان ولا لإنسان » (ص ٩ و ١٠) .

أم ترانا ندرك تلك الحقائق بالحواس التى ينبنى عليها التعلم ؟ ونعيمه يحذرنا أيضاً من الاعتماد على العلم وعلى الحواس ، فيقول : « لا تركنوا إلى العلم وحده ، لأنه لا يَعلم ؛ وهو لا يعلم لأنه يركن فى دروسه إلى الحواس التى مهما اتسع نطاقها ، لا يسع الكون » (ص ٧٧) .

كلا فإن العقل والحواس وحدها لا تستطيع أن تهدينا إلى إدراك حقائق الوجود الكبرى ، التى تتشابك جذورها وفروعها ، وإن ظهرت جذوعها متباعدة ؛ « الخيال هو مقدرتكم أن تبصروا وأجفانكم مغمضة ، وتستمعوا وآذانكم مسدودة

وتشموا وفى أنوفكم سطام ، وتذوقوا وألسنتكم فى غلاف ، وتلمسوا وأيديكم مشلولة . هو مقدرتكم أن تدركوا حدود الحواس الخارجية فتجعلوا منها عبّارة تجتازون بواسطتها إلى حيث لا حدود . . . الخيال هو الدليل الأوحد إلى الحقيقة . كل ما تتخيلونه كائن ، وكل ما لا تتخيلونه لا كيان له » (ص ٩) .

هذا جميل ولكن كيف يتسنى للعقليين والذين ضعف فيهم الخيال أن يدركوا كل ذلك ليؤمنوا بهذه الوحدة التى هى الزمان والمكان ، والله والإنسان ، والنور ، والظلام ، وكل ما فى الوجود من مخلوقات ، وهم يرون أن كل ما تقع عليه حواسهم متباعد ، متنافر ، مختلف عن سواه ؟

لهؤلاء يقول نعيمه : « إن الذين خيالهم ما يزال فى اللفائف ، لا بأس عليهم لو هم أرضعوه من ثدى العقل . سيكبر الطفل ويشتد ، وينتهى بأن يحمل أمه يوماً ما على ظهره إلى المقبرة . والذى لا عكاز له يتوكأ عليه غير عقله دعوه يتوكأ على عقله ، فخير له أن يكون أعرج من أن يكون كسيحاً » (ص ١٢) .

فنعيمه لا يرى فى العقل والحواس وحدها إلا شقاء للبشرية إذا هى ظلت ملقية إليها قيادها ، ولذلك نسمعه يقول : « ما دمتم معرضين عن الخيال ، ولا دليل لكم غير حواسكم الخارجية ، بقى العالم الذى تحيون فيه عالماً تتعاقب فيه اللذة والألم من غير أن يكون فى تعاقبهما وتوزيعهما ما يشبه العدل والمساواة » (ص ١٥) .

* * *

هذه هى خلاصة « وحدة الوجود » كما يراها نعيمه . أما عقيدة التقمص أو التناسخ فتبرز بأوضح صورها فى قصة لنعيمه بعنوان « لقاء » . غير أنه لا بد لنا من أن نذكر ههنا أن هاتين العقيدتين – القديمتين – نفسهما كان جبران أول أديب مهجرى اشتهر بإيمانه بهما فى كتاباته ، وقد ظهر أثرهما فى أدبه قبل أن نعرفه فى أدب نعيمه ، وانتقل تأثيره إلى أصدقائه ، فوجد عندهم تربة خصيبة لقبول مبادئه ، ولا سيما أنها مجبولة بمحبة الحياة ومحبة الإنسانية . فكان نعيمه ، بعد أن اتصل بجبران ، أقدر من حمل هذه العقيدة بإيمان يشبه إيمان جبران بها ، وهضمها فى أعماق روحه وضميره ، وخلع عليها من روائع فنه البيانى حتى أصبحت فيه

ميزة أصيلة يُعرَف بها ويتميز كما عُرف بها جبران وتميز .

على أن طريق نعيمه وطريق جبران قد اختلفتا اختلافاً بسيطاً ، فكان الذى يؤمن به نعيمه أنه « الله » يدعوه جبران « بالذات الخفية » أو « الذات الكبرى » أو « غير المحدود » ؛ وبينما صرف نعيمه كل همه إلى الروح وحدها ، وجه جبران عنايته إلى تقويم سنن الحياة الاجتماعية بأمثاله ، وقصائده النثرية ، وحكمه وأقاصيصه ، وإلى معالجتها علاجاً مفصلا بحسب حاجاتها ليبلغ بها إلى السعادة الكبرى . غير أن ما فى أسلوبه من خيال رمزى محلق جعله بعيداً عن مستوى إدراك الجماهير . أما الناحية الإنسانية فواحدة عند جبران ونعيمه ، ولذلك كثيراً ما نجدهما يعالجان الفكرة الواحدة ، والمعنى الواحد ، بتعابير تكاد تكون واحدة .

ونستطيع أن نقول إن كتاب « زاد المعاد » وكتاب (مرداء) لميخائيل نعيمه يقابله « النبى » عند جبران . فقد تعرضا لكثير من شؤون الحياة ، ومسائل الكون الأعظم التي تناولها « النبى » ، بمثل الروح التى تناولها به جبران ، وأحياناً بعبارات متقاربة جدًّا ، ولكن اختلفت الأساليب الفنية بين الاثنين . وفى الأسلوب الفنى تتركز أهم الخصائص الفنية والأدبية لجبران ونعيمه ، وتتميز شخصية كل منهما الأدبية . على أنهما وإن صدرا فى فلسفتهما عن روح واحدة ومبدأ واحد فلا شك أن لكل منهما أصالته وقوة شخصيته فى أدبه وفلسفته ، وأن كلا منهما مفخرة من مفاخر الأدب العربى ، ودعامة من أعظم دعائمه .

٥ — نسيب عريضة
من الرابطة القلمية

تمهيـــد :

فى ٢٥ آذار (مارس) عام ١٩٤٦ ، طارت عن الأرض روح شاعر ، وبعده بأيام فى أوائل نيسان (أبريل) خرج للوجود ديوان شعر . وفى هذا الديوان تجمعت أشواق ومزايا عالية من تلك الروح الطاهرة التى فاضت بعد أن قطعت

من عمر الحياة نحو تسعة وخمسين عاماً ، وهى تبحث جاهدة عن أسرار الحياة ، والوجود ، والنفس البشرية . ولعلها بالموت قد خلعت مع ثوب التّراب البالى ، حيرتها الطويلة ، واهتدت إلى الحق الكامل فى دنيا الكمال والحق الخالدين .

تلك الروح هى روح الشاعر المهجرى نسيب عريضة ، وذلك الديوان هو ديوانه « الأرواح الحائرة » ، الذى بقى حيًّا على الأرض بعد موت صاحبه ، وسيبقى حيًّا إلى أمد طويل ، ليحدّث الناس على تلك المزايا العالية التى كان يتّسم بها نسيب ، وذلك السموّ الروحى الذى كان يتحلى به ، وعلى نزوعه المستمر إلى معرفة الحقائق الكبرى المختفية وراء ضباب المجهول ، وخلف حدود الحواس المدركة ؛ لأن هذه المعرفة هى وحدها التى تستطيع أن تصل النفس البشرية بجوهرها الأسمى ومصدرها الأزلىّ ، لكى تشعر بأنها وكلّ ما فى الوجود من كائنات شيء واحد لا ينفصل ولا يتنابذ . وفى يقينى أن الأدب فى أسمى معانيه وأخلدها ليس سوى تعبير عن أشواق الروح للسموّ والكمال ، وعن انفساح القلوب للحب الأكبر الذى يشمل الوجود وكل ما فى الوجود .

فالمزِية الكبرى لنسيب عريضة هى « الحيرة الروحية » التى تتجلى فى شعره وتكاد تصبغ كل قصائده بطابعها القوى ، مما جعله شاعر الحيرة الأكبر بين زملائه المهجريين ، وسائر شعراء العرب – وربما شعراء العالم أيضاً – والتى أوحت إليه تسمية ديوانه باسم « الأرواح الحائرة » .

ونسيب واحد من أبرز أعضاء الرابطة القلمية ، ومن أبعدهم شهرة وتأثيراً فى الأدب العربى الحديث ، وبالتالى هو أحد دعائم النهضة الأدبية الحاضرة ، ومن أبرز شعراء العالم العربى ، وأرقهم شعراً .

وإذا أردنا أن نكوّن فى نفوسنا صورة صحيحة لنسيب عريضة فلن نجد ألطف وأصدق من الصورة التى رسمها هو لنفسه فى إحدى قصائده وهى قوله :

أقيمـوا على قبرى من الصّخـر دميـةً ... بها رمز عَيْشى بعد موتى يُعْرضُ :
يدان بلا جسمٍ تمـدّان فى الفضـــا ... –تُمدّان من صخر على القبر يربضُ–
فيمناهما ممـدودةٌ تشحَـذُ الجـــدا ... لتشبعَ جوعَ النفس ، والجوع يرفض
ويُسْراهمـــا فيهـــا فـــؤادٌ مضـرّج ... تقدّمـه للناس ، والناس تُعرِضُ

فهي صورة ليس أصدق منها دلالة على حقيقة نفس نسيب . وهل كانت حياة نسيب سوى جوع روحي شديد لا يشبع ، ومحبة للبشرية لا تكتفى ولا تنقطع مهما لقيت من نكران وإعراض ؟ !

حياة نسيب (١) :

فى مدينة حمص – جارة العاصى ، وأمّ الحجارة السود ، كما يدعوها نسيب – وفى أحد أيام شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٧ تفتحت على نور الحياة عينا نسيب عريضة ، ابن أسعد عريضة وسليمة حداد . وقد ظل نسيب فى مهجره البعيد ، فيما بعد ، وفيًّا للمدينة التى شهدت أحلام طفولته ، شديد الحنين إليها . وقد عبر فى شعره عن ذلك الحنين العميق ، فقال فى قصيدته « أمّ الحجار السود » :

أعَرفتَها : تلك الرّبوع العاليه ما بينَ لبنانٍ وبين الباديَه ؟
الذّكرياتُ وقد برزنَ علانيه ناديْنَ عنكَ بحسرة المطرُودِ :
« يا حمصُ ! يا بلَدى وأرضَ جدودى »
ماذا يُكابد فى النَّوى ويقاسى صبٌّ يحنّ إلى حمى الميماس
وإلى الدّويْر – إلى ربوع الكاس وكناسها ، وغزالها الأملودِ
وإلى مغانى نعمة وسعودِ

ولما نشأ الطفل نسيب أرسلَ إلى المدرسة الروسية المجانية فى مدينته ، فظل يتدرّج فى صفوفها بنجاح وتفوّق ؛ فكوفئ على تفوّقه بأن أرسل عام ١٩٠٠ إلى المدرسة الروسية فى الناصرة لمتابعة تحصيله العلمى . وبعد أربع سنوات قضاها نسيب فى تفوق مستمر ، انتدب لمتابعة التحصيل العالى فى روسيا ؛ ولكن الظروف شاءت أن لا تتم الرحلة ، بسبب الحرب الناشبة إذ ذاك بين

---

(١) أود أن أذكر شاكراً أننى اعتمدت فى المعلومات الخاصة بسيرة نسيب عريضة ، على رسالة خاصة أرسلها إلى الأستاذ ميخائيل نعيمه ، تاريخها : ٣ نوفمبر سنة ١٩٤٧ .

وهذه الرسالة محفوظة مع رسائل نعيمه الأخرى ، ورسائل زملائه المهجريين التى بلغت ٣٠٦ رسائل ، فى مكتبة الجامعة الأردنية .

روسيا واليابان ، فاضطر نسيب أن يقضى فى مدرسة الناصرة سنة أخرى . وفى نهاية السنة لم يسافر إلى روسيا ، وإنما حوّل وجهه نحو بلاد الدولار ، حيث كان قد سبقه بعض أبناء عمه .

وفى مدرسة الناصرة تعرّف ابن حمص – نسيب – على ابن بسكنتا – نعيمه – الذى جاء إلى المدرسة عينها بعده بعامين – عام ١٩٠٢ – وتوطّدت بينهما أواصر الصداقة المتينة التى تجددت وقويت بعد سفر نعيمه إلى أميركا عام ١٩١١ ، وظلت متينة إلى النهاية .

وفى ديار الغربة تعرّف نسيب إلى الريحانى وجبران ، وكان فى نفسه نزوع إلى خلق أدب جديد يكون زاداً صالحاً للأجيال العربية الناهضة . وهذه الفكرة الطموح بدأت تراوده منذ أن كان على مقاعد مدرسة الناصرة ، حيث بدأ ينظم الشعر ، واستمرّ ينظمه فى ديار هجرته فيما بعد . هناك بدأ نسيب يشعر بما يعانيه الأدب العربى من جمود ، وما فيه من تقليد وابتذال ، فلم يرضَ عن ذلك كله ، وبدأت تنشأ فى نفسه نزعة التجديد . وقد كان لهذه النزعة التجديدية فى الأدب أن عزم على إنشاء مجلة تنشر فكرته وتطلع العالم العربى على أقباس من هذا النور الجديد . فأنشاء مجلة « الفنون » فى سنة ١٩١٣ ، وتطوع جبران والريحانى ونعيمه لتقديم المساعدة الأدبية الممكنة له ، فكان لا يصدر عدد من « الفنون » إلا وفيه مقالات لهؤلاء الثلاثة ، ولعدد آخر من المؤمنين بمذهبهم الأدبى الجديد والمتحمسين له ، وإلى جانبها فصول مترجمة عن الآداب الغربية ، ورسوم فنية منقولة عن لوحات لبعض مشاهير الرسامين الغربيين .

ولكن « الفنون » لم تستطع الصمود طويلا أمام الظروف القاسية التى أحاطت بها ؛ فقد أنفق عليها نسيب الكثير حتى لم يعد فى قوس احتماله منزع ، ولكنه لم يجد من التقدير والتشجيع المادىّ ما يسمح له بالاستمرار فى إصدارها ؛ فتوقفت بعد أن صدر منها عشرة أعداد فقط . وإذا بنسيب عريضة ، بعد أن كان قد كتب إلى صديقه نعيمه مستبشراً متفائلا حين كان يعتزم إصدارها ، ويقول له : « عندى من الآمال ما يجعلنى أثق من أنها ستبقى ثابتة ، بعد أن تناضل

وتفتح لها طريقاً جديداً بين خرابات العالم الأدبى العربى » ، يصبح الآن مضطراً إلى تغيير لهجته الأولى ، فإذا هو يتناول القلم ليكتب إلى نعيمه نفسه بلهجة فيها مرارة الخيبة ، فيقول : « لقد خسرت معركتى وسقطت آمالى حولى . والآن وقد فرغ مالى وبخل علىّ المشتركون بما عليهم فليس لى إلا أن أقف . وقد وقفت . . ولا أدرى أتتحرك رجلاى فيما بعد ، أم تيبسان إلى الأبد ؟ ! »

غير أن رجليه لم يُقدَّر لهما أن تيبسا بعد إلى الأبد ، فقد عادت « الفنون » إلى الحياة بعد أن توقفت عامين – أى عام ١٩١٦ – وسارت فى طريقها بنشاط . فعادت سهام المصاعب تتوارد على صدرها من جديد ، حتى خرّت فى النهاية صريعة على أقدام جهادها الشريف ، ومبدئها الأدبى الصادق ؛ وكان توقفها عام ١٩١٨ . وعبثاً حاول نسيب وجبران ونعيمه أن يعيدوها إلى الحياة للمرة الثالثة فى العام التالى ، ويرسموا لعودتها الخطط ، ويقدروا لها الفروض والتضحيات . وفى ذلك يقول نعيمه فى حياة جبران : « عدت إلى نيويورك ، ولكن « الفنون » لم تعد إلى الحياة ، إذ وجدت أن الخطة التى كان قد رسمها جبران ونسيب كانت خطة يسهل تطبيقها على الورق ويكاد يستحيل تطبيقها بالعمل . فالذين كانت قلوبهم فى « الفنون » كانت جيوبهم فى عالم الشكوك والظنون ، والذين كانت جيوبهم تعجّ بالذهب ، كانت قلوبهم بعيدة عن الأدب » .

ماتت « الفنون » فخلا مكانها ، وأحسّ بخلوّه صاحبها نسيب وزملاؤه الذين كانوا يتعهدونها بكل غيرة وإخلاص ، وظل يحز فى نفوسهم أن يصمت بوقهم الجميل ، ويخرس لسانهم الحر . ولم يلبثوا أن التفوا حول جريدة « السائح » ، ولا سيما بعد أن تألفت منهم « الرابطة القلمية » ، لمواصلة النضال فى سبيل نشر مذهبهم الأدبى الجديد . وسار معهم نسيب فى هذا المضمار يشق طريقه إلى المجد بروح متدفقة بالحيوية والصدق والحرارة تملى عليه أدبه الذى يمتاز بالحيوية والصدق والحرارة .

وعاد نسيب يشتغل فى التجارة مع أبناء عمه . وفى سنة ١٩٢٢ اقترن بنجيبة حداد ، أخت عبد المسيح وندرة حداد ، ولم يرزقا أولاداً .

وتقلّب نسيب فى أعمال مختلفة ، فترك التجارة ، وتسلم رئاسة تحرير

جريدة « مرآة الغرب » – وصاحبها نجيب دياب – ثم انتقل إلى جريدة « الهدى » – وصاحبها نعوم مكرزل – وفى أثناء الحرب العالمية الثانية عين موظفاً فى مكتب الأخبار للولايات المتحدة ؛ فعمل فيه نحو سنتين ، ثم اعتزل العمل بعد الحرب لضعف فى كبده وقلبه ، وعكف على جمع ديوانه وطبعه . غير أن المنية لم تمهله ريثما يصل الديوان إلى أيدى القرّاء ، بل اخترمت حبل أيامه والديوان ما يزال بين يدى المجلّد . وهكذا انطفأت شمعة عمره فى مدينة بروكلين فى ٢٥ آذار (مارس) سنة ١٩٤٦ ، كما قدّمنا .

أما أخلاق نسيب فقد وصفها ميخائيل نعيمه فقال : « كان ممتازاً بأخلاقه ، فهو وديع ، لطيف ، خجول ، دافئ اللسان ، لا يغتاب ولا ينمّ . وهذه الصفات رافقته حتى آخر حياته » . والذى يطالع شعر نسيب يجد فيه كثيراً من المزايا الإنسانية ، والأخلاق النبيلة .

أدب نسيب :

ظهر ميل نسيب إلى الأدب منذ أن كان طالباً فى مدرسة الناصرة ، فقد كان كثير المطالعة لآثار الأقدمين ، شديد الشغف بشعرهم ونثرهم ، وقد بدأ يعالج النظم منذ ذلك الحين وهو ما يزال يحوم حول السابعة عشرة من عمره . فلما هاجر إلى أميركا لم يكفّ عن المطالعة والاشتغال بالأدب ، وكان كثير التردد على مكتبة نيويورك العمومية يقلب ما تحويه رفوف القسم العربى فيها من كتب ؛ وإلى جانب الكتب العربية كان يطالع ما يقع تحت يده من كتب الأدب الروسى ، فيتزوّد لنفسه ذخيرة يبنى عليها أدبه الغنى العتيد .

وكان – كما قدمنا – يشعر بما يعانيه الأدب العربى من جمود مُزرٍ ، فكان ينزع إلى تحريره من جموده ، ورفع عار التقليد والرجعية عنه . ثم زاده شغفًا بهذه الفكرة الجرئية الطموح أنْ وَجد فى المهجر أنصاراً أقوياء يرون رأيه ، وقد شرعوا يحققون مذهبهم هذا بالفعل ، بما تنتجه أقلامهم ؛ وأولئك الأنصار هم الريحانى وجبران ونعيمه ، فمضى نسيب فى مضمارهم ، يخلق فيبدع ؛ لا يقلّد ، ولا تضيع شخصيته فى شخصيات سواه ، ولا يقف فى أدبه عند القشور والتفاهات ،

بل يصبو إلى خلق المعانى الكبيرة ، بأسلوب جميل منسجم ، وعبارة بسيطة سهلة .

ولم يترك لنا نسيب من الآثار المطبوعة فى كتب مستقلة سوى ديوانه « الأرواح الحائرة » ، ورواية مترجمة عنوانها : « أسرار البلاط الروسى » ؛ وله أيضاً قصتان تاريخيتان منشورتان فى « مجموعة الرابطة القلمية » هما : ديك الجن الحمصى » ، وقصة الصمصامة » ؛ وفى هاتين القصتين تتجلى موهبة نسيب الفنية فى القصة بنوع عام ، والتاريخية منها بنوع خاص ، فقد اجتمعت له أسبابها ، من حبكة قوية ، ووحدة فنية متماسكة ، وديباجة مشرقة ، وخيال جميل ، مع المحافظة على حصة التاريخ من القصة الفنية . ولسنا ندرى إذا كان لنسيب غير هاتين الأقصوصتين ، غير أننا نعلم أنّ القلم الذى استطاع أن يخلق مثلهما لا يقنع بالوقوف عندهما ، فى مدى حياته الأدبية والصحفية الطويلة .

فإذا نحن أضفنا إلى هذه الآثار المطبوعة كلّ الفصول الأخرى التى كان نسيب ينشرها فى « الفنون » و « السائح » و « مرآة الغرب » و « الهدى » وغيرها من صحف المهجر ، عرفنا أن نسيباً كان من أغزر أدباء الرابطة القلمية إنتاجاً ، ومن أجودهم أدباً .

أما ديوانه فنحن نعتقد أنه لا يحتوى على كل شعره ، فقد كتب عنه ميخائيل نعيمه فصلا فى « غرباله » – قبل صدور الديوان نفسه بنحو ربع قرن – فأورد له قصائد لم تظهر فيه بعد نشره . من ذلك قصيدته « لو كنت رباً » التى يقول فيها :

لو كنتُ رباً فى السماء عظيماً ... بجميع أمر الكائناتِ عليماَ
لهبطتُ من عرشى إلى أرض الشّقا ... نحو ابن آدمَ ، مَن خَلقتُ قديمَا
ولبثتُ أغسلُ بالدموع كلومَه ... وأزيده بتذلّلى تعظيمَا
مستغفراً عن عيشة قُسمت له ... منذ الخليقة لا تزال جحيما

وكذلك أذكر قصيدته الأخرى « أرزة لبنان » . فعدم ظهور هاتين القصيدتين – ولا شك فى أن هناك غيرهما أيضاً – يدلنا على أن نسيباً قد اكتفى من مجموعة قصائده بما كان لا يزال راضياً عنه ، وأهمل الباقى .

يقع ديوان « الأرواح الحائرة » فى نحو ٢٨٥ صفحة من القطع الكبير ،

ويحتوى على خمس وتسعين قصيدة ، منها مطوّلتان ، إحداهما بعنوان « على طريق إرم » ، والأخرى مسرحية بعنوان « احتضار أبى فراس » .

وموهبة نسيب الأدبية الكبرى تتجلى لنا فى شعره بنوع خاص . فأوّل ما نلمسه فيه حرارة العاطفة أو الفكرة التى تملى عليه القصيدة ، والتى لا ينظم إلا تحت تأثيرها الملّح واستفزازها المغرى . والحرارة هى عامل القوة والتأثير الأهم فى الأدب الروحى والوجدانى خاصة ، وبغيرها يفقد الأدب حيويته وجماله وقوته .

ثم نلمس فيه الاسترسال المخلص إلى البحث عن المعرفة الحقيقية ، والحيرة المتشككة التى لا تستقر ؛ ولكنه مع حيرته غير يائس لأنه مؤمن إيماناً مبصراً ، وإيمانه هذا هو الذى يدفعه إلى نشدان الحقيقة بكل ما فيه من حيوية الروح ونشاط الخيال .

وقصيدته المطوّلة « على طريق إرم » خريطة كاملة للمراحل التى اجتازها الشاعر فى حيرته ، وهى تدلّنا على الجهاد النفسى العنيف الذى جاهده مع المجهول لأجل البلوغ إلى الكمال والمعرفة والسعادة الروحية ، إلى أن تبدّى له بصيص من نور الحقيقة يلمع من بعيد ، ولكنه لم يتمكن من الوصول إليه بل اكتفى بأن يناجيه فى نهاية المطوّلة ، كما رأينا ذلك قبلاً .

وحقًّا لقد سمع نسيب النداء ، نداء روحه الصاعد من الأعماق ، وسار نحو الضوء البعيد ، وقد ظلّ طرفه عالقاً به حتى عاد إلى تراب ودود . وهذا الضوء البعيد الذى اهتدت إليه بصيرة الشاعر بعد جهاد نفسى طويل هو الوحدانية المطلقة فى جوهر الحياة ؛ تلك الوحدانية التى اطمأنت إليها نفسه ، كما اطمأنت إليها أيضاً نفوس بعض زملائه الرابطيين ولاسيا : جبران ، ونعيمه .

ولقد كان نسيب من أصحاب الرسالات الروحية الذين يجعلون هدف رسالتهم أن تقود البشرية إلى جوهرها الأسمى ، ومصدرها الأعظم ، الذى هو مصدر السعادة فى الحياة ، وفى ذلك يقول نسيب فى مطولته السابقة :

فلْنَرْقَ طَـوْدَ التَّجـلّى ... فـفى الـذُّرَى نستنيرُ
إذا ارتَقَيْنـا الثنايـا ... قـربَ الإلـه نصيرُ
فنحتظى باليقـينِ ... من نور حـقٍّ مبـينِ

ونَسْتقى مــن مَعِينِ يَفيضُ أنهــار حبِّ

وما دمنا فى ذكر هذه المطوّلة ، فلابد لنا من كلمة فى التعليق عليها .
فهى تقع فى ٢٣٦ بيتاً ، ومجموع أناشيدها ستة ؛ غير أن الذى يظهر لنا أن الوحدة الفنية بين هذه الأناشيد الستة غير موجودة ، مما يدل على أنها لم تنظم فى الأصل لتتألف منها مطوّلة واحدة ، ذات غرض واحد ، ووحدة متماسكة ، وإنما نظمت قصائد متفرّقة ، ثم رأى الشاعر أنها جميعاً تصور بعض مراحل حيرته ، وتعبّر عن نزعة السموّ فى نفسه ، فجمعها فى مطوّلة واحدة .

ولعلّ من المفيد أن نشير إلى أشياء من قصائد الحيرة فى ديوان نسيب ، فهذه الناحية هى التى اشتهر وتميز بها بين سائر الشعراء . فمن هذه القصائد تشتهر قصيدته « على الطريق » التى يستحث بها نفسه لتمضى فى بحثها عن الكمال ، وأما قصيدته « مركب الفؤاد » فهى صورة صادقة لحيرة روحه الهائمة المتخبطة فى ضباب الشكوك ، يقدمها نسيب فى إطار موسيقى مشرق ، فيقول :

قلبى بـــلا شِراعٍ يطـوفُ فى البحـارْ
قد قارَب التَّـــداعى من كثرة الأسفــارْ
سفينـــة حقـــيره ليس لهـــا ربَّـــانْ
فى ظلمـــات الحـيره منـــارُهـــا الإيمـــانْ
طاف البحـــارَ يرجو جزائـــــر الخـلودْ
لعلَّـــه أن ينجـــو من لجَّـــة الوجودْ

والقصائد التى تصور هذه الناحية من جوانب نفس الشاعر كثيرة ، فقد ضم الديوان منها أكثر من عشرين قصيدة ، وفى كل منها تصوير بارع للحيرة البالغة .

ومثل هذه الحيرة الشديدة التى طبعت حياة الشاعر وأدبه بطابعها لابدّ من أن ترافقها كآبة كثيرة أيضاً . وهل الحياة سوى علامة استفهام كبرى ، طرفها الأعلى غائب فى الألم ، وطرفها الأسفل مغموس فى الألم كذلك ؟ ! وقد ظهرت هذه الكآبة فى عدد غير قليل من قصائد نسيب ، وأحياناً فى صور

بالغة التأثير لمرارتها ، كقوله :

باطلا ترجون لحنـــاً مفرحا حطَّمتْ أوتـــارَ قيثارى الغِيَرْ

وقصيدته « قلمى » خير ما يصوّر لنا مدى الألم النفسى الذى كان يعانيه الشاعر ، فيقول :

أَوهِ ! ألم يُكْتَب لهــذا القــلمْ إلاَّ بأن يشكو الأسى والألمْ !
يا قلمى الشاربَ خمــر الشّجا والمُسْمِعَ الطرسَ صريرَ النقمْ
أفى حمى الغربان ثُقِّفتَ ، أم بين خوافيها أَلِفتَ الألمْ ؟
أم كنت عــوداً عنــد مستنقعٍ فى نبتة تمتصّ مــاء الرممْ ؟
أم عشت فى ظلٍّ من الغاب لم تشرق عليه الشمس منذ القدمْ ؟
فاسكب على الأبيض من أسود يَلْذَع فى الأوراق لَذْعَ الحممْ
ما الحبر ما تنفثـــه ناقمـــاً ذاك سويداءُ الحَشَا يا قلمْ

وتلمع جراح قلب الشاعر فى عدد غير قليل من قصائد الديوان ، وكلها نازف بالدماء والألم .

* * *

غير أن الكآبة والحيرة ليستا كل مزايا نسيب عريضة ، وإن تكونا من أهمها ؛ فنسيب يتميز أيضاً عن زملائه الرابطيين بكثرة تلاعبه بالأوزان الشعرية ليجعل الشعر مزيجاً لطيفاً من الرقة ، والغناء ، والرشاقة ، وكثيراً ما كان يوفّق فى ذلك إلى الجمال والرقة العذبة ، كما فى قصائده التالية : « أنا فى الحضيض » و« النعامى » و« النهاية » و« الملك الأسير » ، وغيرها ، فيقول فى قصيدته « أنا فى الحضيض » :

أنا فى الحضيض
وأنا مريض
أفلا يدٌ تمتد نحوى بالدّوا
وتبثّ فى جسمى ملامسها القُوى
وتقلّنى من هوّتى نحو الذرى
فأسير مستنداً عليها فى الورى ؟

وأكثر من ذلك تلاعبه بالأوزان فى قصيدته (النهاية) التى جعل اعتماده فيها على التفعيلة الواحدة ، فسبق بذلك دعاة (الشعر الحرّ) الحديث ، ولكنه لم يخرج فيها على الحسّ الموسيقى العربى الأصيل .

ثم لقد ذكرنا فيما سبق شيئاً عن شغف نسيب بمطالعة آثار القدماء . وهذا الشغف قد جعله يغترف أحياناً من الأدب القديم مادة لشعره ونثره ، كما أن مطالعته للأدب الروسى قد جعلته يعنى بترجمة أشياء منه إلى لغة الضاد . ومن مطالعته للأدب العربى القديم ، صاغ مسرحيته الشعرية « احتضار أبى فراس » . وهى ليست مسرحية فى الواقع ولكنها صورة ، فى شكل شبه مسرحى ، لاحتضار هذا الشاعر الفارس القديم كما يتخيله الشاعر العصرى نسيب عريضة . وهى تقع فى ٧٢ بيتاً . وأما من الأدب الروسى فقد ترجم عدداً من القصائد نجد بعضها مثبتاً فى الديوان . منها قصيدة « الصمت » ، وقصيدة « النوم والمنية » ، الأولى لتيوتشف والثانية لسولوكوب .

وهناك ناحية أخرى لا يمكن لمن يدرس أدب الرابطة القلمية على العموم أن يمر دون أن يقف عندها . تلك هى الناحية الإنسانية فيه ، وهى من أبرز مزاياه . وهذه الناحية بارزة فى عدد غير قليل من قصائد نسيب ، وله فيها صور ومواقف لطيفة مؤثرة .

٦ – رشيد أيوب
من الرابطة القلمية

خمسة من أعضاء الرابطة القلمية وصلت أسماؤهم إلى الشرق العربى أكثر من أسماء زملائهم الآخرين ، ونالت حظوظها من التقدير والإعجاب بمقاييس متفاوتة ، تبعاً لتأثير إنتاجهم الأدبى فى نفوس القراء الشرقيين . ومن هؤلاء الخمسة شاعرنا الكئيب المتألم رشيد أيوب .

ولد رشيد فى بسكنتا – لبنان – سنة ١٨٧١ ، وهاجر إلى الولايات المتحدة

سنة ١٨٩٣ ، وهناك توفى سنة ١٩٤١ – وفى مهجره اتصل بإخوان له لا معين توحدت منازعهم ونوع إدراكهم لرسالة الأدب ، وصدقت رغبتهم فى العمل المجدى لإنعاش الأدب العربى ، أو على الأقل لإقالته من كبوته ، فتألفت منهم الرابطة القلمية لهذا الغرض النبيل ، الذى كان من نتائجه أن قفز بالأدب العربى إلى الأمام قفزة واسعة جداً .

كان رشيد أيوب من أكثر الرابطيين إنتاجاً للشعر . وقد جمع قصائده فى ثلاثة دواوين هى – « الأيوبيات » ، و« أغانى الدرويش » ، و« هى الدنيا » . وقد طُبع الأخير منها فى سنة ١٩٣٩ مصدراً بمقدمة للأديب المهجرى شكر الله الجر– البرازيل – وأما (أغانى الدرويش) فقد ظهر فى عهد الرابطة القلمية سنة ١٩٢٨ وكتب مقدمته ميخائيل نعيمه ، مستشار الرابطة ومشرعها الأدبى – إن جاز هذا التعبير – أما عصارة شعره فتتلخص فى ثلاث كلمات : حب ، وألم ، وخمر . فهو كثير التشبيب والشكوى والنواح – على تعبير جبران – كثير الحنين إلى عهد الشباب والحب . ويكثر عنده الألم النفسى ، والحيرة ، والانطواء على نفسه يغترف منها آهات ودموعاً ، ويتخذ من الشعر آنية صافية يسكب فيها تلك الآهات والدموع التى يعتصرها من أعماق نفسه ومن قرارة قلبه . ولكن شعره فى حالتى الحب والألم قَلّ أن يمتدّ كثيراً إلى أبعد من مدى نفسه كما امتد أدب زملائه الآخرين : جبران ، ونعيمه ، وأبو ماضى ، ونسيب عريضة . والسبب فى شكوى رشيد وآلامه – كما يظهر فى ديوانيه الأخيرين – هو إحساسه العميق وهو فى سن الكهولة باستمرار الفقر ، وبأن أيام الحب قد تفلتت من يديه ، ولم يعد له مطمع فى هوًى جديد يبرّد حرارة قلبه الظمآن . فهو كثير الحنين إلى عهد الشباب ؛ والحنين لا يرافقه غالباً إلا الألم الكبير . وأما قبل الكهولة فلابد أنه كان فى قرارة نفس الشاعر رصيد مخزون من الألم العميق الذى لعله رافقه منذ الصغر ، وظل يلعج فى صدره ويتلون بألوان وصور مختلفة ، كان الشاعر عميق الإحساس بها صادق التعبير عنها . ولعلّ الفقر كان بعض أسباب هذا الألم .

أما الخمر فقد قال فيها شعراً كثيراً . وذكر مرات كثيرة فى قصائده أنه

إنما يشربها ليدفن فى أقداحها همومه ، ويتخلص بها من حبه وآلامه . ولعله الوحيد بين زملائه الرابطيين الذى أكثر من الغزل وذكر الخمرة فى شعره . وما يدرينا نحن الذين لم نعرف الرشيد معرفة شخصية أنه لا يعنى بالخمرة معناها المادى – بنت العنب – وإنما يقصد بها خمرة الألم ، فليس هناك ما يمنع من هذا التفسير ، كما ليس ثمة ما يمنع من أن تكون خمرة حقيقية .

وهكذا اتخذ رشيد من الشعر قيثارة يوقع على أوتارها أحاسيسه ولواعجه الخاصة . ولذلك لم يتّسم شعره بالشمول والامتداد ، لأن عمق شعوره الذاتى بدفائن آلامه ، ثم ببعده عن زمان الهوى والشباب ، قد صبغ شعره بصبغته المتألمة المنطوية . وهذا المعنى عبّر عنه فى قصائد كثيرة ، مثل « فراشتى » و« غروب شمس الحياة » وفقرات من قصائد أخرى مختلفة . فلنستمع إليه فى « فراشتى » يقول :

مـــاذا تقـــولُ فراشـــتى	إن رفرفت عنـــد الصبـــاحْ
ورأت محاسِنَ روْضـــتى	أوْدت بهـــا هُـــوج الريـــاحْ
فتناثـــــرت أزهارهــــا	منهـــا وفـــرّ هزارهـــا ؟
يا ليت شعـــرى ما تقـــولُ	إذا أتت ذاتُ الوشــــاحْ
ودرت بـــــأن روايـــــتى	فى مسرح الغِيد المـــلاحْ
قـــد أُسبِلَت أستارُهـــــا	وقـــد انتهت أدوارُهـــا ؟

وفى « غروب شمس الحياة » :

دنت المنية وانقضى عُمـــــرى	ونسيتُ ما قد كان من أمـرى
غابت رسومٌ فى مخيـــلتى	كانت تضىء كأنجمٍ زُهِـــر
وخبـــا فؤادٌ كان مشتعـــلا	بالحبّ مثل النار فى صـدرى
ماذا إذا رُفـــع الحجـــابِ غداً	ألقى وقد أصبحت فى القبرِ ؟

وفى قصيدة الربيـــع :

عَطِّرِى يا زهرُ أذيالَ الرّيـــاحْ	إن سَرَت فوق الرياض القُشُبِ
أو دعيهـــا كلّمـــا لاح الصبـــاحْ	أرَجـــاً يُغنَى بـــه عن كتبى

غربةٌ أمست حياتى وانـــتزاحْ ومناجاةً ورَعْـــىَ الشهبِ
فإذا ما لاح للصبح عمـــودْ بعد ليلٍ كغـــراب أبقَـــع
قلت فى نفسى وللنوم صـــدودْ : أوَ حَتَّى غربةٌ فى مضجعى ؟

على أننا إذا جردنا شعر رشيد من الشمول والامتداد ، فنحن لم نجرّده من الرقة والعمق والجمال فى قصائده المختلفة : فى الحب والألم والحنين والوصف . فقصيدته « روضة الحب » مثلا فيها موسيقى وتعابير لطاف :

الحب فى عينيـــك آثـــارهُ باديـــةٌ كالأنجم الزاهـــره
إذ ليس غير الحب من زارع بنفسجاً فى أعينٍ فاتـــره
وزارع الخـــدين من نرجسٍ يسقيهما من كفِّـــه الساحره
صيَّرك الحب لـــه روضـــةً أزهارهـــا فواحـــةٌ عاطـره
لا تعذلى النحلـــة إن دندنت خائمـــةً مشغوفـــةً حائره

وقصيدته « وولىّ ما عرفناه » فيها تصوير جميل للدرويش المشرد ، أو للمهاجر الغريب الذى يعتز بإبائه وكرامته فلا يبوح لإنسان بشجوه وهمومه ، ويعانى لواعج الحنين التى ترهف إحساسه ، وتوحى إليه بالشجن لكل صوت جميل :

وقفنـــا عنـــد مـــرْآه حيـــارَى مـــا عرفنـــاهُ
عجيبٌ فى معانيـــه غريبٌ فى مزايـــاهُ
لـــه سربـــالُ جـــوّابٍ غبـــار الدهـــر غشَّاهُ
ووجـــه لوّحتـــه الشمس غارت فيـــه عينـــاهُ
تـــراه إن سَرَى بـــرقٌ تمنّـــاه مطايـــاهُ
وإن أصغَى لصوت النـــاى أشجـــاه وأبـــكاهُ
إذا أعطيتَـــه شيئـــاً أبَتْ جـــدواك كفَّـــاهُ

على أن أجمل قصائد أيوب فى رأينا هى التى صور فيها حنينه إلى الوطن ؛ فهو فيها ذائب العاطفة ، صادق التعبير عن لوعته

وقد رأينا شيئاً من شعره فى الحنين فى فصل (الحنين إلى الوطن) .

وبعد فلعلنا لا نعدو الصواب إذا ما قلنا إن رشيد أيوب قد جمع شعار حياته فى فقرة نثرية فى الصفحة ١٠٧ من ديوان « هى الدنيا » فقال :

« إن الحياة تارة فرح ، وتارة حزن ، وطوراً يأس ، وآوانة رجاء . ولكن الآلام وحدها تحتفظ بها النفس ، والسرور يضمحل ويتلاشى ، لأن النفس التى لا تتألم لا جمال فيها ولا تقترب من الله » . ولعل فى معنى هذه الفقرة سر انصراف رشيد إلى الشعر الباكى الكئيب .

٧ – ندرة حداد

من الرابطة القلمية

حب كبير ، وألم كبير ، ينبعان من قلب كبير ؛ تلك هى خلاصة شعر ندرة حداد المجموع بين دفّتى ديوانه « أوراق الخريف » . أما الحب عنده فيتفرّع إلى روافد صافية ، أعظمها الحب الإنسانى الذى يشدّ قلب الشاعر إلى كل ما فى الوجود برباط من المودة الصادقة التى تحب الخير لكل ما فى الوجود ؛ وتسعى إليه . وأقلها حب المرأة الذى يوحى إلى الشاعر بالغزل الرقيق يفيض عاطفة حارّة . فالحب ، كما يقول الشاعر ، هو فى الكون القوة الدافعة :

والحب هذا كهرباء الوجود ... بل هو فيه القوة الدافعه

أو كما يعرّفه فى قصيدة أخرى :

ما الحب يا صاح سوى نفحةٍ ... قدسيَّة بين الورى تسطعُ
يرفعه الكاهن فى كأسهِ ... والقوم فى معبدهم خشّعُ
يحصده الزارع إن أخصبت ... فى الموسم الأرض التى يزرعُ
تحمله الأمّ على زندها ... كذلك الحامل والمرضعُ

وهو الذى يعلّم كل عاطفة نبيلة صادقة :

من علّم الطَّيرَ ، على ضعفها ... أن تبتنى الأعشاش فوق الغصونْ

تحرسها الأمَّـــات من عطفها　　كأنها الأجفان حـــول العيونْ
من أسْهَرَ الأمّ على طفلهـــا　　صـــابرةً تشقى ولا تضجــرُ
حاملة ما ليس من حملهـــا　　وأتعبُ الأحمـــال ما يُسْهِرُ
أخَيّ ، ما حرّك هـــذى النفوس　　فى الخلق من ناس ومن طـــير
إلاّ الذى يجرى كخمر الكؤوس　　فى كل نفس دون أن تدرى
دعوه بالحب ، وكم عـــاشقٍ　　أوصله الحب إلى مـــا أرادْ
ذا نعمـــةٌ من نِعَم الخـــالق　　لولاه كان الخلقُ بعضَ الجمادْ

فمن قصائد الحب الكبير عند الشاعر قصيدته « سر معى » التى جعلها فاتحة الديوان ، وهى قطعة إنسانية مؤثرة ، يقول فيها :

يا أخى الســـاعى لنيـــل الـ　　ـمجد خفّف عنك جَمْحَـكْ
سرْ معـــى فى الأرض تنس الـ　　ـمال والجـــاه وطمْحَـــكْ
أنـــا راضٍ بالعصـــا يـــا　　أيهـــا الحـــاملُ رمْحَـــكْ
وسأرضى خبـــزك الأســـود　　فى الحـــب وملحـــكْ
وسأنسى جـــرح قلـــبى　　كلمـــا شاهـــدتُ جرحكْ

ألا نشعر بخشوع عميق أمام هذا البيت الأخير خاصّة ، وأمام هذه الروح الإنسانية الكبيرة المحبَّة ؟ قد لا نجد فى هذا الشعر بهرجة فى اللفظ ، ورنيناً فى العبارة – وهما بعض ما تعتمد عليه المدرسة الشعرية الحديثة فى أسلوب الشعر – ولكننا حتماً واجدون شيئاً أسمى بكثير من بهرجة اللفظ ورنين العبارة ، وهو حرارة العاطفة ، وعمق الفكرة ، ورحابة الروح . وقد نجد هذه الثلاثة مجتمعة فى قصيدة واحدة ، أو قد نلمسها متفرّقة فى قصائد مختلفة ، ولكنها هى روح قصائد ندرة حداد . أما عبارته التى يكسو بها روحه الشاعرة فهى على غاية من البساطة الجميلة .

ونصغى إلى الشاعر فنسمعه يخاطب نفسه فيقول :

لا تفـــرح النفس الكـــريمةُ　　إن رأت أختـــاً حزينـــه
فابكـــى مع الباكـــى ومـــدّى　　للضعيف يـــد المعونـــه

فنحسّ بحرارة الحب الذى تتفتح به النفوس الكبيرة لاحتضان الإنسانية

كلها : تفرح مع الفرحين ، وتبكى مع الباكين ، ولا تجد سعادتها فى غير سعادة الإنسانية كلها . أو ليس ذلك ما يعنيه الشاعر فى نجواه « للورقة الأخيرة » التى رآها وحيدة على الشجرة بعد أن تناثرت من حولها سائر رفيقاتها ، فجعل يسألها متعجباً من انفرادها ووحدتها :

بنتَ الغصـــون ، أراك وحـــ ـدك لا رفيـــق ولا خـــدينْ
أكـــذا اشتهيتِ فنلتِ أم قـــد نلت مالا تشتهـــينْ ؟
هـــل تنعمـــين وحيـــــدة ؟ لا ، لا إخالك تنعمـينْ !

وأما الألم الكبير فهو أيضاً يتفرّع إلى عدة روافد ، وهو رفيق الحب فى مسراه . فالقلب الذى لا يعرف الألم لا يعرف الحب ، وبالعكس . فالشاعر الذى يحب كل إخوانه فى الإنسانية ويريد لهم الخير والسعادة لا بد أن تتفتت نفسه ألماً لمصائبهم وأحزانهم . وهذا الألم قد يعبّر عنه بطرق كثيرة : فيتألم للعش الذى تملأه الوحشة بعد أن كان دافقاً بالحياة ، وللغدير وقد نضبت فيه المياه وصمت الخرير ، وللغصون إذ يجفّ فيها ماء الحياة فتتعرّى من أورقها الخضراء .

إنه يتألم إذ يرى البشر يقادون إلى حيث لا يعلمون وهم فى غفلة من عقولهم ، وفى جهل لمصائرهم ؛ ويتألم إذ يرى فى الناس مظلوماً يئن ، وجائعاً يشكو ، وعبداً يهان ؛ ويتألم إذ يرى البشرية تتنابذ باسم الدين ، أو باسم الوطن ، أو باسم الجنس .

ثم ماذا ؟ . . أفلا يتألم الإنسان لنفسه أيضاً ؟ إذا عَدتْ به جيادُ العمر بعيداً فى مراحل الأيام ، وإذا نأى عن أهله وديرته ، ألا يحقّ له أن يضّم جناحى قلبه الكبير لينطوى على نفسه لحظات يذرف فيها دمعة صامتة ، ويرجّع شكوى صابرة ؟ إن الحنين إلى الماضى وإلى الأهل والوطن لهوجدول شديد الصفاء وشديد الحرارة ، يتفجر من الينبوع عينه الذى يتدفّق منه الحب والألم ؛ فهو وليدهما معاً ، وفيه من حرارتهما معاً . ولقد اغترب شاعرنا عن أهله ووطنه — وهو كنسيب عريضه ، حمصىٍّ الموطن — فظلّ خيالهما يراود أحلامه ويفتّح فى نفسه الجراح ، فإذا به ينثر علينا من خطرات حنينه نفحات حراراً . فنسمعه يهتف بلهفة :

ما قيل لى مرحباً في كلّ أسفارى
إلا وقلبي صبا للأهل والدارِ

فكل ما يراه فى غربته يذكّره بالبلد الذى درج على أرضه طفلا ، وبكل ما فيه من ذكرياتٍ عِذاب :

يا حبّذا ذاك النسيم العليلْ إن هبّ عندالصبح أو فى الأصيلْ
مقبّلا ثغِر الورود الجميلْ مفتّحاً أعينها الساهيه
من سكتة الليل وحرّ النهارْ

ويتصل بحديث الألم ويتفرّع من نبعه جدول آخر ، فيه حيرة ، وفيه لهفة . ذلك هو التأمل ، وحبّ البحث عن الحقائق فى الحياة نفسها ؛ وفى ما وراء الحياة . وفى القصائد التأملية يحاول الشاعر أن يعزّى نفسه بمحاولة تعليل الأشياء ، وإبداء الرأى فى كنهها .

من الشعر التأملى عند ندرة حداد قصيدتان بعنوان « يا نفس » ، ثم « ضريح الشاعر » ، و« الرواية » و« أمام الجبل » وغيرها .. فهو يستهل قصيدة « ضريح الشاعر » بقوله :

ألا ، ما لهذى القبابْ تلوح لنا كالقصورْ
أليست تخاف الذهابْ كما خاف من فى القبورْ
أتُربٌ يوارى الترابْ وفانٍ على مائتٍ ؟
أنجهل أنّا خرابْ ولا حصن بالثابتِ ؟

ثم يمضى فيسرد ما يوحى به القبر إليه من عظات وحكم حتى يصل إلى النهاية ، فيقول :

وما شاقنى فى الحياه سوى منظر الجدولِ
يعيش بقلب الفلاه سعيداً بلا منزلِ
جرى بين شدوٍ وندبٍ إلى حيث لا يفهمُ
كذا نحن نمضى كركبٍ إلى أين ؟ لا أعلمُ !

ولم ننته بعد ، فما زال فى الديوان أشياء : فيه شعر الطبيعة ، وفيه الغزل ،

وفيه مراث تفيض باللوعة . وفيه عدا كل أولئك قصيدة طويلة هى « الراهبة » ذات مائة وعشرة أبيات . وقد تحدثنا عليها فى فصل سابق .

وبعد فقد كان ندرة حداد إنساناً شديد الشعور بإنسانيته ، تتجلى فى نفسه نوازع الخير والخلق النبيل . كذلك تقول قصائد ديوانه « أوراق الخريف » ؛ التى تدل على « حب كبير ، وألم كبير ، ينبعان من قلب كبير » .

ولقد توفى ندرة حداد عام ١٩٥١ بعد أن تجاوز السبعين من عمره ، وكان قبل ذلك يساعد أخاه عبد المسيح فى جريدة « السائح » . وهو من أبناء حمص ، وقد نزح عنها إلى الولايات المتحدة عام ١٨٩٧ ؛ فهو من أقدم الأدباء العرب الذين وطئوا أرض كولومبوس ، ومن أعرقهم فى مهجريته .

٨ – عبد المسيح حداد
من الرابطة القلمية

عبد المسيح حداد هو أخو الشاعر ندرة حداد ، صاحب ديوان « أوراق الخريف » ، وأخو زوجة الشاعر نسيب عريضة ، وصاحب جريدة « السائح » التى رافقت جهاد الرابطة القلمية كله ، ونشرت رسالتها الأدبية فى العالم العربى وبين الناطقين بالضاد فى المهاجر الأميركية . وكفاه ذلك شهرة وجهاداً فى عالم الأدب الرفيع .

ولد عبد المسيح فى مدينة حمص عام ١٨٩٠ ، وتعلم فى مدارسها الابتدائية ، ثم فى مدرسة الناصرة للروس . والتحق بعد ذلك بأخيه ندرة حداد فى أميركا منذ عام ١٩٠٧ . وفى عام ١٩١٢ – أو نحو ذلك التاريخ – أنشأ جريدة « السائح » ، وظل يجاهد فى سبيل نشرها بين أبناء قومه المهاجرين حتى قامت « الرابطة القلمية » ، وكان هو من أوائل المتحمسين لفكرتها والقائمين بالدعوة إليها ، وفى بيته كان الاجتماع الأول لتحقيقها .

فلما أنشئت الرابطة التف جميع أعضائها حول مجلة « الفنون » التى كان

يصدرها نسيب عريضة ؛ ولكن عمر « الفنون » كان قصيراً جداً ، فالتفت الرابطة كلها حول جريدة « السائح » ، فكانت هى الحديقة التى يغرس فيها أعضاء الرابطة غراسهم الحية ، والتربة التى يبذرون فيها ذخائر أدبهم القوى . ومنها جعلت تهب على الأدب العربى نفحات من الرسالة الروحية والاجتماعية السامية ، وهينمات من الأدب الإنسانى الجميل تندى بها الأرواح والقلوب مغتبطة لهذا الجديد الحى .

وهذا ما جعل أحمد زكى أبو شادى يقول فى عبد المسيح : إنه « روح الرابطة القلمية » فى مقال له أذاعه من محطة صوت أميركا ، ثم نشره فى مجلة « القلم الجديد »[١] الأردنية عام ١٩٥٣ . وقد قال أيضاً فى ذلك المقال : « كان عبد المسيح – مؤسس تلك الرابطة الفذة – أصغر أعضائها سناً ، ولكنه كان أنشطهم ، ومن ألمعهم تفكيراً ، وأقواهم أصالة . وكان وما يزال يدعى « مارك توين العرب » فى أميركا ، لذكائه الخارق ، وروحه الفكهة الحلوة النيرة التى يتذوقها الكثيرون فى باب « ألحان وأشجان » بجريدته « السائح » . ولا تزال مجموعة الرابطة القلمية التى صدرت فى سنة ١٩٢١ ، و« السائح الممتاز » الذى صدر فى سنة ١٩٢٧ ، من المراجع الهامة عن روح الرابطة القلمية ؛ وهى الروح التى تقمصتها شخصية عبد المسيح حداد »[٢] .

والحقيقة أن عبد المسيح لم يكن بين البارزين من أعضاء الرابطة من حيث الروح الأدبية ، والأسلوب البيانى ، والتآليف الأدبية ؛ فهو لم يؤلف حتى عام ١٩٦٢ سوى كتاب واحد جمع فيه عدداً من أقاصيصه وجعل عنوانه « حكايات المهجر » ؛ وقد أراد بتلك الحكايات أن يصوّر أشياء من حياة العرب فى هجرتهم . ولم تكن تلك الأقاصيص على شىء من الفن القصصى ، بل كانت كما دعاها هو نفسه « حكايات » فقط . وهى ذات حظ غير قليل من خفة الروح ، وقوة

---

(١) مجلة « القلم الجديد » أنشأها مؤلف هذا الكتاب فعاشت عاماً واحد فقط ، من شهر أيلول ١٩٥٢ إلى شهر آب ١٩٥٣ ، وصدر منها اثنا عشر عدداً فقط ، كان آخرها عدداً ممتازاً خاصاً بالأدب المهجرى .

(٢) الواقع أن فى هذا مبالغة ، ومجاملة ؛ فلم يكن عيد المسيح قط على هذا المستوى الذى يضعه فيه أبو شادى ؛ ولكنها عين الرضى والصداقة .

الملاحظة . وفى عام ١٩٦٢ نشرت له وزارة الثقافة فى دمشق كتاباً آخر بعنوان « انطباعات مغترب » وذلك على إثر زيارته لسوريا فى ذلك الحين .

غير أن هذا لا يعنى أن عبد المسيح لم يكتب شيئاً غير هذه الحكايات فى المهجر ، فقد ظل يحرر جريدة « السائح » نحواً من خمسة وأربعين عاماً ، ويكتب الكثير من افتتاحياتها ، ويحرر قسماً كبيراً من كل عدد من أعدادها . وهو لو شاء أن يجمع ما كتبه فيها من الافتتاحيات والتعليقات السياسية والاجتماعية والأدبية لكان له من ذلك عدد من المؤلفات . وكذلك لو شاء أن يجمع ما كان ينشره فى باب « ألحان وأشجان » من أعداد الجريدة ، لاجتمع له كتاب ضخم ، فيه الكثير جداً من الطرائف والنوادر الحلوة البارعة ، والنخزات السريعة اللاذعة . أما فى مجموعة الرابطة القلمية التى نشرت عام ١٩٢١ ، فلم يكن لعبد المسيح سوى قطعتين نثريتين من حكاياته المهجرية ، هما : « الله يسعده ويبعده – وفى بيت الميت » استغرقتا عشر صفحات من المجموعة ؛ فى حين كان للآخرين موضوعات متعددة (١)

أما كتابه « حكايات المهجر » فقد طبع هو أيضاً عام ١٩٢١ ، ويقع فى نحو ٢٥٠ صفحة من القطع المتوسط ، وهو يشتمل على إحدى وثلاثين حكاية ، من بينها الحكايتان المنشورتان فى مجموعة الرابطة . وللكتاب مقدمة يقول فيها المؤلف تعريفاً بحكاياته :

« منذ دخلت أميركا منخرطاً بين عالمها السورى ، ونفسى ترى أشكالا وأوضاعاً فى حالتنا الاجتماعية ، وصوراً شتى لحياتنا السورية الأميركية . وكنت كثيراً ما أسائل نفسى : متى يا ترى يتحرك قلم أحد كتابنا فيدون هذه المشاهد لحمل الناس على درس أسرارها ؟

« أما المشاهد التى أعنيها فهى مرئيات لأسرار ، ومظاهر لما خفى فى النفوس . وقد كنت أراها وأقرأها وأسمعها وأحس بها ، فأجد سعة ميدان لمن شاء من الكتّاب تصوير الحياة السورية بأسلوب القصص الصغيرة . ولقد ظلّ هذا الفكر يراودنى حتى كتبت أول قصة « عبد الفطرة » لخاطرة خطرت ببالى

(١) انظر ص ٢٣ من هذا الكتاب ، فى المقال الخاص (بالرابطة القلمية) .

أملأ بها بعض فسحة من صفحات « السائح » ، ولم أدر إلا وأنا مدفوع من نفسي فى ذلك الميدان الذى رغبتُ لغيرى من الكتاب فى ولوجه . فما ظهرت تلك القصة حتى رأيتنى محاطاً بأصدقاء يسائلوننى : كيف خطر ببالى تصنيف قصة هى صورة طبق الأصل لمشهد من مشاهد حياتنا فى ديار المهجر ؟ ثم شعرت بيد لطيفة ممسكة بيدى ، تلك كانت يد عميد الرابطة القلمية جبران خليل جبران . وسمعته يقول لى :

« أريد أن أقرأ لك قصة من هذا النوع فى كل عدد من أعداد جريدتك ، ولا عذر لك عن عدم القيام بذلك العمل ، فأمامك ميدان واسع ولجتَه ، فتعمق فى حناياه وغص إلى قاعة ، وجئنا بما تغوص عليه » .

ولئن كان عبد المسيح قد وعد فى المقدمة بأن تكون هذه المجموعة مقدمة لغيرها ، فإنه لم يعد إلى نشر أية مجموعة أخرى من نوعها بعد ذلك . ولذلك كان كتابه هذا أول مؤلفاته المطبوعة وكتابه « انطباعات مغترب » آخرها . على أن السبب فى ذلك قد يكون لأن عبد المسيح كان يحمل من أعباء العمل الصحفى والطباعى ما لا يترك له مجالا للتأليف ، ولا يسمح له بالكفاية من الوقت للراحة وصفاء الذهن .

ولقد ظلت جريدة « السائح » تصدر عن نيويورك إلى أواخر عام ١٩٥٧ ، وظل عبد المسيح يغذيها بنفثات قلمه مخلصاً لذكرى رابطته المباركة ، ومستمراً فى تأدية رسالتها الأدبية ، على الرغم من أنها فقدت الأقلام الممتازة التى كانت تغذيها فى عهد الرابطة ، وهى أقلام جبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى ، ونسيب عريضة ، ورشيد أيوب ، وأمين الريحانى ، وغيرهم . وكان أخوه ندرة يعاونه فى تحريرها حتى توفى عام ١٩٥١ ؛ وعاونه كذلك فى تحريرها فترة من الزمن الصحفى المهجرى راجى الظاهر الذى ابتاع بعد ذلك جريدة « البيان » ، وما يزال يصدرها إلى اليوم فى نيويورك . وكذلك عاونه الشاعر أحمد زكى أبو شادى فترة من الزمن ، منذ هجرته من مصر عام ١٩٤٦ حتى وفاته عام ١٩٥٤ ، فقد كان ينشر فيها الكثير من قصائده ومقالاته .

إلا أن المصائب المتوالية لم تُبق لعبد المسيح قدرة على الاستمرار فى تحرير

« السائح » ؛ فقد تساقط إخوانه وأحباؤه من حوله واحداً إثر واحد : فغاب عنه أغلب زملائه فى الرابطة ، ثم أخوه ، ثم زوجته ، وبقى وحيداً فى الميدان إلى أواخر عام ١٩٥٧ ؛ ثم باع حقوق جريدته إلى زميله السابق راجى الظاهر ، صاحب جريدة « البيان » ، لأنه لم يعد فى وسع شيخوخته المتعبة أن تنهض بأعبائها . فاندمجت « السائح » فى « البيان » . وكان من شروط البيع والدمج أن يكتب عبد المسيح فى كل عدد من أعداد البيان مقالا أو أكثر . وهكذا كان برغم شيخوخته يكتب مقالاته فى البيان ، مخلداً بها اسم « السائح » حديقة الرابطة القلمية ، إلى أن وافته المنية عام ١٩٦٣ .

ولئن كانت (السائح) قد زالت بعد جهاد طويل استمر من عام ١٩١٢ إلى عام ١٩٥٧ ، فإنها ستظل تُذكَر بإعجاب وإكبار كلما ذكرت الرابطة القلمية ، وتحتل معها مكاناً مرموقاً من تاريخ النهضة الأدبية الحديثة .

٩ – جنود مجهولون فى الرابطة القلمية
إلياس عطا الله
وديع باحوط
وليم كاتسفليس

الناس يعرفون الكثير عن الرابطة القلمية التى أنشئت فى مدينة نيويورك وعاشت فيها فترة من الزمان ، وستعيش فى تاريخ الأدب العربى إلى أجيال وأجيال ، لأنها أول رابطة مدّت إلى الأدب العربى الحديث يداً كلها خير وبركة ، فبثّت فيه الحياة ، ورفعت عن عيونه غشاوة العدم ، ومسحت ساقيه بزيت الخلاص ، فركض فى ميدان الحياة طليقاً نشيطاً يواكب آداب الأمم الناهضة وعيونه أبداً إلى الأمام ، حيث النور والغنى والحياة التى لا تموت .

والناس يعرفون من أعضاء هذه الرابطة المباركة أفراداً ملأوا الدنيا وشغلوا

الناس بما أبدعوه فى آداب الضاد – وبعضهم فى الآداب العالمية – من روائع الآثار الأدبية ، شعراً ونثراً : فهم يعرفون عن جبران ، ونعيمه ، وأبى ماضى ، ونسيب عريضة ، الشيء الكثير ، ويحفظون من شعرهم ونثرهم ، وكثيرون منهم تأثروا بأساليبهم وبمبادئهم الأدبية ؛ ولكنّ القليلين فى الشرق يعرفون إخواناً لهؤلاء العباقرة آخرين فى الرابطة هم جنود مجهولون سعوا مع الساعين إلى فك أغلال الجمود عن الأدب العربى ، وأسهموا فى تحريره بجهود موفقة ، وإن لم يظهر أثر جهودهم واضحاً كما ظهرت آثار زملائهم الآخرين .

حقًّا إن أعضاء الرابطة العشرة لم يكونوا جميعاً على مقياس واحد من الكفاية الأدبية ، ولكنهم كانوا جميعاً متفقين من ناحية الذوق الفنى والفهم الأدبى ، وعلى عقيدة واحدة فى سعيهم للنهوض بالأدب العربى . وقد تكاتفوا للقيام بهذا العبء جميعاً فكان لهم فضل الساعين المخلصين . فإذا كانت الرابطة قد توصلت إلى أن تعمل شيئاً كثيراً للأدب العربى ، وتفتح أعين الناس على مقاييس جديدة للأدب ، واعتبارات جديدة لمعناه وقيمته ، وأن تثير فى نفوسهم الطموح إلى التجديد ومحاولة خلق أدب حرّ قوىّ ، فما استطاعت ذلك إلا بفضل تكاتف سائر الأعضاء وسعيهم معاً . ولذا حق لنا أن نذكر هؤلاء الجنود المجهولين بالخير ، لأنه لو لم يكن لهم سوى فضل الإسهام فى إنشاء الرابطة فى الوقت الذى أنشئت فيه ، وخلال الفوضى الأدبية التى كانت منتشرة فى الشرق ، لكفاهم ذلك تأدية لرسالتهم الأدبية إلى أمتهم وإلى الحياة .

أما هؤلاء الجنود المجهولون الذين أعنيهم فهم : وليم كاتسفليس ، ووديع باحوط ، وإلياس عطا الله ؛ فهؤلاء الثلاثة هم أقل أعضاء الرابطة شهرة فى ربوع الشرق لأنهم أقلهم إنتاجاً ، وأقلهم بروزاً : فإلياس عطا الله ، مثلا ، لا نعرف أنه كتب شيئاً طيلة مدة انتسابه إلى الرابطة ، مع أنه كان قبل هجرته يعالج الكتابة أحياناً ، وقد أخبرنى الأستاذ ميخائيل نعيمه فى إحدى رسائله بأن إلياس عطا الله لم يكتب شيئاً منذ تأسيس الرابطة ، ولكن كان له بضع مقالات قبل انخراطه فى الرابطة . وقد توفى إلياس فى أميركا .

أما وديع باحوط فقد كان مثله انعزالا عن حقل الإنتاج الأدبى ، فلا نعرف

له أكثر من مقال واحد بعنوان « البرغشة » منشور فى « مجموعة الرابطة القلمية » . وقد أكد لى الأستاذ نعيمه أنه ليس له من الإنتاج الأدبى سواه . وقد لحق وديع بمن قضوا من إخوانه الرابطيين نحو عام ١٩٥٢ .

ومقال « البرغشة » الذى ذكرته فى ما تقدم هو مقال حوارىّ ، فيه فلسفة اجتماعية وتأمل إنسانى . والحوار يدور فيه بين الكاتب والبرغشة ، ولكنه يتوصل منه إلى أن البرغشة – على أذاها – ليست أكثر ضرراً وأذى من الإنسان ، فهى تمتص قطرات من دمه لتعيش ، أما هو فيقتل ويسرق ويهدم ويدمر ، وغالباً ما يفعل ذلك إرضاء لشهوته ، لا سدًّا لحاجته وطعامه .

وإليك بعض ما تقوله البرغشة فى هذا المقال : « إن فى البرغشة صفات تفوق الإنسان بها ، فإنها تفهم جيداً أن الاتكال على الغير ضعف وصغارة ، وأن العمل وحده يعينها على الفوز بالغاية التى تسعى لها ، فلا تفتر عن السعى . . وهى لا تعرف الخمول والكسل . . . وتظل تعمل حتى تفوز بمرادها أو تموت شهيدة العمل . .

« أعرف أناساً كثيرين يؤثرون البطالة على الشغل . . . .

« وأرى بعضهم يسرقون ويحتالون ويباغتون المارة فى الطرق ، فيسلبونهم أشياءهم وأموالهم ، بينما البرغشة تأنف من استخدام هذه الوسائط الدنيئة ، فتسير فى طلب حاجتها مهاجمة أيًّا كان بطنينها المسموع ، مفسحة له مجال الدفاع عن نفسه وأشيائه ، حتى إذا فازت أو سقطت فى المعركة تفوز شريفة أو تسقط شريفة . . . والإنسان يجهل فلسفة حياتها كأنه لا يدرى أنها تسعى فى طلب رزقها مثلما هو يسعى فى طلب رزقه . . . فهى تمتص قليلا من دمه دون أن تؤذيه ؛ أو أنها تؤذيه أحياناً ، أما هو فيلوّع ويذبح ويقتل ويفنى أمماً للغاية نفسها . . . »

هذا نموذج من كتابة وديع باحوط فى مقاله اليتيم المنشور فى مجموعةِ الرابطة القلمية .

بقى وليم كاتسفليس ، وهذا له مشاركة غير قليلة فى الإنتاج الأدبى ، وقد كان خطيباً بارعاً ، وكاتب مقالات مجيداً ، ولكنه لم يجمع شيئاً من خطبه

ومقالاته فى كتاب . والكتاب الوحيد الذى ذُكر له هو بعنوان « حضارة العرب » وقد وضعه بالإنكليزية .

وله فى « مجموعة الرابطة القلمية » ثلاثة فصول ، هى : « البترون عام ١٩٢٠ » و« اجعلوا الحلم جميلا » و« القلوب الجائعة » . وقد اشتهرت هذه الفصول ، ونقلتها بعض كتب المختارات الأدبية التى اهتمت بنشر أشياء من أدب المهجر إبّان قوته ومجده .

والذى يطالع ديوان « أوراق الخريف » لندرة حداد ، يجد له مقدمة طويلة رائعة كتبها وليم كاتسفليس تعريفاً بالشعر الصحيح والشاعر الحق ؛ وهى فصل « رابطى » حقًّا بروحها العالية ، وأسلوبها الجميل المشرق .

ومن حين إلى آخر كان وليم يطلع على القراء بمقالات أدبية أو اجتماعية ينشرها فى بعض صحف المهجر ، تحمل طابع الرابطة الإنسانى الجميل ، وروحها القويّة الصافية .

ولد وليم فى طرابلس الشام سنة ١٨٧٩ ، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٠٢ . وكان يتقن العربية والفرنسية والإنجليزية . وقد انضم إلى الرابطة القلمية منذ تأسيسها ، وانتخب خازناً لها ، وجاهد مع زملائه الآخرين فيها لرفع اسمها ونشر رسالتها الأدبية ، إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى عام ١٩٥١ ، فلحق بمن سبقوه إلى الأبدية من إخوانه وزملائه الرابطيين الخالدين .

وفى ما يلى نموذج من أسلوبه الأدبى ، من مقال له بعنوان « القلوب الجائعة » نشر فى مجموعة الرابطة القلمية :

« عند اشتداد الأزمات البشرية ، وحلول النكبات ، وحدوث المجاعات ، يشفق الإنسان على أخيه الإنسان ، فيبادر إلى مساعدته بقدر الاستطاعة والإمكان . وتكثر الأحاديث والكتابات عن المجاعة وهولها وعدد ضحاياها .

« جميلة هذه العواطف الدالة على تقدمنا فى المدنية ، وعلى اقترابنا رويداً رويداً من الغاية الكبرى التى هى الإخاء العمومى . وأجمل منها المساعدة الفعلية التى ليس من ورائها غاية أو مصلحة ، فإن قلب الله يهتز طرباً كلما هزت قلب الإنسان عاطفة الرفق والإحسان .

« هذا فيما يتعلق بمجاعة الأجسام ، ولكن كم هو عدد الذين يشفقون على جائعى القلوب إشفاقهم على جائعى البطون ؟ وكم هو عدد الذين يدركون أن آلام الروح ، وإن تكن أبعد عن الحس من آلام الجسد ، لهى مؤلمة مثلها ومنغصة للعيش ؟

« ليست هذه من الآلام ذات المظاهر الخارجية ، بل كثيراً ما يكذب الوجه مخفياً ما فى النفس ، وقد تكون الابتسامة غلافاً ظاهراً لليأس والسآمة . وليس ما يؤلم مثل اليأس الخفى والحزن المكتوم .

« هاكم مواكب جائعى القلوب يمرون فى فضاء الحياة ، تحيط بهم أشباح أحزان خفية وأسرار مطوية ؛ وهم : أنت وأنا وهو وهى ؛ هم جماهير الوضعاء والكبراء ، والفقراء والأغنياء ، المجهولون والمشهورون ، البسطاء والعلماء . كلهم فى الشعور سواء حيث ينبض قلب لا نهاية لأمانيه ، فى هيكل محدود بما فيه » .

وهذا نموذج آخر من أدبه ، فى تعريف الأدب وحقيقته ، من مقدمته لديوان زميله الشاعر ندرة حداد :

« الأدب ، فى عرفى ، هو خدمة الحياة ، بتعريفها إلى نفسها ، أو ترجمة الحياة لأبناء الحياة ؛ فالرسام والنحات والموسيقى والخطيب والكاتب والشاعر جميعهم يصورون الحياة كما يرونها ، أو كما هى ، أو كما يريدونها أن تكون . هم الأصوات المتصاعدة من أعماق الإنسانية ، ومن هذه الأصوات الجميل والوسط والقبيح .

« يتألف الأدب من جزأين : صنعة وبداهة . واقتران الاثنين يؤلف الفن الذى لا يكون كاملا إلا بالبداهة أو السليقة التى تصقلها الصنعة . أما أى الجزأين أفضل وأهم فى نظر الفن ، فهذا أمر لا يحتمل اختلافاً بالنظريات . . . فللبداهةُ جمالها المستقل وإن زادتها الصنعة رونقاً . مثال ذلك أنك ربما أصغيت إلى مغنّ يتقن الغناء ، ولكنه ذو صوت غير حسن ، فأنت تعترف له بالحذق ، ولكنك لا تطرب لغنائه . أما إذا سمعت راعياً فى البرية ذا صوت جميل يترنم وهو لا يعرف شيئاً من أصول الموسيقى ، فإنه يطربك ويدخل غناؤه إلى أعماق نفسك » .

* * *

هذا وقد انتقل وليم كاتسفليس إلى الرفيق الأعلى فى الولايات المتحدة عام ١٩٥١ بعد أن تجاوز الثانية والسبعين من عمره ، فلحق برفاقه وزملائه الخالدين من أعضاء الرابطة الذين سبقوه إلى الأبدية . وكان قد مرّ على هجرته إلى أميركا أكثر من تسعة وأربعين عاماً .

١٠ – نعمة الحاج

بدأت صلتى بنعمة الحاج عام ١٩٤٩ ، وكانت أول رسالة تلقيتها منه تحمل تاريخ ٢٢ تموز (يونية) من تلك السنة . ومن تلك الرسالة عرفت أن نعمة الحاج قد ولد فى غرزوز بلبنان فى شهر آب (أغسطس) عام ١٨٨٩ ، وهاجر إلى أميركا عام ١٩٠٤ ، وهو بعد فى الخامسة عشرة من عمره ، فلم يتح له أن يتلقى من العلم أكثر مما تلقاه فى مدرسة القرية التى لم يلبث أن غادرها وهو ابن أربعة عشر عاماً .

وفى أميركا استطاع نعمة أن يتصل بحلقات الأدباء المهاجرين ، فكانت اجتماعاته بهم مدرسة له ، وقد تأثر بهم واستفاد منهم كثيراً . وكان قوىّ الصلة بأدباء الرابطة القلمية جميعهم .

وحينما وصل الأديب الفلسطينى الكبير خليل السكاكينى إلى أميركا فى أواخر عام ١٩٠٧ ، وبقى فيها نحو ثمانية أشهر ، اغتنم نعمة الحاج فرصة وجوده هناك فكان يتلقى على يده دروساً بالعربية ، يقول نعمة إنها أفادته كثيراً .

والذى يطالع مذكرات السكاكينى فى كتابه « كذا أنا يا دنيا » يجد لنعمة الحاج ذكراً فى مواضع منه ، ولا سيما فى الصفحات ٢٠ إلى ٣٤ التى يروى فيها حياته فى أميركا . فمرة تجده يقول : « الخميس فى ١٩٠٨/٣/١٢ – جاء السيد نعمة الحاج فأعطيته درساً ، ثم جلسنا نتحدث فى مواضيع مختلفة . . . » ومرة يقول : « الخميس فى ١٩٠٨/٣/٢٦ – بعد الظهر جاء السيد نعمة الحاج فأعطيته درساً ، وبعد الدرس خرجنا فمشينا قليلا فى الهواء النقى . . . »

ومرة ثالثة : « الاثنين فى ٢٠ / ٧ / ١٩٠٨ – وردتنى رسالة من السيد نعمة الحاج يدعونى معلمه ، ويدعو نفسه تلميذى . قال : « استفدت منك أكثر من كل المعلمين الذين علمونى ، وأرى أن لك فضلا على تهذيبى مثلهم إن لم يكن أكثر . وإذا كنتَ قد أسفتَ لمجيئك إلى هذه البلاد وضياع أتعابك فيها ، فأرجو أن تتعزى بأنى أقدر فضلك قدره » . فسررت واغتبطت . . . » .

وكان من نتيجة دروس السكاكينى ، وحلقات أدباء المهجر ، والمطالعة الشخصية المستمرة ، أن تفتحت الموهبة فى نفس نعمة الحاج ، فأخذ ينظم الشعر ؛ وكان يعرضه فى البداية على من حوله من الأدباء والشعراء لتنبيهه إلى مواطن الخطأ فى شعره ولغته .

وفى عام ١٩٢١ طبع ديوانه الأول فى مطبعة جريدة « الهدى » ، لصاحبها سلوم مكرزل ، فى نيويورك ، ودعاه « ديوان نعمة الحاج – الجزء الأول » ، وكتب إيليا أبو ماضى مقدمة الديوان ، فتحدث فيها على الأدوار التى يمر بها الشاعر ؛ ثم ختمها بقوله : « أكتب هذه الكلمة تمهيداً لهذا الديوان الذى تسرح النفس فيه بين معان كالكواكب المشرقة ، وألفاظ كدموع الفجر المترقرقة ، فقد صاغه صديقى نعمة الحاج فأحسن الصياغة ، ووفق وهو فى محيط غريب إلى الجمع بين ضروب المعانى البديعة ، والأوزان الموسيقية المرقصة ، فكان فى تقليده مبتكراً ، وفى ابتكاره مبدعاً .

« لقد سمع الناس من قبل الشاعر المتفنن نعمة الحاج ، اما اليوم ، وديوانه يوشك أن تتداوله الأيدى ، فإنهم سيشهدون آيته ، وإنها كما يرون من الآيات الخالدة » .

ومنذ ذلك العام إلى عام ١٩٥٩ لم يطبع نعمة الحاج شيئاً آخر من شعره فى كتاب ، بل كان يبعث بالجديد من قصائده إلى الصحف . وقد ذكر لى فى رسالته الأولى أنه كان يفكر فى زيارة الوطن ، وقد يتمكن فيه من طبع شيء من شعره الجديد فى ديوان آخر . وقد تكررت لديه هذه النية عام ١٩٥٦ ، وكتب إلىّ بذلك ، غير أن أمنيته هذه لم تتحقق إلا فى عام ١٩٦٠ ، حين أصدر فى بيروت ديوانه الثانى بعنوان « من نافذة الخيال » .

عمل نعمة الحاج فى التجارة متجولا مدة طويلة ما بين نيويورك وتكساس فى جنوب الولايات المتحدة . ولكنه فى عام ١٩٥٣ آثر الاستقرار ، فأنشأ حانوتاً للسمانة فى كارولينا الجنوبية . وفى هذا يقول فى رسالة بعث بها إلىّ فى ٢٠ فبراير عام ١٩٥٣ : « أنا لا أكاد أجد وقتاً حتى للأكل فى هذا الشغل ، فقد عدت إلى تجارة السمانة لا طمعاً بالربح المادى ، بل رغبة فى الاستقرار فى مكان ما بعد أن تعبت من التجول والركض على الطريق ، من نيويورك لحد تكساس فى الجنوب ، وكدت أنفق كل ما معى » .

وبعد أن غادر المرحوم الدكتور أحمد زكى أبو شادى مصر إلى نيويورك ، تأسست هناك رابطة أدبية دعيت « رابطة مينرفا » وانتخب نعمة الحاج رئيساً لها ، والدكتور أبو شادى أمين سرّها . وقد زالت هذه الرابطة من الوجود بعد وفاة أبى شادى ، الذى كان لولب الحركة فيها . وكانت هذه الرابطة تضم عدداً من رجال الفكر هناك ، من العرب والأميركيين .

* * *

بعد هذا التعريف بالشاعر نعمة الحاج وحياته ، ننتقل إلى النظر فى شعره ، ولا سيما المطبوع منه فى ديوانيه . ولدينا عدا ذلك قصائد متفرقة ، كان ينشرها الشاعر فى « السائح » و« السمير » و« البيان » من صحف المهجر .

وليس من شك فى أن هناك فرقاً فى المستوى الشعرى والفكرى بين شعر الديوان الأول وما جاء بعده . فى الديوان قصائد عديدة من شعر الشباب الأول حين لم تكن قد اكتملت لدى الشاعر موهبته ، ولا بلغ من الاختبار والنضج الفكرى مداه .

يقول الدكتور أبو شادى فى مقال له حول نعمة الحاج أذاعه من صوت أميركا :

« إن نعمة الحاج من أولئك الشعراء القلائل الذين يجتمع فنهم وشخصيتهم فى شعرهم ؛ وأصالةُ شخصية ناصعةٌ فى تعابيره ، لأن شعره ترجمة حياته بالأسلوب الفنى الذى يتذوقه ؛ وهو أسلوب رومانسى حيناً ، واتباعى حيناً آخر ، ولكنه ليس محاكاة متعمدة لأحد » .

ويقول فى مكان آخر من ذلك المقال : « لا ريب أن الجزء الأول من هذا

الديوان القيم هو نعمة الحاج فى شبابه ، مصوراً أفراحه وأتراحه وكفاحه ، ولو أن هذا الكفاح ما يزال متواصلا ؛ فليس فيه ذرّة من التصنع ، ولا من ملامح الشخصية المزدوجة . وفى ميزان الانتقاد يمثل هذا الديوان أيضاً عصر الشاعر وبيئته الأولى . . . ويمثل تفاعله معها ومع الوسط الأميركى الحر » .

والحقيقة أن الذى يقرأ شعر نعمة الحاج يجد صفة « الهدوء » هى الصبغة التى يصطبغ بها ، سواء منه ما نشر فى الديوان الأول ، وما نشر فى الصحف بعده . ثم فى الديوان الثانى ؛ فليس هناك افتعال ، ولا جعجعة ، ولا فوران ، ولا اهتمام بالأصباغ والألوان والتزاويق الفنية . فالصياغة هادئة سهلة ، والأفكار والصور تتوالى بهدوء ناعم ؛ وقليلة جداً هى القصائد التى تنوّعت فيها الأوزان والقوافى لدى الشاعر ؛ وما كان منها منوّع القوافى والأوزان فإنما يجرى مجرى الموشحات الأندلسية : فهو أوصاف للطبيعة ، ولتساقى كؤوس الشراب ، والحنين ، والحب ؛ والقليل منه للتأمل الروحى فى الحياة والكون .

أما أغلب شعر الحاج فهو من الطراز التقليدى ، وزناً وقافية وعبارة . والتقليدية ليست عيباً فى الأدب والشعر ما دام الشاعر والكاتب يستطيعان التعبير بها عما يحسّانه ويتأثران به من مشاعر ومشاهد ؛ والعيب هو أن يقع الكاتب والشاعر على المعانى التافهة ، والتعابير المبتذلة .

وإليك أبياتاً من قصيدة له بعنوان « شطح الزمان » ، وهى من الشعر الوصفى والتأملى ، أوحى بها إلى الشاعر المشيبُ والحياةُ التى لا تقف عن الدوران ، منذرة بقرب النهاية :

أين الربيـع من الخـريفِ ؟ ذهب التليد مع الطريـفِ
شطح الزمـان فلا رجـا ءٌ بالرجـوع أو الوقـوفِ
سارت ركائبـه بنـا والسير ينـذر بالحتـوفِ
تطوى الخصيب إلى الجـديـ ـب على حـداء كالعـزيفِ
بلغت إلى حيث العيـو ن ترى ذرى الطـود المنيفِ
متعممـاً بضبابـه يغشاه كاللبـد الـكثيفِ
يا للمشيب وقـد سطـا سطو القوىّ على الضعيفِ

عَلَمُ الشتاء تلــــوح فيــــه طلائع الحدث المخيــفِ
أين الشباب ، وأيـــن ذا ك العــزم كالحــدّ الرهيــفِ
حالت إلى اللين الصــلا بــة والغضـــارة للنشوفِ
والقلب زايلـــه الخفــو ق إلى رعاش كالوجيـــفِ
كنت العـــزيز من الرفــا ق فصرت منهم فى الطيــوفِ
سبقوا صفوفـــاً بالرحيـ ل وسوف نلحـــق بالصفوفِ
والغانيـــات إذا نظــر ن فنظــرة الطــرف العــزوفِ
ذكــرى اللهيف على الشبا ب أشد من وقــع السيوفِ
دنيـــا ترحّب بالضيـو ف لكى تروغ من الضيـوفِ

وإذ يجيل الشاعر طرفه فى الحياة يجد فيها الشر متغلباً على الخير ، ويجد المطامع هى التى تتحكم بالبشرية ، فيرسل لذلك زفرة أليمة من ظلم الناس ولؤمهم وغلبة الشر فيهم :

لماذا ينــال الأثيم الهنــاء ويشقى البرىء ولم يأثــمِ ؟
ويحظى الجهول بشهد الحياة وذو العقل والفضل بالعلقمِ ؟
وكم جاهِـــدٍ خاب فى سعيه وكم قاعــد فاز بالمغــنمِ
أيأكل ذو خدعـــة حصرماً ويضبرس ذوالصدق بالحصرمِ؟
وأين العــدالة فى عــالم سوى الشر فى جوّه الأقتمِ ؟

ثم يتطرق إلى التمثيل بقضية فلسطين ، التى نأى فيها الأقوياء المتحكمون عن كُل معنى من معانى العدالة ، فيقول :

أنانيـــة تلك لا غـــيرة بهـــا كل مغتصب يحتمى
فلسطين شاهدُنـــا ، إنهـــا فريسة ذى نهـم مجــرمِ
علانيـــةً صُلِبت كالمسيح وبيعت كيوسف بالــدرهمِ
فيـــا عجباً كيف دار الزمـــان وصال البغاث على القشعم !

وقد تمرّ بالشاعر لحظات من التشاؤم المرّ يبلغ فيها من دنياه حد اليأس ، فنسمعه يهتف :

لو كان أمـــرى فى يـــدى لوددت أن لم أولـــدِ

لم ألــق غـير النحس فى أمسى ، فماذا فى غــدى ؟
لم يبـق غـير ثمالــة فى الكأس للقلب الصـدى
فـولادتى بـدء الممـات ويـوم مـوتى مولـدى

ولكنه فى لحظات الإشراق النفسى يهتف مناجياً أمه بملء الحنان والحب والأمل ، فيقول فى قصيدته « ذكرى الأم » :

ذكرتُك إذ جـاء الشتاء ، وقـرُّه سهامٌ إلى الأكباد يشققن أضلعَا
فحنَّتْ إلى الدفء القلوبُ ، وشاقَها تذكّر حضن الأم إذ طاب مضطجعا
فيا أمّ ، يانبعَ الحيـاة ، فؤادُهـا إذا جفّ نبعٌ كان للحب منبعا
ويا أمّ ، يا ملجأ الأمـان ، ولاؤها يَرى القلبُ فيه فى الملمات مفزعا
تُزَعزَع أركانٌ ، وتهـوى شوامـخ ولكنـه فى القلب لن يتزعزعا

أو يناجى « أوراق الخريف المتناثرة » متفائلاً آملا ، فيقول :

وقولى لمـن دأبـهُ أن يـرى من العيش جانبَـه الأسودا :
إذا نعب البـومُ فى روضـة فـكم بلبلٍ فوقهـا غـرّدا
وما العمـر إلا بما فيـه من مفيدٍ ، وليس بطـول المـدى

وفى بعض الأحيان تكاد تسمع صوت المتنبى فى شعر نعمة الحاج ، من حيث فخامة العبارة ، وقوة الجرس ، وعلوّ الهمة ، وبعد المراد . وإليك من ذلك قصيدته « لعينيك » التى يقول فيها :

إلامَ تعانى الهمّ والطرفُ ساهـدُ وتنشد معواناً وليتك واجـدُ !
وتضرب فى طول البـلاد وعرضها كأنَّك قد سُدَّت عليك المـواردُ
لعمـرك كم هبَّت عليك زعازعٌ تهدّ ، وكم شدّت عليك شدائدُ
فكانت كأمواج تهاجم جلمـداً تشظَّت عليه وانثنت وهو صامـدُ
إذا لم يكن لى من يمينى مساعد فلا كان فى جسمى يمين وساعدُ
وما المال همّى فى الحيـاة وإنما أطارد خيل المجد فى ما أطـاردُ
فحسبى من العيش الكفاف ، وإن يزد فللغـير منه حصّـة وفوائـدُ

* * *

وما أحسب بعدُ أننا فى حاجة إلى أكثر من هذه الشواهد على شاعرية الحاج وإنسانيته ، وما يفيضه فى شعره من صور نفسه النبيلة ، المحبة للخير والجمال والعدالة والحق . وعسى أن نرى ديوانه الثالث فى وقت غير بعيد ، وأن نرى أمنية الشاعر تتحقق ، فيعـود إلى الوطن الذى فارقه فتًى غـــريراً ، وعاش بعيداً عنه بجسمه أكثر من سبعين عاماً ، ولكن روحه لم تفارقه ، بل ظلّت ترفرف إلى اليوم فوق ربوعه بالحنين الحارّ اللهيف فى قصائد عديدة .

١١ – مسعود سماحة

فى أوائل عام ١٩٤٦ قضى فى الولايات المتحدة الأميركية الشاعر اللبنانى مسعود سماحة ، ابن دير القمر ؛ وكان يحرّر مجلة « البيان » التى كان يصدرها سليمان بدور فى نيويورك ثم آلت إلى راجى الظاهر . ومسعود سماحة شاعر معروف له ديوان ضخم يقع فى ٢٧٢ صفحة من القطع الكبير ، مطبوع فى مطبعة جريدة « السمير » فى بروكلين سنة ١٩٣٨ . وقد قسم الديوان إلى أربعة أقسام ، فحشد فى القسم الأول منها مجموعة كبيرة من القصائد الاجتماعية والوطنية ، وفى القسم الثانى مجموعة أخرى من المدائح والتهانئ والوطنيات أيضاً ، وفى القسم الثالث طائفة من شعر الغزل والإخوانيات – وأغلب قصائد هذا القسم مقطعات قصار تتألف من بيتين أو أكثر – وخصّص القسم الرابع لِقصائد الرثاء .

وأما الصفة الغالبة على شعره فهى صفة التقليد ، أو الجرى على سنن القدماء . فيظهر أن سنّة التطور والتجدّد التى سمت بالرابطة القلمية فى نيويورك عن المدح والرثاء والتهانئ ، وعن عبودية القديم ، لم تجر عليه ولا كان له منها نصيب ؛ فليس فى شعره شيء من عناصر التجديد ، لا فى الأفكار ولا فى الأسلوب ؛ فغزله مثلا أقرب فى روحه وأسلوبه إلى روح عصر الانحطاط ، وفيه أحياناً شيء من أثر ابن الفارض . وهو يتعمّد النكتة البيانية قبل أن يحاول التعبير عن عاطفة حب صحيح . فإذا قرأت قوله :

قد راقنى منــــه رشيقُ قَوامــــه ... وبهـاء طلعته ورقّـــة خصرهِ
وبياض طرّته وحمــــرة خــدّه ... وذبول عينيه وروعـــة شعــرهِ
الورد حطّ رحالــــه فى وجهه ... والفلّ مدّ رواقه فى نَحْـــرهِ
لابِـــدْع إن مَلَك القلوب بأسرها ... فجماله مَلَكَ الجمال بأسرهِ

فلابدّ لك من أن تذكر إلى جانبه روح الشاعر القائل :

ما كنت فى عشقى لذاك القوامْ ... أوّل من حبّ مليحاً فهـامْ
فى غنج عينيــــه وفى ناظـــرى ... سحر حلال ورقـــاد حرامْ
أسقمنى والبرء فى ريقــــه ... ويا ضلالى وهـو بدر التمامْ

وأن يتداعى إلى خاطرك أيضاً شعر البهلول ، والشاب الظريف ، وصفى الدين الحلى ، وابن نباتة ، وحسام الحاجرى ، وغيرهم . فالروح الشعرية واحدة فى شعره وأشعارهم ، وهى تعتمد على اللغة وقواعد البديع قبل العاطفة والفكرة والفن . وليس من السهل مثلا أن تجد فى سائر المقطوعات الغزلية شيئاً من العاطفة الصحيحة ، أو التعبير الصادق عنها . كما أنه ليس هناك طابع خاص يتميز به شعر مسعود عن سواه ، كما يتميز شعر أبى ماضى ، مثلا ، أو نسيب عريضة ، أو نعيمه ، أو فوزى المعلوف ، أو حتى أسعد رستم .

أما المدائح والتهانئ والمراثى فنحن لا نعدّها من الشعر فى شىء ، وحيثما وجدناها فإننا نتخذها دليلا على عدم فهم صاحبها لرسالة الشعر التى هى أسمى من الشخصيات والأغراض ، كما نتخذها دليلا على براعة صاحبها فى النظم وحده ، لا على أصالته فى الشاعرية الحقة .

ومن أبرز الأدلّة على إفراط مسعود فى تقليد القديم أنه كثيراً ما يبدأ قصائده بالغزل – وهو غير مقصود – ثم يتطرّق إلى موضوعه الأصيل . مثال ذلك قصيدته « قلبى استعار . . . » فهى قصيدة وطنية ، ولكنه قدّم لها بخمسة عشر بيتاً من الغزل الثقيل المصطنع ، ثم تخلّص إلى موضوعه الوطنى ، وكذلك قصيدته : « أوجهك أم بَها البدر » ص ٩٣ ، والأخرى التى بعنوان « قد درّ غيمك » ص ١٥٨ ، وغيرها كثير .

والذى يتتبع قصائد الديوان باهتمام يجد فيها آثاراً كثيرة لشعراء مختلفين ؛

فنجواه لّليل فى مطلع قصيدته « الفقير » فيه أثر جبران فى نجواه لليل أيضاً ، وقصيدته التى بعنوان « الشام دارك . . . » ص ١٣١ مطلعها مأخوذ من مطلع قصيدة لحافظ إبراهيم ، فمسعود يقول :

الشام دارك أم ربى لبنـــانِ ... فكلاهما فى الكون خير مكـانِ

وحافظ يقول :

لمصر أم لربوع الشام تنتسب ؟ ... هنا العلا وهناك المجـد والحسبُ

وقصيدته « إذا » هى ترجمة لقصيدة ريدارد كبلنج المشهورة بعنوان « if » ولكن مسعوداً لم يشر إلى ذلك .

وإذا كان فى الديوان شيء يستحق أن نقف عنده طويلا للإشادة به فهو قصائد الحنين والوطنية ، وهى أكثر قصائده وأجملها . فمسعود كثير الحنين إلى لبنان ، وقصائد حنينه فيها كثير من العاطفة ، وإن كانت تجيء غالباً فى ملابس صحراوية قديمة مهلهلة ؛ وهو فى وطنياته يتحرّق ألماً – شأنه فى هذا شأن زملائه الآخرين – لخضوع أبناء وطنه للغرباء ، وللتفرقة التى تنخر فى جسم الوطن ، وهى من أكبر الأسباب لإذلاله واستمرار تحكم الأجنبي فيه . وهو يهيب كثيراً بمواطنيه إلى خلع نير الهوان ، والنهوض لنيل الحرية . ومن حنينه قوله :

تلك الربوع تركناها وما تركت ... قلوبنا حبّها أو حبّ أهليهـا
إذا دعتنا وإن شطّ المـزار بنا ... فـكل جارحة منّا تلبّيهـا

وأيضاً :

أقمت فى الغرب مضطرًّا وفى كبدى ... نارٌ ، وفى مفرق والقلب نـارانِ
أحـنّ للوطن الغالى وأرْبُعِـه ... حنينَ إلفٍ للقيا إلفـه عـانِ
نزحتُ عنه وأدنانى الهيـام لـه ... فاعجب لمن بات عنه نازحاً دانى

ومن حنينه وغضباته الوطنية قوله :

يا غريبـاً فؤاده بين جنبيـ ... ـه عليلٌ والروح فى لبنـانِ
أطلق الفكر رائداً فى هضـابٍ ... ورياضٍ مخضلّـة وجنـانِ
جبل خصّـه الإلـه بمـاء ... كوثـرىّ وورنق فتّـانِ
نقشت كلمة الجـلال على أط ... واده الشمّ كلمـة الرحمانِ

شاءه الله جنَّة فى بــلاد اللـ ـه بل شامة بخـد الزمـانِ
وبنــوه ، ولا تسل عن بنيــه بين خمر اللّمى وخمر الدنانِ
يحسبون القيـود تكتنف الأجيـ ـاد فيهم ، قلائـد العقيـانِ
يقظةً ! فالممـات أعذب وِرداً من ورود الشقا وعيش الهـوانِ
لا تنـوا ، فالسماء تحتقـر الوا نى وربُّ السما عـدوّ الوانى

ومن وطنياته أيضاً قوله :

ماذا جنى الشرق حتى كبَّلـوه كما يكبِّل القيد كفّ المجـرم الجانى
يسِمه الغرب ذلاً وهــو محتضرٌ يلقّـه كَفَنَا ذلٌ وإذعـانِ
ما ثـار يوماً بحـد السيف ثائـره ولا تعـدّى لعـدوان بعدوانِ
أمسى التعصب فى أنحائـه ملكاً والجهل أصبح فيه ربَّـه الثانى
تبًّا لقـوم أساءوا فهم ربّهـم فحاولـوا دكّ أديـان بأديانِ

وهكذا نرى مسعوداً فى حنينه يناجي وطنه نجوى العاشق المعمود ، ويبثُّه وجد الغربة وألم الروح ؛ وفى وطنياته ، يتحسّر على ذله ، ويستنهض همم أبنائه . وقصائد الحنين والوطنية عنده – كما هى عند غيره – تترك فى نفس القارئ أثراً عميقاً ، لأنها تعبّر عن ألم عميق وشعور صحيح ، ولهذا كانت شاعريته فيها أصدق وأبرع وأكثر انسجاماً وبساطة منها فى بقية قصائد الديوان .

١٢ – أسعد رستم

هذا لون مرح من ألوان الأدب المهجرى ، وصاحبه هو أسعد رستم [1] ، الذى اشتهر بمداعباته وفكاهاته المنظومة ، وقد جمع كثيراً منها فى ديوانه الضخم ذى الصفحات الثلثمائة والتسعين الذى دعاه « ديوان رستم » .

ونحن إنما ندعو هذا النوع من الكلام المنظوم شعراً تجوّزاً فقط ، لأن

---

(١) اعتمدنا فى هذا المقال على الجزء الأول من ديوان رستم ، وعلى قصائد متفرقة فى (أعداد مجلة سركيس) عام ١٩٠٨ فقط .

هذا اصطلاح درجت عليه الأقلام التى تدعو كل قول منظوم شعراً . والأمانة الأدبية تقتضينا – ما دمنا قد أشرعنا القلم لدراسة الأدب المهجرى بتوسع كثير – أن نتعرض لكل لون من ألوان هذا الأدب المهجرى . وصاحب هذا الشعر كان يعيش فى المهجر الأميركى الشمالى الذى هاجر إليه عام ١٨٩٢ ، وظل زمناً طويلاً ينظم هذا النوع من الشعر ، وينشره فى صحف المهجر ، وفى صحف الوطن فى بعض الأحيان .

والشعر الجيّد لابدّ له – فى رأينا – من أن تتوافر فيه أربع صفات : الأولى أن يوحيه طبع موهوب ، والثانية أن يعبر عن حاجات النفس والحياة بصدق ، والثالثة أن يكون صالحاً لتغذية العقل والقلب والروح ، والرابعة أن يتميز بالجمال والموسيقى والبساطة والانسجام .

وهذه الصفات لا أثر لها فى شعر أسعد رستم ؛ فالذى يطالعه يرى أن الرجل لم يكن يهمّه قطّ أن ينظم شعراً فنيًّا خالصاً للأدب والفن ، وإنما كان يهمه قبل كل شيء « النكتة » . ونكتته دائماً من طراز « النكتة السافرة » ، أو النكتة البلدية . ولأجل هذه النكتة لا يبالى أسعد رستم بتضحية النغم الشعرى ، وجمال الأسلوب واللغة . ونستطيع أن نقول إن تعابيره المنظومة إنما هى تعابير نثرية ، غالباً ما تكون سقيمة حتى فى نثرها ؛ فهو كثير اللجوء إلى الجوازات الشعرية التى لا يتعكز عليها سوى النظّامين .

والذى يطالع شعره يستغرب إذ يرى أن سنة التطور والتحرر التى درجت على إخوانه المهاجرين لم تطرأ عليه ، بل جعلته يعيش فى الدنيا الجديدة بمثل العقلية المقلدة التى كانت تعيش فى الدنيا القديمة ؛ فقد كثر فى شعره المدح والرثاء والهجاء والتواريخ الشعرية ، وهذا كله من أنواع الشعر « السفلى » – إن جاز هذا التعبير – لأنه إنما ينظم لمناسبات معينة ، ويكثر فيه التملق والمبالغة والبهلوانية ، وأيضاً بيع الضمير والكرامة . وقد كان رستم ينظم أكثر شعره بحسب طلبات الزبائن لا بحسب حاجات النفس والحياة ؛ والدليل على ذلك أنه يكثر فى قصائده من شعر الدعاية والإعلانات عن بعض الصحف أو الكتب أو السجائر أو غيرها ؛

حتى الكلاب لم يتورع عن أن ينظم فيها تقريظاً ؛ فقد قال فى كلبة لرجل أرمنى اسمه بدران :

عند الصديق رأيت يوماً كلبــة   حسناء فى أحضانهــا جـَروانِ
قل الصديق : إذا قدرت فصفهما   شعراً ، فقلت له : هما « بدران » !

واللفظة الأخيرة « بدران » المقصود بها التورية ، لأن اسم صاحب الكلبة هو « بدران » !

غير أنّ الظرف والدعابة هما عماد شعر رستم ؛ وهو لذلك خفيف الظلّ ، مُسَلٍّ بدعاباته وقفشاته . ومن ذلك مداعبته لشكرى الخورى صاحب جريدة « أبو الهول » التى كانت تصدر فى البرازيل ، فقد جمع فيها بين رثاء الشيخ إبراهيم اليازجى ، ومداعبة شكرى الخورى ، وقد أوردنا أبياتها فى فصل سابق .

ومن مداعباته الهجائية قوله فى ثقيل :

سألت الإلـــه تعالى : أربّـــى   أراك حزين الفـؤاد ، لمــاذا ؟
أجاب مشيراً إلى ابن فــــلان :   « لأنى خلقت على الأرض هذا » !

وقوله أيضاً فى دنىء :

أرانى بالتقمّص ذا اعتقـــاد   أصدّق ما به من كل قلــبى
وأعلم عـــن يقين أن هــــذا   قد انتقلت إليـه روح كلبٍ !

وقد بلغ من براعة رستم فى هذه الصناعة المرحة أن كان يتلاعب بالنظم كما يشاء ، وطبعاً لا تهمه ركاكة العبارة ، فهو – كما أسلفنا – لا يقول شعراً ، وإنما يلقى مداعبات ونوادر تزخر بالمرح والفكاهة مهما يكن نوعها . ومن ذلك استعماله القوافى الإنكليزية فى شعره ؛ كما رأينا فى فصل « طرائف ومطارحات » من هذا الكتاب .

إن أغلب قصائد ديوان رستم هى من الطراز الفكه ؛ حتى إهداء الديوان كان نكتة ، فقد جعله كما يلى : « فكرت فى الرجل الجدير بأن أهدى إليه ثمرة اجتهادى ، وبالجيد الخليق بهذا العقد الثمين لدىّ ، فلم أرَ أحقّ به من رجل الفضل ، من الشاعر المجيد ، من صاحب الأيادى البيضاء ، الذى تفضل ، حفظه الله ، بطبع « ديوان رستم » على نفقته ، ألا وهو صاحب الرسم الكريم الذى تراه على الصفحة التالية » .

ويقلب القارئ الصفحة ليرى الرسم الذى يشير إليه ، فإذا هو رسم أسعد رستم نفسه !

ولابد لنا من أن نذكر أن أسعد رستم هو طراز وحده فى هذه الناحية المرحة التى وقف عليها خياله وبراعته وصناعته وقد كان لشعره شهرة واسعة ، فكانت الصحف تتناقله وتعلق عليه ، والقراء يتلقفونه ويتندرون به . وقد تجد له فى العدد الواحد من المجلة بضع قصائد معاً .

غير أن هذا النوع من القريض ، وإن كان فيه تسلية وتفكهة للمجالس ، لا يدخل فى عداد الأدب الخالد الذى يغذى العقول والقلوب والأرواح ، والذى تبقى له كل خصائصه الفنية والإنسانية العالية التى تعبر عن حاجات النفوس ، وحاجات الحياة ، فى كل زمان ومكان ، وفى كل لسان .

١٣ – جورج صيدح

(من الرابطة الأدبية فى الأرجنتين)

« وليد دمشق عام ١٨٩٣ – خريج كلية عينطورا عام ١٩١١ – نزيل مصر إلى عام ١٩٢٥ ، وأسير الفنزويلا منذ عام ١٩٢٧ » .

كذلك يؤرخ الشاعر الدمشقى المهجرى جورج صيدح حياته فى سطرين جعلهما تحت رسمه فى آخر ديوانه « النوافل » الذى صدر سنة ١٩٤٧ ، وَوُضع تحت تصرف لجان الدفاع عن فلسطين .

ونحن نزيد هذا التاريخ المختصر شرحاً ، ليقف القارئ العربى فى الشرق على حياة هذا الأديب اللامع .

فى عاصمة بنى أمية ، وعلى ضفاف بردى ، رأى جورج صيدح النور ؛ فشب وفى قلبه حب عميق للنهر الذى تترنم دمشق بموسيقاه ، وللبلد الذى شهد عهد بنى أمية وأمجاد العروبة الخالدة فيه . ثم انتقل إلى عينطورا فى لبنان ليتلقى دروسه فى كلية الآباء اللعازريين فيها ، وقد تخرج منها عام ١٩١١ . ومن

المدرسة انصرف رأسا إلى التجارة ، فالتحق لذلك ببعض أقاربه فى القاهرة عام ١٩١٢ ، وظل هناك حتى عام ١٩٢٥ . وفى هذه الفترة كان ينظم الشعر فى الحنين إلى دمشق وبردى ، فيعبر عن حب صادق عميق لهما .

ثم غادر القاهرة إلى أوربا ، حيث اقترن عام ١٩٢٧ بفتاة فرنسية فى باريس . ومارس الأدب بالفرنسية التى كان قد تلقاها على مقاعد المدرسة فى عينطورا ، ثم مضى قاصداً إلى أميركا فى العام نفسه ، واتخذ من جمهورية فنزويلا مقرًّا لنشاطه العملى فى حقل التجارة . وإلى جانب ذلك لم ينس أن يستجيب إلى نزعته العربية والأدبية معاً ، فأنشأ مجلة « الأرزة » لخدمة الجالية العربية هناك ، ولم تكن الجالية تتجاوز الألف من الناس ، وقلّ أن كانت تصل إليهم جريدة أو شىء مطبوع بالعربية . وكان يوزع مجلته هذه مجاناً .

وفى عام ١٩٤٧ انتقل إلى الأرجنتين حيث أنشأ « الرابطة الأدبية » ومضى يوالى نشاطه التجارى والأدبى معاً . وقد برز اسمه منذ ذلك الحين بروزاً كبيراً ، فأخذت صحف الوطن والمهجر تتناقل قصائده الدالة على براعة شعرية كثيرة ، وروح قومية وإنسانية عالية . ثم عاد إلى الوطن ، وأقام فى بيروت منذ شهر نوفمبر سنة ١٩٥٢ إلى عام ١٩٥٩ ، ثم عاد فنزح إلى باريس ، وما يزال هناك إلى اليوم .

إن الجو العائلى ، والبيئة الغربية التى كان يعيش فيها الشاعر فى المهجر كانا كافيين وحدهما لإبعاده عن لغة قومه ، فقد كانت لغة التخاطب فى بيته هى الفرنسية وفى الخارج الإسبانية ؛ وهو ينظم الشعر فى كلتيهما فيوفق فيه ، ويجد القراء المعجبين به . ولكنه برغم ذلك كله ظلّ متعلقاً بوطنيته ، مخلصاً لعروبته ، محبًّا للغته ، وقد مضت عليه مدة طويلة فى فنزويلا وهو لا يكاد ينظم الشعر العربى إلا سرًّا ، فلما انتقل إلى الأرجنتين شرع يعنى بالنظم والنثر ، فأنتج هناك ما يؤلف ديواناً ضخماً ، ولكنه لم يتسن له طبعه لعدم وجود منضدين عرب هناك – كما ذكر لى فى رسالة تاريخها ٢١ / ٧ / ١٩٤٩ – إلى أن طبع ديوانه الثانى – فى باريس – بعد عودته من المهجر ، عام ١٩٥٣ ، ودعاه « نبضات » .

هذا شىء عن جورج صيدح الرجل فى حياته الخاصة . أما صيدح الشاعر

والأديب الكبير فإننا نجده فى ديوانه « النوافل » الذى أصدره للناس عام ١٩٤٧ ، وديوانه « نبضات » الذى طبعه فى باريس عام ١٩٥٣ – وكتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » الذى أعيد طبعه ثلاث مرات خلال الأعوام ١٩٥٦ و ١٩٥٧ و ١٩٦٥. وسننظر فى ما يلى فى كل من هذه الكتب على حدة .

(ا) ديوان « النوافل »

إن الذى يقرأ ديوان « النوافل » لابد له من الوقوف فى أول مرحلة من الطريق عند ثلاثة أمور : الأول الرسم الرمزى الذى يتربع على الغلاف الخارجى للكتاب ، وهو رسم يد فوق كتاب مفتوح تحمل قلباً آدمياً . وهذا القلب الآدمى هو قلب الشاعر يحمله على راحته ليقدمه إلى قراء شعره بأجلى بيان وأروع صورة فى أبيات قصائده .

والأمر الثانى هو الغاية التى طبع لأجلها الديوان ، وهى ليست تجارية ، ولا هى مجرد الرغبة فى أن يرى الشاعر لنفسه ديواناً مطبوعاً ، وإنما هى غاية إنسانية نبيلة : أُمها عمل الخير ، وأبوها بذل المعونة للمحتاجين ؛ فقد جعل الشاعر ديوانه تحت تصرف لجان الدفاع عن فلسطين .

وأما الأمر الثالث الذى يقف عنده القارئ فهو القصيدة الأولى من الديوان ، وهى بعنوان « السهل والجبل » فهى تعكس علينا من روح الشاعر الجميلة ألطف الشمائل وأجملها ، ملخصة فى قوله :

دونكم منجمى المبـــاح لمن يُعـ ... نى بتبر ولا يهـين الرمـــادا
سِفْرُ عمرى – ولا أزيد بيانــاً – ... ليس غيًّا محضاً وليس رشادا

* * *

عندما بدأت صلتى بالشاعر عام ١٩٤٩ ، تلقيت منه الرسالة الأولى ، وفيها كثير من التواضع وكثير من الاعتذار عن أشياء وهمية ؛ فقد كان يحسب أن فى لغته ضعفاً يدفعه إلى الخجل ، وأنه فى حاجة إلى نقاد يرحمون هذا الضعف

ولا يقسون فى التشهير . ولست أدرى ما الذى أوحى إلى الشاعر بهذا الوهم ، إذ الواقع أن لغته وشاعريته تستحقان التقدير والإعجاب .

قد تنحرف فى شعره لفظة عن قواعد سيبويه وضوابط المعجم ، ولكن يشفع لها جمال الانسجام والموسيقى فى مكانها ، كما يشفع لها أنها لا تحتاج إلى ترجمان يفسرها .

والشعر – عدا كونه رسالة إنسانية سامية – هو إحساس وموسيقى وخيال جميل ، فلا يحتمل التنطع ولا القيود .

غير أن هناك ملاحظة لا بدّ منها ، وهى أن شاعرية جورج صيدح لا تتجلى على حقيقتها فى هذا الديوان وحده ، لأن له قصائد كثيرة لم تجمع فيه ، وقد تناقلت صحف المهجر والشرق العربى كثيراً منها ، وهى من الشعر المحلق ونجد بعضها فى ديوانه اللاحق « النبضات » ، ثم فى ديوانه الثالث « حكاية مغترب » المطبوع فى بيروت عام ١٩٦٠ ، والذى يحتوى على قصائد مما فى الديوانين السابقين ، وعدد من القصائد الأخرى . وكذلك فى (ديوان صيدح) بجزأيه المطبوعين أخيراً فى بيروت ، ويتضمنان شعره السابق وشيئاً مما بعده .

ينقسم ديوان « النوافل » من حيث عدد الفصول إلى أربعة فصول ، يحتوى كل منها على مجموعة من القصائد التى نظمها الشاعر فى فترة معينة : فالفصل الأول يشمل قصائد الباكورة الأولى فى الوطن ، والثانى يشمل أشياء من قصائد الهجرة الأولى إلى مصر ، والثالث بعض القصائد التى قالها الشاعر فى أسفاره فى أوربا وغيرها ، والرابع بعض قصائد المهجر الأميركى .

غير أن هذه القصائد إذا أردنا تقسيمها من حيث المواضيع ، ينحصر أهمها فى الوطنية والحنين ، والوصف ، وشعر المناسبات . والذى يهمنا منها على الأكثر هو الشعر الذى يمس أشياء من نفوسنا وحياتنا . ولذلك ننظر من شعر ديوان « النوافل » فى نوعين من الشعر هما : ١ – الحنين والوطنية ، ٢ – الوصف وشعر النفس .

والحنين والوطنية فى ديوان « النوافل » قد فازا بأكبر حصة وأروعها ، وقصائدهما تدل على عاطفة أصيلة صادقة ، وعلى روح مخلصة فى الحب والوفاء .

وهو يعاودهما كثيراً ، وتتجلى فى معاودتهما اللهفة الحارة والحب الأكيد. فها هو ذا الشاعر فى مصر ، ولا يزال عهده بالشام قريباً جداً ، ولكنه يتذكر عاصمة بنى أمية بشوق لهيف حار ، فيقول :

إذا البلبلُ الغرِّيد فارَقَ رَوْضه — فكلّ رياض الكون فى عينه قفرُ
وداعاً دمشق الشام لم ترحم النَّوى — دموعى ، ولم يشفع بى السُّهدوالزَّفْرُ
وإنى لطير من طيورك لم تـزل — تجاذبنى تلك الحدائق والنهرُ

وفى الباخرة التى كانت تمخر عباب البحار فى طريقه إلى أميركا عام ١٩٢٧ يتذكر الشام ، فيعاوده الحنين اللهيف ، فتجود قريحته بقصيدة نونية رائعة يقول فيها مخاطباً البحر الهائج :

للشام أرواحنا يا بحر ، ما طمعت — أمواجك الهوج إلا فى بواقينا
ها نحن فالتقف الأجسام هامدة — وانثر عليها نديف الموج نسرينا
وخلّ أرواحنا تطفو مولية — شطر الديار ، تحيِّى من يحيينا

وأى حنين ووطنية أرق وأعمق من قوله :

عهد الشباب وعهد الشام إن مضيا — فكل ما أعطت الأيام حرمانُ

ومن قوله أيضاً فى لقصيدة نفسها – وعنوانها « دمشق الشام » :

لم أجفُ قومى ولا استنقصت قدرهمو — إنى فخور بقومى كيفما كانوا
ولى وديعة حبّ عند ذمتهم — وذكريات وأفراح وأحزانُ
بنو الخؤولة والأعمام ، ذنبهمو — إن صح ، صح له فى القلب غفرانُ
أهوى هواهم وأغضى عن مساوئهم — والناظرون بعين الحب عميانُ
دمشق ، إن أشجت الأوطان مغترباً — إنى لأوجع مَن أشجته أوطانُ
والله لولا فروض العيش ما بقيت — بينى وبينك أبحار وبلدانُ

أما قصيدته التى بعنوان « بردى » والتى يقول فيها مخاطباً نهر « بردى » :

ملأت منك يدى بعد امتلاء فمى — ولو قدرت ملأت الصدر والكبدا
حتى أقول لدهر سامنى ظمأ — فى غربتى ، «لن ترانى ظامئاً أبدا»

فإنها قطعة من أجمل شعر الحنين والوطنية ، ومن أرقه وأعمقه عاطفة . وفيها يذكر الشاعر أنه حلم ذات مرة أنه قريب من نهر بردى « يبلّ به قلبه كما يبل الندى

الهشيم » وأمامه تنبسط دمشق الجميلة التي يعرفها بقبابها المرتفعة ، وشاطئى برداها الجميلين ، وبالطيب المنبعث من واديها الذى تغذى من دماء شهداء الوطنية . ورأى نفسه على الضفاف الخضر مؤتنساً بأشجار الحور والصفصاف ، يهبط المنحنى ، ويستمع إلى خرير مياه النهر ، فيناجيه نجوى العاشق الملتاع ، ويتحدث إليه أحاديث الأيام والليالى الغابرة وما تركت فى التاريخ من ذكرى مرنة . . .

حلم جميل رائع ، تمر صوره وذكرياته أمام مخيلة شاعر مغترب يتغذى خياله على ذكريات الوطن التي تعيش فى قلبه وفى ذاكرته . ولكن ما يكاد النهار ينبلج حتى تتلاشى دمشق ونهرها الجميل من أمام الشاعر ، وتتلاشى الأطياف والرؤى ، والأشجار والضفاف الخضر ، والقباب والمرجة ، فإذا الشاعر غريب بين آدميين غرباء ، وإذا كل ما حوله جفاف وهمّ ، فيهتف قائلاً :

ما لى احتملت سنين البين مصطبراً	واليوم لا صبر لى فيها ولا جلدا
ضممت طيف الأمانى حين زار فلم	يترك على الصدر إلا الهم والكمدا
إن أفلت الطير من أسر فعودته	أقسى عليه من الأسر الذى عهدا
بئس الحياة حياة لا نعيم بها	إلا لمستَرِقٍ من نومه الرغدا

* * *

هذه نتف من شعر الحنين والوطنية فى ديوان « النوافل » ننتقل منها إلى الناحية الثانية من شعره ، وهى الوصف وشعر النفس . وقد جمعنا بينهما لأننا نجد بينهما رابطة قوية ، فوصف الشاعر لأحاسيسه وعواطفه وأخلاقه كثير فى قصائد هذا الديوان . فى قصيدته « المسيح قام » نراه يصف نفسه وما لقيه فى غربته الأولى فى مصر . وفى هذا الوصف يعبر عن عزة نفسه ، وسمو أخلاقه ، فيقول :

ثارت رياح القدر الجائره	تفتك فى أوراقه الناضره
من هو ؟ نبت من نبات العلا	تُسلِمُه الفيحاء للقاهره
جفّ وفيضُ النيل من حوله	والجوّ زاهٍ والربى زاهره
حاشاه يستندى أكف الورى	إن قاطعته السحب الماطره
نما صليبَ العود لا ينحنى	للريح ، فالريح له كاسره

وعزة النفس هذه يصفها الشاعر فى قصائد أخرى كثيرة ، فيقول فى قصيدة « وطنى » :

شاعر يرجَى ولا يرجو ، وفى مسجد الأصنام يوماً ما سجدْ
تتحـداه البغـاث استنسرت كلما زاد أنـاة وجـلدْ
عـاف وِردَ المـاء فيه ولغت حشرات القوم فاستسقى البردْ
وتمنى المـوت حتى لا يرى غـارة الهر على ذيل الأسدْ

أما أوصافه الشعرية الأخرى فلعل من أروعها قوله فى وصف ناطحات السحاب فى نيويورك ؛ وهو وصف لا نعرف أحداً سبقه إليه أو أجاد فيه مثل إجادته :

كُوًى تُطِلّ على الأفلاك أعيُنُها وأذنهـا تستقى أخبار باريهـا
أنوارها تكشف الآفـاق معلنـة عن سلعة ربما الأفلاك تشريها

أما قصائد الشاعر فى وصف مجالس الشراب والحب ففيها كثير من السحر والرقة . ومن ذلك قصيدته « الكوكتيل على الشاطئ » التى يقول فيها :

خطر الساقى فقلنـا هاتهـا نحن نرضاها على علاّتهـا
ربّ كأس زاد فى لذّاتهـا أثر الأفواه فى حافاتها — هاتها
طف ولا تمسح عن الكأس الخضاب طبعته شفة الخـود الكعاب
إن مـزناه سكرنا بالرضاب قبل أن نسكر من مزّاتها — هاتها

هذه نماذج قليلة جداً من شعر جورج صيدح فى « النوافل » أوردناها لنؤكد للشاعر أن لشعره رنيناً عذباً فى النفس ، وصدًى حبيباً فى القلب ، لأنه شعر صادق غير متكلف .

(ب) نبضات

هذا الديوان الثانى الذى يقدمه جورج صيدح — وقد قام بنشره الفنان العراقى جميل حمودى ، صاحب دار « الفكر الحديث » فى بغداد ، ليس ديواناً شعريًّا فحسب ، ولكنه مجموعة من زفرات الألم القومى ، والإيمان العربى ، ومن خطرات الروح الصافية الجميلة التى تعيش فى جسم الشاعر المهجرى ، الذى عاد مدّة إلى

الوطن العربى ثم عاوده شوق الغربة فاغترب من جديد ، وعلى حب أهله ، والحنين إليه وإليهم ، والتأسى لآلامه وآلامهم .

كيف يرتاح وتذكار الحِمَى كلما أقعده الجهد أقامَه
كم هَذَى مستصرخاً لبنانه وكم استعدى على البيْن شآمه
وتأسى بالليالى سترت دمعه الجارى على خدّ الكرامه
ويزيح المجد عن ناظره ليرى أشباح نجد وتهامه
كل نصر حازه دبّجه بسمات عربيات الوسامه
لو تسلى بالدنى عن قومه لم تعكِّر جوّ دنياه غمامه

لقد صوّر صيدح حنينه وشعوره الوطنى فى هذه الأبيات التى نظمها لتصوير مشاعر « المهاجر » فى استهلال ديوانه الجديد . والأدب أصدق ما يكون إذا جاء تعبيراً عن تجربة ذاتية وإحساس واقعى . وقارئ هذا الديوان يلمس بوضوح أنه مجموعة من الأحاسيس والاختبارات الواقعية ، ولهذا جاءت قصائده عميقة شديدة الحرارة ؛ كقصيدته فى ابنته ، مصباح حياته ، ساعة إجراء عملية جراحية لها ؛ وهى من أروع الشعر العاطفى وأصفاه وأرقه ومطلعها :

رفقاً بها يا مبضع الجرَاحِ شرّحتَ قلب الوالد الملتاحِ

وقد رأينا أبياتاً منها فى بعض الفصول السابقة .

هذه فى المشاعر الذاتية غير الوطنية ، وهى تحفة رائعة ، لا تفقد شيئاً من جمالها وروعتها لو ترجمت إلى أية لغة أخرى . أما فى المشاعر الوطنية فالقسم الأكبر من قصائد الديوان الباقية ، وهى كثيرة العدد . كما أن إهداء الديوان نفسه كان عاطفة قومية جميلة :

« إلى كل عربىّ اللسان والوجدان » وهو إهداء يدل على روح الديوان العامة ، بل على روح الشاعر إجمالا ؛ وهو القائل مخاطباً عاصمة الأرجنتين :

لا تسألى : من أين جاء ؟ فحسبه نسب العروبة أشرف الأنساب

وأيضاً :

لكننى راض لنفسى بالظما وإذا ارتوى قومى فلست الظامى

وكذلك :

كفرت بربي لوَ انى شككت   بنهضة قومى من العــثرةِ

أو :

ما كنت أدرى أنّ قلبي عندكم   فى صدرا كل موحَّد بالضادِ

وصيدح عربى حر : كل قطر عربى وطنه ؛ فهو من مهجره البعيد يحن إلى مصر ، ولبنان ، وفلسطين ، والحجاز ، كما يحن إلى مسقط رأسه دمشق ، ويتألم لمصائب جميع أقطار العروبة على السواء . ولقد جعل نحواً من نصف قصائد الديوان على فلسطين ومأساتها الكبرى ، فسالت لذلك قصائده فيها دماً حارًّا فائراً . ومن ذلك قوله :

ربّ ذكرى تطلّ من كأس خمر   كعيـون العفاة ، شَكْـرَى نـديَّه

مـا عـرفنا فيها فلسطين لو لم   يشهد الطعم أنهـا دمـويَّه

على أن مما يؤسف له أن صيدح – مثل القروى وفرحات ومن بقى من شيوخ المهجر – لم يعد يستطيع أن يقدم معنى جديداً ، ولا شعراً نابضاً بمثل الحيوية القديمة ، ولا سيما فى وطنياته التى أصبحت تغلب عليها الخطابية والعنترية ،وكذلك النثرية والركاكة ؛ كما نرى فى مجموعته (شظايا حزيران) التى ظهرت عام ١٩٦٩ ، وفى قصائده من النثر الركيك ، ومن العنتريات الخطابية شيء كثير . مما يدلّ على أن عهد الشعر الجيّد عند صيدح قد ذبل وانتهى أمره .

(ﺣ) أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية

هذا الكتاب وضعه صيدح بعد عودته إلى الوطن ، وإقامته فى لبنان إلى جانب ابنته التى اقترنت بالصحفى اللبنانى حنا غصن ، صاحب جريدة « الديار » . ولقد طبع كتاب صيدح هذا أول مرة عام ١٩٥٦ على نفقة معهد الدراسات العربية العالية ، فى مصر ، وأعيد طبعه للمرة الثانية فى بيروت عام ١٩٥٧ على نفقة صاحبه طباعة أنيقة فخمة ، وأعيد طبعه للمرة الثالثة عام ١٩٦٥ ، وقد جاء من أوفى المراجع عن الأدب المهجرى فى الأميركتين .

كان هذا الكتاب فى الأصل محاضرات ألقاها صيدح فى معهد الدراسات العربية العالية بدعوة من عميد المعهد ، حينذاك ، الأستاذ ساطع الحصرى ، ثم أضاف إليها أشياء تفيد فى استيفاء البحث فى أدب المهجر .

ولهذا الكتاب قيمة كبيرة لأن مؤلفه أديب مهجرى عاش حياة المهجريين ، وناضل فيها بعصامية مدهشة ينطبق عليها قوله فى قصيدة له بعنوان « المهاجر » من ديوانه « نبضات » :

ركب الأخطارَ فاستسهلَها مركباً ، واجترف الموتَ أمامَهْ
من جَهام السَّحب يستسقى الحيا عاصراً بالكف أثداء الجهامة
من رآه فى المفازات رأى أسداً يستنْجز الغابَ طعامه
وله أجنحة النَّسر إذا نفَر الرزق ، وأطراف النعامه

وعدا ذلك كانت له صلات من الودّ والألفة مع الكثيرين من أدباء المهاجر الشمالية والجنوبية ، فهو يعرفهم معرفة زمالة ورفقة ، ويعرف حياتهم وبواعث شعرهم وأدبهم ، وهو لذلك خير من يقول فيهم كلمة الإنصاف المجردة ، وخير من يقدم فيهم الدراسات الوافية الشاملة . ولذلك كانت لكتابه هذا قيمته الكبيرة وأهميته المرجعيّة .

وأدب المهجر هو أدب فترة من أنصع ما مرّ من عصور الأدب العربى وأزهاها ، وأدب فئة من المجاهدين الأوفياء الذين نذروا أقلامهم ومواهبهم لخدمة الأدب العربى وتجديده والسمو به إلى أرقى ما يمكن الوصول إليه ، ولخدمة أمتهم العربية وبلادهم بكل ما يستطيعون من وسائل الجهاد بالأقلام والصحف والمال . وهو لذلك أدب جدير بالدراسة المستفيضة لجوانبه المتعددة ومزاياه الأدبية الجديدة المبدعة . وليس كثيراً عليه ما صدر فيه من الكتب حتى اليوم ، قبل أن يندثر ويصبح شيئاً للتاريخ وحده ، لأن فترته قصيرة ، وإن تكن غنية بالحصاد الدسم والجنى الوفير .

ولقد جمع كتاب صيدح بين الأدب والتاريخ والنقد والتحليل معاً ، كما جمع « قصة الهجرة بما فيها من عناصر المأساة والبطولة والصراع الإنسانى والإثارات الوجدانية » كما قال فيه حسين مروه . وإذا كانت الكتب الأخرى التى وضعت

لدراسة الأدب المهجرى قد درس فيها أصحابها عدداً من مشاهير الأدباء المهجريين وحدهم ، كجبران ونعيمه ، وأبى ماضى ، والقروى ، والريحانى ، وفوزى وشفيق المعلوف وقليلين آخرين ، فقد جمع صيدح فى كتابه هذا أكبر عدد من الشعراء وحملة الأقلام فى المهاجر الأميركية ، وقدّمهم إلى القراء ، معرفاً بهم وبشعرهم على تفاوت فى التعريف والتمثيل ، بمقدار ما وصل إلى علمه ومعرفته بهم وبأدبهم . وهذه ميزة كبيرة يتميز بها هذا الكتاب على جميع الكتب الأخرى ، لأنه جاء جامعاً شاملا .

فى هذا الكتاب تسعة عشر فصلا ، وتقع طبعته الثانية فى ستمائة وست عشرة صفحة من القطع الكبير . وقد خصص منه المؤلف أحد عشر فصلا للدراسات العامة تناول فيها : هجرة الأدباء ومراحلها وبواعثها – وأدب المهاجرين – وخصائص الأدب المهجرى – ورسالته الإنسانية والقومية والاجتماعية واللغوية والعربية المحلية – وتأثر المهجريين وتأثيرهم – وسرّ التفوق فى أدب المهاجرين – ومناحى الأدب المهجرى – وأدب المناسبات – وأدب الحفلات – وأدب المباسطات – ومآخذ النقاد على الأدب المهجرى .

أما الفصول الباقية فقد خصص كلاًّ منها لأدباء بلد من بلدان الأميركتين : فواحد لأدباء الولايات المتحدة – وقد تحدث فيه على ثلاثة وعشرين أديباً وشاعراً ؛ وواحد عن أدباء البرازيل – وتحدث فيه على خمسة وسبعين أديباً ؛ وواحد على أدباء المكسيك ، لم يذكر فيه سوى أديب واحد ، وفصل على أدباء الأرجنتين – وقد عدّد منهم أربعة عشر أديباً ؛ وفصل على أدباء فنزويلا ؛ وآخر لأدباء الإكوادور ؛ وفصل لأدباء الشيلى ؛ والفصل الأخير لأدباء متفرقين فى بقية جمهوريات أميركا الجنوبية وأميركا الوسطى . إلا أن الحديث على الجمهوريات الأميركية الجنوبية عدا البرازيل والأرجنتين – جاء مقتضباً جدًّا وخاطفاً لأن مادة الحديث فيه قليلة ، فلم ينل أدباء هذه الجمهوريات العرب حظًّا كبيراً من الشهرة ، ولم يجدوا مجالا كافياً لإبراز مواهبهم وثمرات أقلامهم ، ولذلك لم يستطع المؤلف أكثر من الإشارة إلى من عرفه منهم سماعاً أو عن طريق بعض الصحف ؛ وهى إشارات لا تكفى للتعريف وكان من الخير عدم إيرادها لولا أن المؤلف أراد أن يفتح

الباب أمام الآخرين للبحث ، وأن يكون أميناً للتاريخ بقدر ما يصل إليه جهده .

وفى الدراسات المطولة التى كتبها صيدح على الأدباء والشعراء البارزين لم يكتف بالرواية وسرد الأعمال الأدبية والوقائع التاريخية ، وإنما كان يدرسهم ناقداً محللا ، متجرداً للأدب والحقيقة . ولذلك كان كتابه دليلا على رحابة الفكر ، ونضجه وعمقه ، كما أدى إلى الأدب المهجرى أعظم خدمة وأجلها ، إذ قدمه على حقيقته إلى القراء الذين لم يكونوا يعرفون عنه إلا الشيء القليل ، أو لا يعرفون من أصحابه سوى نفر قليل .

١٤ – فوزى المعلوف

« فى وسط ما يصم الآذان من جعجعة هذا الهذيان الأدبى الجديد ، وما حوى من مساخر كمساخر المرافع ، وتوافه كتوافه الصور المشبحة ، يتصاعد من الشرق صوت رخيم هادئ يُسكت إلى لحظة تلك الحناجر الثرثارة المعربدة ، حاملا إلينا بألحانه الشعرية بلاغاً من عالم الشمس ، نفضت عليه الشمس شعاعاً هو صوت يتراءى لنا جديداً لفرط إغراقه فى القدم ؛ صوت متوحد متعدد ، متصاب روحانى مشع منعكس ، تتلاءم فيه المتناقضات بأعجوبة خارقة ، ورشاقة شعرية رائعة ، وتلاحم إلهى بليغ » .

بهذه النبذة اللطيفة يستهل شاعر الإسبان « فرنسيسكوفيلاسباسا » مقدمته الطويلة المبدعة لمطولة شاعرنا الخالد فوزى المعلوف : « على بساط الريح » .

وفيلاسباسا هذا أراد أن يقدم إلى قومه تحفة أدبية غالية ، فلم يجد خيراً من مطولة فوزى هذه يترجمها إلى لغتهم ، ويزفها إليهم فى حلة قشيبة ممتازة ، مباهياً معتزاً بهذه الهدية النفيسة :

فمن هو فوزى المعلوف هذا ؟ وما هى مطولته ؟

« فوق حضن الربيع فى مثل هذا الـ ... يوم ، بعد العشرين من أيَّـارِهْ
نفضت وردة على الأرض عنهـــا ... كمَّها ، والدّجى صريع احتضارِهْ »

هكذا يؤرخ لنا فوزى نفسه مولده فى مطولته الثانية « شعلة العذاب » التى عاجله الموت قبل أن يتمها . فقد ولد هذا الشاعر الخالد فى اليوم الحادى والعشرين من شهر أيار عام ١٨٩٩ فى زحلة . وأبوه هو العلامة الغربى المرحوم الشيخ عيسى إسكندر المعلوف ، الذى قدم للغة الضاد وآدابها فى نفسه وفى أبنائه الشعراء اللامعين نخبة من أثمن الدرر التى يشرق بها تاجها الوضاء ؛ فلقد رفعوا لواء العروبة والأدب العربى خفاقاً فى الوطن وفى المهاجر الأميركية .

ولد شاعرنا فوزى فى ميعة الربيع من فصول السنة ، ومات فى ميعة الربيع من عمره وهو ما يزال يتنسم عبير الثلاثين من حياته الغنية بالأدب والشعر ، الحافلة بالنبل والجاه ، المملوءة بجلائل الأعمال فى سبيل إعلاء شأن الأدب العربى والأمة العربية . وقد تلقى فوزى دروسه الأولى فى المدرسة الشرقية فى زحلة ثم فى مدرسة الفرير الكبرى فى بيروت . وفى أثناء ذلك أتقن العربية والفرنسية – وقد أضاف إليهما البرتغالية والإسبانية بعد هجرته إلى البرازيل .

بدأ فوزى يعالج نظم الشعر العربى وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، فيوفق فى بعضه ويخفق فى البعض الآخر . ولكن ذلك كان على كل حال يبشر بشاعرية خلاقة مبدعة كانت ستتمخض عنها الأيام . وكذلك كان يعالج النثر تأليفا وترجمة ، ولكن لم يطبع شيء من نثره فى حياته ، كما أن أكثره لم تكمل مادته . وكان له من أبيه العلامة خير مرشد ومعين ؛ فلا غرو أن رأينا نبوغه يتفتح باكراً ويعطى جناه قبل الأوان .

وفى أيلول عام ١٩٢١ هاجر فوزى إلى سان باولو فى البرازيل ، حيث انصرف إلى الصناعة والتجارة ، مما در عليه الغنى العاجل ؛ ولكن ذلك لم يصرفه عن الشعر والأدب . فظل يشبع ميله إليهما بنظم القصائد الرائعة التى نالت أوسع شهرة بين العرب والإفرنج . ثم أنشأ المنتدى الزحلى فى سان باولو عام ١٩٢٢ ، ومضى يغذيه بنتاجه الأدبى الرائع خطابة وتمثيلا . ومن رواياته التى مثلت هناك : « ابن حامد ، أو سقوط غرناطة » ، وقد نشرت بعد ذلك فى منشورات مجلة « العصبة » ، ثم أعيد طبعها فى لبنان أكثر من مرّة .

ولا بدلنا من الإشارة إلى عناوين بعض كتبه النثرية ، فقد ألف رواية

« ابن حامد » المتقدم ذكرها ، و « الحمامة فى القفص » التى بدأها وهو فى سن السادسة عشرة ، و « صفحات غرام » و « على ضفاف الكوثر » . ولكن لم يتم من هذه المؤلفات كلها سوى رواية « ابن حامد » .

وأخيراً فوجئ فوزى بمرض اضطره إلى دخول المستشفى حيث أجريت له عملية جراحية لاستئصال الزائدة الدودية ، وتلا ذلك قرحة فى المعى الاثنى عشرى مثقوبة على مقربة من فم المعدة . وقد سببت القرحة تكوّن كمية كبيرة من الصديد أدّت إلى التهاب خطير فى « البريتون » (كما جاء فى رسالة من شقيقه شفيق معلوف إلى صاحب هذا الكتاب تاريخها ١٤ / ١ / ١٩٧٣). ولبث فى المستشفى ثمانية وأربعين يوماً ، ثم شاءت الأقدار القاسية أن ينشب الموت أظافره الشرسة فى ذلك الجسم النديان ، وينتزع منه جوهرة حياته الغالية فى يوم الثلاثاء السابع من شهر كانون الثانى (يناير) عام ١٩٣٠ ، برغم كلّ جهود الأطباء وعلاجاتهم .

أما أخلاقه فى معاملاته للناس فكانت دائماً مثالا للنبل ، فقد كان حب الخير رائده ، والابتسامة الرضية المشرقة لم تكن تفارق ثغره ، فكان محبوباً مكرماً حيثما وجد . ولا أدل على ذلك من قول الدكتور فيليب حتى عنه :

« قلّ من الشبان الذين تعرفت بهم فى السنين الأخيرة فى القارات الخمس من أثر فى نفسى أثراً مستحبًّا ، أشد من الأثر الذى تركه فىّ فوزى المعلوف . . فهو فى كل الحالات هو هو : رضى الأخلاق ، لطيف المعشر ، كبير النفس ، بعيد النظر ، على استعداد دائم للعطف على كل مشروع فيه خير للبلاد السورية التى أحبّها وأنشأته ؛ عطف عملى لا شفهى فقط . الفتوة العربية فى أحسن مظاهرها ، كان يمثلها فوزى المعلوف »[1] .

هذه الأخلاق السامية التى استحقت إعجاب الناس من عرب وفرنجة تجعل من فوزى مثالا للشاب العربى الذى يستطيع أن يرفع رأس العروبة عالياً ، وتفاخر به أمته وأوطانه ، إذا ما فاخر الناس بشبانهم . ولكن هذا الشاب الذى امتلك المال ، والجمال ، والشباب ، والجاه ، والعافية ، والشاعرية المبدعة ، واستحق الإجلال والإكرام فى كل مكان وطئته قدماه ، كان أبداً منطوياً على نفسه

---

(١) ذكرى فوزى المعلوف – ص ٥٩ و ٦٠ .

ينتزع من بين حناياها تأملات نقطر بالألم ، وتنضح بالتشاؤم . لقد كان متشائماً إلى أقصى حد مما طبع أكثر شعره بهذه الصبغة السوداء ؛ فهو ناقم على الحياة ، ناقم على المجتمع ، لا يرى فيهما بذرة من خير ، ولا مكاناً للسعادة . وهذا التشاؤم رافق حياة الشاعر كلها منذ الصبا ، ووسمها بميسمه . فقد ذكر شقيقه شفيق فى كتاب « الذكرى » أن فوزى قد كتب قبل هجرته إلى البرازيل على إحدى المفكرات ما يلى : « خلقت فى أيار فى حضن الربيع ، والأرض بما فيها زاهية باسمة ، وأنا فوقها منقبض النفس ، مقطب الجبين . وما أمر العبوسة فى محيط الابتسامات ! لذلك أتمنى أن يطرحنى الدهر عند موتى فى حضن الخريف ، بين اصفرار الأوراق ، وذبول الزهور ، وبكاء السماء . حينذاك قد أبسم عند عتبة الموت غير آسف لفراق حياة قطعتها فى خريف صامت ذاو ، وتركتها فى خريف صامت ذاو » .

وفى عام ١٩٢١ كتب تحت أحد رسومه :

« كلّ هذى الحياة وهمٌ ، وهذا الـ ... رسم وهمٌ ، وما أنا غـــير وهم

« غير أن الرسوم تبقى طـــويلا ... وأنا أمّحى بـروحى وجسمى[1]

وكتب تحت رسم آخر كان يبدو فيه عابساً :

« وقفت أجيل الطرف فيما يحيط بى ... فلم أر حـولى ما يبش له ثغرى

« فلا تعجبوا إن كنت فى الرسم عابساً ... فما الذنب ذنبى ، إنما الذنب للدهر[2] »

وترافقه هذه النغمات السود إلى أن يطفح مرجله ، فينظم عصارة آلامه ، وخلاصة تشاؤمه فى مطولة تبدأ بالدمع وتنتهى بالدمع . تلك هى « شعلة العذاب » التى كانت آخر ما درج به قلمه ، ولم يمهله الموت حتى يمسح القلم منها ؛ فقد قضى وخلّف النشيد السابع منها مشنوق النغم على حنجرة الأبدية الخرساء بعد أن خط منه بيتين فقط ، ويبدأ فوزى هذه المطولة فى النشيد الأول بقوله تحت عنوان : « لغز الوجود » :

برعمَ الزّهر ! ما وُجدت لتبقَى ... بل ليمضى – بك الخريفْ

هذه حالنا : خُلقنـا لنشقَى ... ولتقضى – بنا الحتـوفْ

---

(١) الذكرى – ص ٥١ .

(٢) الذكرى – ص ١١ .

وفى النشيد الثالث منها يقول تحت عنوان : « بين المهد واللحد » :

بسمةَ الأهل ! يوم نولد حُولى   عبراتٍ – على المهودْ
دمعةَ الأهل ! يوم نُلحد سيلى   بسماتٍ – على اللحودْ
ليت شعرى لمن بسمتم ؟ أللآ   تى لى الكون مستهلا بعبرَهْ ؟
وعلى من بكيتم ؟ أعلى الرا   حل عنه ، وزاده منه حسرَهْ ؟
يولد الطفل للعذاب ، وهذى   سنَّة الدهر ، وُقِّى ما الطفل شرّه
بين أوجاع أمه دخل المه   د وبين الأوجاع يدخل قبره
إن من جاء مهده مكرهاً ، يمضى   إلى لحده غداً وهو مكره
وهو إن مات ليس يخسر إلا   عيش بؤس ، فكيف يرهب خُسْرَه

وهكذا يمضى فوزى فى هذه المطولة حتى يختمها الموت على البيتين التاليين من النشيد السابع :

مرحباً بالعذاب يلتهم العيـ   ـن التهاماً ، وينهش القلب نهشا
مشبعاً نهمة إلى الدم حرّى   ناقعاً غلَّةً إلى الدمع عطْشَى

وفى قصيدة أخرى من قصائده نسمعه يستعجل الموت ويتشوق إلى لقائه قائلا :

والآن يا موت إلىّ اقترب   يا حبذا بالموثق المعتقِ
معتق نفسى من قيود الأسى   موثق جسمى فى المدى الضيقِ
لم يبق لى فى الأرض من بغية   ما الأرض إلا جنةُ الأحمق

فهو فى هذا التشاؤم الذى يبلغ نهاية مداه ، على نقيض تام من شاعر البهجة والحياة : إيليا أبى ماضى ، الذى يدعو دائماً فى شعره إلى التمتع بالحياة ، ويريد منا أن نبتسم حتى فى أحرج الأوقات ، وأن تكون حياتنا كلها أملا مشرقاً ، وينقم على من لا يرون فى الحياة إلا السواد . غير أن الحياة التى يلتقى فيها الحسن والقبح ، والشقاء والسعادة ، تلتقى فيها كذلك نفوس لا ترى إلا الحسن والسعادة ، ونفوس أخرى لا تستطيع أن ترى إلا القبح والشقاء ، سواء أشاءت أم أبت ، فليس لها فى ذلك خيار . وعبثاً تطلب إلى البلابل أن تسجع لنا بغير ألحانها التى وهبها إياها خالق الطبيعة والحياة لتعبّر عن إحساسها بالطبيعة والحياة .

ونحن نرى أن هذا التشاؤم المر العنيف عند فوزى المعلوف ، وهو فى ميعة العمر وفى عنفوان العافية والجمال والغنى ، إنما مصدره التأمل الطويل ، الذى لا إرادة للشاعر فيه ولا اختيار ، فى الموت ، وفى آلام الحياة . وكل منا لا بد أن تكون قد مرت به فترات مثل هذا التأمل القسرى ، ولكنه فى حياة فوزى كان متواصلا مستمراً ، مما أدى إلى صبغ شعره بهذه الصورة التى نراها .

أما الحب فإننا نرى فى شعر فوزى نفسه كثيراً من الأدلة الساطعة على أن هذا الشاب المرهف الشعور قد أصيب بصدمة عاطفية عنيفة نغّصت عليه صفو الحياة ، وحولت فكره إلى التشاؤم المر ، والنظرة السوداء إلى الحياة . ثم تمادت معه الغصة من أثر هذه الصدمة ، فصار يرى الحياة وكل ما فيها أشباحاً مجرمة مرعبة ، وصار يشتاق إلى الموت ليريحه من حياة الدموع والألم . فالنشيد الثامن من مطولته « على بساط الريح » كله شاهد على إخفاق مُرّ فى الحب . يقول الشاعر :

عشت بين المنى ، يراود نفسى   خُلَّب من طيوفها وعقـامُ
أقتفيهـا وفى يدىّ فـؤادى   ثم ألوى وفى يدى حطـامُ

أليس فى البيت الأخير قلب تحطم ، وحب أخفق ؟ ! ثم يتابع الشاعر قائلا :

أىّ حلم سبكتـه ذهبيـا   لم تـذبه بنـارها الأيامُ ؟
ورجـاء حبكتـه من خيوط الـ   ـنور لم ينسدل عليه ظـلامُ ؟
أىّ كأس قـربته من شفـاهى   لم تحل حنظلا عليه المدامُ
وفـؤاد ذوّبتُ فيه فـؤادى   لم يَضِع عنده لعهدى ذمامُ ؟

فهذه الأبيات كلها – وعلى الأخص الأخير منها – تنبض باتهام خطير – كما يقول محمود أبو الوفا – ، والحروف فيها تلمع لمعات الدماء فى الجراح المنكوءة .

وفى النشيد السابع يعاتب الشاعر النجوم فيقول :

سامح الله فيك قلباً نسيًّا   هو فى الكون مثل قلب ملاحِه

وعلى الرغم من أن المعنى فى الشطر الأخير من البيت مطروق كثيراً لأننا تعودنا أن ننسب الخيانة والتقلب إلى قلب المرأة ، فإن العبارة فى مكانها هذا تعنى لنا شيئاً

كثيراً ، لأننا نعلم أن فوزى يلفظ أحاسيسه العميقة فى ألفاظه ولا يقول فى شعره إلا الصدق ؛ وذلك كل ما طلبه من قلمه :

يا يراعى رافقتَ كل حياتى فارْوِ عَنِّى ما كان حقًّا وصدقًا

ثم إننا حين نأخذ قصيدة فوزى التى يخاطب فيها الموت طالباً إليه أن يسرع بأخذ شبابه وقلبه النابض ، نقف عند بيت يعنى لنا كل شىء فى قصة تشاؤم فوزى . فهو بعد أن يقول :

لم يبق لى فى الأرض من بغية ما الأرض إلا جنَّة الأحمقِ

نراه يبدى اشمئزازه من كل ما يحبه الناس ! من الناس ، والمال ، والشعر ، والصِّيت ، والعلم . ولكنه حينما يصل إلى « الحب » يتوقف ملهوفاً ليلتقط أنفاسه المتسارعة ، ويهدئ من ضربات صدره العنيفه الثائرة ، فيهتف :

الحب ؟ قف يا موت واشفق على قلبى ودعه لحظة يَخفقِ

لى بغية قبل الردى ، ليتها تمَّت فلم آسف ولم أُفرقِ

وتلك : أن ألمح محبوبتى فنحن بعد اليوم لن نلتقى !

ألا تعنى هذه اللهفة – ولا سيما فى قوله : « قف يا موت ! » – كل شىء ؟ ألا تهتف لنا الألفاظ بما وراءها من معنى القلب المحطم ، الذى أذلّه الحب ؟

وقد علمت من إحدى قريبات فوزى أنه قد أحب فى زحلة فتاة جميلة ، ولكنه لم يتمكن من الاقتران بها ، فاضطرته خيبته إلى الهجرة إلى البرازيل حيث ظن أنه يستطيع أن يدفن آلامه ، ولكنه أخفق حتى فى هذا . فهل نستغرب بعد هذه الصدمة العاطفية يتحطم بها قلب شاب فى نحو العشرين من عمره أن لا تنضح نفسه بغير الدمع السخين ؟ !

هذا هو شاعرنا الملهم الخالد فوزى المعلوف ، صاحب على بساط الريح ، الذى غنّى على الأرض لحن السماء ، ثم طار عن وكره ولما يتم نموه إلى حيث يلتقى بروحه التى ركب – فى مطولته هذه – بساط الريح ، وهزئ بالأنواء والعواصف ، والنسور والنجوم ، فى سبيل البحث عنها ومعانقتها ؛ إلى حيث الحرية الخالدة التى أجهد فكره وخياله فى البحث عنها فى عالم الجسد الفانى ، فلم يجدها ، فراح ينشدها فى عالم الروح ، وهو ما يزال فى الثلاثين من عمره .

١٥ – إلياس طعمه (أبو الفضل الوليد)

فى عام ١٩٣٨ وقعت فى يدى قصيدة مخمسة لشاعر مهجرى اسمه إلياس طعمه ، وعنوانها « الفلاح » أذكر منها ما يلى :

يا حاصد الزرع ، ألقِ الحبل والمنجلْ الشمس غابت وأستار الدجى تُسدلْ
والربّ باركَ يا فلاح ما تعمـــلْ فقل إذا أطربتنا رنةُ الجرسِ :
ما أبدع الكون يا ربى وما أجملْ !

وكانت بالنسبة إلىّ قصيدة يتيمة لا أعرف شيئاً عن صاحبها ، ولا أعرف له قصيدة سواها . وقد أعجبت بها وحفظتها حينذاك ، وجعلتها بعدئذ من محفوظات طلابى فى بعض المدارس التى عملت معلماً فيها .

ومضت الأيام ووقعت على عدد من القصائد لشاعر اسمه « أبو الفضل الوليد » لم أكن أعرف إذ ذاك أنه مهجرى ، ولا كنت أعرف الصلة بينه وبين إلياس طعمه .

وولعت بعد ذلك – منذ عام ١٩٤٦ – بالأدب المهجرى ، واتصلتُ بالكثيرين من أدباء المهجر ؛ وعرفت فى هذه الفترة أن أبا الفضل الوليد كان هو إلياس طعمه نفسه . وكان أول من عرفت هذا عن طريقه هو الأديب المهجرى توفيق ضعون من كتابه « ذكرى الهجرة » المطبوع فى البرازيل عام ١٩٤٧ . غير أننى لم أعرف عنه ما فيه الكفاية ، ولا استطعت أن أقع على شىء من مؤلفاته أو دواوينه الشعرية .

ومنذ ذلك الحين كتبت الكثير جداً ، وأذعت الكثير جداً عن أدب المهجر وأدبائه ، ولكننى لم أكتب فصلا واحداً عن أبى الفضل . حتى حمل إلىّ البريد فى شهر شباط « فبراير » عام ١٩٥٢ رسالة من أخ عربى درزى ، كان يقيم فى نيجيريا – اسمه فايز محمود مكارم – تفيض بالعتاب لإهمالى الكتابة عن « الشيخ أبى الفضل الوليد – أشعر من شعر وأكتب من كتب » – كما يقول – وقد ضمن كتابه ذاك نتفاً من بعض قصائد الشاعر ، وعاد فأردف كتابه بثان ، ملأه بمختارات من نثر أبى الفضل الوليد الذى كان ينشره فى السنوات الأخيرة من عمره فى جريدة « الحديث » اللبنانية – لصاحبها إلياس حرفوش – وتلطف فأهدى إلى مع

كتابه الثانى نسخة قديمة ممزقة الغلاف من ديوان « الأنفاس الملتهبة » للشاعر ، كانت هى كل ما لديه من دواوين الشاعر ومؤلفاته .

وكان أكثر ما يتألم له الأخ فايز مكارم شيئين : الأول أن العرب لم يعرفوا قدر هذا الشاعر الفذ فأهملوه وتجاهلوه حتى وفاته – التى كانت بسبب سقوطه عن سطح عال ، كما يقول – والثانى أنه لم يقم أحد بتنفيذ وصية الشاعر التى طلب فيها أن يدفن على ضفة نهر بردى فى دمشق ، لأنه كان أحب الأنهر إليه وأقدسها .

وعدا الأخ فايز مكارم عاتبنى أكثر من واحد من إخوانى الأردنيين – وفى مقدمتهم صديقى المرحوم سعيد دره ، وكيل وزارة التربية والتعليم الأردنية سابقاً – لعدم اهتمامى بالكتابة عن أبى الفضل الوليد ، وهو لا يقل فى شاعريته ووطنيته عن القروى وفرحات [١] .

ولقد عثرت مرة على « كتاب القضيتين » من تأليف أبى الفضل الوليد ، فاجتمع عندى أثران أدبيان له هما هذا الكتاب ، وديوان « الأنفاس الملتهبة » . « ثم وقعت على عدد من قصائده الأخرى . وعلى عدد من الأبحاث التى كتبت حوله فى بعض الصحف والكتب . فلم يعد بد من الكتابة عن هذا الشاعر المهجرى ، والأديب القومى الكبير .

وكنت مرة فى زيارة لصديقى الأستاذ ألبرت الريحانى فى الفريكة . وفى الطريق إليه ، وعلى مقربة من الفريكة ، مرت بنا السيارة فى قرية « قرنة الحمراء » ، فقلت : أهذه قرية إلياس طعمه ؟ فالتفت إلىّ أحد ركاب السيارة من أبناء القرية وقال : تعنى « وليد » ؟ قلت : نعم ، أعنى أبا الفضل الوليد . فقال : هو من هذه القرية ، وقد توفى ودفن فيها منذ سنوات . ولما سألته عن سنة وفاة الوليد لم يستطع أن يعرفها بدقة .

* * *

---

(١) رأينا فى فصل (الحنين إلى الوطن) كيف يعترف فرحات ، فى مجلة (الضاد) الحلبية . بأنه خلال الحرب الكونية الأولى « لم يكن يُسمع غير صوت أبى الفضل الوليد مجلجلاً بالقومية العربية » ، فهو إذن أسبق من فرحات والقروى وأعرق فى شعره القومى .

ولد إلياس بن عبد الله طعمه فى قرنة الحمراء عام ١٨٨٩ من أسرة ثرية ، وتعلم فى مدرسة القرية ، ثم أرسله أبواه إلى مدرسة عينطورة ، فقضى فيها ثلاث سنوات تعلم فيها العربية والفرنسية ، ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة فى بيروت ثلاث سنوات أخرى . وفى مدرسة الحكمة أخذت موهبته تتفتح وتبرز ، فقد جعل ينظم الشعر بالعربية والفرنسية .

وقبل أن ينهى دراسته فى مدرسة الحكمة عاد إلى قرنة الحمراء وما يزال فى السادسة عشرة من عمره . وبقى فى بيت أبويه ثلاث سنوات ، حتى كانت سنة ١٩٠٨ ، وفى ذلك العام أصر على الهجرة إلى العالم الجديد برغم إلحاح أبويه عليه بالبقاء معهما ، لعدم حاجته وحاجتهما إلى اغترابه لأجل المال . وفى طريقه إلى العالم الجديد زار مصر ، وإيطاليا ، وإسبانيا ، والبرتغال . ثم حط رحاله فى الجمهورية الفضية – الأرجنتين – وبقى فيها سنتين . ثم هجرها إلى البرازيل ، واستقر فى ريودى جانيرو اثنتى عشرة سنة .

وفى البرازيل أنشأ عام ١٩١٣ جريدة دعاها « الحمراء » ، استمرت فى الصدور أربع سنوات . كما عمل محرراً فى عدد من الصحف هناك . وكان خلال ذلك عربيًّا حرًّا فى أدبه وشعره ، يدافع عن حرية قومه ، ويناهض قوى الظلم والطغيان فى عهد الاحتلال التركى أولا ، وفى عهد الاستعمار الفرنسى والبريطانى بعد ذلك .

وفى عام ١٩١٦ غير اسمه رسميًّا فى سجلات حكومة البرازيل : فبدلا من « إلياس طعمه » أصبح اسمه « أبو الفضل الوليد بن عبد الله طعمه » . ويذكر توفيق ضعون فى كتابه « ذكرى الهجرة » أنه أعلن إسلامه حينذاك ، وقد بقى على إسلامه إلى آخر حياته ، وظهر ذلك جليًّا فى شعره .

وخلال إقامته فى البرازيل طبع عدداً من تآليفه الأدبية ودواوينه الشعرية . ولما عاد إلى الوطن بعد ذلك راح يعيد طبعها من جديد .

فى عام ١٩٢٢ لم تعد تطيب للوليد حياة الغربة ، فقد كان يحن حنيناً لهيفاً إلى بلاده العربية ، ويتحرق شوقاً إلى خدمتها بنفسه وقلمه وهو بين أهليها المقيمين . فغادر البرازيل عائداً إلى الوطن ؛ وفى طريق عودته عرج على تونس والجزائر .

وفى عام ١٩٢٤ رحل إلى القاهرة ؛ وعُرِضت عليه هناك مناصب حكومية عالية فأبى أن يتولى شيئاً منها .

وفى عام ١٩٢٥ استدعاه الشريف حسين بن على لزيارته فى العقبة – وكان قد خرج من ملكه فى الحجاز – فغادر الوليد القاهرة إلى القدس ، ثم إلى عمان ، حيث رافقه الأمير طلال بن عبد الله – أمير الأردن حينذاك ، وملكها بعد ذلك ووالد الملك حسين ملك الأردن اليوم – إلى العقبة لزيارة جده الملك حسين . وقد أقام أبو الفضل الوليد فى الأردن نحو ستة أشهر ، وعرضت عليه وظائف عالية فى الدولة ولكنه لم يكن يقبل وظيفة . ثم غادر الأردن إلى سوريا ، ثم إلى العراق حيث احتفى به الملك فيصل وأكرمه .

وفى عام ١٩٢٩ انتدب لتمثيل لبنان فى المؤتمر الشرقى ضد الاستعمار فى برلين . ثم عاد إلى لبنان يعمل بجد ونشاط ، ويكتب فى الصحف ، ويطبع الكتب والدواوين الشعرية ، متوخياً حرية قومه ووحدة بلاده وسيادتها .

ومنذ عام ١٩٣٤ أخلد إلى العزلة ، وظل كذلك ، لا يكاد يُعرف له شىء من النشاط غير ما يكتبه أحياناً فى « الحديث » وبعض الصحف الأخرى ، حتى توفى فى أواخر الحرب العالمية الثانية ، فلم يشعر بموته إلا الأقلون من أخلص أصدقائه ، ولم يهتم بالكتابة عنه غير جريدة « الصفاء » التى كان يصدرها رفيقه أمين ناصر الدين ، وعدد قليل آخر من الصحف . ثم نسيه الناس ، وفقدت مؤلفاته ودواوينه من الأسواق ، ولم يهتم ناشر ببعثها من جديد حتى اليوم .

* * *

لأبى الفضل الوليد عدد غير قليل من المؤلفات والدواوين الشعرية وهى ، فى الشعر : « رياحين الأرواح – أغاريد فى عواصف – الأنفاس الملهّبة – نفخات الصور – غافر ولبانة – السباعيات » . وفى النثر : « أحاديث المجد والوجد – كتاب القضيتين – المآلك – زوال الحب والملك – التسريح والتصريح » . وقد ذكر له بعضهم كتباً أخرى كان قد طبعها فى المهجر ، منها – فى الشعر : « الغريبات – والقصائد » وفى النثر « كتاب الشعب – نفحة الورد – آخر بنى سراج – الصحائف » . وذكر أيضاً أنه اشتغل كذلك فى وضع عدد من الروايات

التمثيلية ، منها « أسرار بغداد – نكبة البرامكة – وأحمد وولادة » ؛ كما ترجم قصيدة « البحيرة » للامارتين – و « الليالى » لألفريد دى موسيه ، وقسماً من « الكوميديا الإلهية » لدانتى ، وثلاث روايات لألفريد دى موسيه هى : « أحلام العذارى – والحب آخره قتل – وبعثناه خاطباً فتزوج » ، وكل هذه المسرحيات والمترجمات كان مما عمله فى عامى ١٩٠٦ و ١٩٠٧ قبل هجرته إلى أميركا ، وهو بعد فى سن السابعة عشرة والثامنة عشرة . وقد أضاف إلى ذلك فى تلك السن المبكرة أن نظم « نشيد الأناشيد » لسليمان بن داود شعراً . ولكن كل هذه المؤلفات والمترجمات ضاعت فى أثناء اغترابه حينما كان يقوم بإحدى رحلاته فى ديار الهجرة .

وليس يعنينا عدد مؤلفاته ومترجماته بقدر ما تعنينا شاعريته وبيانه ، وغيرته الوطنية والقومية فى ما بقى لنا من آثاره الأدبية .

أما غيرته القومية وعروبته المخلصة فلسنا فى حاجة إلى دليل عليهما لأن كل دواوينه ومؤلفاته تفيض بهما فيضاً . وقد قال فى القصيدة الأولى من ديوانه « الأنفاس الملهبة » :

إلى كل شعب فيه عـرقٍ من العُربِ	كتبتُ ، وهذا الشعب أحسبه شعبى
تفـرقت الأقـوام والأصـل واحـد	فحبًّا لجمع الشمل يجمعهم قلبى
نعم موطنى لبنان ، لكن مولدى	به عـربى ، كالولى من السحبِ
فـلا قـومٍ إلا العرب لى وأنا لهم	على البؤس والنعماء ، والسلم والحربِ

وقد استهل ذلك الديوان بكلمة نثرية يقول فيها :

« الفضل فى إلهامى لروح العروبة التى لاحت لى من ورائها روح عليين .

إنى أموت كما عشت عربيًّا آملا مشوقاً ، وأود أن تضم جثمانى تربة دمشق الطيبة . هناك تهيم روحى فى البادية ، وتنشق نفحاتها الطاهرة ، وتطرب لهدير بردى . تلك رقدة أشتهيها ، وأعلل نفسى بها ، وأراها خير مكافأة لى إذا كنت مستحقًّا » .

وأما شعره فهو يجرى كله على النمط التقليدى : فأغلبه طويل النفس ، ذو قافية واحدة ، ويندر أن تخلو قصيدة له – حتى لو كانت غزلية – من ثورة علنية ، أو من حنين إلى الوطن ، أو من تغزل بذكريات الأمجاد والفتوح العربية .

فالوطن والعروبة هما عماد أدبه ، وقوام شعره .

ولعله أكثر الشعراء العرب تغنياً بأمجاد العرب فى الأندلس ، وأكثرهم نظماً فى الأندلس ، وحنيناً إلى عمود العرب فيها .

ومن أندلسياته العديدة نقتطف أبياتاً من قصيدة نونية عنوانها : « رثاء الأندلس » يستهلها قائلا :

يا أرض أندلس الخضراء حيّينا ... لعلّ روحاً من الحمراء تحيينا
عادت إلى أهلها تشتاق فتيتها ... فأسمعت من غناء الحب تلحينا
كانت لنا ، فعنت تحت السيوف لهم ... لكن حاضرها رسم لماضينا

وفيها يقول :

فى البرتغال وإسبانيّةَ ازدهرت ... آدابنا ، وسمعت دهراً مبانينا
وفى صقليةَ الآثارُ ما برحت ... تبكى التمدن حينًا والعلا حينا
كم من قصور وجنّات مزخرفة ... فيها الفنون جمعناها أفانينا
وكم صروح وأبراج ممرّدة ... زدنا بها الملك توطيداً وتمكينا
وكم مساجد أعلينا مآذنها ... فأطلعت أنجماً منها معالينا
تلك البلاد استمدت من حضارتنا ... ما أبدعته وأولته أيادينا
فيها النفائس جاءت من صناعتنا ... ومن زراعتنا صارت بساتينا
فأجدبت بعدنا واستوحشت زمناً ... تصبو إلينا وتبكى من تنائينا

وهى قصيدة طويلة ، ملأى بالذكريات ، الموجعة ، واللهفة إلى استرداد المجد المضاع . ومثلها كثير فى مختلف دواوين الوليد .

ومثل الأندلسيات كذلك تكثر قصائد الحنين . ومنها قصيدة خماسية بعنوان : « بنت لبنان » يبدأها بقوله :

الليلة القمراء ترخى النقاب ... بالله دع نفسى وذكراها

* * *

يا نازحا طال عليه الزمنْ ... هلاّ تعللت بذكر الوطنْ
فتبسم النفس لكل المحنْ ... كنجمة تطلع فوق الهضابْ
فى سفح لبنان رعيناها

ويختمها بقوله :

يا حبـذا الحمـراء والغابتانْ يا حبذا الصفصاف والسنديانْ
الذكـر لا يمحوه طول الزمانْ والنفس لا تعلم كيف الذهابْ
ما بين ذكراها وبلواها

ومنها أيضاً قصيدة بعنوان « تلفت إلى الوراء » يقول فيها :

سلام على حمراء لبنـان من فتًى يحنّ إليها كلما شهد البحـرا
ويصبو إلى الوادى الذى فى ضفافه قصائد حبّ تحقر الطرس والحبرا
قصائد تـرويهـا الطبيعة فى الدجى ويـبرزها نـور الصباح لمن يقرا
يـذكـرنى الـوادى الصبي ، ويشوقنى حصاه فإن أظفر به أطرح الدّرا
لقد مـرّ أحلى العيش فيه وفوقـه وذلك عيش لا يُباع ولا يُشرى
فأصبحت فى المنفى أنوح وأشتكى فلله ما أشقى المحبين بالذكرى !

ولسنا نستطيع أن نسترسل إلى شعر الحنين لدى أبى الفضل الوليد فهو أكثر من أن نحصيه فى مثل هذه الدراسة ؛ وهو أغنى به من القروى وفرحات .

والواقع أننا حيثما التفتنا فى شعر الوليد ندور فى حلقة من الشعر الوطنى والقومى والحماسى . والشعر فى مثل هذا الموضوع لم نعتده إلا خطابياً مجلجلا بألفاظه وعباراته . وشعر الوليد خطابى مجلجل كله ؛ وحين نقرأ قصيدته « المعلقة » التى تقارب المائة والخمسين من الأبيات ، نشعر بمثل الهدير ، وزمجرة العواصف والرعود ؛ فالشعر الخطابى لا يعرف اللفظة الرقيقة ، والعبارة الموسيقية الناعمة إلا نادراً . وإليك أبياتاً من هذه « المعلقة » الوطنية :

حرية الشعب بين السيف والقلمِ وقوةُ النفس بين الدمـع والألمِ
وفى الشدائد والثـورات بانَ لنـا فضل الرجال ذوى الأفكار واللممِ
يا حبـذا أمـة تشقى بثـورتهـا حتى تفوز بما ترجو من النعم
لو كنت تعلم ما معنى الحياة وما فى طاقة الشعب لم تقنط ولم تنمِ ...
لنـا حقوق وثارات نـذكّرُهـا أبنـاءنا ، ونبكيّهم عـلى الرممِ
نطلب الحق يومـاً بالسيوف فـلا نـرتدّ حتى نـروّيهـا من الهممِ

على أن هذا النمط التقليدى فى الشعر ، مع طول النفس فى القصيدة ، ووحدة

القافية ، كثيراً ما يُلجئان الشاعر إلى العبارة الركيكة ، واللفظة غير الشعرية . ومثل هذا غير قليل فى شعر الوليد ، ولا سيما أن أغلب شعره يدور على محور واحد ، ويطرق موضوعاً واحداً .

وأما فى النثر فإن الوليد يتوخى دائماً جزالة العبارة ، وفخامة الجرس ، وكثيراً ما يلجأ إلى السجع . ولكنه فى معالجته الوطنية والاجتماعية كثيراً ما يوفق إلى الإجادة ، فلا يرمى إلا صائباً . والذى يقرأ كتابه « كتاب القضيتين » يجده فيه موفقاً إلى حد بعيد فى معالجة قضايا الأمة العربية ، وشئون البلاد العربية .

١٦ – حبيب مسعود
من العصبة الأندلسية

حين نتحدث على حبيب مسعود ، فنحن نتحدث على واحد من أبرز أدباء المهجر الجنوبى ؛ ينظر إليه كل أديب مهجرى جنوبىّ بعين التجلة والاحترام ، فهو رئيس تحرير مجلة « العصبة » منذ أول تأسيسها إلى ما قبل توقفها عن الصدور بأشهر قليلة ، ثم أصبح مدة من الزمن رئيس تحرير مجلة « المراحل » التى تصدرها فى البرازيل السيدة مريانا فاخورى دعبول ؛ وهو الخطاط الوحيد ذو الشهرة العريضة فى المهجر ؛ وهو ممثل صحافة المهجر الجنوبى فى مؤتمر اليونسكو فى بيروت عام ١٩٤٩ ؛ وهو صاحب كتاب « ما أجملك يا لبنان » ، وكتاب « جبران حيًّا وميتاً » . وفى هذه (الهويات) العديدة ما يكفى للتعريف بهذا الأديب المهجرى الكبير ، البعيد عن بهرجة الدعاية لنفسه وأدبه ، والذى يحترمه جميع زملائه وعارفيه فى المهجر لأدبه ، ولخلقه العالى ، وترفّعه عن المتاجرة بأدبه فى سبيل الربح المادى أو الجاه .

ولد حبيب مسعود عام ١٨٩٩ فى « بشرّى » ، الضيعة اللبنانية الجميلة التى خرج منها إلى العالم جبران خليل جبران ؛ ودرس دروسه الابتدائية فى مدرسة الضيعة ثم انتقل إلى مدرسة الحكمة فى بيروت . وفى عام ١٩١٣ هاجر إلى البرازيل .

وراح يتقلب على أكف الجهاد فى سبيل الرزق ، وفى سبيل الأدب معاً ، فعمل فى التجارة وفى تحرير الصحف . وكان دائماً عربياً فى عاطفته وإيمانه ، وعربياً فى قلمه وبيانه ، يعمل للعروبة بلسانه وقلمه ، ويخدم الفصحى ما وسعه الجهد والطاقة .

ولقد انضم إلى العصبة الأندلسية منذ فجر حياتها ، ورأس تحرير مجلتها « العصبة » منذ ولادتها . وقبل « العصبة » كانت الصحافة وسيلة للارتزاق والمتاجرة ، فجاءت العصبة تخدم الأدب والفكر مجردين عن الغرض المادى ، مترفعة عن المهاترة والتبذل ، سامية عن الاعتبارات الشخصية . وكان لحبيب مسعود فى هذا أكبر الأثر وأحسنه . وكانت افتتاحياته لها ومقالاته فيها نماذج من البيان العربى القويم المشرق ، ومن التفكير الأدبى الإنسانى والقومى الراق .

وتوقفت العصبة وانقطع حبيب عن الصحافة إلى التجارة سنوات ، ثم عاد إليها رئيس تحرير لمجلة « المراحل » الأدبية الراقية . وقد اكتسبت به « المراحل » قوة جديدة ، وشخصية محببة إلى القراء . ولكن عهده برئاسة تحريرها لم يطل ؛ فما لبث أن هجر الصحافة من جديد [١]

فى عام ١٩٣١ ، وبعد وفاة جبران ، عمد حبيب مسعود إلى آثار جبران الأدبية المطبوعة بالعربية فجمع منها شيئاً كثيراً ، وأضاف إليها مقدمة عن حياة جبران ، وفصولا أخرى عن عودة جثمانه إلى الوطن ، واستقبال اللبنانيين له ، ومراثى الأدباء والشعراء له ؛ وطبع كل ذلك فى كتاب ضخم بنحو أربعمائة صفحة – بمعاونة نسيبه شبل مسعود – ودعاه « جبران حياً وميتاً » .

وفى منتصف شهر تشرين الثانى (نوفمبر) من عام ١٩٤٨ تلقى حبيب مسعود من القنصل اللبنانى دعوة لتمثيل صحافة المهجر الجنوبى فى مؤتمر اليونسكو فى بيروت ، فاستجاب للدعوة إلى الوطن يحثه الشوق والفرحة بهذه الفرصة الثمينة التى تتيح له رؤية الأهل والوطن بعد غياب طويل .

وكانت هذه الفرصة – وقد امتدت إقامته فى لبنان سنة كاملة ، من تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩٤٨ إلى تشرين الثانى (نوفمبر) سنة ١٩٤٩ – وسيلة ممتازة لوضع كتاب يدوّن فيه حبيب مذكراته وخواطره وانطباعاته حول

---

(١) عاد إلى لبنان منذ عام ١٩٧٠ ، واستقر فيه نهائياً .

الوطن وأهله ، وما يراه فيه من ضروب الحياة ، وأنماط الناس ، وأصناف العيش ، ومن آراء الناس وأفكارهم ومشاغل حياتهم ؛ ولتصوير الربوع اللبنانية الجميلة كما يراها ويحسها بعينه وعاطفته ، بشوقه وحنينه ، وحبه ولهفته . فكان ذلك الكتاب « ما أجملك يالبنان » الذى صدر فى منشورات العصبة عام ١٩٥٢ ، وجاء فى ٢٥٠ صفحة من القطع الكبير .

قلت إن حبيباً قد صور الربوع اللبنانية بعين شوقه وحنينه وحبه ولهفته ؛ وإليك نموذجاً من ذلك التصوير الرائع لمكانة الأرز من قلبه ومشاعره ، فى فصل « فى هياكل الطبيعة » من الكتاب :

« للأرز فى نفسى حرمة خاصة كحرمة الولد لأبويه ؛ فليس هو فى نظرى تلك الأشجار الجبارة التى تمتد أصولها إلى قلب الزمن ، وإنما هو فصل من ذكريات طفولتى ، ومبعث حنين حملته فى غربتى ، لم تزده الأيام إلا أواراً . فلكم تفيأت أغصانه الصلبة كإرادة الفاتحين ، والمرنة كأنامل العذارى ؛ ولكم تبسطت عليها ، فتهوى مرة وترتفع أخرى كأنها الأرجوحة ؛ ولكم توسدت أرضه وقد كستها أوراقه الإبرية فألفت طبقة هشة كأنها الفراش الوثير ؛ ولكم نشقت أنفاسه الذكية وسمعت أغاريد هداهده ، ووشوشة أنسامه ! . .

« فى الأرز لا تسمع غير هينمة النسيم منبعثة من خلال أوراقه الدقيقة القصيرة كأنها النغم خارجاً من الأوتار ، ولا تنشق سوى أنفاس البخور تتضوع من صموغه وأكوازه فتبعث فى النفس مرحاً ، وفى الجسم نشاطاً .

« حللت ضيفاً فى الأرز على النسيب الشيخ يوسف رحمه ، صاحب فندق الشفق المشهور بجمال موقعه . ولا أدرى كيف اختلف الناس على تحديد موقع الفردوس الذى سرح فيه آدم وحواء ، وفى الأرض هذه البقعة التى يقوم فيها فندق الشفق ؟ ! فإن لم تكن هى ذلك الفردوس ، فأين فى العالم مكان أحق منها بهذا الاسم ؟ ! » .

وعلى هذا النسق من البيان العربى الصافى المشرق يمضى حبيب مسعود فى كتابه القيم . وقد ختم الكتاب بفصل ذى شقين ، عنوانه « خلاصة ما رأيت وسمعت » : فشقه الأول جعل عنوانه « وجه لبنان القبيح » ، وعنوان الشق الثانى

« وجه لبنان الجميل » ثم أضاف كلمتين قصيرتين بعنوان : « تحية ووداع » فالكلمة الأولى حيّا بها لبنان عند وصوله إليه ، والثانية ودعه بها عند عودته إلى المهجر .

وفى هذا الكتاب دوّن حبيب مسعود الخطب والمحاضرات التى ألقاها فى أثناء إقامته فى لبنان ؛ وواحدة من هذه المحاضرات كانت حول الأدب المهجرى وقد ألقاها فى الجامعة الأميركية فى بيروت .

وأنا أذكر هذه المحاضرة بشكل خاص ، لأن حبيباً قد ساق فيها رداً علىّ ، دون أن يذكر اسمى بصراحة ؛ فقد كنت قبل ذلك نشرت مقالا عن الأدب المهجرى فى إحدى صحف لبنان ، نسبت فيه التجديد فى الأدب إلى أدباء المهجر الشمالى ، ونسبت إلى أدب الجنوبيين صفة المحافظة على أساليب البيان العربىّ المعروفة[1] ، ولم أكن أقصد بذلك أى مغمز أو إساءة بل أردت تقرير الواقع . فاغتنم حبيب فرصة إلقاء هذه المحاضرة وقال فيها :

« وقعت أخيراً على بحث لأحدهم فى أدب المهجر عزا فيه روح التجديد إلى أدباءالشمال يوم كان جبران يتزعمهم ، واتهم إخوان العصبة الأندلسية بالمحافظة على الأساليب القديمة .

« أقول ، إذا كان جبران وبعض إخوان الرابطة القلمية قد فتحوا بتفكيرهم جواء جديدة ، فهذا لا يعنى أن كل أديب فى أميركا الشمالية بلغ شأوهم ، أو أن أدباء العصبة محافظون لأنهم لم يسبحوا فى تلك الجواء . أما إذا كان المراد من الأساليب القديمة هو الصيغة اللفظية ، والمحافظة على ضوابط اللغة ، فليس فى ذلك موضع للغمز واللمز . ألم يخلق جوًّا جديداً فوزى المعلوف فى « بساط ريحه » ، وأخوه شفيق فى « عبقره » ، والشاعر القروى فى « حضن الأم » ؟ أما إذا كان التفكير الجديد يقتضى أسلوباً جديداً ، والأسلوب الجديد يقتضى خروجاً على اللغة ، وبلبلة فى التركيب ، ورطانة فى التعبير ، فلست مبرئاً إخوانى من التهمة ، بل أعلن على رؤوس الأشهاد أنهم محافظون أكثر من تشرشل وأعوانه . . . » .

وما أحسب أننى أخالف حبيباً فى هذا الرأى ، وما قصدت من ذلك المقال

---

(١) المقال نفسه منشور فى القسم الأول من هذا الكتاب .

إلا بيان حقيقة فى الفرق بين أدب الرابطيين - الأدباء الكبار منهم - وأدب الجنوبيين بشكل عام ، لمجرد التعريف وبيان الحقيقة ، حين لم يكن أدب المهجر معروفاً إلا لدى الأقلين من أدباء البلاد العربية ومثقفيها .

وكذلك لا أحسب أن حبيباً قال ما قاله فى رده ناقماً علىّ رأيي ذاك ، أو مستاء منه ؛ فإنه لم يلبث بعد صدور كتابه أن أهدى إلىّ نسخة منه بتاريخ ٢٠ / ١٠ / ١٩٥٢ ، موشحة بإهداء كتبه بخطه البديع الأنيق ، هو : « إلى أخى عيسى الناعورى - مع محبتى - حبيب مسعود » .

* * *

وبعد فإن حبيب مسعود ينفرد بين أدباء المهجر جميعاً بأنه يجمع إلى إشراق البيان العربى ونصاعته ، ونضج التفكير وإصابته ، وطيبة الخلق وسماحته وأناقة الخط وجماله ؛ وقد كانت جميع العناوين فى مجلة العصبة - للمقالات والقصائد وغيرها - تحفر بخطه الجميل ، وكذلك كانت جميع أناشيد مطولة « عبقر » - لشفيق معلوف - محفورة بخطه أيضاً ، بعناوينها وأبياتها كلها . والخط الجميل دليل على سمو الذوق ولطفه ، وعلى رهافة الإحساس ودقته .

١٧ - إلياس حبيب فرحات

إلياس حبيب فرحات شاعر من أبرز شعراء العرب فى البرازيل ، وأعرقهم فى الشاعرية الحقة ؛ فليس للعروض والقواعد والبلاغة شيء من الفضل فى حياته الشعرية ، وإنما الفضل كله لطبيعته الموهوبة ، ولاستعداده الفطرى : فإلياس فرحات ضئيل الحظ من الثقافة المدرسية ، إذ غادر مقاعد المدرسة فى العاشرة من عمره ، ونزل يجاهد فى معترك الحياة بصبر وجلد . ثم هاجر إلى البرازيل أسوة بالنازحين من أبناء بلاده ، وجالد كثيراً فلم يفز بغير الحرمان والإخفاق ، ولم يصادف سوى قسوة الحياة التى لازمته مدة طويلة . وكان لهذه الحياة القاسية ، وما رمته به من حرمان وإخفاق ، أثر كبير فى تغذية شاعريته ؛ وقد ظهر ذلك الأثر فى عدد كبير من قصائده الدوامى .

بدأ فرحات النظم باللغة العامية ، فكان زجالا يجرى على الفطرة الموهوبة التى يغذيها الذكاء المتوقد . ثم وجد من يوجهه نحو مطالعة الشعر الفصيح وتذوقه ، فعكف على المطالعة زمناً حتى تمكن من إجادة الفصحى ، فصرف شاعريته إلى وجهتها الصحيحة ؛ فإذا إلياس فرحات ، الزجال المغمور ، شاعر يملأ دنيا الضاد ألحاناً تزغرد فى مسمع الأيام بحنجرة صافية الرنين ، وإذا قصائده أناشيد يتغنى بها الناس فى المهجر وفى ربوع الشرق العربى بإعجاب وإكبار ونشوة .

وفرحات نفسه هو خير من يروى لنا قصة شاعريته . فلنستمع إليه فى القصيدة التى جعلها فاتحة لديوانه الثانى « ديوان فرحات » ، وجعل عنوانها « مقدمة الناظم » :

يقولون : عمَّن أخذت القريض ... وممَّن تعلمت نظم الدُّرَرْ ؟
وما كنتَ يوماً بطالب علم ... فإنَّا عرفناك منذ الصِّغَرْ
فقلت : أخذت القريض صبيًّا ... عن الطير وهى تغنى السَّحَرُ
وعن خَطَرات النسيم العليـــ ... ـل يمرّ فيشفى عليل البشرْ
وعن ضحكات مياه الجداو ... ل فوق الجلامد تحت الشَّجرْ
وعن زفرات المحبّ الأديب ... يزاحمه الموسر المحتقــرْ
وعن نظرات الحسان اللواتى ... يكَدْن يغلغلْنَها فى الحجرْ
وعن عبرات الحزانى الضعاف ... ففى عبرات الحزانَى عِبَرْ
فذا الكون جامعة الجامعات ... وذا الدهر أستاذها المعتبرْ
ففى المبكيات بيانٌ جميــل ... وفى المضحكات معان غُرَرْ
وفى كل ما يبصر المبصرون ... دروس تنَاوَبُهنَّ الفِكَرْ

وأرى ههنا من المناسب أن أنقل بعض ما ذكره فرحات نفسه فى هذا الباب فى مذكراته التى عنوانها (قال الراوى) ، فقد جاء فيها ما يلى : « بين حين وآخر ألتقى من الأدباء بمن يسألنى : كيف وأين تعلمت اللغة العربية ؟ وبين آونة وأخرى أقرأ أو أسمع من يقول : فرحات درس العربية على نفسه . والحق أننى لا أعرف كيف ولا أين تعلمت هذه اللغة ، فإنى لم أدرسها على نفسى ولا على غيرى ، فقد تركتُ مدرسة الضيعة ولى من العمر عشر سنوات ، ولم أكن قد قرأت من الكتب عند الراهب إلا مزامير داود ، ولم أتصفح حياتى كلها كتاباً للصرف والنحو . ولا أظن

أن الراهب المعلم كان يعرفها أو يعرف منها شيئاً . وبعد تركى المدرسة لم أدرس قط ، وإن كنت قد طالعت كثيراً ، فإن القراءة شيء والدرس شيء آخر . وحتى سنة ١٩٢١ لم تكن مكتبتى تحوى من الكتب غير جغرافية فانديك . وفى تلك السن كنت أنظم الشعر الفصيح . . . لم أدرس الصرف ولا النحو ولا العروض . . . وأنا من طبعى لا جلد لى على الدرس . . . ».

هكذا أصبح فرحات شاعراً دون أن يتلقى الشاعرية من الكتب ، لأن الشاعرية موهبة تمنحها السماء لمن ترضى عنهم « . . . ولم تكن ترضى السما إلا عن الصُّلاَّح » كما يقول إيليا أبو ماضى .

وفى سنة ١٩٢٥ صدر لفرحات أول ديوان شعرى باللغة الفصحى ، مطبوعاً فى البرازيل ؛ وهو كتاب صغير الحجم ، يشتمل على عدد من الرباعيات عنوانه « رباعيات فرحات » . وهذه الرباعيات متنوعة الأغراض كما هى متنوعة القوافى ، ومتنوعة الأوزان ؛ غير أن الصفة التى تكاد تجمعها جميعاً هى صفة التمرد على المجتمع البشرى بتقاليده وطقوسه ، ومذاهبه الدينية والسياسية والاجتماعية ، ثم التشاؤم ، وأكاد أقول واليأس من إمكان إصلاح هذا المجتمع الفاسد ، الموبوء بكل داهية وخيمة من التفرقات والنعرات ، والأطماع والنذالات ، ومن الظلم والاستعباد ، والذل والخنوع .

من ذلك قوله فى الجهل الذى يدفع أغلب الناس إلى اتباع كل ناعب أو ناعق ممن يدّعون الغيرة على المجتمع ، ومحاولة إصلاحه :

قد قام « لينين » يدعو الأغنياء إلى توزيع ما جمَّعوه فى الصناديقِ
لقد يفوز فيلقى من يؤلّهه ويستغيث به فى ساعة الضيقِ
وقد يُخوزَق مظلوماً فَيُرْزَق مَن يدعو الأنام لتقديس الخوازيقِ

وفى الأغنياء البخلاء :

كم من غنى بخيل كلما لمحت عيناه وجه فقير خفّ يستترُ
ترنو إلى ماله الوراث قائلة : «لا يؤكل الجوز إلا حين ينكسرُ»

وفى حياة بعض الأزواج التى هى فى الواقع جحيم ، وإن تكن فى ظاهرها توهم السعادة :

كم فى البرية من زوجين ما برزا إلا بسيارة تزهو كسيَّارِ
فإن تضمَّهما جدران قصرهمـا قاما بتمثيل دور الهر والفارِ

وأمثال هذا كثير يزخر بالصدق والحكمة والشاعرية .

وفى سنة ١٩٣٢ ظهر فى البرازيل ديوان ثان لإلياس فرحات دعاه « ديوان فرحات » . وهو فى هذه المرة ديوان ضخم يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير ، ويشتمل على عدد كبير من القصائد المتفرقة فى الحب والألم ، وفى الوصف والحنين ، وفى الوطنية والاجتماع . ويلاحظ الذى يطالع هذا الديوان : ١ – قوة الشاعرية وجمالها فى أغلب قصائده ، ٢ – طول النفس فى عدد كبير منها ، ٣ – محافظة الشاعر فى أغلب قصائده على القافية الواحدة . وفى رأيى أن وحدة القافية فى القصيدة الكاملة ، على الرغم من أنها أوقع فى النفس ، إلا أنها تجنى كثيراً على الشعر لأنها تضطره إلى التقيد بها والخضوع لأحكامها ؛ ويندر جداً أن تسلم ذوات القافية الواحدة عند سائر الشعراء من بعض العيوب والمآخذ .

أما الصفات التى يصورها لنا شعر فرحات من صفات الشاعر وأخلاقه فأولها وأجدرها بالذكر شدة الإباء ، بحيث لا تنال الشدائد والحرمان والإخفاق من إبائه .

والصفة الثانية التى تصورها قصائد « ديوان فرحات » من أخلاق الشاعر هى صفة التمرد وتحدى المصاعب . وصفة ثالثة تبدو لنا على أشدها عنده ، وهى حب الوطن ، والألم الشديد لرؤيته ذليلا خانعاً بين مناسر الأقوياء وأنيابهم . وهذه المزايا وغيرها نقرأها فى عدد كبير من قصائده . وهو شديد الاعتزاز بشعره الوطنى ، لأنه يعلم أن الأدب الحق هو الأدب الذى يستطيع أن يرفع عن الأمة كابوس الذل ، ويسمو بها إلى الحرية والمجد ، وما عداه من فنون الأدب والشعر لا يرى فيها سوى حماقات يتسلى بها جماعات من الكسالى الذين يدعون ما يزخرفه لهم كسلهم فناً ، وأدباً ، وشعراً . فالأمة التى تعانى الذل فى ديارها ، وتعيش تحت عبودية الظالم القوى ، حرام أن تتغنى فى ذلها بما يخدر أعصابها لتتجاهل النير الجاثم فوق أعناقها .

والذى يطالع شعر فرحات المنشور فى دواوينه المطبوعة يلاحظ أن الشاعر ترك

فيه آثاراً واضحة كل الوضوح ، نستطيع أن نستدل بها على شيء من حياته ومن أخلاقه . ونستعرض فى ما يلى هاتين الناحيتين فى ما لدينا من شعره الطبوع .

فقصيدته المطولة « بين الطفولة والشباب » ترينا أن الشاعر قد ولد فى ضيعة كفر شيا فى لبنان ؛ فهو فيها يحن إلى « الكسارة » ، وهى مكان مرتفع فى كفر شيا ، كما يشرحها فى الهامش ، وإلى « الغدير ، والحيّالى » اللذين يقول فى شرحهما إنهما نهران شتويان فى كفر شيا . كما يتذكر أيام طفولته ورفاق صباه فى هذه الضيعة .

ومن القصيدة نفسها نعرف أن الشاعر قبل أن تطوّح به يد الاغتراب إلى البرازيل ، وهو فى أول الشباب الجموح ، عرف الحب العنيف فى ضيعته ، وتعاهد هو وحبيبته على الوفاء ، ولكنه لم يكد يغترب حتى اقترنت بسواه . فهو يقول فى ذلك :

عشقتُ – والعشق ضلال يهدى – صغيرة رافقتها فى المهدِ
وعدتها ، ولم أحل عن وعدى لكنها خانت أخيراً عهدى
ولو وفت ، حافظت حتى اللحدِ

كانت حبيبته هذه قبل أن تنأى به عنها ظروف الحياة القاسية ، قد أهدت إليه خصلة من شعرها ، تذكاراً لحبها ، وتوكيداً لتعلقها به ؛ فكانت هذه الخصلة بعدئذ تسلية لروحه عن خيانة حبيبته ، وقد أوحت إليه بقصيدتين ، يقول فى أولاهما :

خصلة الشعر التى أعطيتنيها عندما البين دعانى بالنفيرْ
لم أزل أتلو سطور الحبّ فيها وسأتلوها إلى اليوم الأخيرْ
خنتِ عهدَ الحب ، لا بأس فإنى أكتفى بالأثر الغالى الثمينْ
فأنا ما عدت أحيا بالتمنى بعد أن منيتنى عشر سنينْ
إن أعد بعد التنائى تبصريها مثلما سلّمتِها يوم المسيرْ
فهى كالطفلة فى حضن أبيها لا ترى إلا حناناً وشعورْ

هذا عن حديث هواه الأول ، أما حياته المدرسية ، التى بدأت وانتهت فى كفر شيا نفسها ، فإننا نعلم من شعره نفسه أنها كانت حياة قصيرة ، فهو لم

يكد يتجاوز الصفوف الابتدائية الأولى ، ومع ذلك فها هو ذا شعره يدل على عبقرية لم تتكون فى المدرسة وعلى يد أستاذ ، وإنما هى وحى موهوب .

أما حياة فرحات فى المهجر فهى حياة نضال مرير مضن ، ومشقات تكاد تنقطع . وقد عبر عنها الشاعر فى قصائد عديدة : فهو تارة يناجى « السعادة فيقول :

سعادة نفسى متى نلتقى ؟ لعلك للآن لم تُخلَقِ
إلى كم أسائل عنك ، وأبحث فى مغرب الشمس والمشرقِ
قطعت البحار ، وجبت القفار وحاولت جوب الفضاء النقى
وَعَدتِ الحزين بقرب اللقاء فطال الزمان ولم نلتقِ
خُلقت شقيًّا ، وعشت شقيًّا وأحسب أنى أموت شقى

وتارة يصور حياته وصراعه مع الرغيف فى قصيدة طويلة بعنوان « حياة مشقات » فيقول مشيراً إلى سوء حظ ، وإلى تكرر أيامه ولياليه على وتيرة واحدة لا تترك له أملا فى تحسن أو تبدل :

وأستعرض الأيام – يومى الذين مضى دليل على يومى الذى أترقبُ
طوى الدهر من عمرى ثلاثين حجة طويت بها الأصقاع أسعى وأدأبُ
أُغرِّب خلف الرزق وهو مشرّق وأقسم لو شرّقتُ كاد يغرّبُ

ثم يمضى فى استعراض حياته اليومية ، وتنقلاته ومجازفاته فى سبيل العيش ، فهو يتنقل فى عربة يجرها جوادان ، يحمّلها بالحقائب والصناديق المملوءة بمختلف أنواع البضائع ، وتسير به المركبة فى القفار أحياناً ، وفى الأدغال أحياناً أخرى ، ونراه يضطر أحياناً إلى المبيت فى أكواخ نائية مهجورة ، فلا تعرف عيناه الغمض ؛ أما الطعام فمما قد يصيده فى الطريق ، وأما الشراب :

فنشرب مما تشرب الخيل تارة وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشربُ

وأما معشره فى هذه الرحلات التى يضطره إليها العيش ، فيصفهم بقوله :

أعاشر من لو عاشر القرد بعضَهم لما رد عن دروين قبر مقببُ
وأنصت مضطرًّا إلى كل أبْلَه كأنى بأسرار البلاهة معجبُ

وهذا البؤس الذى لقيه الشاعر فى حياته كان مصدراً ثرًّا لشاعريته .

فمن قصائد فرحات البائسة قصيدته « ثوبى المحترق » التى يقول فيها :

كأن الهــواء مع النــار لما   رآنى لبست جديدى ، اتفقْ
فجاء بها من دخان القطار   ونثّرها فــوقه فاحــترقْ
فقلت أعاتب ربى مشــيراً   إلى الحرق وهو كباب النفقْ :
إلهى ، تضن علىَّ بثــوبى   وتكسو الغصون ثياب الورقْ ؟
ولو كنتُ غصناً لجــدّدته   متى ما بشير الربيع انطلقْ
ولــكنْ أرى دون تجديده   غيوم الأسى وسيول العرقْ

وجميل أن نعرف الحادثة التى أوحت بهذه القصيدة . وها نحن أولاء ننقلها عن كتاب « ذكرى الهجرة » لتوفيق ضعون ، وهى كما يلى [1] : فى أواخر سنة ١٩١٨ حلت بفرحات النكبة الكبرى باحتراق طرف ثوبه ، فتشاورت وحسونا — هو جورج حسون معلوف ، صديق فرحات وواضع مقدمة ديوانه الثانى — فى أمره ، فقررنا أن لا مخرج له من مأزقه إلا بالعمل . ولكنه لم يكن يصلح لأى عمل تجارى ؛ فاخترنا له عملا أدبيًّا ، فيكون ممثلا لمجلة « الجديد » ومراسلا لها فى الداخلية ولكن كيف يقوم بهذه المهمة « السامية » دون رداء لائق ؟ لذلك كان أول ما فعلناه أننا استحصلنا له على بدلة بألف وخمسمائة قرش ، يرتديها معجلا ، وندفع ثمنها مؤجلا عشرة أقساط شهرية . وسافر فرحات على كف الرحمن مزوّداً بالتفويض القانونى واللوائح والوصولات . وبتنا نتوقع أخباره السارة ، ولكن كانت أولى رسائله أبياتاً ينعى إلينا بها كم ردائه الجديد الذى أحرقته شرارة من مدخنة القطار . . والثانية شكوى مرة من تلكؤ المشتركين ، والثالثة . . هو نفسه . . . »

ومن هذه الرواية القصيرة تظهر لنا خشونة الحياة التى اصطدم بها شاعرنا فرحات فى القسم الأول من حياته فى الهجرة .

ولقد تزوج فى مهجره البعيد ، ورزق أبناء وبنات ، وورد ذكرهم كثيراً فى قصائده . فهناك « ليلى » ابنته البكر التى ولدت وله من العمر ثلاثون عاماً ؛ ثم هناك ابنه خالد ، وابنه عصام . وهناك أيضاً ابنته الأخرى « سعاد » التى ولدت

---

(١) أكد لى الشاعر فى رسالة تاريخها ١٠ / ٧ / ١٩٥١ أن احتراق ثوبه قد وقع مرة واحدة وليس مرتين كما توحى به الرواية (ع . ن) .

لسبعة أشهر حمل ولم تعش سوى سنة واحدة . وقد رثاها أبوها بأبيات فى رباعياته من أرق الشعر المعبر عن عاطفة ملؤها الحزن اللاذع فقال :

يهنيك نومك يا سعاد كأنه نوم الرضيع على ذراع المرضع
يهنيك يا ولدى السكون ، محركاً بجلال هيبته سواكن أدمعى
كم قبلة تهفو إلى شفتىَّ من قلبى الحزين الواله المتفجع
حتى إذا وجدت سريرك خالياً رجعت فصارت جمرة فى أضلعى

وهناك كذلك ابنته الصغرى « منى » وكانت عروس البيت كما يدعوها — وقد قال فيها :

عبثت « مناى » بصلعتى وتضاحكت لما رأتنى للتمشط أنشطُ
ومضت بلثغتها تقال لأمها : « أرأيت ،ما ما ، أقرعاً يتمشطُ » ؟ !
أبنيّتى ، إن الحياة لَسُلَّمٌ أيهنيك أنك تصعدين وأهبطُ
والدهر ، يا ولدى ، يغربل لمَّتى فالبيض تثبت والحوالك تسقطُ

أما ليلى وخالد فقد تزوجا ، وأصبح شاعرنا جداً ، وهو يعتز بهذه الخاتمة السعيدة — مد الله له فى هذه السعادة — وقد كتب إلى بتاريخ ٥ شباط (فبراير) سنة ١٩٥٠ يقول : « فى هذا الأسبوع . أصبحت جداً إن ولدى ليلى قد ولدت « لُيَيْلى » . . وقد سجلت هذا الحادث بهذين البيتين :

زهوت بليلى طفلةٌ وصبيَّة وشاءت مجاراتى فجاوزت الحدَّا
زهت بى أباً ، واستصغرت شأن زهوها فـزادته لمَّا صرت لابنتها جدَّا

« والجديد الثانى أن ولدى خالداً قد تزوج فى أواخر يناير ، وهو الآن وزوجه معنا فى البيت . والصهر — زوج ليلى — والكنة — زوجة خالد — برازيليان . وهنا أخبرك أن أسرتنا ممتزجة بالبرازيليين والبرازيليات امتزاج الماء والخمر ؛ وخالد الآن يعمل خبيراً فى جيش الطيران البرازيلى — خبير بأدق آلات الطيارات — وأما عصام فما يزال يدرس الحقوق ، وفى الوقت نفسه يساعد أباه فى العمل » [١].

وهذا بعض ما يصوره لنا شعر فرحات من حياته ، ونحن نعلم أن شاعرنا قد استقرت حياته بعد أن كبر أبناؤه ، وتحسنت حالته المادية فى أثناء الحرب العالمية

---

(١) تخرج عصام فى مدرسة الحقوق بعد تلك الرسالة بسنوات قليلة .

الثـانية ، وأصبح يملك بيتـاً فى « بيلو أوريزونتى » أو – الأفق الجليـل – عاصمة ولاية ميناس . ومن هذا البيت يستطيع أن يمتع ناظريه بشروق الشمس وغروبها ، ومناظر الطبيعة الجميلة ، وأن يفتح نفسه لاستقبال الانطباعات الجمْيلة بهدوء واطمئنان لم تعد تعكرهما خشونة الجهاد وجهامة العيش ، وقسوة الحرمان .

ومن أخلاق فرحات التى نلمسها بكل وضوح فى شعره صلابة المبدأ . وفرحات مشهور فى هذا ، فهو لا يلين ولا يحابى ، ولو أدى ذلك إلى إطالة شقائه ، أو إضاعة أصدقائه ، أو إلى تفويت فرص ثمينة عليه . وهو القائل :

لا تنتظـــر أن تـرانى راضيـاً ، فأنا أرضى ضميرى ولو أغضبت أصحابى

وهذا البيت من رباعية قالها فرحات لصديق جاء ينصحه بأن يتملق الناس ويدارى الحياة لعله يبدل حظه الكابى ، وهو القائل أيضاً :

يقولون لى : « صادق فـلاناً فـإنه أخـو نجدة يرجَى لساعة ضيق »
فقلت لهم : « هـذا صحيح وإنمـا عـدوّ بلادى لن يكون صديقى »

فهو لا يعرف الرياء والمحاباة ما دامت تفرض عليه الزيغ عما رسمه لنفسه من مبادئ . وصلابته هذه تفرض عليه أن يكون جريئاً فى قالة الحق ، وهو يقول فى هذا !

وإنى لمطبوع على الصدق ، جاهر بآياته ، والنصل فى النطع يقصـرُ
أقول لذى العينين : « إنك مبصر » وللأعور المغرور : « إنك أعورُ »

ونحن حين نتحدث على صراحة فرحات وصلابته فى مبادئه لا بد لنا من الحديث على إبائه . ولهذا الإباء صور تطالعنا كلما قلبنا قصيدة من قصائده .

ولعل من أروع هذه الصور ما نطالعه فى قصيدة « حياة مشقات » ؛ فبعد أن يتحدث الشاعر على حياته الخشنة القاسية ، ويصف ما يلاقيه من صعاب ومشقات ، يعرض علينا أشياء من أخلاقه القوية التى تحبب إليه الحياة والنضال والعمل . وفى ذلك يقول :

حيـــاة مشقات ولــكن لبعدهـا عن الذل تصفو للأبىّ وتَعْذُبُ ...
أقـول لنفسى كلما عضّها الأسي فآلمها : صبراً ففى الصبر مكسبُ
لئن كان صعباً حملك الهم والأذى فحملك مَنَّ الناس لا شك أصعبُ

فلولا إباء مازج الطبع لم يكن   لمثلى مجيء فى البرارى ومذهبُ

ومن جميل إباء فرحات قوله فى قصيدة يخاطب بها بعض أصحابه الأغنياء :

سأبعد عنكم ما حييت بفاقتى   لكى لا يهيج البؤس عيشكم الهادى
وأكتم آلامى عن الناس كلهم   فلا رائح يدرى الذى بى ولا غادِ

أما عفة نفس فرحات ، فنستطيع أن نلمسها فى قصيدته التى بعنوان « لولا ضميرى » والتى منها قوله :

فكم ثروة تعجز الحاسبا   تسلمت ، وهى لبعض التِجارْ
فقلت : أفرُّ بها هاربا   فقال ضميرى : حذار حذارْ
فأرجعتها وغسلت يديًا   ولولا ضميرى لكنت غنيا

* * *

وبكر أتت حجرتى موهناً   يقود خطاها غرور الصبا
فقلت : سأبلغ منها المنى   فقال ضميرى : ألست أبا ؟
فأغمضت عن حسنها ناظريا   ولولا ضميرى جنيت الشهيا

وهناك الناحية الدينية ، وهذه لا بد لمن يدرس فرحات من أن يتعرض لها . ففرحات لا يعرف المذهبية فى الدين ، ولا يؤمن بمظاهره وطقوسه ، لأن الدين عنده فى القلب النقى وحده ، ولا علاقة له بما يضيفه إليه أصحابه من مراسم وطقوس وانقسامات . وهو لا يتصور مطلقاً أن يكون الدين سبباً للتفريق بين أبناء الأمة الواحدة ، أو أبناء الإنسانية عامة . وعلى الرغم من أنه مسيحى فى مولده ونشأته ، فإنه لا يمارس طقوس الدين بنفسه ، ولا بأبنائه . وهو يشير فى عدد من قصائده إلى ملاحقة بعض الكهنة له لكى يعمّد بناته ، ويذكر أنه كان يردّهم عن هذه الملاحقة لأنه لا يؤمن بعقائدهم .

وليس فرحات بين العرب أول من حمل على رجال الدين ، وعلى تعدد المذاهب واختلاف الطقوس ، فقد رأينا من هؤلاء فارسين آخرين جلّيا فى هذه الحلبة ، وهما جبران والريحانى ؛ ولكن فرحات بلا شك من أعنف من هاجموها ، ومن أكثرهم تصلباً وتطرفاً . ولعل السبب الأكبر فى كراهيته لهم هو ما رآه فى وطنه لبنان من انقسامات دينية كانت نكبة كبرى على وطنه ؛ فلم تكن مذبحة عام

١٨٦٠ لتقع فى لبنان لولا اختلاف الدين ، ولم تكن فرنسا لتنجح فى لبنان لولا تعلق قسم من اللبنانيين بها باسم الدين ، وما يزال الدين إلى الآن سبباً قويًّا فى ضعف الشرق العربى وانقسام أهله على أنفسهم ، وفساد الحكم فيه .

* * *

كان لفرحات ثلاثة دواوين شعرية مطبوعة ، وكتاب صغير يحتوى على سيرة حياته [١] وعدد من القصائد المنشورة فى الصحف . ولكن بعض كرام الجالية العربية فى المهاجر قد تنادوا عام ١٩٥٤ ، وقرروا طبع شعره فى أربعة دواوين تقديراً لوطنيته ، وإخلاصه وشاعريته المبدعة ، فصدرت قصائده فى أربعة كتب . وفى سنة ١٩٦٧ نشرت له وزارة الثقافة فى دمشق ديواناً عنوانه (فواكه رجعية) ، وفى مصر ظهر له ديوان آخر بعنوان (مطلع الشتاء) .

ونحن سنتحدث أولاً على دواوينه فى طبعتها الأولى ، قبل أن تجمع فى طبعة جديدة . وأول هذه الدواوين « رباعيات فرحات » ، وهو كتيب يقع فى ١٧٣ صفحة من قياس صغير جدًّا ويحتوى على أكثر من مائة وستين رباعية شعرية فى مواضيع مختلفة ، بين دينية واجتماعية ووطنية ، ووصفية وحكمية ، وغيرها . ويغلب على أكثرها روح التهكم ، أو النقد اللاذع ، أو التشاؤم .

وقد طبع هذا الكتيب – كما أسلفنا – فى البرازيل عام ١٩٢٥ مصدّراً بمقدمة للأديب المهجرى توفيق ضعون . وهذا الكتيب هو أول مجموعة شعرية بالفصحى لفرحات ، وبه ابتدأت شهرة فرحات الشعرية ، وبدأ يحتل مكانه بين أدباء المهجر البارزين ، ويلفت إليه أنظار الأدباء والصحف ، والمهتمين بالأدب والشعر .

ويقول فرحات فى مذكراته : « ابتدأت بنظم الرباعيات ولم يكن يخطر لى فى بال نظم كتاب خاص من هذا النوع من الشعر . نظمت أول الأمر قصيدة مؤلفة من مقاطع ، كل مقطع من أربعة أبيات على نفس الوزن والقافية ، وإنما فى

---

(١) ظلّ مخطوطاً ، وقد أرسله فرحات إلى صاحب هذا الكتاب ، وظهرت أجزاء منه فى مجلة (القلم الجديد) عام ١٩٥٢ / ٥٣ ثم نشر فى مجلة (الرائد العربى) فى حماة سنة ١٩٥٧ . وفى عام ١٩٦٥ نشرته وزارة الثقافة فى دمشق بعنوان (قال الراوى) مع زيادات عمّا نشر من قبل .

مواضيع مختلفة . ونشرت قصيدتى تلك فى جريدة « الأفكار » ، فنقلتها الجرائد والمجلات ، واستحسنها الأدباء ، فشجعنى هذا الاستحسان على متابعة النظم ، فأخذت أنظم مقاطع متفرقة فى موضوعات مختلفة وعلى أوزان عدة ، حتى حصل لى منها ديوان صغير طبعته عام ١٩٢٥ باسم « رباعيات فرحات » .

وفى ما يلى الرباعية الأولى من مجموعة هذه الرباعيات :

يا جارُ ، جارَ علىّ الظالمون كما جاروا عليك ، فلم نرحل ولم نَثُرِ
نخشى الغريب ونخشى بعضنا فإذا حل البلاء شكونا الضيم للقمرِ
فيم التقاطع والأوطان تجمعنا ؟ قم نغسل القلب مما فيه من وضرِ
ما دمت محترماً حقى فأنت أخى آمنتَ بالله أو آمنتَ بالحجرِ

أما المجموعة الثانية من شعر فرحات فهى بعنوان « ديوان فرحات » ؛ وهى كتاب ضخم يقع فى ٢٨٨ صفحة من القطع الكبير ، ويحتوى على مائة وثلاث وعشرين قصيدة ، بعضها يتألف من أبيات قليلة ، وأغلبها يتألف من عشرات الأبيات . وهى مختلفة المواضيع ، وفيها قسم كبير من القصائد الوجدانية ، وقسم كبير آخر من القصائد الوطنية ، إلى جانب القصائد الاجتماعية والوصفية والحكمية المتعددة . و كل ما فى هذا الديوان هو مما نظمه الشاعر ما بين عامى ١٩١٨ و ١٩٣٢ ونشر الديوان عام ١٩٣٢ .

وضع مقدمة الديوان الكاتب المهجرى جورج حسون معلوف ، صديق فرحات الذى كان يقدر شاعريته ويشجعه عليها . والمقدمة دراسة تحليلية مطولة ، تقع فى ٣١ صفحة من أول الديوان ، وقد جاءت شاملة مفصلة ، إذ تعرضت لمختلف نواحى الشاعرية ومظاهر النشاط الفكرى لدى الشاعر ، مع إلمامة بالأدب المهجرى ، وفنون الشعر إجمالا ، ومميزاته وعناصره الجميلة .

يستهل الكاتب مقدمته بالإشارة إلى أن فرحات قد كلفه وضع مقدمة لديوانه ؛ ثم يقول : « وجمت قليلا قبل أن أجيب ، فعادت بى الذكرى إلى فجر معرفتى لفرحات : إلى ست عشرة سنة خلت ، يوم كان فرحات فى حديقة الأدب ذلك النجم الضئيل ، ذا الأوراق المصوحة ، والساق الضعيفة ، والجذور الواهية ؛

وها هو الآن فى روضة الشعر العربى دوحة عالية لا تبلغ الطير ذراها ، ملتفة الأوراق ، محبوكة الأغصان ، وارفة الظل .

« فرحات . تلك القطرة من الندى التى ذرفتها منذ ستة عشر عاماً مقلة الفجر على ورقة الورد ، وغادرتها قلقة مترجرجة وجلة من أن تقلبها إحدى نسمات الصباح ، أو أن تبخرها أولى ابتسامات ذكاء ؛ أصبحت ماسة قوية قاسية صلدة ، يتألق نورها لماعا يأخذ بالأبصار ويخلب الألباب . . .

« فرحات الذى طرحته النوى مطارح الشقاء ، وجيّش الدهر فى وجهه كل مصائبه ونوائبه ، وأناخ عليه بكلكله ، دون أن يتمكن من حبس مجرى شاعريته الفياضة ، وإخماد جذوة وطنيته المستعرة ، وإرغام أنفه الأشم .

« هذا هو فرحات الذى سهرتُ بعين الصداقة والإخاء على نشوئه الشعرى وارتقائه ست عشرة سنة ، تارة مستحسناً ، وطوراً لائماً منددأ ؛ أرى الآن مخطوطة ديوانه فى يدى ، فكان شأنى وإياها كالبخيل انكب على كسب المال ديناراً فديناراً ، وهو يلقى الآن بين يديه كنزه الغالى وهاجاً مجموعاً مخزوناً » . . .

ويقول فرحات نفسه فى مذكراته « قال الراوى » :

« فى سنة ١٩٣٢ تألفت لجنة من أدباء سان باولو لطبع « ديوان فرحات » ، وكنت أريد طبعه فى جزأين ، فأبت علىّ اللجنة ذلك . على أننى لم أزل على نيتى الأولى ، إذ سأعيد طبعه — إذا قدر لى ذلك — فى جزأين ، أسمى أحدهما « الربيع » والثانى « الصيف » ، وسأطبع جزءاً ثالثاً مما اجتمع لدى بعد طبع الديوان وأسميه « الخريف » وأترك طبع الشتاء إلى الوراث » . . .

وأما المجموعة الثالثة من شعر فرحات فهى بعنوان « أحلام الراعى » ، وقد صدرت عن دار مجلة « الشرق » البرازيلية عام ١٩٥٢ ، ووزعت هدية على المشتركين . ومن أهم ما نشير إليه هو المقدمة التى وضعها للكتاب الكاتب المهجرى موسى كريم ، صاحب مجلة « الشرق » ، وقد جاء فيها قوله : « إن من رأى العلامة ألبرتو دى أولفيرا ، أمير شعراء البرازيل ، القائل : « إن فى قلب كل شاعر نابغ خميلة بنفسج تحاول أن تصوحها لوافح الجهل والحسد والخبث » . وفرحات الشاعر الموهوب يحمل فى قلبه أبهى وأنفس خميلة بنفسجية ؛ إنه المتواضع

دون تصنع ، والنبى دون استشهاد ، والوطنى دون منّ ، والفنان دون عنجهية ؛ بل هو الشاعر العربى الكبير ، يرسل قصائده تباعاً ، ينثرها كالدرارى فتبلغ قلوبنا لتسجل فيها رسوماً مليئة بالسحر . هى فى الحقيقة ملاحم هدفها إذاعة عظمة القطر السورى بتاريخه المجيد ، ومآثره الفذة ، ومآتيه العجيبة التى شرفت الإنسانية ؛ بل هو شاعر الشام الذى ينشده قطراً واحداً كما حدده التاريخ ، على الرغم من سياسة المستعمرين الذين اكتسحوه مراراً دون أن يستطيعوا القضاء على كيانه الوطنى ، وشخصية أبنائه الفذة .

« إنه يمزج منظوماته بدموعه فتأتى كالنسيم هينمة ورقة ، وكالربيع فى سورية جمالاً ولطفاً . إنه يمزج روائعه القومية بدموعه فتأتى كالرعد زمجرة ، وكأمواج البحر اصطخاباً . إنه يمزج قصائده الرمزية بدموعه ، فتراها كما تتجلى فى قصائده الست المنشورة فى هذا الكتاب صوراً صادقة لنبضات قلبه وخلجات فكره » .

وأذكر أن الأديب المهجرى جبران مسوح قد ذهب من الأرجنتين لزيارة البرازيل فى عام ١٩٥١ . وقد كتب فى ذلك مقالا يقول فيه : « عندما صممت على زيارة البرازيل كان أول أحلامى أن أرى فرحات . ولا أعلم لماذا يشغل فرحات هذه المنزلة من ذهنى . . ولكن قبل سفرى بيوم واحد استوقفنى درزى ساذج فى الشارع وقال : أنت ذاهب إلى البرازيل ؟ قلت : نعم ! قال : إذا أعطيتك أمانة فهل توصلها ؟ قلت : أعتقد أنى أوصلها ، إلا إذا أمسكوها فى الجمرك ، قال : كلا ، إن أمانتى لا يراها عمال الجمرك ؛ أمانتى هى أنك عندما ترى فرحات تبوسه من جبينه ، وقل له هذه بوسة من فلان . . . فقلت : وهل تعرف فرحات ؟ قال : أعرفه بالروح ؛ وهل يوجد من لا يعرف فرحات بالروح ؟ قلت : وماذا يعجبك فى فرحات ؟ قال : يعجبنى فيه أنه عربى لا يتغير . قلت : وماذا تحفظ من شعره ؟ قال : يكفى فرحات أنه القائل :

ما دمت محترماً حقى فأنت أخى ... آمنت بالله أو آمنت بالحجرِ

قلت : وماذا ترى فى هذا البيت ؟ قال : إن هذا أعظم بيت فى الدنيا ، لأنه يشرح أمراضنا من أولها إلى آخرها ، ثم يصف لها الدواء » .

والقارئ يعجب كل العجب من هذه الشاعرية الغامرة التى هبطت على فرحات ، فحولته من « قوال » ينظم « الردّات » و « القرادى » ، إلى شاعر فصيح بعيد الصيت . وجميل بنا أن ننقل ههنا ما يقوله فرحات فى مذكراته حول أول عهده بالنظم بعد وصوله إلى البرازيل :

« فى جويز دى فورا جاء للسلام علينا أديب عربى كان ساكناً فى المدينة ، فقال لى فى أثناء الحديث : علمت أنك تنظم الشعر ، فهلا أسمعتنى من منظومك شيئاً ؟ وكان فى جيبى قصيدة حديثة النظم كنت أظنها « آيتى » . . . فمددت يدى إليها ، فأخذتها ونشرتها وقرأت :

ضروباً من الأهوال حمَّلنى دهـرى   وجـر علىَّ الهمَّ والذلَّ والقهر[1]

قرأت البيت وأنا أنظر فى وجه محدثى لأرى كيف يكون تأثيره عليه . فلما سمع العجز ضحك ضحكة جمدت الدم فى عروق . على أنه لم ينتظر أن أسأله عن سبب ضحكه ، بل بادرنى بقوله إن العجز كله غلط . فقلت : وأين وجه الغلط ؟ فأفهمنى أن الكلمات « الهم والذل والفقر » مفعول به ، وبما أنها كذلك وجب أن تكون منصوبة . قلت : وما يعنى منصوبة ؟ قال : مفتوحة ، أى يجب أن تكون (الهمَّ والذلَّ والقهرَ) - بالفتح بدل الكسر - لأن الفاعل يجب أن يكون مرفوعاً والمفعول به منصوباً . . . ولا أدرى ماذا قال عن المجرور ! . . . والذى أؤكده للقارئ الآن أن ما سمعته من ذلك الأديب آنئذ كان ولا يزال الدرس الوحيد الذى تلقنته فى الصرف والنحو ؛ وأؤكد له أيضا أنى بعد هذا الدرس الوحيد الذى تلقنته لم أقع قط فى غلط « الفاعل والمفعول » ، فكنت كلما نظمت بيتاً تذكرت هذا الدرس وحافظت على القاعدة ! . . . »

ولكن قبل أن يبلغ فرحات العشرين من عمره كان قد ترك الزجـل وانصرف إلى نظم الشعر الفصيح . ويقول فى ذلك : « ولما لم أكن واثقاً من صحة النظم لم يكن يخطر لى فى بال أن أنشر ما أنظم » ، إلا أنه نشر أول قصيدة له إذ ذاك فى جريدة « أبو الهول » التى كانت تصدر فى البرازيل . فقويت إذ ذاك ثقته بنفسه ، ومضى يرسل إلى الصحف ما يجدّ من نظمه . وأخذ يميل إلى التقرب من

---

(١) قرأ الشاعر (الهم والذل والقهر) بالكسر بدل الفتح .

الصحفيين ، والأعمال الصحفية ، فعمل فى « أبو الهول » نفسها وكيلا للاشتراكات ومراسلا ، وتنقل بعدها إلى صحف أخرى .

وتعرف فرحات كذلك بالشاعر القروى ، فصار يقرأ له قصائده وتعرف بعد ذلك بجورج حسون معلوف وتوفيق ضعون ، واشترك مع ضعون فى إصدار مجلة « الجديد » مدة قصيرة . ومع الأيام كان شعر فرحات ينضج بسرعة ، ويجد صداه فى النفوس ، ويجد له قراء ومعجبين فى ديار الهجرة ، ثم فى البلاد العربية التى طالما نقلت صحفها قصائده عن صحف المهجر .

أما شعر فرحات فقد قدّر له أن يطبع مرة ثانية عام ١٩٥٤ على نفقة الجالية العربية فى المهجر الجنوبى . وفى هذه المرة استطاع فرحات أن يحقق أمنيته القديمة : فاختار أن يجمع شعره فى أربعة أجزاء متفرقة – بعكس ما فعل رفيقه القروى الذى جمع كل شعره فى كتاب واحد ضخم – فكان أحد هذه الأجزاء الأربعة للرباعيات ، والثلاثة الباقية جمع فيها ما كان فى « ديوان فرحات » وعدداً من قصائده الأخرى المتفرقة فى الصحف ، ودعا هذه الأجزاء الثلاثة كما يلى : « الربيع – الصيف – الخريف » ، وقد جاء مجموع صفحات هذه الأجزاء الثلاثة وحدها أكثر من ٨٥٠ صفحة من القطع الصغير ، وكلها مطبوع طباعة أنيقة .

ويلاحظ من يعرف فرحات وشعره أنه قبل الإقدام على طبع هذه الدواوين الجديدة ، قد غربل قصائده ، ولا سيا التى لم يسبق نشرها فى ديوان ، فلم ينشرها جميعاً فى « الخريف » ، بل اختار منها ما يعتقد هو نفسه أنه أجود ما نظم بعد عام ١٩٣٢ . ولو شاء طبع جميع قصائده فى هذه الفترة لاحتاج إلى جـزء آخر على الأقل .

أما الرباعيات فقد أضاف إليها أشياء جديدة ، وقدم بعضها أو أخره عما كان فى الطبعة الأولى ، وبدلا من المقدمة الواحدة أصبح للطبعة الجديدة مقدمتان ، الثانية منهما للأستاذ حبيب مسعود رئيس تحرير مجلة « العصبة » المحتجبة .

وهكذا استطاع فرحات أن يضع بين أيدى قرائه ومحبيه جميع شعره حتى ذلك الحين ، لم يترك منه غير القليل ، وهو الذى كان قد ذكر فى مذكراته أنه سيتركه للوراث – بعد عمر طويل – ليجمعوه فى ديوان يدعونه « الشتاء » .

فى سنة ١٩٥٩ دعت حكومة الوحدة فى سوريا الشاعرين فرحات والقروى إلى زيارة الوطن . فتجوّل فرحات فى سوريا ولبنان ومصر سنة كاملة ، ثم عاد إلى البرازيل إلى جانب أسرته ، فى حين بقى القروىّ سنوات .

وفى سنة ١٩٦٧ ظهر لفرحات ديوانان جديدان : واحد نشرته وزارة الثقافة فى سوريا بعنوان « فواكه رجعية » ، والثانى نشرته مكتبة القاهرة بعنوان « مطلع الشتاء » . الأول قدّم له خمسة أدباء من مصر وغيرها ؛ والثانى قدّم له وديع فلسطين وحده .

ولكنّ فرحات لم يأتِ فى هذين الديوانين بجديد يمكن أن يتميّز به عن سابقاتهما سوى كثرة المقدّمات فى « مطلع الشتاء » ؛ وهى بدعة عجيبة غريبة . أما الروح ، فنى قصائد « مطلع الشتاء » خاصة خطابية مملّة ، ومعانٍ ما أكثر ما طرقها فرحات وأمثاله حتى أصبحت تبعث على شيء من الملل أو ربما الغثيان . وكثيراً منها أحلام ماتت بعد أن خيّبتها الحقائق المرة – ومن الشعر ما يموت قبل أن يخرج من فم منشده ! – حتى الغزليات القديمة التى عاد فرحات يحييها فى « فواكه رجعية » فقدت طعمها ولونها .

وهذا دليل على أن أدب المهجر قد مات أكثره فى الخمسنيات ، وما بقى منه شاخ مع شيخوخة أصحابه ، وأصابه الهرم ؛ إذ فقد زهوته ولونه .

١٨ – رشيد سليم خورى الملقب بالشاعر القروى من العصبة الأندلسية

ولد رشيد سليم خورى فى قرية « البربارة » فى لبنان عام ١٨٨٧ ، وتعلم فى مدرسة القرية أولا ، ثم فى مدرسة الفنون فى صيدا ، ثم فى سوق الغرب ، ثم أنهى دروسه الإعدادية فى جامعة بيروت الأميريكية ، واشتغل فى التدريس سبع سنوات فى عدد من المدارس الأجنبية والطائفية ، فى طرابلس والمينا

وبشمزين وزحلة والشوير وسوق الغرب . وقد ظهرت بواكير نبوغه الأدبى وهو ما يزال على مقاعد الدراسة .

وإلى جانب الأدب مال القروى إلى الغناء والعزف على العود حتى برع فيهما . وتعلم إلى جانب العربية اللغة الإنكليزية ، ثم البرتغالية التى تعلّمها فى ديار الهجرة

وفى أول شهر آب (أغسطس) ١٩١٣ غادر القروى لبنان مع أخيه قيصر – المعروف باسم « الشاعر المدنى » – إلى البرازيل . أما سبب هجرته فهو يرويه فى مقدمة « ديوان القروى » كما يلى :

« نشرت لى جرائد بيروت على عهد المتصرف التركى يوسف فرنكو باشا بعض القصائد الوطنية الثائرة ، فما قرأها عمى إسكندر – وهو قبطان فى الجيش البرازيلى ، ويعشق الشعر الحماسى على الخصوص – حتى شرع يرغبنى فى السفر إلى عنده . واستمر على ذلك بضع سنوات ، وأنا أتردد فى هجر وطنى الذى تيمنى منذ حداثتى ، وأسأل العارفين هل فى البرازيل جبال جميلة كجبال لبنان ، وسماء نقية كسمائه ؟ حتى أوجدنى عمى أمام الأمر الواقع بإرساله إلىّ خمسين ليرة إنكليزية لأسافر فى الدرجة الأولى . وكان والدى قد توفى سنة ١٩١٠ غمًّا وكمداً لفرط حيائه من « لا » ، وتوزيعه ثروته قروضاً لم يستوف منها فلساً ؛ وخلف علينا ديوناً لا يرجى إيفاؤها من راتب التعليم الضئيل . فوطنت النفس على الاغتراب ، وأنا أمنيها بالأوبة حالما أبرئ ذمة والدى . وركبت البحر ، لكن لا فى الدرجة الأولى ولا فى الثانية ، فإن شقيقى قيصر أعرض عن نصحى له بالبقاء ريثما أصل فأستدعيه أو أعود أدراجى ؛ وأبى ، لعدم طاقته فراقى ، إلا أن يصحبنى مع زوجته وطفلتهما الرضيع ، فاضطررنا لاستدانة ما يكفينا للسفر فى الدرجة الثالثة » .

وفى ولاية ميناس فى البرازيل حمل رشيد «الكشة» وضرب فى مناكب الولاية ببضاعته متعرضاً لأقسى مشقات الحر والسيول الطامية – كما يقول – ثم انتقل من ولاية ميناس إلى ريو دى جانيرو فى أثناء الحرب العالمية الأولى ، وهناك شرع يرتزق بتعليم العزف على العود ، ثم بالتدريس فى مدرسة جمعية زهرة الإحسان . وفى عام ١٩١٥ انتقل إلى سان باولو ، وراح يعمل فى التدريس فى

بعض المدارس العربية والأجنبية ، وفى إعطاء الدروس الخاصة فى البيوت ، ثم ترك التعليم وانصرف إلى العمل معتَمَداً لبعض المحلات التجارية .

وفى سان باولو برز رشيد شاعرا ، وعرفته الأوساط والأندية الأدبية . وظهرت موهبته فى الشعر الوطنى الذى أصبح همه الأكبر ؛ فكثيراً ما كان يتوقف عن أعماله التجارية لينظم الشعر ويلقيه فى حفلات الأندية والجمعيات حاملا على الاحتلال الأجنبى ومؤيديه ، ومعرضاً نفسه لحملات أعداء الحرية وخصوم القومية العربية .

ثم عمل فى الصحافة ، فتولى تحرير جريدة « الرابطة » لمدة سنتين بعد أن توفى محررها الدكتور خليل سعادة عام ١٩٣٤ . وافتتح بعد ذلك مصنعاً لربطات العنق ، ولكنه لم يلبث أن أغلقه بعد ثلاث سنوات .

وفى عام ١٩٢٤ لحقت به أمه وأخته إلى البرازيل ، ثم تلاهما بقية إخوته ، فلم يبق فى قريته « البربارة » أحد من الأسرة .

وحينما أنشئت العصبة الأندلسية فى البرازيل كان رشيد من أوائل الذين انضمّوا إليها ؛ فلما توفى رئيسها الأول ميشال معلوف عام ١٩٣٨ انتخب رشيد خلفاً له فى رئاستها ، إلى أن انتقلت الرئاسة إلى الشاعر شفيق معلوف . آخر رئيس لها حتى توقّفها .

وقد أصدر رشيد عدداً من الدواوين الشعرية كان أولها « الرشيديات » ، ثم « القرويات » ، ثم « الأعاصير » . وفى عام ١٩٥١ تنادى العرب المهاجرون — وعلى رأسهم إلياس عاصى فى البرازيل ، والشاعر جورج صيدح [1] فى الأرجنتين — إلى تكريم القروى بجمع مبلغ من المال لشراء بيت يقدمونه له . وقد جمعوا لهذه الغاية ما يعادل ثلاثين ألف ليرة لبنانية . غير أن القروى أبى أن يقبل هذه الهدية منهم ، وقال إنه يفضل قبراً فى وطنه على قصر فى غربته . وطلب رد المال إلى المتبرعين ، واعتبر هذا التبرع إهانة له .

---

(١) المودة التى كانت بين القروى وصيدح انقلبت فى الأعوام الأخيرة إلى عداء سافر بلغ أقصى العنف بالمهاجاة القلمية فى الصحف المشرقية والمهجرية . وكذلك الحال بين صيدح وفرحات . وهو أمر يدعو إلى الأسف من هؤلاء الثلاثة فى أقصى شيخوختهم .

وعند هذا الإباء من القروى لم ير المهاجرون بداًّ من تخصيص المبلغ الذى جمعوه ليطبع به شعر القروى كله فى ديوان واحد ، بدلا من شراء المنزل الذى أرادوه . ولم يسع القروى أمام إلحاحهم إلا أن يقبل المال للغرض الأدبى ، فعكف على جمع شعره كله – المنشور فى دواوين سابقة ، وغير المنشور من قبل – فى ديوان جديد .

وفى عام ١٩٥٢ ظهر « ديوان القروى » فى ٩٢٦ صفحة من القطع الكبير ، مقسماً إلى أبواب هى : « البواكير – الأعاصير – الزمازم – المحافل والمجالس – زوايا الشباب – الموجات القصيرة – الأزاهير » . وفى صدر الديوان مقدمة طويلة تقع فى أربع وثلاثين صفحة – غير الصفحات الـ ٩٢٦ التى تضم شعر الديوان – وفى هذه المقدمة سرد القروى سيرة حياته ، وتحدث على أسرته ، وأخلاقه ، وطباعه ، وغربته ، ووطنيته . ووقف قسماً كبيراً من المقدمة للحديث على القومية العربية ، وإيمانه بها ، وحبه لها ، وواجب العربى القومى ، وما إلى ذلك . وقد أعيد طبع الديوان فى مصر عام ١٩٦٥ للمرة الثانية .

يقول تحت عنوان : « لماذا غلبت الحماسة على شعرى » من المقدمة :

« ما كدت أنهض بقادمتى حتى صكت مسمعى أنات أمتى َ، ولفحت وجهى زفراتها ؛ فطويت جناحى عند سريرها ، مخضعاً خيالى لواقعها الأليم ، مقدماً واجب تمريضها على التغريد فى الخمائل ، والتنقير بين الحقول . ولو أنى أدركت أمتى صحيحة قوية لحلّقت مع الأسراب فى ألف سماء بعد سمائها . لقد سلب اللصوص نصيب أمتى من الحرية والعدالة والحق ، وهى أسمى المعقولات التى ينشدها الإنسان الراقى ، بل أغلى الجواهر الروحية المشعة من صدر الرحمن ؛ لا يحيا قلب بشرى نبيل إلا بقطر نداها ، ولا يمكن أن يُتَصور خير ولا جمال ولا سعادة فى هذا الوجود إلا بانعكاس نورها » .

وفى هاتين الفقرتين ما يعرب بوضوح عن مدى تعلق القروى بأمته وبوطنه العربى الكبير . ولكن الشاعر لم يكتف بالإعراب عن عاطفته هذه بالشعر والنثر ، فطالما ترجم مشاعره الوطنية أعمالا يذكرها له التاريخ بالفخر . ومن ذلك ما يلى :

١ – فى عام ١٩٤٧ طبع القروى كراسة صغيرة ضمنها ثلاث قصائد متبادلة بينه وبين الأمير شكيب أرسلان ، وجعل عنوانها « اللاميات الثلاث » . وقد اجتمع له من ريعها مائتان وخمس وخمسون ليرة إنكليزية بعث بها جميعاً إلى أمين الجامعة العربية حينذاك ، لتنفق على تعزيز قوة الدفاع عن فلسطين – كما ذكر لى ذلك فى كتاب منه بتاريخ ١٢ / ٥ / ١٩٤٧.

٢ – ذكر جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » أن القروى أهدى نسخة من ديوانه إلى فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقورى فى مصر ، فأرسل إليه الشيخ حوالة مالية – تقديراً له – قيمتها مائتا جنيه مصرى . فأعاد إليه القروى الحوالة شاكراً ، وطلب أن ينفق المبلغ على تسليح الجيش المصرى.

٣ – فى عام ١٩٥٧ كتبتُ إلى القروى أطلب منه ثلاثين نسخة من « ديوان القروى » طلبها منى سماحة الشيخ إبراهيم القطان – وكان إذ ذاك مفتش التربية والتعليم فى لواء البلقاء فى الأردن – لتوزيعها على مكتبات المدارس . وقد أرسلها القروى فعلا ، ولكنه أتبعها برسالة تاريخها ١٤ آذار (مارس) سنة ١٩٥٧ يقول فيها : « أخى عيسى ، أكتب إليك فور تسلمى جوابك شاكراً لك التطمين عن وصول أول شحنة من الكتب . . وأما الغرض الأهم فهو استيقافكم عن إرسال ثمنها إلى ، لأننى وقفته على عائلة الشهيدة الخالدة رجاء[1] ؛ مع الرجاء بأن يصلنى بواسطتكم وثيقة من أسرة رجاء بتسلمهم القيمة . وأفوّضكم منذ الآن بتوزيعها عليهم حسب فهمكم وإنصافكم ، أو تقديمها لوالد الشهيدة أو والدتها » . وفعلا استدعيت أخا الشهيدة من أريحا وسلمته خمسين ديناراً أردنياً تبرعاً من الشاعر القروى ، وأرسلت كتاباً بخطه إلى الشاعر إيذاناً بتسلم المبلغ .

٤ – لم يترك القروى فرصة لجمع التبرعات لقضايا الوطن العربى إلا اهتبلها وتحمل فى ذلك المشاق والعناء لهذه الغاية . وقد جاء فى كتاب « مهمة فى قارة » لأكرم زعيتر ما يلى :

« حدثنى الصديق إلياس عاصى أن القروى كان حين يتطوع بالطواف

---

(١) رجاء حسن أبو عماشة .

على القرى والأقاليم النائية لجمع الإعانات للقضايا العربية يستصحب معه جوارب لبيعها فى الحين ذاته ، ولينفق من ربحها على أجور رحلته ، مؤثراً هذا على أن ينفق من الأموال العامة شيئاً » .

أما السبب فى تسمية رشيدباسم « الشاعر القروى » فقد رواه الشاعر نفسه فى حاشية الصفحة ٩٥ من ديوانه إذ قال معلقاً على قصيدة له بعنوان « لعينيك يا لبنان » :

« هى أول قصيدة نشرها بتوقيع « الشاعر القروى » ، وكان ذلك على أثر صدور ديوانه الأول « الرشيديات » سنة ١٩١٦ ؛ إذ راح المرحوم نجيب قسطنطين الحداد يتابع نقده فى جريدته « المؤدب » كيفما اتفق . ولقى صاحب الديوان ذات يوم المرحوم جورج الحداد ، صاحب جريدة « القلم الحديدى » ، وفى يده عدد من المؤدب يلوح به ويقول : « خذ اقرأ . . . إنه هذه المرة يسلخ جلدك سلخاً » ، فتناوله ضاحكاً ومضى يتصفح طائفة من النعوت ، حتى وصل إلى قوله : « من هو هذا الشاعر الـ . . شاعر جرن الكبة . . . الشاعر القروى ؟ . . . » فوقف عند هذا النعت الأخير وقد عرته لرنته هزة . . . »

وهكذا صار رشيد لا يكتب شيئاً ، شعراً أو نثراً ، إلا وقعه بتوقيع « الشاعر القروى » منذ أن قرأ نقد قسطنطين الحداد ذاك . وقد اشتهر بهذا الاسم حتى إن كثيرين لم يعودوا يعرفون اسمه الحقيقى . وما يزال كثير من الأدباء يخلطون بين اسمه واسم الشاعر رشيد أيوب ، ولا يعرفون أيهما « القروى » ، وأيهما « الدرويش » .

شاعرية القروى عامة

لعل الميزة الجامعة لشعر الشاعر القروى رشيد سليم الخورى هى أنه وليد الشعور العميق الدافق . وهذا الشعور قد يرقّ أحياناً ، فنسمع فيه أنغام السواقى ، والشحارير ، وحفيف أجنحه فراشات الربيع ، وقد يعنف فإذا فيه جلجلة العواصف، وهدير الأمواج ، وقصف الرعود ؛ قد يروق فإذا هو حنين

ذائب ملتهب ، ووصف ساحر رائع ، وصور من ألحان القلوب الندية ، وقد يفور فإذا هو ثورة صاخبة عارمة ، ووطنية مؤمنة لاهبة ، وغيرة قومية فيها الصدق ، والوفاء ، والمحبة .

يرى شاعرنا الأبقار سارحة فى الحقل فى أحد أيام الشتاء ، فيقف ليخاطبها قائلا :

تشكين فصل الشتاء البارد القاسى ؟ ماذا أقول أنا فى عِشرة الناس ؟
نامى على الثلج ، نامى ليس من باسٍ فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وإن تكن هاطلات الغيث تغشاكِ طوباك ، فالقطر غير الدمع طوباك !

فنرى شاعراً تفور فى صدره أحاسيس الحنان والرحمة أمام قساوة من يلقاهم من بنى البشر ، وصلابة قلوبهم ؛ فهو يعزّى البقر بأنه لا يحس بهذا الشعور البارد القاسى حينما يحسّ ببرودة الثلج .

هذا هو القروى فى شعره الإنسانى ، أما فى شعره الوطنى فقد كان ثورة عارمة : ينقم على المذاهب والأحزاب التى تفرق بين الإخوان فى الوطن الواحد ، ويستثير الهمم لنشدان الحرية ، ويستقطر غضب الأرض والسماء على الظلم والظالمين ، وعلى كل من يعمل على إذلال أهله ووطنه .

والأمثلة كثيرة فى هذا الباب من شعر القروى ، فقد كان أغلب شعره وطنيًّا شديد الفوران ، ملتهب العاطفة . وفى قسم « الأعاصير » من ديوانه مجموعة من هذه القصائد الوطنية الثائرة .

أما الحنين فنستطيع أن نقول إن القروى كان من أكثر المهجريين حنيناً فى شعره ، ولعله من أرقهم إحساساً فى حنينه ، ومن أعذبهم شعراً .

ونرى من رقة شعوره فى قصائده الوجدانية فنوناً عجاباً . فلنستمع إليه فى قصيدة له تحت عنوان « أختى المريضة فى العيد » حيث يقول :

رأيت الصبايا صفوفاً تغنى وتطفر فى العيد مثل الظبا
إلى كل روض ، على كل غصن أهاب الربيع فلبيّ الصبا
قصائد من كلّ وزن ولحن يرتّلها الله فوق الرّبى
وأختى البريئة رهن الألم كما حُبس الطفل عن ملعبه

إلهيَ ، ضيعتَ أعلى نغم   وعطَّلت شعرك من أعذبه

وفي شعر القروي كثير من الإحساس الجميل العميق بالطبيعة ، وعلى الأخص في قصيدة « الربيع الأخير » وفي قصائد الحنين العديدة من شعر القروي وإليك نماذج من شعره في الحنين

قال في قصيدته « تحية المغترب » :

سلامٌ إلى حيث غادرت روحي   بلبنان سابحةً هائمهْ
إلى البحر كم أشتهي أن أراه   وروحي على سطحه عائمهْ
أحنّ إليه وأطواده   تزمجر قاعدةً قائمهْ
وأشتاقه وموجاته   تُدَغْدغ تلك الحصى لائمهْ

ومن قصيدة « وقفة على الشاطئ » :

يا نسيمَ البحر البليل سلامُ   زارك اليومَ صبُّك المستهامُ
إن تكن ما عرفتني فلك العذ   ر فقد غيّر المحبّ السقامُ
أولا تذكر الغلام رشيداً ؟   إنني يا نسيم ذاك الغلامُ
طالما زرتني إذا انتصف الليـ   ل بلبنان والأنام نيامُ
ورفعت الغطاء عني قليلا   فأحست بمزحك الأقدامُ
وتنبهت فاتحاً لك صدراً   شبّ فيه إلى لقاك ضرامُ
فتغلغلت في الأضالع أنفا   ساً لطافاً تهفو إليها العظامُ
ولثمت الفؤاد ثغراً لثغر   ولكم حجّب الثغور لثامُ
يا نسيم المحيط ، ما هكذا في   ساحل البحر عندنا الأنسامُ
ذاك أزكى شماً وألطف ضمًّا   ذاك تشْفى بلمسه الأجسامُ
كم شفت لي عيون والده البحـ   ر أواماً ، يا حبذاك الأوامُ !
كارعاً من زلالها ، لا بجام   فهي ساقٍ وسلسبيلٌ وجامُ
أسبق الفجر في الهبوط إلى البحـ   ر وكم طاب لي به استحمامُ

وهكذا حتى نهاية القصيدة ، وهي من ألطف شعر الحنين والوصف معاً .

ولها مثيلات كثار في ديوان القروي . فليرجع إليها من شاء .

على أن من الحق أن نذكر أن القروي – على شاعريته المبدعة ، وشهرته

البعيدة – لا يخلو شعره فى أحيان كثيرة من المآخذ ؛ ففى كثير من قصائده ضعف فى الصياغة ؛ لعله من جناية القافية الواحدة والوزن الواحد . وإن القارئ الممتلئ إعجاباً بالقروى وشعره ليقف أحياناً أمام بعض قصائده وهو يشعر بأنها دون شعر القروى ، وكان خيراً لو استغنى عنها الشاعر فلم يضعها فى ديوانه إلى جانب العديد من قصائده الجياد .

خذ مثلا قصيدته « حضن الأم » . إنها من حيث الفكرة والموضوع قطعة فنية رائعة ، بل هى فكرة بكر بالنسبة إلى القروى : فالمسيحى حين يصل إلى خاتمتها يحس بأن القروى قد لخص له عقيدته الدينية فى بيت واحد من الشعر حين قال :

وكانت ليلة وإذا صبى صغير نائم فى حضن مريم

غير أن سياق القصيدة ضعيف جدًّا ولا يتناسب البتة مع جمال الفكرة الموحية .

ومثل قصيدة « حضن الأم » قصائد أخرى عديدة للقروى ، ولاسيما من شعر المناسبات الشخصية ، والمحافل والمجالس ، وما إلى ذلك .

على أننا نلاحظ أن أقوى قصائد القروى التى نال شهرته بسببها ، سواء فى الحنين ، أم فى الوطنية ، أم فى الوصف ، أم فى الشعر الإنسانى ، كلها كانت من شعر الشباب والكهولة ، وكلها مما نظمه القروى قبل عام ١٩٥٠ ؛ وكل شعره الذى نظمه بعد هذا التاريخ لا يقاس بشعره السابق من حيث القوة والجمال والإبداع ، ولا من حيث الصياغة وقوة البيان . والذى يريد أن يحتفظ للقروى بصورة زاهية لامعة ، فعليه أن يقف به عند عام ١٩٥٠ ، ولا يتجاوزه ؛ فالقروى الشاعر بعد ذلك غير القروى القديم .

* * *

الوطنية فى شعر القروى

إذا كان رشيد سليم الخورى قد اشتهر بين شعراء المهجر جميعاً بشعره الوطنى الثائر فعاطفته الوطنية لم تقتصر على بلده لبنان ، فكل قطر عربى هو وطنه : يتغنى به . ويُشيد بمحامده . ويستنهضه للحرية ، وهو من المؤمنين بأن العروبة وحدة لا تتجزأ ، وإن فرّقتها السياسة الاستعمارية زمناً ، وجعلتها أشلاء ، لكل شلو حدود وحكومة وأنظمة خاصة . كما أنه لا يفرّق بين أبنائها اختلاف المذاهب والعبادات .

ولذلك نرى الشاعر القروى فى بعض قصائده الوطنية يحمل على إخوانه اللبنانيين المسيحيين ، الذين لم يشتركوا فى الثورة السورية الأولى لتحرير بلادهم من نير الأجانب ؛ فيقول مخاطباً سلطان الأطرش ، ومشيراً إلى هذا المعنى :

فتى الهيجاء ! لا تعتبْ علينا   وأحسنْ عذرَنا ، تحسن صنيعا
تمرّستم بها أيام كنّا   نمارس فى سلاسلنا الخضوعا
فأوقدتم لها جثثاً وهاماً   وأوقدنا المباخر والشموعا
إذا حاولتَ رفْعَ الضيم فاضربْ   بسيف محمد واهجر يسوعا !

وهو يرى – وليس من الضرورى أن نرى نحن مثل رأيه هذا – أن الدين الذى يعلمهم أن « يحبوا أعداءهم » هو الذى يغرس فى نفوسهم معانى الذل والخنوع ، فيجعلهم يتقاعسون عن الجهاد ؛ فيتعرض لهذا الموضوع فى قصائد كثيرة ، لا يحترم فيها عقيدة الآخرين ، ويحمل على السيد المسيح والمسيحية حملة خطابية كنّا نودّ لو أنه نزّه قلمه عنها .

وهو يرى أن المحبة وحدها لا تكفى ، لأنها إذا كانت من الضعيف للقوى فهى ضعف وجبن ، وتملق ؛ والقوى لا يؤمن بها ، ولا يأبه لها . ولذلك لا يمكن للحب والإنسانية أن يحررا عنقاً من نير ، أو يخلّصا معصماً من قيد ؛ والوحش لا يفهم إلا لغة الوحوش ، كما يقول القروى فى قصيدة ثانية :

والسيف – لا عيسى ولا أضرابه –   خلق الكمال لهم من النقصانِ

فانسفْ جبال الظالمين به ودَعْ لذوى القلانس « خردل الإيمانِ »
خاطب وحوش أروبّة بلسانهم واذخر لسان الحب للإنسانِ
أحسن إليهم بالإساءة — إنما ترويض ذى ناب من الإحسانِ

ثم يعود إلى موضوع المحبة والدين فى قصيدة أخرى فيقول — وهو لا شك غير مصيب فى تعرّضه للأديان نفسها :

قال المسيح لنا : « حبوا أعاديكم » لكنه لم يقل : « حبوا الشياطينا » !.
الدين قِبلتنا ، لكن تجارتكم بالدين تُكرِهنا أن نَكره الدينا

وفى قصيدة غيرها على لسان الثائر الفلسطينى :

وكّلت إنجيل السلام فلم يَفُز غير الحسام بحل هذا المعضل

وحين يرى أن النعرة الدينية تفرق بين الإخوان ، وبتفرقهم تضيع حقوقهم وحريتهم فى أوطانهم ، ثار على هذه التفرقة المذهبية الدنيئة ، وهتف فى قصيدته « عيد الفطر » قائلا :

ولكننى أصبو إلى عيد أمّة محرَّرة الأعناق من رقّ أعجمى
إلى عَلَم من نَسْج عيسى وأحمد وآمنةٌ فى ظلّه أختَ مريم
هبونى عيداً يجعل العُرْبَ أمَّة وسيروا بجثمانى على دين بَرْهَم
سلام على كفر يوحِّدُ بيننا وأهلا وسهلا بعده بجهنَّم !

فالدين الذى يؤمن به الشاعر القروى ليس « النصرانية » ولا « الإسلام » ، وإنما هو دين « القومية العربية » التى تجعل من العربى أخاً ونصيراً وسنداً لكل ذى ملة ودين فى وطنه ، لأن هذا هو الدين الوحيد الذى يرى أن على أساسه نهضت الأمم القوية ، ووصلت إلى مكانها من العظمة والقوة ، والذى على أساسه يتحرر الشرق العربى من عبودية المستعمر الغريب ، ويستعيد مجده العظيم .

فليس أحب إلى الأجنبى من أن يلقى بذور الفساد بين أبناء الوطن الواحد عن طريق النعرات المذهبية أو العائلية ، أو الأطماع الشخصية ، ثم يقف بعيداً يضحك ملء شدقيه من هؤلاء الحمقى الذين يتهارشون على لا شيء ، ويشتغلون بأنفسهم عن نكبة وطنهم وقومهم ، وعن نير العبودية الجاثم فوق أعناقهم .

ولقد واكب القروى النهضة القومية ، واستعر قلبه بحب أمته وبلاده ، حتى ليكاد يحترق حقداً على سالبيها حريتها ، ومستعبديها . فهذه فتاة إنكليزية اسمها « مود » تتودّد إليه فيعرض عنها لأن قومه قد بلوْا من قومها أدهى المصائب ، فيقول :

ولو لم تكونى فرنجيّة — لكنت سُعادىَ قبل سعادْ
ولكننى عربىّ المنَى — عربى الهوَى ، عربىّ الفؤادْ
لعمرك يا « مود » لولا ذووك — لما ميّز الحب بين العبادْ
ولا أكرهوا شاعراً أن يقو — ل : هذى البلاد ، وتلك البلادْ
فهم أوغروا بالعداء الصدور — وهم أضرموا النار تحت الرمادْ
فلا تعذلى شاعراً زاهداً — —وكم هام بالحب فى كل وادْ —
فإنى حرام علىّ هواك — وفى وطنِى صيحة للجهادْ !

* * *

وفى عيد الجلاء : جلاء الجنود الأجانب عن سوريا ، نسمع الشاعر القروى يحذّرنا من أن ننخدع بالجلاء الجزئى عن بقعة صغيرة من الوطن العربى الكبير ، بينما تبقى جيوش الاستعمار منشبة مخالبها فى الأجزاء الأخرى . فيقول :

عيد الجلاء تغبة ، إن لم يقم — فى مصر برهان على الدعوى جلى
لا تُخدَعوا برحيله عن جلَّق — وأخوه عن بغداد لم يترحل
لا فرق إن نزف العدو دماءكم — من أشجع أو أخدع أو أكحل
إن تتركوه ليُمعنَنَّ تهكماً — بمهارج استقلالكم لا يأتلى
وليبزُلن كبودكم كدنانكم — ولَيشرَبنَّ على لذيذ المأكل
لا يرتوى إلا وهنّ فوارغ — متهالكات ، وهو دنٌّ ممتلى
النيل والأردنّ فضلة كأسه — والرافدان ثمالة المتثمل

ولا ينسى شاعرنا القروى فلسطين المنكوبة المجاهدة ، فقد ذكرها فى عدد كبير من قصائده . فها هو ذا يندد ببلفور ، صاحب الوعد المشؤوم فيقول :

الحقُّ منك ومن وعودكَ أكبرُ — فاحسب حسابَ الحقّ يا متجبرُ
عِدْ من تشاء بما تشاء فإنما — دعواه خاسرةٌ ووعدُك أخسرُ

فلقد نفـوز ونحن أضعفُ أمــة ... وتـؤوب مغلوبـاً وأنت الأقـدرُ

ويهتف فى قصيدة أخرى :

يهنيكَ ! لم تـرَ عيناك الـذى فعلت ... ذات الأساطيل من أهـوالها فينا
قـد أهلكتنـا على أردننـا ظمـأ ... وأوردتنـا المنايا من موانينـا
أجـرت مـراكبهـا مشحونة قذراً ... وأفـرغتهـا يهـوداً فى فلسطينا
ماذا جنى القدس من «لاوى» وإخوته ... إلا الشقاء وإلا الذلّ والهونا ؟ !
والله لـو داس فى بيروت أقدَسُهم ... لسممت قـدماه نبـع صنينـا !

وها هو ذا يخاطب بريطانيا بلسان الثائر العربى الفلسطينى ، فيقول :

فَصْلُ الخطاب هنا بحدّ الفَيْصَل ... فـاقطـع بلندن ما بدا لك أوْ صِلِ
يـا مغـرياً بى عنكبوتَ دهـائِـــه ... هلّا غـزلتَ بغير هذا المغزلِ ؟ !
إن كنتَ يوماً بالوعود مكرتَ بى ... أنـا غـير عهدك بالزمان الأولِ
أغنـــانىَ الحق الـذى أنا ربّـــه ... عـن وقفـة المتسوّل المتوسلِ
ليس الدم المسفوح منك سوى دمى ... والمـــنزل المهـــدوم إلا منزلى
الأرض لى . . والدار لى . . والقول لى ... والفعل لى .. والسيف لى ..والنصرلى !

وجملة القول إن الشاعر القروى كان شاعر القومية العربية ، ولسان الثورة الحمراء لأجل الحرية ، فما كان يرى سواها وسيلة تعيد إلى المظلوم حقه ، وإلى المقيد حريته . وإلى المهان كرامته ، ولذلك نادى بها فى أكثر قصائده .

١٩ – شفيق المعلوف
من العصبة الأندلسية

ما ذكرت شفيق المعلوف مرة ، إلا ذكرت معه مطلع إحدى مراثيه لأخيه المرحوم فوزى ، وهو :

أهـويت أبحث عنـه فى الترب ... تـاج تـدحرج عن جبين أبى

فأردده بإعجاب وحسرة : الإعجاب لأنه فى رأيى أوقع مطلع وقعت عليه

فى حياتى من مطالع الرثاء فى الأدب العربى ، وأدلها على صدق اللوعة ، والحسرة على ذلك التاج النفيس الذى تدحرج عن جبين والد الشاعر ، فأهوى ليبحث عنه فى التراب ، وهيهات أن يجده ، فقد غيّبه التراب إلى الأبد - وودائع التراب لا ترد - وقضى على جماله وسناه .

فى هذا البيت استطاع شفيق المعلوف أن يصور عمق لوعته وشدة جزعه على أخيه الراحل أصدق تصوير وأدقه ، وأن ينقل شعوره هذا إلى قارئه بطريقة مؤثرة جداً . وهذه مزية لا نجدها إلا لدى الشاعر المطبوع على الشاعرية .

وشفيق المعلوف شاعر مطبوع ، ما فى هذا ريب ؛ ويدلنا على ذلك ما له من نتاج شعرى منشور فى كتب خاصة ، أو فى الصحف . ولا غرابة ، فقد نشأ شفيق فى بيئة تفوح بشذا الآداب ، وتنفح الشعر عابقاً . فهو ثانى ثلاثة إخوة شعراء لا نعرف بيتاً عربيًا اجتمع فيه مثلهم ، وأخواه الآخران هما : فوزى المعلوف ، ورياض المعلوف . والأول شاعر ملأ دنيا الضاد بالشعر العبقرى ، والثانى شاعر تعرفه المحافل الأدبية فى الشرق والغرب ، بكتبه ودواوينه الشعرية ، الطريفة ، بالعربية والفرنسية والإنجليزية . وأما أبوه فهو الأديب المؤرخ والشاعر عيسى إسكندر المعلوف ؛ وخالاه ميشال وقيصر أيضاً شاعران مشهوران ، والأول منهما كان أول رئيس « للعصبة الأندلسية » فى البرازيل . وهذه كما نرى بيئة شعرية خالصة من كل أطرافها .

ولد شفيق فى زحلة بلبنان سنة ١٩٠٥ ، وتثقف تحت رعاية أبيه العلامة ، واشتغل بالصحافة مدة . وقد سبقه أخواه إسكندر وفوزى إلى الاغتراب ، ثم لحق بهما إلى البرازيل نحو سنة ١٩٢٧ ، حيث انصرف إلى التجارة ؛ ولكنه استمر على الإنتاج الأدبى الذى كان قد بدأه فى الوطن بديوانه « الأحلام » . فلما أنشأ خاله ميشال « العصبة الأندلسية » انضم إليها ، واستمر على مناصرتها ورعايتها ، وأصبح فيما بعد رئيسها وممولها .

فى سنة ١٩٢٦ كان قد ظهر لشفيق فى لبنان ديوان شعرى صغير عنوانه « الأحلام » ، هو باكورة إنتاجه . وهذا الديوان يحتوى على قصيدة خيالية

ذات ثلاثة فصول – أو ثلاثة أحلام – تتألف كلها من سبعة وعشرين نشيداً ، فى مائة وتسعة وثمانين بيتاً .

كان شنيق حينما نظم هذه الأناشيد ما يزال فى أول مراحل الشباب ، ولذلك ليس غريباً أن نقول إنها كانت خيالات فتى لم ينضج بعد ، ولم تنضج أفكاره وخيالاته ، غير أنه كان فيها إشراق غير قليل من شاعرية تتقدم نحو السطوع .

لقد كانت ملأى بالتشاؤم والألم لأنها كانت تعبيراً عن حيرة الشاعر فى مستهل حياة الشباب ، فقلبه مشبع بالمثل العليا التى تلقنها فى الكتب ، وسمعها فى عظات المؤدبين فى البيت والمدرسة والكنيسة . وكان خياله غنيًّا بها ؛ ولكن الحياة تصدمه دائماً بحقائقها المرة القاسية ، وتثبت له بكل برهان أكيد أن المثل العليا أوهام فى أخيلة الأطفال ، وسطور على صفحات الكتب – يكتبها فى الغالب أناس لا يؤمنون بها – وليست سطوراً حقيقية ثابتة على صفحات الحياة . ولكم يجنى اصطدام المثل العليا بحقائق الحياة على النفوس البضة ، فيبدّل من سيرة أصحابها تبديلا قد يؤدى إلى نتائج سيئة ، أو يصم حياتهم بالتهجم والألم المستمرين ، لأنه يولّد عندهم عقداً نفسية مؤلمة .

لذلك نرى فى صلاة الشاعر قبل نهاية « الأحلام » فى النشيد السادس والعشرين تعبيراً عن ألمه الصارخ من الحياة والوجود ، إذ يخاطب ربه قائلاً :

إلهى ، سألتك تدمير هذا الـ وجود وتحطيمه بيديكْ
سألتك خنق الشرور ، فهلا ، خنقت الشرور على قدميكْ ؟ !
ألست ترى فى الحياة جموعاً تقرّح أعمالهم ناظـريكْ ؟
فأفن الوجود ، وخذهم إليك وإلا فياربّ خذنى إليكْ !

إنها غضبة غلام يعتقد أن فى استطاعته تبديل الكون ، وتغيير نواميس الحياة بحسب إرادته وطبقاً لمبادئه ومثله العليا ، فإذا لم يتمكن من ذلك ، فهو ينقم على الدنيا وما فيها ، ويريد هلاكها ، أو . . هلاكه هو نفسه إن لم يكن ممكناً إهلاك الكون كله . . .

ثم إن الشاعر الشاب يريد أن يعرف كل شىء عن الحياة وعما وراء الحياة ، ولكنه لا يصل إلى ما يريد . وهو إذ يرى نفسه ما يزال مدلجاً فى ظلمات حيرته لا يفتأ

يذكر الموت كثيراً فى أناشيد يقطر منها الألم الأسود ، ويحاول أن يجد لنفسه عزاء فى الموت لأنه شىء لابدّ منه . . .

وما أذكر القبر لو لم أجد فيه عرشاً توارثته من قرون
تبوّأه فى التراب جدودى وسوف أبوّؤه بعد حين
فمملكتى قيد باع ، وحصنى صخور تصدّ المغيرين دونى

أما فى المهجر فقد نظم شفيق قصيدة جديدة دعاها « عبقر » أطلق فيها العنان لخياله القوى ، وسكب فيها من روح الشاعر التى بدأت نضجها . وقد اشتهرت هذه القصيدة فى الأوساط الأدبية ، وبها تبدأ شهرة شفيق المعلوف الشعرية الحقيقية ، لأنها عمل أدبى وفنى يتميز بكثير من الجمال والنضوج الفكرى والخيالى (وقد درسناها فى القسم الأول من هذا الكتاب دراسة كافية) .

وفى عام ١٩٥١ أصدر ديوانه « لكل زهرة عبير » ، وهو مطبوع فى لبنان ويقع فى نحو مائة صفحة من القطع الصغير وينطوى هذا الديوان على ثمانى عشرة مقطوعة شعرية قصيرة ، قد ينزل عدد أبيات بعضها حتى لا يزيد على ثلاثة أبيات — كما فى قصيدته « إلى ابنى » — أو يرتفع فلا يتجاوز الأربعة والثلاثين من الأبيات — وهذا وقع فى قصيدة واحدة هى الأخيرة وعنوانها « خرائب بعلبك » .

على أن هذه المقطعات القصار التى نظمها شفيق فى مناسبات مختلفة وفى أزمنة وأماكن متباعدة ، إنما يجمع بينها حس مشبوب ، وخيال محلق ، وعبارة مشرقة ، وصور بارعة ؛ وتلك كلها من مميزات شعر الشفيق التى خبرناها فى « عبقر » وفى كثير من قصائده الأخرى . ومن صوره الشعرية البارعة قوله فى وصف الأم وهى تودّع ابنها على المرفأ :

فما نضبَتْ لمُقْلتها دمــوعٌ كأنّ لعينها فى البحر عرْقَا

وفى وصف الراعى العاشق وقد علم أن معشوقته العالية قد زُفّت إلى غيره :

مالَ على نَايه ، ومقلتُه يشبّ من خلف مائها لهبُ
حتى إذا بثّ ما يجيشُ به غُصَّ ، فى ضلوعه القَصَبُ
كأنما الجرحُ — جرحُ مهجته كان على نايه له ثقبُ
فالناى لا يأتلى على فَـمـه يعبّ من قلبــه وينتحبُ

وبهذا الأسلوب الشعرى الرقيق يمضى شاعرنا فى ديوانه الصغير ، فيحمله الكثير من المعانى الإنسانية المؤثرة التى تدل على قلب مفعم بالأحاسيس الجميلة النبيلة . خذ مثلا مقطوعته التى بعنوان « بسمة » والتى لا تزيد عن أربعة أبيات ، وفيها يقول :

كُنْ بسمةً بفم الضعيف ولا تَزِدْ … باللّه أتراحاً على أتراحــهِ
ما ضرّ أن يَحْظَى أخوك بحقه … فترى فلاحك ناجــزاً بفلاحهِ ؟

وقصيدته « مشهد صيد » التى يصف فيها خروجه للصيد مع كلبه ، وبعد أن رمى برصاصه طائراً فأرداه وجاء كلبه يحمله إليه بفمه الممرّغ بالريش والدم ، أحس بالألم لاعتدائه على حياة مخلوق مسكين لم يذنبْ إليه . ومثل هذا ما نجده فى قصيدة « مصرع الأسد » ، وهو يقصد بها أسداً كان قد رباه إمبراطور الحبشة قبل أن تسقط بلاده فى أيدى الإيطاليين ، فلما أراد مغادرتها عند احتلال الأعداء لها . عمد إلى الأسد فرماه برصاصه ليخلصه من أسر الأعداء . والقصة فى حد ذاتها مصدر وحى شديد التأثير للنفوس الحساسة ، فكيف إذا أتيح لها خيال موهوب كخيال شفيق المعلوف ! لقد نظم الشاعر قصيدته هذه مخاطباً الإمبراطور ، وفيها يقول :

ودّعْتَ قصرك بينما شرفاتــه … لوّحْنَ للتوديــع بالأستارِ
فإذا بزأرة ضَيْغَم صدمت لها … جُدُرُ البلاط معاقل الأسوارِ
عَتَبٌ عليك زئيره . . . أفتَغْتَدى … حراً ، وتُبقيه حليف إسار ؟
أسدٌ يُزمجر فى الحديد ، جبهته … خلّفَ الحديد بنَهْرَة الأمــارِ
أقعى ، فرحْتَ تُجيل فيه ناظراً … أجفانه نضناضة بشرارِ
وكأننى بك ناظرٌ فى شدقه … أسداً بلندن ما وفى بذمارِ !
فرميتَ لبدته فزمْجَر وارتمى … متخبِّطاً بدم الإباء الجارى
أوَخِفْتَ من ظفر العدوّ به فلم … تسلمه للأنياب والأظفارِ ؟ !
لما استغاثك رُحْتَ تُؤثِر قتله … من أن تسلم ضارياً لضوارى

إن الشعر لا تكون له قيمة كبيرة إن لم يستمد مواضيعه من قلب الحياة ؛ وقيمة شعر شفيق المعلوف تأتى من أن مواضيعه منتزعة من قلب الأرض ومن صميم

دنيا الناس ، وقد أضفى عليها الشاعر من رؤى السماء وخيالات عبقر ، فإذا هى فنّ أخاذ ، تطالعه ملتذاً مستمتعاً ، ثم تعود إلى نفسك تتحسس ما نبشته فيها قصائد الشفيق من معان إنسانية رقيقة مؤثرة ، وما طبعته على لوحتها من صور صافية . وكذلك كان هذا الديوان الذى دَفقَ صاحبُ « الأحلام » « عبيره » من جنات « عبقر » .

ومثله أيضاً جاء ديوانه الآخر « نداء المجاذيف » المطبوع فى لبنان أيضاً عام ١٩٥٢ . وهو مثل سابقه حجماً وأناقة ولطف شاعرية وقد جمع فيه شفيق خمس عشرة قصيدة من شعره العذب الأنيق ، فيها الحنين ، والوطنية ، والتأمل الشعرى الرقيق ، والشعر الاجتماعى الواقعى .

استمع إليه يصف قنبلة هيروشيما المجرمة :

سلبوا الشمس قطعةً من لظاها ... ورمــوْها على العبــاد تدورُ
فجَّـرُوهـا ملء الفضـاء ذُرَيْـرا ... ت تَشَظَّى شرارُهـا المستطـيرُ
أغيـوثٌ سوداء تنهـلّ أم نـا ... ر تبيدُ الجسوم ، أم زمهريرُ ؟
يا لها من غمامة ساقَها الحقْ ... د فجاشت بما تكنُّ الصدورُ
أين منهـا على قبائل عـاد ... عاصفٌ فيه يومهن الأخيرُ
أين سادوم ؟ أين أعمدة الملا ... ح إذا ما تَلَفَّتَ المذعـورُ
غَضَبُ الله صار فى حَوْزة العبـ ... د فأين الله القـوى القديرُ !

وسأكتفى ههنا بالإشارة إلى قصائد هذا الديوان ، بعد أن أكثرت من الاستشهاد بشعر سابقه . ومن هذه القصائد أضع الإصبع بشكل خاص على « نداء المجاذيف » و « غرناطة » و « لبنان » وبشكل أخصّ على قصيدة « حنين » .

إن أخص مزايا طابع شفيق معلوف الشعرى هى : قوة التصور ، وروعة التصوير ، وعذوبة الموسيقى الشعرية ، وقوة العبارة ورشاقتها . وهذه المزايا واضحة كل الوضوح فى كل دواوينه ، من « عبقر » إلى « نداء المجاذيف » و « لكل زهرة عبير » ، ثم إلى الديوانين اللذين صدرا كذلك فى لبنان ، وهما : « عيناك مهرجان » عام ١٩٦٠ ، و « سنابل راعوث » عام ١٩٦١

أما فى النثر فلا نعرف لشفيق معلوف غير كتاب واحد هو (حبّات زمرّد) وهو يضمّ مجموعة مقالات فى الأدب العربى القديم والحديث ، وفى أدب الفُرس والهنود . وقد صدر الكتاب فى منشورات وزارة الثقافة فى سوريا عام ١٩٦٦ .

٢٠ – شكر الله الجر
من العصبة الأندلسية

شكر الله الجرّ ، شاعر ، وناثر ، وناقد . وله فى هذه النواحى الثلاث جولات موفقات ، وفصول روائع : ففى الشعر صدر له فى المهجر ديوانان مطبوعان هما : « الروافد » ، و « زنابق الفجر » ، وفى النثر « نبى أورفـــليس » ، وكتابه النقدى اللطيف « المنقار الأحمر » . وبعد عودته النهائية إلى لبنان عام ١٩٦٢ صدرت له فى بيروت أربعة دواوين وكتابان نثريان . يضاف إلى كل هذا نتاج أدبى متفرق فى صحف المهجر الأدبية ، ولاسيا فى مجلته المحتجبة « الأندلس الجديدة » وفى مجلة « العصبة » . وقد مارس الجر الصحافة مدة وكان من فرسانها المجلين فى المهجر . وهو أخو الشاعر عقل الجرّ ، الذى توفى فى البرازيل عام ١٩٤٥ ، وله من العمر ستون عاماً .

كان شكر الله الجر أول من سعى لتأليف « العصبة الأندلسية » فى البرازيل ، وأول المنضمين إليها ؛ وتطوع للعمل لها ، وساهم فى تحقيق فكرتها ونشر رسالتها . وظلّ حتى النهاية من أعضائها البارزين ، ومن رسلها المخلصين .

ولد شكر الله فى ضيعة (يحشوش) قرب مدينة جبيل ، على الشاطئ اللبنانى ، ما بين بيروت وطرابلس . ويذكر عمر الدقاق فى كتابه (عنادل مهاجرة) أنه تلقّى رسالة من الشاعر تاريخها ١٦ / ١١ / ١٩٦٣ يؤكد فيها أن ولادته كانت عام ١٩٠٥ ؛ مع أن الشاعر نفسه كان قد ذكر فى مقدّمة ديوانه (زنابق الفجر) المطبوع فى البرازيل سنة ١٩٤٠ أن ولادته كانت عام ١٩٠٢ . والفرق بين التاريخين ثلاث سنوات ، برغم أن مصدرهما واحد ، هو صاحب القضيّة نفسه .

ويغلب على ظنّي أن مولد شكر الله كان قبل التاريخين ؛ فقد زرته فى منزله فى جبيل عام ١٩٧٤ ، فوجدته شيخاً مهدّماً ، أكثر ممّا تستطيع أن تفعله سبعون عاماً أو اثنان وسبعون عاماً . ولكنّ فقدان سجلاّت الميلاد فى العهد الذى وُلد فيه الشاعر – ومثله كان الأمر مع أبى ماضى ، وفرحات ، وكثيرين غيرهما – هو الذى أوقع فى مثل هذا الاضطراب فى تحديد عمر الشاعر وسنة ميلاده .

وهاجر شكر الله إلى البرازيل فى أعقاب الحرب الكونية الأولى ، وكان أخوه عقل قد سبقه إلى هناك . فاشتغلا بالتجارة معاً ؛ ولكن شكر الله لم يلبث أن انصرف إلى الصحافة ، فأنشأ مجلة « الأندلس الجديدة » ، وظل يحررها حتى صدرت الأوامر الرسمية فى الحرب العالمية الثانية بمنع نشر شيء فى غير لغة البرازيل الرسمية . فاحتجبت كما احتجب غيرها من الصحف ، وعاد شكر الله إلى التجارة . ولم يقدر للأندلس الجديدة عودة إلى الحياة بعد ، ولكن إذا كان شكر الله قد تخلى عن الصحافة ، فإنه ظلّ يمارس مهنة القلم إلى جانب التجارة .

وأول ما صدر له من المؤلفات هو ديوان « الروافد » المطبوع سنة ١٩٣٤ فى منشورات مجلة « الأندلس الجديدة » فى البرازيل . وهو يحتوى على عدد من القصائد الوطنية والاجتماعية التى تعبر عن فورة الشعور ، ونفرة الإباء ، ورقة الحنين .

وكان كتابه التالى هو « نبى أورفليس » المطبوع سنة ١٩٣٩ ؛ وهو يدور حول جبران خليل جبران . وقد تخلله بضعة رسوم من ريشة الشاعر نفسه ؛ فهو رسام ينحو برسمه المنحى الرمزى ، متأثراً فى ذلك بجبران إلى حد ما .

ثم يأتى ديوانه الثانى « زنابق الفجر » ، وفيه إلى جانب الشعر بضعة رسوم أخرى رمزية بريشة الشاعر نفسه . أما آخر كتبه المطبوعة فى المهجر فهو كتابه النقدى « المنقار الأحمر » ؛ وهو يحتوى على عدد من الفصول النقدية التى كان ينشرها فى « الأندلس الجديدة » .

مما يزيد فى تقدير قيمة أدبه النقدى ، بنوع خاص ، فورة أسلوبه وجرأته التى تصل أحياناً إلى القسوة ، ولكنها فى قسوتها تضع المشرط على مكان الداء لتستأصله . ولعل من أجمل فصوله النقدية مقاله على المتنبى ، وعلى « أدباء معاصرون

لحبيب الزحلاوى ، وكتاب « جبران » لمخائيل نعيمه ، ومن تعريفه للنقد الأدبى ندرك قبل غايته وإخلاصه للأدب . فهو يقول :

« ليس هنالك نقد عنيف أو نقد لطيف ، بل هنالك إما نقد مصيب وإما نقد مخطئ . الأدب قوام الشعوب والأمم ، والنقد قوام الأدب والفن » . ذلك هو تعريفه ، وما دام النقد كذلك فعبثاً نحاول استغلاله للتقارظ والمجاملة لأن الحقائق لا تعرف المجاملات .

ثم يقول فى مكان آخر فى تعريف الناقد وبيان مهمته : « لذلك أقول بوجوب اجتماع ملكة النقد إلى ملكة الشعر والنثر فى نفس الأديب ، يهيمن عليها كلها الذوق الفنى الخالص ، فيكون لنا الناقد الذى ننشده » وقد جمع أديبنا النقادة بين ملكة النقد ، وملكة الشعر والنثر ، والذوق الفنى ، فكان ناقداً بصيراً موفقاً يجرى على مقاييس عالية للأدب ، وعلى تمجيد المعانى الإنسانية والفكرية الرفيعة .

وليس فى الإمكان أن أنقل ها هنا شيئاً من أحكامه النقدية ، لأن ذلك يتطلب فراغاً أكثر من هذا . ولكن الذى يطالع كتاب « المنقار الأحمر » سيجد الكثير مما يستحق أن يظفر بإعجابه وثنائه .

أما كتاب « نبى أورفليس » فهو كتاب لم تعرف العربية مثله قبل كتاب « يسوع ابن الإنسان » لجبران خليل جبران — فى ترجمته العربية — فإن شدة إعجاب الأديب الجر بنابغة العرب الكبير جبران دفعته إلى وضع هذا الكتاب حوله بمثل أسلوب جبران فى « يسوع ابن الإنسان » ؛ فإذا كان جبران قد خلق هناك أشخاصاً كثيرين ، بين رجال ونساء ، وخلق على ألسنتهم كلاماً حول المسيح وحياته وتعاليمه ، فقد فعل شكر الله الجر كذلك : فخلق أشخاصاً كثيرين ، بين رجال ونساء ، ووضع على ألسنتهم كلاماً حول جبران يكاد القارئ يحسبه من كلام جبران نفسه ؛ فهو من نوع الإنشاء الجبرانى الخيالى الرشيق . وقد وفق فى طريقته هذه توفيقاً غريباً ، فقدم لنا من جبران صورًا لا نعرف إنساناً قبل شكر الله أنصف نابغة العرب العظيم بمثلها . فالكتاب فى رأيى هو أحسن كتاب يتحدث على جبران لينصف جبران وأدب جبران .

إن مؤلف « نبى أورفليس » يمجد جبران ويكاد يقدسه ، وهو يعده أحد

معلمى الإنسانية الكبار . ويختم الفصل الأخير من كتابه بأن يجعل جبران أخاً للمسيح . ولسنا نعتقد بأن المؤلف قد غالى فى تقديره ، وإنما وضعه حيث يجب أن يكون ، فما عرفت العربية حتى الآن أديبًا غيره نشر رسالة الشرق الروحية فى أجواء الغرب المادية ، وأصبح أدبه الإنسانى جزءاً من تراث الإنسانية الخالد ، يقرأه الناس فى مشارق الأرض ومغاربها بلذة وغبطة فيمجدون القلم الذى جرى بهذا السحر الحلال ، والذى فجر لهم هذه الينابيع الحية من الحق والمحبة والحكمة .

وإذا كان جبران قد اتخذ من كتابه « يسوع ابن الإنسان » معرضاً لبث أفكاره الخاصة ، ونشر شىء من رسالته الأدبية ، فقد فعل الأديب الجر مثله تماماً ، فجعل من « نبى أورفليس » مسرحاً لعرض أفكاره الاجتماعية والأدبية بحسب مناسباتها . فهو مرة يذكر رأيه فى « الأبناء » فيقول : « . . . البنون والعافية هما فرح الحياة الدنيا ، وإنما نحن نعيش فى أبنائنا كما عاش آباؤنا فينا . إن كيانهم يعيش فى كياننا مجتمعاً ومنفرداً ، فهم ينظرون إلينا بأعيننا ، ويرقصون بأقدامنا ، ويحبون بقلوبنا ، ويتكلمون بأصواتنا » .

وفى مناسبة أخرى يتحدث على معاملة الأزواج ، فيقول على لسان جبران مخاطباً رساماً أميركيًّا يريد أن يطلق زوجته : « . . . إذا حطمت هذه الشرائع الزوجية التى ربطت كيانك بكيان هذه المخلوقة التى هى زوجك وأم أولادك ، فهل بوسعك أن تمزق تلك الشبكة التى طرحتماها معاً فى أمواج بحر الحياة ، وأخرجت لكما هذه الأسماك الصغيرة التى تتقلب أبداً فى بحيرة حنانكما الواسع ؟ هل لك إذا طلقتها أن تطلق معها ذكريات الحب والصبا؟ وأين لك أن تقتلعها من ماضيك إذا اقتلعتها من حديقة قلبك ؟ . . لا تطلب الطلاق بل دع زوجتك وشأنها ، دع الحياة تحطمها على شواطئها الصخرية الشائكة ، فهى لا بدّ راجعة إلى نفسها رجوع الموجة المنكسرة إلى الشاطئ الحزين لتحتضن رماله وحصاه بتوق وندمة . . . وإن الذى لا يغتفر للمرأة هفواتها الصغيرة لا يتمتع بحسناتها الكثيرة . وإذا جاء أحدكم بالزوجة الخائنة إلى المحاكمة ، فليزن أولا قلب زوجها بالموازين » ؛ وبعض هذا من كلام جبران نفسه .

وأما من أقواله فى جبران ، فنقتطف ما يلى :

١ – على لسان شاعر من « الرابطة القلمية » ؛ « لقد كان – جبران – الحرارة فى نفوسنا ، والعذوبة فى أرواحنا ، والجمال فى أعيننا . لقد كان الخيال فى أدبنا ، والقوة فى ضعفنا والفكرة النيرة فى قلوبنا ، والجديدة فى قديمنا . . . لقد كان المحرك الأكبر لأفكارنا وأقوالنا ، والمنارة المضيئة على شواطئ أحلامنا » .

٢ – على لسان أديبة دمشقية : « . . . نعم ، لقد خلق لنا جبران لغة لكل ما كنا ندركه ونحسه ولا نقوى على تصويره والإفصاح عنه . وإنى لا أدرى ، هل وجدت اللغة العربية حاجتها فى جبران ، أم وجد حاجته فيها ؟ . . . أما الآن فقد اهتديت بفضل اللغة الجبرانية إلى ألوان عديدة فى الكلام ، واكتشفت على ضوء روحه ألواناً جديدة فى عواطفى . . . إن شاعر الجليل – المسيح – قد خلق لنا الإيمان بالحياة ، وأما شاعر الوادى المقدس – جبران – فقد خلق لنا الإيمان بالأدب ؛ فهو إذاً مسيح هذه اللغة ومخلّصها » !

هذه هى طريقة شكر الله الجر فى إنصاف جبران ، وفى تعريف جبران إلى من لا يعرفونه ، وهذه بعض أقواله فيه . لقد خلق شكر الله سبعة وعشرين شخصاً ، وأنطقهم بكلام على جبران فيه خيال جميل ، وشاعرية محلقة ، وفيه قوة ورشاقة ، وبراعة أدبية فائقة . وكان آخر أشخاصه « هو نفسه » تحت عنوان « شاعر من يحشوش » ، كما كان آخر فصل فى كتاب « يسوع ابن الإنسان » على لسان جبران نفسه تحت عنوان « شاعر من لبنان » . ويختم المؤلف كتابه على الجملة التالية التى تدلنا على مدى التقدير الجميل الذى يحمله شكر الله لجبران : « . . . وفى تلك الليلة الرهيبة من عام ١٨٨٣ ولد فى جوار أرز الرب ، على أكتاف الوادى المقدس ، شقيق ليسوع اسمه جبران » . . .

أما أول أشخاصه فهى « ألميترا » صاحبة « المصطفى » نبى جبران وقد أجرى الكاتب على لسانها نجوى رقيقة لهيفة تشيّع بها « نبيّها » الراحل ، بعد أن ملأ قلبها بحبه ، وملأ كيانها بوجوده . وفى ما يلى بعض نجواها ؛ وهى تعيد إلى أذهاننا كلام جبران وخياله ، وأسلوبه الرقيق البارع : « وأخيراً عادت سفينتك لتقلع بك عن هذه الجزيرة يا نبى الله ، وأقفرت الشواطئ منك يا زورق أحلامى الذهبية . ولكننى سأظل كالدوحة العارية على هذا الخليج العريض إلى أن يعيدك إلىّ مد

الصباح . حينئذ تعود إلىّ الحياة ، فتورق أغصانى ، وتزهر أفنانى . . . أصحيح أن هنالك ، حيث ينتصب الحور على ضفاف الأنهر البلورية ، وحيث يرف الحمام البرى الأبيض فى جو بلادك الأزرق البليل . . . أصحيح أن هنالك سترقد عظامك يا حبيبى ؟ ! ولكن لا . إنك لم تمت – عندى – يا جبران ! فإن هذا القلب الذى كان عشاً لأهازيج فتوتك ، ومسرحاً لرغبات شبيبتك ، وميداناً لمطامح رجولتك ، سيظل مردداً حتى النهاية أنغامك ، مزيناً جدرانه برسوم أحلامك . . . إنك حى فى رغبات قلبى وأشواقه يا حبيبى ! »

ونلاحظ هنا أن المؤلف قد استمد أهم ما فى كتابه من جبران نفسه ، فعنوان الكتاب منتزع من كتاب « النبى » لجبران ، لأن المصطفى – نبى جبران – كان يقيم فى مدينة أورفليس حتى عادت إليه سفينته التى حملته إلى جزيرته النائية . و « ألميترا » التى شيعت جبران فى « نبى أورفليس » بنجوى الحب الخالد ، هى عينها « ألميترا » التى شيعت المصطفى فى « نبى » جبران . والخيال والأسلوب البيانى ، وطريقة التأليف فى « نبى أورفليس » هى عينها خيال جبران ، وأسلوبه البيانى وطريقة تأليفه فى « يسوع ابن الإنسان » .

وفى يقينى أن هذه هى أحسن طريقة فى تمجيد جبران ، وفى تكريم الأديب الذى عاد إلى الأذهان رسالات أنبياء الشرق الكبار ، فى دنيا الدولار والآلة ، فكان رسولاً عظيماً ، وأديباً كبيراً ، وشاعراً إنسانياً مبدعاً .

هذا هو شكر الله الجر فى نثره ، ناقداً ومؤلفاً ، أما شكر الله الشاعر فنراه فى ديوانيه : الروافد ، وزنابق الفجر ، وكذلك فى كتبه الشعرية الجديدة التى صورت فى لبنان ، شاعراً واسع الأفق ، رحيب الخيال ؛ فى شعره عاطفة قوية ، وفكرة نيرة :

ينظم فى الحنين ، فإذا هو شعور رهيف معذب ،

وينظم فى وصف الطبيعة ، فإذا هو إحساس فسيح ، وخيال محلق ،

وينظم فى الوطنية ، فإذا هو ثورة ونقمة ولهيب .

وينظم فى معانى الحياة والوجود ، فإذا هو فكر نيّر ، يغنّى له خيال خصيب وحس دفوق . وتبقى ناحية من عاطفته لها نصيبها الكبير من قصيده ؛ وحين نبحث

عنها ، نجد الشاعر يجعلها شيئاً هو الشمول ، وهو الحياة ، والتعبير عنها هو التعبير الأكمل عن شمول الحياة والوجود . تلك هى « زاوية الحب والمرأة » : فهو فى مقدمة ديوانه « زنابق الفجر » يقول : « الرجال عندى يمثلون الموت فى أنانيتهم الصارخة ، فقد خلقوا ليأخذوا ، بينما المرأة – وهى الحياة عينها – خلقت لتعطى ولتعطى أبداً . . . وإنه لمن الجحود الناطق أن لا نعبد الحياة فى المرأة ، وهى مستودع وجودها ، بل من الكفر بنعمة الوجود أن لا تكون المرأة كل شىء فى حياة الشاعر ، وهى معبق طيبه ، وقارورة أحلامه ، ووسيلة اتصاله بالأجيال نسلا وإلهاماً . . . » وهى مثل ذلك أيضا فى روايتيه (الوشاح الأبيض) و (جزر الخطيئة) اللتين صدرتا بعد عودته إلى لبنان .

وليس يهم أن نخالف الشاعر فى رأيه هذا أو نوافقه ، غير أن فى دفاعه حرارة وقوة . وله ما يراه ما دام مقتنعاً بذلك ، ولن نرميه بما خشى هو أن يرمى به من تهتك وفجور ، فما كان الناقد حاكماً ومشرعاً أخلاقيًّا فيجرّم الناس أو يؤيدهم ، وإنما هو فنان يبحث عن الجمال والحيوية . والذى يهمنى إذاً هو الصدق والحرارة ، والسعة والجمال ، وقد وجدت من ذلك كله شيئاً كثيراً فى شعر شكر الله الجر ونثره ؛ وذلك حسبى .

والشاعر نفسه لا يهمه أن يخالفه الناس أو يوافقوه فيما يرتئى ، فهو يقول فى قصيدته « صدق العقيدة » :

قنعتُ من الدّنيا بصدق عقيدتى ... فلست أبالى ما أصادف من نُكْرِ

وهى قصيدة جميلة ، تدلنا على شىء من مذهب الشاعر الفكرى والإنسانى ، ومنها قوله :

وبى غضبةٌ للشعر والحقّ لو مشت ... على الجبل الراسى ، اقشعرّ من الذّعرِ
ولكن قوماً لم يحرك إباءهم ... هَوَانٌ وجُوع ، هل يحرّكهم شعرى؟
وما ضائرى أن قيل إنىَ مُلحدٌ ... وإنىَ جاوزت التطرّف فى كُفْرى
هُمو يعبدون الله فى ثوب راهب ... وأعبده بالنور والماء والزهر
وأعبده بالغصن يعطى ثماره ... وأعبده بالبذر يثمر فى الصخرِ
وأعبده بالبحر والصّبح والدّجى ... وأعبده بالشمس والنجم والبدر

أرى فى جمال الكائنات جمالَه   فأملأ نفسى من محاسنه الغُرّ
وأشهدُ فى موت الحياة خلودَه   ففى الموت سرّ يربط المهد بالقبرِ

ولنمض مع الشاعر فى قصيده التأملى أولا ، فالتأمل هو السلسلة الذهبية التى تربط الواقع بالغيب ، فتقود إلى إدراك حقائق الكون الكبرى ، وفيه تتجرد النفس إلا من حب الحقيقة ، وتنصرف بكليتها إلى استكناه الجمال فى الحياة وفي وراء الحياة . فالوجود الأكبر هو ميدانها ، تتلقى آفاقه الرحاب رفّات أجنحتها ، وهمسات شوقها ، وتمتمات حنينها إلى المجهول وإلى ما فى المجهول من رموز وجواذب تدفع إلى التفكير والتساؤل . وقد تجد النفس جواباً عن هذا التساؤل ، وقد يرتد إليها صوتها دون صدى ، أو قد يكون فى رجعة الصوت وحده كل الجواب . وماذا تجد النفس المتأملة سوى جمال الوحدانية فى الوجود الشامل ، وقدسية الحياة الكبرى ، وسمو الإيمان بالجمال الأسمى ؟

. . . فصلاةُ الطير فى الرّبوة والسفح غناءْ
وعبيرُ الزهر بخورٌ تعالى فى الهواءْ
لا يضيرُ اللهَ أن نعبدَه حيثُ ، نشاءْ
هيكل الله جبالٌ ، وبحار وسماءْ
وعَلامَ القولُ : « إنّ اللهَ قد حُجّب عنّا »
هو فى الليل وفى الفجر إذا فتّحتَ جَفْنَا
هو فى البرق وفى الرّعد إذا أرْهَفْتَ أذْنا
هو فى الأكوان مذ كانت ، وفينا مُنْذُ كنّا

والواقع أننا إذا أردنا أن نلخص مواضيع ديوان « زنابق الفجر » قلنا إنها « تأمل ، وألم ، وحب » . وتحت التأمل نستطيع أن نجمع قصائد الطبيعة فى حين يرفّ جناح الحنين تحت قصائد الألم ، أما الحب فيمدّ أحد جناحيه إلى « التأمل » والثانى إلى « الألم » ، ويغذيهما بفورة العاطفة ودفق الجمال .

ونحن إذا نظرنا فى شعر الطبيعة من قصائد شكر الله وجدنا خيالات وأحاسيس كلها لطف وجمال . خذ مثلا قصيدة « شلال تيجوكا » التى يقول فيها الشاعر مخاطباً الشلال :

أشلالَ تيجوكا ! ماذا النّواح أتبكى نظيرى نعيماً غَبَرْ ؟
ترى أنت عين الزمان تثّر الـ ـدموعَ ، أم انك صوتُ القدرْ ؟
غسلتُ بمائكَ عينى وعُدْتُ فأبصرتُ ما الناسُ لا تبصرُ
فبالله قُلْ لى إلامَ تظلّ كذلك تجتازك الأعْصرُ
وأنت تكرّ كرورَ الزّمان فلا تستقرّ ولا تفترُ
وهذا الزمان كما كان قبلا : شعوب تجىء وأخرى تروحْ
ودنيا تضجُّ بسكانها فهذا يغنى ، وهذا ينوحْ
وذلك مستسلم للقدرْ

فتجد فى هذا نجوى كلها تأمل واعتبار ، وكلها خيال وجمال . وتمضى فى القصيدة حتى نهايتها ، فإذا أنت تتنقل مع معانيها الجميلات وأحاسيسها اللطاف ، كما تتنقل النحلة فى حديقة ملأى بالزهر .

إن الكآبة التى تطوف بنفوس الشعراء فى لحظات من التأمل الصامت ، كثيراً ما كانت ينبوعاً ثرًّا للشعر الرقيق الحزين . والشاعر كثيراً ما يرش على المخلوقات الأمل والتعزية ، ولكنه يترك لقلبه الألم الكبير . وكذلك فعل شاعرنا الجرّ قصائد عديدة ، منها « زهرة الورد » التى بدأها بنجوى للوردة جميلة منمقة بالخيال الجميل .

زهرةَ الورد ! قبَّل الفجر خدَّيـ ـك وخلاّك فى الحديقة فَجْرا
وحباك الضحى من الشمس ألوا نًا أراها تشع فى الثغر درًّا
وهفا يحتسى على شفتيك الـ ـنَّحل فى غفلة من الزّهر قطرًا
وتمشّى النسيم بين شعاب الـ أرض يلقى من عطر روحك عطرا

وقد ختمها بهذا البيت الجميل :

أنت يا وردة الحديقة تَذْويـ ـن نظيرى لتنعشى الآخرينا

* * *

والحنين إلى الوطن ، هذه العاطفة الملتاعة المحترقة التى لا نعرف فى الشعر العربى تعبيراً عنها أحر وأصدق وأوسع من تعبير شعراء المهجر ، لقد أحس بها الشاعر شكر الله الجرّ فقدم إلينا منها صوراً حارة صادقة . خذ قصيدته « حنين » فى ديوانه « زنابق الفجر » لتستمع إلى هذه العاطفة المتفجرة بالألم العميق :

أيّ عشّ فارقْتــهُ – ليت شعـــرى – أيّ روض أقصيته عن عيــونى
أيّ وكــر لم يبقَ مـــن زقزقـــاتى فيه غير الصّدى ورَجْــع الحنينِ
ليتنى ما علقت فى شرك الأطـــماع يوماً ، ولا جننت جنــونى
ضــاع عمرى سدًى ، وشمس شبابى لوحت للمغيب خلف السنين
غربة أقسم الزمـــان بأن يقـــتصّ منى بهـــا لأمى الحـــزين
فإذا ما جنيت فى الـــروض ورداً عاد شوكاً فى راحتى يدميـــني
وإذا مسَّتِ الجليـــدَ بنـــانى صار جمراً فى قبضتى يكـــويني

ومثل هذه القطعة غير قليل فى شعر شكر الله الجرّ ، لا يتسع المجال لسرده ؛ وفى هذا النموذج خير الدلالة عليه .

غير أنه إذا كان الحنين هو عاطفة الحب المتلهف الذى يحمله الغريب لوطنه ، فإن هذا الحنين يرافقه عادة غيرة على حرية الوطن ورقيه ومجده ، ونقمة على أعدائه وظالميه . ونحن واجدون فى شعر شكر الله الجرّ كثيراً من هذا ، وعلى الأخص فى ديوانه « الروافد » . فلقد كان لبنان مطية للمستعمر ، كغيره من الأقطار العربية ؛ وهذا ما كان يحزّ فى نفس كل مخلص من أبنائه المقيمين والمغتربين على السواء ، ولكنه فى أدب المغتربين أبرز وأقوى ، لأن مجال القول والتعبير عن ثورة العاطفة عندهم أرحب وأكثر حرية ، فما تمتدّ إليهم يد المستعمر أو الحاكم المستبد بأذًى . وهذه أبيات لشكر الله فى معني الوطنية الثائرة ، من قصيدته « تحية الشمال » :

لبنانُ ! كيف غَدَتْ ربوعُك بعدمَــا عصفت رياح البؤس فى أصلابها ؟
أوْدَى الدّخيـــل بزهْوهــــا ونعيمها ومضى الزمان بحسنها وخضابها
الليث مغلولُ اليمــــين مكمّمٌ مَن ذا تـــراه يذود شرَّ ذئابهـــا
ما القيـــد فى غلّ اليمــــين وإنمـــا فى أن يُكَم الحـــرُّ من كتَّابها
لعب الشقاء بأهلهــــا فتفرّقـــوا فى الأرض بين شعوبهـــا وشعابها
فغدت مناخاً للغـــريب وموطنـــاً وغـــدا بنوها النجب مـــن أغرابها

وها هو ذا يذكر بملء الأسى والحنين سبب هجرة اللبنانيين من وطنهم ، فيقول فى « سوانح غريب » :

إيـه لبنانُ ! يشهـدُ اللهُ أنّـا ما هجرناك عن قِلًى وصـلابه
إنما أصبـح المقامُ بـأرض الـ أرز للحـرّ ذلـةً ومعـابه
كيف لا يهجـر الأبىّ مكانـاً ملأ اليأسُ جـوّه ورحابـه
وطـنٌ نـام كالنعـاج بنـوه نومةً أيقظت عليـه ذئابـه
وطـنٌ ضعضع التخـاذلُ أهلِيـ ـه وحط الشقاء فيـه ركابـه
أنشب الجهـل ظفـرَه ببنيـه حيثما أغـرز التعصب نابـه

وما أكثر معانى الوطنية والحنين فى شعر شكر الله وما أحرّها . إنها تعبير عن صدق مخلص وعن حب عميق ، يزخر ديوان « الروافد » بما انصب فيه منهما من فيض نفس الشاعر الحساسة .

* * *

ولقد عاد شكر الله إلى لبنان عام ١٩٦٢ ، وانصرف إلى جمع شعر أخيه عقل وطبعه فى ديوان ؛ ثم عنى بإعادة جثمان أخيه من البرازيل ، ودفنه فى مدينة جبيل . وفى الوقت نفسه مضى يجمع أعماله الأدبية الشعرية والنثرية ، ويطبعها فى كتب ؛ وما بين عام ١٩٦٢ و ١٩٧٣ أصدر (أغانى الليل – ومن خوابى الزمن – وقرطاجة ، ولا بيس الكورنثية – وبروق ورعود) شعراً ، و(الشبح الأبيض – وجزر الخطيئة) نثراً .

وفى صباح يوم الأحد ٢٢ / ٢ / ١٩٧٥ أغمض الشاعر عينيه فى رقدته الأبدية فى منزله فى مدينة جبيل .

٢١ – عقل الجر
من العصبة الأندلسية

إذا كان أغلب المشاهير من أدباء المهجر قد وصلوا إلى ديار الهجرة فى بواكير الفتوة ولم يتح لهم إلا حظ ضئيل من الثقافة المدرسية ، وفى الغربة تفتحت مواهبهم الأدبية واستقامت لهم أساليب البيان ، فإن عقل الجر يختلف عنهم

فى كل ذلك : فقد نال من الثقافة المدرسية حظًّا غير ضئيل ، إذ أنه درس فى مدارس مختلفة حتى أنهى الدراسة الابتدائية ، ثم التحق بمدرسة الحكمة فى بيروت فتتلمذ فيها على الشيخ عبد الله البستانى . ودرس الطب سنة واحدة ، ثم هجره ودرس المحاماة ولكنه لم يستمر فيها حتى النهاية .

وبعد ذلك اشتغل فى حقل السياسة ضدّ حكم مظفر باشا التركى فى لبنان ، بمعية الشيخ فريد الخازن ، وراح يكتب فى جريدة « الأرز » مقالات نارية يلهب بها الجماهير لتأييد حركة الخازن السياسية ؛ وكان يخطب فى الجماهير كذلك لهذا الغرض مثيراً حماستهم لأجل حرية بلدهم . واشترك فى تأسيس جمعية انضم إليها عشرون قرية من قرى منطقة الفتوح فى لبنان ، وأصبح هو رئيس الجمعية .

فلما تضايقت حكومة لبنان التركية من نشاطه السياسى جدّت فى طلبه ، ففر إلى مصر عام ١٩١٢ ، واتخذ من جريدة الأهرام – التى كان يحررها آنذاك نَسيبُه داود بركات – مجالا لمواصلة نشاطه السياسى . فطلبت الحكومة التركية إلى حكومة مصر أن تخرجه من هناك ، فلم تفعل ؛ وظل عقل فى مصر نحو ثلاث سنوات حتى زال حكم مظفر باشا ، وعند ذاك عاد إلى لبنان عودة الزعيم المظفر .

غير أنه لم يلبث أن غادر لبنان عام ١٩١٤ بتأثير أقاربه الذين رأوا فى اشتغاله بالسياسة والصحافة السياسية خطراً على حياته . فعرّج على مصر ، ومن هناك سافر إلى باريس ؛ ولم يكن فى نيته قط أن يغترب طويلا ؛ بل كان يعتزم العودة فى وقت قريب إلى وطنه . إلا أن نشوب الحرب العالمية الأولى حال دون عودته ، فلم يجد بدًّا من السفر إلى البرازيل ، وأقام فى عاصمتها – ريودى جانيرو – يعمل فى التجارة وفى الصحافة معاً .

ولم يكن فى وسع عقل الجر أن ينصرف إلى التجارة وحدها ، وهو الذى تمرس بالوطنية ، وبالنضال السياسي ، وكان حب وطنه لبنان لديه ضرباً من العبادة والتقديس ؛ وأصبح خيال الوطن فى الغربة رفيقه الملازم ، فأنشأ فى الريو نادياً أدبيًّا واجتماعيًّا دعاه « النادى الفينيقى » ، لم يلبث أن أصبح أكبر النوادى

الأدبية هناك ، وأكثرها ازدهاراً ونشاطاً ، وكان ملتقى الصفوة من كبار الجالية ورجال الفكر والسياسة ، المقيمين والقادمين للزيارة . وكان عقل رئيساً للنادى سنوات من عمره .

وفى البرازيل برزت مواهب عقل الأدبية ، فى الشعر والنثر ، بعد أن كان نشاطه فى الوطن مقتصراً على الأدب السياسى والصحافة الحزبية . وفى فترة قصيرة أصبح من أبرز شعراء المهجر الجنوبى .

ولم يقتصر نشاطه الفكرى على الكتابة باللغة العربية وحدها ، بل كان يكتب كذلك باللغة البرتغالية ، وعلى الأخص فى مجلة تدعى « الكورايو دامانيان » . ويقول أخوه شكر الله إنه « كانت له مساجلات تاريخية عن فينيقيا مع بعض أعضاء المجمع العلمى فى الريو ، كان فيها حليفه المنطق والاستنتاج التاريخى الراهن ، فتلقّى رسائل الإعجاب من كبار المؤرخين والباحثين . ولو جمعت مقالاته فى البرتغالية بهذا الموضوع ، لجاءت كتاباً غنيًّا بالمعلومات القيمة » .

ومما يدل على سعة شهرته الأدبية هناك ما ذكره عنه توفيق ضعون فى كتابه « ذكرى الهجرة » وهو : « فى أواخر عام ١٩٢٢ عاد الشاعر القروى من العاصمة – الريو – يحمل إلىّ من تاجر أديب أسمه « عقل الجر » مبلغ ألف قرش ، مع اعتذار رقيق عن الإقلال ، ثمن خمس نسخ من كتابى « مختارات الجديد » ، فبعثت بالنسخ مع كتاب شكر . فأجابنى عقل بما يفضل المال من روائع بيانه . ومنذ ذلك العهد أصبح لى صديق لا أعرفه شخصيًّا اسمه عقل الجر . على أنى كنت قرأت عقلا قبل ذلك ، وأعجبت به كاتباً وشاعراً . أما أن تصدر من حجة مثله تلك البادرة الطوعية الدالة على الاستحسان والتشجيع ، فهذا ما لم أكن أحلم به عمرى . . . »

ولقد عاش عقل فى المهجر ، ولكنه كان يحن إلى لبنان حنيناً لهيفاً ، تعبر عنه الأبيات التالية :

ولست آسَى على شيء أساىَ علـى	عمر تصرّم فى الهجـران أبكيهِ
وما احتياجاً نزوحى كان عـن وطنى	لكنهـا نزوات الطيش والتيـهِ
لله لبنـان ، لو أنى بقيت لـه	علّمت من فيه كيف الأسد تحميهِ !

وقوله فى قصيدة أخرى :

وطنٌ بالعيــون نسقى ثَــراه إن توانَى الغمــام عن إمطــارِهْ
إن حرمنــا من نعمة العيش فيه لا حرمنا من مرقد فى جــوارِهْ !

وفى قصيدة ثالثة :

أسفًا للأديب فهــو غريبٌ قلق القلب أين حلَّ وسارا
لم ينل من حنينــه المالَ والجـا ه ، ولم يُنسه الجمالُ الديــارا
هو فى غربةٍ يحـول فيها الــ شوق أفــراحَ قلبــه أكدارا

ولقد رأى مرة صوراً من مناظر لبنان تعرض على الشاشة أمامه فثار فى نفسه الشوق والحنين ، فقال :

أكلُّ نصيبي من بــلادى أنْ أرى على الشاشة البيضــاء رسْم خيالها !
أحــنُّ إليهـــا والموانـــع جمَّــة فمن ذا مُنيلى ساعةً فى ظــلالها
فأحثــو على وجهى رمــالَ شطوطهـا وألهب بالتقبيل ثلج جبالهــا !

والشواطئ تثير خيال عقل الجر ، فهو ابن قرية يحشوش – قرب جبيل – على الساحل اللبنانى الجميل . وكم كان الشاطئ الرملى هناك ملعباً له فى طفولته ، وكم ركض خلف الأمواج هناك وركضت خلفه الأمواج ، وكم ترامى عليها عابثاً لاهياً !

وكان عقل يحب لبنان حرًّا مستقلاًّ ، يحسن علاقاته بجاراته الأقطار العربية ولكنه لا يندمج فيها ، ولا يتخلى معها عن استقلاله . وقد لازمته هذه الفكرة إلى آخر حياته . على أن رغبته فى أن يصون لبنانه استقلاله بغير أن يندمج فى وحدة مع الأقطار العربية الأخرى أو سواها لم يكن يمنعه من المفاخرة بعروبته ولسانه العربى . فللعروبة من شعره ونثره نصيب وافر .

وفى عام ١٩٢٨ أزمع عقل أن يعود إلى وطنه ، فرأى أصحابه أن يقيموا له حفلة وداعية . وقد نظم لتلك الحفلة قصيدة فى أكثر من ثلاثين بيتاً . وفى تلك القصيدة يقول مودعاً البرازيل وإخوانه العرب فيها :

وداعاً أيّهــــا البلـــدُ الجميلُ فقد أزفَ النوى ودنا الرحيــلُ
وداعاً ليس يعقبــه لقـــاءٌ إذا يحشوش نادت أو جبيــلُ

ولست أعقّ فضلَك غـيرَ أنى ... إلى وطن ربيتُ بـه أميـلُ
تغلغل حبـه فى القلب حتَّى ... تولانى من الحبّ النحـولُ
صحابى ! عهدُ ألفتنـا تولّى ... فلا كأسٌ تـدارُ ولا شمولُ
أغادركم وفى الأحشاء نـارٌ ... أبى إطفاءهـا دمـعٌ يسيلُ
سأذكركم إذا الأرزُ احتـوانى ... غداً ، وأفاءنى الظلّ الظليلُ
ومن لبنـان آوتـنى جنـانٌ ... يموج ربيعُهـا الزاهى الخضيلُ
تغنيـه الطيـور على السواقى ... فترقص فى طَيالسها الحقـولُ
فوا شوقى إلى فردوس عـــدن ... قضى بفراقـه طمعٌ وبيـلُ
وددت لو ان جسمى قيدُ روحى ... لـكان من السفينة لى بديـلُ
فخير مغانم الدنيـا غريبٌ ... يتاحُ له إلى الوطن القفُـولُ
سأنقل من تحاياكم عبـيراً ... زكيًّا تنتشى منـه العقولُ
أردّد ذكـركـم للأرز حتَّى ... أرى أغصانه طرباً تميـلُ
أقول له : بَنـوك بُنود مجـد ... وأُسْدٌ فى مهاجرهـا تَصولُ
فإن يسأل : متى عيني تـراهم ؟ ... أقفْ أسفاً وأجهل ما أقـولُ !

غير أن الموانع قامت فى وجهه فمنعته من العودة ؛ وهكذا لم يقدر لهذه القصيدة الوداعية الجميلة أن تُلقى أو تنشر ، حتى طواه الردى بعد ذلك بسبعة عشر عاماً ، عاشها عقل متقلباً على اللظى والشوك من حنينه المحرق إلى وطن الأرز .

على أن شعر الجر لم يقتصر على الحنين والوطنية ، فله شعر كثير متنوع المواضيع ، فى الغزل وفى الأمومة ، والطفولة ، والوصف ، والطبيعة ، وغير ذلك .

ولقد ذكرت الطفولة فى شعره ، ولكن عقل الجر لم يعرف الزواج والأبناء فى حياته التي بلغت ستين عاماً ، غير أن خياله كان يتأثر بمنظر الأطفال وأمهاتهم ، وكان ذلك يوحى إليه أحياناً بالشعر الجميل ، كما فى قصيدته « ولدى » التي يحسب كل من يقرأها أن الشاعر قد نظمها فى ابن له ، وهو إنما نظمها على لسان أم تخاطب ابنها .

وفى العامين الأخيرين من حياة عقل الجر أصيب بمرض شديد لم يهتد أطباء الريو إلى حقيقته ، حتى هدّه المرض وكاد يخترم حياته ؛ فاضطر فى أوائل

عام ١٩٤٥ إلى الذهاب إلى سان باولو . وهناك استقبله إخوانه فى العصبة الأندلسية بكل شوق وترحاب وعناية . وأدخل مستشفى هناك ، فبقى فيه حتى وافاه الأجل المحتوم ، ودفن فى سان باولو بما يليق به من إكرام عظيم . وأقامت له العصبة الأندلسية حفلة تذكارية كبرى ، كانت من أبرز الأدلة على المكانة الأدبية العظيمة التى كان يحتلها فى نفوس الأدباء والجالية العربية فى المهجر .

ولم يصدر لعقل الجرّ فى حياته شيء من المؤلفات . ولكن أخاه الشاعر شكر الله الجر قد عمد أخيراً إلى جمع شعره ونشره فى ديوان بعنوان « ديوان عقل الجر » صدر فى بيروت عام ١٩٦٤ .

فى صباح يوم الأحد ١٠ كانون الأول ١٩٦٧ ، وبعد أكثر من عشرين سنة من وفاة عقل الجرّ ، وصل جثمانه عائداً بالطائرة إلى مطار بيروت ، بفضل مساعى شقيقه شكر الله . ومن المطار نقل الجثمان بالسيارة إلى مدينة جبيل ، فاستقبله أهل المدينة وطلاب المدارس بالموسيقى ، وحمل النعش على الأكفّ إلى كاتدرائية مار يوحنا ، حيث صلّى عليه . ونقل بعدئذٍ إلى جوار كنيسة مار يعقوب حيث دفن فى ضريح فخم من الرخام ، ركّز فوقه تمثال نصفى للشاعر من صنع النحات حليم الحاج . وتقدّم الشيخ بيار الجميل فأزاح الستار عن التمثال .

وهكذا عاد الشاعر ، ببقايا رفاتٍ ، ليدفن فى الأرض التي أحبّها ، والتى عاش فى ديار الهجرة أكثر من ثلاثين سنة وهو يحنّ إلى العودة إليها .

٢٢ – نظير زيتون
من العصبة الأندلسية

فى عام ١٩٤٩ عاد إلى حمص ، بعد هجرة طالت نحو ٣٨ سنة ، الأديب المهجرى نظير زيتون ، عضو العصبة الأندلسية منذ نشأتها ، وخطيبها فترة من الزمن ، وأمين سرها فترة أخرى ، وخطيب النادى الحمصي فى البرازيل مدة عشرين سنة ، ومحرر جريدة « فتى لبنان » – فى البرازيل ، لصاحبها الشيخ

رشيد عطية – مدة ثلاثة عشر عاماً ، وصاحب المؤلفات والمترجمات المتعددة .

وما كان نظير حينذاك إلا زائراً ، يريد أن يمتع نظره ويشبع لهفة قلبه من رؤية الوطن ، الذى غادره عام ١٩١٤ فتى صغيراً لا تزيد سنه على أربعة عشر عاماً . وكان يظنّ أن زيارته للوطن ستكون قصيرة ثم يعود إلى البرازيل من جديد ؛ غير أنها طالت فما عاد يفكر فى هجرة جديدة ، حتى وافاه الأجل المحتوم عام ١٩٦٧ فى مدينة حمص ، مسقط رأسه .

ولد نظير فى مدينة حمص – سوريا – عام ١٩٠٠ ، وغادرها إلى البرازيل عام ١٩١٤ مزوداً بنصيب من الثقافة المدرسية التى تلقاها فى مدارس المدينة . وهناك راح يضرب فى مجاهل التجارة ، فلم يوفق فيها . فانصرف إلى البحث عن العمل الصحفى ، على الرغم من قلة زاده الثقافى . ولكنه لم يكن خاملا ، فقد كان يدرس على نفسه ويضنى نفسه بالدرس ، حتى استقامت لغته ، وتفتحت نفسه على آفاق من المعرفة . ولم يكن ذلك إلا على حساب نظره الذى أُجهده كثيراً ، فاضطر إلى دخول المستشفى لمعالجته معالجة طويلة .

وفى عام ١٩٢٧ دعاه الشيخ رشيد عطية ليتولى تحرير جريدته « فتى لبنان » التى كان يحررها قبله توفيق ضعون . فنجح فى الصحافة نجاحاً كبيراً ، وبرز اسمه كاتباً نابه الذكر ، متين العبارة ؛ ثم أصبح خطيباً قوى الحجة ، كبير التأثير فى توجيه الجالية العربية توجيها قومياً يباعد بينها وبين النعرات الطائفية والإقليمية الضيقة .

وخلال هذه الفترة وضع نظير عدداً من المؤلفات المتنوعة ، وترجم عدداً آخر . ومن أهمّ مؤلفاته : (ذنوب الآباء « رواية » – مركيزة سنطوس « رواية برازيلية تاريخية مترجمة عن البرتغالية » ، وهى للأديب البرازيلى باولو سيتوبال – أين الله ، أو اعتراف ابن الشعب « مترجم عن مكسيم غوركى » – سقوط الإمبراطورية الروسية « مؤلف تاريخى يتناول حوادث روسية فى عهد القيصر نقولا الثانى والثورة البلشفية » – رسالة فى استقلال البرازيل والإمبراطورية الأولى – هيرودوس الكبير «رواية تاريخية فلسفية مقتبسة بتصرف عن هنريكى بيرس إسكريش » – يسوع المصلوب « رواية تاريخية فلسفية تحوى دراسة جديدة فى رسالة المسيح وتعاليمه » –

الشعلة « مجموعة خطب » – الشيخ رشيد عطية ، حرف عربى من لبنان فى المهجر الأميركى « ترجمة ودراسة الشيخ رشيد عطية ، وآثاره الأدبية والصحفية ») .

أما هذا المؤلف الأخير، فقد وضعه نظير زيتون فى سوريا عام ١٩٥٧ بعد أن بلغه نبأ وفاة صديقه الشيخ رشيد عطية ، صاحب جريدة « فتى لبنان » التي عمَل فيها نظير محرراً مسؤولا مدى ثلاثة عشر عاماً ، بعد أن تتلمذ فى صغره على كتابه « الإعراب عنِ قواعد لغة الأعراب » .

وكان نظير يعتز ويفاخر بزمالته للشيخ ، وعمله فى صحيفته . وفى ذلك يقول فى كتابه هذا : « غريب أن تشاء لى المصادفات أن أتتلمذ على رشيد عطية فى كتبه اللغوية ، ثم تشاء لى أيضاً أن أتتلمذ عليه فى المدرسة الصحافية . فلو أن صحفياً عربياً سواه دعانى إلى مثل هذه المهمة ، لرفضت غير شاكر وغير معتذر ، كما رفضت مراراً فى أثناء اضطلاعي بتحرير « فتى لبنان » ، لسببين جوهريين ، الأول : أن رشيد عطية هو الذى شقّ لى الطريق ، وهو الذى قادنى بيده إلى الميدان الصحافى ، وليس من الوفاء أن أجحد فضله ، وأسيء إليه وإن كان الكسب أوفر ، والثانى : أن فى اقتران اسمي باسمه على رأس « فتى لبنان » ، وهو العلامة اللغوى القدير ، وأنا الكاتب الناشئ الغرير ، شيئاً كثيراً من الفخر لى والاعتزاز والتقدير » .

ولذلك كان كتاب نظير هذا نفحة من الوفاء الجميل لذكرى الصديق الراحل . وقد ختمه بهذا الرثاء المؤثر : « فيا معلمى ، ويا صديقى وزميلى ورفيقى فى معترك الصحافة والأدب والقومية ! لئن ودعت دنياك وسلكت طريقك إلى الخلود ، وأنت فى المهجر وأنا فى الوطن ، فحجبتنا البحار ، واستعصى عليّ أن أتمسح بنورٍ كشَف لى الآفاق ، وأستلم يداً شقت لى الطريق وعلمتنى الانطلاق ، وأن أطرح على مثواك إكليل التكريم والإطراء مخضوضلا بندى الشكر والوفاء ، لئن فاتنى ما كنت أحب فإن هذا القلم لن يحجبه عن الولاء اغتراب أو لقاء ، ولا أرض ولا سماء ، ولا حياة أو قضاء وثواء . فى مداده نفحة منك ، وفى صريره نغم منك ، وفى لهبه قبس منك ، وفى تساميه نهج منك . أحسن الله إليك مقدار ما أحسنت إلى امتك ، وجادك بالرحمة مقدار ما جدت بالغيرة على أمتك » .

والذى لابد من الإشارة إليه هو أن نظير زيتون من أكثر أدباء المهجر الجنوبى نشاطاً ، وأغزرهم إنتاجاً وأوفرهم مؤلفات .

فى عام ١٩٤٧ كنت قد كتبت إلى الشاعر القروى أطلب منه شيئاً عن العصبة الأندلسية ومجلتها وأسرتها . غير أن الجواب جاء من نظير زيتون لا من القروى ، فقد كتب إلىّ بتاريخ ٢٩ نيسان (أبريل) سنة ١٩٤٧ رسالة طويلة فى ثلاث صفحات (فولسكاب) استهلها بقوله : « تحية الأدب والعروبة ، وبعد فقد دفع إلىّ صديقى الشاعر القروى الأستاذ رشيد سليم الخورى رسالتك اللطيفة المؤرخة فى الرابع من يناير المنصرم ، وسألنى مدفوعاً بدالة الأدب والصداقة أن أجيب عن الإيضاحات التى توجهت بها فى رسالتك الآنفة الذكر » .

وبعد أن ملأ الصحائف الثلاث الطوال بالشرح والسرد ، ختم الرسالة بقوله : « هذا وإنى أغتنم الفرصة فأشكر لصديقى رشيد الذى أتاح لى لذة الكتابة إليك ، وسرور التعرف بك . وترانى هنا رهن إشارتك لكل خدمة أدبية . والسلام عليك ممن يزجى إليك أصدق شعور الولاء والإعجاب – نظير زيتون » .

وأعترف ههنا أن تلك الرسالة كانت أول ضوء تلمسته فى دراستى لأدب المهجر الجنوبى ، وللاتصال بالعصبة الأندلسية ومجلتها ، وللتعرف إلى الوجه الحقيقى لأدب الجنوب المهجرى .

وحينما كنت أصدر مجلة « القلم الجديد »[١] واعتزمت إصدار عدد ممتاز منها يخصص للأدب المهجرى وحده ولأدبائه ، كتبت إلى نظير فى حمص أطلب منه دراسة عن أدب المهجر الجنوبى لذلك العدد ، لأنه كان خير من يستطيع الكتابة فى ذلك بحكم صلته المباشرة الوثيقة به . فلم يتأخر نظير عن إجابة الدعوة ، فأرسل دراسة مفصلة استغرقت من المجلة ثمانى صفحات ، وكانت لغيرى ممن يجهلون أدب المهجر من أدباء الأقطار العربية ، مثلما كانت رسالته الأولى لى ، تعريفاً بشىء مجهول . وكانت لذلك خدمة أدبية كبيرة أسداها نظير زيتون إلى الأدب العربى بتواضع عظيم ، حتى إنه لم يقل شيئاً عن نفسه أكثر من ذكر اسمه فى

(١) فى أيلول / سبتمبر ١٩٥٢ إلى آب / أغسطس ١٩٥٣ ، وكان العدد المهجرى الممتاز آخر عدد صدر منها .

تضاعيف المقال ، مما اضطرنى إلى التعليق فى الهامش منوهاً به وبأدبه الغزير القيم ، وبمقدرته الخطابية .

ومن الفقرات المقتطفة فى ما تقدم يلاحظ القارئ ما فى أسلوب نظير من الرصانة والسلاسة فى آن واحد ، يضاف إليهما العمق فى الدرس والبحث والتحليل ، وقوة المنطق ومتانة الحجة . ولكنه فى الفترة الأخيرة من عمره أخذ يميل إلى الإكثار من السجع بشكل غريب فى بعض ما يكتبه . ولست أدرى ما الذى أغراه بعد عودته إلى الوطن بهذا الأسلوب ، وهو الأديب الصافى الديباجة ، الناصع البيان ، حتى كانت مرثيته الطويلة للمرحوم عادل زعيتر مجموعة ضخمة من الجمل المسجوعة المتلاحقة ليس بينها وبين أسلوبه المألوف المحبب أية صلة . وقد ظهر شيء من هذا السجع المتعمد فى أول كتابه عن رشيد عطية .

على أن من الحق أن نشير إلى غيرة نظير زيتون على الأدب المهجرى ورجاله ، وإلى جهده الوافر فى سبيل إنصافهم وتقديرهم التقدير اللائق بهم . وإننى لأذكر بهذا الصدد أننى حين نشرت فى مجلة « الأديب » عام ١٩٥٢ دراستى حول « القصة والرواية فى الأدب المهجرى »(١) تلقيت منه رسالة من حمص بتاريخ ٢٢ نوفمبر ١٩٥٢ ، يقول فيها معلقاً ومصححاً :

« . . .رأيت أن أعلق على مقالك بملحوظة صغيرة ، وهى أنه فاتك أن تذكر شيئاً عن روايتين طريفتين كتبهما المرحوم شكرى الخورى ، صاحب جريدة « أبو الهول » التى عاشت نحو أربعين عاماً فى سان باولو ، البرازيل ، ثم انتهت حياتها بحياة صاحبها فى سنة ١٩٤١ . أما الروايتان فهما « يا حسرتى عليك يا زعيتر » وهى تحوى قصة مهاجر لبنانى ، وكان المؤلف فى هذه الرواية بسيكولوجيًّا من الطراز الأول ؛ وقد ترجمت إلى عدة لغات ونالت إعجاب المستشرقين ، أو المتمشرقين ، أو المستعربين ؛ والثانية « فينانوس » وهى لبنانية روحاً وعقلية ، وقد قرظها أجمل تقريظ النقادة « الطاغية » مارون عبود .

« قلت إنه فاتك ذكر هاتين الروايتين ، ورأى أن التعبير غير صحيح ، فالأصح أن أقول إن خبر هاتين الروايتين الجذابتين لم يتصل بك على كثرة تضلعك من

---

(١) أنظر القسم الأول من هذا الكتاب .

الأدب المهجرى ، ومعرفتك بجنوده وقوّاده . فحبذا لو طالعت هاتين الروايتين لترى فيهما طابعاً لبنانيًّا بسيكولوجيًّا طريفاً .

« وأنا ما أحببت أن ألفت نظرك إلى « يا حسرتى عليك يا زعيتر » و« فينانوس » إلا مدفوعاً بحب الفن الروائى . ولا تستغرب إذا قلت لك أيضاً إن مؤلفهما رحمه الله كان من أشد خصومنا فى العقيدة القومية ، ومع هذا لا أشك فى أنه كان مخلصاً كل الإخلاص للبنان ، وإن أنكر جلاء الأجنبي .

« وهناك قصصي طريف هو المرحوم أنطون سليم سعد ، من بشرّى ، كان من أعضاء العصبة الأندلسية ، واشتهر بكتابة القصة فكان موفقاً كل التوفيق . ومع أن ديباجته مشرقة فهو لا يعرف الصرف ولا النحو . وقد نشر فى مجلة العصبة أكثر من ثلاثين قصة ، بينها قصص تاريخية . وأنا لا أدرى هل كانت هذه القصص معربة عن لغة أجنبية ، أو مقتبسة ومسبوكة فى قالب جميل ، أو هى من حصاد خياله الخصب . وقد توفى رحمه الله ، فى سنة ١٩٤٥ أو ١٩٤٦ »(١) .

حين ألقى جورج صيدح محاضراته عن الأدب المهجرى فى المعهد العالى للدراسات العربية فى مصر – وقد جمعها بعد ذلك فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » – ثارت فى صحف مصر ضجة كبيرة حول قيمة الأدب المهجرى ، فغضب نظير للأدب المهجرى غضبة مضرية ، فكتب ردًّا طويلا عنيفاً على من يهاجمون الأدب المهجرى وهم لا يعرفونه . وقد نشر رده فى صحف متعددة فى الشرق وفى المهجر ، وكذلك نشره جورج صيدح فى الطبعة الثانية من كتابه .

كان نظير زيتون بين أدباء المهجر الجنوبى واحداً من رجال الطليعة الممتازين بالموهبة الأدبية ، والذوق الأدبى ، والنشاط الغزير ؛ وإذا كان أغلب إنتاجه – أو على الأصح كل إنتاجه المعروف – نثراً ، فإن له خطرات شعرية جميلة ، ولكنها قليلة أو نادرة . وقد ذكر له البدوى الملثم واحدة من القصائد الجميلة فى الحنين إلى سوريا . إلا أنه لم ينصرف إلى الشعر مثل انصرافه إلى النثر ، فلم يشتهر به .

---

(١) سجلت هذه الرسالة ههنا لما فيها من المعلومات المهمة الجديرة بالتسجيل ، لأنه لم يرد من قبل لها ذكر فى كتابى هذا ولا فى غيره من الكتب المتعلقة بأدب المهجر .

٢٣ – يوسف البعينى
من العصبة الأندلسية

فى منتصف شهر أيار من عام ١٩٤٩ ، والبراعم الجديدة تفتقها يد الربيع فى الكون فتزدان بها السهول والآكام ، والحدائق والأودية ، قصف الموت غصناً نديًّا يانعاً ، سخيًّا بالثمار ، زاهياً بالنضرة والشباب والحياة : ذلك هو الأديب والشاعر يوسف البعينى ، عضو العصبة الأندلسية فى البرازيل ، وأحد نوابغ الأدباء الشبان فى المهجر الجنوبى .

ولد يوسف البعينى فى قرية « الهدينة فى شمالى لبنان عام ١٩٠٨ ، وما كاد يحبو إلى الثامنة من عمره حتى فقد والدته ، فعاش فى رعاية أبيه ، ودخل مدرسة المريميين فى جونيه . وفى هذه المدرسة بدأت تظهر بوادر نبوغه ، وتبشر بمستقبل أدبى لامع .

وما كاد يطأ عتبة الخامسة عشرة من عمره حتى غادر لبنان مهاجراً إلى البرازيل ، وكان ذلك عام ١٩٢٣ . فلما تأسست العصبة الأندلسية فى عام ١٩٣٢ انضم إليها ، ولم يلبث أن أصبح من أبرز أعضائها . واستمر يغذّى مجلتها « العصبة » بروائع قلمه ، نثراً وشعراً ، وتأليفاً وترجمة ، حتى اخترمت المنية حياته وهو ما يزال فى الحادية والأربعين من عمره .

وفى السنوات الأخيرة من عمره كنت تجد له أحياناً فى العدد الواحد من « العصبة » موضوعات متعددة ، قد تصل أحياناً إلى ثلاثة موضوعات أو أكثر . وكان هو وحبيب مسعود القائمين على تحريرها فى الأشهر الأخيرة من عمره . وقد كان حبيب مسعود رئيس تحريرها منذ نشأتها حتى انقطاعها عن الصدور .

كان يوسف يتأثر بأدب الرابطة القلمية ، وبأدب عميدها جبران بشكل خاص ، وكان شديد الإعجاب بالرابطة وأدبها . ولذلك كثيراً ما كان يرد ذكر جبران فى كتاباته . وحين زار عبد المسيح حداد – صاحب جريدة « السائح » ،

وعضو الرابطة القلمية - البرازيل عام ١٩٤٩ ، استقبله يوسف البعيني ورافقه خلال رحلته ، وعقد معه حديثاً طويلا على جبران نشره فى العصبة .

وكما كان يوسف شديد الإعجاب بجبران ، كذلك كان شديد الإعجاب بأمين الريحانى ، وقد كتب حوله دراسة تنم عن إعجابه الشديد به وبأدبه .

وقد اختار يوسف عشرة من أبرز أدباء الرابطة وغيرهم من المهجريين ، فكتب فيهم دراسات أدبية كان يعتزم جمعها فى كتاب بعنوان « عشرة وجوه » ؛ ولكن الموت لم يمهله ريثما يكمل دراساته ويجمعها فى كتاب .

كان يوسف يجيد إلى جانب اللغة العربية اللغة الفرنسية التى درسها فى مدرسة الفرير المريميين فى جونيه ، والبرتغالية التى تعلمها فى البرازيل . وكان كثير العكوف على المطالعة فى هذه اللغات الثلاث ، والترجمة عن اللغتين الغربيتين . وكان بيانه مشرقاً صافياً وأسلوبه أنيساً سلساً .

أما أخلاقه فقد أجمع كل من عرفه ، وكل من كتب حوله ، أنها فى أعلى مستوى ممكن من الدماثة واللطف والوداعة .

كان يوسف ناثراً وشاعراً ، ولكنه كان مقلاً فى شعره ، فى حين كان غزير الإنتاج فى نثره . وفيما يلى نموذج من شعره ، وهو من شعر الحنين :

أقبِلى عنـد الصـباحْ نرتَـد الشمس وشاحْ

فوق أكتاف التلالِ

وامسحى دمـع الليالى عن عناقيـد الدوالى

وأزاهير الأَقاحْ

وأضاميم العبقْ

* * *

أترى تحمل هَبَّاتُ الريـاحْ فى ليـالينـا

خَشَّة الفُلك وتهليل الصبـاحْ عن شواطينا

وعن الأطيار فى الروض صـداحْ موقظًا فينـا

ذكر أوقات عذابِ

فى حمى فجر الشبابِ

قبـــل أيام اغترابى
بين زهــو وتصــابِ
وَقُبَـــل

وأما من نثره فنقدم النموذج التالى من مقال له بعنوان « الانتقاد الأدبى » يقول فيه :

« كلنا نسمع حشرجة الجداول وحفيف الأوراق فى سكينة الليل ، فنحس أن الجداول تؤلمها الصخور والمنحدرات ، فتشكو وتنتحب ، وأن الأغصان عندما يلامسها نسيم الأودية تتحرك مصفقة متمايلة . فمن كان ذا عاطفة شفافة يفسر حشرجة الجداول بأنين محتضر يلفظ أنفاسه الأخيرة ، وحفيف الأوراق بنبضات قلب تتنازعه الميول والحنين والتذكارات .

« والأديب كالجدول أو كالغصن تتألم نوازعه شاهقة فى مسامع الحياة التى لا ترحم ولا تلين ، فإذا جاء من يقيس هذه الظواهر بالأرقام الحسابية والموازين المنطقية يسىء إلى الفن والإبداع ؛ وذلك لأن الفكر غير محسوس وغير منظور ، وليفهمه الناقد يجب أن يستعمل مقياس عواطفه ومشاعره وإحساساته . . . »

وليس فى وسعنا أن نسترسل فى تقديم النماذج من أدب هذا الأديب النابغة الذى اخترم الموت حياته فى عنفوان الشباب قبل تمام نضجه ، فحسبنا من هذه الكلمة أن نلفت أنظار الأدباء الشرقيين إلى أدبه المعبر عن فيض من النبوغ والحيوية ، والقوة الروحية والأدبية .

٢٤ – حسنى غراب
من العصبة الأندلسية

وقف حسنى غراب عام ١٩٤٩ ، يرثى صديقه ورفيقه فى العصبة يوسف البعينى ، فقال فى رثائه له ، معدّدًا الرفاق الذين مضوا تباعاً إلى الأبدية :

نثرت أيدى الليـالى عقـدنا   وغدا أكثرنا تحت الـثرى
سبعة منـا تولـوا وقَضَـوا   فَمَن الثامن منا يا ترى ؟ !

وما كاد يمضى على ذهاب البعينى عام ونصف العام ، حتى كان حسنى غراب هو الثامن فى قافلة الراحلين إلى الأبدية من أعضاء العصبة الأندلسية . وعند ذاك وقف حبيب مسعود ، رئيس تحرير مجلة « العصبة » ، يرثيه فى حفلة تأبينه ويقول :

« عقدنا الثمين ينفرط حبة حبة ، وقلبنا النابض يتصدع مرة بعد مرة ، ودماغنا المفكر يتهدم يوماً بعد يوم ، ولساننا الفصيح يتفشى فيه البكم عاماً بعد عام . . . »

ثم يضيف إلى ذلك صرخته الموجعة التالية :

« ألا فليعلم القوم أن هذه القافلة الأدبية متى اندرست اندرست معها معالم العربية . ولا يتوهمن أحد أن الخسارة تعوض بعناصر أدبية جديدة تَفِدُ من الأقطار العربية ، فالروح والتفكير والذوق هنا شىء وهناك شىء آخر » .

وفى حسنى يقول حبيب مسعود :

« كان حسنى هبة سماوية ، فاعتزت به عشيرته وأعزها . ولد شاعراً ، وعاش شاعراً ، ومات شاعراً . . . فى حضن العصبة الأندلسية قضينا معاً ثمانية عشر عاماً ، فما نذكر خلالها أن حسنى كان عاذلاً أو معذولاً . ولا بدع ، فمن كان فى خلق حسنى فقد جاور الأصفياء الذين خلصت نفوسهم ، وصفت قلوبهم ، واحلولت ألسنتهم » .

* * *

ولد حسنى غراب فى حمص – سوريا – عام ١٨٩٩ ، ونشأ على حب الأدب والشعر منذ نعومة أظفاره . وبعد أن أكمل دراسته الابتدائية فى حمص ، والثانوية فى طرابلس ، هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٠ .

ومنذ أن أنشئت العصبة الأندلسية هناك انضم إليها ، وكان واحداً من شعرائها الأفذاذ ؛ فكان يغذى مجلتها « العصبة » بالكثير من روائع شعره الوجدانى والوطنى والاجتماعى ، كما كان يشترك فى الحفلات الاجتماعية والوطنية بشعره الجميل المؤثر . وكان من المتحمسين للعروبة وخدمة قضاياها . وفى قضية فلسطين ومأساتها الكبرى كانت نفسه الكبيرة تجيش بالشعر الوطنى الفائر بالحماس واحتـــدام العاطفة . ومن ذلك قوله فى قصيدة له قبل النكبة :

أأقبل العيدُ حتى يفرحَ العربُ ؟ ... لا ، لا لعمـرك إن العيـد مرتقبُ
العيـد يومَ يثورُ الحـــقُّ ثورتَـــه ... والعيد يوم يعمُّ الويـل والحـربُ
وتلبث الرايــة الحمــراء خافقــةً ... حتى يُـردّ إلى أصحـابه السلبُ

ولكن النكبة وقعت بعد ذلك ، وخاب أمل حسنى فى دول العرب التى خـفّت لنجدة فلسطين ، ولكنه لم يقنط من مجىء يوم الثأر للوطن المضاع والكرامة المهدورة . وهو القائل فى فلسطين :

وَخـبِّر القـوَم أنّا لا نقاسمهـم ... ذاك التراث وإن ضجُّوا وإن صخبوا
يأبَى علينـا عُلانـا أن نفارقَـــه ... إلا إذا فارقت أبراجهـا الشهب

كان حسنى غراب كبير النفس ، عالى الهمة ، يحب الخير لكل الناس ، ويكره البخل والغرور والتعالى . وفى شعره غير قليل مما يعبر عن ذلك كله . ومن ذلك قوله :

قالوا : نرَى نفراً عند الملوك سَمَوْا ... وما لهم همّـــةٌ تسمو ولا وَرَعُ
وأنت ذو همّة فى الفضــل عاليــة ... فلمْ ظمئتَ وهم فى الجاه قد رتَعوا ؟
فقلت : باعوا نفوساً واشتروا مننــاً ... وصنتُ نفسى فلم أخضع كما خضعوا
قد يكـرم المـرء إعجاباً بخستــه ... وقد يُهان لفرط النَّخـوة السَّبُعُ !

وكان حسنى مرح الروح ، كثير الدعابة ، حلو الفكاهة ، وإن يكن فى

شعره أشياء من الكآبة . وكان كثير الحنين ، شغوفاً بوطنه العربى ، وبمسقط رأسه حمص . وكم تغنى فيها بشعر عذب رقيق ، كقوله :

أبعدَ حمص لنا دمعٌ يُـــراق على منازل ، أم بنا من حادث هلـعُ
دار نحــنٌّ إليهــا كلمــا ذُكرت كأنما هى من أكبادنــا قطَـعُ
وملعب للصبــا نأسَى لفُرقتــه كأنه من سواد العين منــتزعُ

ويلاحظ القارئ من هذه النماذج المتقدمة أن حسنى كان يحافظ على جزالة الأسلوب العربى والديباجة الأصيلة ، ولا يميل إلى التنويع فى أوزانه وقوافيه . ولعلّ ذلك ما دفع الشاعر عمر أبو ريشة إلى أن يقول : « إن حسنى غراب أصفى شعراء المهجر ديباجة » .

ولكن حسنى قضى ولم ينتج كتاباً ، ولا جمع شعره فى ديوان . وقد ذكر الشاعر جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية » أن أخاه مدحت غراب عاكف على جمع شعره . وكنا نرجو أن يحقق مدحت ذلك خدمة للأدب العربى عامة ، والمهجرى خاصة ، ولكن المنية اختطفته هو أيضاً فى أواخر عام ١٩٥٨ دون أن يحقِّق الأمنية .

٢٥ – ميشال معلوف
من العصبة الأندلسية

حين تأسست العصبة الأندلسية فى البرازيل فى عام ١٩٣٢ ، انتخب ميشال معلوف أول رئيس لها . واستمر فى رئاستها حتى عاد إلى الوطن .

ولد ميشال بن إبراهيم (باشا) معلوف فى زحلة عام ١٨٨٩ ، ودرس فى مدارسها الابتدائية ، ثم فى الكلية الشرقية الكاثوليكية على صهره عيسى إسكندر المعلوف . وبعد نهاية دروسه فيها اشتغل بإدارة أملاكه الواسعة فى البقاع ، فأتقن الزراعة ، وكان ميالا إلى الأدب ، فأخذ ينشئ المقالات لمجلة الجمعية العلمية التى أنشأها صهره فى الكلية الشرقية ، وينظم الشعر وينشره فى الصحف الأخرى .

وفى سنة ١٩١٠ استدعاه أخواه قيصر وجورج معلوف — وكانا من كبار التجار والأثرياء فى سان باولو — فالتحق بهما هناك ؛ فاشتغل مدة بالتجارة ، وأسس معملا للنسيج . ولكن شغفه بالأدب كان يدفعه إلى القيام بحركة ترفع من شأن الأدب فى ديار الغربة . فأنشأ مع شكر الله الجرّ وعدد من الأدباء البارزين العصبة الأندلسية ، ورعاها بماله ونفوذه ، فانتخبه الأعضاء رئيساً للعصبة . ثم أنشأ مجلة « العصبة » التى لم تكن تعرف المهاجر الأميركية حينذاك مجلة فى مثل مستواها الأدبى العالى ، وكتابها وشعرائها الكبار . وكان يغذيها ما استطاع بشعره العذب الرقيق .

وفى صيف عام ١٩٣٨ عاد إلى زحلة فى زيارة كان يظنها قصيرة الأجل ، غير أن نشوب الحرب العالمية الثانية حال دون عودته إلى أعماله وأبنيته « وعصبته » ؛ فأقام فى زحلة وتزوّج هناك . وبعد سنة ونصف أصيب بمرض عضال لم يستطع الطب الوقوف فى وجهه ، فقبض ميشال إلى رحمة ربه فى الرابع من حزيران (يونية) عام ١٩٤٣ ، ودفن فى مسقط رأسه[١] . ومن بعده رأس العصبة الشاعر القروى ، ثم شفيق معلوف — ابن أخت ميشال .

ولميشال معلوف آثار أدبية من شعر ونثر ، ولكن لم يتح له طبعها . أما المراثى التى قيلت فيه فقد جمعت فى كتاب بعنوان « هيكل الذكرى » ، ومعها بعض قصائده .

وقد ألف ميشال فى أول عهده بالأدب مسرحية بعنوان « سجين الظلم » فى خمسة فصول ، مُثِّلت مراراً فى الوطن والمهجر ، ولكنها لم تطبع .

كان ميشال محساناً ، ينفق هو وأخواه من ثرائهم الواسع فى أعمال الخير . وبعد عودته إلى الوطن ، لمس حاجة الكثيرين من مواطنيه إلى المساعدة فكتب إلى أخيه جورج معلوف بذلك . فجمع هو وابنا شقيقته — شفيق وإسكندر معلوف — مبلغاً كبيراً من المال وأرسلوه إليه . فابتيعت به حنطة وزعت على الفقراء فى بيت أهله بواسطة لجنة من أهل زحلة .

---

(١) استقيت هذه المعلومات من صهره الشيخ عيسى إسكندر المعلوف ، رحمه الله .

وكان آخر ما نظمه ميشال ، وهو على سرير مرضه بداء القلب ، الأبيات التالية :

جَنَيْتُ عليكَ يا قلبي ولم تشفعْ بكَ الشكوى
فكم قاسيتَ فى جنبي وكم حاقتْ بك البلوى
وكم خدعتْك آمالٌ وكم أشقاك مَن تهوى
بلى قد جُرْتُ يا قلبي عليكَ فلم تَعُدْ تَقْوَى

* * *

سجيناً بين أضلاعي قضيتَ العمر مضطربا
تشدُّ عليكَ أطماعي وتشطرك النوى إربا
وكنتَ كطائر غرد تحوّل شَدْوُهُ شَجْوا
بلَى قد جرتُ يا قلبي عليك فلم تَعُدْ تقوى

* * *

ومرّتْ بى من الذكرى سحاباتٌ مضيئاتُ
على جنباتها تَتْرَى ابتساماتٌ وديعاتُ
فأطبق جفنيَ الطرْفا وعاد القلبُ للنَّجوى
بلَى قد جزتُ يا قلبي عليك فلم تَعُدْ تقوى

وهذه قصيدة أخرى من شعره بعنوان « كبد من تراب » :

تمُرُّ الليالى كمَرّ السحابْ
وتمضى الأمانى كومض البروقْ
فحتَّام يغمر هذا الضبابْ
حَواشيَ نفسى فلا تُبصرِ وتبحثُ عنك فلا تعثرُ !
تُراها أضاعت إليك الطريقْ ؟ !

* * *

حنينٌ وشوقٌ وحبٌّ دفينْ
يكابدُه كبدٌ من ترابْ

فإن يكُ فى الأرض ماء وطينْ
يحول ويفصل ما بيننا وكنت اتّخذت السهى موطنا
فيا ربّ عجلْ بيوم الذّهابْ

٢٦ – رياض معلوف
من العصبة الأندلسية

لعله لم يكن من المنتظر أن يكون لرياض المعلوف فصل خاصّ من هذه الدراسات المهجرية ؛ فمكانه بين شعراء لبنان المقيمين لولا أن المصادفة شاءت له أن يعيش فى المهجر ردحاً من الزمن على غير اختيار منه ، وأن ينضم إلى رابطة أدباء العرب فى البرازيل ، وهى « العصبة الأندلسية » التى كان أول رئيس لها خاله المرحوم ميشال المعلوف ، وآخر رئيس لها أخاه شفيق المعلوف ، ولولا أن هذه السنوات القلائل التى قضاها فى المهجر مرغماً قد تركت فى شعره أثراً يميزه عن شعره الذى ظهر قبل سفره إلى أميركا فى ديوانه الأول « الأوتار المتقطعة » .

أما المصادفة التى قضت بأن ينضمّ رياض المعلوف إلى شعراء المهجر الأميركى ، فهى أنه قد غادر الشرق فى عام ١٩٣٨ ، قاصداً إلى باريس ونيويورك لأجل النزهة ، ولمشاهدة المعرض الذى أقيم فى نيويورك إذ ذاك . وقد طالت سياحته قليلاً حتى أدركته الحرب ، فقطعت عليه سبيل العودة إلى بلاده ، فاضطر إلى السفر إلى البرازيل حيث يقيم إخوته الثلاثة : إسكندر وشفيق وإدمون ، وإلى الإقامة بينهم ريثما تنجلى الغمة عن وجه العالم . وكان وصوله إلى البرازيل فى تشرين الأول سنة ١٩٣٩ . وقد شاءت الصدفة أيضاً أن يطول أمد الحرب فتطول معها إقامة رياض فى أميركا الجنوبية ، حيث عرفته صحفها وأنديتها الأدبية ؛ فانتخب عضواً فى المجمع العلمى البرازيلى فى ريو دى جانيرو ، وفى نادى القلم

الدولى (Pen Club)[1] وحيث نشر بعض المؤلفات بالفرنسية والعربية ، وضمّنها بعض الرسوم من قلمه أيضاً ، إلى جانب رسوم أخرى لرسامين غربيين .

وما دامت المصادفة قد شاءت فأصبح رياض أحد شعراء المهجر ، فلابدّ له إذًا من دراسة خاصة مع شعراء المهجر . فى الواقع أن بين شعره المطبوع فى المهجر وشعره المطبوع فى الوطن فرقاً ملموساً ، لا شك فى أنه من تأثير اختلاف البيئة ، كما هو نتيجة لتطور الشاعرية واستمرار نموها ونضوجها .

كانت باكورة إنتاج رياض الشعرى كتابه (الأوتار المتقطعة) المطبوع فى مصر عام ١٩٣٣ . وهو يدل على عدم نضوج الشاعرية عنده ، كما يدل على أن رياضاً كان إذ ذاك يحاول أن يجرى فى شعره على نهج أخيه المرحوم فوزى الذى كانت شهرته الأدبية تملأ دنيا الضاد . فى الديوان روح فوزى المتشائمة ولكن ليس فيه شعر فوزى المتين الناصع وحبكته الجميلة ؛ وفيه أشياء من ألم فوزى ولكن ليس فيه لطف خياله وحرارة دموعه ؛ وفيه محاولة لتنويع الشعر وزركشته ، ولكنها غير مكتملة لعناصر الحيوية على الرغم من ترقرق الكثير من أبياتها ولطف موسيقاه .

على أنه لابد لنا من الإشارة إلى تقدمة الديوان ، فعباراتها وأبياتها تدل على إحساس لطيف ، وحنان كثير ، : وهى « إلى التى حملت معى صليب العذاب فى طريق الحياة الوعرة بصبر وتضحية ، أقدم أوتارى وألحانى » . ثم يضيف إليها الأبيات التالية :

ولدتْنى وسقَتْنى دَمهــــا والحيــاةْ
فشِفاهى ليس تُنسينى اسمَها للممــات
حفرتْ عينى بدمعــى رسمَها طىّ قلبى
تلك أمى !

ثم يجىء ديوانه الآخر « خيالات » المطبوع فى البرازيل عام ١٩٤٥ وهو أدل من الأول على روح رياض ، وعلى طابعه الأدبى ؛ فقد تحرر فيه من محاولة التأثر بطرائق سواه ، وانطلق على سجيته ، ولكنه حاول أن يجعل لشعره طابعاً

---

[1] (١) وهو عضو كذلك فى مجمع إقليدس دا كونيا البرازيلى . وفى عام ١٩٦١ انتخب عضواً فى رابطة الصحفيين والكتّاب اللاتين ، فى روما .

غربى الروح واللهجة وإن يكن عربى الألفاظ . لذلك لا غرابة فى أن يكون تـأثرنا واعجابنا بما نقرأ له بلغات الغرب ، أكثر من تأثرنا وإعجابنا بشعره العربى ، فهو فى شعره أقدر على مسايرة روح الغرب وأقرب إليها منه على المحافظة على روح الشرق وطابعه .

شعر رياض من النوع الوجدانى الغنائى فى الغالب ، ومقطوعاته يتعمد فيها القصر واللمسات الخاطفة . ويظهر أن العروض العربية تعسّر عليه التعبير بسرعة واقتضاب كما يشاء ؛ أما بلغات الغرب ، وبطريقة الشعر المرسل ، فهو يصل إلى غايته بأيسر سبيل وأجمل بيان . خذ مثلا قصيدته « إلى عازفة » من ديوانه « خيالات » ، حيث يخاطب العازفة بقوله . . .

لعبتْ أناملُك الرشيقةُ بالقلوب وبالبيانه
أطرافها حمرٌ كأن بكلّ أنملة جمانـه
فاستنطقت لسن البيانة باللباقــة واللّيانه
هى فى تنقُّلها الطروب كطائر غرد ببانه
وبحلقك الشادى هزارٌ منشد دون استكانه

إنك لن تطمئن إلى سلامة التعبير وسلاسته وجماله ههنا كما تطمئن إليه وتستعذبه فى عبارته الإنكليزية ، من كتابه (غيوم – Clouds) فى قطعة قريبة من معني هذه القصيدة . فهناك يقول :

One could have felt
That there dwelt
Ten Nightingales
In the ten fingers
Of the Orchestra Conductor

وترجمتها : « إن المرء ليشعر بأن عشرة بلابل تقيم فى أصابع قائد الأوركسترا العشر » وهو معنى غاية فى اللطف والإبداع ، يدلّ على حس مرهف بارع الالتفاتة . وكما تستعذب هذه اللمسة الناعمة ، وتعجب بهذه الالتفاتة البارعة ، تستعذب كذلك كثيراً من أمثالها فى ديوان « غيوم » فى لغته الإنكليزية . خذ مثلا القطعة التالية :

In the veins
Of these violin strings
Flows, quivers and sings
The blood of innocent
Nightingales
Martyrs of their love's lament

وترجمتها : « فى شرايين أوتار الكمنجة هذه تسيل وترتعش وتغني دماء عنادل بريئة شهيدة التفجع على حبها » .

وكذلك الخاطرة التالية عن أشجار الخريف :

All these denuded trees
Are
The harem
Of the autumn

وترجمتها : « كل هذه الأشجار العرايا ، هنّ حريم الخريف » :

وكما نجد الشاعر بارعاً فى خطراته ، ناعماً فى لمساته السريعة فى هذا الديوان ، كذلك نجد عنده كثيراً من التشابيه والتعابير اللطيفة العذبة . كقوله فى وصف البحر :

Is not
The Ocean
The fluid mirror
Of the horizon ?

ومعناه : « أليس المحيط هو مرآة الأفق السائلة ؟ » . وفى وصف الظل :

O ... shadow
Darkness visible
Charcoal that the sun
Has not yet
Consumed
Dark purple wine
Of the night
Spumed
In the cup of day !...

ومعناه : « أيها الظل ، أيها الظلام الشفاف ، والفحم الذى لم تلتهمه الشمس بعد ، يا نبيذ الليل الأرجوانى الداكن ، المسكوب فى قدح النهار » .

* * *

أما الصفة الغالبة على شعر رياض فهى أنه عاطفى غنائى فى الغالب ، كما قدمنا ؛ فللحب فيه المكانة الأولى ، والغزل فيه يكاد لا يتقيد بحدود ، كما فى قصائده التالية : « عاصفة الحب » ، و« من ذكريات باريس » ، و« ليلة الأحد » ، و« ليالى المرافع » ، وغيرها من ديوانه « خيالات » ، وعدد من قصائد ديوانه « غيوم » . ونجىء إلى ديوانه « خيالات » ؛ وأودّ ههنا أن أذكر أن فيه عدداً من القصائد الجياد التى جمعت بين جمال الخيال ، وحسن التعبير ، وصدق الإحساس . وأول هذه القصائد وأجودها شاعرية هى قصيدة « المصدور » لأنها أحسنها تصويراً ، وأعمقها تأثيراً ، وهى كذلك أطوعها على قلم الشاعر نظماً . وقد رأينا أبياتاً منها من قبل .

ثم تأتى قصيدته بعنوان « الذكرى العاشرة » ، وهى دمعة يذرفها على قبر أخيه المرحوم فوزى فى الذكرى العاشرة لوفاته ، وفيها حزن أصيل ، ولوعة صادقة ولا سيما فى قوله :

لبنـــانُ يأمـــل أن تعـــو د إليه من بعـــد النُّزوحِ
أكفـاكَ هـذى الحفـرة الـ سوداء يا نسر الطمـوحِ

وفى الديوان قصيدتان عن لبنان أوحى بهما إلى الشاعر طيف الوطن النائى ، وهما من شعر الحنين الجميل ، إحداهما بعنوان « لبنان » والأخرى بعنوان « هل يا ترى نعود » وفى هذه الأخيرة يقول :

كم سُحْتُ فى المعمـــورْ مـــا غـــرّنى منظـــرْ
فبلـــــدى المهجـــورْ وكـــوخـــى الأخـضرْ
أحـــلى من القصــــورْ والـــذهـب الأصفـرْ

هل يا ترى نعـودْ
إليك يا لبنانْ ؟ !

وتستمر هذه الروح الغنائية الحلوة فى شعر رياض ، فنجدها كذلك فى ديوانه : « زورق الغياب » الذى صدر فى لبنان ، والذى رأينا منه من قبل قصيدته فى ابنتيه « نجوى وحياة »

وأود أن أشير إلى قصيدته « الفلاّح » فهى من الشعر الجميل ذى المعانى الرائعة .

هذا هو رياض المعلوف كما رأيته فى ما لدىّ من دواوينه . وأود قبل أن أختم هذا الحديث أن أذكر أن له غير هذه عدداً آخر من المؤلفات باللغات الغربية ؛ فله كتاب بعنوان « تلاوين » نشره فى باريس سنة ١٩٣٨ ، وقصائد بالفرنسية طبعت فى الأرجنتين بعنوان « حبات رمال » و« الفراشات البيضاء » ، وكتاب فرنسى بعنوان « شعر المرأة والخمر عند العرب » . كما أودّ أن أذكر أن ديوانه « غيوم » — وهو مجموعة خطرات قصيرة متنوعة — كان قد وضعه فى الأصل بالفرنسية ، ونشره فى البرازيل سنة ١٩٤٣ ، ثم ترجمه إلى الإنكليزية ج . ت . و . سدلر . أما فى العربية فقد صدرت له « الأوتار المتقطعة » و« خيالات » و« زورق الغياب » و« عمائم الخريف » ، وهذا آخرها حتى الآن . وله بالفرنسية كتاب بعنوان (مسامير العاج) طبع فى باريس عام ١٩٤٨ . وترجم الكثير من شعره إلى الإسبانية والبرتغالية . كما أن له كتاباً فى دراسة شعراء آل المعلوف ، و(صور ريفية) نثراً .

٢٧ — يوسف أسعد غانم
من العصبة الأندلسية

لعل أصدق تعريف للأديب والشاعر ما نستطيع انتزاعه من كلامه هو نفسه حين ينطلق على سجيته فى لحظة من لحظات التجلى والصفاء النفسى ، لا ما تخلعه عليه مؤلفاته أو إنتاجه الأدبى فحسب .

وعلى هذا الأساس أنقل ههنا صورة حقيقية للأديب المهجرى يوسف أسعد

غانم ، من رسالة كان قد بعث بها إلىّ من برجه الأخضر فى غوياز ، فى البرازيل ، وتاريخها ١٢ شباط (فبراير) ١٩٥٣ . وهذه هى الرسالة كاملة :

« أخى الأستاذ عيسى الناعورى المحترم

أحيي فيك الروح العربية والأدب الباسل . أنا لا أقيم فى سان باولو حيث مركز « العصبة الأندلسية » التى أنتمى إليها ، وإدارة مجلتها « العصبة » التى أساهم فى تحريرها . فبينى وبين سان باولو مسافة أربع ساعات جوية . لذلك تأخرت رسالتك التي تسلمتها اليوم محوّلة إلىّ من إدارة « العصبة » ، بعد أن بعثت إليك فى البريد الجوى بمقال لا أدرى رأيك فيه ، لأننى لست منصرفاً إلى الأدب وحده فأسكب فيه قلبي وروحى وعقلى وشعورى . . . وأموت على دينه ! ! فأنا أشتغل بالتجارة فى ولاية غوياز ، وفى بلد صغير اسمه « أنا بوليس » . فيه تسعون عيلة عربية منصرفة إلى « عجل اليهود »(١) ؛ لا مكتبة عربية ، ولا أندية ، ولا مجالس ، ولا محاشد عربية ، ولا مرجع يُسترأى ويُستفتي ؛ فأنا أستفتى نفسى خطأ أو صواباً . وأنا الأديب العربى الوحيد فى ولاية غوياز التى تعادل مساحتها ضعفى مساحة فرنسا !

أما المرأة العربية فى المهجر فمثل خيل الدولة(٢) ! والمرأة هى محور الدائرة فى نبوغ النابغين . والشاعر فرحات يبعد على مسافة أربع ساعات جوية . وعندما هزنى لأكتب مقالا لمجلة « القلم الجديد » ، فعلت كما يفعل الدليل الصحراوى عندما تغلق عليه معالم الطريق ، فيلطم رأسه صائحاً : « طاحت رأسى » ! . . . لأنى لا أعرف المجلة ولا نهجها . فاعذر يا أخى عيسى هذا الأزغب الجناحين فى قصوره عن مجاراة ذوى الأجنحة الصافعة عواصف الأجواء ، فهو يجهل اللغات الأجنبية ، وينسج أدبه من خيوط نفسه .

واسلم لأخيك   يوسف أسعد غانم

* * *

(١) يعنى بـ « عجل اليهود » المال .

(٢) أى أنها صعبة المراس عسيرة التطويع .

فى هذه الرسالة القصيرة أكثر من صورة لهذا الأديب المغترب : ففيه صورة عن نوع حياته ، والجو العجيب الذى ينتج فيه أدبه ، والمسافات الهائلة التى تفصله عن أجواء الأدب ومحافله ورجاله ، والصعوبات التى تحول دون انصرافه إلى الإنتاج الأدبى . وفيه عدا ذلك صورة من أسلوبه الأدبى الضاحك الخفيف الظل .

أما المقال الذى يشير إليه فى هذه الرسالة ، فقد كان بعنوان « خيمة عربية » ، وقد نشر فى العدد الممتاز الذى خصص للأدب المهجرى وحده من مجلة « القلم الجديد » – وقد صدر عام ١٩٥٣ وهذا شىء منه ، نقتطفه لأنه يصور الحياة التى يعيشها المهجريون ، وينتجون فيها أدبهم :

« هزنى فى هجعة دماغى صديقى الشاعر الكبير إلياس فرحات لأكتب مقالا لمجلة « القلم الجديد » ، التى شاء لطف صاحبها أن يخصّ بعدد منها الأدباء العرب المغتربين ، الذين نزحوا عن أوطانهم جسوماً ، لا قلوباً وأرواحاً ، فرفعوا علم الأدب العربى فى محيط أعجمى طاغ :

تجمَّع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحدّاث إلا التراجمُ

هواة ، لا متخلّين من أشغالهم أو متفرغين للأدب وحده . فإذا عاب عائب مقيم قصورهم فى إحدى نواحى الأدب – والكمال لله – فلأن البيئة والوجوه والجوّ هنا هى غير البيئة والوجوه والجو فى الأقطار العربية ، ولأنهم يكتبون بالأيامن ، ويرتزقون بالشمائل ، فغرقوا فى أعمالهم المادية فى بلاد طغت ماديتها على روحانيتها ، فغرقوا فى هذه اللجة الطامية مجروفين بالتيار الجارف العجاج .

يتنكر لهم الأجنبى لجهله لغتهم ، ويجفوهم مواطنوهم لأنهم لا يفهمونهم . وإذا حدّثوا المرأة العربية عن المتنبى أبدت سرورها ورَغبتها فى مشترى اثنين أو ثلاثة منه للمطبخ ! . . فأدباء دقيقو الإحساس يعيشون – أو يموتون – فى محيط يوهن العزائم ويخذل الهمم ، لا يستطيعون أن يبنوا أكثر مما بنوا » .

وينتقل بعد هذه الصورة المؤلمة لحياة أدباء المهجر وجهادهم لأجل العيش والأدب معاً ، إلى الحنين إلى البلاد العربية ، وتصوير الألم المحرق الذى يعانيه فى ديار الغربة شوقاً إلى وطنه ، فيقول :

« لقد سلخ القدر ستًّا وعشرين سنة من عمرى : ستًّا وعشرين سنة طارت هباء على الشواطئ الجميلة التى وقفت على رمالها وصخورها مدى ستة وعشرين عاماً أرقب السفن العابرة إلى الشرق ، إلى موطن الله وكلما مرت سفينة ألوّح لها بيدى وأصرخ بملء فمى ، فكانت الريح تقصيها عنى ، وتعيد صراخى إلى حلقى ، حتى تحوّل صدرى إلى كهف تتجاوب فيه أصداء ندائى وصراخى . وكيفما أدرت عينى فى سماء هذا المهجر الكريم المضياف ، تجلت لى خيمة عربية نصبت فوق ديار أعجمية سحنة ولساناً . . .

ولو تبخر عمرى كله قصيراً فى أى صعيد عربى ، لحمدت الله على حياة قصيرة عريضة فى دنيا يقيم الله فى قلوب أبنائها ، ويقيم الشيطان فى قلوب مغتصبيها . . . فصواعق بلادى هى ورود ترشقنى بها سماء بلادى . . .

لقد تعبت فى الغرب حتى ملّنى التعب . . .

خذوا السيارة والطيارة ، وأعطونى جملا وحصاناً . . .

خذوا الدنيا الغربية ، أرضاً وبحراً وسماء ، وأعطونى خيمة عربية أنصبها على إحدى روابى وطنى لبنان . . . على ضفاف بردى . . . على شواطئ الرافدين . . . فى أرباض عمّان . . . فى الصحراء السعودية . . . فى مجاهل اليمن . . . فى سفح الأهرام . . . فى واحات ليبيا . . .

أعطونى خيمة عربية ، لأضعها فى كفة وأضع الدنيا فى كفة ، وأنا الرابح ! »

ولعمرى لست أدرى أى حنين أشد حرارة ووقدة من هذا الحنين المحرق ، وهذه اللهفة الصارخة ، فى بيان مشرق سخى بالمعانى الجميلة ، والخيالات الحلوة والكئيبة معاً .

ولقد سبق أن عرفنا يوسف غانم – فى القسم الأول من هذا الكتاب – زجالا مبدعاً ، رقيقاً فى أزجاله التى جمعها فى ديوانه الزجلى « البرج الأخضر » . ونحن الآن نعرفه أديباً مبدعاً كذلك فى نثره وفى شعره . وقد قدمنا شيئاً من نثره ، وهذه نماذج من شعره ، وكلها منتزعة مما نشره فى « العصبة » و« الشرق » وغيرهما من صحف الأدب المهجرى . قال من قصيدة له بعنوان « بين الواحات والبيد » :

عاصفَ الدَّهر ، تمهَّلْ ، إننا قد كبحنا جامحَ الجهل المريـدِ

سادةُ الدنيــا عبيدٌ ، إنمـــا ... سادة الأقلام ليسوا بالعبيــدِ
دورةُ الحظ عـــلى عثرتهـــا ... حملتنا من صعيــد لصعيــدِ
نُنشد اللحنَ وما مـــن سامـــع ... يفهم اللحن ويُصغى للنشيدِ
نـــوّرَ الليـــلَ عـــلى حلكته ... مشعل[١] ضاءَ على الشط البعيدِ

وهذه الأبيات تكمل صورة حياة الأدباء المغتربين وجهادهم وتزيدهما وضوحاً .

وكان للشاعر مرة بيت فباعه – ويقول إنه استعاض عنه بالدنيا ، فهى بيته الأكبر ! – وقد زاره مرة بعد بيعه ، فثارت فى نفسه ذكريات عزيزة ، فقال :

يا منزلاً قد زرتـــه بعـــد النَّوَى ... لا تنجـــلى عن ناظـرىّ طيوفُهُ
لما دنـــوتُ تبسمتْ أبوابـــــه ... وتهلّلت جـــدرانه وسقوفهُ
همّت به بعد الرحيـــل نوازلٌ ... ومشت إليه من الزمان صروفـهُ
ما للريـــاح الهوج تعصف حولَه ... مجنونـــةً تجتـاحه وتخيفـهُ

وليس يوسف غانم من أصحاب القصائد الطويلة ، فكل شعره مقطعات قصيرة ، قد ينظمها على طريقة الشعر التقليدية ، وقد ينوّع فى أوزانها وقوافيها .
ومن قصائده الغنائية قصيدة بعنوان « درب النسور » يقول فيها :

لىَ دربٌ خالفت كلّ الدروبْ
خيمَّ الليــلُ عليهـــا
واستبدّ الشوك فيهـــا
فكأن الـــدربَ سجنٌ وذنـــوبْ

* * *

كلمـــا شمتُ بروقاً فى سماهـــا
ونجومـــا ساطعـاتْ
وشموسا مشرقـــاتْ
حجب الغيم عن الدرب سناهـــا

---

(١) يقصد بالمشعل : العصبة الأندلسية .

إن يوسف غانم لم يكتسب أدبه فى المهجر وحده ، فقد عمل فى التعليم والصحافة فى لبنان قبل الهجرة ، وكان قبل ذلك قد تلقى دراسته فى مدرسة الفرير فى جونيه ، غير أن الهجرة صقلت قلمه وبيانه .

وفى المهجر انضم إلى العصبة الأندلسية وظل يزوّد مجلتها « العصبة » بمقالاته وقصائده إلى أن توقفت عن الصدور . وكان ينشر أزجاله وقصائده ومقالاته فى مختلف صحف المهجر برغم أعماله التجارية التى تحاول صده عن الأدب وحمل القلم . ولم يصدر ليوسف من المؤلفات سوى مجموعته الزجلية « البرج الأخضر » المطبوعة فى البرازيل عام ١٩٥٣ .

وفى سنة ١٩٦٥ قضى يوسف غانم منتحراً فى مهجره البعيد . أتراه التعب من الغرب – الذى أشار إليه فى مقاله فى « القلم الجديد » – وضيق ذات اليد ، هما السبب فى انتحاره ؟ !

٢٨ – جورج حسّون معلوف
من العصبة الأندلسية

اشتهر جورج حسون معلوف بين المهجريين الجنوبيين بأنه موسوعة علم وأدب ، وبأنه لطيف المعشر ، ذو نكتة مستملحة . وقد ولد حسون فى بكفيا عام ١٨٩٣ ، وتعلم فى مدارس لبنان ، وتخرج فى الجامعة اليسوعية ، واشتغل عامين بالمحاماة . ثم هاجر إلى الأرجنتين عام ١٩١٠ – كما يقول توفيق ضعون – أو عام ١٩١١ – كما يقول صيدح[١] والبدوى الملثم[٢] – ولكنه لم يلبث أن غادر الأرجنتين إلى البرازيل ، فعمل فى التدريس ، وفى التجارة .

وحينما أنشئت العصبة الأندلسية كان من أوائل مؤسسيها ، وعمل خطيباً لها مدة من الزمن . ونشر فى مجلتها « العصبة » كثيراً من مقالاته وأقاصيصه وقصائده ،

---

(١) انظر (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية) لصيدح

(٢) انظر (الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية) للبدوى الملثم

ومن المواضيع التى كان يترجمها عن اللغات الأجنبية التى يتقنها جيداً ، وهى الفرنسية والإسبانية والبرتغالية .

وكان فى اللغة من البحاثين المدققين وإن لم ينصرف إلى ذلك ، وفى الأدب من النقاد والشعراء والقصصيين المجيدين . وأول ما قرأت له كان مقدمته « لديوان فرحات » المطبوع فى البرازيل عام ١٩٣٢ . وهى مقدمة طويلة استغرقت اثنتين وثلاثين صفحة من الديوان ؛ وقد تحدث فيها أولا على فرحات الشاعر الذى عرفه « كالفرخ يتململ محاولا الانفلات من البيضة التى لم تنفلق عنه بعد ، فأصبح نسراً يحلق فى جو الأدب ، فتخطى الغيوم وما فوقها حتى صارت الأرض فى عينيه كدارة الدرهم ، ولكنه ما زال يرتفع ويتقدم » .

ثم راح يتحدث على « الأدب العربى فى المهجر » ، وعاد بعد ذلك من جديد إلى دراسة ديوان فرحات وتحليله . فكان فى دراسته تلك أديباً قديراً ، ونقادة بارعاً .

وفى عام ١٩٥٤ أصدرت له العصبة الأندلسية فى منشوراتها كتاباً بعنوان « أقاصيص » ، جمع فيه عشر قصص ، بين موضوعة ومعربة ، وبين فنية وتاريخية . وقد جعلت « العصبة » ذلك الكتاب هديتها لمشتركيها ختاماً لعامها الثالث عشر .

أما تلك القصص فهذه عناوينها : « أسعد – من ذكريات الشباب – المخملة – صيد النمر – تريزا – دروس الأستاذ كروهل – شاتوبريان ومدام ركاميه – المزار – الصراع الأخير فى الكولوسيوم – أرايا » .

وليس من السهل أن ندرس تلك القصص والأحداث الأدبية والتاريخية فى هذا المجال ، لأن ذلك يتطلب مجالا أوسع من هذه الدراسة القصيرة .

وقبل وفاته بأعوام قليلة عاد لزيارة الوطن ، واستغرقت زيارته عاماً أو أكثر . وقرأت مرة فى أحد أعداد « المراحل » البرازيلية أنه كان سيصدر كتاباً حول أدب المهجر ، وقد نشر فصلا من ذلك الكتاب فى « المراحل » ، ولكن الكتاب لم يصدر بعد .

وقد توفى حسون عام ١٩٦٥ بحادث سيارة . وفى شهرى تشرين الثانى وكانون

الأول عام ١٩٦٥ أصدرت مجلة « المراحل » عدداً مزدوجاً خاصًّا سجلت فيه الخطب والقصائد التأبينية التى ألقيت فى الحفلة التى أقامتها « جامعة القلم » فى سان باولو لتكريم ذكراه فى شهر أيلول ١٩٦٥ .

٢٩ – نصر سمعان
(من العصبة الأندلسية)

فى الدراسة التى قدّم بها رشيد شكور (لديوان نصر سمعان شاعر العروبة) ، المطبوع فى (دار المراحل للطباعة والنشر) فى سان باولو – البرازيل – عام ١٩٧٢ ، أورد النبذة التالية عن حياة الشاعر :

« ولد فى ١٤ أيلول ١٩٠٥ فى بلدة القصير ، من أعمال حمص . ولما ترعرع درس فيها مبادئ القراءة بإشراف معلم من يبرود يدعى سابا ، ثم بإشراف معلم من حمص يدعى عبد المسيح كرامة . وفى بدء سنة ١٩١٣ دخل صف المبتدئين فى المدرسة العلمية الأرثوذكسية فى حمص . وفى أواخر سنة ١٩١٤ وقعت الحرب العالمية الأولى ، فأقفلت المدرسة أبوابها ، كما أقفلت جميع مدارس سوريا تقريباً ؛ فرجع إلى القصير ، مسقط رأسه ، وبقى فيها حتى عام ١٩٢٠ . فغادرها إلى البرازيل ، وقضى بقية حياته فى مدينة سان باولو ، حيث عاش ونبغ وشقى وتألم ، حتى العاشر من أيار سنة ١٩٦٧ ، إذ توفى تاركاً اللوعة والحسرة والأسى لأهله ومواطنيه ، ولكل من عرفه وعاشره » .

اثنان وستون عاماً ؛ تلك كانت رحلة العمر التى قطعها نصر سمعان فى الحياة ؛ خمسة عشر عاماً منها فى الوطن ، والبقية كلّها فى البرازيل ، حيث لمع اسمه بين أكبر شعراء الوطنية فى المهجر الجنوبى ، وكان خطيب الأندية والمحافل . ولكنّ شهرته ونبوغه فى الشعر ، رافقهما الإخفاق الدائم فى الحياة العملية والمالية .

لقد كان شاعراً مطبوعاً منذ حداثته ، رغم ما رأيناه من أنه لم يصب من حياة

المدرسة غير حظ ضئيل ، هو (صف المبتدئين فى المدرسة العلمية فى حمص) ؛ فهو فى هذا كرميله الشاعر المهجرى الجنوبى إلياس فرحات : كلاهما عانى حياة الفقر والحرمان فى المهجر ، وكلاهما نبغ فى الشعر أوسع نبوغ .

يقول فرحات فى وصف حياة المشقات التى عاناها فى ديار الهجرة :

طوى الدهرُ من عمرى ثلاثين حجّـة طويتُ بها الأصقاع أسعى وأدأبُ

أُغرّب خلف الرزق وهـو مشرّقٌ وأُقسمُ لو شرَّقتُ كاد يغرّبُ

وطوراً تعافُ الخيلُ ما نحن نشربُ فنشربُ ممّا تشرب الخيلُ تـــارةً

ويقول نصر سمعان :

أسعى وراء الرزق مجتهـــدًا والدهـــرُ فى الحرمـــان يجتهدُ

ما إن ذرفتُ الدمـــع فى بلـدٍ إلاّ وحنَّ لمدمعي بلـــدُ !

وهكذا تشابهت حياة الشاعرين الكبيرين فى المهجر الواحد ؛ وتزاملا كذلك فى الشـــاعرية المبدعة ، والحس الوطنى ، وفى الشهـــرة الواسعة بين الجوالى العربية المهاجرة . وكان نصر من أعضاء العصبة الأندلسية البارزين ، الذين واكبوها منذ ولادتها . وقد اشتملت مجلتها (العصبة) وكثيرغيرها من صحف المهجر ، كالشرق ، والمراحل ، وغيرهما ، على العديد من قصائده ، التى ظهرت بعد وفاته فى (ديوان نصر سمعان) .

وأكثر ما كان يثير شاعريته المناسبات الوطنية ، فعند ذاك يتدفق القول عذباً صافياً على لسانه ، على الرغم من انصرافه إلى أعماله التجارية . وهو شاعر النادى الحمصى ، أكبر الأندية العربية فى المهجر . وفى ما يلى نماذج من شعره :

قُلْ للمـدلّ بجـــاه لا تزخرفـــه إلا الأباطيـلُ أشكالا وألوانا

الفقـــرُ فى أن تراك العينُ مرتدياً ثوبَ الغنى ويـــراك القلبُ عريانا

وأيضاً :

قـــل لمن صانَعَ الغريب ودبَّـت صخرةُ الوهم فى مسالك رشدِهْ

إنما الفخـــر أن يريـــق أبيٌّ دمَـــه عن حمى أبيـــه وجدّهْ

إنما الفخر أن تَسُلّ حُسامـــاً تلهب الظالمين شعلـــة حـدّهْ

داس آمـــالك الغريب ومـــا زلـ ـت تُغنّى بمدحـــه وبحمدهْ

وله قصائد تفيض بالنقمة والألم لمأساة فلسطين . ومن قوله فيها :

واحيرة المجد فى قوم أُعِدّ لهم ... عرشُ الجهاد فما غنُّوا ولا عزفوا
تحالفوا تحت أعلام الإخاء على ... صون الإباء ، وفى ميدانه اختلفوا
أضحت فلسطين فى التاريخ لؤلؤةً ... حسناء ، والعرب بحراً كله صدف

وله فى الحنين إلى حمص قصائد كلها رقة وجمال . ومنها قوله :

تلك الخمائلُ جنّاتٌ منوّرة ... بكلّ زهر ذكىّ الطيب عباق
وللنواعير أنّات تبثّ بها ... شكوى صبابة مشتاق لمشتاق
وحمص تنشر فى الدنيا نوافحها ... شذًى تؤديه آفاق لآفاق
تُخاطب الله فى النجوى ، وما نطقت ... إلا بكل شريف القول مصداق
يا حمصُ لولا سنى ذكراك ما عرفتْ ... روحى سنى أمل فى العيش برّاق
عمرٌ قصير المدى ما زلت أُنفقه ... على نجاح من الدنيا وإخفاق
والدهر بينهما ما زال يترعُ لى ... كأسَ العذاب ، فما أقساه من ساق !

٣٠ - قيصر سليم خورى (الشاعر المدنى) من العصبة الأندلسية

حينما أطلق رشيد خورى على نفسه اسم « الشاعر القروى » ، وعرف به فى الأوساط الأدبية والعربية كلها ، أطلق أخوه قيصر على نفسه اسم « الشاعر المدنى » ، وعرف به كذلك فى الأوساط الأدبية فى المهجر .

غير أن قيصر لم يستطع أن يطلق العنان للشعر كما فعل أخوه رشيد ؛ فهو ربّ أسرة تحتاج إلى كدحه المتواصل ليكسب لها الطعام والكساء وكراء البيت ، وليس رشيد مثله فى ذلك . فالشعر لدى رشيد وسيلة الحياة ، وهو لدى قيصر ترويح عن النفس من عناء الحياة ، حينما تمنحه الحياة فرصة للترويح عن النفس ؛ فقد شقى قيصر فى غربته بمتطلبات العيش والأسرة .

ونحن نجده أحياناً ينظم الشعر شاكياً من قسوة الحياة ، ويستجير بالموت لينقذه منها :

لم أدْنُ من سبب أمــدّ لــه يــدى ... متناولا إلا وأبعــده القضــا
يا مانعــى اللذات ، جُـدْ بألذّهــا ... وامنــع فؤادى مــرة أن ينبضا
ماذا أرجّى أن ألاقى فى غــــد ... غير الذى لاقيته فيما مــضى ؟ !
تبًّا لعيش لا تــرى نفسى بـــه ... لولا خطوط الشيب شيئاً أبيضا

أو يصف جهاده فى سبيل صبيته ، ليضمن لهم الرزق :

إذا ما طوانى الليل أطلقت للسرى ... به قدمــاً هوجـاء أعصابها نارُ
سُرًى يستفيق العــزم تحت ظلامــه ... وتسهل أنجـاد ، وتعـذب أخطارُ
وما همّنى ليــلٌ وفى الـــدار صبيــة ... يرافقنى منهم على البعـد أقمارُ
صغارٌ لقد حمّلت نفسى لأجلهــم ... معاصىَ هم منهــا بريئون أطهارُ
وما خاف من عقبى الخطيئــة والدٌ ... فأولاده فى موقف الحشر أعــذارُ

حتى إذا تعب من البث والشكوى تصلبت فى نفسه العزيمة ، فراح يتحدى الزمان :

كنْ يا زمـــانُ كما تشاء فما أنا ... فى العيش بالشاكى ولا بالشاكرِ

ومثل هذه الحياة القاسية التى يصفها قيصر فى شعره ، لا تترك له سبيلا إلى العناية بالأدب ونظم الشعر إلا فى أوقات متباعدة . فهو يحاول أن يتملص ما استطاع من قسوة الحياة ، فلا يجد إلى ذلك سبيلا إلا بالمنى والخيال ؛ فيحنّ إلى حياة الغابة ، ويتغنى بحريتها وجمالها لبعدها عن حياة البشر المليئة بالنفاق والأذى ، والمحفوفة بالأشواك والمخاطر ؛ فيقول فى قصيدة بعنوان « أغانى الغاب » :

هُم الناسُ قد أقصــاك عنهم رياؤهم ... ولولا رياءُ الناس ما شَطَّت الدارُ
كرامٌ متى جادوا بمـــاء وجـــوههم ... ضنينون إمّــا حان للبذل دينـارُ
ولا عيبَ فى الإملاق إن جرّه النَّدى ... وشرّ عيوب المرء بخل وإكثارُ
فراراً إلى أرض بهــا تلمس النَّــدى ... فللناس أوطــار وللحر أوطـارُ
هلمَّ لرحب كلُّ ما فيـــه ضاحكٌ ... ترويك غدران وتشجيك أطيـارُ

أضاحك فيـه العشب والزهـر والندى أداعب منهـا ما أشاء وأختـارُ
هى الغاب يغـدو صدرها روحَ شاعر فتنضج أفكـار وتجـزل أشعارُ
تحسّ يدَ الرحمن فى حركاتهـا فتخشع علماً أن مبدعهـا جـارُ

وحين تصفو نفسه نجده يرسل الحكمة جميلة قوية ، أو يتغنى بموطنه وأيام شبابه فيه ، ويحن إلى الفردوس الذى غادره إلى جحيم الغربة .

ومن حكمه قوله :

حبّ الظواهر أعمى كل باصرة فقيمةُ الناس رهن الثوب واللقبِ !
ولو تَساوَى لباسُ اثنين ما قدروا أن يفرقوا بين دجال وبين نبي !

وقيصر خورى من أعضاء العصبة الأندلسية منذ تأسيسها ، وقد ولد فى قرية البربارة عام ١٨٩١ ، وهاجر إلى البرازيل مع أخيه رشيد عام ١٩١٣ وله ديوان مطبوع صدر فى منشورات وزارة الثقافة فى دمشق عام ١٩٦٦ بعنوان (ديوان الشاعر المدنى) وهو يضمّ العديد من قصائده .

٣١ – ميشال مغربى

بين المقلين من شعراء المهجر الجنوبى ، مع الجودة والأصالة الفنية ، نجد الشاعر الحمصى ميشال مغربى ، الذى هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٤ ، وكان له من العمر أربعة وعشرون عاماً فقد ولد فى حمص سنة ١٩٠٠ ، وفيهـا أنهى دراسته الثانوية ، وأصدر قبل اغترابه ديواناً شعريًا دعاه « العواصف » .

وفى المهجر انصرف ميشال إلى التجارة فنجح فيها ، ولكنها لم تلهه عن نظم الشعر الجميل من حين إلى آخر . وهو فى شعره متين الصياغة ، جميل الخيال ، رقيق الحس . وقد عالج فيه فنوناً من الوصف ، والحنين ، والتأمل ، والقصص الشعرى : التاريخى منه والأسطورى . كما نظم الشعر الوطنى الجيد فى مناسبات وطنية مختلفة .

والنماذج التالية ترينا مدى مقدرته الشعرية .

قال فى الوطنية ، معرباً عن نقمته على الذين تفرّق بين أخوّتهم فى الوطن نزعات الطائفية العمياء :

إن دينى أن أترك الدين من أجل بلادى وأعبد الأحجارا
وصلاتى أن لا إله سوى أرضى ، ولو كان أهلها كفَّارا

وقال فى قصيدة بعنوان « كنارى الدفين » :

الثرى أرحبُ المنازل بالطا ئر إن ضاق واسعُ الآفاقِ
إيه يا طيرُ إن سرَّ البرايا بابُه ظلّ محكم الإغلاقِ
حسبنا فى الوجود أنا وسعنا كل حسن الوجود بالأحداقِ
وخطرنا على الخيال وهمنا بالأغاريد والمعانى الرقاقِ
ليس بالمرء وحده خُصَّ حُزن ولئن خصّ وحده بالنفاقِ
وذوات الأطواق أكرم من بعض نفوس تساق بالأطواقِ

وقصيدته « ليون وغرناطة » ، وهى من الشعر القصصى التاريخى ، ذات شهرة واسعة . ونذكر فى ما يلى نموذجاً من شعره التأملى ، وهو من شعر الموشحات الجميل :

ماذا وراءَ القبر يا خالقى من بعد أن أخلع هذا الجسدْ
أعددتَ ناراً ، أم ترى جنةً لشاعر على رضاك اعتمدْ
يشفع فى محو معاصيهِ
بعض خصال حلوة فيهِ ترضيكَ مولاى مباديهِ
معتقداً ما اعتقدْ

* * *

فؤاده برغم آثامهِ ممتلئ حبًّا وإيمانا
كان كزرّ الورد فى طهره لو أنت لم تخلقه إنسانا
لكنه مسيّر بالقدرْ
فإن يكن بالذنب يوماً عثرْ فأنت تدرى كم بكى واعتذرْ
إليك ندمانا

والواقع أن فى شعر ميشال مغربى نواحى تجعله يختلف عن الكثيرين من

شعراء المهجر الجنوبى ؛ فهو ينظم الشعر لإرضاء نزعة فنية فى نفسه ، لا للمناسبات الطارئة . ولذلك كان من المقلّين ، لأنه يعنى بموضوعه ، ويعمل ما استطاع لتجىء عبارته الشعرية موسيقية ، ذات تأثير وخلابة . وهو موفق فى ذلك إلى حد بعيد .

وما أجمل قوله فى « حمص » حينما عاد إليها مرة زائراً :

حَسراً أمُـرُّ على ربـوع طفولتى ومواكبُ الذكرى تمـر حيالى
مترفق الخطـوات، لا أطأ الثرى إلا وقلبى سابـق لنعـالى
ولقد أكِبُّ على الحجـار مقبِّلا وأعفّـر الأهدابَ بالصلصالِ

٣٢ – توفيق ضعون

كل ما قرأته لتوفيق ضعون ، خرجت منه لتوفيق بصورة المصارع العملاق ؛ فأدبه أقرب ما يكون إلى المصارعة ، وقَلّ أن يسلم أديب أو شاعر – لاسيما من زملائه المهجريين – من لذعات قلمه . وأنت لا تمضى معه فى مقال أو كتاب إلا أحسست منذ البداية كأن المؤلف يصرخ فى حديثه إليك صراخاً عالياً . إلا أنه كثيراً ما يمزج هذا الصراخ بشىء من الطرافة أو النكتة ، شعراً كانت أم حكاية أم نادرة ؛ ثم يعود إلى أسلوبه الهجومى العنيف .

كذلك رأيته حين وقع فى يدى كتابه « ذكرى الهجرة » ، وهو أول كتاب يتحدث عن المهجر الجنوبى وأدبه بشكل واسع مفصّل وكذلك رأيته فى آخر كتاب له (كما هى – كتاب الأعوام) المطبوع فى دار (مجلة الشرق) فى البرازيل عام ١٩٦٦ . فقد رأيت المؤلف يجعل من نفسه محور المهجر وحياته وجاليته العربية ؛ فمن رضى عنه قال فيه كلمة خير متفضلا عليه بها ! . . ومن لم يرض عنه أنزل عليه سخطه ونقمته ، وجرّده من كل مزية حسنة ، وراح يتوسع فى ذكر فضله عليه ، وإحسانه إليه ، ورعايته له . . مما اضطرّنى مراراً إلى الكتابة إلى بعض الإخوان فى المهجر مستوضحاً عما جاء فى ذلك الكتاب .

ومع ذلك كان كتاب « ذكرى الهجرة » أول كتاب تعرفت بواسطته بأدباء العرب وشعرائهم فى البرازيل بشكل واسع .

وفى ما يلى نموذج من مقدمة الكتاب فى تعريف المؤلف بنفسه تحت عنوان : « وما على الرسول إلا البلاغ » :

« أنا توفيق بن فضل الله بن يوسف ضعون ، الغسانى أصلا ، الحاصبانى جدًّا وأباً ، البيروتى مولداً ، الزحلى نشأة ، واللبنانى تابعية ، البالغ اليوم من العمر اثنين وستين عاماً وشهرين وخمسة عشر يوماً ، قضيت منها فى هذا المهجر ثلاثين عاماً وثمانية أشهر ، تخللتها هجرة ثانية إلى جمهورية تشيلى دامت ثلاثة أعوام وشهرين ، بين عامى ١٩٣٤ و ١٩٣٧ ؛ أجلس الآن إلى منضدتى لأبدأ فى تحبير هذه الرسالة ، وساعة دير سان بنتو تدق مؤذنة بحلول الظهيرة من اليوم الخامس عشر من شهر حزيران (يونية) سنة ١٩٤٥ مسيحية ، الموافق السادس من شهر رجب سنة ١٣٦٤ هجرية . وذلك فى مكتبى الكائن فى الغرفة رقم ٢ من الدور الثانى من البناء الواقع تحت رقم ١٠٦ من لاديرابورتو جيرال ، فى مدينة سان باولو ، حاضرة سَمِيّتها إحدى ولايات الاتحاد البرازيلى الجمهورى فى القارة الأميركية الجنوبية » .

وقبل « ذكرى الهجرة » كان توفيق قد أصدر كتاباً دعاه « سيرة حياتى » ، وكتاباً آخر جمع فيه مختارات مما كان ينشره فى مجلته « الجديد » ودعاه « مختارات الجديد » .

ولا يبالى توفيق فى ما يكتبه أن يكشف محاسنه ومساوئه ؛ وليس فقط ما يراه فى الآخرين من مساوئ ، ومن محاسن – نادراً ما يجدها – وهو لذلك كان غنيًّا بالأعداء ، فقيراً بالأصدقاء المحبين بين المهجريين .

وحين أصدر الشاعر فرحات رباعياته عام ١٩٢٥ كتب توفيق ضعون مقدمتها . وكان فرحات وضعون صديقين حين ذاك ، ثم باعدت بينهما الظروف والاتجاهات الفكرية فى خصومة شديدة . وإليك كيف استهل توفيق مقدمته : « هذه رباعيات إلياس فرحات ، وقد خصّنى هذا الشاعر بشرف تقديم رباعياته لأسباب ثلاثة : أولا لأنه صديقى ، وثانياً لأننى أعرف الناس به أيام عسره ،

وثالثاً لأنني أجهل علم العروض مثله . هذا هو اعترافى الذى يجردنى من كل أهلية لتقديم ديوان من الشعر لمن يجيدون فهمه ولمن يجهلونه . . . » .

فإذا انتقل القارئ إلى المقدمة الجديدة التى وضعها حبيب مسعود للطبعة الثانية من الرباعيات ، عام ١٩٥٤ ، لمس بعد الفارق بين أسلوب الأديب الهادئ ، والنقادة الرصين ، وأسلوب الكاتب المصارع ، الذى يكتب كما تمليه عليه أهواؤه ونزواته .

والذى يبحث عن « رسالة أدبية » فى ما كتبه توفيق ضعون من مؤلفات ، وما نظمه من شعر ، وما أصدره من صحف فى البرازيل والتشيلى ، لن يجد تلك الرسالة ، ولكنه سيجد مكانها قلماً مسخراً للصراع ، الذى لا يعرف المهادنة ولا الهوادة. وقد توفى توفيق فى المهجر بعد أن أرهقته الشيخوخة ، وأنهكه الصراع ، وتجاوز التسعين من عمره .

٣٣ – نعمه قازان

فى سنة ١٩٣٨ صدر عن البرازيل كتاب باللغة العربية جميل الطبع ، صقيل الورق ، متين الغلاف ، تحمل الصفحات الأولى منه كلاماً من طراز غير ما اعتادت الكتب أن تحمله من مقدمات ، وعبارات إهداء ، وتحفظات حول حقوق الطبع والنشر .

أما عنوان الكتاب فهو « معلقة الأرز » ، ويحتوى على قصيدة تائية ذات مائتين وواحد وأربعين بيتاً ؛ وتليها قصيدة من شعر الحنين إلى الوطن . وأما صاحب الكتاب فشاعر من قرية « جديتّا » بلبنان اسمه نعمه قازان ، يقيم فى ريودى جانيرو بالبرازيل ، حيث يملك مع نسيبه سليم رزق مصنعاً كبيراً للأحذية ، ولكنه لا ينفق فى العناية به إلا بعض ما ينفق فى العناية بالشعر وفى رياضة نفسه على عَمل الخير ، وعلى محبة الآخرين ، كما يظهر ذلك جليًّا فى شعره .

قلت إن لهجة الصفحات الأولى من كتابه جديدة وطريفة ، فالإهداء أنشودة

زجلية ، أغلبها مكتوب بلغة لبنان الدارجة ، وأقلها بالفصحى . وفى الصفحات التالية نجد أن ربع الكتاب « موقوف على الفقراء والمحتاجين » وأما ثمن النسخة ف . . « قدر عطفك على الفقير ، ولفلس الأرملة قيمة عند الله » وأما حقوق الطبع والنشر ف . . « مسموح بها لكل مؤسسة خيرية فى الوطن والمهجر ، حتى سنة ١٩٥٠ » . ثم تأتى المقدمة ، فإذا هى مجموعة خواطر تتألف منها عظة فى التسامى الروحى ، وصلاة مؤمنة بالله وبالإنسان وبالحياة .

هكذا نرى نعمه قازان ينحو فى أدبه منحى جديداً ؛ فهو شاعر يفهم رسالة الشعر الروحية ، وهو إنسان يحب الخير للبشرية ، ولا يجد مسوّغاً لفصل الشعر عن الإيمان بالله وبالإنسان وإحكام الصلة بينهما . فهو يقول فى إحدى قصائده تحت عنوان « الحل الأخير » .

كلّ شعر دِينٌ بغير حـــدودِ   فإذا حُدَّ فهو ديــن العبيــدِ
كلّ ديــن لله ، والله حــبٌّ   فإذا الحب ضـــاق بالمبغضينا
ليس حبًّا ، كلا ولا الدين دينـــا

وهذا القول يذكرنا بتعاليم ميخائيل نعيمه فى كتابه « زاد المعاد » خاصة ، كقوله : « إنكم إن أحببتم كل ما فى الكون إلا دودة واحدة فسيبقى لكم فى كرهكم ينبوع ألم ، ولن ينضب هذا الينبوع حتى ينضب كرهكم » .

وقازان لا يكتم تأثره بجبران ونعيمه ، فهو فى معلقته يذكر أن جبران هو أول أديب عربى فهم رسالة الأدب فحملها بجرأة وإخلاص ، وأما عن نعيمه فيذكر أنه الدرة الوحيدة التى وجدها فى بحور الأدب العربى ، التى غاص فيها إلى قعرها بحثاً عن الله . والذى يقرأ قصيدة قازان التى يقول فيها :

مـــن ورائى الأزلْ   وأمـــامى الأبـــدْ
فامسحـــى باليقـــينْ   عـــن عيـــونى الرّمـدْ
إنـــنى فى الوجـــودْ   روحُـــــه والجسدْ
مؤمنٌ بالنعـيمْ
كافرٌ بالجحيمْ

أعـــزلٌ إنّمـــا لست أخشى أحـــدْ
مِـــن ورائى الأزلْ وأمـــامى الأبـــدْ

إنما يعود بالذاكرة حالا إلى قصيدة لنعيمه عنوانها « الطمأنينة » يقول فيها :

بابُ قلـــبى حَصينْ مـــن صنـــوف الـــكَدَرْ
فاهجمـــى يـــا هُمـــومْ فى المسا والسَّحَـــرْ
وازحـــفى يا نحـــوسْ بالشقـــا والضّجـــرْ
وانـــزلى بالألـــوفْ يـــا خطـــوبَ البشرْ
بـــابُ قلـــبى حصينْ من صنـــوف الـــكدرْ

والذى يراه نعمه قازان هو أن الأدب رسالة قبل كل شىء ، تطهر النفوس من أوضارها وتوجهها نحو إنسانية مثلى لتصل إلى غايتها من الكمال حين تتصل بمصدرها الأعظم : « الله » . وعلى هذا فالأدب هو كل ما يخفف من لوعة ، ويجفف من دمعة ، ويشدد من همة ، ويولد من بهجة . وكل ما عداه ليس أدباً ، ولا قيمة له .

والشاعر الذى يفهم الأدب بهذا الشكل ، إنما يرسم من نفسه صورة من أجمل صور الإنسانية الرحيمة ، والمحبة العظيمة ، والتضحية المتفانية .

أما إنسانيته الرحيمة ، ومحبته العظيمة ، فيدلنا عليهما قوله :

مذ بصقتُ القَذَى الذى فى عيونى أصبح الناسُ كلهم كاملينا

ومحاولته أن يشرح معنى الشعر بقوله :

هو فى النفس أن تضحّى كثيراً وكثيراً حتى تصـــير إلهـــا
كاملا فى محبـــة الأبعدينا

أما حبه للتضحية المتفانية فيدلنا عليه قوله :

ألا فاشربوا الوَحْىَ مـــن جرّتى ولا بأس أن تكسروا جـــرّتى
إذا كان فيهـــا الحيـــاة اشربوا ولا ترفعـــوها على صحّـــتى

والواقع أن الأدب إذا خلا من المعانى الإنسانية التى تقرب الصلة بين أجزاء الوجود كله ، وتحكم رابطة الحب بين أبناء الحياة بأسرهم ، فقد خلا من أجمل

ما فيه – وهو الروح – فالمعانى الإنسانية هى التى تكتب الخلود للأدب لأنها تزوده بمادة الحياة وتقرّبه إلى كل النفوس فى كل زمان ومكان ولسان .

وما دام قازان يفهم الأدب على هذا النحو فلابد لنا من معرفة رأيه فى الأدب العربى كله .

إن قازان ناقم على الأدب العربى ، قديمه وحديثه – إلا أقله – أشد النقمة لجفاف روحه ، وضحولة إحساسه ، ولكثرة ما فيه من معانى الرياء ، والتعاظم ، والنفاق ، والاستجداء ، والشهوانية ، وما إليها من المعانى التى تساعد على قتل الأدب أو انحطاطه . ونقمته هذه تظهر لنا على أشدها فى (معلقة الأرز) خاصة ، وفى روح قصائده الأخرى عامة . ومن أقوال قازان فى التهكم بالأدب اللفظى ، فى إحدى قصائده :

إذا قام شعرٌ بألفاظــــه   تكون القواميس خيرَ الكتبْ

وفى المعلقة :

أقاس النحاةُ حــدود الزمان   ومرمى خيــالى وعقليّــتى
لقــد حددوهــا لأفــكارهم   فضاقت وزمّت على فكـرتى

والحملة على الأدب العربى وانحطاطه تؤلف شطراً من معلقة الأرز ، فى حين يؤلف الإيمان شطرها الثانى . ولشدة نقمته على الأدب اللفظى نسمعه يهتف فى المعلقة مهدداً :

إذا فتـح الله يومــاً عــلىّ   رفعتُ البنــاء على « الكسرة »
فإن كنت نظماً فقــد تكسرونى   وإن كنت شعراً فيا منعــتى

ولابد لنا من أن نذكر أن قازان شديد الإيمان بمبادئه التى يدعو إليها ، جرىء ومخلص فى نشرها ، فلا يبالى أن يغضب الناس من جرأته وإيمانه ، فهو القائل :

وإن تصلبــونى ولى كلمـــة   فلست لأرجــعَ عن كلمتى

ولعل اندفاعه هذا وتصلبه المتطرف هما سبب انسحابه من « العصبة الأندلسية » التى كان عضواً فيها فى بدء الأمر .

ويجدر بنا أن نذكر أيضاً أن لقازان فضلا على عدد من أدباء المهجر ، فقد

مد إلى كثيرين منهم يد المعونة ، ويسر لهم سبيل الظهور بأن طبع عدداً من مؤلفاتهم على نفقته الخاصة . فهو كما يقول توفيق ضعون : « قد هيأ بسخائه السبيل لظهور سواه وتواريه هو » .

وإشارة أخرى لابدّ منها ، وهى أن قازان الشاعر المبدع فى شعره الفصيح ، هو عينه الزجال « فرخ النسر » المبدع فى أزجاله العامية التى تطلّ علينا من حين إلى آخر فى صحف المهجر . وإذا كان (فرخ النسر) لم يجمع أزجاله فى كتاب ، فإن الشاعر نعمه قازان قد أصدر (معلقة الأرز) عام ١٩٣٨ ، وفى عام ١٩٦٤ أصدر (المحراث) ، وهو مجموعة شعرية ضخمة تقع فى ٣٥٤ صفحة من القطع الكبير ، وتشتمل على العديد من شعره الإنسانى والاجتماعى . ومن (المحراث) نعلم أن نعمه قازان قد ولد عام ١٩٠٨ فى جديثا / لبنان ، ودرس فى الكلية الوطنية فى الشويفات ، وتخرّج فيها سنة ١٩٢٦ . وفى خريف ١٩٢٦ هاجر إلى ريودى جانيرو / البرازيل ، وما يزال هناك .

٣٤ – محمود الشريف
وكتابه « ثورة قازان فى معلقة الأرز »

لست أعرف عن محمود شريف أكثر من أنه المصرى الوحيد الذى أعرفه بين أدباء المهجر . وأنه كان يعمل مع الشاعر نعمه قازان وقد تخصص بتمجيده والكتابة حول شعره ونثره ؛ ومن ذلك كتابه هذا « ثورة قازان فى معلقة الأرز » .

وهذا الكتاب يستحق أن نعقد عليه فصلاً طويلا لتحليل آرائه ومناقشتها ؛ فهو ثورة فى كتاب وليس كتاباً فقط كما عهدنا الكتب . هو ثورة تتناول مواضيع الحياة الهامة ولا سيما الأدب والشعر ، لتقلب إيمان الناس التقليدى بهما من إيمان عجوزى منهوك إلى إيمان إنسانى رحيب ، كله شباب وجمال وطلاقة . وهذه الثورة – ثورة شريف ، لا ثورة قازان – لها كثير من الحسنات التى نقف

عندها بإعجاب وبرغبة شديدة فى اقتفائها ، والعمل على نهجها ، على الرغم مما فيها من تطرف ومغالاة لا يخلوان من عيوب غير قليلة أيضاً . ونحن حين نقف عند بعض آراء المؤلف الناثر لمناقشتها ، إنما نفعل ذلك لأن نقاشنا ليس فى موضوع الكتاب وحده ، وإنما هو فى دقائق موضوعات الأدب العربى عامة التى يتناولها الكتاب فى ثورته الساخطة المحرقة .

أقول ثورة ساخطة محرقة ، والمؤلف نفسه يقول إنه ليس ميزاناً ولا شبيهاً بالميزان ، بل هو « أحد فئة ثائرة ، تهدم وتنظف لتبنى » (ص ٩) ، فعبّر بهذه العبارة الواردة فى مقدمة الكتاب عن خلاصة الكتاب كله .

وليست هذه الثورة هى الأولى فى تاريخ الأدب العربى ، ولا سيما فى عصر النهضة هذا ، وإنما هى واحدة من الحركات الانطلاقية المختلفة التى أبى أصحابها الجمود على القديم – مهما سما ذلك القديم – وإنما أرادوا أن تركض أقدامهم حرة طليقة فى مواكب الحياة المتجددة المتطورة دائماً . ولعل أعنف الثورات الأدبية وأبعدها أثراً قبل هذه – وأخصص فأقول فى عصر النهضة هذا – هى ثورة المدرسة المهجرية على أيدى أصحاب الرابطة القلمية ، وعلى الأخص جبران ، وأبى ماضى ، وصاحب « الغربال » ، وكذلك الريحانى ، فهى أبعد الثورات الأدبية أثراً فى حياة الأدب العربى الحديث ، إذ طفرت إلى الأمام طفرة واسعة المدى إلى حيث وصلت بكثير من نتاجه المتحرر إلى مثل سمت أرقى ما فى الآداب الغربية المعاصرة ؛ وكان قبلها يعتمد غالباً على القشور دون اللباب : كان أدب ألفاظ تنمقها التزاويق البديعية والبيانية ، ويجرى على نواميس « الصحراء » المدفونة تحت ركام أكثر من ألف عام من عمر التاريخ ، فإذا به يعتمد على جواهر المعانى والأفكار بدلاً من اعتماده على الأصداف والقشور . وأما ثورة اليوم فيأبى الأستاذ محمود شريف إلا أن ينسبها إلى نعمه قازان صاحب « معلقة الأرز » ، ويظهر نفسه فيها مجرد شارح لهذه الثورة وتلميذ مخلص لها ، متحمس فى تأييدها والدفاع عنها . والذى أراه أنا أن هذا الكتاب الذى ندرسه اليوم كان يصح أن يكون عنوانه : « ثورة محمود شريف فى معلقة قازان » ، وليس « ثورة قازان » نفسه ؛ فقازان إنما هو شاعر منطلق متحرر ، فلك أقدامه وزنوده

من أصفاد الأسر والعبودية ليسير فى أدبه حرًّا طليقاً . وفى تحرره نراه ينتهج فى الشعر أسلوباً هو فى رأيه أصلح الأساليب للحياة . أما الثورة العنيفة فلست أراها صفة له مهما حاول الأستاذ شريف أن يبالغ فى تصويرها ونعته بها .

إذًا فالثائر فى هذا الكتاب هو محمود شريف نفسه ، وثورته تنصب على كلّ شيء ، وتحاول تحطيم كل شيء ، لبناء لغة جديدة وأدب جديد من نوع خاص – كما يريده هو – لأنه يراه أصلح الآداب للحياة ولإنشاء دنيا جديدة تقوم على أسس قومية ودينية وإنسانية جديدة . وهو فى ثورته متطرف إلى أبعد حدود التطرف : لا يؤمن برأى غير ما يراه هو وما يقال إن نعمه قازان يراه معه . وهو مندفع كل الاندفاع ، ومغال كل المغالاة فى تقـــدير مدى ما يسميه « ثورة قازان » .

ونحن نترك الآن « معلقة الأرز » فقد درسناها دراسة مستقلة فى القسم الأول من هذا الكتاب ، ونقصر حديثنا على ثورة شريف فى كتابه الضخم ذى الصفحات الثلثمائة والأربعين من القطع الكبير ، والذى جعل عنوانه ، « ثورة قازان فى معلقة الأرز » ، وطبعه فى المطبعة العربية فى سان باولو فى البرازيل سنة ١٩٤٠ .

وقبل أن أعرض آراء المؤلف التى تستحق التعليق والمناقشة ، أرى أن أشير إلى شيء قليل من حسنات الكتاب . ولعل أعظمها عندى هى جرأة المؤلف فى معالجة موضوعه ، وتعصبه الشديد الواعى للمبدأ الذى يدعو إليه للتحرر من قيود القديم ، وجعل الأدب دعوة إلى الاتحاد بالله ، لأن هذا هو أساس السعادة فى الحياة ؛ فالأديب أو الشاعر هو رسول الحياة ، وهو قائد البشرية – فإذا فسد الملح فبماذا يُملَّح ؟

ومما يلفت الانتباه بنوع خاص تلك الآراء الجريئة والجديرة بالتقدير لما فيها من إخلاص فى التوجيه ، وفى تشخيص الداء ووصف الدواء الناجع ، فى حديث المؤلف على الجهل والجمود : الجهل والجمود فى فهم الدين ، وفى فهم الوطنية ، وفى فهم الأدب . وأخصص فأذكر الصفحات التالية من الكتاب وهى ٤٦ ، ٤٩ ، ٧٥ ، ٧٧ ، ١٣٧ ، وغيرها . وأذكر منها مثالا واحداً لأدلّ على موطن الجرأة الواعية عند المؤلف ، فقد قل فى الصفحة ٤٩ ما يلى : « هى قصة رجل

مسلم أحببته كثيراً واحترمته كثيراً ، أما الآن فقد تحول هذا الحب والاحترام إلى عطف وحنان ، وذلك بعد أن جار علىّ باللوم يزعمنى كتبت ما كتبت لأحط من شأن الشعراء المسلمين لغاية فى نفسى ، وكأنه يرمينى بالكفر لأننى انتقدت الأدب العربى من قمته إلى سفحه ، وكأنه يزعم الأدب العربى ملكاً للإسلام ، وكأنه يعتبر الإسلام لغة وفنًّا ، وكأننى مضطر لمحاباة الأدب المجرم الجاهل لأنه جاء فى لغة القرآن ، وكأن العرب قبل الإسلام كانوا يتكلمون الإنكليزية ، وكأن القرآن فى ذاته لم يكن تجديداً ، وكأنه لم يكن ثورة على الجاهلية لغة وديناً وحكومة ، وكأن الهندى لن يكون مسلماً لجهله لغة القرآن ولو صلى بالهندية » !

فمثل هذه الآراء الجريئة تحتاج إلى من يعيد النظر فى أمرها ، لئلا يظل الجهل والجمود هما عدتنا فى الحياة ، وهما سبيلنا إلى ما نكافح لأجله من حرية ورقى . ويا لخيبتنا وضياعنا إن ظلا كذلك !

وكذلك لا بدّ لى من الإشارة إلى مواضع كثيرة غير هذه ، وُفّق المؤلف فيها توفيقاً كبيراً فى نقده وتوجيهه ، وفى تحليله وتعليله . مثال ذلك تعريفه للشعر والشاعر فى صفحة ٦٤ بقوله : « الشعر عبقرية أو رسالة تولد مع الإنسان ، وتشب وتكبر معه ، حتى إذا نضج طغت على نفسه وقادتها وأنطقتها . . . والشاعر روح قدس ، خلق للإنسانية بلسماً على جرح المظلوم . . . الشاعر هو الحبّ يتكلم . . »

وليس من السهل أن أمضى فى تتبع الحسنات الكثيرة فى هذا الكتاب النفيس الضخم ، لذلك أكتفى منها بما تقدم ، لأتخلص إلى التعليق على بعض ما فى الكتاب من آراء لا أقر صاحبها عليها ، وأتناولها بالرد والتحليل ، لعل فى هذا النقاش توضيحاً وتحديداً يعيّنان السبيل الذى يجب أن ننهجه فى أدبنا الحاضر ، إن كان ذلك فى الإمكان .

وقبل ذلك أود أن أقول إننى مع الأستاذ شريف فى ثورته على الأدب القديم ؛ لأننى أعتقد أن الأدب القديم يعتمد أغلبه على اللغة – ألفاظها وتعابيرها – كشرط أساسى للجودة والقوة . والذى أراه أن « الأدب » شىء ، و « اللغة » شىء آخر ، وبين الاثنين فرق بعيد جدًّا ؛ فالأدب هو رسالة الحياة : الحياة الواسعة الشاملة المتطورة ؛ وليست كذلك اللغة : أى الألفاظ الجوامد ، وإنما هى مجرد وسيلة

تنقل هذه الرسالة ؛ وكل رسالة فى حاجة إلى « ناقلة » للوصول إلى كل فهم وكل ذوق ، يغلب عليها البساطة والرقة والجمال لا الثقل والبلادة والتعقد . ومعنى ذلك أن اللغة التى هى « ناقلة » رسالة الحياة يجب أن تكون من البساطة والسهولة والجمال بحيث تصلح لهذه الرسالة المقدسة .

إلى هنا نحن متفقان ، ولكنا نختلف فى الطريق الذى يجب أن ننهجه إلى « الجديد » الذى نريده . وهذا الاختلاف – الاختلاف فى الطريقة لا فى الجوهر – هو الذى نريد شرحه فى ما يلى :

يقول المؤلف فى صفحة ٢٦ من كتابه : « غسلت ذهنى ، فلا أنا مصرى ولا أنا مسلم . . . وإذا شئت أن تفهمنى أيها القارئ ، فقدّر أننى كنت وأنا أقرأ شعر قازان ميزاناً أو أى شيء آخر حساس ، كالترمومتر ، لا صفة له . . . يقول كلمة الحق عن حالة الجو فى كل زمان ومكان » . فهل فعل محمود ذلك حقًّا ، وهو القائل فى الصفحة ٩ : « لست ميزاناً ، ولا شبيهاً بالميزان . . . » ؟

إن الذى يقرأ الكتاب يرى أن المؤلف لم يكن « ترمومتراً » ولكنه كان متعصباً لقازان أكثر من قازان نفسه ، وأن تعصبه هذا قد دفعه إلى محاولة هدم كل ماعدا معلقة الأرز من شعر ونثر ، ليجعل من شعر قازان « ماء قراحاً وسط صحراء جدباء . . هى الشعر العربى من ألفه إلى يائه » (ص ٢٩) ، وليجعل من معلقة الأرز وحدها « دستوراً للأدب الذى ينبغى أن يكون زاداً للأمة : أهى عربية أم غربية » (ص ١٣) وأيضاً « غاية الغايات فى الأدب القومى العالى » (ص ٤٧) ويقول إنها : « فوق النقد » (ص ١٣٥) ، وإنها « دين جديد اسمه (قرانجيل) – أى قرآن وإنجيل معاً – أو هو جوهر الأديان كلها » (ص ٢٤٤) ، وما إلى هذه الأحكام المطلقة التى أرسلها ، والتى جعل فيها صاحب معلقة الأرز فوق كل من تَقَدَّمه من الشعراء والأدباء . ولم يجد من يستحق الثناء منهم سوى اثنين هما جبران « الفجر » ونعيمه « فجر فى فجر » ، ولكنهما دون قازان أدباً وشاعرية ورسالة ؛ لأن جبران ، فى رأيه قد مهّد للثورة الأدبية الحقة ولكنه لم يجسر على أن يقول كلمته صريحة بل « مات قبل أن يستيقظ . مات قبل أن يحدق فى الشمس كالنبلة » (ص ٢٥٧) ، ونعيمه قد سار فى الطريق نفسه الذى اختطه

جبران وسار عليه قازان ، ولكنه « يلهث من التعب ؛ وينظر تارة إلى البحر الذى انتصر على لجحه ، فيبتسم ويشمخ بأنفه ، وتارة إلى الدنيا الواسعة التى نجا بنفسه إليها فيكتئب ويوجس خيفة أن يكون فيها بحر آخر ينبغى عليه اقتحامه ، أو جبل يجب عليه تسلقه للوصول إلى الغاية . . . أما قازان فهو يسير إلى الأمام غير آبه بما مضى ، سعيداً لكل ما هو آت . . . » (ص ١٣) . وحبذا لو أنه اكتفى بأن يقول فى المعلقة إنها « ثورة جاشت فى صدر شاعر مصلح » (ص ٢٤٥) وهو أصدق وصف لها .

وهو فى سبيل إثبات هذه الآراء المطلقة لا يبالى أن يتصدى للمشهور من الشعر العربى الحديث ، فيفنده ويظهر زيفه ، ثم يقابل بعد ذلك بينه وبين « معلقة الأرز » ليثبت للقراء أنه لا يصل إلى سمتها الأدبى شىء مما كتب قبلها أو بعدها إلى اليوم : فهو يتعرض للملحمة « عبقر » لشفيق المعلوف ، « وبساط الريح » لفوزى المعلوف ، و « الأعاصير » للقروى ، وغيرها لغيرهم ، ثم يخرج منها دائماً بالنتيجة التى يريدها .

وأنا لا أستطيع أن أرى رأيه فى هذا ، ولا أستسيغ هذه البدعة فى النقد ؛ فالنقد فوق الأغراض – مهما تكن نبيلة – وغايته أن يحلل المنقود بدقة وبإخلاص ، ويبرز محاسنه وعيوبه دون تجن ، ودون غاية إلا أن يقول كلمة الحق فى أدب المنقود دون أن يربطه بسواه .

ولست أغض من قيمة « معلقة الأرز » إذا قلت إن الأستاذ محمود شريف قد بالغ كثيراً فى التعصب لها وفى تقديرها . فالواقع أن الثورة فيها – وهى ذات شقين – ليست بدعة مبتكرة ؛ فمؤلفات جبران ونعيمه قد سبقتها إلى كل ما فيها تقريباً : فغربال نعيمه وحده يؤلف شقًّا منها ، هو الشق المختص بالثورة على الأدب واللغة والأساليب الكتابية ، ومؤلفات جبران ونعيمه الباقية تؤلف الشق الثانى الذى يهتم بالروح والرسالة الأدبية . ولكن هذا لا يمنع أن تبقى للمعلقة خصائص أخرى تميّزها ، فكل كتاب لا يمكن أن يخلو من المميزات الخاصة به .

وعدا ذلك نرى أن المؤلف الفاضل إنما يريد بكتابه هذا أن يفرض على الناس لوناً جديداً من الأدب هو اللون الذى يريده هو وحده ؛ وفى هذا تجنٍّ كثير على

الناس وعلى الأدب ؛ فكما أنه لا يصح للإنسان – مهما سما غرضه – أن يفرض على البشرية كلها لوناً واحداً من الحياة ، كذلك لا يصح لناقد – مهما سما غرضه أيضاً – أن يفرض على البشرية كلها لوناً واحداً من الأدب ؛ لأن الأدب هو صورة الحياة ، وبقدر ما تتنوع ألوانها ، كذلك تتنوع ألوانه ؛ وكما تتسع الحياة لأصوات الشلالات والجداول ، والعنادل والغربان ، والديكة والضفادع ، وغيرها جميعاً ، هكذا يكون فيها مجال واسع لأصوات فوزى المعلوف ، ونعمه قازان ، وجبران ، والقروى ، وشفيق المعلوف ، ونعيمه ، وغيرهم جميعاً ؛ وتآلف هذه الأصوات كلها فى الحياة يشبه تآلف ألحان الحياة والطبيعة أنفسهما ، ففيه جمال ، وفيه متعة ، وفيه سمو ؛ والحياة وحدها هى الناقد الأعظم الذى له وحده الحكم الأخير الفاصل فى اختيار أصلح هذه الأصوات للبقاء .

واللون الأدبى الذى يريد المؤلف فرضه على البشر هو الأدب الذى يدعو إلى الفضيلة ، وإلى معرفة الله : « فمن عرف الله ، ودعا له الناس ، فهو شاعر » (ص ٥٥) . ونحن نرى أن فى هذا اللون وحده سجناً شديد الضيق للأدب : فالأدب يجب أن تكون الحياة كلها جوًّا له ، يبسط فيه جناحيه ، وينطلق فى آفاقه كافة بكل حرية ، فلا تردعه قمة ، ولا تعوقه ريح ، ولا تحده حدود ؛ فإذا تقيد الأدب بأى الحدود فَقَدَ الكثير من مزاياه ومن جماله .

أقول هذا ، وأزيد عليه أن الأدب شىء والرسالة الأخلاقية والدينية وحدها شىء آخر ؛ فهذه محدودة ضيقة ، وذلك لا حدود له .

وشىء آخر ، فالأستاذ المؤلف ناقم كل النقمة على الأدب القديم كله ، يريد أن يحرقه كله ، فلا يبقى على شىء منه لأنه ليس فيه – على رأيه – شىء يصلح للحياة . وهو يرى أن « المكتبة الشعرية القديمة أمٌّ بلغت من العمر عتيًّا وماتت ، وها هو ذا يقبرها بكل احترام وإجلال » (ص ٣٥) . وأنا أرى فى هذا كثيراً من المغالاة ، فما كل القديم غير صالح ، ولا كله يستحق أن يقبر ؛ فلسنا نعدم فيه كثيراً من النفحات العبقرية ، التى ستظل جديدة مع الجديد نفسه ، بألفاظها ، وأوزانها ، ومعانيها ، لأنها تتحلى بكل الصفات التى يجب أن يتحلى بها الأدب الجديد . غير أن ما قاله الأستاذ شريف ينطبق على القسم الأكبر

من الشعر القديم ، وعلى هذا يكون فيما قاله الأستاذ كثير من الصواب ولكن ليس فيه كل الصواب . وكذلك أرى كثيراً من الصحة فى ما قاله أيضاً الأستاذ سعيد عقل فى مقدمة « بنت يفتاح » من أن الأدب العربى القديم إنما يستند فى بقائه على قدمه وحده وليس على صلاحيته للبقاء . وهذه الحقيقة المرة تستوجب الأسف الشديد .

وفى الصفحة ٤٥ يقول الأستاذ شريف : « نحن أمة أغلبها جاهل ؛ فلماذا يظل بعضنا المتعلم فى عزلة عن الجهلاء لا ينتفعون بعلمه وبفضله ؟ ولماذا نظل هكذا ككهنة عين شمس : علومنا ألغاز وأفكارنا معميات ؟ » . وهذا صحيح كل الصحة ، ولكن العلاج الذى يصفه الأستاذ فيه ما يستحق منه إعادة النظر ؛ فهو يجيب عن سؤاله بقوله : « أنا أعرف أن من الصعب النزول إلى العامية ، وأصعب منه على العامة الصعود إلى الفصحى ؛ فماذا علينا إذا تنازلنا عن القيود اللغوية والألفاظ والتعابير الفصيحة إلى أقرب وضع للعامية » ؟ فى هذا العلاج بعد عن الحقيقة ، وغلو شديد فى التفريط باللغة . ومن الغريب أن نداوى كثرة الجهل بالتضحية التامة باللغة والإبقاء التام على الجهل !

إننا مع الأستاذ شريف فى أن اللغة يجب أن تساير العصر فى ألفاظها وتعابيرها ، ولكن لا على الشكل الذى تهبط فيه إلى أقرب وضع للعامية بعد أن تتخلى عن أكثر مزاياها : فعدا أن فى هذاإبقاء على الجهل ، فإن فى القضاء على الفصحى إلى الحد الذى يريده الأستاذ قضاء على القومية العربية ؛ فالفصحى هى الرابطة الوحيدة التى تشعر العرب حيثما كانوا برابطة القومية ، ولولاها لتفرق العرب طوائف ومللا لا تقع تحت حصر بسبب تعدد لهجاتهم التى تتطلب – لو أخذنا برأى الأستاذ شريف – أن تجاريها الفصحى جميعا ، فيصبح لكل لهجة منها لغة فصحى قريبة منها وخاصة بها .

وحتى هذا لا يرى الأستاذ فيه أمراً له أهميته ، فهو يقول فى الصفحة ١٥٤ : « لك أن تجعل من لغة الكتاب وحدة ، ولى أن أذكرك بأن تلك الوحدة سائرة إلى التفكك شيئاً فشيئاً . . . لأن العامية طغت على الفصحى . . . وهكذا يكون عامى

اليوم فصيح الغد ، وهكذا يخلق الله ما أو من يضبط العامية ويجعلها لغة فصحى مستقلة بذاتها فى كل من بلاد الضاد » .

إن فى هذا تشاؤماً غير محدود المدى ، وإفراطاً ممعناً فى التعصب لفكرة الهدم فى سبيل البناء . فنحن حين نصل إلى مثل هذا الحد سنكون أعجوبة بين الأمم ، ويكون أدبنا أعجوبة بين الآداب : وما ظنّك بأدب أمة يكتب بألف لهجة عامية لا رابطة بينها ولا تجمعها وحدة ؟ إن هذا الهدم لا بناء بعده ؛ وهو هدم يتبعه هدم شنيع من نوع آخر ، هو هدم القومية العربية من أساسها ، والعياذ بالله ! ولذلك أستبعد كثيراً أن نصل إلى مثل هذا التفكك الذى يصوره محمود شريف مهما غالى المجددون فى التعصب لفكرة الهدم فى سبيل التجديد . ومن العبث الشديد أن لا نبالغ فى المحافظة على قوميتنا العربية ، فنحن من دونها لا يمكن أن نكون أمة . وأقوى روابط هذه القومية هى اللغة الموحدة التى تجمع بين كل الأقطار العربية .

والوسيلة الوحيدة للقضاء على فوضى الجهل عندنا هى ، فى رأينا ، تعليم العامة اللغة الفصحى التى تناسب العصر ، وليست القضاء على الفصحى للإبقاء على الجهل والعامية .

بقيت هناك أشياء تستحق التعليق والمناقشة ، ولكنها خاصة وليست عامة ، فهى تتعلق بإبداء الرأى الشخصى فى انتقادات شخصية ، مثل آراء المؤلف فى بعض الشعراء الذين ذكرهم فى كتابه : كالقروى ، وفوزى المعلوف ، وإلياس أبى شبكة وغيرهم ، فإن رأيى فيهم يخالف رأيه . . .

٣٥ – الشاعر فيليب لطف الله
من جامعة القلم

من بلدة بسكنتا ، التى ظهر منها ميخائيل نعيمه ، ورشيد أيوب . ولد هناك سنة ١٨٩٧ ، ودرس فى مدارسها الابتدائية ، وألم بشيء من الفرنسية والإنكليزية . وفى عام ١٩٢٠ هاجر إلى البرازيل . وهناك عمل مع أخيه سليم لطف الله فى التجارة . وكان سليم قد سبقه إلى الهجرة منذ عام ١٩١١ . ثم استقل فيليب بإنشاء مصنع لعلب الكرتون . وعاد عام ١٩٣٠ فحوّل مصنع الكرتون إلى مصنع للنسيج الحريرى لم يلبث أن أصبح من المصانع الكبرى . وبعد سنوات عاد فحوّل مصنع النسيج الحريرى إلى مصنع لحياكة القطن والصوف . واتسعت ثروته ومصانعه ، فأنشأ شركة للبناء وبيع الأراضى تعتبر الأولى فى سان باولو . وتزوّج فيليب ، وأصبح ربّ أسرة كبيرة تتألف الآن من خمسة أبناء ، كلّهم يحملون شهادات عالية ، وقرابة عشرين حفيداً وحفيدة .

ولم تصرفه التجارة والأعمال الواسعة والثروة الطائلة عن ممارسة الكتابة نثراً وشعراً وزجلاً ، وظهرت قصائده وأزجاله ومقالاته فى صحف المهجر الكبرى ، كالعصبة ، والشرق ، والمراحل ، وغيرها ؛ وتناقلت بعضها صحف الوطن . وعرف فيليب لطف الله كذلك بسخائه على الأدب والأدباء ، وعلى المشاريع الخيرية التى تنفع بلده . ومن ذلك ما جاء فى مجلة (المراحل) التى تصدر فى سان باولو (العدد ٢١٥ ، السنة ١٩ – تموز ١٩٧٤) من أن فيليب قد استعدّ مع نفر من أبناء بسكنتا فى البرازيل للتبرع بمبلغ من المال فى سبيل مشروع يعود على قريتهم بالخير الكبير . وفى تلك المناسبة اقترح ميخائيل نعيمه أن يشمل المشروع « مكتبة عامة وغرفة مطالعة ، وقاعة للسينما والتليفزيون والمحاضرات تتسع لخمسمائة كرسى ، وقاعة للألعاب ، تقوم كلها فى وسط حديقة من العشب الأخضر والأزهار المختلفة ، وتتّسع أرضه لبعض الملاعب الحديثة ؛ لكى يخلق من بسكنتا مدينة حديثة نموذجية فى لبنان » .

وفى البرازيل اشترك فيليب فى عدد من الجمعيات والهيئات الثقافية والرياضية ؛ فكان رئيساً لنادى جبل لبنان الرياضى ، ورئيساً للجمعية الثقافية العربية ، وأخيراً رئيساً لجامعة القلم .

أصدر فيليب بالعربية كتاباً عنوانه (نسمات برازيلية) يضمّ ترجمات من شعر عدد من كبار شعراء اللغتين الإسبانية والبرتغالية ؛ وكتاباً باللغة البرتغالية عنوانه (نسمات لبنانية) .

وفى عام ١٩٧٠ ، وبعد هجرة خمسين سنة ، عاد فيليب لزيارة لبنان ، وقضاء صيفية جميلة فى ضيعته الجميلة بسكنتا وغيرها من المصائف اللبنانية ، وحمل معه مخطوطة شعرية طبعها فى لبنان ، وجعل عنوانها (نسمات الجبل) ، وهو الجزء الثانى من ديوانه . وكان الجزء الأول يحمل العنوان عينه ، وقد صدر من قبل فى البرازيل .

ولقد سبق أن قدّمنا شيئاً من زجله ، وفى ما يلى نقدّم شيئاً من شعره .

يقول فى قصيدة غزلية عنوانها (ذكريات) :

هـــل تذكرين لقـــاءنا عبر السنين   أيامَ بـــــدرى كان من نور الجبينْ

والحبُّ تقذفنا دروبُهْ

والشوق يلفحنا لهيبُهْ

والليل لا زهـــرٌ وأشباحٌ مخيفــه   ويلفّنـــا بعباءة الحب اللطيفــه

وتضمّنـــا أيدى الهـــوى متعانقين   وأهيم بين الناهـــدين النـــافرينْ

* * *

ويقول فى المشيب والهرم ، من قصيدة بعنوان (الهرم) :

جاء المشيب يحاكى الثلج منتشراً   على الجبال ، وبردُ العزم والهمَم

والعقل ما زال بالآمال منطلقـــاً   نحو الكمال ، وأضحى الجسمُ فى نعم

يا ضيعة العمـــر فى جسم تُرقّعُــه   وضيعة العقل فى واهٍ من الهَــرَمِ !

٣٦ – الشاعر برنردُس القِزّى
البرازيل

عرفتُ برنردس القزّى الشاعر عن طريق مجلة (المراحل) بشكل خاص ؛ فقد كنتُ أجده فى القسم الأكبر من أعدادها ، إن لم أقل فى كلّ عدد منها تقريباً . ثم ظهر عام ١٩٧٣ ديوانه (أطايب شعرية) ليكرّس له مكاناً فى أدب المهجر الجنوبى .

لستُ أعرف شيئاً عن حياة القزى ، ولا من أين هاجر إلى البرازيل ، ولا متى كانت هجرته . والذى يهمّنى ههنا أن أفرد له صفحة من هذا الكتاب الذى يؤرخ حركة الأدب فى ديار الهجرة الأميركية منذ نشأتها إلى اليوم . ومن حق القزّى أن يكون له مكان فى هذا الكتاب ، لأنه شارك منذ أكثر من عشرين سنة فى حركة الأدب المهجرى ، وممّن لهم الفضل فى استمرار حياة الحرف العربى فى المهاجر الجنوبية إلى اليوم . وديوانه الوحيد ، الذى استطعتُ أن أطلع عليه بفضل الصديق الشاعر السورى وجيه وهبه الخورى ، يقدّم لنا مادة الدراسة السريعة .

ومنذ البداية أقول إن شعر القزى – مثل شعر فيليب لطف الله ، ونبيه سلامه ، وغيرهما من شعراء المهجر الأحياء ، غير المؤسسين – لا يمثّل الشعر المهجرى فى زهوته ، ولكنه يقف بين أجود ما بقى منه إلى اليوم . وهو لم يقدّم – وليس فى مقدوره أن يقدّم – جديداً فى الشكل والمضمون ، لأن زهوة الأدب المهجرى الأولى ذهبت ، وذهبت معها جدته فى الشكل والمضمون ، لتباعد الزمن ، ولأن الجديد فى المشرق سبق الجديد فى ديار الهجرة ، بكثرة الدم الجديد الذى يجرى فى عروقه ، ويظلّ يجدّد شبابه ، وعدم تجدد الدم فى عروق الأدب المهجرى بأجيال جديدة من الشعراء والأدباء الطموحين ويتلخّص كلّ فضل الأحياء من أدباء المهجر وشعرائه اليوم فى إبقاء الحرف العربى حيًّا فى تلك الدنيا البعيدة .

يتميّز شعر القزى بكثرة الغزل فيه ؛ فأغلبه من شعر الهوى والجمال . من ذلك قوله فى قصيدة عنوانها « غيرة » :

ردّى أزاهـــير الــربى　　عن ثغـــرك المتنعّمِ
إنى أغـــار من الأزاهر　　أن تُقَبَّـــلَ بالفَم
صـــدقوا وقـــد قالوا بأنـ　　ـك روضـــةٌ لم تُغنم
والروضُ أجمـــل ما يكو　　ن بزهـــره المتبسّمِ
لكننى لا ، لست أرضى　　فـــوق ثغـــرك يرتمى
حتى العبير من الزهـــور　　لَثَمتِ أم لم تلثمـــى !

وقوله بعنوان « حنين » :

رأتنى أقلّب فى وجههـــــا　　لحاظ التشـــوّق والغـــيرةِ
فقالت : تمنّ ؟ أجبت : أجل　　حنين العبـــير إلى الزهـــرة !

وتكاد لا تجد معنى طرقه الشعر المهجرى من قبل إلاّ وله صدى فى شعر القزى : الوطنية ، والحنين ، والإنسانية ، والطبيعة ؛ حتى شعر المناسبات والإخوانيات سجّله القزى فى ديوانه .

ومن قصائده الإنسانية قصيـــدة قصيرة عنوانهـــا (عطاء) ذات خمسة أبيات هى :

وتبسّطت لى كفّـــــه　　ترجو من الإحسان شَىْ
فوقفتُ محـــزوناً أقـــول　　وناظـــراه بنـــاظِرَى :
أأخى ، رجوتك ، ليس لى　　مال ، فلا تعتب علىْ
فأجابنى : شكراً ، لقـــــد　　أعطيت ما لم يُعطِ حَىْ
يكفيـــك أن ناديتـــى　　– وأنا الفقير – بيا أُخَىْ !

ويناجى القزى فراشة فى قصيدة له عنوانها « لماذا تحترق » ، فيذكّرنا بنجوى أبى ماضى للفراشة ، مع الفارق الكبير بين خيال الشاعرين وبين أسلوبهما الشعرى .
ويبدأ القزى قصيدته بالتساؤل عن السبب فى تهافت الفراشة على الاحتراق بالمصباح ، فيقول :

ما للفراشة فى المصبـــاح تحترق ؟　　هل صُوّح الحقلُ : لا زهرٌ ولا عَبَقُ ؟ !
ولا جداول فى الأرياف تغـــدُ لها　　مِلءَ الجناحين ، تطفو ثم تنزلق ؟ !
هل غار كلّ نعيم فى الوجود ، فلا　　وهجٌ يلوّن بنت الحقل أو شفَقُ ؟ !

ثم يجيب عن تساؤلاته جواباً يرسمه خيال الشاعر ، وليس الحقيقة ؟ فيقول

لا ، لا ؛ هنالك مصباح على ألقٍ فوق الدياجى ، وكم يحلو لها الألقُ
فآثرتــه على ليـــل تعيش بــه غمًّا ، فهبّت إلى المصباح تحترقُ

ثم يخاطب الفراشة فيقول مُقارناً بينها وبينه :

إنى لصنــوك يا شقــراء فى أفق محيّر اللون ، لا فجرٌ ولا غَسَقُ
ولا رياضٌ على عينىّ زاهيـــــةٌ ولا سواقىَ بين الروض تنــدفقُ
لا تحسدينى إذا ما كان بى رمــقٌ وأنت بُقيــا رمادٍ ما به رمــقُ
ليس الذى تحرق الأنوار مهجتــه مثل الذى فى ظلام الليل يختنقُ !

* * *

لقد ضمّ ديوان (أطايب شعرية) ١٢٩ قصيدة ، القسم الأكبر منها خطوات قصيرة جدًّا ، تتراوح ما بين البيتين والأربعة الأبيات ؛ وتتنوّع موضوعات هذه القصائد التى تجتمع فى ١٢٠ صفحة من القطع المتوسط . وقد طبع الديوان فى مطبعة المراحل فى سان باولو ، بمساعدة الشاعر الثرىّ المعروف فيليب لطف الله .

٣٧ – نبيه سلامه

من جامعة القلم (١)

على ضفة العاصى ولد نبيه سلامه عام ١٩٠٨ فى مدينة حمص ، التى ولد فيها كذلك أدباء وشعراء عديدون ممن عرفتهم المهاجر الأمريكية وتغنىّ بشعرهم الشرق والمهاجر ، والذين برز منهم نسيب عريضة ، وعبد المسيح حداد وندرة حداد – من أعضاء الرابطة القلمية فى نيويورك – وميشال مغربى ، وسلوى سلامة أطلس ، وحسنى غراب ، وأخوه مدحت غراب – فى المهجر الجنوبى ، فى البرازيل – .

---

(١) أودّ أن أتقدم بالشكر العميق لأخى الكبير الأستاذ الشاعر وجيه وهبه خورى ، صديق نبيه سلامة وزميل صباه فى حمص ، فقد تفضّل وبعث إلىّ من دمشق بحزمة أوراق بخط يد صديقه نبيه دوّن فيها سيرة حياته ؛ كما تفضل بإهداء ديوان نبيه (أوتار القلوب) إلىّ ، فأعاننى على كتابة هذه الكلمة ، ولولا فضله ما استطعت كتابتها

لم يستطع دخول المدرسة إلاّ فى عام ١٩١٩ ، وكان عمره إحدى عشرة سنة . وكان ذلك لأن الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ كان من جرائها إغلاق المدارس ، وإشاعة الفقر والمجاعة . وقد اضطر نبيه إلى الخدمة منذ أن كان فى الثامنة من عمره ، وكان أصغر إخوته السبعة ، وقد سافر أخوه الأكبر عارف إلى الحرب ، وظلّت الأسرة بعده دون عائل . وبعد الحرب هاجر خمسة من إخوته ، أما هو فقد دخل المدرسة . ورعاه المعلّم حنا جناز فى المدرسة الإنجيلية .

لم تزد دراسة نبيه على خمس سنوات – كما يقول فى مذكراته المخطوطة – ولكنه اعتمد على المطالعة ، وأخذ يكتب وينظم الشعر وهو دون الخامسة عشرة من عمره ؛ وشرع ينشر كتاباته فى جريدة (حمص) وجريدة (صدى سورية) .

اشتغل معلماً فى عدد من المدن السورية . وفى عام ١٩٣٥ غادرسوريا مهاجراً إلى البرازيل ملتحقاً بأمه وإخوته . وعمل هناك فى الصحافة حتّى عام ١٩٤٠ ، ثم انصرف إلى التجارة ؛ ولكنّ الحظ عاكسه ، فالتهمت النيران متجره ؛ فضاقت به الدنيا . فهجر سان باولو إلى بلدة بعيدة فى داخلية البرازيل . ولم يعد إلى سان باولو إلاّ عام ١٩٦٧ ؛ وعمل هناك محرراً فى مجلّة (المراحل) ، وراح من هناك يراسل جريدة (حمص) فى مسقط رأسه .

وأصدر نبيه فى المهجر ديواناً شعريًّا واحداً دعاه (أوتار القلوب) ، وجمع فيه العديد من القصائد المتنوّعة التى نظمها فى ديار الاغتراب ؛ وقسم كبير منها فى الحنين ، والوطنية .

فى عام ١٩٧١ عاد نبيه سلامة لزيارة الوطن الذى اغترب عنه ستة وثلاثين عاماً . وبعد عودته إلى البرازيل أصدر ديوانه الشعرى المذكور .

لقد أثرت حياته على شعره ، فظهرت هذه الآثار جليّة فى بعض قصائده . ومن ذلك أن إخفاقه فى العمل التجارى ، ونجاح الكثيرين غيره ووصولهم إلى الثراء ، جعله يتساءل عن السرّ فى ذلك . فقال :

هل الطريق التى أجتــاز شائكةٌ   أم الدليل الذى استخلصته خَدَعا ؟
هذى سفائنهم تختــال مشرعــةً   أمّا شراعى فأذراه الهوى قِطعــا !

* * *

ويقول أيضاً معبراً عن آلام الاغتراب ، والحنين إلى الوطن :

شطرتُ عمرى إلى ماضٍ ومغتربٍ : فذاك حىٌّ ، وهــذا يضمحلّ سُدَى
لى بالعروبة إيمــان أصبــح به ولى فؤاد سوى الأوطان ما عبــدا

* * *

وفى قصيدته الطويلة ذات الأناشيد المتعددة بعنوان (ذكرى حمص) يعبرّ عن حنينه إلى مسقط رأسه ، وإلى ذكرياته البعيدة ، ورفاق صباه وشبابه الأول فيقول :

تباركت يا حمص بين البــلاد وأمرع روضك طول المــدى
حملنــا خيالك بين الضلوع وما ظلّ من يحمل الفرقــدا
كأنَّ المهَاجــرَ حمصٌ تسيرُ وتنشر من حــولها السؤددا
معاذ الهوى أن يُضِلّ البعــادُ بنين يُحلّــونك الأكبــدا !

* * *

إذا ما ذكرت غــوانى حمصٍ فقــد قلت للطُهر أن ينحنى
حسانٌ يطيب بهنّ الربيــع ويلمع نجم الدجى الأدكنِ
ترفّ عليهنّ شمس الضحى وترتدّ من حسنهنّ الســنيِ

* * *

ويتذكر خمائل (الميماس) وشلاّل (الدوير) ، فيهتف :

خمائل وشّى الإله حلاهــا فراحت تشدّ إليهــا النظــرْ
يرفّ عليهــا الفراش اللعوب ليأخــذ عنهــا بديع الصــوَرْ
وتنشد فوق الغصون الطيــور فيصغى المغنىّ ويهفــو الوتَرْ
تَجاوَبُ ألحانهــا فى الرياض فتحسبُ عرساً بأعلى الشجــرْ
ويعبث فيهــا النسيم الرفيق فينشر من طيبهــا ما استتر

* * *

ونهــرٍ تململ فى جنبهــا يروّيه بالأدمــع الطاهــره
كصبٍ يهمّ ببــاب الحبيب وتمسكه الصرخة الزاجــره
فلمّا تعــذّر نيــل الوصال تطوّح فى الهــوّة الفاغــره

وراح يقارع صلد الصخـــور   بنفس مـــــربدة ثائـــره
وتلك الصخور على صمتهـــا   تــــرد كتـــائبه خاسره

* * *

وفى قصيدته (قلبُ القلب) يهتف فى حنين وحرقة :

فى دوحة المياس خلّفتُ الصبى   ومضى الشباب ولم أزل متطلّعا
أغـــدو وأمسى حالمـــاً برياضها   يا من يردّ على الظماء المرتعا ! !

* * *

أما صور الشقاء التى رافقت إخفاقه فى حياة العمل التجارى ، والتى ألجأته إلى الهرب من سان باولو إلى بلدة تبعد عنها مسافة ٧٠٠ كيلومتر ، ليعيش هناك عشرين سنة بعيداً عن الأصدقاء وعن اللسان العربى : فهذه صورة منها فى مطوّلته الأخرى ، ذات الأناشيد المتعددة (غريب مرّتين) :

إذا جنَّ الظلام وحـــان ليلى   أخذت دخينتى ومـــلأت كأسى
أعاف الناس ، لا أبغى سميراً   سوى هاتين ، من جنٍّ وإنسِ
فأنشقهـــا مشعشعة بنـــارٍ   وأبعثهـــا مضرّجة ببـــؤسى
نفرتُ من النهار إلى الدياجى   فأصبحُ عنـــدما الأحيـــاء تمسى
أغالب ثورة الأنواء وحـــدى   كأن سفينتى تجـــرى لتعسى
فلا الأرياح حاجبةٌ أذاهـــا   ولا الميـنـــاء دانيـــةٌ فترسى
أعيش مع الأناس ولستُ منهم   كأنى قد أذنت لهم بحبسى
وما تحلو السجـــون لساكنيها   ولو فُرشتْ بأنواع الدمقس !
مغـــانى العـــرب مالكةٌ حنينى   وسان باولو تضمّ رفاق أنسى
غريب مرّتين ؛ ومن يقـــاسى   أذاة الهجـــرتين حليفُ مَسّ
تقضّت ميعة الدنيـــا عـــذاباً   فهل بعـــد الكهولةِ من تأسٍّ !
أودّ لقـــاء من أهـــوى بعينى   مللتُ لقـــاء خلاّنى بِطـــرسِ !

* * *

٣٨ – الشاعر يوسف الفاخورى

فى عام ١٩٦٨ غاب فى البرازيل وجه من الوجوه الشعرية التى طالما غرّدت فى ذلك المهجر الجنوبى ، وحملت إلينا مجلة (المراحل) ، بشكل خاص ، الكثير من أغاريده ، كما حملتها صحف المهجر الأخرى . وكان ذلك الوجه وجه الشاعر يوسف الفاخورى : وكان من المهاجرين الذين لم يُلههم الغنى الوافر ، ولا شغلتهم الأعمال التجارية الواسعة الناجحة عن الصداح ، وعن اللجوء إلى مداعبة أوتار الشعر ، ومغازلة ربّاته وشياطينه .

وفى غربته التى طالت نحو ٣٦ سنة ، ظلّ يوسف الفاخورى يحمل فى نفسه كآبة الغربة ، ولوعة الحنين إلى لبنان ؛ وكآبته الملازمة نجدها فى شعره الذى جمعه فى ديوان دعاه (نوى) ، صدر فى البرازيل قبل وفاته بسنوات قلائل . والعنوان نفسه معنى كبير من معانى الكآبة والحنين .

وهذا الحنين أمر طبيعى لمن غادر الوطن يافعاً ، مثل الفاخورى ، وعاش فى الغربة عشرات السنين ، بعيداً عن الأهل ، وعن الأحبة ، وعن موطن الذكريات الحلوة . وليس غريباً لذلك أن نسمع الشاعر يهتف بحرقة ولوعة :

أرز لبنان ، يعلم الله أنّـــا   ما برحنا على العهــود الأَوالى
علَّلتنــا النوى بنيــل الأمانى   والتعلاّتُ من هــزيل المقـــال
قد حملناك فى القلــوب وسرنا   فى ميادينهـــا الصعاب الطوال

كان الفاخورى بين كبار الأثرياء العرب فى البرازيل ؛ فقد كان يدير مصرفاً كبيراً ناجحاً ، ومعامل للنسيج أنشأها بكدّه وعرقه ، ويبنى عمارات كبيرة متعددة للإيجار . فكان فى عمله ناجحاً جدًّا ؛ وكان إلى جانب نجاحه فى العمل وثرائه سخىّ الكفّ ، ندىّ القلب ، كريم الإحساس مع الآخرين . ومن دفء شعوره الحادب الحانى يقول فى إحدى قصائده الجميلة الرقيقة :

أيهـــا الدهــر ، أعدنى زهرةً   تغمـر السهل شــذاً والجبـــلا
وعلى هام الذرى أغنيــــةً   تُرقص النسر وتُحيي الجنــدلا

وعلى الظُلم أحِلْنِي عاصفـاً وعلى الجرح المدمّى سلسلا
وعلى الفقـر أقمني ثـورةً وعلى الجهـل كتاباً منـزلا

وبين العمل الجاهد الدائب ، والحنين اللاعج إلى الوطن ، يتدفق حنين آخر إلى الأيام التى تمضى مسرعة ، وتقرّب بسرعتها الشيخوخة. فيقول الشاعر فى ذلك من القصيدة عينها :

سلبَ الدهر من العمـر الصبا ومن الزهر استردّ الأجملا
ومن الكـأس التى أرشفهـا أفرغَ الخمـر وخلّى التفَلا
إنها الدنيا ، فخذها منحـةً فمن الحكمة أن لا تغفلا
وأنـا البـاكى على أيامـه يعصر الروح فيجنى الحنظلا
أعطنى المـاضى وتذكاراتـه وخـذ الحاضر والمستقبلا !

والماضى وتذكاراته هى الوطن ، وهى الصبي ، وهى أيام الهوى الحلوة على شواطئ لبنان ، وفى ظلال صنوبره وسروه ، وعند بُخار أوديته المتصاعد نحو القمم الشوامخ ؛ وهى أيضاً أيام اللهو والعبث واللامسئولية .

لقد كان فى شعر الفاخورى رقة ولطف وعذوبة ، وكان فيه خيال جميل ، وحسّ مرهف أنيق .

٣٩ – الشقيقان الشاعران

إلياس قنصل وزكى قنصل

ليس من الممكن أن يتحدث المرء عن أدب المهجر الجنوبى ولا يتحدث عن الأخوين الشاعرين إلياس وزكى قنصل ، وهما أبرز أدباء العرب فى الأرجنتين ، وأبعدهم فى حلبة الأدب صيتاً ، وأجودهم أدباً وشاعرية . ولم يكن العمل للارتزاق فى ديار الهجرة ليلهيهما عن النظم والتأليف ، وعن نشر القصائد والمقالات فى كثير من جرائد المهجر ومجلاته ، وفى صحف الوطن فى بعض الأحيان .

وفى ما يلى نتحدث على كل من هذين الأخوين الأديبين على حدة :

٤٠ – إلياس قنصل

كتبت مرة إلى إلياس قنصل – عام ١٩٥١ – أرجو أن يبعث إلى بشيء من ترجمة حياته ، ومؤلفاته المطبوعة . فكتب إلى رسالة تاريخها ١٨ / ٧ / ١٩٥١ يقول فيها ما يلى :

« رأيت النور فى مدينة يبرود – سوريا – منذ أربعين سنة أو أقل قليلا ، حيث لبثت ثلاثة أعوام فقط ، وانتقل بى والدى إلى العالم الجديد ، ولا أزال .

أصدرت مجلة « المناهل » ، ثم حجبتها لدواع صحية .

توليت رئاسة تحرير « الجريدة السورية اللبنانية » سبعة أعوام » .

وبعد أن سرد قائمة طويلة بأسماء مؤلفاته ودواوينه الشعرية المطبوعة ، أضاف قائلا : « أنعمت علىّ الحكومة الوطنية السورية منذ سنة ١٩٣٦ بوسام الاستحقاق السورى – أول وسام لأديب عربى فى المهاجر » .

وكان هذا كل ما استطعت حين ذاك أن أعرفه من حياة إلياس قنصل . أما أدبه فقد اطلعت على الكثير مما كان ينشره فى صحف المهجر من شعره ونثره ، كما اطلعت على عدد من مؤلفاته الأدبية ودواوينه الشعرية كان قد أرسلها إلىّ منذ أن بدأت صلتى به – عام ١٩٤٩ – عن طريق الشاعر والأديب المهجرى المعروف جورج صيدح .

وما دام إلياس قنصل قد بلغ الأربعين ، أو دونها قليلا – كما يقول فى رسالته – عام ١٩٥١ ، فيكون قد ولد عام ١٩١١ ، أو عام ١٩١٢ ، أما جورج صيدح فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » ، والبدوى الملثم فى كتابه « الناطقون بالضاد فى أميركا الجنوبية » فقد جعلا تاريخ مولده عام ١٩١٤ وهما يعرفانه معرفة شخصية ، ولا بد أن يكونا قد أخذا هذا التاريخ عنه هو نفسه أيضاً .

وإذا كان قد سافر إلى العالم الجديد وهو ابن ثلاث سنوات فيكون العام الذى سافر فيه هو عام ١٩١٤ أو ١٩١٥ . فى حين يقول صيدح إنه هاجر وهو فى العاشرة

من عمره ، ويقول البدوى الملثم إنه هاجر وهو ابن عامين . وفى هذا اختلاف بيّن لا أعرف من أين جاء مصدره . ونحن لذلك نأخذ بما جاء فى رسالة الشاعر نفسه(١) ، لأنه أدرى بنفسه من سواه .

ويذكر البدوى الملثم أن الشاعر لم يلبث أن « عاد مع سائر الأسرة إلى الوطن عام ١٩٢٠ ، ودخل المدرسة الابتدائية فى مسقط رأسه ولبث فيها أربعة أعوام لم ير بعدها مدرسة قط غير مدرسة الحياة ، ثم هاجر إلى الأرجنتين ثانية مع ذويه . . . »

ولم يذكر الشاعر فى رسالته إلىّ شيئاً من ذلك ، كما أن جورج صيدح لم يشر إليه فى كتابه ، بل جعل تاريخ هجرة الشاعر عام ١٩٢٤ . ولعله تجاوز عن بداية هجرته ، وجعل البداية الحقيقية هى الهجرة الثانية التى أشار إليها الملثم .

وقد أقام السيد إلياس فى ديار الهجرة إلى عام ١٩٥٥ ، ثم عاد إلى الوطن ؛ وكان يعتزم أن يبقى فيه نهائياً ، غير أنه لم يجد الأمور فيه كما كان يتخيلها ، ويرجوها ، فلم يلبث أن عاد إلى الأرجنتين عام ١٩٥٨ . وقد تلقيت منه رسالة مؤرخة ٢٣ / ٥ / ١٩٥٨ يقول فيها :

« أنا الآن فى مغتربى ، عدت إليه بعد أن قضيت فى ربوع الوطن العربى مدة درست خلالها أوضاعه ؛ وأعمل على وضع كتاب عن القومية العربية باللغة الإسبانية ، تلبية لرغبة إحدى دور النشر »

وفى هذه العودة القصيرة إلى سوريا طبع إلياس هناك أربعة كتب ، هى : (دولة المجانين – فلسفة حمار – غالب أفندى المغلوب – رباعيات قنصل) والكتب الثلاثة الأولى منها نثرية ، والرابع شعر . ولم يكن « غالب أفندى المغلوب » كتاباً جديداً ، فقد سبق أن طبع فى الأرجنتين قبل عدة سنين ، ولكنه أعيد طبعه من جديد فى الوطن .

وأما فى المهجر فقد صدر لإلياس قنصل عدد كبير من المؤلفات ، بينها خمسة دواوين شعرية . وهذه هى مؤلفاته المطبوعة فى المهجر :

---

(١) الرسالة محفوظة فى مكتبة الجامعة الأردنية مع أكثر من ٣٠٠ رسالة أخرى تلقيتُها من أدباء المهجر وشعرائه ما بين عام ١٩٤٦ وعام ١٩٦٠ .

١ – الدواوين الشعرية : (الأسلاك الشائكة – السهام – على مذبح الوطنية – العبرات الملتهبة – بسمات الفجر) وقد ذكر لى فى إحدى رسائله أن ديوان « السهام » أحبّ دواوينه إليه ، وآثرها عنده .

٢ – المؤلفات النثرية : (فى سبيل الحرية – على ضفاف بردى – بين معارك الثورة – البقايا – أصنام الأدب – عساف شوفان « جزآن » – صديق أبو حسن – غالب أفندى المغلوب – العبقرى المجنون) .

وأصدر كتاباً عن الأدب المهجرى بعد عودته الأخيرة إلى الأرجنتين ، ودعاه « أدب المغتربين » ، كما أصدر رواية بعنوان (فى مهب الريح) .

من هذه القائمة الطويلة يتضح للقارئ أن إلياس قنصل من أوفر أدباء المهجر كلهم نشاطاً ، وأكثرهم تآليف . يضاف إلى ذلك عمله فى الصحافة ، إذ أصدر مجلة « المناهل » مدة ثلاث سنوات ، ورأس تحرير « الجريدة السورية اللبنانية » سبع سنوات ، وحرر فى جريدة « السلام » الأرجنتينية مدة كذلك ، ونشر الكثير من شعره ونثره فى صحف عديدة – غير الصحف الثلاث المتقدم ذكرها – منها (السائح – والسمير – والشرق – والمواهب – والعالم العربى – والقلم الجديد – والديار – والأديب) وغيرها .

وموهبته الأدبية متنوعة المجالات : فهو ينظم الشعر ، ويكتب الأقصوصة ، ويخوض فى النقد الأدبى ، وفى المعالجات الاجتماعية والسياسية . وهو يميل فى كتاباته النثرية إلى الفكاهة والظرف – وقد يبالغ فى هذين أحياناً – وفى النقد الأدبى كثيراً ما يكون نقده لاذعاً حاداً ، أو تهكمياً ساخراً ، فما يهمه كيف يقع كلامه ، ولا ماذا يصيب من المنقود .

والذى يقرأ كتابه « أصنام الأدب » يرى كيف صب جام غضبه ونقده الجارح على (ميشال مغربى – توفيق الشماس – الشيخ سعيد اليازجى – يوسف الخورى – عفيف الأشقر – شكر الله الجر – جميل بطرس حلوه – نعمة قازان – فائز السمعانى – سليم نادر – جورج كعدى – جورج صوايا – جورج مسرة – حنا زخريا) . وبين هؤلاء عدد من شعراء المهجر البارزين – إلى جانب عدد من المغمورين .

والواقع أنه لم يكن فى كل نقده لهم موفقاً – من حيث الرأى والبرهان – ولا كان فى كل نقده منصفاً .

خذ مثلا نقده لقصيدة « شلال تيجوكا » لشكر الله الجر لترى أن النقد كان بارعاً فى اللهجة التهكمية الساخرة ، ولكنه لم يكن مصيباً ألبته :

يقول شكر الله مناجياً الشلال :

غسلتُ بمـائك عينى وعدت فأبصرت ما الناس لا تبصرُ
فبالله قل لى ، إلامَ تظـــلّ كذلك تجتـــازك الأعصرُ
وأنت تكرّ كرور الزمـان فلا تستقرّ ولا تفـتُرُ
وهذا الوجـود كما كان قبلا شعوب تجىء وأخرى تروحْ
ودنيـــا تضـجّ بسكانهـا فهــذا يغنى وهـــذا ينـوحْ
وذلك مستسلم للقـدرْ

فى هذه الأبيات تأملات شعرية جميلة يثيرها الشلال الهادر المتدفق باستمرار فى نفس الشاعر ، وتساؤلات حائرة تبحث نفس الشاعر عن أجوبة لها ، ممـا لا يستطيع البشر أن يجيبوا عنه . ولكن إلياس قنصل لا يرى ذلك بل يأخذ الألفاظ بمعانيها المادية الجامدة ؛ فيعلق على هذه الأبيات متهكماً ساخراً ، فيقول : « لم نسمع بهذه القوة التى ينعم بها شلال تيجوكا إلا الآن : يغسل عينيه بمائه فيبصر ما لا يبصره الناس . . . لا شك فى أن الحكومة لو اطلعت على هذه القصيدة لحجزت المياه الموجودة هناك إلى أن تفحصها جيداً ، ثم ترى ما تقرره . . »

فى طريقة التهكم هذه ظرف وبراعة لفظية ، ولكن أين منها غاية النقد الحقيقية ؟ وبماذا كان يستطيع أن يعلق إلياس قنصل على قول جورج صيدح فى نهر بردى :

ملأت منك فمى بعـد امتلاء يدى ولو قدرت ملأت القلب والكبدا
حتَّى أقول لدهـر سامنى ظمــأ فى غربتى : « لن ترانى ظامئاً أبدا » !

والذى ينظر إلى نهر بردى فى دمشق ، يرى القاذورات التى ينساب عليها الماء : فَقِطَعُ أحذية هنا ، وأكوام قاذورات هناك ، وما إلى ذلك . . . أيمكن أن يشرب منه إنسان وهو بهذه الحالة ؟ ! . ولكن العبارة الشعرية فى بيتى صيدح هذين

تبعث فى النفس أعمق الحب ، وأحب الذكريات ، وأجمل الاعتزاز بالوطن الذى يسق بردى حقوله وجنائنه ، ويخصب فيه الزرع والثمر والحياة .

* * *

وليس فى وسعنا أن نستعرض فى هذا الحديث جميع مؤلفات إلياس قنصل والذى كان لدىّ منها سبعة كتب ، بينها ديوان « بسمات الفجر » و « رباعيات قنصل » – فلا بد أن نكتفى باستعراض واحد من هذه المؤلفات ، ففيه ما يغنى ويفيد . ولذلك نختار « رباعيات قنصل » وحدها فى هذا الحديث .

لقد قضى الشاعر سنوات وهو ينشر رباعياته هذه فى الصحف ، حتى إذا ما اجتمع لديه منها عدد كاف جمعها فى هذا الكتاب الصغير ، فجاءت فى ١٥٤ صفحة . وقد ذكر فى نهاية الكتاب أن هناك أربعة أجزاء أخرى من هذه الرباعيات ستصدر فيما بعد ، ولكنها لم تصدر بعد ؛ فهل ستصدر يوماً ؟ !

وتدل رباعيات قنصل على شاعرية قوية تغترف من نفس كبيرة فى عاطفتها ، وفى إحساسها القومى ، والاجتماعى والإنسانى ، وتعبر عن أخلاق متينة ، وتمرد على نزعات التفريق بين المذاهب والطبقات الاجتماعية ؛ كما أن فى شعورها الوطنى نقمة على النفوس الضعيفة المتخاذلة التى هى من أكبر أسباب ما حل بالعرب من نكبات :

حسبناهم إذا غضبوا أسوداً ... فكانوا يوم غضبتهم ديوكا
يفاخر بعضُهم بالمكر بعضاً ... ويأبى أن يقرَّ به شريكا
وقد سمعوا المكاره والمآسى ... تهدّدهم ، فما بدلوا السلوكا
فلو أن الكلام يشيد عرشاً ... لكان العرب أغلبهم ملوكا

وفيه كذلك نقمة على الزعامة العربية التى جرّت الذل على العرب فى فلسطين وأضاعت هيبتهم وكرامتهم خارج فلسطين :

يا راقصين على أمجاد أمتكم ... ومنزلين عليها العار والمحنا
لا تحسبوا أنها تنسى خيانتكم ... وإن تناست وأخفت ثأرها زمنا
خزّ الغريب الذى يغشى مقاعدكم ... سيستحيل على أشلائكم كفنا
كلّ الذنوب لها عذرٌ ومغفرة ... إلا الذنوب التى تستعبد الوطنا

ونقمة على العصبيات والحزبيات التى ألهت العرب عن المجد ، وفوتت عليهم فرص النصر والكرامة :

ما هذه الأحزاب تشتم بعضها ... فتزيد آفاق البلاد ظلاما
إن السبيل مهيأ إلا لمن ... يرضى بأن ينحاز أو يتعامى
أتنافسٌ ويد الغريب تسومنا ... خسفاً ، وتقتل مجدنا إعداما
كالطفل تشغله الدّمى وأبوه فى ... طور النزاع يكابد الآلاما

وما دمنا قد بدأنا بحديث الوطنية فلنذكر ههنا أن إلياس قنصل من شعراء الوطنية الذين يفيض شعرهم بالإخلاص والحماسة ، ولا يعرفون فى وطنيتهم تفرقة بين العناصر ، وتجزئة بين الأوطان العربية ، وتباعداً بين المذاهب والإخوان . وروحه الجميلة المخلصة هذه تتجلى فى كثير من القصائد الروائع التى حملتها إلينا دواوينه السابقة ، كما تتجلى فى قسم من هذه الرباعيات الجديدة . فهى خطرات قصار تتوارد عفو الخاطر ، وتوحى بها وقائع الحياة اليومية ، واستثارات العاطفة الشاعرة ، والموحيات المختلفة . ولذلك نجد فى هذه الخطرات نصيباً للوطنية ، وللأمور الاجتماعية ، وللعاطفة الإنسانية ، وقسطاً للناحية الأخلاقية .

وبعض هذه الرباعيات قد يأتى على سبيل الحكمة أو المثل السائر ، وقد يكون للعبرة والموعظة . أما القسم الوطنى منها فهو إخلاص ونقمة على الظلم واللؤم والدجل ، ودعوة إلى القوة والاتحاد لحماية الوطن ، والتحرر من عبودية الغريب ، وحنين فياض ، ونقد إصلاحى جرىء . فمن ذلك قول الشاعر ، وقد شاهد بعض مناظر وطنه على الشاشة وهو فى ديار الهجرة :

شاهدتُه فى مسرح عرض الرُّؤى ... فحزنت رغم عماره وجمالِهِ
وطنى الذى قَتَل الغريبُ سلامَه ... وأحَلَّ سرقة ماله وغلالِهِ
ياليته جهل « الرقّ » وظلّ فى ... طور « التأخر » ناعماً بضلالِهِ
أو ليتَه خَرِبٌ ، قضى أبطالُه ... يوم الوغى ذوداً عن استقلالِهِ

وقد يرى البعض فى البيت الثالث من هذه الرباعية شيئاً غير مرغوب فيه ، وهو تمنى الشاعر لوطنه ألا يعرف الرقى ، بل يظل ناعماً فى تأخره وضلاله ؛ غير أن المعنى الذى كان يريده الشاعر هو خلاص وطنه من المستعمرين الذين

لم يكونوا يجدون حجة يستعبدون بها الشرق إلا الزعم بأنهم يريدون « رقيه » ، لأنه فى نظرهم « متأخر » ؛ فهو يريد لأوطانه أن تعالج أمورها وحدها وهى موفورة الكرامة والحرية .

وفى بعض الرباعيات الوطنية نرى الشاعر يستنفر أبناء قومه ، وهو يلومهم ويؤنبهم على تخاذلهم وقناعتهم بالذل فيقول :

يا من تنازلَ راضياً عن أرضه ... لِعداته ، وسلاحُه موفورُ
ماذا تُهمُّ الناسَ غضبتُك التى ... هى حطَّةٌ وسخافة وغرور ؟
لا تلتمس لضياع مجدك حجةً ... يكفيك أنك خاسرٌ مقهورُ
أغمدتَ سيفك فى الوغَى ذلاًّ فلا ... تتوعَّد الدنيا وأنت أسيرُ

أما حنينه فى هذه الرباعيات وتعلقه الشديد بوطنه فيعبر عنهما قوله :

تلك البلاد يد الغريب تسومها ... خسفاً تهون لديه أية نقمةِ
نُكبَت بِداء الذل بعد إبائها ... أوليس داء الذلّ أكبر نكبةٍ ؟
لكننى ، قسماً بها ، لو كنت ذا ... حظ ، وخيَّرنى الزمان بعيشتى
لنفرت من أبهى القصور مهاجراً ... وحننت للكوخ الحقير ببلدتى

هذه بعض روحه فى وطنياته ، أما رباعياته التى نظمها فى مواضيع اجتماعية وأخلاقية وإنسانية فإلى القارئ منها أشياء تدل على متانة فى الخلق ، ونبل فى العاطفة ، وصواب فى النظرة الاجتماعية .

والرباعية التالية تجمع بين النظرة الاجتماعية والأخلاقية معاً ، وفيها يقول الشاعر :

تَخِذتُ من الحسَّاد فى كل موقف ... موازين فى أحكامها منتهى الرشدِ
إذا غضبوا أدركت أنى موفّق ... فتابعتُ سيرى مطمئنًّا إلى قصدى
وإن سكتوا راجعتُ ما قد أتيتُه ... وأجريت فى إصلاحه غاية الجهدِ
فيارِبِّ لا تعذل شرودى عن الهدى ... إذا زال عن أكبادهم حمأ الحقدِ

وكذلك نلمس متانة الأخلاق فى تحريضه على أن نستعيض من ضعفنا قوة ، ومن اندحارنا مقدرة على الثأر :

عذرتُك أن أذريت دمعك غاضباً ... وإن تذره ضعفاً فموتك أسترُ

خسرتَ عراكاً ما انطوت صفحاته ... وما زال فيه للمآثر أسطرُ
فإن تتخذ مما جرى لك عبرةً ... ضمنت سبيلا فيه لا تتعثرُ
وربّ اندحار لا ينالك عارهُ ... إذا شمت من أسبابه كيف تثأرُ

إن هذه النصيحة الأخلاقية التى تتمثل فى البيت الأخير تصيب الجماعات كما تصيب الأفراد ؛ والأمة العربية التى أضاعت فلسطين وكرامتها القومية فى جولتها الأولى مع العدو الصهيونى ، ما تزال أحوج ما تكون إلى الاستفادة من هذه النصيحة الغالية . لتعرف كيف تستعيض من اندحارها الأول انتصاراً ومجداً فى المستقبل القريب .

ورباعية أخرى تعلمنا أن نكون أقوياء فى نفوسنا لأننا فى عصر لا يفهم سوى لغة القوة ، والحق وحده فيه لا يمنح أصحابه نصراً إن لم تدعمه القوة . كذلك هو منطق العصر وواقع الحياة :

إن كان ضوءُ الحقّ نورَك وحده ... فجليل جهدك حسرةٌ وهباءُ
كم من عباقرة خبا إصلاحهم ... لم يَخبُ لولا أنهم ضعفاءُ
فاترك زمانك لا تلمه فإنما ... أخلاقنا وخلالنا الخرقاءُ
كفُّ القويّ لصفعة وتحية ... أما الضعيف فكفه استعطاءُ

إن الدعوة إلى القوة هى النغمة التى نحتاج إليها ، وإلى هدهدة نفوسنا على أنغامها المنعشة المحببة ، فلو كنا أقوياء ما رضينا لأنفسنا بأن نغرس – بأيدينا – شوكة إسرائيل فى جنوبنا تعمل فيها وخزاً ونخزاً ، وتهدد بلادنا بالفناء والضياع . وهذه الدعوة تتكرر فى رباعيات قنصل بشكل ملموس ، لا يمر دون أن يترك أثره فى نفوس القراء .

ولست أريد أن أسترسل فى الحديث على هذه الرباعيات القوية فى روحها ، والمتنوعة فى مواضيعها ، والموفقة فى صياغتها ومراميها ؛ فالذى أوردته منهم يدل على بقيتها ، وكله يستحق الإعجاب والتقدير .

٤١ - زكي قنصل

لم أكن أعرف حقيقة شاعرية زكي قنصل قبل أن ينبهني إلى ذلك الشاعر إلياس فرحات ؛ فقد كنت أقرأ لزكي قصائد قليلة متفرقة في بعض صحف المهجر . ولكنني لم أهتم بدراسته دراسة جدية إلا بعد أن كتب إلى فرحات غير مرة يثني على روحه وشاعريته ، ويحثني على أن أكتب إليه .

ولم تبدأ صلتي به إلا في عام ١٩٥٢ . وكان أول كتاب تلقيته منه يحمل تاريخ ١٩٥٢/٨/٢ . وكنت قبل ذلك قد اطلعت له على قصيدة رقيقة في مجلة « المواهب » التي كان يصدرها في الأرجنتين الصديق الأديب الشاعر يوسف صارمي . وكانت تلك القصيدة مرثية حارة من الشاعر لطفلته « سعاد » التي توفيت ولما تتجاوز الشهر الثامن من عمرها . ولشدة إعجابي بالقصيدة تناولتها بدراسة خاصة أذعتها حين ذاك من محطة الإذاعة الأردنية ، وأرسلت نسخة منها إلى مجلة « المواهب » فنشرت فيها . وعلى أثر نشرها كتب إليّ زكي رسالته الأولى ، وهذه هي رسالته :

« أخي عيسى

سلمت يداك وإن نكأت جراحي ، وبعثت لوعتي من مكانها . أنا خجل منك يا سيدي ، فقد مرّ على صدور كلمتك الطيبة في قصيدتي أكثر من شهر ، ولكن ثق أن تقصيري لم يكن عن إهمال ؛ لا وعيني سعاد ، ولكن لساني ما يزال معقوداً من أثر الفاجعة ، وما برح فكري مهيض الجناح . فهل تكفي هذه الكلمات الباهتة المتعثرة للإعراب عن شكري الجزيل لما غمرتني به من منة ، وما أسديت إلي من يد ؟

أنا أقرأك بين الحين والآخر ، وأتتبع بشغف أبحاثك في الأدب المهجري . وثق أني من المعجبين بك شاعراً وناثراً على السواء . وقد سرني عزمك على إصدار

مجلة أدبية باسم « القلم الجديد » كما أبلغني صديق الطرفين الأستاذ الصارمي ، ولعلى أستطيع خدمتك حين تنقشع عنى هذه الغمامة السوداء .

أتمنى لك الفلاح والعافية ، وأرجو أن يغمر الله طريقك بالظل والندى . واسلم لأخيك .

زكى قنصل »

ومنذ أن قرأت تلك القصيدة الحنون ، ثم تلقيت هذه الرسالة الرقيقة ، شعرت أن فى روح زكى قنصل وشاعريته من النبل والصفاء ما يدفعنى إلى صداقته ، وإلى البحث عن قصائده ومقالاته والتهامها حيثما وجدتها .

وفى مطلع عام ١٩٥٣ جمع زكى قصائده التى نظمها فى فقيدته « سعاد » فى كراسة صغيرة أنيقة ، وأهدى إلى نسخة منها . فلمست فى هذه القصائد القليلة من الرقة والحنان ما أكد لى أن زكى قنصل شاعر حق ، سامى الغرض ، نبيل الروح ، رقيق العبارة ؛ وأن فى شعره من الموسيقى الحلوة ، والخيالات المشرقة ، ما لا يجتمع مثله إلا للأقلين من شعراء المهجر الأحياء .

وفى ما يلى المقدمة النثرية القصيرة التى قدم بها الشاعر مراثيه لطفلته الفقيدة :

« بنيتى ! قد يزدهى العش الكئيب ثانية بالزغاليل والزغاريد ، وقد يعود الربيع مرة أخرى إلى هذه الصحراء العابسة يحمل إليها النضارة والخصب ، وقد تشرق العيون الغائرة ببريق الزهو والرجاء ، وقد تستعيد الشفاه اليابسة بسمات البشاشة والرضى ، ولكن القلب الذى بعثته من مثواه يحس ويحب ويحن ، وفجرت فيه ينابيع الأمل والألم ، سيظل هيكلا يتجاوب فى جوانبه اسمك العذب صلاة ندية شذية ، ويتألق فى محرابه رسمك الوضىء ذخيرة طاهرة مقدسة .

« لقد انقضى عام كامل على ارتفاعك فى السماء ، ولكن الجرح الذى فتحته فى صدرى وصدر أمك ما يزال ينزف دماً ، وينفث ناراً . وهذه الزفرات قطرات من هذا الجرح المشترك أسفحها على ضريحك الزكى فى هذه الذكرى الداجية » .

ويلاحظ القارئ كم فى هذه العبارات القليلة من جمال الأسلوب وشاعريته ، وما فى معانيها من رقة الإحساس ونبض القلب .

ثم يمضى الشاعر فى قصائده ، وأولها بعنوان « سعاد » ، وقد قدم لها بقوله : « حمل أيار – شهر الهوى والأمل – بشرى سعاد إلى قلب الشاعر ، فوقعت عليه وقوع الندى على جفن الزهرة ، فجاشت نفسه بهذه الأهزوجة » .

والقصيدة أهزوجة جميلة – لا بمعنى أنها من بحر الهزج – فهى أغنية روح تفيض بالغبطة لشعورها بزهو الأبوة لأول مرة . وهذا بعضها :

ضحك الصّباح ، فقلتُ : لولاها لما ضَحك الصباحْ
أهلاً عروسَ الفجر ! أهلاً بالصباحة والصّلاحْ
هاض الأسى جنحى فلما جئتِ طرتُ بلا جناحْ
وتكاثرتْ فىَّ الجراح ، فكنتِ بُرءاً للجـراحْ

* * *

أسعاد ! هل أحلى من اسمك بين أسماء البشر ؟
لكأنه أهــزوجة نشوَى على شَفَـة الوتــرْ
لكأنه نجـوى النسيم يهـزّ أعطاف الشجــرْ
لكأنه قُبَل النـــدى تنساب ما بين الزَّهَــرْ

ولكن فرحة الشاعر لم تطل أكثر من ثمانية أشهر ، ثم ذوت الوردة ، وضاعت الأهزوجة الحلوة فى طيات الأبدية . فتحولت أغرودة الشاعر الطروبة إلى دموع محرقة يزفرها فى قصائده الأخرى : (على ضريح سعاد – سرير سعاد – أرجوحة سعاد – لعبة سعاد – عيد سعاد – عروس الزهور – عيدها الأول) .

لقد استوحى زكى هذه القصائد من تلك الطفلة التى تفتحت أمام عينيه برعماً يبعث السعادة ، وينشر بهجة الربيع فى نفسه ، ولكنها ما لبثت أن انقصف غصنها ولما تعرف من قاموس الحياة أكثر من حضن « ماما وبابا » ؛ فتبعثر معها جمال الربيع وبهجته فى نفس الشاعر الحزين ، فكانت مراثيه لهذا البرعم الصريع صلوات روح عذبها الألم ، وابتهالات تنتحب بدموع الأبوة الحنون ، ونجوى تقطر التفجع واللهفة ولوعة الذكرى . وهذه المزايا ترافق القارئ من مطلع

كل من هذه المراثى حتى خاتمتها ، والحنان الهامس ، العميق التأثير ، يقطر من كل مقطع فيها .

يقول فى قصيدته : « على ضريح سعاد » معاتباً الخالق على خطفها منه :

إنى لأشعرُ أنَّ إيمـــانى برحمتكَ انطـــوى
لم يبقَ عنـــدى ما يهزّ الشوق ، أو يغرى الهـــوى
حوّلتَ عُرسى مأتمـــاً ، ومسختَ أفراحى جوى
أيلامُ شاعرك التقىّ إذا تمـــردّ أو غـــوى ؟

ولكنه بعد أن يفرج عن نفسه بهذه الثورة القصيرة يعود إلى طفلتـه المنتزعة من حشاشته فيخاطبهـــا بوجد محرق ، يصور فيه عاطفته الأبوية أعمق تصوير فيقول :

أسعادُ ! جئتُك لا بشاشةَ فى العيون ولا بريقْ
دَجَت الحياة ، وشَاهَ فى عينى محيَّاها الأنيقْ
لا الروض زاه بعد زغلولى ، ولا غصنى وريقْ
ويحى ! أأغرق فى الدموع وليس لى أمل الغريقْ !

وهنا فى البيت الأخير بشكل خاص – نجد الصورة الشعرية المؤلمة : صورة النفس التى جرحتها الصدمة ، ونزفت دماءها بقسوة طاغية ، فهو يغرق فى دموعه ؛ ولكن للغريق العادى أملا فى النجاة أما هو فلا أمل له فى النجاة من دموعه وعذاب روحه :

هذا سريرك يا سعاد ، فأين صاحبةُ السرير ؟ !
عينى عليه ، ومهجتى ترتادُ حاشيـــة الأثـــيرِ
جرّدتِهِ ، لمـــا ذهبتِ ، من النّضارة والعبيرِ

وإذا كانت هذه الأبيات تصور الحنو الأبوى وقلب الوالد المفجوع أعمق تصوير ، فإن فيها إلى جانب ذلك كثيراً مما يزيد فى قوة هذه الصور ، وشدة تأثيرها فى النفس . فإن لتجانس ألفاظها ، وتركيب حروفها وقعاً خاصًّا . فـ براعة فى التعبير تتفق مع الإحساس الذى يصوره . فالسينات الثلاث . والصاد - التى تشبهها مخرجاً وصوتاً - فى البيت الأول . وهى الصوت الذى يغلب عى

البيت كله ، فيها حسّ يتصاعد من أعماق نفس الشاعر ليعبر عن غصة عنيفة . ومثل هذا فى الدلالة لفظتا « مهجتى » و « ترتاد » فى مكانهما من البيت الثانى ، فهما تعبران عن معناهما ، وعن الصورة التى تؤديانها ، أفضل تعبير .

ولعل القارئ يرى من هذه القصيدة – وهى نموذج واحد من مراثى سعاد – كيف استطاع الشاعر أن يعبر عن أحاسيسه العميقة بملء الصدق والحنان والجمال الفنى . ولا حاجة بنا بعد هذا إلى عرض نماذج أخرى من تلك المراثى وهى كلها متشابهة فى التصوير لأحاسيس الأبوة الجريح لدى الشاعر . وإننا لنحمد الله أن العش الذى فارقته سعاد قد عاد فملأته الزغاليل الجدد بالمرح والبهجة والجمال .

ولم أكن أعرف لزكى قنصل مؤلفات أخرى مطبوعة ، غير أن البدوى الملثم – وقد زار زكى قنصل فى الأرجنتين – ذكر له فى كتابه « الناطقون بالضاد فى أميركة الجنوبية » بعض المطبوعات الأخرى ، وهى : (الثورة السورية « تمثيلية مطبوعة عام ١٩٣٣ » – طارق بن زياد « تمثيلية » – أشواك « رباعيات شعرية » – أوتار القلب « مجموعة شعر وطني ووجدانى » – شظايا « ديوان شعر مطبوع عام ١٩٣٩ ») . غير أننى أستغرب جداً أن تكون له مؤلفات مطبوعة ولا يجرى ذكر شىء منها فى رسائله المتعددة إلىّ منذ عام ١٩٥٢ ، مع أننى كنت بين الأوائل جداً ممن أهدى إليهم زكى مجموعته « سعاد » فى البلاد العربية حين صدور المجموعة ، ويزيد فى استغرابى أن جورج صيدح أيضاً لم يذكر أى كتاب مطبوع ، حين تحدث عنه فى كتابه « أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأمريكية » . وصيدح يعرفه معرفة وثيقة جداً ، وقد عاش معه فى الأرجنتين ، وكان زميلا له فى الرابطة الأدبية هناك ؛ ولو عرف له كتباً مطبوعة غير « سعاد » ما أهمل ذكره فى حديثه الطويل عنه . ولعلّ الملثم رأى تلك الكتب مخطوطة لدى الشاعر ، فأتى على ذكرها ولكنه لم يقل إنها ما تزال مخطوطة .

*

فى عام ١٩٧٠ صدر لزكى قنصل ديوان شعر صغير فى (منشورات دار مجلة الثقافة) فى دمشق . عنوانه (نور ونار) . ويشتمل على مجموعة من قصائد

الشاعر فى موضوعات مختلفة . غير أن الديوان جاء مشوّهاً وكثير الأخطاء ، ممّا اضطرّ الشاعر إلى إعادة طبعه فى (بوانس أيرس) فى الأرجنتين عام ١٩٧٢ بشكل أفضل من طبعة دمشق وآنق . وبهذه المناسبة كتب إلىّ بتاريخ ١٩٧١/٨/٢ يقول فى الطبعة الدمشقية من ديوانه :

« ديوان (نور ونار) الذى بين يديك ألقِهِ فى النار . . . فهو ملىء بالأغلاط المطبعية ، وبعض قصائده سقط منها أبيات فازدادت تشويها . . . وأنا الآن فى سبيل إعادة طبعه هنا ، وقد زدت عليه ضعفى قصائده » .

وفعلاً صدرت الطبعة الجديدة الأرجنتينية ، وبعث إلىّ زكى بنسخ عديدة منها أوزّعها هدايا على أصدقائى .

والذى يقرأ شعر زكى قنصل يجد أنه كثير الاهتمام بالشعر الاجتماعى ، وشديد الإحساس مع الكادحين من أبناء الشعب ، وقد ذكر لى فى إحدى رسائله – وتاريخها ١٧ / ٢ / ١٩٥٣ – أن لديه مجموعة شعرية بعنوان « على قارعة الطريق » وقفها على هذه الفئة المنسية من أصحاب المهن « الوضيعة » ، وهى تضم نحو عشرين قصيدة ، نشر بعضها وطوى البعض الآخر ، كما يقول . وقد أرسل إلىّ مع كتابه قصيدة منها لأنشرها فى « القلم الجديد » .

وكان عنوان القصيدة « البنّاء » – وقد نشرت فى العدد الثانى عشر من « القلم الجديد » – وهو عدد ممتاز خصص للأدب المهجرى وحده .

ومن قصائده هذه قصيدة بعنوان « العاملة » ، نشرت فى مجلة « المراحل » البرازيلية عام ١٩٥٧ ، يقول فيها :

هَبَّتْ إلى العمـــل فى خفـــة الحجـلِ
تسعى بـــلا ملـلِ وتعيش بالأمـــلِ

ما أضيق الدنيـــا على الوَكِلِ
وأبرّها بالعـــامل الجـذلِ

بالـــروح بَسْمَتَهـــا تُخـــفى رزيّتَهـــا
لو ذقتَ لوعَتَهـــا أو خضتَ غمرتَهـــا

أكبرتَ عزتها ولم تَقُــل :
« إن الشجاعة عــدة الرجــلِ »

وقصيدة « بياع الجرائد » وقد نشرت فى مجلة المراحل » أيضاً عام ١٩٥٧ ، ومنهــا :

قم فالصباح أطلّ من شرفاتــهِ ‏ ‏ تماوج الأنوار فى بسماتهِ
غمز الخمائلَ فازدهت أعطافها ‏ ‏ والطيرَ فازدحمت على غمزاتهِ
يا حاملاً خبر النفوس إلى الوَرَى ‏ ‏ لو أنصفوك تسابقــوا لفُتاتهِ
وزّعتَ نفسَك بينهم متأبطــاً ‏ ‏ عبثاً نهضتَ بــه على علاتهِ
طـوراً تحومُ على الجموع وتارةً ‏ ‏ تسعى إلى الفلاّح فى وكناتهِ
فى كلّ أذن من هتافك رنــةٌ ‏ ‏ وصدًى شجىّ الوقع من مطّاتهِ
كم ذا تحدّاك الشتــاء بقــرّه ‏ ‏ وبثلجه ، فضحكتَ من حملاتهِ
شمّرت عن زند يفيض صلابةً ‏ ‏ وكشفت عن صدر زها بثبـاتهِ

* * *

هو همزةٌ بين القلوب ، وسُلَّم ‏ ‏ تتنقل الأخبــار فى درجاتــهِ
ماتت حزازات السياسة عنــده ‏ ‏ وتعانق الأضــداد فى واحاتهِ

وله من هذا النوع قصائد أخرى فى (الفلاح – والخباز – والشرطى – وماسح الأحذية ، وبائعة الزهر – والمعلمة – والعتال) وغيرهم ممن يخوضون شقاء الحياة ليكسبوا السعــادة والنعمة للآخرين . ومن المؤسف أن زكى لم ينشر هــذه الروائع الإنسانية فى ديوانه (نور ونار) ، وكانت أجدر بالظهور فيه من أكثر القصائد التى حشرها الشاعر بين صفحاته ، سواء فى الطبعة الدمشقية وفى الطبعة الأرجنتينية .

ولزكى فى الحنين وفى الشعر الوصفى والتأملى قصائد غنائية رقيقة . خذ مثلا قصيدته « الدوحة العارية »[١] التى يقول فيها :

أكذا ستسلبنا الشبابَ يدُ الليالى الجائره
وتبعثر الأيــام آمال الشبـاب الزاهرة

---

(١) وهذه أيضاً غير منشورة فى ديوان (نور ونار)

وتعيث في أحـلامه الغـرّ الفواتن ساخره
أكذا ستحرمنا النضارة والأماني الساحرة ؟

* * *

لى فى الحمى أمٌّ نظيرك يا ابنةَ الروض الكثيبه
سلب البعاد فراخها ، وطوى أمانيها القشيبه
وقضى على آمالهـا الذهبية الغـرّ الخصيبـه
فاستسلمت لليأس والأحزان من هول المصيبه

* * *

أماه ! صبراً فى البلاء فهكذا شاء القـدرْ
لا تيأسى أو تستكينى للــكآبة والكـدرْ
فكما يعود إلى الرياض ربيعها ، وإلى الشجرْ
سنعود نحن إليك يوماً - والزمان أبو الغِيَرَ

* * *

ولقد عاد زكى إلى دمشق عام ١٩٦٨ متلهّفاً إلى رؤية الوطن الذى عاش يحنّ إليه عمره كلّه فى ديار الهجرة ، ولكنه أُصيب بصدمة حادّة مؤلمة ، اضطرّته إلى العودة عنه من جديد خلال أسابيع قليلة ، وفى صدره ألم وفى قلبه نقمة ، بعد أن انزوى فى قريته (يبرود) - كما يقول فى رسالة منه إلىّ تاريخها ٥ / ٧ / ١٩٧١ - « لا أبارحها إلاّ لساعات أطلّ فيها على دمشق أو حمص ، ثم أعود أدراجى ، لا أزور صديقاً ولا أتصل بزميل . . . وبعد شهر خطر لى أن أذهب إلى بيروت لمهمة أدبية ، فإذا أنا أصطدم بمدير دائرة التصاريح يقول لى إن طلبى مرفوض . . . »

ويعلّق زكى على المعاملة الشاذة التى لقيها قبل الوصول إلى سوريا من بيروت ، ثم فى أثناء وجوده فى سوريا ، فيقول فى الرسالة عينها :

« لم أستطع أن أعلم بالتأكيد سبب هذه التدابير الشاذة يؤخذ بها أديب قضى فى مغتربه أربعين سنة يحنّ إلى وطنه ويتغنى بأمجاده ، ويذود عن لغته وقوميته ، ويأبى أن يتنازل عن جنسيته لقاء أىّ إغراء وتجاه أىّ وعيد . ولكننى استنتجت بالقرينة والغريزة أن الجماعة كانوا يعتبروننى من الحزب السورى القومى ، فمنعونى أولاً

من الدخول إلى سوريا ؛ وبعد وساطات ومراجعات أثرتها من بيروت دامت أكثر من أسبوع ، رفعوا عنى « الحرم » ، فدخلتُها غير آمن . ولكنّ معنوياتى كانت قد انهارت . . . » .

أما كيف استطاع أن يغادر سوريا ؟ فإليك ما يضيفه فى الرسالة :

« عدت إلى الذين توسطوا لدخولى أروى ما جدّ معى . . . فعادوا إلى السعى الحثيث . . . حتى انحلّت المشكلة ، وكنت قد أصبحت فى أزمة نفسية شديدة . فذهبت إلى بيروت ، ومن هناك هتفت لأهلى بأنى غير عائد . ثم أخذت الطائرة وعدت إلى مغتربى . وهكذا لم تطل إقامتى فى وطنى إلاّ شهراً وبعض الشهر » . . .

ويقول زكى بعد ذلك :

« ولعلّ من المضحك – وشرّ البلية ما يضحك – أن التهمة التى زرعت فى طريقى الأشواك وأثارت علىّ المشاكل ، لا أساس لها من الصحة ؛ بل العكس هو الصحيح ؛ فقد كنت وما أزال على خلاف دائم مع جماعة الحزب السورى القومى » .

وبعد عودة زكى إلى الأرجنتين ، وفى غمرة من اليأس والنقمة والقنوط والكفر ، نشرت له جريدة (السلام) الأرجنتينية فى عددها الصادر فى ٢ نيسان (أبريل) ١٩٧١ ، رسالة قرابة صفحتين من الجريدة ، عنوانها (إلى حافظ الأسد من زكى قنصل) شرح له فيها القضية برمّتها ، وبكلّ تفاصيلها . كما بعث زكى بنسخ من هذه الرسالة إلى رئاسة الجمهورية السورية ، وجريدة البعث ، ودار الإذاعة السورية .

لقد كانت تلك صدمة أليمة الوقع فى نفس شاعر حسّاس ، كان يرى الدنيا من خلال وطنه العربى السورى ، ويرى الله من خلال بَرَدى .

* * *

وشعر زكى قنصل لا تفارقه النعومة والرقة حتى فى المواضيع التى تثور فيها الأرواح ساخطة متمردة . وإليك بعض شعره فى مأساة فلسطين ومن قصيدة له بعنوان « خرافة السلام » :

يا منكراً شكواى عُذرك بيّنٌ   وَقْعُ الأنين على السليم ثقيـلُ

لــو كنتَ مثلى لم تَضِقْ بكآبتى | صدراً ، ولم يُحرَم أساك عليلُ
أتســومنى مَرَحَ الطليق وموطنى | بين السلاسل والقيود ذليــلُ ؟
هيهات يحملنى جنــاحٌ خافقٌ | وأخـــوه فى أصفاده مشلــول
لهفى على القدس انطوت أعلامه | وكَبَتْ بأشبال النضال خيولُ
يمــشى الأصيل ابن الأصيل مطاطئاً | فيه ، ويشمخ واغل مــرذولُ
الهــدنــة النكراء أصل بلائنــا | فى عنق عاقدها الدمُ المطلولُ
لــيت الذين استبشروا بسرابهــا | زلّت بهم قدمٌ وضلّ دليلُ
لا تختلق للذئب أعذاراً فقـــد | يُفتى بتحليل الذنوب جميلُ
الجـودُ - إلا فى الكرامة - زينةٌ | والصفحُ - إلا فى الجهاد - نبيلُ

* * *

يا شائدين على الرذيلــة دولةً | للبُطل يوم ضاحكٌ ، ويزول

وبعد كل هذا الذى قدّمناه من شعر زكى قنصل - وكله جميل ، رقيق ، بارع الصياغة متينها - نود أن نذكر أن زكى قنصل أحد الشعراء المهجريين الذين صنعوا أنفسهم بأنفسهم ، فلم ينل من العلم فى المدرسة إلا حظًّا ضئيلا جدًّا ، ولكنه درس على نفسه كثيراً إلى أن أصبح هذا الشاعر الممتاز فى شاعريته ، والمجيد فى كل قصائده .

لقد ولد زكى فى مدينة يبرود فى سوريا عام ١٩١٩ ، وتلقى دراسته فى مدارسها ؛ فتعلم مبادئ العربية والفرنسية ، ثم هاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٢٩ ، وجاهد فى الحياة كما يجاهد المهاجرون : فحمل الكشّة ، وصارع الصعاب ، وعمل فى التجارة ؛ ولكنه كان ميالا إلى الدرس والمطالعة ، فدرس العربية والإسبانية على نفسه حتى امتلك ناصيتهما ، وأصبح قادراً على الكتابة ونظم الشعر . وعمل فى الصحافة منذ أن كان فى الثامنة عشرة من عمره ، وقد ساعده على النجاح - فى العمل وفى حقل الأدب - خلقٌ عال ، ولطف جمّ ، وشمائل محببة . وكلها تبدو جلية فى منظومه ومنثوره .

٤٢ – جورج كعدى

شاعر كثير الخصب ، يعيش بعيداً عن البيئات العلمية والأدبية فى مهجره البعيد « بوليفيا » . لم يتلق من الثقافة المدرسية قسطاً كافياً ، ولكنه استطاع أن يخلق نفسه ، فكان أديبًا وشاعراً عصاميًّا يتقن عدداً من اللغات الغربية إلى جانب لغته القومية .

أما سيرة حياته فقد استقيتها من رسائله الشخصية المتعددة إلىّ ، وأما روحه الأدبية فمن شعره القليل الذى وصل إلى يدى عن طريق رسائله ، أو عن طريق عدد من صحف الأدب فى المهجر وفى الشرق .

ولد جورج كعدى عام ١٩١١ فى قرية « بسكنتا » النائمة فى عش من الفتنة عند قدم صنين المتربع على عنق الغيوم . وقد دخل المدرسة الأولية فى الضيعة ولكنه لم يقم فيها أكثر من سنتين . وفى عام ١٩٢٥ « طرحته النوى مطارحها »– على حد تعبير بديع الزمان الهمذانى – فإذا هو فى البرازيل يضرب فى طلب الرزق بين « الملايين التى كتب لها أن تفتش عن إبرة السعادة فى جبال القير والأسفلت والحجر والحديد » – كما يقول ميخائيل نعيمه – .

وفى البرازيل ، وإلى جانب الكفاح فى سبيل الرزق ، أكبّ جورج على الدراسة الليليـة فتعلم العربية والفرنسية والبرتغالية . وهناك بدأ ينظم الشعر العربى . فلما اطمـأن إلى ريش جناحيه راح ينشر منظوماته فى مجلات المهجر الكبرى ، كالعصبـة ، والشرق ، والكرمة ، والأندلس الجديد . وفى جهاد الحياة استطاع الشاعر الجديد أن يجمع ثروة مالية ضخمة ولكنه لم يفرح بها طويلا ، فقد حلت به كارثة مالية ذهبت بثروته كلها كما ذهبت بمكتبة ضخمة كان قد جمعها هناك . فغادر البرازيل إلى حيث لا يزال يقيم الآن فى لاباص ، عاصمة جمهورية بوليفيا وهنـاك بدأ جهاد الحياة من جديد بعزيمة وجلد حتى انتعشت حالته المالية وعاوده الاطمئنـان النفسى . فمضى يغذى طبيعته الشعرية بالكتابة والنشر فى مختلف

الصحف من جديد ؛ كما عكف على الدرس مرة أخرى حتى أتقن الإسبانية وأصبح ينظم الشعر فيها ، كما يقول ، وألمّ كذلك بالألمانية والإنكليزية .

وفى أثناء ذلك كانت شهرته الأدبية قد ذاعت فى الأوساط المهجرية ، فدعته الجالية العربية فى الأرجنتين فأقام فى ضيافتها أربعة أشهر يخطب فى أنديتها ومجتمعاتها ، ويلقى من شعره . ثم دعته الجالية فى الشيلى ولقى هناك مثل الحفاوة التى لقيها فى الأرجنتين .

وفى سنة ١٩٤٨ اقترن الشاعر بفتاة فلسطينية المولد ، وقد أنجبت له ولداً دعاه « فاروق » وبنتاً دعاها « ثريا » . وقد استقبل كلا منهما بقصيدة تعبر عن عاطفة رقيقة وقلب شاعر ، ثم لم تلبث ثريا أن طارت من عشها ، فرثاها أبوها بعدد من القصائد جمعها بعدئذ فى كراسة صغيرة دعاها « ثريا » ، كتب فى مقدمتها زميله فى الفجيعة الشاعر زكى قنصل .

ولم يسلم شاعرنا الطموح من غزوات المرض التى أساءت إلى صحته كثيراً . ففى شهر شباط (فبراير) من عام ١٩٥٢ دخل المستشفى لإجراء عملية « الفتق » ؛ فما يكاد ينتهى منها حتى أخبره الطبيب أن لديه قرحة فى المعدة وأنه ينبغى إجراء عملية أخرى لاستئصالها منه ، كما أنذره بوجوب الامتناع عن التدخين – وهو مدمن له – وفى عام ١٩٥١ كانت قد أجريت له عمليتان فى الأذن آذتاه كثيراً وأثقلتا سمعه ؛ وعملية ثالثة فى الأنف . ولقد أشار عليه الطبيب بعد ذلك بوجوب الإخلاد إلى الراحة الكاملة مدة تقرب من السنة وإلا ازداد سوء صحته . ولكن أنى له أن يوقف أعماله التجارية كل هذه المدة وليس لديه من يستطيع القيام بها سواه ؟

وفى خلال مرضه عام ١٩٥٢ ، وعلى قرب عهده بإجراء العملية ، بلغه نعى والدته وخاله معاً فى شهر حزيران (يولية) عام ١٩٥٢ ، فأصيب بإغماءة نقل على أثرها من جديد إلى المستشفى . وفى عام ١٩٥٨ أدخل المستشفى مرة أخرى وأجريت له عمليتان جراحيتان ناجحتان . وقد بلغ مجموع ما أجرى له من جراحات حتى عام ١٩٧٤ ثمانى وعشرين جراحة .

وشاعرنا الكعدى من الشعراء القوميين الذين وقفوا أقلامهم على نصرة القضية

العربية . وله مئات القصائد الوطنية التى يتغنى فيها بأمجاد العروبة ، ويستثير همم الأمة إلى استعادة تلك الأمجاد الماضية . وفى قضية فلسطين كتب العديد جداً من القصائد ، ونشر وأذاع الكثير من الخطب والمقالات بالعربية والإسبانية . وقد أصدر ديواناً شعرياً باللغة الإسبانية فى بوليفيا وقف ريعه على لجان إغاثة اللاجئين . وله من الكتب المطبوعة بالعربية مجموعته « ثريا » وديوانه « الكعديات » فى جزأين كبيرين ، و« الديوان الجديد » . وكلها مطبوعة فى لبنان .

إن الشاعر الكعدى قوى فى روحه وطموحه ؛ وهو يكره الغموض ولذلك ينقم على الأدب الرمزى نقمة شديدة ولا يحب أن يرى شيئاً منه منشوراً فى الصحف ، ويعتقد أن العناية به تسىء إلى الصحف التى تنشره . وهو يحب شعر القوة ، ويريد أن يكون كل شاعر « نيتشه » أو « المتنبى » فى حبه للقوة والعظمة .

ونأتى الآن إلى شعره فنذكر أن مجموع ما نظمه إلى الآن لا يقل عن ألف قصيدة متنوعة المواضيع ، وكثيراً ما كان يوقع بتواقيع مستعارة مثل « الشاعر المتألم » و« شاعر صنين » ، و« البدوى التائه » . إنه يكثر من النظم إلى حدّ الإفراط ؛ والكثرة تسىء إلى الجودة ، ولهذا يقل الجيّد فى شعره . واذا كانت الروح الوطنية والقومية هى الغالبة على شعره فإن له أيضاً بعض القصائد التأملية والوصفية الجميلة . ونحن نورد فى ما يلى أبياتاً من قصيدة خماسية يقول فيها :

زرعت أغراسى وراءَ الغيومْ ۝ فى روضة الإلهام بينَ النجومْ
حتى إذا ثارتْ بنفسى الهمومْ ۝ واجتاحت القلبَ دواهى الغمومْ
جلستُ فيها حالماً أستريحْ

ورحت بالأحلام أطوى الدُّنَى ۝ ملتقياً بالفكر بنت الخيالْ
معلِّلا نفسى بطيب المنى ۝ مُرَفِّهاً قلبى بسحر الجمالْ
مختليًا فى جوّ روحى الفسيحْ

يا نفسُ حُولى كتلةً من شعورْ ۝ وعطِّرى بالحب هذا الأثيرْ
واحيى مع الأحلام حتى النشورْ ۝ دنياك لولا الوهم كانت سعيرْ
ومسكن القصر كسكنى الضريحْ

وهناك قصيدة بعنوان « البدر » يقول فيها :

أيهـا البـدر أنت كأس لجين　　رفعتهـا كف الإله القـدير
ملأتهـا من الشعاع خمـوراً　　أسكرتني بوهجهـا المسحور
فرفعت الصلاة شعـراً شذيًّا　　فتهادى موجات وحي ونـور
وبنات الدّجى يرنّمن حـولي　　أغنيات حملن سر الدهـورِ
فأفاق الفـؤاد رغم جـروح　　ألصقته بالأرض مثـل الأسيرِ

وفيما يلي أبيات من شعره المعبر عن العزة والإباء والطموح وعلوّ الهمة – يقول في إحدى قصائده :

أمدّي بيـاني بوحي جديدْ　　ومدّي يديك لهـذا الشريدْ
فقـد فَرَشَ الناس دَرْبي مُدًى　　وغلّوا يدىً بِدُهم القيـودْ
أنا بلبـلٌ هاض منـه الأسى　　جناحاً طليقاً تخطّى الحـدودْ
فإن الحيـاة بعرفي غنـاء　　غناء يشقّ طريق الخـلودْ

ويقول أيضاً في قصيدة أخرى :

طارديني في غـربتي يارزايا　　واهجمي هجمةً لهـدٍّ قوايا
ففـؤادي لو تعلمين حـديد　　صهرت حسَّه الرهيفَ البلايا
هو أقـوى من الهمـوم وأسمى　　من حقود تجتاح هذى البرايا
فأنا الشاعر الذى علّم الطير　　غنـاء فجَّرْته من حشايـا
جبهتي تنطحُ السماء إبـاء　　همَّتي تأنف الخنى والدنايا

وفي ما يلي بعض شعره القومي ؛ ومنه قوله :

لا تقولوا هزيمة القدس عارٌ　　نَبْوةُ السيف هـذه لو تعونا
جيَّش الغرب ضدّنا كلَّ وغْد　　فغـدت تقحم الذئاب العرينا
أمة العرب لن تموت وفيهـا　　كالحسيني[1] وصحبه المصطفينا
أمة تبتغي الحيـاة ستحيـا　　رغم آناف معشر خائنينـا

ومنه في الحنين :

يـأيهـا الطائر فوق الغمـامْ　　هلا ذكرت الأهل في بلدتكْ ؟

---

(١) القائد الشهيد عبد القادر الحسيني .

فى الواد ، فى صنين ملهى الصبا   أيام تشدو الشعر فى روضتكْ
الأم والأحبــاب فيــه ثَوَوْا   وأنت تجنى الهم فى غــربتكْ
تشكو ومــا من سامع شاعـراً   هيهات تنفى الهم فى شكوتكْ
فالجأ إلى الغابات عنــد المسا   وأْنَس إلى الأزهار فى وحـدتكْ
واذرف دمــوع اليأس فى غربة   كل معانى الشوق فى دمعتكْ
واحمُد لأمــر الله مستسلمــاً   حتى يمنّ الله فى عــودتكْ

إن شاعرنا الكعدى من أكثر شعراء المهجر إنتاجاً ، وإذا كان فى الكثير من شعره ضعف فى الحبكة الشعرية فإن فى روحه كثيراً من الجمال والقوة والحيوية ، وفى وطنيته المخلصة ما يدعو إلى أن نجله ونحبه ونعجب بإخلاصه وصدقه .

ولقد عاد الكعدى إلى لبنان مرّتين : الأولى عام ١٩٦٩ ، وفيها اغتنم الفرصة لطبع ديوانه (الكعديات) ، والثانية فى أواخر آذار / مارس ١٩٧٥ ، للاستشفاء وإجراء عملية جديدة .

صحفيون ادباء فى المهجر

تمهيــد :

هناك طائفة من المهجريين امتهنوا الصحافة ، ومنها الصحافة الأدبية ، وكان لهم فيها شأن نابه وإنتاج قيّم ؛ وهم أحرياء بأن نفرد لهم مكاناً خاصاً من هذا الكتاب ، لئلاّ نغمطهم حقّهم وهم جديرون بالتنويه . ولم نفعل مثل ذلك من قبل لأدباء الصحفيين فى المهجر الشمالى ، لأن أشهرهم هناك أديبان كبيران من أعضاء (الرابطة القلمية) هما : إيليا أبو ماضى ، صاحب جريدة (السمير) ، وعبد المسيح حداد ، صاحب جريدة (السائح) . وقد خصصنا كلاً منهم بدراسة خاصة فى هذا القسم الثانى من الكتاب ، لأن أدبهم كان أبرز من عملهم الصحفى ، وإنما كان عملهم الصحفى مكملاً لعملهم الأدبى .

على أننا نرى من الوفاء وتوخّى الحقيقة أن نشير إلى ثلاثة آخرين من الصحفيين المهجريين الشماليين كان لهم فى الصحافة آثار بارزة ، كما كان لهم أثر كبير فى تغذية الحركة الأدبية فى المهجر الشمالى ، وهم :

١ ، ٢ – نعّوم مكرزل وشقيقه سلّوم

فى ٢٤ تشرين الأول « أكتوبر » ١٩٧١ طلعت علينا جريدة (النهار) البيروتية فى ملحقها الأسبوعى ، حاملة صورة الصفحة الأولى ، وصورة الصفحة الرابعة من عدد جريدة (الهدى) النيويوركية العربية ، الصادر يوم الجمعة ١٧ أيلول « سبتمبر » ١٩٧١ ، وهو العدد ٥١ من السنة الرابعة والسبعين لجريدة (الهدى) وفى تينك الصفحتين (بيان وإيضاح من صاحبة « الهدى » وإدارتها) هذا نصّه :

(الصوت المطبوع الذى كافح من أجل لبنان واستقلاله وكرامته ليكون أمة حرة : الصوت المطبوع الذى كان منارة للبنانيين المهاجرين فى هذه الأمة العظمى ؛ هذا الصوت سيسكت بعد صدور هذا العدد . بعد هذا العدد تتوقف « الهدى » عن الصدور ، كما تتوقف عن الصدور كذلك رفيقتها الصادرة بالإنكليزية : صحيفة « الليبانيز أميركان جورنال ») .

هذا فى الصفحة الأولى ؛ وفى الصفحة الرابعة ، وتحت عنوان (صدى الخطرات) كلمة أخرى كانت كلمة (وداع ، وبيان ، وإيضاح) أيضاً ، تقول :

« الجو فى دار « الهدى » و « الليبانيز أميركان جورنال » وقت إعداد هذه الكلمة ، جوّ مأتم ومناحة : الوجوه واجمة ، الأعصاب متوترة ، الأيدى ترتعش ، والدموع تنهال دون محاولة تستير من العيون . عروسة الصحافة العربية الحسناء وشيختها الجليلة تتوارى عن العيان . . . » .

وفى ملحق النهار ، بين صورة الصفحة الأولى والصفحة الرابعة من « الهدى » و « الليبانيز أميركان جورنال » مقال طويل بقلم الكاتب اللبنانى المعروف فاضل

سعيد عقل ، عنوانه « نعوم مكرزل النمر ، و« الهدى » عرينه الذى يزأر » ، يبكى فيه جريدة (الهدى) ويؤبّنها ، ويرثى فيه عهدها الطويل فى خدمة العربية ولبنان فى ديار المهجر . وفى ذلك المقال الطويل يقول فاضل :

« بكيت عندما تلقيتُ نبأ توقف « الهدى » . . . الهدى التى تموت ماديًّا ، بعد أن صدرت فى اللغة العربية ، فى قلب الولايات المتحدة ، منذ عام ١٨٩٨ مدافعة عن لبنان ، كالقبطان الذى يرفع الراية وينتحر طوعاً ومبتسماً مع سفينته الغارقة » .

ويمضى فاضل سعيد عقل فيدوّن بتفاصيل مشبعة وافية تاريخ حياة جريدة (الهدى) وصاحبها نعوم مكرزل ، وشقيقه سلّوم مكرزل الذى تولىّ قيادة دفّتها بعد وفاة نعّوم ، ثم مارى مكرزل ، ابنة سلّوم ، التى تولّت أمرها بعد وفاة والدها ، برغم جهلها باللغة العربية ، وقادتها فى طريق الحياة عشرين سنة أخرى ، حتى ودّعتها مع العدد (٥١) من السنة الـ (٧٤) من حياة (الهدى) .

* * *

هكذا كان أمر الهدى حتى تاريخ ١٧ أيلول (سبتمبر) ١٩٧١ .

ويجىء شهر حزيران (يونية) ١٩٧٣ ، وبعد أقلّ من سنتين ، وتطلع علينا مجلة (السياحة) البيروتية ، وفى إحدى صفحاتها عناوين بالحروف الكبيرة تقول : (« الهدى » النيويوركية . . . هل تصبح يوماً ركيزة الإعلام اللبنانى والعربى فى التصدى للصهيونية ؟)

وتحت العناوين مقال جاء فيه بعد العناوين مباشرة ، ما يلى :

« احتفلت « الهدى » النيويوركية بذكرى مرور ٧٥ عاماً على إنشائها ، وهى لاتزال تصدر بالعربية والإنكليزية منذ ذلك الوقت ، برغم الصعوبات المادية والمعنوية التى واجهتها »

ويضيف المقال ما يلى :

« وقد أقام أصحاب « الهدى » الحاليون ، وهم من آل أسطفان ، إحدى العائلات اللبنانية العريقة ، حفلة كبيرة بهذه المناسبة . . . إلخ » .

إذًا لم تمت « الهدى » مع العدد (٥١) من السنة الـ (٧٤) ، بل انتقلت من آل مكرزل إلى آل أسطفان ، وازدادت قـوة ونشـاطاً ، حتى لقد أقيمت

حفلتها المشار إليها « فى أكبر قاعة من قاعات الاجتماعات فى فندق « والدورف أستوريا » الشهيرة » . . . وتلقّ أصحابها برقية من الرئيس نيكسون ، فى تلك الحفلة عينها ، يشدّد فيها الرئيس « نيكسون » على أهمية الكلمة المكتوبة وحرية الرأى » – كما يقول مقال مجلة (السياحة) .

أما مؤسس « الهدى » ، نعوم مكرزل ، فقد رأيناه فى حديثنا على أمين الريحانى ، معلّماً فى قرية الفريكة ، يتعلّم أمين الريحانى فى مدرسته . ثم لم نلبث أن رأيناه يغادر الفريكة مهاجراً ، وفى صحبته تلميذه أمين الريحانى . وفى أميركا انصرف نعوم إلى الصحافة ، وهى مغامرة كبيرة يقوم بها مهاجر جاء يبحث عن الرزق . ولكنّ المغامرة كانت ناجحة إلى أبعد حدود النجاح .

وفى عام ١٨٩٨ أنشأ نعوم جريدة (الهدى) وصدر عددها الأول فى ٢٢ شباط (فبراير) من ذلك العام ؛ وكانت فى البداية مجلة شهرية ، وقد صدرت فى مدينة فيلادلفيا . ثم لم يلبث نعوم أن انتقل بها إلى نيويورك ، وحولها إلى جريدة نصف أسبوعية ، ثم إلى جريدة يومية . وكانت أول جريدة عربية يومية صدرت فى أميركا . وقد واكبت (الهدى) تباشير عهد الأدب المهجرى ؛ ورعت أقلام الأدباء الذين خلقوا تلك النهضة الأدبية فى الشمال الأميركى ، وظلّت ترعى الأقلام العربية دون انقطاع .

يقول فاضل سعيد عقل فى مقاله فى (النهار) :

« نعوم وسلوم مكرزل من عائلة لبنانية كريمة المحتد ، طيبة الأرومة ، لها فى الحقل الوطنى مواقف وخدمات تذكرلها دائماً ؛ فمنها الصحافى ، والتاجر ، والوجيه ، ورجل الأعمال ، وسواهم ؛ وكلّهم من رجال الفكر والأريحية . . . نعوم مكرزل فرع باسق من تلك الدوحة العريقة :

أسس « الهدى » ثلاث مرات ؛ الأولى فى فيلادلفيا ، شهرية ؛ والثانية فى نيويورك ، يومية ؛ والثالثة فى نيويورك ، أسبوعية ، فى ١١ تشرين الأول (أكتوبر) ١٩١١ . ثم أسس جمعية « النهضة اللبنانية » . . . كان كاتباً جدلياً هجومياً ، صلب العود ، قوى الحجة . . . جاهد فى « الهدى » و « النهضة » جهاد الأبطال ، فى الولايات المتحدة وأوربا من أجل القضية اللبنانية » .

وأما عن وفاته فيذكر فاضل سعيد عقل أنه قد توفى وهو فى باريس ، التى ذهب إليها مطالباً بإسناد رئاسة الجمهورية اللبنانية إلى أميل إدّه . وكانت وفاته فى آذار (مارس) ١٩٣٢ ؛ « ونقل جثمان نعوم مكرزل إلى نيويورك ؛ ثم عاد فنقل إلى لبنان فى ١٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ١٩٣٤ ، يرافقه شقيقه سلوم مكرزل ، حيث دفن فى مسقط رأسه ، الفريكة » .

* * *

بعد وفاة نعوم مكرزل تولى شقيقه سلوم جريدة « الهدى » وجمعية « النهضة اللبنانية » . وكان كاتباً قديراً وخطيباً لامعاً . وهو أول من أدخل (اللينوتايب) فى الطباعة العربية .

يقول فاضل سعيد عقل إنه قد أسس أيضاً : (صحيفة « بريد أميركا » سنة ١٩٠٧ ، وصحيفة « العالم الجديد » سنة ١٩١٠ ، و « المجلة التجارية » سنة ١٩١٨ ، و « العالم السورى » باللغة الإنكليزية ، سنة ١٩٢٧؛ وأنه قد اشتهر فى « الهدى » بمقالاته الافتتاحية تحت عنوان (الخطرات) ، بينما كان عنوان مقالات نعوم (الخواطر) .

وتوفى سلوم مكرزل عام ١٩٥١ ، فتولّت ابنته مارى زمام « الهدى » ، وأنشأت معها صحيفة أسبوعية باللغة الإنكليزية دعتها (ليبانيز أميركان جورنال) وسارت بالسفينة عشرين سنة ، حتى سلّمتها فى النهاية إلى أسطفان ، كما رأينا سابقاً .

٣ – راجى الظاهر

صاحب جريدة (البيان) ؛ وكان قبل شراء جريدة (البيان) يعمل محرراً فى جريدة (السائح) ، مع صاحبها عبد المسيح حداد ؛ ثم عمل مدة مع إيليا أبى ماضى فى جريدة (السمير) . وبعد ذلك ابتاع جريدة (البيان) ، فى واشنطن ، واستقلّ بإصدارها . ثم نقل إدارتها من واشنطن إلى نيويورك عام ١٩٥٣

وراجى الظاهر من ذوى الأقلام القديرة ، والغيرة المتقدة على قضايا الأمة العربية . وله فى كل عدد من أعداد جريدته الأسبوعية مقالات ومعالجات ومذكرات تدلّ على مقدرته الأدبية ، وامتلاكه ناصية البيان السليم .

فى عام ١٩٥٧ ابتاع راجى الظاهر امتياز جريدة (السائح) من صاحبها عبد المسيح حداد ، بعد أن شاخ عبد المسيح ، وتوفى أخوه سدره، ولم يعد يستطيع وحده النهوض بأعباء العمل الصحفى فى جريدته التى كانت تصدر أسبوعية . فتوقفت (السائح) ، وأصبحت جزءًا من (البيان) . وانضمّ عبد المسيح كذلك إلى أسرة (البيان) ، فكان له فى كل عدد من أعدادها مقال أو أكثر ، حتى وافته المنية عام ١٩٦٣ .

* * *

وفى المهجر الجنوبى نجد طائفة أخرى من الصحفيين الأدباء ، انقطعوا إلى العمل الصحفى ، وجعلوا من صحفهم منابر للأقلام الموهوبة ، وللكلمة المناضلة . ومن هؤلاء :

٤ – موسى كريم

فى شهر كانون الثانى (يناير) عام ١٩٧٢ تألفت فى البرازيل لجنة لتكريم موسى كريّم ، صاحب مجلة (الشرق) التى كانت تصدر فى البرازيل باللغتين : العربية والبرتغالية . ووجهت اللجنة دعوة بتاريخ ٧ كانون الثانى (يناير) ١٩٧٢ إلى أدباء المهجر والبلاد العربية للمشاركة فى تلك الحفلة ، التى أقيمت بعدئذٍ فى مساء يوم الخميس السادس عشر من آذار (مارس) من ذلك العام ، فى بهو النادى الحمصى فى سان باولو . وكانت الدعوة تحمل توقيع (وفاء نسيم نصر) وتوقيع (شاكر الدبس) .

واشترك العديدون من أدباء المهجر والعالم العربى فى تكريم صاحب الشرق ، وابن يبرود (سوريا) البارّ ، والأديب الصحفى المهجرى اللامع موسى كريّم .

وفى شهر تموز (يوليو) عام ١٩٧٤ ، أى بعد سنتين وبضعة أشهر فقط من حفلة التكريم ، صدرت مجلة (الشرق) وعلى صفحتها الأولى الداخلية صورة موسى كريّم فى أحد مواقفه الخطابية ، وإلى جانبه عبارة (مات موسى كريّم ، صاحب هذه المجلة) ، وتحت الصورة اسم المجلة (مجلة الشرق) بحروف سوداء ، كبيرة ؛ وتحته النعى التالى :

(نقوم والألم يحزّ قلوبنا بإعلان خبر وفاة صاحب هذه المجلة ، المرحوم الصحفى موسى كريّم ، وذلك فى الثانى عشر من حزيران المنصرم (يونية) . والجزء القادم سيخصّص كلّه لذكراه) .

إذاً ، لقد انطفأ النور فى عينى موسى كريّم ، ابن يبرود السورية ، المولود ، لا فى الوطن ، بل فى البرازيل ، والمتوفى كذلك فى البرازيل ، والمجاهد فى حقل الصحافة العربية والحرف العربى مدة ثمان وخمسين سنة ، منها سبع وأربعون سنة فى مجلة (الشرق) ، وهى كبرى المجلات العربية وأشهرها فى المهجر الجنوبى ؛ وكانت منذ إنشائها لوناً جديداً فى الصحافة المصوّرة ، ذات الأهداف القومية ، والاجتماعية ، والأدبية ؛ وظلّت منذ البداية تصدر باللغتين : العربية والبرتغالية ، وتعنى بأخبار المجتمع العربى – البرازيلى ، وحفلاته ، وأعياده ، وأعراسه ، وضيوفه ، واحتفالاته الدينية ، وندواته الفكرية .

أما سيرته فقد لخّصتها لجنة تكريمه عام ١٩٧٢ فى النبذة التى وزّعتها مع الدعوات إلى المشاركة فى تكريمه . ونحن نوجزها فى ما يلى :

ولد فى البرازيل ، فى مدينة سان سيمون فى ولاية سان باولو . وأخذه أبواه صغيراً إلى الوطن ، حيث أتقن العربية والفرنسية . ثم عاد إلى البرازيل . وهناك أنشأ أولاً مدرسة خاصة ؛ ثم تولىّ إدارة المدرسة الخيرية المارونية ، ومعهد التجهيز الفرنسى .

ثم هجر التدريس إلى الصحافة والعمل الفكرى ، وكان قد بدأ نشاطه الصحفى فى الخامسة عشرة من عمره فى مجلّة مدرسية أنشأها عام ١٩١٣ ، وعاشت بضع سنين .

وفى سنة ١٩٢٧ أنشأ مجلته (الشرق) ، وجعل منها ميداناً لأقلام الأدباء

والشعراء ؛ وكانت سبّاقة إلى احتضان النهضة الأدبية فى المهجر الجنوبى . وهى مجلة كبيرة ، أنيقة الإخراج ، صقيلة الورق ، جميلة الصور والطباعة .

وقام موسى كريم برحلات عديدة إلى بلاد الشرق العربى ، درس فيها أوضاعها ، ونشر عنها وثائق تاريخية بالعربية والبرتغالية . وقد نال من عدد من الدول العربية أوسمة رفيعة تقديراً لجهوده وجهاده فى سبيل القضايا العربية ؛ كما نال أوسمة أخرى رفيعة من عدد من المؤسسات والحكومات ؛ ومنها دولة الفاتيكان ، والحكومة اللبنانية ، والحكومة السورية ، والحكومة المصرية ، والحكومة البرازيلية التى منحته عدداً من الأوسمة فى أزمنة مختلفة .

أما مؤلفاته وأعماله الأدبية فمنها باللغة العربية : (نابوليون بونابرت ؛ تأثيرات سياحية ؛ عشيقات الإمبراطور ؛ حقائق وعبر ؛ النزلاء الشرقيون فى البرازيل) .

ومنها بالبرتغالية : (قصائد جبران ؛ فلسفة جبران ؛ راجى الراعى ؛ تاريخ لبنان ؛ مسيحيون ومسلمون ؛ شرائع البادية ؛ تاريخ لبنان ؛ خلفاء بغداد ؛ ذكرى الأمير أمين أرسلان ؛ حدث فى دمشق ؛ شعراء وخلفاء ؛ سوريا ولبنان وفلسطين ؛ المملكة العربية السعودية).

وترجم إلى البرتغالية : (سير الخلفاء الراشدين ؛ أشياء من نتاج المتنبى ، والمعرّى ، وأبى نواس ، وعمر بن أبى ربيعة ؛ مقدمة ابن خلدون ؛ رحلة ابن بطوطة ؛ دراسة داتى ورسالة الغفران ؛ ملحمة « عبقر » لشفيق معلوف) .

ولقد كانت مجلّته حريصة على أن تقدّم كلّ عون وتشجيع للأدب المهجرى ، فكان موسى كريّم يُصدر فى منشوراتها بعض الكتب والدواوين الشعرية . وأذكر من منشوراتها مجموعة (أحلام الراعى) الشعرية ، لإلياس فرحات . وقد صدر عام ١٩٥٢ ، ووزّع هدية على قراء المجلّة ، وقدّم له الناشر موسى كريّم .

لقد كان موسى كريّم ، كما قال عبد الله يوركى حلاّق ، صاحب مجلة (الضاد) الحلبية فى نعيّه : « مجموعة طاقات عجيبة ، وقوى مبدعة خلاّقة » .[١] وكانت كلمته ، كما قال فيها جورج صيدح فى كتابه (أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية) : « كلمة العروبة تتردّد فى جميع كتبه ، عربية كانت أم برتغالية » .

---

(١) مجلة (الضاد) العدد ٧ و ٨ – ١٩٧٤

٥ – السيدة مريانا دعبول فاخورى

ظهرت السيدة مريانا دعبول فاخورى بين اللامعين من الصحفيين المهجريين فى المهجر الجنوبى عن طريق مجلّتها (المراحل) التى أنشأتها سنة ١٩٥٥ على غرار مجلة (الشرق) ، لموسى كريّم ، وبمثل اتجاهاتها الاجتماعية المصورة ، وورقها ؛ وباللغتين العربية والبرتغالية اللتين تصدر بهما (الشرق) . وقبل مجلة (المراحّل) لم يصل اسم مريانا إلى الشرق ، ولعلّه كان مغموراً كذلك فى المهجر .

لقد سبق أن أشرت إليها فى فصل (العنصر النسائى وإسهامه فى الأدب المهجرى) من هذا الكتاب ؛ ولكننى لم أفعل هناك أكثر من أننى جئت بنموذج من أدبها . ولكننى ههنا أقدّم شيئاً من سيرة حياتها ، كما تلقيتُ ذلك منها شخصياً ، مع رسالة تحمل تاريخ ١٢ / ٧ / ١٩٧٣ ، وكانت قد عادت حديثاً إلى البرازيل من جولة فى البلدان العربية ، زارت فيها الأزدن ، والتقت بالعديد من أدبائه ورجال السياسة فيه .

ولدت مريانا عام ١٩٠١ فى (كبّا) ، من قضاء البترون ، فى لبنان . ودرست فى مدرسة الضيعة ، ثم فى المدرسة اليسوعية فى البترون ، وفى مدرسة الأميركان فى طرابلس . وهى تجيد البرتغالية والإسبانية والإنكليزية .

وقد هاجرت عام ١٩٢٤ إلى كوبا . ثم عادت إلى لبنان عام ١٩٢٩ ، وعملت مدرّسة فى مدرسة قريتها . وبعد سنة واحدة هاجرت من جديد إلى الأرجنتين . وراحت تعمل مدرّسة فى المدرسة السورية اللبنانية ، وفى بعض البيوت . وهناك شرعت تنشر بعض كتاباتها فى مجلة (الإصلاح) التى كان يصدرها فى الأرجنتين الطبيب الشاعر العربى جورج صوايا .

فى سنة ١٩٣٨ اشتركت مع زوجها إلياس فاخورى فى تمثيل رواية (سوريا الثائرة) للشاعر المهجرى جورج عساف .

وانتقلت مع أسرتها إلى البرازيل عام ١٩٤٠ ، وكان زوجها قد سبقها إلى هناك . وأقامت الأسرة فى سان باولو .

فى شهر تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٥٥ صدر العدد الأول من مجلتها (المراحل) . وهى الآن المجلة العربية المهجرية الوحيدة التى تصدرها امرأة . وعن طريق (المراحل) انتشر اسم السيدة مريانا دعبول .

كانت ظهور (المراحل) على أثر غياب مجلة (العصبة) التى كانت تصدرها العصبة الأندلسية فى البرازيل . فانتقل رئيس تحرير (العصبة) الأديب المهجرى المعروف حبيب مسعود للعمل رئيس تحرير للمراحل . وانتقلت أقلام الباقين من أدباء العصبة الأندلسية للكتابة فى المراحل ، إلى جانب مجلة الشرق . وهكذا استطاعت مريانا أن تجمع حولها طائفة من ذوى الأقلام المعروفة فى المهجر .

ولقد راحت مريانا تحاول المستحيل لكى تجمع بين (المراحل) و (الشرق) فى مجلة واحدة ، أو فى جهد مشترك بينها وبين موسى كريّم ؛ ولكنّ موسى رفض كلّ محاولاتها ؛ ممّا أدّى إلى قيام منافسة حامية بين المجلّتين ، وقد ظهر أثر ذلك فى المقال الذى رثت فيه مريانا دعبول صاحب الشرق بعد وفاته ، فى العدد (٢١٥) من مجلة المراحل ، الصادر فى شهر تموز (يوليو) سنة ١٩٧٤ ، تحت عنوان (مات موسى كريم) ، إذ قالت كاشفة عمّا كان فى نفسها من ضغن عليه فى حياته :

« . . . وكم تمنيت لو أنه كان بالإمكان الوصول إلى تفاهم بيننا ، يوحّد قوّتنا الصحافية فى نظر المحيط البرازيلى ، وفى نظر أبناء قومنا ، فنتقاسم المسؤولية دون أن يكون بيننا من أسباب التفرقة التى تربى الحزازات النفسية » .

ثم تضيف قائلة :

« لا أريد أن أنتقد أخلاق الرجل الكبير من وراء هذا التلميح ؛ فللرجل نزعته الخاصة ، وخطّته التى رسمها لنفسه ولم يشأ أن يتساهل بها ، ولو فعل لأضاف إلى مجده مجداً كبيراً » .

والحقيقة أن موسى كريّم ما كان ليضيف إلى مجده شيئاً لو أنه تعاون مع السيدة مريانا ، ولكنه كان سيضيف أمجاداً عريضة إليها هى ، لا إليه ؛ فمجلّتها هى تقليد لمجلّته ؛ وهو ذو مجد أدبى عريض ، ليس لها شيء منه . ومجلّته وجدت قبل مجلّتها بأكثر من ربع قرن ؛ ولم يكن فى حاجة إلى معونة من أحد ؛ ولكنّ مريانا كانت فى حاجة إلى اسمه وشهرته ومجده ، لتدعم بذلك كلّه مجلّتها .

هذه حقيقة لا بدّ من الاعتراف بها ، بعد أن كشفتها السيدة مريانا نفسها فى رثائها لخصمها صاحب (الشرق) .

على أن هناك حقيقة أخرى تستحق أيضاً أن تُذكر ، وفيها فضل للسيدة مريانا : ذلك أنها هى التى كانت وراء إنشاء (جامعة القلم) فى البرازيل عام ١٩٦٤ ، لتحلّ محل (العصبة الأندلسية) التى ماتت فى منتصف الخمسينات . ولا تزال مريانا ترعى هذه الجامعة الأدبية ، وتفتح صفحات مجلتها (المراحل) لأقلام أصحابها ولأخبارها .

٦ — يوسف صارمى

أما يوسف صارمى فهو أديب وشاعر ، ولد فى قرية « كفر جوايا — اللاذقية » سنة ١٨٩٧ ، وهاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٣٠ . وقد أصدر مجلته « المواهب » سنة ١٩٤٥ فى مدينة توكومان أولا ، ثم انتقل بها إلى بوينس أيرس عام ١٩٤٨ وظلّت تصدر شهرية حتى عام ١٩٦٥ ، حين غادر الصارمى الأرجنتين عائداً إلى سوريا .

ولعل من أهم ما يجدر التنويه به ههنا أن يوسف صارمى لم يقطع صلة أسرته وأبنائه المولودين فى المهجر بلغتهم العربية ، بل جعل من نفسه معلماً لهم ، حتى جعلهم يتقنون لغة قومهم كما لو كانوا متخرجين فى مدارس الوطن العربى . وجعل من « المواهب » منبراً للأقلام العربية القديرة ، ومحامياً عن قضايا الحرية فى البلاد العربية . وهو جدير بالتنويه لأدبه وفضله ، وصدق وطنيته .

وفى ما يلى أبيات من شعر الصارمى ، وقد جعل عنوانها « حنين مهاجر » :

نشقت أريجاً هبّ من جانب الحمى ... فقلت ، وقلبي للحمى شدّ ما يصبو :
سلامٌ عليها نفحة عربيّة ... إذا ما نشقنا عطرها انتعش القلبُ
تُذكّرُ أوطاناً ، وتحيي دوارساً ... من الأمل الذاوى ، فيستروح الصبُّ
وهل لغريب غير ذكرى بلاده ... ملاذٌ إذا ما طال أو قُطع الدربُ

ومنه أيضاً قصيدة قالها فى حفلة استقبال الشاعر الوزير عمر أبى ريشة فى الأرجنتين عام ١٩٥٣ ؛ وقد تطرق فيها إلى البلاد العربية وكارثة فلسطين ، فقال يخاطب أبا ريشه :

أىْ فتى العرب ، يا رسول بلادى　　وبلادى هى المـنى والسُّولُ
أيَؤولُ المجـدُ المضيَّعُ فى القـدس ، أم المجد غاله الدهرَ غولُ ؟
أتـضم البـلادَ رايتُهـا الكبرى وشيكاً أم ذاك أمرٌ يطـولُ ؟
أتظل اليهـود عبئـاً ثقيـلا　　أم لهـا يومُها الأحمُّ الوبيـلُ ؟

ثم يتساءل فيها كيف ارتضى حكام البلاد العربية حمل العار ، بسكوتهم عن استباحة اليهود لفلسطين ، فيقول :

كيف قرّت على الهوان ، وما أبـناء قحطان للهـوان سليلُ
واطمأنت إلى المناصب ، والعزّ　　طعينٌ بصـدره وقتيـلُ ؟
ومئات الألوف من أسَر الشعـب جياع ، مشردون ، فلولُ ؟ !

وقد عاد الصارمى إلى دمشق عام ١٩٦٥ ، ولا يزال يقيم فيها إلى الآن .

٧ – عبد اللطيف الخشن

وأما عبد اللطيف الخشن ، صاحب « العلم العربى » فلا يقل عن يوسف صارمى حفاظاً وغيرة على العروبة وحقها فى الحرية والكرامة . وقد جعل من جريدته مسرحاً للأقلام الحرة ، تصول فيها وتجول دفاعاً عن قضايا الأمة العربية . وحظ السياسة من جريدته أوفر كثيراً من حظ الأدب ، ولكنها لا تخلو أحياناً من الشعر والأبحاث الأدبية .

والخشن شاعر وناثر ، جزل العبارة ، فخم الصياغة . وله شعر كثير منشور فى جريدته وغيرها . ومن شعره قوله فى وصف البخيل :

يسبِّح للريـال إذا رآه　　ويسجـد فى الصباحَ وفى المساء
يبيـع لأجله عيسى وموسى　　وأحمد ، بل جميع الأنبيـاء

إذا طالبتَــه يومــاً بفلس لمنكوب ، أُصيب بألف داءِ
وإن وافيتــه ظمآن يومــاً لتشرب ، لم يُغثك بكأس ماءِ

وله قصائد عديدة فى كارثة فلسطين ، وفى اللاجئين الفلسطينيين ، تفيض كلها بالألم والنقمة والثورة العصوف .

وقد ولد عبد اللطيف فى قرية سحمر فى البقاع « لبنان » ، وهاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٢٤ . وفى عام ١٩٣٤ أصدر جريدته « العلم العربى » .

وفى عام ١٩٥٨ غادر الأرجنتين فى جولة استطلاعية فى الأقطار العربية ، فزار أكثرها رغبة فى الوقوف على أحوالها ، والتعرف إلى أهلها وقادتها ، ودراسة أوضاعها عن كثب . وقد استغرقت جولته هذه شهوراً ، فزار فيها مصر ، وسوريا ، ولبنان ، والأردن ، والسعودية ، وغيرها .

* * *

كلمة أخيرة

عرف القارئ من هذه الفصول أسماء العديد من الصحف والمجلات العربية التى ظهرت فى المهجرين ، الشمالى والجنوبى ؛ وكان منهـا فى الشمال : الهدى : والسمير ، والسائح ، والبيان ، والفنون ؛ وفى الجنوب : العصبة ، والشرق ، والمراحل ، والمواهب ، والقلم العربى ، والكرمة ، والأندلس الجديدة . وعرف أسماء أصحاب هذه الجرائد والمجلات ، وبينهم عدد من أعظم شعراء المهجر .

وطبيعى أن هذه لم تكن كلّ صحف المهجر ، فقد ظهرت هنـاك صحف أخرى عديدة ، بعضها اختفى منذ زمان ، وبعضها ما يزال يعيش إلى اليوم فى مختلف ديار الهجرة . ولهذه الصحف كلها فضل عظيم على بقاء الكلمة العربية حية إلى اليوم فى تلك الديار البعيدة ، كما كان لها كلّ الفضل فى نهضة الأدب المهجرى فى إبّان زهوته وإشراقه . ولولا تلك الصحف ما عرفنا الأدب

المهجرى ، ولا كان له هذه المكانة التى احتلّها من تاريخ أدبنا العربى المعاصر .

ومن المؤلم حقًّا أن هذه الصحف تتوارى تباعاً ، وتتضاءل أعداد القراء العرب فى الأميركتين ، لأن أبناء المهاجرين الأوائل قد ابتعدوا كثيراً عن لغة الآباء ، وأصبحوا يقرءون ويكتبون بلغات البلدان التى ولدوا ونشـأوا فيها . وهذا طبيعى جدًّا ، ولكنه كذلك يبعث على أشدّ الأسف .

فى العدد (١٠٣٧) من جريدة (حمص) الصادر بتاريخ ١٩٧١/١/١٢ كتب الصديق الأديب السورى عيسى فتوح كلمة تحت عنوان « احتضار الصحافة العربية فى المهجر » ، نعى فيها جريدة (السلام) العربية الأرجنتينية ، التى كان يصدرها فى بوينس آيرس وديع شمعون ، والتى عاشت أكثر من سبعين سنة ، وكانت أقدم جريدة عربية أميركية بعد (الهدى) النيويوركية ، إذ أنشئت عام ١٩٠٢ .

وليس موت (السلام) أمراً عجيباً ، فهى واحدة من عشرات الصحف والمجلات المهجرية التى غالتها يد الموت ، وغالت معها القسم الأكبر من أصحابها . ونحن نعلم أن الأدب المهجرى عامة قد أصبح جزءًا من تاريخه ، وأن المهاجرين العرب قد انصرفوا عن مؤازرة الصحافة العربية والإقبال عليها .

ولقد عرفنا أن جريدة (الهدى) كانت من قبل تبيع أكثر من ثلاثين ألف نسخة ، ثم تقلّص العدد فى الأعوام التى سبقت بيعها إلى آل الخازن أقل من خمسة آلاف نسخة ، ممّا لم يعد يسمح باستمرارها ، فاضطرت صاحبتها مارى مكرزل إلى إعلان وفاتها عام ١٩٧١ ؛ ثم علمنا أنها باعتها إلى آخرين .

سنة الطبيعة تأتى على كلّ حى . وقد أتت على الصحافة العربية فى المهجر ، والأدب العربى المهجرى عامة ، لولا بقايا من الأقلام التى شاخت وما تزال تناضل بفتور ووهن ؛ مدّ الله فى حياتهم .

من الكتب والدراسات التى عنيت بالأدب المهجرى[١]

١ – الدراسات العامة

١ – الناطقون بالضاد فى أمريكا – ترجمة البدوى الملثم مع تعليقات وحواشى
٢ – ذكرى الهجرة – لتوفيق ضعون
٣ – الشعر العربى فى المهجر الأمريكى – لوديع ديب
٤ – الشعر العربى فى المهجر – لمحمد عبد الغنى حسن
٥ – شعراء الرابطة القلمية – لنادرة سراج
٦ – أدبنا وأدباؤنا فى المهاجر الأميركية – لجورج صيدح
٧ – الناطقون بالضاد فى أمريكا الجنوبية – (جزءان) للبدوى الملثم
٨ – التجديد فى شعر المهجر – لمحمد مصطفى هدارة
٩ – الشعر العربى فى المهجر – لإحسان عباس ومحمد نجم
١٠ – النثر المهجرى (جزءان) – الدكتور عبد الكريم الأشتر
١١ – العروبة فى شعر المهجر – لفريد جحا
١٢ – الحنين واللقاء فى شعر المهجر – لفريد جحا
١٣ – الأدب العربى فى المهجر (مجلة القلم الجديد) عدد خاص – ١٩٥٣
١٤ – أدب المغتربين – إلياس قنصل
١٥ – المغتربون – لعبد اللطيف اليونس – (عدد مزدوج فى مجلة العرفان فى صيدا – ١٩٦٤)
١٦ – القومية والإنسانية فى شعر المهجر – لعزيزه مريدن
١٧ – الأدب العربى فى المهجر – حسن جاد حسن

---

(١) يجب أن أعترف بأن الكتب التى ظهرت حتى الآن فى الأدب المهجرى ، ومنها الرسائل الجامعية للماجستير والدكتوراة ، قد أصبحت من الكثرة والتنوّع بحيث لم يعد ممكناً تقصيها برمتها . وإنما أشير فى هذه الصفحات إلى ما أعرفه منها ، معتذراً عن جهلى بالبقية .

١٨ – عنادل مهاجرة – لعمر دقّاق
١٩ – أدب المغتربين – لإلياس قنصل
٢٠ – قصة الأدب المهجرى – جزءان – لعبد المنعم خفاجى

عدا مقالات متفرقة فى بعض صحف الوطن العربى والمهجر ، وفصول فى بعض الكتب الأخرى ، ومنها الكتب التالية :

١ – الاتجاهات الأدبية فى العالم العربى – لأنيس المقدسى .
٢ – مقدمة كتاب – توفيق الحكيم – لإسماعيل أدهم .
٣ – الشعر المعاصر على ضوء النقد الحديث – لمصطفى السحرتى .
٤ – رائد الشعر الحديث – لمحمد عبد المنعم خفاجى .
٥ – مهمة فى قارة – لأكرم زعيتر .

٢ – الدراسات الخاصة

١ – عن جبران :

١ – محاولات فى درس جبران – لأمين خالد .
٢ – حياة جبران – لميخائيل نعيمه . .
٣ – جبران حيًّا وميتاً – لحبيب مسعود .
٤ – جبران خليل جبران – للأب إلياس زغبى – (المطران إلياس زغبى) .
٥ – رسالة المنبر – لفيلكس فارس .
٦ – مقدمة مجموعة مؤلفات جبران – لميخائيل نعيمه .
٧ – جبران – لجميل جبر .
٨ – ذكرياتى مع جبران – ليوسف الحويك .
٩ – هذا الرجل اللبنانى (بالإنكليزية) – لبربارة يونغ .
١٠ – جبران خليل جبران – لعادل الغضبان (فى كتاب عصاميون عظماء) .
١١ – الشابى وجبران – لخليفة محمد التليسى .
١٢ – أضواء جديدة على جبران – لتوفيق صائغ .

٢ – عن الريحانى :

١ – أمين الريحانى – لجميل جبر
٢ – أمين الريحانى – لمارون عبود – (فى سلسلة اقرأ)

٣ – عن فوزى المعلوف :

١ – ذكرى فوزى – لمجلة الضاد الحلبية
٢ – فوزى المعلوف – للأب جبرائيل أبى سعدى
٣ – شاعر الطيارة فوزى المعلوف – للبدوى الملثم
٤ – الذكرى – (جمعه أخوه شفيق المعلوف)
٥ – فوزى المعلوف – صموئيل عبد الشهيد

٤ – زكى قنصل :

زكى قنصل – لعبد اللطيف اليونس .

٥ – عن إيليا أبى ماضى :

١ – إيليا أبو ماضى – لنجدت فتحى صفوت .
٢ – مقدمة كتاب (إيليا أبو ماضى) – لزهير ميرزا – دار اليقظة – دمشق .
٣ – إيليا أبو ماضى ، رسول الشعر العربى الحديث – لعيسى الناعورى – الطبعة الأولى سنة ١٩٥١ ، والطبعة الثانية فى منشورات عويدات بلبنان سنة ١٩٥٨ .

بين شاعرين مجددين : أبو ماضى وعلى محمود طه ، – لعبد المجيد عابدين .
٥ – إيليا ضاهر أبو ماضى – لفؤاد يس – ١٩٦٣ .
٦ – إيليا أبو ماضى (فى سلسلة« شعراؤنا ») بيروت .

(هذا عدا مقالات عديدة متفرقة فى صحف الوطن العربى والمهجر ، وفصول فى بعض الكتب) .

٦ – عن فرحات :

١ – إلياس فرحات شاعر العروبة فى المهجر – لعيسى الناعورى .
٢ – إلياس فرحات – حياته وشعره – سمير القطامى .
٣ – إلياس فرحات (دراسة باللغة الإيطالية) للمستعرب الإيطالى مارتينو – مورينو .

٧ – جورج صيدح :

دراسة باللغة الإيطالية للمستعرب الإيطالى مارتينو مورينو .

٨ – عن شفيق معلوف :

١ – دراسة بالإيطالية للمستعرب الإيطالى مارتينو مورينو .
٢ – شاعر عبقر – لعبد اللطيف اليونس .

٩ – الشاعر القروى :

١ – دراسة بالإيطالية للمستعرب الإيطالى مارتينو مورينو .
٢ – القروى – لعمر دقاق .

١٠ – ميخائيل نعيمه :

١ – الأديب الصوفى – لثريا ملحس .
٢ – بين قارئيه وعارفيه – لكعدى فرهود كعدى .

المشتمل

صفحة

القسم الثانى

أعلام الأدب المهجرى

صفحة

صفحة

صفحة

رقم الإيداع	١٩٧٧/١٩٨٣
الترقيم الدولى	٤ – ٦٣٨ – ٢٤٦ – ٩٧٧ ISBN

١/٧٦/٥٠٠ مطابع دار المعارف – ١٩٧٧